

هداية المنان في مراد سور القرآن

بقلم

أواب عبد الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

1.....	المقدمة
31.....	التمهيد
68.....	سورة الفاتحة
114.....	سورة البقرة
294.....	سورة آل عمران
447.....	سورة النساء
634.....	سورة المائدة
803.....	سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً أنزله بعلمه وحكمته ورحمته وجعله فرقاناً بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام وبين الإسلام والجاهلية وبين الإيمان والكفر وبين التحاكم إلى الله والتحاكم إلى الطاغوت وجعله هدىً للعالمين عموماً ﴿الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وهدىً للمتقين خصوصاً ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وجعله دليل الهداية إلى صراطه المستقيم ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وجعله منهجاً قويمًا لأمة الإسلام ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ من كان خلقه القرآن ووصيته القرآن وميراثه القرآن القائل ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽¹⁾ أمرنا ربنا سبحانه وتعالى باتباع النور الذي أنزل معه فقال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أما بعد: هداية المنان سبحانه وتعالى إلى هذا البحث من بحوث القرآن الكريم (هداية المنان في مراد سور القرآن) بفضلته وإحسانه وتوفيقه وكرمه لا لشيء إلا لأنه سبحانه وتعالى واسع عليم ذو فضل عظيم يده سحاء الليل والنهار ينفق كيف يشاء ولا تغيضه نفقة فأعطى وذكّر وألهم وسدّد وأعان وفهم وبصر وشرح فيسر ليسرى وحده لا شريك له كل فائدة يجدها قارئ وينتفع بها منتفع فهي من محض فضله ورحمته أما كل سوء أو تقصير وإفراط أو تفريط فمن نفسي والشيطان والله عز وجل منه براء وأسئله سبحانه وتعالى العفو والصفح عن ذلك وألا يكون متعمداً معاذ الله لتأويل كتاب الله عز وجل بالرأي المذموم

(1) أخرجه البخاري (5027/9).

أو التكلف فيه أو التعسف ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ ونبراً من حولنا وقوتنا إلى حول الله وقوته

قد أفادنا في هذا المشروع القرآني من أفكار كثيرة ومنها أطروحات ألقاها المهندس القرآني والرجل الرباني/ محمد سعد تاج الدين الذي حاورنا في فترات الجامعة وما بعدها حول كثير من هذه المحاور، وإن اتفقنا في نقاط واختلفنا في نقاط فرأينا ان نثبت له هنا فضل السبق ونبل الريادة فجزاه الله هنا خير الجزاء.

ثم أما بعد:

أهل القرآن والدرجات العلى:

في الحديث الشريف "أهل القرآن هم أهل الله وخاصته"⁽¹⁾ فهذا القرآن الكريم سبب القرب والزلقى من الله ونيل الدرجات العلى عنده سبحانه وتعالى فعندما أراد الله عز وجل تكريم نبيه ﷺ إلى أعلى الدرجات يوم القيامة وهو المقام المحمود أرشده سبحانه وتعالى لعبادة معينة لنيل هذه الدرجة الرفيعة ألا وهي عبادة التهجد في جوف الليل بالقرآن الكريم ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: 79]، هذا القرآن الكريم هو سبب رفعة الأمة فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»⁽²⁾، كما أن القرآن الكريم لا يرضى لصاحبه وأهله في الآخرة إلا الدرجات العلى ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقام به آناء الليل والنهار يحل حلاله ويحرم حرامه خلطه الله بلحمه ودمه وجعله رفيق السفرة الكرام البررة وإذا كان يوم القيامة كان القرآن له حجيجاً فقال القرآن:

(1) أخرجه أحمد في "المسند" (10/409/12219) و(11/208/13476)

(2) أخرجه مسلم (817).

يا رب كل عامل يعمل في الدنيا يأخذ بعمله من الدنيا إلا فلاناً كان يقوم في آناء الليل وأطراف النهار فيحل حلالي ويحرم حرامي يقول: يا رب فأعطه، فيتوجه الله تاج الملوك ويكسوه من حُله الكرامة ثم يقول: هل رضيت؟ فيقول: يا رب أرغب له في أفضل من هذا، فيعطيه الله الملك بيمينه والخلد بشماله ثم يقول: هل رضيت؟ فيقول نعم يا رب»⁽¹⁾.

من هم أهل القرآن؟

• من الذي يستحق هذه الدرجات العُلى والمنازل الرفيعة؟ من هو حامل القرآن الحقيقي؟ ومن هم أهله بحق؟ عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»⁽²⁾. إن هذا الحديث الشريف أجاب عن تساؤل من هم أهل القرآن المستحقين الدرجات العُلى وهم: "الذين يعملون بالقرآن في الدنيا" وهذا ما شرحه د. فريد الأنصاري فقال رحمه الله: "إن المستظهر لسورة البقرة إذا لم يسلم وجهه لله في كل شيء ولم يسلك بها إلى ربه متحققاً بأركان الإسلام وأصول الإيمان صابراً في البأساء والضراء متزهاً عن المحرمات في المطعومات والمشروبات متحققاً بخلق السمع والطاعة لله على كل حال من غير تردد ولا استدراك لا يكون حافظاً لسورة البقرة.

- إن الذي لا تلتهب مشاعره بأشواق التهجد لا يكون من أهل سورة المزمل.
- إن الذي لا تحترق نفسه بجمر الدعوة بالمعروف والنهي عن المنكر ليس من المتحققين بسورة المدثر.

(1) انظر: سنن أبي داود 2 / 70 رقم 1453

(2) أخرجه مسلم (805)

- إن الذي لا يكابد منزلة الإخلاص ولا يجاهد نفسه على حصنها المنيع ولا يتخلق بمقام توحيد الله في كل شيء رغباً ورهباً لا يمكن أن يعتبر حافظاً لسورة الإخلاص⁽¹⁾.

واجبنا نحو القرآن العظيم:

- وهل واجبنا نحو القرآن تلاوته فقط؟ أو الانشغال بحفظه ومراجعته فحسب؟ إن غالبية الأمة انشغلت بتلاوة حروفه وحفظ كلماته وأهملت التعامل الصحيح المطلوب منا نحو القرآن العظيم - إلا من رحم ربي - ومن هنا كان علينا النظر نظرة متكاملة لواجباتنا نحو القرآن العظيم وهي عشر واجبات كاملة :

1- تلاوته وطول المكث معه: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾
[العنكبوت: 45].

2- تدبره: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص:
[29].

3- تعلمه: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾
[آل عمران: 164].

4- فهمه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.
[الفرقان: 73]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: 57].

5- حفظه: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: 49].

6- التداوي به: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:
[82] فهو شفاء من الأسقام البدنية والأسقام القلبية.

7- العمل بأوامره واجتناب نواهيه والتخلق به: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170]، يُمَسِّكُونَ: أي يتمسكون به علماً وعملاً، (كان خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- القرآن)⁽¹⁾.

8- الدعوة إليه: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: 122].

9- التحاكم إليه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 48].

10- الجهاد لتطبيقه وإقامته في كل الأرض: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39].

** هذه الواجبات العشر تمثل واجبنا الحقيقي نحو القرآن الكريم وأي تقصير فيها قد يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30] وهجر القرآن أنواع كما ذكر ابن القيم رحمه الله وهي:

- 1- هجر الإيمان به وسماعه والإصغاء إليه.
- 2- هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وأمن به.
- 3- هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.
- 4- هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.
- 5- هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

(1) عن يزيد بن بابنوس عن عائشة رضي الله عنهما

** إن علينا أن نعيد الاتصال الحقيقي مرة أخرى بكتاب الله فهو يعتبر الطريق للقيام بهذه الواجبات الكاملة نحو القرآن الكريم بإذن الله ومن المعينات على هذا الاتصال الحقيقي بالقرآن:

1- الافتقار إلى الله عز وجل والاحتياج لفضله سبحانه وتعالى والإلحاح عليه أن يتكرم علينا ويمحننا من أنوار القرآن وهداياته وشفاءه ورحمته ﴿آياتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7].

2- اختيار أفضل الأوقات التي بها صفاء ذهني من النهار والهدوء من الليل لقوله تعالى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 6] أي أشد رسوخاً وأثبت قراءة لحضور القلب فيها.

3- التلاوة بتأن وتمهل وترتيل: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

** ولكن كيف أصبح حال الأمة الآن؟ الحقيقة أننا أصابتنا العُجمة وصرنا كالأعاجم في التعامل مع كتاب الله لا نفهمه رغم تلاوته ليل نهار ولا نتغير ونتخلق به رغم حفظ الملايين من المسلمين له وأصبحت أمتنا في ذيل الأمم!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الحلقة المفقودة.. القرآن عربي ولا نعربه:

• القرآن الكريم نزل باللغة العربية لأنها أفصح اللغات وأبينها لذلك فالقرآن واضح اللفظ والمعنى ليفهم ويعرف المراد من كلماته الواضحة والبيّنة قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] إذن لكي ينتفع به المؤمنون لابد أن يعقلوه ويفهموه، وكلمة (الإعراب) معناها في اللغة: الإبانة، وكلمة (يُعرَب) أي: يُبين ويُفهم والمطلوب منا أن نُعرَب آيات القرآن أي: أن نفهمها ونعقلها، ففي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ولم يعربه أوكل الله به ملكاً يكتب له

بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها»⁽¹⁾. وفي رواية "من قرأ القرآن وأعربته أو كل به ملكين يكتبان بكل حرف عشرين حسنة والحسنة بعشر أمثالها"⁽²⁾. أي أن ثواب إعراب آيات القرآن أي فهمها عشرين ضعفًا من التلاوة بغير فهم والله يضاعف لمن يشاء هذا لمن يبحث بسرعة التلاوة عن الأجر من الحسنات، فأجر التلاوة بفهم ثوابه مضاعف عن مجرد التلاوة بدون فهم فما بالناس ممن يبحث عن التغيير المنشود وعن المنازل الرفيعة والدرجات العُلى وعن رفعة الأمة وعودتها لقيادة البشرية بالإسلام فلا سبيل لهذا المراد العظيم إلا بالعمل بالقرآن، وبوابة العمل هي التدبر والفهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 75] والمتوسمين هم: المتأملين أصحاب الفراسة أي أنه لا ينتفع بالآيات إلا أصحاب التفكير والاعتبار والفهم والتدبر.

التدبر بداية العمل بالقرآن:

- قال الحسن بن علي رضي الله عنه: "اقرأ القرآن ما فهمك فإذا لم ينهك فليست تقرؤه"⁽³⁾, إذن التدبر ليس هدفًا في ذاته ولكن التدبر هو وسيلة العمل بالقرآن والتخلق به.
- وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: "أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفًا وقد أسقط العمل به"⁽⁴⁾.
- ويقول الحسن البصري رحمه الله: "والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى أن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل"⁽¹⁾.

(1) عن عبد الله بن عمر، فضائل القرآن وتلاوته، 99 / 110.

(2) أخرجه ابن السني (565/1) والحاوي (564/1).

(3) فضائل القرآن لأبي عبيد ص 134.

(4) إحياء علوم الدين 426/1.

- وقال ابن القيم رحمه الله حول المقصود من نزول القرآن الكريم: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع فيه الفكر على معاني آياته فالله عز وجل أنزله لنقرأه تدبراً وتأملاً تبصراً ونسعد به تذكراً ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته وطريقه الموصلة لسالكها إليه ونوره المبين الذي أشرفت له الظلمات ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب وبابه الأعظم الذي منه الدخول فلا يغلق إذا غلقت الأبواب وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء والتزل الكريم الذي لا يشيع منه العلماء لا تفنى عجائبه ولا تفلح سحائبه ولا تنقضي آياته ولا تختلف دلالاته كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً زادها هداية وتبصيراً"⁽²⁾.

التلقي للتنفيذ هو الفارق بين الجيل القرآني الفريد وبين

الأجيال المتلاحقة

- وقال أبو عبد الرحمن السلمي "حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما من صحابة النبي ﷺ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا العلم والعمل جميعاً"⁽³⁾.
- ويقول عبد الله بن عمر: "كنا صدر هذه الأمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك ورزقوا العمل به، وإن

(1) تفسير ابن كثير.

(2) تهذيب مدارج السالكين - ابن القيم ص 13 .

(3) منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم لبدر ناصر ص 104.

آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعمى فلا يعملون به"⁽¹⁾، ولقد أخبرهم الرسول ﷺ بذلك حين قال: «يخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشرهم اللبن»⁽²⁾.

• وقد وصف الشيخ سيد قطب رحمه الله العوامل الأساسية التي أدت إلى وجود هذا الجيل القرآني الفريد المميز في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعاً فذكر رحمه الله عاملاً أساسياً وهو اختلاف منهج التلقي "فقال: (إن شعور التلقي للتنفيذ حيث يتلقى الأمر ليُعمل به فور سماعه كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من المعرفة لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والإطلاع وكان يسر لهم العمل ويخفف عنهم ثقل التكاليف ويخلط القرآن بذواتهم ويجوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي يتحول آثاراً وأحداثاً حول خط سير الحياة، إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرج الأجيال التي تليه"⁽³⁾.

• إن الأجيال المتلاحقة للجيل القرآني الفريد ابتعدت عن منهج التلقي للتنفيذ والعمل فظهرت الفجوة والخلل بينهم وبين الجيل الأول وبالرغم من كون هذا الجيل القرآني الفريد هم خير أهل الأرض بعد الأنبياء إلا أنهم تجربة بشرية يمكن محاكتها خاصة وأن الخلافة على منهاج النبوة لم تتكرر طوال الأربعة عشر قرناً الماضية إلا في هذا الجيل الأول ولكننا لدينا وعدٌ صادقٌ بعودتها ولن تعود إلا بمثل صفات هؤلاء الطليعة من المؤمنين وبنفس منهج التعامل الصحيح مع القرآن الكريم ألا وهو: (منهج التلقي للتنفيذ والعمل).

(1) أخلاق حملة القرآن للأجري ص 49.

(2) فيض القدير: 155/4

(3) معالم في الطريق، سيد قطب، ص 9

• ونخشى أن يكون تخلينا عن منهج التلقي والتنفيذ لآيات الله قد أوقعنا في التكذيب بها ونحن لا نشعر أو نكون انسلخنا منها بعدما كلفنا الله بأمانة حملها، والتكذيب بآيات الله ليس معناه عدم التصديق بزورها من عند الله فحسب بل إن التكذيب بآيات الله بمفهومه الأوسع هو عدم الانتفاع بها، وترك العمل بها، انظر كيف اختتمت آيات قصة بلعام بن باعوراء الذي آتاه الله علم اسمه الأعظم فلم ينتفع به ويعمل به فذكرت الآيات في نهايتها حكماً عاماً ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١٧٦] سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 176-177]، ويقول ابن تيمية (من قال حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الاطلاق)⁽¹⁾، إذن كل من لم ينتفع بآيات الله ويعمل بها يقع تحت طائلة التكذيب بآيات الله، والله سبحانه وتعالى أعلم.

• يقول الشيخ السعدى فى تفسير هذه الآيات: "انسلخ من الاتصاف الحقيقى بالعلم بآيات الله فترك هذا كتاب الله وراء ظهره ونبذ الأخلاق التى يأمر بها الكتاب ويحتمل أن المراد شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها ففى هذه الآيات الترهيب من عدم العمل بكتابه بالخذلان"⁽²⁾.

• إن أمة الإسلام صارت فى ذيل الأمم وذافت الذل والهوان منذ عشرات السنين والسبب تمكّن الهوى وحب الدنيا فى قلوب أبناءها وذلك كله للابتعاد عن الانتفاع الحقيقى بالقرآن وإهمال العمل به وتغيب التحاكم إليه وتعطيل إحلال حلاله وتحريم حرامه كما حذرنا الجيل الأول من إهمال التعامل الصحيح مع القرآن قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: 120] وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره أن ابن مسعود رضى الله عنه قال: "والذى نفسى بيده إن

(1) مقدمة فى أصول التفسير - ابن تيمية ، ص 30

(2) تيسير الكريم الرحمن فى شرح كلام المنان ، عبد الرحمن السعدى ، ص 316، 317

حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقراه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئاً على تأويله"⁽¹⁾.

العودة للحياة في جو القرآن

• يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : "الحياة في جو القرآن لا تغني مدارس القرآن وقراءته والإطلاع على علومه إن هذا ليس " جو القرآن " الذي نعنيه إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن : هو أن يعيش الإنسان في جو وفي ظروف وفي حركة وفي معاناة وفي صراع وفي اهتمامات كالتى ينتزل فيها هذا القرآن أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التى تعم وجه الأرض اليوم وفي قلبه وفي همه وفي حركته أن ينشئ الإسلام فى نفسه وفى نفوس الناس وفى حياته وفى حياة الناس ، الحياة فى جو القرآن ليست فهم ألفاظه وعبارته ليست هى تفسير القرآن كما اعتدنا أن نقول ! المسألة ليست هذه إنما هى إستعداد برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التى صاحبت نزوله وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهى تتلقى القرآن فى خضم المعترك .. معترك الجهاد .. جهاد النفس و جهاد الناس .. جهاد الشهوات و جهاد الأعداء .. والبذل والتضحية والخوف والرجاء والضعف والقوة جو مكة القلة والضعف والدعوة الناشئة والغربة بين الناس والإنقطاع إلا عن الله..

ثم جو المدينة : جو النشأة الأولى للمجتمع المسلم وجو نشأة الأمة المسلمة ونشأة نظامها الإجتماعى .. جو "بدر" و "أحد" و "الخندق" و "الحديبية" وجو "الفتح" و "حنين" و "تبوك"⁽²⁾

• وهنا يدعو الأستاذ سيد قطب الأمة إلى الحياة فى جو القرآن - كما عاش هو بفضل الله - للوقوف على أسرار القرآن وطبيعته ومنهجه وكنوزه وفهم دلالاته وإيجاءاته وحسن تفسيره تفسيراً صحيحاً مؤثراً كما يقول د.صلاح الخالدى فى كتابه⁽³⁾، ثم يذكر أن الشهيد رحمه الله

(1) مختصر تفسير ابن كثير، سورة البقرة، ص132

(2) الظلال (2 : 1016 - 1017)

(3) المنهج الحركى فى ظلال القرآن - د. صلاح الخالدى ، ص 38

وتقبله يبين لنا : " أن القرآن نزل في مثل هذا الجو والذين لا يعيشون في هذا الجو معزولون

عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والإطلاع على علومه".⁽¹⁾

- وفي مثل هذا الجو يفتح الله كنوز القرآن للقلوب ويمنح أسرارها لها .
- أراك وقد بدأت تتحرك مشاعرك رغبا ورهبا لأهم رحلة في حياتك الدنيا... إنها الرحلة مع كتاب الله العظيم رحلة تنقضي مع صعود روحك إلى بارئها ولم تقض منها فهمك من أنوار القرآن وفضائله وهداياته وشفاءه, تتمتع بجماله وتنكشف لك من أسرارها كلما أقبلت عليه تلاوة وتدبرا.. علما وتفهما.. عملا وتخلقا.. دعوة وتبليغا.. هيا أقبل للحياة في جو القرآن بعون الله وتوفيقه.

القرآن ينادي عليك.. فُلمَّ أقبِل ولا تخف:

- القرآن كالكائن الحي تجده يكلمك ويتفاعل معك يوجهك وينذرك يبصرك ويبشرك كلما أقبلت عليه أقبِل هو عليك.
- هيا لتدخل جنة الدنيا حيث القرآن فيها خير جليس وخير أنيس...
- هيا فقد شرفك ربك وأرسل لك موعظة فيها صلاح دنياك وفلاح أخراك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] نعم أنت! ولكن كيف ستستقبل هذه الموعظة الربانية؟ هل ستخصص لها أفضل أوقات تركيزك؟ أم ستبقي لها أوقات نُعاسك وتشتت انتباهك؟ هيا فخذها بقوة وكن من الشاكرين..
- هيا فالمرريض يتحرك بصعوبة في أقصى الظروف إلى الطبيب المداوي ثم يتناول الدواء مهما كانت مرارته ويأخذ الجرعة المحددة بثقة دون فوات أوقاتها المحددة... أفلا نبادر والأمراض قد أصابت قلوبنا فأوشكنا على الهلاك.. هيا فالدواء ليس له مرارة بل له

حلاوة وعليه طلاوة وأعلاه مثمر وأسفله مغدق والشافي سبحانه وتعالى أخبرنا في محكم

كتابه ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: 44].

- هيا لا تكتفي بالنظر أمام الشاطئ نظرةً سطحية ظناً منك أن هذه أقصى متاع وفائدة..
- هيا قرر الغوص في الأعماق ستكتشف ملكوت آخر من الجمال والعجائب مليء بالروائع والدرر التي حُرِّمنا منها لسنوات طوال.
- هيا فالقرآن بحر لا يدرك غوره ولا تنفذ دُرره ولا تنقضي عجائبه فما أحق الأعمار أن تفتني فيه والأزمان أن تشغل به فلما حان أجل شيخ الإسلام ابن تيمية قال لتلميذه بن القيم: "لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما تركت القرآن أبداً وما انشغلت عنه".
- هيا إلى الحياة الحقيقية ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، هيا إلى الطريق الهادي لرب العالمين لنخرج من ظلمات المعاصي والقبايح إلى نور الطاعة والقربات ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16]....
- هيا اسهر مع صاحبك. هيا قاوم راحتك . هيا ابذل جهداً حيث السكون والهدوء وكابد النوم لتقف بين يدي مولاك بكتابه الكريم وكلامه الحكيم.. فصاحبك وحبيبك القرآن لن يترك وقت الشدة سيأتيك يوم القيامة على هيئة الرجل الشاحب كما كنت أنت معه في الدنيا تقرأه آناء الليل وأطراف النهار ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول لصاحبه: ألا تعرفني؟ فيقول له: لا أعرفك، فيقول له: أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك، فيقول: لعلك القرآن»⁽¹⁾.
- أتعرف إذا أقبلنا بحق واستجبنا بصدق وتمسكنا بشرف الأمة ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [43] وَإِنَّهُ لَدِكُّرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿[الزخرف: 43-44]، لذكر: أي لشرف. أتعرف ماذا خلف هذا الباب؟ (باب التدبير

(1) أخرجه الطبراني في "الأوسط" (5894 / 2-1 / 53/2)

وفهم القرآن) خلفه: الفضائل والهدايات والأنوار والرحمات والشفاء والبشريات إنها وظائف القرآن الكريم التي يُتَّحَصَّلُ عليها المنتفع به بإذن الله وفضله وذلك على قدر انتفاعه به.

وظائف القرآن الكريم:

• القرآن الكريم له وظائف أساسية وأدوار فعّالة ميزه الله عز وجل بما يتزود منها وينتفع بها المؤمنون بالقرآن الكريم، إنها منح ربانية وفوائد إيمانية لا تعد ولا تحصى أودعها الله عز وجل في كلامه، ولكن من هم المؤمنون بالقرآن الكريم المنتفعون بوظائفه؟ إنهم: "المصدقون به المتقادون خلفه العاملون به".

ومن وظائف القرآن الكريم:

1) وظيفة الهداية: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن الهداية من الضلال ومعرفة الحق من الباطل وبيان الرشد من الغي ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الجن: 30]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

2) وظيفة الرحمة: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن كل خير في الدنيا والآخرة وينتفي عنهم كل شر وسوء وينالون به كل سعادة في الدنيا وفلاح في الآخرة وينتفي عنهم كل شقاء وخسران ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْتَقِيَ﴾ [طه: 2].

3) وظيفة النور: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن نور الإيمان والعلم والهداية والطاعة فينتفي عنهم ظلمات الكفر والجهل والضلال والمعاصي ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

4) وظيفة البصائر: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن التبصرة بالآيات البينات والأدلة الساطعات والبراهين الواضحات معرفة طريق الحق ومتطلباته فينتفي عنهم التيه والعمى والانحراف عن طريق الحق ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: 104]، ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203].

5) وظيفة التبيان: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن بيان وتفصيل كل ما يحتاج إليه العباد في أصول الدين وفروعه وأحكام الدارين بألفاظ واضحة ومعانٍ جلية ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

6) وظيفة الشفاء: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن شفاءً لما في الصدور من أمراض الشهوات لما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب فيُقدّم العبد مراد الله على مراد نفسه وشهواته وشفاءً من أمراض الشبهات القادحة في الحق لما فيه من التبيان والبصائر كما يحصل لهم بالقرآن شفاءً للأبدان من الأسقام ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: 44].

7) وظيفة التذكرة: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن دوام التذكرة واليقظة فينتفي عنهم الغفلة والنسيان لما فيه من الترغيب إلى أجلّ المطالب فيعمل لنيلها ومن الترهب عن أسباب الشقاء والخسران فيتجنبها كما فيه المعاني الكبار التي يحتاج القلب المرور عليها كل وقت فيعيدها القرآن ويكررها بألفاظٍ مختلفة وأدلةٍ متنوعة لتستقر في القلب فتثمر الاعتبار والادكار ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ [المدثر: 54]، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (2) إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾

8) وظيفة النذارة: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن التخويف والإنذار من وقوع عذاب الله ووعيده الأليم بهم فيرتدعون عن الوقوع في العصيان ويتزجرون عن مخالفة أوامر الله ويحصل لهم بالقرآن الحيلة والحدز بهذه النذر ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [٦٩] ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: 69-70]، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: 16-17].

9) وظيفة البشرية: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن فرح لأرواحهم واستبشاراً لنفوسهم بمجزيل ثواب رهم وحسن عطاءه في الدنيا بالعافية والتوفيق لطاعته وفي الآخرة بالمغفرة ودخول جنته ويتجدد بالقرآن الأمل في قرب فرجه إذا ألمت بهم الملمات ووقوع نصره فينتفي عنهم أي يأس أو إحباط ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102]، ﴿يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

10) وظيفة التثبيت: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن الطمأنينة والسكينة فتتسلى نفوسهم وتأنس قلوبهم بآياته فيصير الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي فينتفي عنهم أي قلق أو اضطراب ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. [هود: 120]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. [الفرقان: 32].

11) وظيفة زيادة الإيمان: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن زيادة الرغبة في فعل الخيرات والمسارة إليها والاشتياق للثواب والآخرة كما يحدث لقلوبهم الوجل والإشفاق من وقوع عقوبة الله وغضبه أو عدم قبوله للخيرات والأعمال الصالحات ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124].

12) وظيفة اليقين: يحصل للمؤمنين بهذا القرآن استقرار الثقة بالله وتمكنها في قلوبهم فتشرق قلوبهم بحبة الله والرضا به والشكران له والتوكل عليه والصبر على بلاءه والأنس به وينتفي عنهم كل شك وريب وسخط ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: 79]، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

** وغير هذه الوظائف المذكورة الكثير والكثير من المنح الربانية والفوائد الإيمانية التي أودعها الله عز وجل في كتابه في حال الوصال الحقيقي بين القلب والقرآن يَمَنَّ اللهُ عز وجل بها على عباده المؤمنين وفوق هذه الوظائف مراتب أعلى ومنازل أرقى يفتحها الله عز وجل من خزائن رحمته على كل من يقبل على القرآن بصدق ويعطيه بحق من وقته وشغله وراحته ونومه باذلاً الجهد لتدبره وتعلمه وفهمه.. إنها مقاصد القرآن الكريم.

المدخل لمقاصد القرآن الكريم:

- المقصد في اللغة يعني : الغاية والهدف والمقصود هو الغاية التي يريد بها المتصرف .
- مقاصد القرآن الكريم هي: الأهداف الكبرى والغايات العليا التي بسطها القرآن وأفاض في ذكرها وهي الحقائق التي نزل القرآن من أجل إثباتها".
- وتعريف آخر هي : " الثمرات العامة والأهداف الكلية والغايات الجامعة التي تدل عليها جملة متعددة من الآيات القرآنية" (1).
- والسؤال هنا ما هي أهمية معرفة مقاصد القرآن الكريم؟

يقول د. عبد الحلیم عویس رحمه الله في تقديم كتاب المحاور الخمسة للقرآن للشيخ محمد الغزالي: (ذهب المسلمون يعالجون تفسير القرآن معالجة جزئية حرفية دون أن يبسطوا الحقائق

(1) مقاصد القرآن الكريم عند الشيخ ابن عاشور - مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، العدد(29) لسنة2011م ،

القرآنية الكبرى بسطاً يرتفع إلى مستواها ويستمد منها القيم القرآنية التي وضعها الله لتقود المسلمين بالقرآن إلى التي هي أقوم⁽¹⁾.

• ومن هنا نؤكد أننا نحن المسلمين افتقدنا النظرة الكلية لما يريد الله عز وجل لنا وللبشرية أجمعين في رسالته الخاتمة رغم الجهود المضنية والشاقة والعلوم النافعة الكثيرة والأبحاث الدراسية التي اتصلت بالقرآن في نواحي أسباب النزول والناسخ المنسوخ والمكي والمدني وتفسير الآيات والسور وبيان معانيها والإعجاز العلمي والفلكي والطبي في القرآن الكريم وغير ذلك الكثير والكثير ورغم ذلك لم نتعامل مع القرآن كمنهج هتدي به لإقامة رسالة هذا الدين في كل زمان ومكان حتى قيام الساعة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ [الإسراء: 9] هي أقوم: أي ملة الإسلام والتوحيد.

- ولكن كيف عرض العلماء مقاصد القرآن الكريم؟

كتب الكثير من العلماء حول مقاصد القرآن الكريم فمنهم من فصل فيها ومنهم من أجملها ومنهم من نحى بها نحواً يتعلق بالجانب العقائدي ومنهم من تأثر بالمدرسة السلوكية ومنهم من صنفها تبعاً للبعد التربوي ومن أمثلة ذلك:

• ما قدمه الإمام الغزالي صاحب إحياء علوم الدين عن مقاصد القرآن حيث قال د. جواد علي كسار في كتابه (نظرية مقاصد القرآن عند الغزالي): "أن الغزالي قدم مركباً نظرياً سداً أساسياً لمقاصد القرآن تتدرج فيه المقاصد الستة من حيث فضلها وأهميتها كما يلي:

1) معرفة الله وهي المقصد الأسنى لكتاب الله وتشتمل على معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال.

2) بيان السلوك إلى الله أو الصراط المستقيم بالتبتل والانقطاع وتركية القلب.

3) تعريف الحال عند الوصول متمثلاً بعلم الآخرة وعلم المعاد فريق إلى الجنة وفريق إلى النار.

(1) كتاب المحاور الخمسة للقرآن، محمد الغزالي، ص5

4) بيان أحوال السالكين والناكبين إذ يتمثل الأول بقصص الأنبياء والأولياء والثاني ببيان قصص الكفار ومآلهم.

5) حكاية أحوال الجاحدين وحاجة الكفار ومجادلتهم بالبرهان الواضح.

6) تعريف عمارة منازل الطريق (هذا المقصد يشير إلى الجانب الفقهي أو التشريعي في القرآن الكريم)⁽¹⁾.

• وقد ذكر الشيخ يوسف القرضاوي سبعة مقاصد للقرآن تتداخل كثيراً وتتماشى مع ما ذكره رشيد رضا صاحب المنار في كتابه (الوحي المحمدي) والسبعة مقاصد التي ذكرها القرضاوي هي:

1) تصحيح العقيدة والتصورات الألوهية والرسالة والجزاء.

2) تكريم الإنسان ورعاية حقوقه.

3) توجيه الناس إلى حسن عبادة الله وتقواه.

4) الدعوة إلى تزكية النفس البشرية.

5) تكوين الأسرة وإنصاف المرأة.

6) بناء الأمة الشهيذة على البشرية.

7) الدعوة إلى عالم إنساني متعاون.

• بينما ذهب الشيخ محمد الغزالي أنها خمسة مقاصد تمثل أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها وقد ذكرها في كتابه (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) وهي:

1) التعرف على الله الواحد.

2) الكون الدال على خالقه.

(1) نظرية مقاصد القرآن عند الغزالي - د. جواد علي كسار .

3) القصص القرآني لفهم سنن الله الكونية والاجتماعية وأداة تربية ومصدر توجيه ووعظ يدعم الفرد والجماعة.

4) البعث والجزاء.

5) التربية والتشريع وذلك بتوضيح وظيفة الأمة مستمدة من وظيفة النبي ﷺ فهو: "عبداً رباني مهمته بعد أن عرف الله الواحد أن يُعرّف الآخرين وأن يملأ أفئدتهم إجلالاً له وأن يجعل كلمة الله هي العليا في طوايا النفس وأرجاء المجتمع"⁽¹⁾.

مقاصد القرآن الأساسية عند سيد قطب

• يقول د. صلاح الخالدي في كتاب المنهج الحركي في ظلال القرآن : (لقد استطاع سيد قطب بتوفيق من الله معرفة الأغراض العملية للقرآن وتمكين من الوقوف على مقاصده الأساسية ولذلك نراه يجعل تحقيق أغراض القرآن في عالم الواقع من أهم أهدافه من الظلال، والقرآن الكريم - في رأى سيد قطب - ليس حديثاً عن فترة زمنية مضت وانتهت ولا مواجهة لجاهلية بادت وإنما هو حديث عن الجاهليات على اختلاف زمانها ومكانها.

• ويقرر الأستاذ سيد قطب رحمه الله أن :

من المقاصد الأساسية للقرآن إنه يقود الأمة المسلمة في معركتها مع الجاهلية ويجنح هذه المعركة بواقعية جديدة ولقد حقق القرآن للجماعة المسلمة الأولى الانتصار في معركتها مع الجاهلية وهو قادر - بإذن الله - على أن يحقق للجماعة المسلمة في فترات تاريخها اللاحقة ذلك الانتصار بشرط أن تقدّم عليه " بشعور التلقى للتنفيذ " وأن تتركه يبصرها بطريقها وبمعركتها مع أعدائها.

• ومن أهم الحقائق الأساسية التي ركز عليها القرآن وبينها :

حقيقة الألوهية وخصائصها وحقيقة العبودية وتحديد الصلة بينها وبين الألوهية وقد ركز القرآن على بيان هذه القضية حيث جعلها قضيته الأساسية لأنها هي مقصده الأساسي وموضوعه

(1) كتاب الحوار الخمسة للقرآن الكريم، الشيخ محمد الغزالي، ص 157

الرئيسي: (فتعريف الألوهية الحقّة وبين خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق واعترافيهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده) هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله بل جعل سيد معركة الدين والقرآن مع الأعداء هي معركة (الحاكمية) .

- ومن المقاصد الأساسية للقرآن التي أكد عليها سيد كثيراً : تنشئة الأمة المسلمة على هدى القرآن فالقرآن دعوة الأمة المسلمة للحياة ، ومن هذه المقاصد : تربية الأفراد المسلمين و إعدادهم ليكونوا رجالاً ربانيين مجاهدين ، ولهذا نرى سيد يؤكد باستمرار على هذا المقصد ويبين سمات منهج القرآن في التربية وطريقته الربانية ووسائله في علاج النفوس .
- ومن مقاصد القرآن الأساسية : بيان حقيقة الحياة الدنيا وقيمتها بالنسبة إلى الآخرة ، وهذه هي أهم مقاصد القرآن الأساسية والتي أكد سيد قطب عليها وكرر الحديث عنها وهو يفسر الآيات التي تقررها"⁽¹⁾.

الحاجة الملحة لعرض مقاصد القرآن ومنهجنا في عرضها

- وما سبق نجد تشابه المقاصد وتوافقها على مقصدين وهما: معرفة الله عز وجل واليوم الآخر ثم غالبية المقاصد تنوع حول مقصد تربية النفوس وتزكيتها، ومقصد وظيفة الأمة الشهيدة على البشرية وفي الحقيقة أننا بحاجة ملحة في زماننا المعاصر وبعد سقوط الخلافة، وتسلب وجود الحكم الجبري (الجاهلية الثانية) الذي فصل الدين عن الحياة ونحى شريعة الله وتحاكم إلى القوانين الوضعية البشرية أن نعود إلى منهجنا القرآني الصافي الأصيل في ضوء الحقائق الكبرى التي عرضها للتعرف من خلالها على مهمة الأمة المسلمة وكيف تعود الأمة من خلال أداء مهمتها لقيادة البشرية من جديد وهدايتها إلى صراط الله المستقيم ونعيد الناس لرب العالمين وأن تكون كلمة الله هي العليا في الأرض وهذه هي الحاجة الملحة لعرض مقاصد القرآن.

(1) المنهج الحركي في ظلال القرآن - د. صلاح الخالدي ، ص 58 : ص 68

• لذلك سنتجه في عرضنا لمقاصد القرآن الكريم نحواً يتعلق برسالتنا التي يدور حولها هذا البحث بإذن الله وهي:

"إعداد وتأهيل المؤمنين أصحاب المهمة السامية بتحكيم الأرض كلها لشرع الله وذلك عن طريق تعريفهم بالله عز وجل والإعداد لليوم الآخر والتخلي عن حظوظ الدنيا ومتاعها الزائل وتركية نفوسهم وتطهيرها من حظوظ النفس وأسر الهوى".

وهذه الرسالة سنتربى عليها في مدرسة القرآن الكريم وبمنهجه القويم المستخلص على هيئة مقاصده العُليا والتي أجهلناها بإذن الله في بحثنا هذا في أربعة مقاصد كلية مترابطة وهي:

– المقصد الأول: معرفة الله عز وجل.

– المقصد الثاني: التأهل لليوم الآخر.

– المقصد الثالث: تركية النفس وصناعة الربانيين.

– المقصد الرابع: القيام بمهمة الأمة المسلمة.

مقاصد القرآن الكريم:

المقصد الأول: معرفة الله عز وجل:

• إن أشرف العلوم والمعارف وأسمى الغايات هي معرفة الله عز وجل وأهم طريق ووسيلة لتحقيق هذه الغاية العظمى هي كلام رب العالمين سبحانه وتعالى - القرآن الكريم - عن نفسه الكريمة، إذ خصص القرآن مساحة كبيرة لتعريف العباد برهم فهو كتاب "تعريف بالله" يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "هذا الكتاب يعرف الناس برهم على أساس من إثارة العقل وتعميق النظر ثم يحول هذه المعرفة إلى مهابة لله ويقظة في الضمير ووجل من التقصير واستعداد للحساب هذا الكتاب يبدئ ويعيد في قيادة الناس إلى الله واستثارة مشاعرهم من الأعماق كي يرتبطوا به ويتوجهوا إليه ويستعدوا للقائه فالحديث دائم متصل عن الله وما ينبغي له"⁽¹⁾.

(1) كتاب الخاور الخمسة للقرآن للشيخ الغزالي ص 11 ، ص 19.

- القرآن الكريم يستفيض في تعريفنا بالله وبيان سعة مغفرته ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: 32] وعظيم عفوهِ ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30] وحكمة تديره ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: 3] ونفاذ قدرته وقهر مشيئته ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21] وإحاطة علمه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12] وأصل معاملته لعباده ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147] وكريم عطاءه ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34] وإذا عرف العبد ربه يزداد حبا له ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] ويتفانى في طاعته ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا﴾ [الفتح: 29] ويمتلأ قلبه بإجلاله وتعظيمه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2] ويشفق من خشيته ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: 57] ويستسلم ويخضع لأمره ﴿قَالَ أَسَلْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131] ويعيش مفتقرا إليه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 234] يرد كل عطاء وفضل إليه سبحانه وتعالى ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: 40] ويخلص له في كل توجه وقصد ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14] وينيب إليه في كل صغيرة وكبيرة ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30] ويجتنب تحكيم غير شرعه ومنهجه ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: 17] ويبيع نفسه لنيل رضوانه ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 207] ويترك متاع دنياه رغبا واشتياقا في جوار ربه ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: 74] ويباع ربه على الموت في سبيله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10] وهؤلاء ومثلهم يشرفهم ربهم بالحياة في دار كرامته ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 169-170] وهكذا يسير بنا القرآن أعظم رحلة وأشرفها في التعرف على خالقنا ومالكنا وحبينا ربنا رب العالمين.

القرآن الكريم يتحدث عن الدار الآخرة وكأنها حاضر يعايشه الناس وكأنهم يرونها أمامهم عين اليقين ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: 43] فيعيش الناس بالقرآن في قلب اليوم الآخر وأهواله وهم لا يزالون أحياء في قلب الحياة الدنيا ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: 19] أي: لتلاقن أهوالاً بعد أهوال أمراً كان مفعولاً وأهوالاً ليس لوقعتها كاذبة.

فيخاطب القرآن قارئه بضمير المخاطب وكأنه يعيش مشهد قراءة كتابه في أرض الحشر عياناً على رؤوس الأشهاد ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14] فيقف العبد مع القرآن يستعرض شريط حياته وكأنه يحاسب على كل صغيرة وكبيرة ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49] وكأنه يحاسب على كل نقيير وقطمير من مثاقيل الذر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8] ثم تسير بك آيات القرآن كأنك قادم على الصراط الآن لتمر عليه ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مریم: 71] ثم يطوف بك القرآن داخل الجنة ونعيمها ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 28-33] ثم يطوف بك داخل النار وجحيمها ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: 42-44] ثم بعد سفر القرآن بك في رحلة إلى الجنة والنار يعود بك إلى لحظة وجودك في الدنيا ليخبرك أي المصيرين تختار؟ وأي سبيل تقصد: حرث الدنيا أم حرث الآخرة؟ تختار مصيرك بنفسك ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: 19] لأنك مرهون بعملك ومخير في فعلك ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3] فتثمر هذه الرحلة القرآنية معرفة القيمة الحقيقية للحياة الدنيا ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: 20] فيدرك العبد بالقرآن أن الدنيا رخيصة وفانية ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20] فيحتقر حينها كل لذة ومتاع في هذه الدنيا ويكشف زيفها

فيرجو ما هو خير وأبقى في جوار ربه سبحانه وتعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: 60] فيثمر هنا العرض القرآني لحقيقة الدنيا والآخرة هوان الدنيا في نظر العبد المؤمن والزهد فيها والعمل للأخرة والإعداد لها فيسارع العبد المؤمن في الخيرات ويسابق إليها ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61] وهمون عليه كل مصيبة ويصبر على كل ألم وشدة ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156] بل ويتلذذ بكل نصب ووصب وظمأ ومخمصة في سبيل الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120] فيعيش المؤمن بالقرآن وقد هانت الدنيا عليه في محنها وكرهها، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: 72] ومن ثم فالحياة بالقرآن تجعل العبد المؤمن أخروي الهم والهمة ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 57] تجعل العبد المؤمن لا يرغب في أي أجر أو مغنم فيها بل ينتظر فقط ما عند الله من أجر الآخرة مشتاقاً لجوار ربه في دار كرامته ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُنتُمْ إِلَّا كَفَّارًا لِّمَا كُنتُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُم مَّكَرِينَ﴾ [الزخرف: 35] وبترية القرآن هذه صار الصحابة الكرام من أهل الآخرة وارتقى اليقين بالغيب في قلوبهم وأصبح شغلهم الشاغل هو الإعداد والتجهز لدارهم الحقيقية فهذا حارثة بن سراقة رضى الله عنه يقول للنبي ﷺ (أصبحت وكأني أرى عرش الرحمن بارزاً وكأني أرى أهل الجنة يتنعمون فيها وكأني أرى أهل النار يعذبون فيها) ولا يزال القرآن يربي ويصنع الربانيين أهل الآخرة وهم يعيشون في هذه الحياة الدنيا.

المقصد الثالث: تزكية النفس وصناعة الربانيين

إن النفس البشرية هي ميدان العمل الأول والعدو الأكبر ومحل الاختبار الرئيسي في هذه الحياة الدنيا فإما أن يصير الإنسان عبداً لله وحده لا شريك له أو يصير عبداً لنفسه وخاضعاً لهواه ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجنائفة: 23] والقرآن الكريم هو المنهج الذي وضعه الله عز وجل لتزكية النفس وتطهيرها من أمراضها وأوزارها فهو "كتاب

تركية" ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151] فيقرر القرآن لنا ابتداءً حقيقة أن النفس الأمارة بالسوء هي العدو الأكبر والأخطر للإنسان ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: 53] وهي السبب الرئيسي للوقوع في المعاصي وارتكاب الآثام فبسببها وقعت أول جريمة قتل وسفك للدماء على الأرض ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: 60] وبتزيينها ضل الإنسان وأضل ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: 96] كذلك يؤكد لنا القرآن أن عداوة النفس للإنسان أشد ضراوة من عداوة الشيطان له ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76] بل إن الشيطان ارتكب أول معصية عُصي بها الرحمن بسبب نفسه وكبرها ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: 34] ثم يمضي بنا القرآن يبصرنا بعيوب النفس وأمراضها الكثيرة وأنها كانت وراء فشل أول تجربة استخلاف أمة في الأرض وهم بنو إسرائيل الذين تفشت فيهم صفات النفس المذمومة ومنها اتباع الهوى والكبر ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87] ومنها الغيرة والحسد ﴿بِسْمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًا أَن يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: 90] ومنها تملك حب الشهوات من قلوبهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: 93] والحرص على حياة رخيصة ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96] ونقض العهد ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 100] ثم يحذرنا القرآن من ذلك كله وهو أسوء ما تقع فيه النفس وهو عدم اعترافها من الأساس بأمراضها ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104] بل ترى سوء عملها على أنه إحسانًا ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8] وبهذا التوصيف القرآني الدقيق لطبيعة النفس البشرية وحقيقتها يربي القرآن المؤمنين على الحيطة والحذر من عداوة النفس وعلى الإفاقة واليقظة من أمراضها الفتاكة ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: 13] ويبدأ معهم القرآن في خوض المعركة الضروس وهي "معركة تركية النفس ومجاهدتها" ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿العنكبوت: 69﴾ ثم يحثهم على تطهير نفوسهم وعدم إهمالها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10] فيقوم القرآن بتبصرة المؤمنين بكل الوسائل المعينة على تزكية نفوسهم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103]، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: 30] كما يؤكد القرآن للمؤمنين أن طريق الاصطفاء وحمل الرسالة يتطلب نفوساً مزكاة ومطهرة ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42] نفوساً تخلصت من حظوظها في لعاع الدنيا وجواذها الطينية ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1] نفوساً تحررت من أسر الهوى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26] نفوساً انتصرت على شهواتها البشرية ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14] وجاهدتها لنيلها في جنات عدن منازلها الأولى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: 31] نفوساً طهرها القرآن من الشح والبخل ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ أَنْ تُبْخَلَ فَمَنْ يَبْخُلْ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: 38] فبذلوا الغالي والنفيس ابتغاء مرضات الله عز وجل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: 20] وهؤلاء هم طليعة المؤمنين الذين استجابوا لمنهج القرآن في التزكية والتطهير ﴿رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: 108] وهؤلاء هم العائشون بالله والعائشون لله الذين اعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فغرس القرآن فيهم عقيدة الربوبية أن الله هو وحده صاحب كل إمداد وعطاء وتوفيق وهداية ﴿وَإِنْ اهْتَدَيْتَ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: 50] وغرس القرآن فيهم عقيدة الألوهية أنه سبحانه وتعالى هو وحده المتفرد بالعبادة والقصد والتوجه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162] فتقرر بالقرآن معاني العبودية الخالصة لله

وحده لا شريك له وصنع على أعين الله في مدرسة القرآن الكريم الربانيون الموصولون بالله والذين ليس في قلوبهم أو في حياتهم إلا الله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] الذين فرغت قلوبهم من حظوظ دنياهم وجواذبها الطينية وحظوظ أنفسهم وشهواتها الجبلية بعد تزكيتها وتطهيرها والذين لم يعد لهم حظاً إلا في رضا الله رب العالمين وهكذا يصنع القرآن بإذن الله الطلائع والركائز المنوط بهم حمل أمانة مهمة هذه الأمة.

المقصد الرابع: القيام بمهمة الأمة المسلمة:

جاء الإسلام لتحرير البشر في الأرض من العبودية للعباد وتعبيدهم لله وحده لا شريك له ولتقرير حقيقة الألوهية (لا إله إلا الله) في دنيا الناس عقيدةً وعبادةً تشريعاً وحكماً في كل شئون حياتهم ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162] وهذه هي رسالة هذا الدين التي جاء بها النبي الخاتم محمد ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: 108] وبنفس الرسالة جاء الرسل والأنبياء من قبله صلوات الله عليهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] فالرسالة واحدة التي جاء بها الأنبياء وإن اختلفت شرائعهم التي جاءوا بها ورسالتهم هي ملة التوحيد ودين الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] ووحدة الرسالة فرضت وحدة المهمة ألا وهي إقامتها في حياة الناس ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13] غير أن القرآن جاء ناسخاً لكل الكتب السابقة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 48] وعلى كل البشرية في الأرض بعد نزول القرآن اتباع حكمه ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لَقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50] فالشريعة التي ارتضاها الله للعالمين إلى يوم الدين اكتملت وتمت بتزول القرآن الكريم ومجيء سيد المرسلين ﷺ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

والقرآن الكريم قام بتكليف الأمة الخاتمة بمهمة حمل رسالة الإسلام لأنها أمة البلاغ إلى يوم الدين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143] وجعل القرآن خيرية هذه الأمة المسلمة مرهونة بالقيام بمهمتها على أكمل وجه ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 110] وهذه المهمة الشريفة السامية لن تتم إلا بالدعوة والبلاغ المبين لعرض رسالة الإسلام على الناس ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67] وحينها يعتنق الناس عقيدة الإسلام بحرية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256] .

غير أن هذا البلاغ لن يتم إلا بإزالة العوائق والحواجز التي تحول بين الناس وبين الاستماع إلى بيان هذا الدين وهذه العوائق هم الطواغيت والأرباب الذين قاموا على أساس تعبيد الناس لهم وتحكيم غير شريعة الله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31] فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: 136] ولا سبيل لتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان إلا بالقوة والجهاد في سبيل الله⁽¹⁾ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29] وبذلك رسم لنا القرآن معالم الطريق لتحرير البشرية وخضوعها لنظام واحد وشرع واحد ومنهج واحد وحاكمية واحدة هي حاكمية الله رب العالمين يعتنق في ظلها من يشاء ما يعتقد بحرية - بشرط دفعهم الجزية كما في رأي بعض العلماء - وبعد إزالة هذه الموانع الحائلة أمام البلاغ المبين ووصوله إلى الناس كافة وبذلك لا يبقى في الأرض إلا مسلم أو مسالم يدفع الجزية فتدعن الأرض لسultan رب العالمين وحكمه وبذلك يكون الدين كله لله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39] .

(1) معالم في الطريق، سيد قطب

- وإذا لم تنهض الأمة المسلمة لحمل هذه المهمة الشاقة وتنطلق بها في ربوع الأرض لتحريرها من دنس الشرك فسوف يفتن الناس بالكفر ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73] .
- وهكذا وصف القرآن الكريم مهمة هذه الأمة المسلمة أبين توصيف وبيان رسالتها وتوضيح الطريق لأدائها بالبلاغ المبين وتوضيح العوائق أمامها من الطواغيت مع بيان كيفية إزالتها بالقوة والجهاد.
- ثم أخذ القرآن يحث الأمة على الجهاد في سبيل الله باعتباره السبيل الأساسي لأداء مهمتها التي كرمت بسببها فصار القرآن يرغب الأمة الإسلامية في الجهاد ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78] وقام بالتحذير من خطورة التخلي عن الجهاد والنكوث عنه مما يتسبب في الوقوع في عقوبات الذل والخزي والمهانة ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: 39] مع ضرب القرآن للنماذج التي جنبت عن الجهاد ماذا حدث معهم من ذل وعقوبات ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 26] .

مهمة الأمة وضرورة تكوين القاعدة الصلبة:

- ولا سبيل لأداء مهمة الأمة المسلمة وحمل رسالة الإسلام ورفع راية التوحيد إلا بتكوين قاعدة صلبة من طلائع المؤمنين التي صنعت في مدرسة القرآن كما صنّع الجيل القرآني الفريد الأول جيل النلقي للعمل و التنفيذ ولا يزال القرآن يربي أمثال هؤلاء الرجال في كل زمان ومكان حتى إذا تكونت قاعدة صلبة مزكاة مطهرة تعرفت على ربها واستعدت للقائه وتمثلت فيها عقيدة الألوهية.. تقرر في قلوبهم وفي نفوسهم وفي ضمائرهم وفي أخلاقهم وفي حياتهم وتحققت فيهم العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له وصاروا عقيدة تتحرك على الأرض حتى إذا بلغوا القدر الذي يعلمه الله السميع العليم ويرتضيه أقام بهم عقيدة الألوهية (عقيدة لا إله إلا الله) في حياة الناس وفي الأرض كلها.

• وهذا هو هدف عرضنا لمقاصد القرآن الأربع :

معرفة الله عزوجل، الإعداد لليوم الآخر، تزكية النفس وصناعة الربانيين والقيام بمهمة الأمة المسلمة وهو هدف : تكوين وإعداد المؤمنين الربانيين المجاهدين رجال القاعدة الصلبة طليعة الأمة المسلمة.

التمهيد

منهجية البحث وقواعده

ونتناول فيها بإذن الله:

أولاً: علوم القرآن ومقدمة عن علم التفسير الموضوعي.

ثانياً: أسس وقواعد البحث.

ثالثاً: منهجية عرض مقاصد القرآن مع ضرب نماذج.

رابعاً: طرق تحليل اسم السورة مع ضرب نماذج.

خامساً: المنهج الحركي للقرآن.

- في البداية يصنف بحث (هداية المنان في مراد سور القرآن) في باب علم التفسير الموضوعي وهو

أحد علوم القرآن الكريم التي اجتهد فيها العلماء في العصر الحديث.

- والسؤال: ما هو تعريف علوم القرآن الكريم؟ وما هو علم التفسير الموضوعي وأقسامه؟ وما

الفارق بين التفسير الموضوعي والتفسير الموضوعي؟ وما هي ضوابط التفسير الموضوعي التي تخرجه

عن الرأي المذموم؟

أولاً: علوم القرآن ومقدمة عن علم التفسير الموضوعي

تعريف علوم القرآن:

- هي: "كل علم يضم أبحاثاً كلية تتصل بالقرآن الكريم من نواح شتى، من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وتفسيره وإعجازه وغير ذلك"، ويمكن اعتبار كل علم منها علماً مميزاً وهي غير منحصرة بعدد معين ويمكن الإضافة إليها، وقد حدد العلماء أنها تنقسم حسب النص والاجتهاد إلى:

١. جملة من علوم القرآن نقلي (أي تتبع النص فقط) لا مجال فيها للاجتهاد كنقل القراءات التي قرئ بها وأسباب النزول الصريحة.

٢. جملة منها الأصل فيها نقلي لكن إذا انعدم النقل قام القياس والاجتهاد المبني على النقل كعلم المكي والمدني.

٣. بعضاً من علومه مبني على الاجتهاد المحض كعلم تناسب الآيات والسور وعلم إعجاز القرآن الكريم.

- وقد درس الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن): سبعا وأربعين علماً من علوم القرآن بينما جمع السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن): ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن.

- ومن أمثلة علوم القرآن: علم الناسخ والمنسوخ وعلم أسباب النزول وعلم القراءات وعلم المكي والمدني وعلم ترجمة القرآن وعلوم الإعجاز العلمي واللغوي والبلاغي للقرآن وعلم التناسب وعلم التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وغيرها الكثير...

مقدمة علم التفسير الموضوعي في القرآن الكريم

- وعن علم التفسير الموضوعي مفهومه ونشأته ومنهجه وأقسامه وفوائده وضوابطه يقول الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد في كتابه (المدخل إلى التفسير الموضوعي):

بداية ما هو تعريف التفسير؟ وما هي أقسامه؟

- التفسير لغة مأخوذ من: الفَسَّر بمعنى البيان والكشف ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣], واصطلاحًا: "علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام الشرعية".

- التفسير العام ينقسم من حيث المصدر إلى قسمين:

١- تفسير بالمأثور أو بالرواية أو بالمنقول.

٢- تفسير بالرأي المحمود.

لأن الرأي المذموم لا يسمى تفسيرًا من البداية، والتفسير بالرأي لا بد أن يكون الرأي المحمود الذي يقبل في تفسير القرآن هو الرأي أو الاجتهاد القائم على القواعد الشرعية والأصول العربية للغة التي نزل بها القرآن.

- التفسير من حيث مناهج المفسرين ينقسم إلى:-

١- التفسير التحليلي: "يتتبع فيه المفسر آيات القرآن من الفاتحة إلى آخر القرآن ويفسر كل كلمة أو جملة أو آية في موضعها فيبين سبب النزول ويكشف معاني الألفاظ ومعاني الجمل والتراكيب".

٢- التفسير الإجمالي: "هو الذي يفسر فيه المفسر المعاني العامة الإجمالية لما يريد تفسيره من معاني الكلمات الكريمة في آية أو في آيات أو في سورة أو ما إلى ذلك".

٣- التفسير المقارن: الذي يجمع فيه المفسر كلمات أو أقوال المفسرين في آية معينة أو سورة معينة ويوازن بينها وبين أصحابها أو أرجحها أو ما إلى ذلك.

٤- التفسير الفردي أو المفردات: "يقوم على تفسير المفردات فقط وليس تتبع الكلمات القرآنية كلمة كلمة وإنما يفسر المعاني التي تفسرها من المفردات".

نشأة التفسير الموضوعي:

نشأ هذا العلم بجمع المفسر آيات القرآن المناسبة في موضوع ما والمتجهة إلى غاية واحدة فيجمعها ثم يكون منها موضوعاً يفسره ليبين موقف القرآن الكريم من هذا الموضوع مثلاً: المفسر يجمع آيات الصلاة في القرآن أو آيات الزكاة في القرآن ثم يتكلم عنها كما فعل العلماء قديماً حينما جمعوا مثلاً: آيات الخمر وكيف تنزلت على مراحل ليبينوا حكم الإسلام في الخمر.

- تعريفه: "علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحددة معي أو غايةً عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة وبشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع".

- وقد اهتم العلماء قديماً بالنظر في تناسب الآيات والسور والاهتمام بالنظرة الكلية للسورة ودراسة تناسب الآيات أولها وآخرها للوصول إلى الغرض الرئيسي الذي تتحدث عنه السورة والقضية الواحدة التي تتناولها، وقد ذكر أبو إسحاق الشاطبي في كتاب (الموافقات) ما أكده الأئمة النيسابوري والرازي والبقاعي وابن العربي وهو: "أن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره ويتراعى بجملته إلى غرض واحد كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة وإنه لا غنى لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية"^(١)، وقد عرض الشاطبي سورة (المؤمنون) عرضاً إجمالياً فقال رحمه الله في نهايتها (فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد ومن أراد الاعتبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح والتوفيق بيد الله)^(٢)، وقد كتب البقاعي في هذا الباب كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، كما قسّم أبي بكر الجصاص كل سورة من سور القرآن إلى عدة مطالب وأبواب وذلك في كتابه (أحكام القرآن).

كما ظهرت مؤلفات خاصة تعنى ببيان التناسب في القرآن وتبرز وجوه الربط بين السور والآيات كما فعل السيوطي لكنها لم تستقص مظاهر الوحدة الموضوعية في السورة كلها.

(١) من كتاب الموافقات للشاطبي في المسألة الثالثة عشر من الكلام على الأدلة تفصيلاً

(٢) نفس المصدر السابق

الفارق بين علم التفسير الموضوعي وعلم التفسير الموضوعي (التحليلي):

- ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في مقدمة كتابه (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن): "والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضوعي حيث يتناول التفسير الموضوعي الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام، أما التفسير الموضوعي فهو يتناول السورة كلها يحاول رسم صورة شمسية لها تتناول أولها وآخرها وتتعرف على الروابط الخفية التي تشهدها كلها وتجعل أولها تمهيداً لآخرها وآخرها تصديقاً لأولها، وقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة وإن كثرت قضاياها وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن الكريم فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة يعرف ذلك من قرأ كتاب "النبا العظيم" وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد"^(١).

أقسام التفسير الموضوعي من حيث الرابطة ومناهج المفسرين:**النوع الأول: التفسير الموضوعي العام**

- (والذي بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط وليس في أصل المعنى).
- ومثال ذلك: تفاسير آيات الأحكام جميعاً فهي تتكلم في أحكام القرآن لكن هذا في الصلاة وهذا في الطلاق وهذا في الجهاد وما إلى ذلك فالغاية التي تربطها هي أنها أحكام لكن الموضوع الواحد لا يتحقق فيها.
- هذا النوع كان سائداً في مؤلفات العلماء مثل: (أحكام القرآن) للجصاص ت ٣٧٠ هـ، و(التبيان في أقسام القرآن) لابن القيم ت ٧٥١ هـ.
- وقد عد بعض العلماء في هذا النوع ما يسمى بالوحدة الموضوعية في القرآن كله أو في سورة منه بأن يجعل المفسر للسورة الكريمة هدفاً ينتزعه من ملاحظة معانيها ثم ينزل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف ومن المفسرين السابقين من جعل الهدف من تفسيره - وهو برهان

(١) مقدمة كتاب نحو تفسير موضوعي لسور القرآن للشيخ محمد الغزالي

الدين البقاعى - بيان هذه الوحدة إلا أنه لم يقدمها بصورة شاملة مفصلة في جميع السور والآيات^(١).

- النوع الثاني: التفسير الموضوعي الخاص

• (الذي يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده فتكون الرابطة بينها رابطة قريبة وخاصة).

- مثال ذلك: موضوع (اليهود في ضوء القرآن) فهذا موضوع محدد يدخل تحته آيات كثيرة كلها في ذات الموضوع وهو أولى الأنواع باسم التفسير الموضوعي على الإطلاق ومن الكتب المعاصرة في هذا النوع:

(الصبر في القرآن الكريم) للقرضاوي، (اليهود في القرآن الكريم) الشيخ محمد عزة دروزة.

• هذا ويمثل التفسير الموضوعي للقرآن منهجاً جديداً للدراسات التفسيرية والقرآنية وقد دعت إليه حاجة المجتمع وظروف العصر وهباً الله تعالى الأسباب لإبرازه واتجاهه نحو الاكتمال مصداقاً لوعده الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد اهتم المعاصرون بهذا النوع من التفسير وحاولوا في تفسيرهم أو دراستهم القرآنية بيان الوحدة الموضوعية للسورة مثل: عبد الحميد الفراهي - الهندي صاحب تفسير (نظام القرآن: تأويل الفرقان بالفرقان) وذلك في كتبه: دلائل النظام، وأساليب القرآن.

أهمية التفسير الموضوعي وفوائده في هذا العصر

أولاً: إبراز معجزة الترتيب النهائي للقرآن الكريم وإبراز إعجاز القرآن على وجه يلائم العصر الحديث ذلك لأن القرآن إذا كان قد أعجز الأقدمين بلفظه ونظمه وبلاغته فإن الآخرين لابد لإعجازهم من وجه مستمر المدى لاستمرار التحدي وهذا يتمثل في معاني القرآن الكريم وموضوعاته من طريقتين:

(١) كتاب المنهج الحركي في ظلال القرآن - د. صلاح الخالدي ص ١٥٢

- الطريقة الأولى: شمول القرآن لكل هذه الموضوعات المتكاثرة مع قلة حجمه ووجازة لفظه وهذا يخالف معهود الكتب وقدرات البشر.

- الطريقة الثانية: كمال كل موضع منه على حدة حين نجمعه الآن ونؤلف منه كياناً واحداً مؤتلفاً غير مختلف وهذا من أعظم وجوه الإعجاز ذلك لأن القرآن الكريم قد تواتر نزوله نجومًا متفرقة على مدار ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا ما بين مكة والمدينة وفي ظروف متباينة وبينها في النزول فواصل زمنية مختلفة ومع هذا كله حين ننظر إلى كل نجم نجده في موقع من ترتيب السورة متآلفًا متناسقًا مع سابقه ولاحقه ثم حين نجمع نجوم الموضوع معًا نجد على غاية التوافق والتناسق وهنا ضرب بالغ الإعجاز لا يستطيع بشر مهما أوتى من إحكام العقل وجودة العلم والفكر أن يقوم به.

ثانيًا: الوفاء بحاجات هذا العصر إلى الدين وهي حاجات كثيرة بعضها عام وبعضها خاص : -

(أ) حاجة البشر عامة: فالبشر حائرون على مفترق الطرق وليس لهم دين صحيح ولا رسالة هادية وقد غلبهم الإلحاد والعناد ولم يبق كتاب إلهي على وجه الأرض يمثل الدين الصحيح إلا القرآن لذلك يحتاج الناس إلى معرفة هديه غاية الاحتياج وإلى فهم ما حواه من شمول موضوعي بالغ غاية التمام والكمال وإلى إدراك ما يقدمه لهم من حلول لمشكلاتهم النفسية والاجتماعية ولا يتحقق ذلك إلا بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن الكريم ثم تُنصب للناس حبلًا ممدودًا للنجاة من هذه المحنة العالمية الطاغية فيما أن ينوب الناس إلى دين الفطرة أو تقوم عليهم الحجة البالغة التي من أجلها تعهد الله تعالى بحفظ القرآن وجعله صوت النبوة الممدود إلى يوم القيامة.

(ب) حاجة المسلمين خاصة: فلقد فُتِنَ المسلمون بزخارف الحضارة المادية وتبعوا سنن الكفار في القوانين والأخلاق والتربية ولذلك يحتاجون قبل غيرهم إلى فهم شمول الهدى القرآني واتساع موضوعاته لكل شئون حياتهم وبذلك يقبلون على تطبيقه بيقين واقتناع ويقدمونه للناس على معرفة وتجربة ويبذلون في سبيله النفس والنفيس عن رضا وطواعية لأنه الحق الوحيد في الأرض.

بل إن الدنيا كلها في حاجة إليه وبذلك ينقذ المسلمون أنفسهم والعالم كله من ورائهم بهذا الهدي القرآني الجامع.

ثالثاً: من الفوائد العظمى للتفسير الموضوعي في هذا العصر:

- تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية فمن المقرر أن كتاباً في الأرض لم ينل ما ناله القرآن الكريم من عناية ودراسة وقد بذل علماءنا من قديم جهوداً خارقة لخدمة الكتاب الكريم غير أن القرآن الكريم من السعة والاستبحار بحيث لا تنفذ معانيه بل نجد علماء يجدون فيها جديداً في كل عصر وربما أربي اللاحق على سابقه بما يفتح الله له من كنوز القرآن الكريم وهذا معنى تجدد ألوان الإعجاز القرآني بتجدد الزمان مما قد يجعل لهذا اللون عظيم الأثر في إبراز علوم قرآنية جديدة ودفعها نحو التأسيس والاكتمال بإذن الله وهذا ليس بعيب على السابقين ﷺ فقد مهدوا أكناف العلم وجمعوا شتات المسائل وتركوا لمن بعدهم إتمام البناء وإنما العيب على اللاحقين أن رضوا بالعودة مع الخالفين^(١).

ضوابط التفسير الموضوعي

الضابط الأول: إحكام فهم تفسير الظاهر قبل التعرض للمعاني الباطنة وذلك بمعرفة تفسير الآيات وأسباب النزول ودراسة التفسير المأثور أولاً.

الضابط الثاني: أن يعتمد أفضل طرق التفسير قبل الاستنباط والاجتهاد وهي أربعة طرق عند علماء التفسير: أن يفسر القرآن بالقرآن - ثم بالسنة - ثم بأقوال الصحابة - ثم بأقوال التابعين، ويعتبر تفسير القرآن بالقرآن هو أعلى مراتب التفسير وأصدقها إذ لا أحد أعلم بكلام الله من الله وما أجمل في موضع فصل في موضع آخر.

الضابط الثالث: الأخذ بمطلق اللغة ثم بلغة الشرع المقتضى من معنى الكلام - ثم المقتضب من قوة الشرع وقد جعل ابن عباس التفسير على أربعة أوجه^(٢):

(١) كتاب المدخل إلى التفسير الموضوعي ، عبد الستار فتح الله سعيد.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ، ابن تيمية ص ٩٢

(أ) تفسير تعرفه العرب من كلامها.

(ب) تفسير لا يعذر أحد بجهالته.

(ج) تفسير يعلمه العلماء.

(د) تفسير لا يعلمه إلا الله.

الضابط الرابع: ألا يفسر القرآن برأيه ولا يطوع النصوص على حسب هواه وفكره بل يفسره بالرأي المحمود إن كان المفسر جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها المفسر من علوم اللغة العربية وعلم الأصول (وهي أصول التفسير وأصول الفقه وأصول الحديث وأصول الفهم) وعلوم القرآن والسيرة النبوية فضلاً على الشروط الأخلاقية من صحة الاعتقاد والبراءة من البدع والأمانة العلمية.

الضابط الخامس: لا يمس الاجتهاد أو الاستنباط أصلاً من أصول الدين أو يحل حراماً أو يحرم حلالاً.

ثانياً: أسس وقواعد البحث

- أسس هذا البحث (هداية المنان في مراد سور القرآن) على مجموعة أسس وقواعد تمثل النظرية التي بُني عليها بعون الله وهي:

القاعدة الأولى: تماسك بنیان السورة حول هدف عام

القاعدة: (إن السورة الواحدة هي القرآن الكريم لتألفه مناصراً في وحدة موضوعية متماسكة محكمة وفي نظم متين لا يختلج ولا يخطربه متصل ومتدابط حول هدف عام) يقول الدكتور عبد الله دراز في كتابه "النبا العظيم" حول هذه القاعدة: "فإن كنت قد أعجبتك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة من حيث الموضوع الواحد بطبيعته فهل إلى النظر إلى السورة من حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز، وأما أنت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنيانه؟ وعلى أي عين صنع نظامه؟ حتى كان كما وصفه الله عز وجل ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] اعتمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن فهي جمهرته وتُنقل

بفكرتك معها مرحلة مرحلة ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطئت أولائها لآخرها، إن معاني السورة الواحدة تنسق في السورة كما تنسق الحجرات في البنيان، لا بل إنها تلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان يسري في جملة السورة اتجاه معين وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية"^(١).

- ويؤكد الدكتور منير الغضبان قاعدة (تماسك بنيان السورة حول هدف عام) بعدما قرأ كتاب (في ظلال القرآن) فقال رحمه الله: (لقد كنت أقرأ السور الطول في القرآن وأخص بالذكر الزهراوين البقرة وآل عمران فلا أكاد أجد خطأ يربط بين جزئياتها وأضيع في متاهاتها تمامًا مثل رجل دخل في بلدة ولم يتعرف على مخططها فهو يجوب فيها كلها دون أن يصل إلى بغيته أو الدار التي يريدتها أو رأى بناء ضخماً لم ير هندسته التي قام عليها فلا يدرك شيئاً من جمال البناء وفن المعمار فيه ولكني عندما قرأت "في ظلال القرآن" أحسست بعظمة البناء وروعته والذي يستعرض المخطط الكلي للسورة يستوعب بعدها كل أجزائها في مكانها المناسب لها فلكل سورة هدف عام وهدف خاص ومحور تدور عليه أحداث هذه السورة"^(٢).

- وحول نموذج تماسك بنيان سورة البقرة حول هدف عام يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في مقدمة تفسيره الموضوعي لسورة البقرة (نعرض عليك أطول سور القرآن كافة وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة وهي أكثرها في التنزيل نجومًا وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخيًا تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعةً وثمانين ومائتي آية وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفًا وثمانين نجمًا وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددًا نعرض عليك السورة عرضًا واحدًا نرسم به خط سيرها إلى غايتها ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة

(١) كتاب "النبأ العظيم"، د. محمد عبد الله دراز، ص ١٤٥، ١٥٦، ١٥٧

(٢) مقدمة المنهج الحركي للسيرة النبوية- د. منير محمد الغضبان- ص ٨

موقعها من تلك السلسلة العظمى ونحن ذاكرون لك الآن نموذجًا لو وضعته نصب عينيك واحتذيتَه في سائر السور لكان ذلك نعم الدليل في دراستك وبالله التوفيق^(١).

القاعدة الثانية: اسم السورة مدلول لهدفها

القاعدة: (إن اسم السورة يمثل ملخص المذهب العام الذي تدور حوله السورة فاسم السورة بمثابة عنوان الدرس ورمز لمراد السورة ومدلول لمحورها الرئيسي).

- والسؤال الذي نبدأ به تفسير هذه القاعدة وبرهان صحتها بإذن الله وهو:

- هل أسماء سور القرآن توفيقية نزل بها الوحي أم توفيقية اجتهد فيها رسول الله ﷺ أو الصحابة رضوان الله عليهم؟

والإجابة: أن أسماء سور القرآن نزلت توفيقية على النبي ﷺ لم يجتهد فيها أحد نزلت من عند الله ونزل بها الوحي الأمين قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿الشعراء: ١٩٢-١٩٤﴾ فقد ورد أن الرسول ﷺ كلما أنزل عليه شيء من القرآن أمر بكتابته ويقول للصحابة: "ضعوا هذه في سورة كذا"^(٢) يقول للصحابة: "ضعوها في موضع كذا، انتبه لقول الرسول ﷺ (من سورة كذا) أي وضع الآيات في موضعها بالأمر من الله في السورة المحددة والمعرفة باسم كذا إذن فليس هناك أي مساحة للاجتهاد البشري حول تسمية السورة، ومن الأحاديث الشريفة التي تبين أن السورة كانت تنزل واسمها مُعرفًا مع نزولها على النبي ﷺ:-

- عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: "أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها"^(٣).

(١) كتاب النبأ العظيم- د. محمد عبد الله دراز- ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشى - ص ٢٣٦

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٢)

- وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم»^(١).

- و بعد إثبات أن أسماء سور القرآن توقيفية من عند الله عز وجل نزل بها الروح الأمين كما نزل بالآيات على رسول الله ﷺ يبقى لنا أن نطرح مجموعة من الأسئلة لعلها تنير انتباه القارئ:

- هل اسم السورة له رمزية أو دلالة يشير إليها؟ وهل لاسم السورة علاقة بموضوع السورة؟ هل تدبرت ذات مرة لماذا سورة تتحدث عن الجهاد تسمى بالتوبة؟ والسورة الوحيدة التي تسمى باسم نبي الرحمة محمد ﷺ تتحدث عن القتال؟ وهل أعملت عقلك أو أثار انتباهك أن بعض أسماء سور القرآن لم يرد ذكر اسم السورة فيها إلا في آية واحدة فقط مثل سورة (العنكبوت) ورغم ذلك سميت السورة بهذا الاسم؟

- وحيث أننا مطالبون بتدبر القرآن وسوره وتعلمه وفهمه كما ذكر في مقدمة البحث لذلك فحري بنا أن نتفكر في موضوع كل سورة ومحورها الرئيسي وهدفها العام وذلك بالنظرة الكلية لها ثم علينا أن نرجع البصر للتفكر في اسم السورة ومدلوله وعلاقته بهدف السورة العام.

- وقد ذكر بعض العلماء أن السور تسمى بأغلبها أو أغربها ولكن هذا المفهوم غير صحيح في كثير من سور القرآن فسورة كسورة (يونس) لم يذكر اسم (يونس) إلا في آية واحدة فليس أغلبها فقصة نوح وموسى عليهما السلام جاءت أطول منها وليست أغربها فقصة غرق فرعون ونجاة بدنه أغربها فلم تأتي بهذه الكيفية إلا في هذه السورة من القرآن.

ضرب نموذج على قاعدة (اسم السورة مدلول لهدفها) - سورة يونس.

- سورة يونس سورة مكية عدد آياتها (١٠٩) آية ، تعرفنا فيها الآيات بالله عزوجل ودلائل توحيده وآياته في الكون وقدرته وتدبيره للأمر وذلك من أول السورة حتى الآية (٧٠) ثم تستعرض السورة بعد ذلك قصتين لنبيين من أنبياء الله الأولى لنبي الله نوح عليه السلام مع

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٢/٦) والبيهقي في الشعب (٤٧٠/٢)

قومه وذلك في (ثلاث) آيات والثانية لنبى الله موسى عليه السلام مع قومه في مواجهة فرعون وملائه وذلك في (تسع عشرة) آية ثم يتوجه الخطاب بعدهما للنبى ﷺ باليقين في منهج القرآن وأنه يحمل الحق من ربه ثم تجئ في وسط هذا الخطاب آية وحيدة لقصة قوم يونس عليه السلام (صاحب اسم السورة) وهى الآية رقم (٩٨) ثم تتحدث الآيات التى تليها على أن الإيمان بيد الله وحده ثم تختتم السورة بتوجيه للنبى ﷺ وكل من يحمل دعوته باليقين فى محمى أمر الله وتدخله للفصل بين الحق والباطل ثم تنتهى سورة (يونس).

- وإذا حاولنا الوصول للوحدة الموضوعية التى تربط أجزاء السورة لوجدنا بعون الله وتوفيقه مايلى :

(١) القصتان (نبى الله نوح وموسى عليهما السلام) يظهر فيهما بوضوح : قوة التوكل على الله عزوجل متمثلاً فى تحدى نوح عليه السلام لقومه فى قوله تعالى ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [سورة يونس: ٧١]، كما فى دعوة موسى عليه السلام لقومه بالتوكل على الله عزوجل أمام بطش فرعون وإجرامه ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ سورة يونس.

(٢) تعريف صدر السور وأولها بالله عزوجل هذا التعريف بصفاته وقدرته وبيان مشيئته القاهرة (ذلكم الله ربكم) [يونس : ٣]، تهدف إلى غرس معنى على من تتوكل لأن العبد كلما كان بالله أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى كما قال ابن القيم فى المدارج^(١).

(٣) قصة يونس وقومه بعد الرجوع للتفسير وقصص الأنبياء تجد أنها القرية الوحيدة التى آمنت بكاملها فى غياب نبيها الذى غادرها مغاضباً على عدم إيمانهم ثم عودته إليهم بعد نجاته الله له من عقوبة سجنه فى بطن الحوت وكأن الرسالة بوضوح هى: أن الإيمان بيد الله عزوجل فأد ما

(١) تهذيب مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية ص ٢٩٣.

عليك وبلغ مامعك من الحق واصبر حتى يحكم الله وهذا صميم التوكل على الله عزوجل الذي بيده وحده مقاليد الأمور كلها والهداية والإيمان بمشيئته ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس].

- ومن هذا نصل بعون الله وتوفيقه إلى أن الوحدة الموضوعية التي تدور حولها سورة (يونس) هي : "التوكل على الله عزوجل " وأن اسم (يونس) يرمز ويعبر عن وحدتها الموضوعية.
- وبخصوص هدفها العام فننظر إلى السورة السابقة لها (سورة التوبة) والتي تحدثت عن موضوع : "الحث على الجهاد وعدم القعود عنه " وختمت آياتها بالدعوة للتوكل على الله عزوجل والاستعانة به، كأهم تأهيل لازم للجهاد في سبيل الله فقالت آخر آيات سورة التوبة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩) أما السورة اللاحقة بسورة يونس وهي (سورة هود) نجدتها تأخذ خط اليقين في تدخل الله عزوجل ومجيء حكمه وفصله بين أهل الحق وأهل الباطل، الذي ورد في أواخر (يونس) الإشارة إليه لترتبط السورتين في ترتيب بديع ، وهكذا تأتلف عناصر السورة الواحدة وتتعانق في أولها مع السورة السابقة لها وتترابط في أواخرها مع السورة اللاحقة لها في ترتيب محكم متماسك ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

القاعدة الثالثة: ترابط الترتيب النهائي للمصحف لأداء غرض عام متصل

القاعدة: (إن سور القرآن جمعها وترتيبها في بيان مرصوص واحد يشد بعضها بعضاً في التقسيم والتنسيق لأداء غرض عام متصل من الغايات إلى الغايات).

- قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: (كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع)^(١)، الرقاع هي: الجلود، فهذا التأليف يعني جمع القرآن وترتيب آياته حسب إرشاد النبي ﷺ وبأمر من الله تبارك وتعالى

(١) المستدرک، ج٢، ص٢٤٩، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

كما صرح بذلك الحافظ بن حجر في كتابه (الفتح) ولهذا اتفق العلماء أن جمع القرآن (توفيقي) يعني: أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف إنما هو بأمر ووحى من الله، وعن عائشة عن فاطمة رضى الله عنهما : أسر النبي ﷺ إليّ: أن جبريل كان يعارضنى القرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين ولا أراه إلا حضور أجلى^(١) ومن الطبيعي أنه ﷺ كان يتبع في هذا العرض ترتيباً معيناً وأن هذا الترتيب هو ما سمعته منه الصحابة وهو ما سار عليه مصحف عثمان.

- والسؤال هنا لماذا اختلف الورد التنزيلي لسور القرآن عن الترتيب النهائي للمصحف؟

- والإجابة بإذن الله تحتاج لشرح أوجه الاختلاف بين دواعي الترتيب النزولي عن دواعي الترتيب النهائي وأما عن دواعي وأسباب الورد التنزيلي المنجم يقول الله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢] رتلناه أي: فرقناه آية بعد آية، فالقرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة بل كان ينزل آحاداً مفرقاً على حسب الوقائع والدواعي المتجددة من الحوادث والملمات والأسباب العامة والخاصة فجعل الله عز وجل إنزال كتابه جارياً على أحوال الجماعة المسلمة الأولى ومصالحهم الشرعية وتحقيق مهمتهم المكلفين بها في الأرض فكان من هذه الدواعي والأسباب:-

١. التثبيت وزوال دواعي القلق للنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين حيث نزلت الآيات من القرآن عند حدوث مناسبات محددة مما يكون له وقع عظيم أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك جملة واحدة.
٢. التربية والتزكية أول بأول بتوجيهات مباشرة عند حدوث مخالفات أو ظهور خلل أو انحراف فلما اختلف المؤمنون وتنازعوا حول الأنفال وتوزيعها بعد نصر بدر نزلت سورة الأنفال تعاتبهم وتربيههم على أنه ما كان لهم أن يتنازعوا حول عرض من الدنيا وألا ينسوا أن الله عز وجل هو صاحب الفضل عليهم في النصر على المشركين.
٣. بناء الجماعة المسلمة الأولى وفق مقتضيات الحركة الواقعية فافترق الورد التنزيلي إلى مرحلتين المكسي والمدني فاقتضت طبيعة المرحلة المكسية عدم الإذن بالقتال مع التركيز على التأهيل

(١) أخرجه البخارى عن مروق رضى الله عنه .

العقدي وبناء (لا إله إلا الله) في نفوس وقلوب طليعة المؤمنين ثم الأذن بالهجرة ثم الأذن بالقتال ثم الأمر بقتال من قاتلهم ثم الأمر بقتال المشركين كافة.

٤ . بناء النظام الواقعي الذي يتمثل في هذا الدين في المرحلة المدنية من خلال إنشاء هيكل هذا النظام وتفصيلاته مبنيًا على التدرج في التشريعات والأحكام حتى اكتمل التشريع وتم الدين وقامت الدولة المسلمة الأولى وأقيم هذا النظام الواقعي في حياة الناس وأصبح المسلمون في كل بقاع الأرض بعدما كانوا بضعة عشرات في المرحلة الأولى لنزول القرآن.

الترتيب النهائي وطبيعة منهج القرآن

- إذن اتصف الورود التنزيلي للقرآن بالتنجيم لطبيعة القرآن نفسه تلك الطبيعة الواقعية الحركية فهو واقعي في التعامل مع الواقع وليس مع فروض نظرية مجردة وحركي في مباشرة الأحداث أول بأول عقب كل حدث أو في أثناءه كآيات سورة التوبة على سبيل المثال نزل جزء منها قبل تجهيز جيش العسرة وجزء منها نزل أثناء الغزوة وجزء من الآيات نزل بعد العودة إلى المدينة، وكذلك الترتيب النهائي للقرآن يؤكد طبيعة القرآن الواقعية والحركية فهو يتعامل مع واقع الأمة المسلمة في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة، حيث يعطي هذا الترتيب النهائي منهج سير ثابت ودليل هداية مرن سواء أكانت هناك دولة وخلافة مسلمة (ما استمر عليه المسلمون ثلاثة عشر قرنًا بعد اكتمال الترتيب النهائي لكتاب الله) أو سواء سقطت هذه الدولة المسلمة وفقدت راية الخلافة المسلمة، وذلك أن الورود التنزيلي تعامل مع خطط مرحلية زمانية وليس ضد مبادئ فالإذن بالقتال لم يصرح به في مكة ليس إلا مقتضيات حركية واقعية، وليس تناقضًا مع المبادئ الأصلية في هذا الدين كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: فبواعث الجهاد من المبادئ المستقرة في هذا الدين إقرارًا للعقيدة وإعمالًا لسنة التدافع بين الحق والباطل بوجود الفئة الكافرة الحائلة لوصول البلاغ المبين لجمهور العالمين^(١) لذلك فالقرآن المنجّم تعامل مع مراحل في خطة طويلة أما وقد أقرت هذه الخطة واستقرت المبادئ واکتمل التشريع وقام النظام ببنائه المتكامل وأقيمت العقيدة في دنيا الناس فكان لابد والله بكل شيء عليم أن يقدم القرآن في ترتيبه النهائي

(١) معالم على الطريق سيد قطب ص ٧٣

الدلالة العامة لخط المنهج الحركي الثابت الطويل ويرسم للمؤمنين في كل أرض ومكان وفي كل جيل وزمان معالم الطريق لإقامة الدين وتقدير العقيدة في نفوس الناس وفي حياتهم معالم واضحة لا لبس فيها ولا غموض من الفاتحة إلى الناس الغاية فيها واضحة والأهداف فيها واضحة والسبيل مستبين والمعوقات معروفة وإزالتها معلومة والمهمة مفصلة بأعلى أنواع البيان هذا في حالة غياب حاكمية الله في الأرض أما في حال قيامها فالمبادئ مستقرة والتشريع مكتمل والنظام بهيكله وتفصيلاته منتظم بقي السير عليه كما يحبه الله ويرضى والله بكل شيء عليم.

- وسبحان العليم الخبير الذي أنزل هذا القرآن هداية للناس عامة وهداية للمتقين طليعة المؤمنين خاصة وسبحان الحكيم الخبير الذي جعل آيات القرآن تنزل تتعامل مع واقعية الجماعة المسلمة الأولى لتقييم الدين في الأرض ثم جعل نفس الآيات ترتب وتجمع في نظم محكم لتتعامل مع واقعية طليعة المؤمنين في كل زمان ومكان لتقييم الدين في الأرض وهو القائل في محكم التنزيل ﴿آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أحكمت آياته أي: نُظمت نظامًا محكمًا رصينًا ثم فصلت أي: ثم فرقت في التنزيل, واستمع لهذه الكلمات للدكتور محمد عبد الله دراز حول إحكام الصنعة بين الورد التنزيلي المنجم بل ما مهد له من أسباب النزول ثم التقسيم والترتيب لترسم خطة نهائية محكمة للترتيب النهائي لكتاب الله فيقول رحمه الله:

"الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها ونظرت إلى ما مهد لها من أسباب نزولها لوجدت أن لكل نجم منها ساعة نزوله أعد له سياج خاص يأوي إليه سابقًا أو لاحقًا وحدد له مكان معين في داخل ذلك السياج متقدمًا أو متأخرًا فيؤمر بهذا النجم مثلاً عند نزوله أن يوضع في ختام سورة كذا والنجم الذي بعده يؤمر أن يجعل في صدر سورة تأتي بعد حين لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها بل من قبل أن تخلق

أسبابها بل من قبل أن تبدأ الأطوار الممهدة لحدوث أسبابها وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت وأخذ كل جزء منها موقعه بميزان وقدر^(١).

- يقول الفخر الرازي : "كما أن القرآن معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيب ونظم آياته"^(٢).

- نعم إن القرآن في ترتيبه النهائي كالديوان كامل التقسيم والتبويب محكم التنسيق والترتيب مترابط متماسك في جملته وتفصيله ليقدم منهجاً واقعياً حركياً وخطة تفصيلية شاملة للأمة المسلمة للنجاح في أداء مهمتها بل في الحقيقة يقدم للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة دليل طريق الفلاح والسعادة في الدنيا والنجاة والفوز في الآخرة.

- إن دورنا في هذا البحث (هداية المنان في مراد سور القرآن) بإذن الله هو فهم هذه الخطة واستنباط هذا المنهج واستخلاصه وتقديمه في صورة المنهج الحركي للقرآن الكريم الذي يتمثل في خط عام متصل ومترابط وفق الترتيب النهائي لكتاب الله ولهذا الخط العام تقسيم وتبويب على هيئة سلاسل كبرى تجمع كل مجموعة سور متصلة في أهدافها العامة مع تقسيم هذه السلاسل الكبرى إلى مجموعة باقات صغيرة تحتوي الباقية منها على سورتين أو ثلاث أيضاً تشترك في محاورها الخاصة لتألف هذه السور والباقات والسلاسل لتخرج لنا: (المنهج الحركي للقرآن الكريم) والذي يمثل البصائر والدليل لمعالم طريق (تحقيق مهمة الأمة المسلمة: إقامة حاكمية الله عز وجل في الأرض) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥-١٦﴾، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ مَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿الأنعام: ١٠٤﴾.

• ضرب نموذج مصغر على قاعدة ترابط السور في الترتيب النهائي لأداء غرض عام متصل وهو: ارتباط سورتي الفيل وقريش في الترتيب النهائي:

(١) كتاب النبأ العظيم- د. محمد عبد الله دراز- ص ١٥١, ص ١٥٢ بتصرف يسير

(٢) التفسير الكبير - الفخر الرازي

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره الصوقي للجزء الثلاثين حول الربط بين هاتين

السورتين:

"سورة قريش نزلت بعد سورة الفيل بتسع سور ورغم ذلك رتبت في المصحف بعدها مباشرة فالنسق النزولي غير النسق الترتيبي في المصحف حيث النسق النزولي لأحداث وقعت تتطلب نزول هذه الآيات أم النسق الترتيبي النهائي في المصحف هو النسق الذي كان عليه القرآن في أم الكتاب في اللوح المحفوظ.

تختم سورة الفيل بقوله تعالى ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ وتبدأ سورة قريش بقوله تعالى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ ﴿ ١ ﴾ ﴿ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ﴿ ٣ ﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿ والمعنى في قوله تعالى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ أي فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن وفي الصيف للشام فاللام هنا لام العاقبة أي أن من عاقبة نجاته الله لبيته الحرام ورد أبرهة وجيشه وإهلاكهم أن تظل لقريش مهابتها وسط الجزيرة العربية والتي اكتسبتها بسبب أن كل العرب يأتون إلى قريش ليحجوا البيت فلا يتعرضون لتجارها في رحلة الشتاء والصيف مما يحفظ رزقهم الذي ارتبط بهذه التجارة ويؤمنهم من الخوف من تجرؤ هذه القبائل على قوافل قريش فكان الارتباط هنا بين السورتين هو ارتباط العلة على المعلول والهدف من هذا الرابط بين السورتين تم توضيحه في سورة (قريش) وهو الغرض المشترك بينهما: (فليعبدوا رب هذا البيت) أي يوحدوه ويخلصوا له العبادة لأنه سبحانه وتعالى أنعم عليهم وحفظ لهم هيبتهم وتجارهم بإهلاك أبرهة وجيشه في عام الفيل فرغد لهم الرزق والأمن مما يوجب شكره سبحانه وتعالى وذلك بتوحيده وعبادته.

- إذن سورتي الفيل وقريش اختلفا في الورد التنزيلي ثم جُمعا ورُتبا في الترتيب النهائي معاً وارتبطا سوياً بترتيب العلة على المعلول والسبب على المسبب والنتيجة على المقدمة لينتظما سوياً في خط يصل بينهما رغم افتراق ورودهما التنزيلي وهو خط دعوة قريش (نموذج الشرك المعادي للدعوة) بعبودية الله وتوحيده والإخلاص له الذي تفضل عليهم بالمقومات الاقتصادية بالطعام

والمقومات النفسية بالأمن وحفظ لهم هيبتهم وسط العرب ورغم ذلك عادوا النبي ﷺ وحاربوا الدعوة وكذبوا بالدين وأشركوا بالله عز وجل.

أشكال الترابط بين السور

- ترابط السور المتتالية في الترتيب النهائي لسور القرآن بأشكالٍ شتى وردت جميعها لتحقيق الأهداف المشتركة لهذه السور ومن ثم يصل بنا هذا الترابط بكل أنواعه لرسم الخريطة الكلية للمنهج الحركي للقرآن ونقوم هنا بذكر بعض أنواع الترابط بين سور القرآن المتتالية وأشكاله والتي قد تقع إحداها بين مجموعة من السور وتقع الأخرى في تسلسل آخر لبعض السور المتتالية:

١- ترتيب العلة على المعلول والسبب على المسبب (النتيجة تأتي بعد المقدمات)

- كما ذكر في النموذج السابق في ترتيب سورة (قريش) على سورة (الفيل).

- وأيضاً سورتي الأنفال والتوبة تتحدثا عن موضوع (الجهاد في سبيل الله) متمثلاً في أول غزوات النبي ﷺ في بدر وآخر غزواته في تبوك وتسبق هاتين السورتين سور (المائدة والأنعام والأعراف) واللاقي تتحدثن عن الموضوعات الآتية سورة (المائدة) تتحدث عن: "التشريك في التشريع وإقامة الحاكمية و(الأنعام)": "التشريك في العبادة وعدم فصل الدين عن مظاهر الحياة" ثم تأتي سورة (الأعراف) موضوعها هو: "الكبر في عدم اتباع الحق" وكأن الخط المشترك بين هذه السور جميعاً هو أن علة الجهاد بُنيت على أسباب: (التشريك في التشريع والعبادة ثم إصرار هؤلاء المشركون على عدم اتباع الحق كبيراً وعناداً مع وضوحه وبيانه) وهذا ما تؤكد آيات الأنفال والتوبة الداعية للجهاد لإحقاق الحق ومنها ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧٨]. ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

٢- النتيجة تقع قبل المقدمات والأسباب

- على سبيل المثال تتحدث سورة (يونس) عن موضوع: "التوكل على الله" بينما تتحدث سورة (هود) عن موضوع: "اليقين في الله" ومن المعلوم أن التوكل ثمرة من ثمرات اليقين فأنت النتيجة والثمرة قبل المقدمة والسبب.

٣- النتيجة تقع من المقدمات موقع المركز من الدائرة فيحيط بها دعائمها

وبواعثها

- يقول د. محمد عبد الله دراز عن هذا النوع من أنواع الترابط بين السور: "من الطرائف البيانية في أسلوب القرآن أن النتيجة فيه تقع من المقدمات موقع المركز من الدائرة لا موقع الطرف من الخط كما هو شأن الأسلوب التعليمي المشهور ألا ترى هذا الأمر بالقتال في سبيل الله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤] قد أحيط من جانبيه كليهما بدعائم وبواعث إجمالاً قبل وتفصيلاً بعد؟ وستجد شواهد ماثلة في مواضع كثيرة وتأمل في سورة النحل قوله تعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فقد جاء وسطاً بين دلائل الوجدانية في التدبير ودلائل الوجدانية في الإنعام والإحسان, وتأمل قوله في السورة نفسها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فقد جاء بعد تبين أصول العقيدة وقبل تبين أصول الفضيلة العملية ومن جملة السابق واللاحق يتألف البرهان على صدق هذه القضية^(١).

وهذه الأشكال المذكورة للترابط بين السور المتتالية وغيرها صارت معطيات ساعدت بفضل الله على استنباط الأهداف الكلية المشتركة بين السور والانتقال بها من مجموعة إلى أخرى في خط واحد متصل ومن ثم رسم الخريطة النهائية للمنهج الحركي المستهدف تخطيطه بإذن الله وعونه.

وإذا قمنا بضرب مثالٍ أوسع لعدد من السور المتتالية- السابقة الذكر- يجمع أشكال

الترابط هذه كلها لوجدنا بفضل الله وعونه:

- سور (المائدة والأنعام والأعراف): تمثل بواعث الجهاد من وجود فتنة الشرك والكفر.

- سور (الأنفال والتوبة): تمثل الدعوة إلى الجهاد لإزالة هذه البواعث.

(١) كتاب "النبأ العظيم", د. محمد عبد الله دراز, ص ٢١٣

- سور (يونس وهود): تمثل دعائم الجهاد من التوكل على الله واليقين به سبحانه وتعالى ، هذا والله عزوجل أعلم.

ثالثاً: منهجية عرض مقاصد القرآن مع ضرب نماذج

المقصد الأول: معرفة الله عز وجل

- سنتناول مع كل سورة بإذن الله اسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته العلى والتي يرتبط بها مراد السورة وتحقيق هدفها العام ويتناسب مع موضوعها الرئيسي، ومن ذلك على سبيل المثال:

- سورة (يوسف) يتحدث موضوعها الرئيسي والله أعلم على: الحن والابتلاءات المتتالية التي أَرادها الله عز وجل لعباده المؤمنين المختارين لتمكين دينه في الأرض تمحيصاً وتخليصاً له سبحانه وتعالى وكيف يقابل العبد المؤمن هذه الابتلاءات باليقين والصبر والتسليم بتدبير الله عز وجل الذي أعده لإنفاذ مراده ومشيتته القاهرة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

- لذا يكون شرح اسم الله (المدير) وتناوله من خلال آيات السورة ومعانيها وقصصها له تناسب بإذن الله مع تحقيق مراد السورة وهدف موضوعها الرئيسي، فييسر لنا الله عز وجل بذلك التعرف على أسماء وصفاته وربطها بكتابه الكريم وترسيخ معاني هذه الأسماء من خلال سور القرآن عسى أن نعمل على تحقيق مقصد القرآن الأول بالتعرف على الله عز وجل والله ولي ذلك والقادر عليه.

المقصد الثاني: تزكية النفس وصناعة الريانيين:

- سنتناول مع كل سورة بإذن الله وبعد شرح اسم من أسماء الله الحسنى الأكثر مناسبة لموضوع السورة ومرادها كما ذكر سنتناول منزلة العبودية الخاصة بتطبيق مقتضيات هذا الاسم وتحقيق آثاره في نفس وقلب وأخلاق العبد المؤمن.

- يقول ابن القيم في كتاب شرح أسماء الله الحسنى:

"الأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية فلكل صفة من الصفات عبودية خاصة بها هي من مقتضياتها فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والإحياء والإماتة يثمر عبودية التوكل عليه باطنًا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا"^(١).

ففي المثال السابق في سورة (يوسف) بعد شرح اسم الله (المدبر) نتناول: منزلة "الصبر" ليحل في العبد تطبيقًا عمليًا لتعرفه على اسم الله (المدبر) ويقينه في إنفاذ الله عز وجل مراده ومشيئته في الحياة عامة وفي الابتلاءات والمحن خاصة وإعمال حكمته سبحانه وتعالى التي قدرها قبل ابتلاءه عباده بل قبل خلقه جميع خلقه وطبيعة ابتلائه ومدته وتوقيت نجاته لعباده وكيفية هذه النجاة فيثمر التعرف على اسم الله (المدبر) عبودية (الصبر) والتي تتحقق في العبد باطنًا ولوازمها وثمراتها ظاهرة بإذن الله تعالى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٨٣] وبالمثل مع تعرفنا على اسم (الوكيل) نتناول كيفية تحقق عبودية (التوكل) وهكذا بإذن الله مع شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلا نتناول تحقيق منازل العبودية المرتبطة بها عسى بذلك أن نعمل بإذن الله على تحقيق مقصد القرآن في تركية النفوس وتربية المؤمنين الربانيين مع استخراج المعاني التربوية الموجودة في كل سورة على هيئة عناصر ونقاط والمرتبطة بتحقيق مقصد تركية النفس وتطهيرها.

المقصد الثالث: الإعداد للدار الآخرة

— سنتناول بإذن الله مع كل سورة بحسب ما يراد فيها مشاهد وأوصاف الجنة لتعميق مشاعر الشوق إليها ومن ثم المسارعة في الخيرات للسباق إليها ومشاهد أوصاف النار لتعميق مشاعر الإشفاق والخوف منها، ومن ثم زيادة منسوب التقوى للحذر من كل ما يقرب من النار عسى بذلك أن نعمل بإذن الله على تحقيق مقصد القرآن بالإعداد للدار الآخرة والله ولي ذلك والقادر عليه.

المقصد الرابع: القيام بمهمة الأمة.

وسنتناول منهجية عرض هذا المقصد من خلال جانبين وهما:

— الجانب الأول: الخط العام لموضوعات السور

(١) كتاب "شرح أسماء الله الحسنى"، ابن القيم الجوزية

• سنقوم بإذن الله بعرض الخط العام لموضوعات السور المتتالية وأهدافها العامة وذلك بعرض الترابط بين موضوع السورة التي نتناولها وموضوع السورة السابقة لها ثم في نهاية السورة نقوم بتوضيح الترابط بين موضوعها وموضوع السورة اللاحقة لها وهكذا يرسم لنا هذا الخط الدلالة العامة لمهمة الأمة ويبرز معالم الطريق الخاص بإقامتها بإذن الله وهذا هو المنهج الحركي للقرآن كما سيأتي توضيحه في الفقرة خامساً.

- الجانب الثاني: عرض السنن الشرعية والكونية

• إن القيام بمهمة الأمة المسلمة يستدعي التبصرة بالسنن الشرعية والكونية وحسن فهمها وحتاج هنا لتوضيح مختصر عن معنى هذه السنن مع بيان كيفية عرض القرآن الكريم لها.

مفهوم السنن الشرعية والكونية

• أراد الله عز وجل خالق الكون أن يسير أمور خلقه الأحياء منها والأشياء وفق ناموس عام ينسق وينظم حركة كل الموجودات والمخلوقات هذا الناموس الإلهي العام يعرف بـ: "السنن الإلهية"، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "هذا الوجود الكوني من خلق الله وراءه مشيئة تدبره وقدراً يحركه وناموساً ينسقه وينظم حركاته جميعاً بانسجام تام فلا تصطدم هذه الحركات ولا تحتل ولا تتعارض ولا تتوقف بانتظام واستمرار إلى ما شاء الله ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وهذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة الإلهية فلا يستطيع أن يخالف ولو لحظة واحدة هذا الناموس الذي يحركه ناموس الله العام للكون كله الأحياء والأشياء وقوانينه المقدرة لكل الموجودات ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

• وتنقسم السنن الإلهية إلى قسمين وهما: السنن الكونية والسنن الشرعية، فالسنن الكونية هي: "تلك القوانين الإلهية الثابتة التي تنظم حركة الكون وكل ما يخص الحياة الاجتماعية للبشر على

الأرض من نظام المعيشة وقيام الأمم والمجتمعات", أما السنن الشرعية فهي: "تلك القوانين الإلهية الثابتة التي تنظم إقامة منهج الله في الأرض الذي ارتضاه وشرعه ليخضع البشر لسلطانه وعبوديته وحده لا شريك له".

- وكلاً من السنن الكونية والشرعية تخضع لسلطان واحد هو سلطان الله رب العالمين ووفق الناموس العام الذي اختاره الله عز وجل فالشريعة متصلة بناموس الكون وسننه ومتناسقة معه لذلك ينبغي ألا يشذ الإنسان بمنهج وتدبير غير المنهج والتدبير الذي يصرف الكون كله.
- غير أن السنن الكونية تختلف عن السنن الشرعية في كونها تخص المسلم والكافر بينما الوسائل المشروعة أو المأمور بها شرعاً لقيام مهمة الأمة نجدها هي أنجح السنن الكونية فسنة التدافع بين الحق والباطل سنة شرعية تتطلب القوة والشوكة للتغلب على أهل الباطل وتجدها تتفق مع السنن الكونية في قيام الدول بالأخذ بالقوة والأسباب المادية غير أنه من السنن الكونية ما لا يلزم أن يكون شرعياً كدور المال أياً كان مصدره لبناء الحضارة المادية مثلاً وهنا السنة الكونية هي أمر قدرتي وجودي جامع للبشر جميعاً بغض النظر عن الدين والقيم بينما المسلم الخاضع لقانون الله وشرعه يأخذ من السنن الكونية طبقاً للأهداف الشرعية وبالطريق

القيام بمهمة الأمة يستدعي فهم السنن الشرعية والكونية

- إن مهمة الأمة بالشهادة على الناس ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ولكن كيف يقود الأمم وقيم دين الله في الأرض أفراداً لديهم قصوراً في فهمهم سنن الله وقوانينه الثابتة التي تسيّر الكون والتي تحكم إقامة الأمم والدول؟ أو لديهم فهماً مقلوباً لهذه السنن؟, يقول أ. جودت سعيد: "لن يستطيع غائب عن أحداث العالم أو مُغَيَّب أن يبدع حضارة فالحضارة من الحضور والشهادة من الشهود فليس لغائب شهادة فكيف لأمة مقصورة الرؤية أن تملك الشهود والإحاطة بتجارب الأمم السابقة والحالية أن تؤدي مهمة الشهادة على الناس" (١).

(١) كتاب مذهب التغيير - جودت سعيد

- والسؤال: لماذا وصل الكافر إلى هدفه وأقام الحضارات وجنى المسلم ضد مراده؟ لماذا بنى البعثيون والروافض والشيوعيون دولاً ومازال المسلمون في حيرة وتيه عن الطريق اللازم لإحياء دولة الإسلام أو عودة الحق المغتصب لحاكمية الله في الأرض التي بدلها الطواغيت بالقوانين الوضعية؟

والإجابة: أننا افتقدنا البوصلة ودليل الهداية رغم كونه بين أيدينا، افتقدنا أن نفهم كتاب الله عز وجل الذي يُعَلِّمنا ويصنرنا بالسنن الكونية والشرعية الثابتة لإقامة الأمم والدول.

بصائر القرآن وفهم السنن الكونية والشرعية

- إن من أهم وظائف القرآن كما ذكرنا في المقدمة تبصرة الناس عامة بالحق من الباطل وتعريفهم بطريق الرشd من الغي كما أن القرآن يمثل هداية خاصة للمؤمنين لا تترك من يحسن الانتفاع به أن يعيش في تيه أو حيرة أو ظلمة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿المائدة: ١٥-١٦﴾ فمن تعلم القرآن وفهم آياته وتدبرها وعاش في جو القرآن الحقيقي سيظل مهما كانت أحلك الظلمات حوله على بينة و يقين ونور من ربه ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴿الأنعام: ٥٧﴾، أما من أغلق منافذ الهدى عن بصائر القرآن وأنواره سيظل في ظلمات الجهل والضلال ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضَلِّلْهُ وَمَن يُشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الأنعام: ٣٩﴾ إذن المنتفع بالآيات البينات والبصائر النيرات التي أتى بها القرآن الكريم هم أولي الألباب الذين يعتبرون به ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿الأنعام: ٦٥﴾.

- ولكي ينجح البشر في امتحان الوجود بعبادة الله عز وجل والتزام صراطه المستقيم ولكي ينجح المؤمنون في مهمتهم بتعييد الناس لله رب العالمين وتحكيم شرعه في الأرض جعل الله عز وجل السنن والقوانين اللازمة لنجاح هذه المهمة المذكورة في رسالته الخاتمة ومعجزته الباقية إلى يوم القيامة ولكن تنوعت أساليب ذكر هذه السنن الكونية والشرعية في القرآن الكريم إما على هيئة قصص الأمم السابقة وذكر تجاربهم لاستخلاص هذه القوانين منها قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ الْيُؤْمِنُونَ ﴿يوسف: ١١١﴾ وفي ذلك يقول د. عبد الحليم عويس: "ومن العجيب أن قدرًا كبيرًا من القرآن يعالج ما يسمى بالقصص القرآني ومعالجته ليست مجرد أن يكون القرآن كتاب تاريخ أو أن يكون من باب الإعجاز القرآني بل الأمر أعمق من ذلك وإن كان ذلك جزءًا من الإعجاز..!! فالقصد الأسمى أن يفهم المسلمون سنن الله الكونية والاجتماعية وألا يحاولوا القفز من فوق سنن الله وأن يعوا أنهم لن يُمكنُوا في الأرض إلا إذا تفاعلوا التفاعل الصحيح مع هذه السنن" (١).

- ومن الأساليب التي تكررت في القرآن لاستخلاص السنن الكونية والشرعية منها ما حكاه القرآن عن تجربة الجماعة المسلمة الأولى في إقامة دولة الإسلام فهذا بيان القرآن مثلًا في سورة آل عمران حول أحداث غزوة أحد كبيان عام للناس كافة وكهداية وعبرة للمؤمنين خاصة قال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وهذه العبرة والدروس جزء من سنن الله الثابتة وقوانينه التي لا تتبدل ولا تتغير ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

- والقرآن الكريم في الكثير من آياته يبين أن سنن الله عز وجل في خلقه ثابتة وماضية إلى يوم القيامة لا تتبدل أبدًا فمن سار على نفس الأسباب أيًا كان حصل على نفس النتائج بشكل متكرر وإن اختلف الزمان والأشخاص ﴿سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

- لذلك فالجميع سواء أمام هذه السنن لا محاباة لأحد فأهل الحق والإيمان تجري عليهم سنن التأييد والولاية حينما يستوفون شروط التأييد وصفات الولاية اللازمة لذلك وحينما تنتفي هذه الشروط تجري عليهم سنن الخذلان والعقوبة ﴿سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] أما أهل الضلال والباطل تجري عليهم سنن الغضب والسخط الإلهي حينما يمتلئ وعاء الظلم والبغي بالقدر الذي قدره الله عز وجل لنزول العذاب بهم قال

(١) كتاب المحاور الخمسة للقرآن، الشيخ محمد الغزالي، مقدمة الكتاب، ص ٦

تعالى ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

- والقرآن اشترط للتبصرة وفهم السنن: الانتفاع بالآيات ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨] فالقرآن ينتفع به المتقون ويعرض عنه المجرمون ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] كما يشترط العلم بالسوابق التاريخية للأمم الخالية وما يحدث للأمم المعاصرة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، وقال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

- ولن يحجبنا عن فهم السنن الكونية والشرعية التي ذكرها القرآن الكريم إلا عدم انتفاعنا بآيات الله والعلم بتجارب الأمم السابقة وفهم قصص القرآن، فحديث آيات القرآن الكريم عن بني إسرائيل مثلاً وقراءتها وكأنها لا تخصنا بل على أنها تحكي عن الكافرين والمجرمين وأمة فاشلة فهذا فهم مغلوط وهذه قراءة خاطئة قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

- ومن هنا سنتناول بإذن الله السنن الشرعية والكونية التي جاءت في القرآن الكريم ونتناول مظاهر الصمم والعمى عن فهم تلك السنن وذلك حسبما تذكر في كل سورة من سور القرآن الكريم التي نتحدث عنها ونتناولها بإذن الله وذلك تحت فقرة بعنوان "بصائر" لفهم السنن الشرعية والكونية.

رابعاً: طرق تحليل اسم السورة مع ضرب نماذج تطبيقية

• هناك عدة طرق لتحليل اسم السورة للوصول بإذن الله إلى مدلوله ورمزيته ومن ثم معرفة هدفها العام وموضوعها الرئيسي ومن هذه الطرق:

١. تدبر السورة كلها بالنظرة الإجمالية إليها وبعد قراءة تفسيرها أولاً ثم البحث في اسم السورة في الآيات التي ورد فيها داخل السورة ثم الإطلاع على بعض ما يتعلق باسم السورة من القراءات الخارجية إن تتطلب الأمر التي قد يفتح الله بها آفاقاً جديدة تعين على الوصول لفكرة الاسم

ودلالته، فعلى سبيل المثال سورة العنكبوت الآية الوحيدة التي ورد فيها ذكر العنكبوت تتحدث عن بيت العنكبوت ووهنه وتضرب مثلاً بالمشركين بالله كمثل العنكبوت وبيته قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] ثم توضح الآيات التي تليها ضرورة إعمال العقل ثم البحث في العلم لفهم هذه الأمثال التي يضرها الله عز وجل للناس في القرآن وألا تمر مرور الكرام علينا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاصِرٍ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وبفضل الله وحده توصل العلم الحديث في دراسته لحشرة العنكبوت وبيتها وخطوطه وسلوكها الإجتماعي وعلاقة ذكر العنكبوت بأنثاه إلى أمور تفتح آفاقاً مذهلة في فهم هذا المثال كما سنين بإذن الله في عرض سورة العنكبوت ومن ثم المساعدة في التوصل إلى ترابط باقي آيات السورة بهذا المثال الذي ورد فيه ذكر بيت العنكبوت والتي سميت السورة باسمه فنصل بعون الله إلى موضوع سورة العنكبوت وهدفها العام بعد الرجوع إلى باقي آيات السورة وعناصرها وعلاقتها بهذا المثال.

٢. البحث عن التشابه في مرات تكرار هذا الاسم في باقي آيات القرآن وفي مواضع أخرى من سور القرآن وتلخيص موضوع عبارة عن حديث القرآن عن هذا الاسم لتكوين خلفية كاملة عنه فعلى سبيل المثال سورة (مريم) تتطلب منا النظر في الآيات التي ورد فيها الحديث عن السيدة (مريم) في سور أخرى في القرآن مثل سور : (آل عمران والأنبياء والتحريم) ثم نقوم باستخلاص صفات السيدة مريم التي ذكرها القرآن في كل مواضعه تساعد في تحليل هذا الاسم والوصول بإذن الله إلى مدلوله وخاصة حينما نجد أن كلمة (مريم) تعنى بالعبرية : "عابدة" ، وهو ما يتوافق مع صفاتها في القرآن وما جاء في باقي آيات السورة.

٣. البحث عن أوجه الاختلاف بين اسم السورة في باقي سور القرآن وبين السورة المنظورة فعلى سبيل المثال حين التأمل والتفكير في سورة هود والبحث عن سبب اختيار اسم (هود) عليه السلام وبعد النظر في الآيات التي بها قصة هود عليه السلام مع قومه في السورة لزم الأمر البحث في باقي سور القرآن التي بها قصة هود عليه السلام مع قومه (عاد) مثل سور الأعراف والشعراء والأحقاف مثلاً

والنظر في أوجه الاختلاف التي تحملها نص الآيات التي تنفرد بها سورة (هود) عن باقي السور الأخرى، أيضاً البحث في الآيات والسور التي جاء بها ذكر صفات قوم (عاد) والخروج بالصفات الرئيسية التي اتصف بها هؤلاء القوم دوناً عن غيرهم من باقي الأقوام الذين ذكروا في القرآن مع البحث عن أوجه الاختلاف بين قصة (هود) وباقي قصص الأقوام السابقة المذكورة في نفس السورة سنصل إلى خط بإذن الله يساعدنا على فهم مدلول اسم السورة.

٤. ومن الأمور المعينة بفضل الله: التفكير في ترابط السور فسور القرآن الكريم مترابطة وقد يفتح الله عز وجل خيطاً من خلال السورة السابقة والسورة التالية للسورة التي تقف عندها وتريد الوصول لفهم مدلول اسمها، فعلى سبيل المثال: سورة القصص للوصول إلى سبب تسمية اسمها وذلك بعد قراءة تفسيرها وتدبر السورة كلها وموضوعاتها الرئيسية ثم البحث في اللغة العربية عن معنى كلمة القصص من قص الأثر أى تتبع الأثر وسار خلفه، والنظر في باقي الآيات في القرآن التي جاء فيها لفظ القصص تجد في حالة عدم اكتمال المعنى المراد لرمزية (القصص) تجد توسطها بين سورتي (النمل) و(العنكبوت) في حالة الوصول لموضوعها مسبقاً يعين بفضل الله على إشراق اسم (القصص) بأنواره والله الفضل والمنة.

٥. ومن الأمور المعينة بفضل الله: البحث في السيرة النبوية لفهم الأحداث المرتبطة باسم السورة وعلى سبيل المثال: أحداث الغزوات كبدر للوصول بإذن الله إلى موضوع اسم سورة (الأنفال) ومدلول اسمها وكذلك أحداث صلح الحديبية للوصول بإذن الله إلى مدلول اسم سورة (الفتح) وغزوة الأحزاب للوصول بإذنه إلى مدلول اسم سورة (الأحزاب) وهكذا...

٦. ومن الأمور المعينة بفضل الله: وتأتي في مقدمة الأمور بل هو الأصل الرجوع أولاً إلى تفسير السورة وفهم أسباب النزول وملابسات الجو العام للسورة وقراءة تفسيرها وشرح الآيات والأحاديث التي وردت فيها فعلى سبيل المثال: سور (التحریم)، (المتحنة) أو (المجادلة) وجب معرفة أسباب النزول الخاصة بها أولاً مع قراءة تفسيرها.

٧. ومن الأمور المعينة بفضل الله: الرجوع إلى فهم المعاني المرتبطة باسم السورة إذا كان معبراً عن حدث أو عبادة فعلى سبيل المثال سورة (الحج) وجب الرجوع إلى فريضة وعبادة (الحج) لفهم

مناسكها والمعاني الإيمانية التي تحتويها المناسك لتساعد بإذن الله على تدبر سورة (الحج) ومن ثم التوصل إلى مدلول اسمها ومعرفة موضوع السورة الرئيسي مع أيضاً البحث في الخيط الرابط بين السور الثلاث المتتالية: الأنبياء والحج والمؤمنون.

■ إشارة هامة: يبقى بعض أسماء السور عليها على هيئة الحروف المقطعة مثل: ق، ص ، يس... وموقف الجمهور من العلماء أنها من الإسراء التي لا يعلمها إلا الله عز وجل فهي من المتشابه كأوائل السور التي بدئت بالحروف المقطعة، لن نذهب إلى تأويلها، ولكن يكفيننا دراسة الوحدة الموضوعية للسورة نفسها.

خامساً: المنهج الحركي للقرآن:

أ) السمة الحركية والمهمة العملية للقرآن

- يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: " إن القرآن يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حتى إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقص قصصه لجرد المتاع الفنى فهو في عمل دائم وفي حركة دائمة فهذه النصوص نزلت لتواجه معركة معينة ماتزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان وعلى توالى الأجيال وبين أعدائها التقليديين الذين مايزالون همهم وماتزال أهدافهم هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها"^(١).
- ويقول الدكتور صلاح الخالدي في كتابه المنهج الحركي في ظلال القرآن: " وبهذه المهمة العملية الحركية أنشأ القرآن الكريم الجماعة المسلمة وقادها في طريقها إلى ربها وبهذه المهمة العملية الحركية هو قادر على القيام بنفس الدور مع أى جماعة مسلمة لاحقة بشرط أن تتحرك به وأن تجعل لنصوصه بعداً واقعياً في حياتها وحركتها"^٢.

- ومن مظاهر المهمة العملية الحركية للقرآن عند سيد قطب رحمه الله إخراج الأمة المسلمة إخراجاً معجزاً من بين دفتي القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ سورة آل عمران - فيقول رحمه الله: "إنها كانت نشأة

(١) انظر الظلال (٣: ١٢٤٥)، (١: ٥٦٦)

(٢) كتاب المنهج الحركي في ظلال القرآن - د صلاح الخالدي ص ٧١، ٧٤

ولم تكن خطوة ولا مرحلة كانت إخراجاً من صنع الله كتعبير القرآن الدقيق وكانت أعجب نشأة وأغرب إخراج فهي المرة الأولى والأخيرة - فيما نعلم - التي تنبثق فيها أمة من بين دفتي كتاب و "تخرج" فيها حياة من خلال الكلمات ! ولكن لا عجب .. فهذه الكلمات .. كلمات الله" (١).

• ومن مظاهر مهمته أيضاً رسمه الخطة العامة للمعركة التي تخوضها الأمة المسلمة مع أعدائها يرسمها لها بصفة عامة وهي إن التزمت بما يتحقق لها الظفر على أعدائها يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٣] - إنها خطة مرحلية كما يرسمها القرآن ، وإنها تأمر بقتال الذين "يلون" دار الإسلام ، فإذا انتهى قتالهم انتقلت جيوش الجهاد إلى الذين يلونهم وهكذا وبهذه الخطة القرآنية تتوحد الرقعة الاسلامية وتتصل حدودها ولا توجد جيوب فيها لأعدائها وعلى هدى هذه الخطة سارت حركة الفتح الإسلامي الأول مرحلة مرحلة فلما أملت الجزيرة العربية كان التوجه إلى بلاد العراق ثم بلاد الشام ثم الانسياح إلى بلاد الفرس والروم وإفريقيا والأندلس ...» (٢).

• وبما أن للقرآن مهمة حركية عملية لذلك فإن لكل سورة فيه شخصية مستقلة كما يقول د.صلاح الخالدي : "لكل سورة كريمة فيه شخصية مستقلة متناسقة وتكون وحدة موضوعية متكاملة ولها ملامح متميزة وأسلوب خاص والذي يعيش مع سور القرآن بكيانه ويتحرك بها في حياته يجدها كما وجدها سيد قطب " إنها أصدقاء .. كلها صديق وكلها أليف .. وكلها حبيب .. وكلها ممتع ... " ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة في عوالم ومشاهد ورؤى وحقائق وتقارير وموحيات" (٣).

(ب) **المقصود بالمنهج الحركي للقرآن** الذي نعرض له في هذا البحث بإذن الله هو : (المنهج الذي رسم فيه القرآن الكريم معالم طريق مهمة إقامة الدين في حياة الناس).

(١) انظر الظلال (٢: ٢٨٥ - ٢٨٦)

(٢) انظر الظلال (٣: ١٧٣٦)

(٣) انظر الظلال (٣: ١٢٤٣)

هذا المنهج حدده القرآن من خلال الترتيب النهائي لسوره في خط متصل يربط موضوع كل سورة وهدفها العام ليبين طبيعة الطريق وغاياته وأهدافه وعقباته وكيفية إزالتها مع بيان التأهيل المطلوب لأداء هذه المهمة مع توضيح هذا المنهج للسنن والقوانين الشرعية والكونية التي تحكم هذا الطريق لأنه منهج واقعي حركي صالح ومناسب لكل الظروف والبيئات والأزمنة.

(ج) علاقة المنهج الحركي بمقاصد القرآن

- إن دور المنهج الحركي للقرآن هو تقديم بصائر: (معالم الطريق الخاص بمهمة الأمة المسلمة) و هذه البصائر تقدم لطبيعة المؤمنين أفراد القاعدة الصلبة المنوط بها تحقيق هذه الأمة وإقامتها.

- بينما هدف عرضنا لمقاصد القرآن في كل سورة من سوره هو: إعداد رجال ربانيين مجاهدين من طليعة المؤمنين وتربيتهم وتزكيتهم (مقصد: تزكية النفس) مع تعريفهم بالله عز وجل (مقصد: التعرف على الله) فتتجرد هذه الطليعة المؤمنة من حظوظ أنفسها وشهواتها وتتحرر من حظوظ الدنيا وجوازها وتتعلق بربها الذي تعرفت عليه واشتاقت إليه واستعدت للتفاني في سبيله والفوز بجنته والنجاة من عذابه (مقصد: الإعداد لليوم الآخر) وتتمثل فيها العقيدة الصافية والعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له أى أن تكوين وإعداد أصحاب المهمة مع تبصيرهم بأبعاد مهمتهم ومعالمها هو علاقة المنهج الحركي للقرآن بمقاصد القرآن وهذه هي رحلتنا بإذن الله مع القرآن الكريم في بحث (هداية المنان في مراد سور القرآن) والتي نلخص فيها مفردات هذه الطريق في هذه المفاهيم الآتية:

- المهمة: تحرير الناس من حاكمية البشر وتقرير الألوهية في حياة الناس وتعييدهم لله عز وجل وإذعائهم لشرعه وسلطانه وحاكميته.
- سبيل المهمة: الجهاد في سبيل الله لإزالة الطواغيت والأرباب لوصول البلاغ المبين برسالة الإسلام لجمهور الناس بحرية.
- المطلوب: تكوين وإعداد قاعدة صلبة ربانية مزكاة ومطهرة.
- منهج التكوين والإعداد: تقرير العقيدة وتزكية النفس بالقرآن من خلال تحقيق مقاصده العليا.

• الهدف الأسمى: تقرير العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له والإلوهية في نفسك وفي ضميرك وفي قلبك وفي حياتك أنت حتى لو لم تتحقق بك المهمة.

الغاية الأكبر: رضوان الله عز وجل ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] ونيل رحمته ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] والنجاة من عذابه ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

د) ما أوجبنا إلى المنهج الحركي للقرآن

- إن الاستطرداد في تقديم الأسس والقواعد التي بُنيت عليها منهجية هذا البحث للبرهان على الحاجة الماسة للاجتهاد في استنباط (المنهج الحركي للقرآن) نسير على هداه يبصرنا بمعالم الطريق لإقامة حاكمية الله في الأرض انطلاقاً من هدى النبع الصافي منهج القرآن الكريم ، وتزداد الحاجة خاصة في زماننا هذا بعد سقوط الخلافة وتنحية الدين من مناحي الحياة وظهور معالم الحكم الجبري من قهر الناس واستعبادهم ومحاربة كل محاولات إقامة الدين وتحكيم شرع رب العالمين وتشتد الحاجة ايضاً مع دخول الأمة في ظلماتٍ وتيه وذلٍ وهوان.

أهداف هذا البحث (هداية المنان في مراد سور القرآن):

أولاً: الأهداف الرئيسية بإذن الله:

١- العمل بالقرآن والتخلق به:

- وذلك من خلال تحليل موضوعات السورة وعناصرها للوصول إلى أهدافها الرئيسية ثم عرض الواجبات العملية التي تدل عليها كل سورة للحث على العمل والتخلق بها.

٢- تكوين القاعدة الصلبة المزكاة والمطهرة:

- وذلك من خلال التركيز على تحقيق مقاصد القرآن في كل سورة متمثلة في تركية النفس

والتأهيل العقدي لتقرير الألوهية في النفوس والضمائر والقلوب والأخلاق من خلال التعرف على الله عز وجل والإعداد للآخرة.

٣- حمل مهمة التحاكم بالقرآن إلى الناس:

- وذلك من خلال عرض المنهج الحركي للقرآن في رحلة تربط تسلسل سور القرآن وأهدافها العامة في خط واحد متصل يبرز معالم الطريق ويرسم ملامحه لأفراد القاعدة الصلبة المنوط بها إقامة الدين في الأرض مع استخراج السنن والقوانين الشرعية والكونية الموجودة بكل سورة والتي تشكل البصائر لهذه القاعدة الصلبة.

ثانياً: الأهداف التكميلية بإذن الله:

١. زيادة الارتباط بالقرآن والتعلق بكل سورة وحبها بمشاعر مختلفة عن سائر السور الأخرى فعن أنس رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب هذه السورة: قل هو الله أحد، قال ﷺ "أن حبها أدخلك الجنة"^(١).

٢. تحقيق وظائف القرآن من الهداية والشفاء والنور والبصائر والتثبيت وزيادة الإيمان وغيرها كما ذكر في المقدمة.

٣. التعرف على الله عز وجل من خلال كتابه الكريم وآياته في الكون ودراسة أسماءه الحسنی وصفاته العلی.

٤. الإعانة على تعلم القرآن وفهم مراد سوره وزيادة الإقبال على تدبره ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

٥. الحث على الدعوة إلى الانتفاع الحقيقي بالقرآن ونشر في الأمة أهمية الرجوع للتعامل الصحيح مع القرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

- وبعد الاستعانة بالله وعظيم فضله وتوفيقه رجعنا إلى "المنهج الحركي للسيرة النبوية" حيث ان السيرة النبوية هي التطبيق العملي للقرآن وهي الصورة النموذجية لإقامة دولة الإسلام وجعلناها

(١) أخرجه البخاري (٧٧٤/٢) تعليقاً قاله الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٣)

أحد أهم المراجع لنا بعد التفاسير المعتبرة للقرآن مثل تفسير ابن كثير - تحقيق الشيخ أحمد شاکر وتفسير السعدي وفي ظلال القرآن.

والله عز وجل نسأل أن يجنبنا عثرات الفكر وزلات القلم وهوى النفس وغواية الشيطان وأن يهدينا ويهدي بنا إلى سواء السبيل وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وفي صحيفة حسناتنا يوم الدين إن ربي سمیع مجیب (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكل وإليه أنیب).

..... تم بحمد الله الإنتهاء من تمهيد البحث

/وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الخريطة الكلية للمنهج الحركي للقرآن

- الفاتحة: (مقاصد القرآن وغاية الطريق).
- السلسلة الأولى: من سورة البقرة إلى سورة التوبة.
- (بيان الحق في مهمة تقرير عقيدة الألوهية في دنيا الناس).
- السلسلة الثانية: من سورة يونس إلى سورة طه.
- (الإعداد والتأهيل المطلوب لحمل الحق وأداء المهمة والدخول لدائرة التأييد الألهي).
- السلسلة الثالثة: من سورة الأنبياء إلى سورة النور.
- (قاعدة الدعوة: تمثل العقيدة في طليعة المؤمنين قبل إقامتها في المجتمع المسلم).
- السلسلة الرابعة: من سورة الفرقان إلى سورة الأحزاب.
- (محاولات إضلال المجتمع المسلم وتشويه المنهج وغزو الأمة وكيفية مواجهتها).
- السلسلة الخامسة: من سورة سبأ إلى سورة الأحقاف.
- (البلاغ المبين وحمل الرسالة).
- السلسلة السادسة: من سورة محمد إلى سورة الحديد.
- (الجهاد لفتح الطريق أمام تبليغ الرسالة).
- السلسلة السابعة: من سورة المجادلة إلى سورة التحريم (الجزء ٢٨).
- (الاستجابة لنداء الله بالعمل ونصرته بتحقيق رابطة العقيدة "الولاء والبراء").
- السلسلة الثامنة: من سورة الملك إلى سورة المرسلات (الجزء ٢٩).
- (الصبر على عناء الطريق وتبعاته وعدة الصابرين).
- السلسلة الحادية: من سورة النبا إلى سورة الناس (الجزء ٣٠).
- (انتصار العقيدة على الحياة الدنيا وفتنها وانتصارها على النفس وحفظها).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سورة الفاتحة» - فاتحة الطريق إلى الله وغايته -»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٤﴾ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿٦﴾ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾

الفاتحة أعظم سورة في القرآن العظيم:

- وردت أحاديث شريفة كثيرة في فضل سورة الفاتحة وعظم شرفها ومنها:

- عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل القرآن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾»^(١).
- وعن ابن عباس قال: "بيننا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذا سمع نقيضاً فوقه فرجع جبريل بصره
إلى السماء فقال: هنا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ
فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ
حرفاً منها إلا أوتيته"^(٢).
- وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم
الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»^(٣).
- وعن أبي سعيد بن المعلبي رضى الله عنه قال: "كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجه حتى
صليت: قال: فأتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال: قلت: يا رسول الله كنت أصلي قال: ألم
يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي كما في صحيح الجامع (١١٢٥)

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٦)

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٥٧)

- ٢٤], ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال: نعم (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).
- وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدي نصفين»^(٢).
 - لذلك قال الحسن البصري رحمه الله: «إن الله قد جمع علم الكتب السابقة في القرآن وجمع علم القرآن في المفصل وجمع علم المفصل في الفاتحة».

- وتأمل من عظم شرف سورة (الفاتحة) أنها هي السورة الوحيدة التي يجيبك الله فيها بنفسه بعد كل آية من آياتها, عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل, إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي, وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي, وإذا قال العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله: مجدني عبدي, وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل, فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»^(٣).

- فأى شرف هذا الذي اختصت به سورة الفاتحة فهي أم الكتاب التي لا تصح صلاة إلا بها لما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وتذكر أنك تردد هذه السورة قصيرة الآيات عظيمة القدر والشرف يومياً ما لا يقل عن ثلاثين مرة في اليوم والليلة إذا حافظت على السنن فلا بد أن هناك أسراراً عظيمة لا تنضب تتضمنها هذه السورة قليلة الكلمات عظيمة الأجر والفائدة فما أحوجنا لتدبر معانيها والتفكر في أسرارها.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ٤٥٠)

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٥)

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨, ٤٠)

من أسماء سورة الفاتحة:

- أم القرآن وأم الكتاب والقرآن العظيم كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- السبع المثاني: لأنها تثنى في الصلاة أي تتكرر في القراءة في كل ركعة وهي سبع آيات, واختلف العلماء في كون البسملة آية من الفاتحة على ثلاثة أقوال:
- الأول: قال مالك: ليست آية من الفاتحة ولا من السور, والثاني: هي آية من كل سورة قاله عبد الله بن المبارك, والثالث: قال الشافعي: "هي آية من الفاتحة وتردد في أنها آية من كل سورة", وقال القرطبي: "الصحيح من ذلك قول مالك لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقة التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه". وعن أنس بن مالك قال: "صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ولا يذكرون البسملة"^(١), من عدّها آية من الفاتحة عليها الأولى من السبع ومن لم يعدها من الفاتحة قسّم الآية الأخيرة اثنتين فكانت سبعاً عند الفريقين.
- الصلاة: كما جاء في حديث قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين لأنها شرط في صحة الصلاة.
- الشفاء: لما روي عن أبي سعيد مرفوعاً: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سُوء»^(٢).
- الرقية: لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: لرجل رقي بها «وما يدريك أنها رقية»^(٣).
- الكافية: قال يحيى بن كثير أنها تكفي ما عداها ولا يكفي ما سواها عنها.
- أساس القرآن: لما رواه الشعبي عن ابن عباس أنه سماها (أساس القرآن) قال: وأساسها **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**.
- سورة الحمد: لأنها بدئت به.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣ / ١١٤)

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧)

الهدف العام لسورة الفاتحة ومحورها الرئيسي:

- إذا قمنا بالنظر إلى سورة الفاتحة نظرة إجمالية لوجدنا بعون الله وتوفيقه أن الفاتحة جاءت في بداية كتاب الله عز وجل كالمقدمة المختصرة له والتي تعبر عن مراد القرآن كله وتحوي مقاصده العليا وتلخص منازل العبودية للسائرين إلى الله عز وجل ومقامات الإيمان وأنواع التوحيد تجمع ذلك كله بأقل الآيات وأحكم الكلمات، فكانت الفاتحة بحق هي: الكافية الشافية التي لا يقوم غيرها مقامها، وكانت الفاتحة بحق هي أم القرآن وأم الكتاب والقرآن العظيم التي لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها.

- جاءت الفاتحة كلها عبارة عن دعاء وتوسل طلبًا للهداية إلى الحق والعمل به والثبات عليه حتى الممات (اهدنا الصراط المستقيم) والحق هنا: هو مراد الله من الخلق الذي شرعه في دين الإسلام ونظامه وبيّنه في منهج القرآن وأظهره وصرفه وكرره بأساليب مختلفة وأدلة دامغة وآيات بينات كالشمس والنجوم الساطعات وهو: (تحرير الإنسان من أي معبود أو مطاع أو هوى أو حظ أو شهوة ليخلص لله وحده لا شريك له معبودًا وحاكمًا وأميرًا ومطاعًا) ثم بيّنت الفاتحة أقسام الناس حول هذا الحق علمًا وعملاً إلى أقسام ثلاثة وهم: منعم عليهم ومغضوب عليهم وضالين.

- قامت سورة الفاتحة برسم معالم الطريق إلى الله للوصول إلى هذا الحق والعمل به والثبات عليه، فبيّنت أول الطريق وغايته ووسيلته ولذا نقول بإذن الله أن الهدف العام للسورة هو (والله أعلم): (وصف معالم الطريق إلى الله مبتدأه ومنتهاه للوصول إلى مراد الله) وهذا الهدف العام يتحقق بعون الله وتوفيقه من خلال تحقيق مقاصد القرآن التي اشتملت عليها الفاتحة أبيضاً اشتمال ويمكن لنا أن نقسم السورة إلى مقاطع على حسب عرضها لمقاصد القرآن والتي نستطيع بفضل الله أن نجد لها خط الترابط الرئيسي بين الآيات وبالتالي فإن محور السورة الرئيسي هو: (تحقيق مقاصد القرآن وهي التعرف على الله والتأهل للآخرة وتركية النفس وحمل مهمة الأمة).

بداية السبر: معرفة الغاية من الوجود:

• وضحت الفاتحة بيان الغاية من الوجود وهو: تمثل العقيدة الصافية بالتعرف على الله عز وجل وذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٢ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وتحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل في الضمائر وفي النفوس وفي العبادات وفي السلوك وفي مناحي الحياة جميعاً وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والتي فسرها القرآن بعد ذلك في أكثر من موضع منها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج: ٣٤] فتصير عبداً لله خالصاً له وحده لا شريك له محرراً من كل حظ من حظوظ الدنيا وجوازها الطينية متجرداً من كل هوى نفس وشهواتها الجبلية وبذلك تنال رضا ربك سبحانه وتعالى ﴿وَرِضْوَانًا مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وهذه الغاية تتطلب أن تحقق مراد الله في امتثال أوامره وترك زواجره والسبر على صراطه المستقيم ومنهجه القويم دين الإسلام ومنهج القرآن وذلك في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ولن يحدث ذلك إلا بعون الله وتوفيقه ودوام الاستعانة به والعصمة به وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعبادة غاية العباد التي خلِقوا لها والاستعانة الوسيلة إليها

أثناء السبر: بيان منازل العبودية ومقامات الإيمان منها:

اشتملت الفاتحة على أصل منازل العبودية للسائرين في الطريق إلى الله عز وجل وهي:

١. منزلة الحمد لقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
٢. منزلة المحبة لقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
٣. منزلة الرجاء لقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
٤. منزلة الخوف من الله لقوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.
٥. منزلة التوحيد في توحيد الإلهية المتمثل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وتوحيد الربوبية المتمثل في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٦. منزلة الإخلاص في التوجه والقصد لقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والإخلاص في الاستعانة ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٧. منزلة التوكل لقوله تعالى ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٨. منزلة الهداية لقوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

٩. منزلة الاستقامة لقوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

١٠. منزلة الولاية للمؤمنين لقوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

١١. منزلة العداوة للكافرين وأعداء الدين لقوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

● ونجد من هذه المنازل أن الفاتحة جمعت شطري الدين, يقول ابن القيم رحمه الله: الدين نصفه "التوكل" ونصفه الثاني "الإناية" فإن الدين استعانة وعبادة يقول تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ويقول تعالى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣] فسبحانه وتعالى هو المستحق وحده بالعبادة ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ (يونس: ٣) وهو وحده الموفق إليها والمعين عليها فلا عبادة بدون استعانة ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الفاتحة ومقامات الإيمان الثلاثة:

● كما نجد أيضاً أن الفاتحة اشتملت على مقامات الإيمان الثلاثة, يقول ابن القيم رحمه الله: "مدار السير إلى الله عز وجل على مقامات الإيمان الثلاثة: الحب والخوف والرجاء قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ويقول رحمه الله: "القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر فالحبة رأسه والخوف والرجاء جناحه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضه لكل صائد وكاسر"^(١).

(١) كتاب "تهذيب مدارج السالكين", ابن القيم, ص ٢٤١

• وفتحة الكتاب تبين للعباد الغاية من الوجود والسبيل إليها ثم المنازل التي ينبغي المرور عليها في سيرهم ثم تحلق بهم كالتائر حتى لا يختل توازنه فتحافظ على سلامة سفرهم في رحلتهم إلى الدار الآخرة، ومقامات الإيمان الثلاثة هي:

١. محبة الله عز وجل وطريقها هو تذكر النعم في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والنبي ﷺ يقول في الحديث الشريف: «أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم»^(١) فمشاعر محبة الله تتجدد في قلب العبد كلما شاهد آثار كرمه وإحسانه.

٢. الرجاء في رحمة الله عز وجل لقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ومشاعر التعلق برحمة الله عز وجل تقوى كلما قويت محبته كما يقول ابن القيم "فإن العبد يرجوه قبل لقاءه والوصول إليه فإذا لقيه أشد الرجاء له لما يحصل له من حياة روحه ونعيم قلبه من أطاف بره" والرجاء في رحمة الله ليس له حدود فمهما قصر العبد أو أسرف فلا ينبغي له أن يقنط من رحمة الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

٣. الخوف من الله تعالى والإشفاق من عذابه وذلك في قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم يدين الله الخلق بأعمالهم ويحاسبهم عليها على كل كبيرة وصغيرة حتى مثاقيل الذر فيتذكر العبد معها كلما قرأ هذه الآية الجنائيات القبيحة التي اقترفها والمفضية إلى العقوبة المستحقة بالعذاب في النار إلا أن يعفو الله عز وجل فالنار يخوف الله بها عباده وهي سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إليه فيتملك العبد مشاعر الخوف أيضاً من أن يأتي يوم الدين وقد حبط عمله وقد بدا له من الله ما لم يكن يحتسب أو أن تكون أعماله الصالحة سرايب بقية أو تصير هباءً منثوراً.

• وعلى العبد المؤمن في سيره إلى الله تعالى أن يديم تغذية قلبه بهذه المشاعر الثلاثة معاً المحبة والرجاء والخوف ثم ترجمتها إلى سلوك يعبر عن ما يفيض في القلب منها لذلك فتكرار الفاتحة في اليوم والليلة يعين القلب على تغذيته بهذه المشاعر بشكل مستمر.

• انتبه سلامة السير تحتاج سلامة العقيدة:

(١) رواه الترمذي في سننه (٣٧٨٩) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٨٣)

- اشتملت سورة الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان, شفاء القلوب من أصل أسقامها وهما: فساد القصد وفساد العلم^(١).
- وفساد القصد لمن فسدت غاياتهم ووسائلهم وهذا بشأن كل من كان غايته غير الله فأشرك في إلهيته وكذلك شأن من طلب الغاية العليا ولكن لم يتوسل إليها بالوسيلة الموصلة إليها وكلاهما فاسد القصد ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما يقول ابن القيم رحمه الله: "دواء مركب من ستة أجزاء: ١- عبودية الله لا غيره, ٢- بأمره وشرعه, ٣- لا بالهوى, ٤- ولا بآراء الرجال وأفكارهم, ٥- بالاستعانة على عبوديته به, ٦- لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره, وهذه هي عقيدة التوحيد السليمة الصافية.
- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا إياك حباً وخوفاً ورجاءً وطاعةً وتعظيمًا وبهذا إبطال للشرك في الإلهية وتحقيق لتوحيد الإلهية.
- ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلا بك وفيها تحقيق لتوحيد الربوبية وإبطال للشرك به فيها.
- وبهذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ من سورة الفاتحة يسلم سير العبد إلى ربه من أي شرك يفسر عقيدته فيفسد قصده تبعاً لها.
- أما مرض فساد العلم يتطلب معرفة الحق وذلك بهداية الصراط المستقيم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهي الدواء الشافي له والله أعلم^(٢).
- وبعد بيان الفاتحة لمعالم الطريق إلى الله بدايته وغايته والمطلوب وسلامته السير إليه سبحانه وتعالى, يتساءل أولوا الألباب والنهي لماذا بدأ القرآن كله بمقام الحمد و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟ ما هو سر ترابط آيات الفاتحة واتصالها معاً؟ ولماذا دعاء الطلب الوحيد في الفاتحة هو (اهدنا الصراط المستقيم)؟ وكيف عرضت الفاتحة مقاصد القرآن الأربع كلها؟

(١) تهذيب مدارج السالكين, ابن القيم الجوزية, ص ٤٠

(٢) تهذيب مدارج السالكين, ابن القيم الجوزية, ص ٤٠

• ولنذكر بإذن الله أولاً: لماذا بدأت الفاتحة بمقام الحمد بل بدء القرآن كله به فالفاتحة هي أول

القرآن؟

قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾: نبدأ بالحمد على نعم الله المتواصلة والتي لا تتوقف ولا تنتهي وأولها نعمة الإيجاد أن أوجدنا سبحانه وتعالى ابتداءً وأعظمها نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

• ولكن ما الفارق بين الحمد والشكر؟ يجيب الدكتور خالد أبو شادي: "الحمد أعم من الشكر فالحمد والشكر يشتركان في معنى الثناء على الله وإن كان الحمد يشمل الشكر على النعم لكنه فوق ذلك يحمل معنى الثناء الحسن على الله بما هو أهله لصفاته الجميلة وأسمائه الحسنى الجليلة فالحمد أعم من الشكر لأنك تحمد على الصفات الذاتية والعطاء لكنك لا تشكر إلا على العطاء"^(١), وعن النبي ﷺ «أن أفضل الدعاء: الحمد لله^(٢), وعنه ﷺ «ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة»^(٣).

• ولكن إذا كانت (الفاتحة) تجمع علم القرآن وتجمع مقاصده وتحوي غاياته وتلخص معانيه فلماذا تبدأ الفاتحة بالحمد بالذات؟ أو لماذا لم تبدأ بالإخلاص وهو سر قبول الأعمال؟ أو تبدأ بالجنة مقصد كل مسلم في الآخرة؟ أو تبدأ بالنصر أمنية كل مؤمن في الدنيا؟ لماذا ارتقى الحمد لبداية القرآن وبداية الفاتحة؟

- نال الحمد قصب السبق ليبدأ أي القرآن وصار مقام الحمد المقام الرفيع في مقامات العبودية وذلك للأسباب التالية والله أعلى وأعلم:

١. الحمد هو العبودية على كل حال فمهما نزلت بالعبد الشدائد والمصائب والكروب يقف بين يدي ربه مقام العبد وأول ما يناجي به ربه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾, هل هناك مصيبة نزلت بالأمة أكبر من مصيبتها في فقد رسول الله ﷺ, ألم تسمع لقوله تعالى تعليقاً على إشاعة مقتل النبي ﷺ في غزوة أحد ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

(١) كتاب "أول مرة أصلي", د/ خالد أبو شادي, ص ٣٠

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه كما في صحيح الجامع رقم (١١٠٤)

(٣) أخرجه الطبراني عند أبي إمامة كما في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٢)

انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤], وسيجزى الله الشاكرين لأن الشاكرين هم القائمون بعبودية الله تعالى في كل حال, وإذا كان الصبر هو المطلوب عند الشدائد فالرضا أعلى من الصبر والشكر أعلى من الرضا.

٢. كل ما هو من عند الله يستوجب الشكر فالتوبة منه وتستوجب الشكر عليها والإخلاص من توفيقه ويستوجب الشكر عليه والدعاء من إلهامه ويستوجب الشكر عليه والهداية بمشيئته وتستوجب الشكر عليها والعطايا من رزقه وتستوجب الشكر عليها حتى شكره وحمده من فضله وإلهامه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩], والعمل الصالح والعبادات أصلاً هي وسيلة الشكر وصورته ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوفِرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ١-٢] بل تشكره أن وفقك أن تكون من عباده ووفقك إلى التعرف عليه وعلى مراده منك من خلال كلامه.

٣. الحبة هي قطب رحى الدين والشكر من أهم ما يعين على تحقيق الحبة كما قال ابن القيم رحمه الله في الأسباب الجالبة للمحبة: "ومنها مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة فإنها داعية إلى محبته, وتحقق الحبة والتوفيق إليه يستوجب الشكر عليها"^(١).

٤. لأن الشكر هو العبادة التي تعجز عن الوفاء بها أبداً وكما قيل الشكر هو معرفة العجز عن الشكر فلربما تصدق العبد أو صام أو حج فاستشعر أنه أدى العبادة المطلوبة منه أما الشكر فلا حد له فهو عبادة مفتوحة لا نهاية لها, فحين تعلم أن حمدك لربك هو نعمة منه عليك يستحق عليها الحمد فإذا وفقك لحمده عليها استحق على حمده حمداً آخر وهكذا لذلك لو استنفد العبد أنفاسه كلها في حمد نعمة واحدة من نعم الله عليه كان عليه من الحمد عليها فوق ذلك فسبحانه وتعالى أشهدك عجزك عن الحمد لتعلم أنه هو الحامد لنفسه في الحقيقة على لسان عبده.

(١) تهذيب مدارج السالكين - ابن القيم الجوزية ص ٤٣٢

٥. الشكر يعين على مكارم الخيرات ودافع الطاعات والارتقاء إلى الله والشكر يعين على الوفاء بالعهد ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] , والشكر يعين على الإخلاص فرؤية المنعم هو صاحب العطاء والفضل يدفعك ألا تجعل له أندادا ﴿لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] , والشكر يعين على الافتقار والمسكنة لله رب العالمين كلما استشعر العبد عظم إحسان ربه عليه , والشكر يعين على الحياء كلما رأى العبد إساءته وتوالي نعم ربه عليه وهو على حال المعصية , والشكر سبب لزيادة النعم واستمرارها ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] , والشكر سبب للاصطفاء والاجتباء ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] , فالله تعالى لا يضع فضله عند من ليس له بأهل بل الذين يعرفون قدر النعمة ويقرون بها ويقومون بما تقتضيه من عمل صالح ولا يستخدمونها في معصية ربهم أولئك الذين اصطفاهم الله عز وجل .

٦. أكمل القربات عند سقوط التكاليف الشرعية في الجنة هو دوام ذكره سبحانه وتعالى بالحمد ﴿مَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] .

٧. الله عز وجل حمد نفسه في ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله فقال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] , وهو الحمود في الأولى والآخرة ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠] , يحمده كل الخلائق بعد انتهاء الجزاء ودخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار حمد فضل وإحسان وحمد عدل وحكمة , قال تعالى ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] .

٨. خير الأنبياء والمرسلين ﷺ اختار الله عز وجل له اسماً مشتقاً من مادة "الحمد" وهو "مُحَمَّدٌ" أي: الحمود في أوصافه وأخلاقه وخليقته , وهو "أحمد" أي: كثير الحمد في كل حال , ولما أراد الله عز وجل تكريم نبيه ﷺ لأعلى المقامات في الآخرة وهو مقام الشفاعة العظمى سماه "المقام الحمود" الذي يحمده فيه الأولون والآخرون , وهما هو ﷺ بعد مغفرة ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر يقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» .

٩. الله سبحانه وتعالى يحب حمد نفسه ومدحها ويكره من عباده أن يمددوا أنفسهم جاء في

الحديث الشريف «لا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل لذلك مدح نفسه»^(١).

١٠. وفوق كل ما ذكر يكفي الحمد أن فيه إثبات صفات الكمال لله رب العالمين، قال ابن

القيم رحمه الله: "إثبات لصفات كمال الله وتنزيهه عن التشبيه والنقائص، فالحمد يتضمن مدح

المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه والخضوع له فلا يكون حامداً من

جحد صفات المحمود وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل وكلما نقص من

صفات كماله نقص من حمده بحسبها ولهذا كان الحمد كله لله حمد لا يخصه سواه لكمال

صفاته وكثرتها لأجل هذا لا يخصي أحد من خلقه ثناء عليه لما له من صفات الكمال ونعوت

الجلال التي لا يخصها سواه".

- فحمد نفسه سبحانه وتعالى على عدم الشريك المتضمن تفرد بالربوبية والإلهية وتوحيده

بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره.

- كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته.

- وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم لتضمن ذلك كمال قيوميته.

- وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا

أكبر لكمال علمه وإحاطته.

- وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحداً لكمال عدله وإحسانه.

- وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار لكمال عظمته.

• ومن هنا كان الحمد دلالة على توحيد الأسماء والصفات فسبحانه وتعالى جاءت أسماءه في سورة

الفاتحة: الله والرب والرحمن والملك بعد حمده نفسه ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في

ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه وأنه إله محمود ورب محمود ورحمن محمود وملك

محمود فافتضى إثبات الحمد الكامل له ثبوت كل ما يمد عليه من صفات كماله ونعوت

(١) صحيح : البخارى (٤٦٣٤) ، و مسلم (٢٧٦٠).

جلاله^(١). وهذه الملائكة تظل راکعة ساجدة طوال ملايين السنين منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة فيقولون: "سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك وما شكرناك حق شكرناك"^(٢). وهذا أكمل الخلق شهودًا ﷻ قال: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٣). ولكمال معرفته بالأسماء والصفات استدل ﷻ بما عرفه منها على أن الأمر فوق ما أحصاه وعلمه فلا يعرف الله إلا الله فله الحمد في الأولى والآخرة وله الحمد كما يجب ربنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

ترابط آيات فاتحة الكتاب

- تترايط آيات سورة الفاتحة في نظم بديع محكم متماسك كوحدة واحدة في أكثر من خط يربط بين آياتها منها:
 - (١) رابط التوحيد.
 - (٢) رابط الحمد والنعمة.
 - (٣) رابط الثناء والدعاء.
 - (٤) رابط تحقيق مقاصد القرآن.
- وأول روابط آيات سورة الفاتحة هو: "خط النعم والمنن التي تستوجب الحمد".

الرابط الأول: فاتحة التوحيد

القرآن كله نزل لإثبات التوحيد لذلك الفاتحة كلها توحيد لله عز وجل، كما يقول ابن القيم في المدارج: "فالحمد لله" توحيد، ورب العالمين توحيد، "الرحمن الرحيم" توحيد، "مالك يوم الدين" توحيد، "إياك نعبد وإياك نستعين" توحيد، "اهدنا الصراط المستقيم" توحيد لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، "الذين أنعم الله عليهم"، "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" الذي فارقوا التوحيد.

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ٢٥، ٢٦

(٢) صحيح: السلسلة الصحيحة بالألباني رقم (٩٤١).

(٣) رواه احمد في مسنده (٣٧٤٠) من حديث عائشة رضی الله عنها .

ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهد له به ملائكته وأنبيأؤه ورسله. قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] ^(١).

الرابط الثاني : فاتحة الحمد والنعمة

- (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ): نبدء بالله استعانةً وتبرؤاً من الحول والقوة وهكذا يشرع ذكر اسم الله قبل كل قول أو عمل قبل الأكل أو الشرب أو النوم أو القراءة أو الوضوء ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١], ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١], وبعد نهاية كل عمل علينا رد الفضل إلى الله فالبسملة والحمد متلازمتان فكلاهما يرد الأمر إلى صاحب الأمر ليعيش العبد بالله ويخرج نفسه من رؤية عملها بعين العجب أو الفرح بالنفس وإمكاناتها فالبسملة قبل العمل استعانة والحمد بعد الانتهاء منه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: له الحمد في السراء وفي الضراء تتابع بره واتصل خيره وتناهى إحسانه, فسبحانه مننه وفضله تسبق أنفاس العباد وأسرع من دقات القلوب, فيوضاته تنزل من خزائنه وليس للعباد فيها استحقاق إنما كل نعمة أنعم به عليهم هي محض فضل ورحمة من: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
- ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: تحمده سبحانه أن رحمته وسعت كل شيء فخلق خلقه برحمته وأنزل كتبه برحمته وأرسل رسله برحمته وأصل علاقته بعباده الرحمة ﴿كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ خلقنا ليرحمنا فرحمته سبقت غضبه وعفوه سبق عقابه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾, وتخيل لو قيل (الحمد لله رب العالمين العدل الحكيم) لظننت أن ما تحمده عليه من النعم هي بعدله وبالتالي أنت مستحق لها وإنما قيل (الرحمن الرحيم) لتعلم أنها محض فضل ورحمة منه وجعل رحمته مائة جزء جزء منها في الدنيا يتراحم بها الخلائق وأدخر تسعة وتسعين جزءاً في الآخرة يرحم بها خلقه

(١) تهذيب مدارج السالكين, ابن القيم الجوزية, ص ٥٦٣

حتى أن إبليس عليه لعنة الله يتناول لينال من رحمة الله ولذلك تتعلق قلوبنا لنيل رحمته يوم الدين لذلك ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

• ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: تحمد الله عز وجل أن الرحمن الرحيم هو مالك يوم الدين فلو أن حسابنا بيد أمهاتنا وهن أكثر الناس شفقة بنا لأبينا ذلك لأن الرحمن الرحيم أشفق بنا من أمهاتنا، ولو قيل (الجبار المنتقم مالك يوم الدين) لفرغ العباد وينسوا من رحمة الله ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، ولا أحد يملك لنفسه شيء يوم الدين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿تُمْ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٩]، ومقتضى تذكر هذا اليوم هو عبودية الله والانقياد والإخلاص له وحده سبحانه وتعالى لذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

• ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: تحمد الله عز وجل على شرف العبودية له وتجدد إخلاص التوجه والقصد له في كل أمر أو قول أو فعل والتخلص من أي رياء أو سمعة، إياك أريد بعبادتي وحياتي كلها ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾ لا شريك له وبذلك أمرت ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، ولن تتم هذه العبودية الخاصة إلا بتوفيق الله وعون من الله فالعبودية غاية العباد والاستعانة وسيلة إليها فلن تصل إليه إلا به ولذلك ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

• ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: تحمد الله عز وجل المعين أن لولاه ما سجد له ساجد وتبرء من أي حول أو قوة إلا حول الله وقوته ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فالإخلاص بعونه وتوفيقه والهداية برحمته ومشيبته ﴿وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠]، يدفعنا ذلك لطلب العون في كل لحظة من الله وطلب الهداية والاستقامة عليها لذلك ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

• ﴿اهْدِنَا﴾: تحمد الله عز وجل الهادي أن أعاننا على دعائه وطرق بابه لطلب عونه وتثيبته دون زيغ أو انحراف على طريقه المستقيم ولولاه لما استقام أحد على صراطه المستقيم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، لذلك ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

- ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: هو دين الله عز وجل فتحمده أن جعل دينه القويم أكمل الشرائع وأتمها التي ارتضاها لعباده ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] , وهذا الصراط مهما طال فهو صراط واحد وما دونه سبل للشيطان ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:] , فهو صراط ملئ بالعقبات (حفت الجنة بالمكاره) ولكن أمامك القدوة والنموذج التي سبقتك ولك الإعانة والرفيق في هذا الطريق ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] رفقة من وحشة التفرد على طولته وعقباته بصالح المؤمنين الذين أنعم الله عليهم لذلك ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.
- ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: تحمد الله عز وجل المنعم على كل من سار على صراطه المستقيم بفضله ورحمته ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١] , واحرص على اللحاق بمن سبقك من المؤمنين فاعلمهم حطوا رحالهم في الجنة منذ سنين ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] , والمنعم عليهم من المؤمنين هم أصحاب مهمة إنقاذ البشرية عرفوا الحق وامتثلوا به ودعوا إليه وأقاموه في العالمين فلا تستوحش قلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين الذين فرطوا في الحق فعرفوه ولم يعملوا به فاستحقوا الغضب الإلهي ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولا الذين جهلوا الحق فضلوا وأضلوا ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.
- ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: تحمد الله عز وجل الرؤوف على نعمة العصمة من سبل وطرق المغضوب عليهم فعرفك بالحق وهداك للعمل به ومن قبل ذلك ولدت مسلماً وعصمت من اتباع الأديان الباطلة والفرق المنحرفة وذلك كله بفضل الله عز وجل وحده ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] , والمغضوب عليهم هم: الذين عرفوا الحق علماً وانسلخوا منه عملاً^(١) , والصيغة عامة لكل من استوجب غضب الله عليه

(١) كتاب أول مرة أصلي, د. خالد أبو شادي (١٧), ص ٤٨

والخروج من رحمته واستحقوا ذلك بسبب كبرهم وهواهم عن اتباع الحق ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

- ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾: وعصمك الله عز وجل الرؤوف من سبل وطرق الضالين, والضالين هم: الذين حادوا عن الحق حائرون لا يهتدون إليه سبيلاً عليهم غشاوة لم توفقههم إليه إما لجهلهم أو أنهم ظلوا في ريبهم يترددون فلم يروا الحق ابتداءً ولم يوفقوا للعمل به انتهاءً فضلوا الطريق وظلوا في تيه وأصابهم العمى ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] أي يتحIRON طريق الرشد وصاروا قومًا عمين أي عمي القلوب عن الحق ﴿فَمَنْ يَعْلَمُ مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩], فلله الحمد في الأولى وله الحمد في الآخرة.

الرابط الثالث: الفاتحة ثناء ودعاء

- تترايط آيات سورة الفاتحة في رابطة أخرى غير رابطة الحمد والنعمة وهي: كون كل آياتها عبارة عن توسل ودعاء إلى الله عز وجل ثناء وطلب من الله عز وجل, يقول العبد في صلاته بعد قراءتها: (آمين) تصديقًا على دعائه, يبدأ الدعاء بالثناء على الله عز وجل والتوسل إليه تقديمًا بين يدي ربه وتمجيدًا له بأسمائه وصفاته ثم بعبوديته وتوحيده وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء كما يقول ابن القيم في المدارج^(١) وهذا حديث أنس ؓ: «أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم" فقال: لقد سألت الله باسمه الأعظم», وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما:

١. التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٣ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٢. التوسل إليه بعبوديته وتوحيده ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم جاء بعد التوسل إليه سؤال أهم وأجل المطالب وأشرف المواهب وأنجح الرغائب وهو: (الهداية إلى الحق والثبات عليه) والداعي بهاتين الوسيلتين تحقيق بالإجابة بإذن الله فاجيب سبحانه

(١) تهذيب مدارج السالكين, ابن القيم الجوزية, ص ٢٤

يجيب العبد قبل سؤاله ويجوز للعاصين بالغفران وإذا أفاء الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاز بالإحسان وما بالك وقد قال: "هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" قبل أن يدعو عبده بطلبه وبعدما فرغ من الحمد والثناء عليه والله عز وجل أمر نبيه ﷺ أن يعلمنا أن نقول بعد الرفع من الركوع: (سمع الله لمن حمده), فالله عز وجل يحب الحمد وأهل الحمد ويطلب من عباده أن يحمده لا لأنه يحتاج منهم ذلك ولكن ليزيدهم من فضله, فابدأ مناجاتك لربك بحمده والثناء عليه وتمجيده كما في دعاء يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

● فلنبتهل إلى الله ونتوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ونحمده كما حمده الملائكة المقربين إلى يوم الدين ونشده أنه هو الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحدًا أن يفتح علينا الفتح العليم من فضله في سورة الفاتحة تقسيم الأهم فيها بناءً على ترابط آياتها وتسلسلها في نظم بديع آخر وهو ترابطها في: (لمقاصد القرآن الكريم) والتي جمعتها في ترتيب محكم فريد:

الرابط الرابع: المحور الرئيسي للفاتحة: تحقيق مقاصد القرآن.

- تنقسم آيات سورة الفاتحة في عرضها لمقاصد القرآن الكريم إلى ثلاثة مقاطع وهي:
- المقطع الأول:
- الآيات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٣﴾ [١:٣].
- الآيات تقدم الأسماء الحسنى: (الله, الرب, الرحمن) وهي مرجع الأسماء الحسنى كلها.
- المقصد: التعرف على الله عز وجل.

● المقطع الثاني:

- الآيات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٤].

- الآية الخورية في السورة: تمثل تزكية النفس وتطهيرها بتقرير عقيدة توحيد الربوبية والإلوهية وتحقيق العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له بالتحرر من أي معبود أو هوى.
- المقصد: تزكية النفس وتطهيرها.

● المقطع الثالث:

- الآيات: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [٥] ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [٦] ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [٥ : ٦].

- دعاء الطلب الوحيد في السورة: الهداية إلى الحق المبين وهو تحقيق مراد الله من الخلق أجمعين أن يكون سبحانه لهم وحده لا شريك له معبودًا وحاكمًا أمرًا ومطاعًا وهذه هي رسالة الإسلام للعالمين.

- المقصد: حمل مهمة الأمة.

● ونبرأ من حولنا وقوتنا ونبدأ بسم الله بعرض المقطع الأول.

المقطع الأول: شرف التعرف على الله عز وجل

- التعرف على الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وهو أشرف العلوم والمعارف وهو مراد القرآن الأول.

● قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١] ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [٢] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٣ : ١].

- بدأت سورة الفاتحة بالتعريف بالله عز وجل وجمعت في بدايتها ملخص لجميع الأسماء الحسنى والتي عليها تدور معانيها كما يقول ابن القيم في المدارج: "اعلم أن سورة الفاتحة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء هي مرجع الأسماء الحسنى والصفات العلى إليها ومدارها عليها وهي: الله والرب والرحمن" (١).

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ١٥

- فبنيت السورة على صفات الإلهية والربوبية والرحمة فـ"إياك نعبد" مبني على الإلهية "وإياك نستعين" مبني على الربوبية وطلب الهداية إلى "الصراط المستقيم" مبني على صفة "الرحمة" والحمد يتضمن الأمور الثلاثة فهو الحمد في إلهيته وربوبيته ورحمته.
- اسم (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال فيضاف سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].
- ويقول ابن القيم: "هذا الاسم الشريف (الله) هو الذي قامت به السموات والأرض، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه حَقَّت الحاقة، وبه وقعت الواقعة، وعنه السؤال في القبر، وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاتة، والمعاداة، وبه سعد من عرفه وقام بحقه، وبه شقي من جهله وترك حقه، فهو سر الخلق والأمر"^(١).
- صفة الألوهية بأنه سبحانه المألوه والمعبود ذو العبودية والإلهية على خلقه أجمعين الذي لا تنبغي العبادة والخضوع والتذلل والمحبة والرجاء والخوف إلا له سبحانه وتعالى.
- صفات الجلال والجمال: أخص باسم "الله".
- وقوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والمقصود به "العالمين" عالم الإنس وعالم الجن وعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الطير وكل عالم نعرفه وكل عالم لم نكتشفه بعد وهو وحده المتفرد بالربوبية لكل العالمين^(٢).
- وصفة الربوبية بأنه سبحانه رب كل شيء ومليكه له الخلق والإيجاد والتدبير والعطاء والرزق.
- وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم "الرب".
- فالدين والشرع والحاكمية والأمر والنهي والحلال والحرام مظهره وقيامه من صفة الإلهية والخلق والإيجاد والتدبير والإمداد والرزق من صفة الربوبية.
- فيستعين العباد بعطاءات الربوبية على تكليفات الألوهية.

(١) فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، ص ٢٣.

(٢) كتاب أول مرة أصلي، خالد أبو شادي، ص ٣٣.

- والحساب والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك فأمر سبحانه عباده بإهيته وأعانتهم بربوبيته وحاسبتهم بملكه وعدله.
- وصفات العدل والقبض والبسط والخفض والرفع والقهر أخص باسم "الملك".
- أما الرحمة فهي السبب الذي بين الله وبين عباده بما أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبما أسكنهم دار ثوابه وبما رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم إلى صراطه المستقيم فجاءت الفاتحة في بداية كتاب الله لتؤكد وترسخ أن أصل علاقته سبحانه وتعالى بعباده هي: الرحمة.
- وصفات الإحسان والجلود والبر والرفقة واللطف: أخص باسم "الرحمن".
- فالتأليه منهم إليه والربوبية منه لهم والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده والثلاثة جمعهم سورة الفاتحة "الكافية"^(١).
- أما اسم الله "الملك" فهو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أن يحكم ويشرع ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويتصرف بملكه وملكه كيف يشاء فأنت مملوك له خاضع لعزته منتظر لمجازاته راجي ثوابه خائف من عقابه يسير عليك حكمه وقضائه ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨].
- ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إضافة الملك ليوم الدين يوم يدين الناس فيه بأعمالهم خيرها وشرها فيظهر في ذلك اليوم للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته وتنقطع أملاك الخلائق حتى أنه يستوي في ذلك اليوم المملوك والرعية والأحرار والعبيد كلهم مذعنون لعظمته^(٢)، وخص بيوم الدين لأنه اليوم الحق وما قبله كساعة ولأنه الغاية وأيام الدنيا مرحلة إليه ومن ثمار هذه الآية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ التجهز والإعداد لليوم الآخر والوقوف أمام ملك الملوك وهذا هو المقصد الثاني للقرآن الكريم: الإعداد لليوم الآخر.
- بين "المَلِك" و"المَالِك": المَلِك هو صاحب السلطة ولكن ليس بالضرورة أن يملكها فقد يكون هناك مَلِك بل مُلِك أي أنه مَلِك لكن ليس بمالك لذلك فالله عز وجل مَلِك ومَالِك يعني لذلك ورد من القراءات السبع المشهورة في سورة الفاتحة قراءتان "مالك يوم الدين" و"ملك يوم

(١) تحذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ٢٩، ٣٠.

(٢) تفسير الفاتحة للسعدي

الدين" ذو السلطة العالية العليا التي ليس فوقها سلطة وليس مثلها سلطة وهو أيضاً المتصرف فيها الحاكم لها لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض الحاكمية له سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يحكم في ملكه غير شرعه وسلطانه ونظامه الذي اختاره للعالمين وعلى البشرية أن تستجيب لربها ومالكها وتدعن لشرعه وحكمه ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

المقطع الثاني: ضرورة تزكية النفس وتطهيرها

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [٤]: الآية الخورية في سورة الفاتحة وهي التي قسمت الفاتحة إلى قسمين، فما سبقها آيات تتكلم عن الله على هيئة ثناء وتوسل، وما بعدها آيات تتكلم عن معرفة الحق والهداية إليه على هيئة دعاء وطلب، بل هي الآية التي عليها مدار القرآن كله من أوله إلى آخره فقد تضمنت ما يلي:
- أجلّ الغايات عبودية الله تعالى فلا عبادة إلا لله وأكمل الوسائل إعانته سبحانه وتعالى ولا استعانة إلا بالله.
- عقيدة التوحيد حيث يتمثل توحيد الألوهية في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وتوحيد الربوبية في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
- إخلاص التوجه والقصد والعبادة لوجه الله وحده في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلا يرجو العبد بعمله أو علمه رياء ولا سمعة، وإخلاص الاستعانة بالله وحده في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفيها تجديد العجز والاحتياج و التبرؤ من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته.
- مدافعة أخطر أمراض القلوب وهما: الرياء والكبر فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء العجب والكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
- تحقق التحرر من حظوظ الدنيا وحظوظ النفس وتحقيق العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له وأن تكون عبداً خالصاً مُخلصاً لله فتحرر بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ من أي معبود من مال وشهوة وجاه ورياسة ومن كل حظوظ الدنيا وجواذبها الطينية وزخرفها الزائل يصير تحت قدميك وقد تجردت منه على عكس الذي عبد الدرهم والدينار كما جاء في الحديث الشريف «تعس عبد الدرهم

تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الحميصة»^(١) وتحرر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ من حظوظ النفس وأسر الهوى فتتخلص من رؤية إمكاناتك ومواهبك ورؤية عملك وحظ نفسك في الإعجاب والفرح بالنفس وتحرر من حظ نفسك في الافتخار على الخلق والعلو عليهم والكبر عليهم.

- شرك التَّوَجُّه

• و المقصود بشرك التوجه:

"إخلاص التوجه والدافع والقصد يعني أن يكون المحرك والدافع الذي يدفع المرء للقيام بالعمل هو إرضاء الله جل وشأنه، وابتغاء مثوبته وحده، فإن كان الدافع هو إرضاء الله، وفي الوقت ذاته تحصيل منفعة دنيوية من مال وجاه، أو لكي يُرى مكان المرء فيمدح وترتفع منزلته عند الناس، أو خوفاً من أن يُوصَفَ بصفة سيئة.. كل هذه الدوافع وغيرها تقدر في الإخلاص وتبعد العمل عن طريقه وتعرضه للإحباط.. ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]."

قال ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢).

• فعدم الإخلاص لله في التوجه والقصد والدافع يطلق عليه "شرك التَّوَجُّه".

- شرك الاستعانة:

ينبغي علينا ونحن نتوجه بأعمالنا الصالحة لله عز وجل أن نستعين به على القيام بها، وهذا هو مفهوم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤].

فمن المستحيل القيام بالعمل بدون إعانة كاملة من الله عز وجل، فلولا سبحانه ما صلينا، ولا صُمنا، ولا طَعِمنا، ولا ارتويننا، ولا صَحِكنا، ولا بَكينا ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي﴾ [النجم: ٤٣].

(١) أخرجه البخاري، سنن ابن ماجه (٤١٣٥)، تحقيق الألباني (صحيح)

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٩ برقم ٢٩٨٥)

وعندما نأخذ بالأسباب فإننا نأخذ بها لأنه سبحانه أمرنا بذلك، وفي الوقت ذاته أمرنا ألا نعتمد عليها، أو نعتقد فيها، بل نعتمدُ عليه وحده في تفعيلها وإنجاحها، كما قال جبريل عليه السلام محمد صلى الله عليه وسلم وهو يرقبه: "بسم الله أرقيك، والله يشفيك" (١).

وعندما يستعين المرء بنفسه، ... بمواهبه، وإمكاناته، أو يستعين بالأسباب التي تحت يديه استعانةً من يعتمدُ عليها في تحصيل النتائج ويعتقد في نفعها الذاتي فإنه يكون قد أشرك بالله، وهو ما يُطلقُ عليه شرك الاستعانة أو شرك في الربوبية.

● فصاحبُ الجنتين أغترَّ بالأسباب، وانخدع بها، وظنَّ أنها تنفعه بذاتها، ولم يُفكِّرْ إلا عندما رأى الحقيقة أمام عينيه، وشاهد فقر تلك الأسباب لقوة الله، التي تثبتُ فيها الفاعلية لحظة بلحظة، هنا اعترف بشركه.. شرك الربوبية والاستعانة.. ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]، والرجوع إلى عرض سورة (الكهف) فيه إيضاح المزيد من الاغترار بالأسباب وشرك الاستعانة بإذن الله.

● وكذلك عندما يفرح المرء بنفسه ويمجدها على النتائج التي حققها بعد العمل فهو بذلك قد أعجب بها، ووضع هذا الفرح في غير موضعه، فالحقيقة تهتف بأنه لولا الله ما نجح أيُّ عمل: "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه" (٢).

وفي حديث: «أول من تُسَعَّرُ بِهِمُ النارُ يومَ القيامة» ما يكفي لاستشعار خطورة عدم الإخلاص لله عز وجل في التوجه والقصد والدوافع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنَّ الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليَقْضِي بينهم، وكلُّ أمةٍ جاثيةٌ، فأولُّ من يدعى به رجلٌ جمع القرآن ورجلٌ

(١) رواه بهذا اللفظ: الإمام أحمد في المسند (١٥ / ٤٧٠ / برقم: ٩٧٥٧) وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم (٤ / ١٧١٨) برقم:

٢١٨٥، ٢١٨٦) عن عائشة وأبي سعيد رضي الله عنهما بلفظ قريب.

(٢) رواه مسلم (٤ / ١٩٩٤) برقم: (٢٥٧٧).

يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ: أَمْ أَعْلَمَكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَيَّ رَسُولِي؟ قال: بلَى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله تبارك وتعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يُقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: أَمْ أَوْسَعُ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قال: بلَى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرّحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، ويقول الله: بل إنما أردت أن يُقال فلان جواداً فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال له: في ماذا قُتلت؟ فيقول: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يُقال فلان جريءٌ فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ رُكْبَتَيْهِ، فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وجديرٌ بالذكر أن راوي الحديث سيدنا أبا هريرة رضى الله عنه عندما تذكر هذا الحديث وهم أن يرويه شهق ثلاث مرات، كاد في كل مرة منها أن يُعشى عليه فيها^(١).

أما خطورة عدم إخلاص الاستعانة بالله عز وجل الذي يتَمَثَّلُ في الفرح بالنفس وحمدها على القيام بالعمل، وغرورها بإمكانات صاحبها، وبالأَسباب المتاحة أمامه، فهي كثيرة، منها: إحباط العمل، والتعرض للخذلان والمقت من الله عز وجل.. يقول ﷺ: «فأما المهلكات فشح مطاع، وهوى مُتَّبَعٌ، وإعجاب المرء بنفسه».

وفي رواية قال: «وهي أشدُّهن»^(٢).

الفاتحة وتحقيق العبودية الخالصة

- من أعطى سورة الفاتحة حقها علمًا وشهودًا وحالًا ومعرفة^(٣) سيتيقن أن مدارها هو تحقيق العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له والتحرر من أي معبود سوى الله عز وجل ولن يتم ذلك

(١) أخرجه مسلم

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٧/٦) برقم: (٥٧٥٤)

(٣) تهذيب مدارج السالكين - ابن القيم .

إلا بالتححرر من أسر هوى النفس ابتداءً فنحن إما عبيدًا لله أو عبيدًا لنفوسنا، فالمعركة مع النفس هي في الحقيقة معركة العبودية إما أن نكون عبيدًا لله خاضعين له ولنظامه حين ننتصر عليها وإما أن نكون عبيدًا لها خاضعين لها حين نهزم أمامها، وقد جاءت سورة الفاتحة لتقدم لنا العلاج الناجح بإذن الله لهزيمة النفس في تلك المعركة التي ستسمر معنا في رحلتنا مع كتاب الله جاءت الفاتحة لتعرفنا بهذا العلاج إجمالاً وهو:

- العلاج الأول: مشهد المعرفة (الله، الرب، الرحمن، الملك): هو أن يفيض على القلب نور التعرف على الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى حتى يرتفع الحجاب بين قلبك وبين ربك وهو نفسك، يقول ابن القيم: "إذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال وأحست روحه بالقرب الخاص الذي ليس هو كقرب المحسوس من المحسوس حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربه فإن حجابيه هو نفسه وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته أفضى القلب والروح حينئذ إلى الرب فصار يعبده كأنه يراه"^(١).

- العلاج الثاني: مشهد الحمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هو أن يرى العبد كل عطاء وإمداد وتوفيق ونجاح من الله عز وجل فلا يتوقف لسانه عن حمد الله عز وجل ورد كل فضل إليه سبحانه وتعالى وذلك من شأنه التخلص من رؤية النفس والفرح بها، له الحمد في كل لحظة عند كل فعل نفعه ونجاح تحققه وفهم نفهمه وطعام نمضغه ونوم ننامه ووعده نحققه وموعده ندركه وله الحمد على كل ركعة نركعها وصوم نصومه وآية نتلوها وذكر يلهج به لساننا، وحتى لا ننخدع أن لنا استحقاقاً في هذه النعم والنجاحات تأتي (الرحمن الرحيم) لتذكرنا أن نعمه بفضله ورحمته وليست بكفاءتنا وإمكاناتنا.

- العلاج الثالث: مشهد مطالعة الجنابة ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: هو أن مطالعة العبد لتقبيح جنابته والتي تستوجب طلب الرحمة والتعلق بها للنجاة يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون من شأنه أن يدرك العبد حقيقة حقارة نفسه ومشاهدة عيوبها وخاصة مع معرفته بعظم

(١) من كلمات ابن القيم في مدارج السالكين ص ١٠٣

قدر من خالفه في مشهد المعرفة وبعد شهوده المنة في مشهد الحمد مما يدفع إلى افتقار العبد إلى ربه وشدة احتياجه إلى رحمته.

- العلاج الرابع: مشهد التحرر الكامل من أسر الهوى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: وفي هذا المشهد يكرر العبد كلمة (إياك) مرة بعد مرة للتحرر الكامل من سطوة الهوى في توجيه دوافع العمل قبله وأثناءه وبعده لنيل حظ النفس فيطرده الهوى في قصده نيل إشادة الناس فلا يجب على الإطلاق أن يعبد غير الله ويطرده الهوى في استعانته بإمكانات العبد وبالأسباب فلا يجب على الإطلاق أن يُستعان إلا بالله ومن هنا يعيش العبد بالله والله.

- العلاج الخامس: مشهد التوفيق والخذلان ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: هو أن يستشعر العبد دوام احتياجه إلى عصمة الله عز وجل في كل لحظة من زيغ قلبه وخذلانه وألا يكله إلى نفسه كما يقول ابن القيم: "التوفيق هو أنه لا يكلك الله إلى نفسك والخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له ثم يعصيه ويخالفه ويُسخطه ويفعل عنه بخذلانه فإن وفقه فبفضله ورحمته وإن خذله فبعده وحكمته وهو المحمود على هذا وهذا فلم يمنع العبد شيئاً هو له فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى أو تخلى عنه طرفة عين كئلاً عرش توحيده وخرت سماء إيمانه على الأرض فدأب لسانه: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"^(١).

- هذا وتؤكد سورة الفاتحة أنه كلما اقترب العبد من تمام العبودية لله عز وجل وكمال الاستعانة به والتوكل عليه كلما كان ذلك أدعى لحصول التأييد الإلهي له من الولاية والنص، والمعية والحفظ وإجابة الدعاء وغير ذلك كما رأينا في حديث «هذا لعبدي ولعبي ما سأل» وهذا المعنى الهام سنّة شرعية أرادها الله عز وجل (وكانوا لنا عابدين وكنا لهم حافظين) وستظهر هذه السنّة جلية في رحلتنا مع صور القرآن بإذن الله.

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ١٩٥، ١٩٦

العائشون بالله والله

- تحقق حقيقة الربانية في أن تعيش بالله والله فالمتحققون بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هم: العائشون لله والمتحققون بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هم العائشون بالله وهؤلاء جميعاً هم: (الذين تمثلت فيهم عقيدة التوحيد في النفوس والضمائر والقلوب وفي السلوك والمعاملات وفي كافة مناحي الحياة وتحققت فيهم العبودية الخالصة من أي مطاع أو معبود أو شركاء أو أنداد ومن حظوظ النفس وهواها وشهواتها وتجردوا من حظوظ الدنيا وجوازبها الطينية).

وهذا هو معنى تركية النفس وهدف تطهيرها أن تصل إلى تحرير الإنسان من عبودية نفسه وهواه ومن عبودية أي معبود سوى الله عز وجل وهذه هي غاية الطريق: (الحياة بالله والله) وهذا هو مراد القرآن الكريم من أوله إلى آخره بتعريف العباد بربهم سبحانه وتعالى ثم يغرس القرآن هذه المعرفة داخل النفوس لتطهيرها وإعادة صياغتها ليعيش العباد بالله والله وهكذا صارت بنا الفاتحة بعيداً عن الجوازب والعوائق الأرضية وحلقت بنا عالياً في معية الرحمن، وهاهو ابن القيم يذكر في المدارج نموذج تطبيقي لحقيقة الربانية فيقول: "جرت مسألة في الحجة بمكة أعزها الله تعالى - أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سنّاً فقالوا هات ما عندك يا عراقي فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو بالله والله ومع الله) (١).

• العائشون بالله والله تلك الحقيقة الكبرى في كتاب الله والتي تناولها القرآن من فاتحته إلى نهايته حتى بلوغه سورة الإخلاص (فالإخلاص: لله) والمعوذتين (والتعوذ والاحتماء: بالله) ومروراً بكل آيات وسور القرآن تعد هذه الحقيقة جلية فكل ما في الوجود قائم بالله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وكل ما في الوجود منقاد لله ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ٣٤٢

الجيل الأول - نموذج التطبيق العملي (العائشون بالله والله)

• يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في وصف هذا الجيل القرآني الفريد: "ولقد كنت وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولى أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه وتعالى وحضوره في قلوبهم في حياتهم فلا أكاد أدرك كيف تم هذا؟ كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة في قلوبهم وفي حياتهم على هذا النحو العجيب.

كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء؟ كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاج والمسالك والاتجاهات والأفاق بحيث تواجههم حيثما اتجهوا وتكون معهم أينما كانوا وكيفما كانوا؟

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم ولكن لم أكن أدرك كيف تم هذا؟ حتى عدت إلى القرآن أقرؤه على موضوعه الأصيل: (تقرير حقيقة الإلهية وتعبيد الناس لله وحده بعد أن يعرفوه) وهنا فقط أدركت ولا أقول أحطت سر الصناعة.

• عرفت أين صنع ذلك الجيل المتفرد في تاريخ البشرية وكيف صنع؟ إنهم صنعوا هاهنا إنهم صنعوا بهذا القرآن.

• الله هو الأول والآخر والله هو الظاهر والباطن والله هو الخالق والرازق والله هو المسيطر والمدبر والله هو الذي يحول بين المرء وقلبه والله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء والله هو العليم بذات الصدور وهو معهم أينما كانوا وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ولا ملجأ من الله إلا إليه وما لهم من دونه من وال.

• وجدت في الأرض وفي دنيا الناس حقيقة الربانية متمثلة في أناس من البشر وجد الربانيون الموصولون بالله العائشون بالله ولله الذين ليس في قلوبهم وليس في حياتهم إلا الله الذين ليس في قلوبهم من حظ أنفسهم شيئاً ولم يعد لهم حظ إلا في الله والله.

• وجدت حقيقة الربانية هذه في دنيا الناس حينما وجدت حقيقة الإلهية بصورتها هذه في عالم الناس.

• حينما وجدت حقيقة الربانية هذه في دنيا الناس ووجد الربانيون الذين هم الترجمة الحية لهذه الحقيقة حينها انساحت الحواجز الأرضية ودبت هذه الحقيقة على الأرض وصنع الله ما صنع في حياة الناس بتلك الفئة المؤمنة^(١).

• إن التطبيق العملي لقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إِنْهُمْ الْعَائِشُونَ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ.

أمثلة من الجيل الأول

العائشون بالله ولله - نماذج واقعية

- الصحابة رضوان الله عليهم هم خريجو الدفعة الأولى لمدرسة القرآن وهم النماذج العملية لصناعة القرآن وهم من الذين أنعم الله عليهم في هذا الطريق, وهم القدوة لمن أراد أن يهتدي بهم ويلحق بمدرسة القرآن وهم الترجمة العملية لمعاني العبودية الخالصة لله.
- الصحابة عاشوا لله وبالله انتصروا على الدنيا وحفظوها وعلى النفس وشهواتها وكيف لا يكونون كذلك ولقد كان المولى لهم قدوتهم وقدوتنا رسول الله ﷺ يعيش في هذه الحقيقة أنه بالله لا بنفسه فكان ﷺ إذا خرج للقتال يقول: "اللهم أنت عضدي ونصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل"^(٢), ونحن نعرض هنا أمثلة من هذه النماذج حتى لا يظن أحد أن ما ذكر من معاني العبودية الخالصة في سورة الفاتحة كان على سبيل التنظير, ومن هذه الأمثلة:
- عندما تأكد عبد الله بن عتيك من قتل أبي رافع اليهودي انطلق إلى من كان ينتظره من الصحابة خارج الحصن وقال لهم: النجاء فقد قتل الله أبا رافع^(٣).
- وهذا نموذج عملي للتحرر من حظوظ الدنيا وشهوات النفس للصحابة رضوان الله عليهم في فتح حصون خيبر تغلبوا على ثلاث شهوات بشرية وهي: شهوة البطن وشهوة الجنس وشهوة التملك كما يحكي لنا د. منير الغضبان في كتابه المنهج الحركي للسيرة فيقول رحمه الله: "لقد بلغ من جهد المسلمين وجوعهم وفاقتهم - أكثر من شهرين - في هذه المعركة أن ذبحوا الحمر

(١) مقومات التصور الإسلامي, سيد قطب

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٥ / ٢٠) والترمذي في سننه (٥٩٧/٣)

(٣) صحيح: البخاري (٥٧٧/٢)

الأهلية ونصبوا القدور على النيران وجاء منادي رسول الله ﷺ: إن رسول الله ينهاكم عن أكل لحوم الأهلية وإنها لتجربة قاسية ولا شك وغريبة كذلك أن المسلمين قد عضهم الجوع وليس لديهم ما يأكلون حتى التمر لا يجدونه وهم مكلفون بخوض حرب طاحنة مع اليهود وذبحوا الحمر وطهوها والقدور تفور باللحم الطازج ثم يأتي الأمر النبوي بالنهاي عن أكل لحوم الحمير فما يترددون لحظة واحدة فلم يتموا هذه الوجبة وينتهوا بعد ذلك إنما كفؤوا القدور باللحم واستجابوا لأمر الله ورسوله ﷺ وهو درس حي ولا شك في الالتزام والانضباط وأن يكون الجندي خارجاً عن سلطان بطنه وهو على أشد ما يكون من الجوع وهو مكلف بخوض معركة هو مستوى رفيع جداً حين نرقى إليه نرقى معه إلى مستوى نصر الله. وكان بالإمكان أن ينهي رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الأهلية قبل ذبحها أو بعد ذبحها وقبل العناء بطهيها وجمع الحطب ونفخ في النار تحتها لكن حتى تكون التجربة في أعماق أبعادها شاءت إرادة الله تعالى أن يكون النهي والقدور تغلي بلحوم الحمر حتى يكشف الالتزام في أصعب أحواله.

- وشيء آخر لا يقل صعوبة ومرارة عنه هذا الشيء هو حفظ الفرج عن الحرام فلقد مضى المسلمون خبير وزواج المتعة حلال لهم ولم يشهد المسلمون بعداً عن نساتهم كما شهدوه في خيبر لقد استمرت المعركة شهرين قاسيين فكان لا بد من تلبية داعي الجنس الحلال وكان النهي عن نكاح المتعة في هذه المناسبة ولم يكن النهي وهم بجوار نساتهم في المدينة ولم يكن النهي مجرد وصولهم إلى خيبر لقد كان النهي في أصعب مظانة في قلب المعركة وبعد الغياب الطويل عن الزوجات وحيث الإمكانيات المتاحة للمتعة ثم كان النهي الثالث عن التصرف في الغنائم حتى توزع، ثم يعلق د. منير الغضبان عن هذا الصف المسلم وانحصاره على شهوات النفس وحفظها الدنيا قائلاً: "إنها أمور تمس ثلاث شهوات هي من أعماق ما تحمله النفس البشرية من شهوات: شهوة البطن وشهوة الجنس وشهوة التملك ويأتي الأمر النبوي وهذه الشهوات على أشد ما تكون يقظة وحاجة وشدة بالامتناع فيستجيب الصف المسلم كله"^(١).

(١) كتاب المنهج الحركي للسيرة، د. منير الغضبان ص (٤٧٦ : ٤٧٨)

-
- وهذه الأمثلة لنماذج عملية عاشت بالله فلم ترى أي فضل لنفسها أو إمكاناتها (نموذج عبد الله بن عتيك) وعاشت لله فلم تعبد نزواتها وحظوظها بل تجردت لله عز وجل واستجابت لأوامره وأوامر رسوله ﷺ (نموذج ما حدث في خيبر).
- وهذا هو الصف الذي تحرر لله عز وجل بعدما تعرف بحق على ربه سبحانه وتعالى وتمثلت فيه العقيدة الصافية والعبودية الخالصة فانطلق لتحرير البشرية كلها من كل معبود سوى الله عز وجل وحمل مهمة إنقاذ البشرية إلى صراط الله المستقيم.
- لذلك فدخول المؤمنين دائرة التأييد الإلهي مرتبط بتحقيق (إياك نعبد وإياك نستعين) ن كما هو مرتبط بالاهتداء إلى صراط الله المستقيم.
-

المقطع الثالث: حمل مهمة الأمة.

- قال تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [٥ : ٧].
- الصراط المستقيم هو: (شرع الله الحنيف ودينه القويم الذي لا اعوجاج فيه لذلك هو أقوم الطرق وأعدلها وهو دين الإسلام) ^(١).
- وقد ذكر السعدي في تفسيره تعريفاً آخر فقال هو: (الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته وهو معرفة الحق والعمل به) ^(٢).
- والهداية إلى الصراط تعني: لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان وحديث النواس بن سمعان رضي الله عنه يؤكد "أن الصراط المستقيم هو دين الإسلام وأن القرآن هو دليل الهداية لهذا الصراط, فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا, وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم» ^(٣).
- وفي حديث عليّ الذي رواه الترمذي أن الصراط المستقيم هو القرآن, أي اتباعه, قال النبي ﷺ: «هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم» ^(٤) ويقول ابن تيمية أنه لا تضاد بين القولين بأن الصراط المستقيم هو الإسلام أو هو القرآن وأنه اختلاف في تنوع وليس اختلافه (فهذان القولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن) ^(٥).

(١) مختصر تفسير ابن كثير, ص ٣٧

(٢) تفسير الكريم المنان, السعدي, ص ١٩

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢ / ٤) والحاكم في المستدرک (٧٣ / ١)

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٠٦) وأبو نعيم (٥ / ٢٥٣)

(٥) مقدمة في أصول التفسير, ابن تيمية, ص ٢٧

• إذن فالصراط المستقيم هو طريق الإسلام ومنهجه ، ولا يستقيم للمسلم أن يتلقى من أية مناهج أخرى غير منهج الإسلام وإلا فقد اتبع السبل وانحرف عن صراط الله، قال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

• ومهمة أمة الإسلام هي حمل هذا الحق للبشرية كافة فهي الأمة الوسط التي كلفت بالسير على هذا الصراط المستقيم دون تفريط أو إفراط وهي أمة البلاغ والشهادة على العالمين ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

• وحمل رسالة الإسلام للبشرية هي شرط تحقق خيرية أمة الإسلام وشهادتها على العالمين ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ومهمة إنقاذ البشرية بالإسلام تكمن في تحقيق دوره ورسالته والتي ذكرها الأستاذ سيد قطب فقال رحمه الله: "إن طبيعة الإسلام ودوره في الأرض وأهدافه العليا التي قررها الله هي: أن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد أو العبودية لهواه وذلك بإعلان إلهية الله وحده سبحانه وربوبيته للعالمين"^(١) وبهذه الرسالة وضعنا فاتحة الكتاب أمام مفرق طريق كما يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن: "وهنا كذلك مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية وبين العبودية المطلقة للعبيد وهذه الكلية الاعتقادية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر من عبودية النظم والتحرر من عبودية الأوضاع وإذا كان الله وحده هو الذي يعبد والله وحده هو الذي يستعان فقد تخلص الضمير البشري من استدلال النظم والأوضاع والأشخاص"^(٢) .

• إن العبد المؤمن الذي تعرف على ربه عز وجل وتزكى وتطهر وتحرر لله عز وجل وتمثلت فيه العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) مهمته ووظيفته أن يحرر الإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض من عبودية الأرباب والطواغيت والشركاء والأنداد

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٥٩

(٢) في ظلال القرآن الكريم - سيد قطب - تفسير سورة الفاتحة.

وردهم إلى عبودية الله وحده لا شريك له والسبيل إلى ذلك هو إزالة حاكمية البشر بكل صورها وأشكالها وأوضاعها وأن يخضع الناس لدين الحق وشرع الله الخفيف ودينه القويم وصراطه المستقيم وعلى قدر تعرفه على ربه تكن عبوديته له وتحرره له وعلى قدر عبوديته وتحرره لله يكن نجاحه في مهمته بإذن الله.

أركان الهداية إلى الحق

● إذن الحق هو مراد الله من الخلق والذي شرعه في دين الإسلام القويم وبينه في منهج القرآن الكريم وهو صراط الله المستقيم وطلب الهداية على هذا الحق في قوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يشتمل على ستة أركان^(١) وهي:

- ١ . معرفة الحق .
 - ٢ . قصده وإرادته .
 - ٣ . العمل به .
 - ٤ . الثبات عليه .
 - ٥ . الدعوة إليه .
 - ٦ . الصبر على الأذى فيه .
- فلا يكفي معرفة هذا الحق والسبيل إليه علمًا فقط لتحدث الهداية التامة المقصودة في هذه الآية الشريفة ولكن لابد من استكمال هذه المراتب الستة حتى يكون العبد قد هُدى إلى الصراط المستقيم وما نقص منها نقص من هدايته وهذا سبب اختلاف الناس حسب معرفة الحق والعمل به إلى أقسام ثلاثة كما يقول ابن القيم رحمه الله: "الناس بحسب معرفة الحق والعمل به ثلاثة أقسام وهي:

- ١ . يعلم الحق ويعمل به .
- ٢ . يعلم الحق ولا يعمل به .
- ٣ . جاهل بالحق .

(١) أول مرة أصلي, د. خالد أبو شادي, ص ٤٥

دعاء الطلب الوحيد في الفاتحة

والعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩), بينما العالم بالحق المتبع هواه هو: المعضوب عليهم والضال هو: الذي ضل على العلم الموجب للعمل^(١).

• والسؤال: لماذا الهداية إلى الصراط المستقيم جاءت كدعاء الطلب الوحيد في خاتمة الكتاب أعظم سورة في القرآن؟

والإجابة: يجيب عليها ابن القيم في المدارج فيقول رحمه الله:

- أنواع الهداية نوعان: هداية بيان ودلالة من جهة الرسل وهداية توفيق وإلهام، وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما.
- أما قول من يقول: إذا كنا مهتدين فلماذا نسأل الهداية؟ نحن نحتاج الهداية إلى الحق في كل لحظة وذلك للأسباب التالية:
- ١. لأن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم.
- ٢. وما نعرف جملته ولا نهندي لتفاصيله أمر يفوت الحصر كمن هدى ووفق إلى أداء الحج ولكن لم يهتدي إلى ما تصح به مناسكه.
- ٣. وما لا نريد فعله تماوناً وكسلاً أكثر مما نريده فهو محتاج إلى تمام الهداية إلى هذه الإرادة كمن أراد الحج وهو غني ولكنه شحيح الروح والقلب.
- ٤. وما لا نقدر عليه مما نريده كثير أيضاً فهو محتاج في هدايته إلى القدرة عليها كمن أراد الحج غير أنه لا يملك المال أو يشتكي المرض أو كليهما.
- ٥. ومن كملت له كل هذه الأمور كان احتياجه لسؤال الهداية ودوام الثبات حتى الممات والاستقامة على الهداية التامة في كل لحظة من حياته مع سؤال العصمة من الوقوع في الدلل والنجاة من الخذلان ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ١٧

عمران: ٨], ولذلك كان دعاء الطلب الوحيد في الفاتحة هو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو أجلّ طلب من المطالب ولا يستغنى عنه العبد في كل طرفة عين "اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أو أقل منها".

صراط الدنيا وصراط الآخرة:

- يقول ابن القيم: "فمن هدي في هذه الدار إلى الصراط المستقيم هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كشد الركاب ومنهم من يسعى سعياً ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يحبوا حبواً ومنهم المخدوش المسلم ومنهم المكردس في النار فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاءً وفاقاً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩].
- ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلاب التي بجني ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

سبل الهداية إلى الصراط المستقيم:

أولاً: الاعتصام بالله:

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].
- والاعتصام بالله هو: الاعتماد والتوكل عليه والاستعانة به ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥], يقول ابن عثيمين - رحمه الله -: " (ومن يعتصم) تشمل: الاعتصام به توكلًا عليه والاعتصام به تعبدًا له

لأن في كل منهما عصمة فمن اعتصم بالله تعبدًا واستعانة فقد هدي إلى صراط مستقيم^(١)، وقد اشتملت الفاتحة على كل من العصمتين في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثانيًا: القرآن دليل الهداية إلى الصراط المستقيم:

- قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وعن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال «القرآن صراط الله المستقيم وحبل الله المتين»^(٢)، وعنه صلى الله عليه وآله: «أبشروا فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبدًا»^(٣).

● وشي القرآن حبلًا لأنه موصول إلى الله فالحبل يوصل إلى المقصود والقرآن الكريم هو حبل الله الممدود بين السماء والأرض فالسائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده يحتاج إلى: طلب الهداية (وذلك بالاعتصام بالله والاستعانة به) واتباع دليل لها وذلك بالقرآن الكريم فهو دليل الهداية إلى صراط الله المستقيم قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: ١٥-١٦].

ويقول ابن القيم: "مدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين".

● القرآن يرشد ويهدي لأقوم الطرق وهي دين الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

(١) التفسير الثمين، ابن عثيمين، ص ٣٥٤

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٠٦)

(٣) صحيح: رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع (ج ٣٤)

أبين النصر في الفاتحة؟

• يحصر أصحاب الحق في مواجهتهم مع أهل الباطل في طلب النصر واستمطاره خاصة في أوقات المحن والشدائد وعلو الباطل ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وتعرضت سور كثيرة في القرآن الكريم لهذه المواجهة وطلب النصر على الظالمين ولكن لم تنطرق سورة الفاتحة للحديث عن هذا النصر لترسخ المعنى الحقيقي لنصر المؤمن في حياته والذي فيه فوزه وفلاحه في الآخرة ألا وهو: (تقرير عقيدة الإلوهية وتمثل حقيقة العبودية الخالصة لله وحده لا شريك له والاستقامة على صراط الله والثبات عليه حتى الممات) فيثبت العبد على الصراط المستقيم في الآخرة إلى جنة الرضوان وهؤلاء هم الفريق الفائز حقًا بالنصر الحقيقي قال تعالى ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٠٩] ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [١١٠] ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١]، ومع الفوز بهذه الغاية العظمى برضوان الله عز وجل يأتي النصر في الوقت الذي قدره الله عز وجل على أهل الباطل كمنحة للمؤمنين في الدنيا وهذا هو الوزن النسبي لنصر المؤمنين على أهل الباطل في الدنيا والذي أكدته سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [١٠] ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١١] ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ ظَلِيمَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١٢] ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣]، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: "لقد كان القرآن يُنشئ قلوبًا لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض ولا تنظر إلى الآخرة ولا ترجوا إلا رضوان الله قلوبًا

مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت بلا جزاء في هذه الأرض قريب ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة^(١).

• سار من هنا على هذا الطريق:

هذا الطريق ناح فيه نوح وألقي في النار فيه إبراهيم وذبح فيه يحيى ونشر فيه بالمنشار زكريا وأوذي فيه مُحَمَّد ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وتسليمه طريق الأنبياء طريق المحن والبلاء وهذا هو الطريق بذل وتضحيات وهذا هو الطريق دماء وأشلاء وهذا هو الطريق الذي عرفنا بدايته وغايته وهذه هي معالمه. سار في هذا الطريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ثم تبع الأنبياء الصحب الكرام رضوان الله عليهم خير البشر بعد الأنبياء ليلحق بهم ثلة من الأولين من التابعين ثم قليل من الآخرين رحمهم الله جميعاً نحسبهم جميعاً كذلك ولا نركى على الله أحداً، فسار من خير القرون ابن عباس رضى الله عنه ليلحق به مجاهد ابن جبر رحمه الله ثم تبعهم ابن جرير الطبري وابن كثير ثم سيد قطب وغيرهم رحمهم الله جميعاً وسار في هذا الطريق أبو هريرة رضى الله عنه ليلحق به البخاري رحمه الله ثم تبعهم السيوطي والألباني وغيرهم رحمهم الله جميعاً وسار في هذا الطريق أيضاً علي بن أبي طالب رضى الله عنه ليلحق به البصري رحمه الله ثم تبعهم ابن تيمية وابن القيم وغيرهم رحمهم الله جميعاً وكذلك سار في هذا الطريق خالد بن الوليد رضى الله عنه ولحق به ابن تشفين وصلاح الدين وغيرهم رحمهم الله ثم تبعهم يحي عياش وعماد عقل وغيرهم رحمهم الله وسار في هذا الطريق بعرجته ابن الجموح رضى الله عنه ليلحق به أحمد ياسين رحمه الله وسارت فيه أم عمارة ؓ لتلحق بها أم نضال رحمها الله.

أخي... فهل تُرانا نلحق بهم بإذن الله؟

اللهم ألقنا بهم يا رب العالمين على الإسلام الكامل والإيمان التام ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ١٨٣

وختاماً:

- وهكذا انتقلت الفاتحة بالمؤمنين من مقطع معرفة الله عز وجل إلى مقطع تركيبة النفس إلى مقطع حمل مهمة الأمة وذلك الترتيب المنسجم مع آيات السورة ليؤكد لنا أهمية إعداد طليعة من المؤمنين تتمثل في قاعدة صلبة مزكاة مطهرة تعرفت على ربها وتطلعت إلى لقاءه واشتاقت إلى جواره وطمعت فقط في أجره وثوابه في دار كرامته وانطلقت إلى هداية البشرية إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم وتحرير البشرية كلها من أي عبودية لغير الله عز وجل تلك المهمة السامية والتي لا ينهض لها إلا رجال صنّعوا في مدرسة القرآن الكريم وهذا هو المنهج الذي رسمته لنا سورة الفاتحة وبصّرتنا به وسنسى بإذن الله في هذا البحث (هداية المنان في مراد سور القرآن) على استخلاصه من خلال سور القرآن ومرادها.

الفاتحة نجمع معاني سور القرآن:

- ونحن نودع سورة الفاتحة ونشهد الله أن حبها زاد في قلوبنا بفضلها ورحمته لننطلق منها وقد فتحت لنا الباب إلى كتاب الله عز وجل ثم نعود إليها مرات ومرات في الصلوات وفي الختمات.
- جمع القرآن في أم الكتاب وهي سورة الفاتحة حيث المطالب العليا التي بينتها الفاتحة أتت بها باقي سور القرآن مفصلة وكأن معاني وأهداف سور القرآن أُجملت في سورة الفاتحة والله أعلم وسنذكر بعض ما أجملته الفاتحة وفصلته باقي السور مع التنبيه أن معاني السور هذه ليست بالضرورة هي أهداف السور العامة التي تدور حولها السورة إنما هي من المعاني البارزة في موضوعات السورة والتي لها علاقة قوية بهدف السورة العام ومحورها الرئيسي، ومن ذلك على سبيل المثال:

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: معاني الحمد والشكر:

- معنى تسخير النعم للدعوة: سورة النحل.
- معنى الشكر بالعمل الصالح: سورة سبأ.
- معنى رد الفضل إلى الله والاستسلام له: سورة النمل.

- ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: معاني الرحمة:

- معنى رحمة الضعفاء وحفظ حقوقهم: سورة النساء.
- ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: معاني الخوف لدوام اليقظة:
- معنى الخوف وقود الإنابة والتذكرة: سورة ق.
- معنى الاعتبار بالندى والآيات الزاجرة: سورة القمر.
- الإعراض عن آيات الله يستوجب العذاب: سورة الدخان.
- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: معاني العبادة:
- معنى طول العبادة يستوجب التأيد الإلهي: سورة الصافات.
- معنى الخلوة التعبدية والتحلي بالتقوى: سورة مريم.
- معنى الاستسلام والخضوع لأوامر الله: سورة السجدة.
- ﴿إِيَّاكَ﴾: معاني الإخلاص:
- معنى الحياة كلها خالصة لله وحده: سورة الأنعام.
- معنى طريق الإخلاص والتقوى للنجاة من العذاب: سورة الزمر.
- ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾: معاني الانشغال بالآخرة والاستغناء عن الدنيا:
- معنى عدم التنازع على دُنيا زائلة: سورة الأنفال.
- معنى حقارة متاع الدنيا وزيفها: سورة الزخرف.
- ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: معاني الاستعانة والتوكل:
- معنى خطورة الكبر والإعراض عن الحق: سورة الأعراف.
- معنى حسن التوكل على الله: سورة يونس.
- معنى اليقين في تأييده للمؤمنين: سورة هود.
- معنى الصبر والرضا من ثمرات اليقين: سورة يوسف.
- ﴿اهْدِنَا﴾: معاني أداء مهمة الدعوة للهداية:
- معنى أمة الشهادة: احذري الوقوع في الصفات المذمومة للخليفة المستبدل: سورة البقرة.
- معنى حمل رسالة الدعوة إلى الله: سورة يس.

- معنى متطلبات مهمة دعوة الناس للعبودية والتوحيد: سورة الحج.
- معنى الدعوة إلى الله بالأدلة البينة: سورة غافر.
- ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: معاني الجهاد لإقامة الشرع وتحكيم الدين:
- معنى الوفاء بالعهد في تحكيم الشرع وإقامته: سورة المائدة.
- معنى الجهاد والاستغناء عن الدنيا: سورة التوبة.
- معنى استدعاء التأييد الإلهي في رفع راية الجهاد: سورة محمد.
- ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾: معاني التثبيت والحفظ:
- معنى الثبات على الحق من موجبات الاصطفاء: سورة آل عمران.
- معنى حفظ الله لأوليائه المؤمنين: سورة الحجر.
- معنى تثبيت الله لأوليائه المؤمنين: سورة إبراهيم.
- معنى أن تكون في كنف الله ورعايته: سورة الكهف.
- ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: معاني ولاية المؤمنين:
- معنى التماسك والوحدة: سورة الصف.
- معنى عدم الاختلاف أو الفرقة: سورة الشورى.
- معنى الإعانة الجماعية: سورة العصر.
- ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: معاني البراء من أعداء الله:
- معنى عدم ولاية أعدائه ولو كانوا أقربائك: سورة المجادلة.
- معنى التبرؤ من أهل الباطل وولاية المؤمنين: سورة الحشر, سورة الممتحنة.

بين الفاتحة والبقرة

- نطلق من الفاتحة في رحلة طويلة في كتاب الله عز وجل بحثاً عن الهداية إلى صراط الله المستقيم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وسعيًا للوصول إلى الحق المبين والانقياد له والاستجابة لمتطلباته والعمل بمقتضاه والاستقامة عليه والدعوة إليه والجهاد من أجل نصرته وهذا الحق كالنور الساطع في كتاب الله آيات بينات مفصلات فرقان لا باطل فيه ولا شبهة ولا لبس فيه ولا

غموض ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] ولكن الناس انقسموا بين عالم به متبع له وأولئك هم المنعم عليهم وأولئك هم المفلحون ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤], وبين عالم به معرض عنه لكبر أو هوى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٤٦-١٤٧] الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴿[البقرة: ١٤٦-١٤٧] وبين جاهل عن الحق عليه عمى وغشاوة ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

- فتأتي سورة البقرة لتعرفنا بالحق وهو مراد الله من الخلق الذي شرعه في دين الإسلام ونظامه وبينه في آيات القرآن ومنهاجه بتحكيم شرعه وإقامة حكمه وهدى الله عز وجل إلى هذا الحق المؤمنون بعدما اختلف حوله الناس ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣], فكان القرآن هو دليل الهداية إلى هذا الحق وهداية للناس كافة ﴿الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥], وهداية للمؤمنين خاصة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].
- فقامت سورة البقرة بتكليف المؤمنين المهتدين إلى هذا الحق بحمل مهمة السير به إلى الناس كافة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣], فانطلق المؤمنون أصحاب المهمة السامية بهداية البشرية إلى صراط الله المستقيم انطلقوا ومعهم دليل الهداية لتبيينه للناس وإزالة العوائق والسدود أمام استماع جمهور الناس له, انطلقوا بمنهج التعرف على الله عز وجل وتزكية أنفسهم وتطهيرها طمعًا في أجر الله يوم القيامة ولا يرتضون دونها مقابل من أجر دنيوي أو مغنم مادي, وساروا في طريقهم وقد بصرتهم (البقرة) بالأمة التي استخلفت قبلهم والتي حملت الأمانة مثلهم ولكنهم فشلوا وخانوا العهد مع ربهم وأخذت سورة (البقرة) تحذر أمة الإسلام عامة من الحذو حذوهم وتحذر المؤمنين خاصة من الوقوع في أخطاءهم والتي أبرزها عدم استجابتهم لأوامر ربهم وتحاييلهم عليها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] وذلك بسبب أمراض قلوبهم التي استشرت وتحكمت فيهم

﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] هذه الأمراض المذمومة ترجع إلى نفوس امتلأت
 بالكبر والهوى وحب الدنيا فكانت السبب الرئيسي بخذلان الله لهم ونزول سخط الله بهم
 ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] , فجاءت سورة (البقرة) تحذر المؤمنين من هذا
 النموذج الفاشل المستبدل وتدعوهم لتزكية أنفسهم وتطهيرها ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
 يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾
 [البقرة: ١٥١] , ودعتهم سورة البقرة أمة الإسلام ذلك الخليفة الجديد وفي القلب المؤمنين
 أصحاب المهمة إلى سرعة الاستجابة لربهم وتمام الانقياد وفورية التنفيذ لأوامره ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا
 وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

تم عرض سورة الفاتحة والله الحمد والثناء الجميل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم
 والحمد لله رب العالمين.

الخريطة الكلية لعرض سورة الفاتحة :



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وما توفيتي إلا بالله

مقدمة السلسلة الأولى

(بيان الحق: توضيح معالم مهمة إقامة الدين في دنيا الناس)

- تضم السلسلة الأولى سور السبع الطُول وهي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة.
- وعن ترتيب هذه السور ترتيباً توقيفياً موحى به وبيان أن الأنفال والتوبة معاً من السبع الطُول يروي الترمذي بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم إن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ووضعتموها في السبع الطُول؟ وما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ووضعتها في السبع الطُول"^(١). وهذه الرواية تبين أن ترتيب الآيات في كل سورة وترتيب السور كان بتوقيف موحى به بأمر من الله إلى رسوله ﷺ ثم أمر به رسول الله ﷺ كتابة الوحي من الصحابة وأن عدم وجود البسملة في بداية براءة جعل عثمان بن عفان رضي الله عنه يظن أنها سورة واحدة هي والأنفال مع أن النبي ﷺ لم يذكر لهم أنها منها ولكن أغلب الصحابة كانوا يعلمون من النبي ﷺ أن الأنفال والتوبة سورتين منفصلتين لكل منهما مناسبتها كما في حديث ابن عباس عن سعيد بن جبير قال: "قلت لابن عباس، سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل (ومنهم ومنهم) حتى

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٩٩) والحاكم في المستدرک (٣٣٠/٢) والترمذي في السنن (١٠٨٦)، إسناده صحيح قال الشيخ

ظنوا أنها لم تبق من أحدٍ منهم إلا ذكره. قال: قلت سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر قال: قلت الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير^(١).

• فضل السبع الطُّول:

- عن وائلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال: «أُعطيْتُ السَّبْعَ الطُّوْلَ مكان التوراة، وأُعطيْتُ المتين مكان الإنجيل، وأُعطيْتُ المثاني مكان الزبور، وفُضِّلْتُ بالمفصل»^(٢).

- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر»^(٣).

• الوحدة الموضوعية للسبع الطُّول:

- انتهت سورة الفاتحة بطلب الهداية إلى صراط الله المستقيم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿الفاتحة ٦ : ٧﴾.

هذا الدعاء المتكرر في اليوم الواحد عشرات المرات، وفي العمر عشرات الآلاف من المرات وقد استجاب الله عز وجل برحمته وفضله وقال "هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"^(٤) وقد جعل الله سبحانه وتعالى الإجابة فورية فهو يجيب دعوة الداع إذا دعاه فكانت البقرة متعاقبة مع الفاتحة مباشرة وابتدأت آياتها ﴿الم﴾ ﴿١﴾ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ١: ٢]. فجاءت سورة البقرة ببيان الصراط المستقيم كاملاً وواضحاً وإجمال كل أركانه ومتطلباته ثم جاءت باقي السبع الطُّول بتفصيل ما أجملته سورة البقرة في إنارة السبيل وإقامة الدليل والهدى المبين الذي لا شبه فيه ولا شك والله تعالى أعلم.

- ومن هنا كان جدير أن تكون سلسلة السبع الطُّول هي: سلسلة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في ارتباطها بفاتحة الكتاب أم القرآن وهذا الصراط المستقيم كما بيَّنا هو: الطريق الموصل إلى الله عز وجل وهو دين الإسلام ومنهج القرآن، ومتطلباته هي: معرفة الحق والهداية إليه وإرادته

(١) صحيح البخاري في (٦٥) كتاب تفسير

(٢) الحديث ثابت بإسناد آخر ليس فيه مقال رواه الطيالسي (١٠١٢) بإسناد صحيح. ورواه أحمد (١٧٠٤٩) (١٠٧/٤) عن

الطيالسي وفيه عندهم أن المتين: مكان الزبور، وأن المثاني مكان الإنجيل

(٣) رواه أحمد في مسنده (٧٣/٦) والحاكم في المستدرک (٥٦٤/١)

(٤) صحيح مسلم عن أبي هريرة

والعمل بمقتضاه وإقامته في دنيا الناس بالدعوة إليه وبالجهاد في سبيل نصرته والصبر على الأذى فيه، وقد عبرت كل سورة من السبع الطُول عن هدف جزئي لبيان هذا الصراط المستقيم ومعامله ومهمة الأمة المكلفة بمتطلبات إقامته وأسس بنیان هذا الدين وهيكله وعوائق إقامته وكيفية إزالتها وذلك كله تعرضه لنا السبع الطُول في وحدة موضوعية واحدة متناسقة ومتماسكة وقائمة بذاتها ومرتبطة بدور رئيسي في المنهج الحركي للقرآن كله فحملت سورة (البقرة) خطاب تكليف الأمة المسلمة بحمل الحق وأداء مهمة قيادة البشرية بمنهج الله إلى صراط الله المستقيم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وبينت أن هذا التكليف يتطلب استيفاء شروط وصفات أهمها:

- تمام الانقياد لشرع الله عز وجل وفورية التنفيذ لكافة أوامره، ثم جاءت سورة (آل عمران) بتقديم نموذج للذين أنعم الله عليهم على هذا الصراط وهم عائلة عمران ثبتوا على الحق أمام شبهات اليهود ومكرهم لتدعوننا - سورة آل عمران - بعد معرفة الحق والهداية إليه في سورة (البقرة) - إلى الثبات على الحق وعدم الزيغ عنه قيد أنملة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وخاصة أن الصراط طويل ووعر ملئ بالشبهات والشهوات والأعداء وفيه الجدل والحجج كميذان نظري للمعركة بين المسلمين وأعدائهم وفيه الحرب والقتال كميذان عملي للمواجهة بينهما، ثم تأتي سورة (النساء) بعرض ملامح وسمات المنهج الرباني المراد تطبيقه وتطهيره لرواسب الجاهلية لإقامة المجتمع المسلم الصالح، كما تعرض نموذج الخليفة في البيت في أصغر وحدة في المجتمع ودور الخليفة في حفظ حقوق الضعفاء وهناك دلالة أخرى لسورة (النساء) هي أن هذا الحق في شرع الله ما جاء إلا رحمة للعالمين وحماية للمستضعفين ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]. مع بيان أن أسس نجاح الخليفة الجديد في مهمته تستند إلى الرحمة وتحقيق العدل وأداء الأمانات، ثم تأتي سورة (المائدة) في تذكير الأمة المسلمة أن في رقبته عهد وميثاق مع الله عز وجل بإقامة شرعه

الكامل والتام وتحكيم كتابه المهيم على الكتب السماوية السابقة له ﴿وَاذْكُرُوا لِلَّهِ الْكَامِلَ وَالْتِمَامَ وَتَحْكِيمَ كِتَابِهِ الْمُهَيْمِنَ عَلَى الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ لَهُ﴾ ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧]. وتحذير الأمة التي كُرِّمت بهذه المهمة أنها إذا تَخَلَّتْ عن الوفاء بعهدها وميثاقها مع ربها فالتكريم ليس أبدي فهم بشر ممن خلق وسوف يأتي الله بآخرين تتوافر فيهم الشروط والصفات المطلوبة لأداء المهمة، بينما الخذلان والعقوبة والنتية في انتظار من ينقض عهده مع ربه، ثم تأتي سورة (الأنعام) ببيان وضوح الحق الذي فصلته السور المدنية الأربع السابقة لها وأن الدين يشمل مظاهر الحياة كلها ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وأن الحلال والحرام الذي هو جوهر الشرع والذي بينته سورة (المائدة) هو حق لله عز وجل وحده وكل تشريع من دون الله أو فصل للدين عن أحد مناحي الحياة هو شرك بالله عز وجل الواحد الأحد الذي أفاضت سورة (الأنعام) في تعريفنا بوحديته سبحانه وتعالى ودلائل ألوهيته، ثم جاءت سورة (الأعراف) تبين لنا أن الكبر والعناد هما أكبر عائق عن اتباع سبيل الحق ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ثم يليه هوى النفس الذي يعمي القلوب عن البصائر النيرات وأن عدم اتباع سبيل الرشد الذي تم بيانه من سبيل الغي يستوجب العذاب بعد نفاذ فرص الهداية إلى صراط الله المستقيم وأن هذا العذاب الإلهي كان في الأمم السابقة باستتصال المشركين والمعاندين بتدخل إلهي مباشر، بينما في أمة الإسلام فقد صارت سنة التدافع بأيدي المسلمين لعذاب المشركين قا تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]. فتجئ سورتي (الأنفال) و(التوبة) لتمثلا سبيل إحقاق الحق في الأرض ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]. بعد انتشار الشرك والكفر مما يسبب فتنة الناس بهما والفساد في الأرض، وأن طريق إزالتها هو بالجهاد في سبيل الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، والذي يتطلب دوام الجاهزية والإعداد الرباني والمادي كما يتطلب التخلص من حب الدنيا والركون إليها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ

انفروا في سبيل الله اثأقلنم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴿١٣٨﴾ [التوبة: ١٣٨] لينطلق المؤمنون أصحاب المهمة السامية لتحرير الإنسان كل الإنسان في الأرض كل الأرض من الشرك والكفر لتخضع البشرية كلها لعبودية الله عز وجل وحده لا شريك له ويكون الدين كله لله.

- فنقول بعون الله وتوفيقه أن الوحدة الموضوعية لسلسلة السبع الطول، وهي السلسلة الأولى في المنهج الحركي للقرآن هي:

(بيان الحق: توضيح معالم مهمة إقامة الدين في دنيا الناس)

- سورة البقرة: تكليف الأمة بقيادة البشرية يتطلب تمام الانقياد وفورية التنفيذ.
- سورة آل عمران: الثبات على الحق من أهم موجبات اصطفاء الأمة.
- سورة النساء: تطهير منهج الإسلام لرواسب الجاهلية لإقامة المجتمع المسلم الصالح.
- سورة المائدة: الوفاء بالميثاق بتحكيم شرع الله.
- سورة الأنعام: الحياة كلها عبادة لله وإقامة (لا إله إلا الله) في كل مناحي الحياة .
- سورة الأعراف : الكبر سبب الإعراض عن منهج الحق.
- سورة الأنفال: إحقاق الحق وإزالة الكفر والشرك والمعاندة بالجهاد في سبيل الله.
- سورة التوبة: الإعداد الدائم للجهاد بالاستغناء عن حب الدنيا وعدم الركون إليها.
- وسنقوم بتقسيم السلسلة الأولى بإذن الله إلى ثلاث باقات وهي:
- الباقة الأولى: من سورة البقرة إلى سورة المائدة (سور مدنية).
- الباقة الثانية: سورتي الأنعام والأعراف (سور مكية).
- الباقة الثالثة: سورتي الأنفال والتوبة (سور مدنية).

الباقية الأولى (المجموعة المدنية)

(من سورة البقرة إلى سورة المائدة)

- بدأت الباقية الأولى في هذه السلسلة بمجموعة من السور المدنية والتي نزلت في الجماعة المسلمة الأولى بعد هجرتها إلى المدينة لإقامة الدين في الأرض فاشتملت على تبصير هذه الجماعة بتحقيق مهمتها ومعالم طريقها كما اشتركت في الحديث عن أحكام الشعائر التعبدية والتشريعات الاجتماعية والدولية وبيان الحلال والحرام والحديث عن موضوعات: اليهود والمنافقين والجهاد، ويمكن لنا أن نصيغ هدفًا عامًا مشتركًا وجامعًا لهذه الباقية من كلام الشيخ سيد قطب بتصريف يسير في مقدمته لسورة المائدة هذا الهدف العام هو: (إنشاء أمة مسلمة وإقامة دولة الإسلام وتنظيم المجتمع المسلم على أساس العقيدة الصافية وتصحيح التصورات والمبادئ لهذا البنيان الجديد الأصل فيه أفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والحاكمية والسلطان وتلقي مناهج حياتها وشريعته ونظامها وقيمها منه وحده سبحانه)^(١)، وتشارك هذه السور المدنية معًا في بيان الركائز الأساسية للنجاح في المهمة وهي:

- تمام الانقياد وفورية التنفيذ (البقرة).

- الثبات على الحق ودوام التطهر من الذنوب (آل عمران).

- تحقيق العدالة والرحمة (النساء).

- الوفاء بالعهود (المائدة).

• وضابط هذه الركائز كلها ووازعها المشترك هو: (التقوى).

ولذا أطلقنا بعون الله على هذه الباقية الأولى عنوان لوحدتها الموضوعية وهو (بنيان الدين

ومؤهلات الخليفة وركائز إقامة المهمة).

- ومن هنا نجد أن القرآن الكريم في ترتيبه النهائي تحدث مباشرة عن دولة الإسلام ودعائمها،

وبنيان الدين وقواعده، من خلال عرضه للسور المدنية الأولى: (البقرة وآل عمران والنساء

والمائدة)، وبذلك أتى المصحف بالنتائج قبل الأسباب حيث أتى بتقرير العقيدة في دنيا الناس قبل حديثه عن القرآن المكي وتقريره للعقيدة في نفوس وضمائر المؤمنين من أصحاب المهمة. والإشارة في ذلك - والله أعلم بمراده - أن دولة الإسلام قد أقيمت بالفعل في المدينة المنورة وانتصرت العقيدة بدخول الناس في دين الله أفواجًا مع نهاية نزول كتاب الله فلا ينبغي بعد قيام الدولة وإتمام التشريع واستقرار مبادئ الدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. أن يأتي المسلمون في أي زمان ثم يقبوعوا في أحكام الفترة المكية التي كانت مرحلة أولية تكوينية هدفها الأساسي: تكوين رجال القاعدة الصلبة المؤمنة وغرس العقيدة الصافية فيهم وذلك استعدادًا للانحياز إلى ماوى تنطلق منه الدعوة الإسلامية إلى ربوع الأرض، فلا يرتضى المسلمون بعد ذلك أن يستسلموا لفترات الاضطهاد والاستضعاف - إن هم مروا بها - وألا يرتضوا أن ينتقص نبيان الدين بعد قيامه وتماحه ولو قيد أنملة.

لذلك بدأ المصحف في ترتيبه النهائي - والله أعلم - بالوضع النهائي الكائن عند نهاية نزوله الزماني: دولة مسلمة قائمة وشريعة الإسلام تحكم.. ولهذا لما مات النبي ﷺ وانتشرت الردة في الجزيرة العربية وامتنع الناس عن شعيرة من شعائر الدين وركن من أركانه وهي: دفع الزكاة رأى أبو بكر رضى الله عنه أن في ذلك هدمًا لأركان الدين، وقال قولته المشهورة: "لقد تم الدين بوفاء الرسول ﷺ أينقص الدين وأنا حي والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه"^(١).

وهذه الباقية الأولى للصور المدنية: (البقرة - آل عمران - النساء - المائدة) بينها رابطًا آخر تشترك فيه وهو: "الاستقامة على الحق دون اعوجاج" "تفريطٍ أو إفراط" .. فكان التناسب في هذا الرابط بين سورتي: البقرة (أول سور الباقية) والمائدة (آخر سور الباقية) من ناحية وبين سورتي الوسط في الباقية: آل عمران والنساء من ناحية أخرى كالتالي:

(١) جاء في البخاري (١٣٣٥)

أولاً: التناسب بين سورتي البقرة والمائدة:● الرابط الأول: الآية الخارقة

- يرمز اسم كلتا السورتين إلى: وقوع آية خارقة باهرة وحجة قاطعة حدثت الأولى (البقرة) مع نبي الله موسى ﷺ وبني إسرائيل "وحدثت الثانية (المائدة) مع نبي الله عيسى ﷺ والحواريين (وهم خاصته من النصارى) وهم أيضاً من بني إسرائيل، وهذه الآيات الخارقة: وتفصيلها كالتالي:
- الآية الخارقة الأولى (البقرة) تدل على تفريط بني إسرائيل في الامتثال لأوامر الله عز وجل الواضحة البينة وعدم الاستجابة لها مع أخذهم في الجدال والتعنّت مع نبيهم فيتبين من خلال هذه الآية الخارقة أنهم غير جادين في إظهار الحق الذي يعرفونه ويريدون كتمانهم ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

- بينما الآية الخارقة الثانية (المائدة) تدل على إفراط النصارى ومغالاتهم على نبيهم وتجروهم على الله عز وجل رغم أنهم قد رأوا الكثير من الآيات المادية الباهرة التي تبرهن لهم على كمال قدرة الله عز وجل وصدق نبيهم فيشهدون له بالرسالة ﴿أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

● الرابط الثاني: اكتمال الدين

- وكلتا السورتين بهما أواخر ما نزل من القرآن الكريم كما في سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] وكما في سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

ثانياً: التناسب بين سورتي آل عمران والنساء:

- ترمز السورة الأولى (آل عمران) لنموذج بيت من بيوت بني إسرائيل ولكنه بيت إيمان وتصديق واستقامة على الحق وعبادة وتقوى لله عز وجل على عكس الصفات التي كان عليها بنو

إسرائيل والتي ظهرت في سور الأطراف في هذه الباقية (سورتي: البقرة والمائدة) من الإفراط في الحق والتفريط فيه كما ذكر.

وهذا البيت المستقيم على الحق يتكون من: امرأة عمران (وهي من النساء) والتي نذرت وليدها لله عز وجل ولخدمة بيته فولدت أنثى اسمها: مريم (وهي من النساء أيضاً) بل من خير نساء العالمين فهي ممن اكتملن من النساء كما في الحديث الشريف:

«كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١). ومريم تم اصطفاؤها لأمر عظيم وهو كونها أم لنبي الله عيسى بلا أب فصَدقت بكلمات ربها وامثلت له واستجابت لمشيئته وكانت من القانتين.

- وترمز السورة الثانية (النساء) لنموذج أصغر وحدة في المجتمع وهي البيت وتناسبها مع آل عمران في كون عائلة عمران: امرأة عمران ومريم وأختها أم يحيى عليها السلام من نماذج النساء القانتات ونجد أن هؤلاء النساء دور أساسي وهو صناعة الرجال كعيسى ويحي عليهما السلام ونذرهم لله وتفرغهن للعبادة وحمل أمانة الدين كذلك سورة (النساء) أتت لتكفل لهن كافة حقوقهن ليتفرغن لنفس الدور وهو صناعة الرجال ونذرهن لله وحمل أمانة الدين وحفظهن لغياب أزواجهن ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] والله سبحانه وتعالى أعلم... وسيظل التناسب والترابط بين هذه السورة أعمق من هذه المعاني، ونسأل الله عز وجل أن يكشفها لنا في رحلتنا مع كتابه الكريم.

(١) صحيح البخاري (٦/ ٣٠، ٣٢١ فتح)

عرض سورة البقرة

(تكليف الأمة المسلمة بقيادة
البشرية بمنهج الله)

﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

فالحق ركنٌ لا يقوُّ لهده

مقدمة عرض سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ اَلَمْ ﴿١﴾ اَلَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ اُولَئِكَ عَلٰى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

فضل سورة البقرة

- عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعتة يقول «تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة.. قال.. ثم سكت ساعة ثم قال "تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان. يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف^(١)».

البطلة: السحرة، الزهراوان: المنيرتان، الغيابة: ما أظلك من فوقك. الفرقان: القطعة من الشيء المصطفة المتضامة.

- عن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران»^(٢).

- روى بن مردويه عن عتبة بن فرقد قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخرًا فقال «يا أصحاب سورة البقرة»، وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولوا مدبرين، ينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه: وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون بكثافة أمام جيش بني حنيفة. فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة. حتى فتح الله عليهم

ﷺ

وقال أنس: "كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة وآل عمران جلَّ في أعيننا".

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥ / ٣٤٨) وأخرج له مسلم

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤ / ١٨٣)

يقول ابن عثيمين رحمه الله: "معنى جلّ أي صار جليلاً معظماً لأنهم لا يقرؤنه إلا إذا عرفوا معناه"...

ومعنى ذلك أن الإنسان الذي يعرف البقرة لفظاً ومعنى وآل عمران لفظاً ومعنى فعنده علم كثير^(١).

تنجيم^(٢) نزول البقرة لتستوعب العهد المدني بأكمله:

- لم تنزل سورة البقرة دفعة واحدة بل ظلت سورة البقرة مفتوحة طوال العهد المدني بأكمله فمنها ما نزل في أوائل العهد بالمدينة.. كذكر تحويل القبلة، وذكر صيام رمضان، وذكر أول قتال وقع في الإسلام. فنزل بسببه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وكل أولئك كان نزولهن في أوائل السنة الثانية من الهجرة. وفيها آخر ما نزل في العهد المدني كآيات الربا. بل فيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة وهي آخر آية من القرآن على الأرجح ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

- كما ذكر ابن عباس وسعيد بن جبیر وابن جریج: "نزلت وعاش النبي ﷺ تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول"^(٣).

ومن ثم فإن سورة البقرة أكثر سور القرآن على الإطلاق في التنزيل نجومًا.. ويقول الدكتور محمد بن عبد الله دراز رحمه الله: "أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعًا للمعاني المختلفة وهي أكثرها للتنزيل نجومًا، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخيًا". تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعة وثمانين ومائتي آية وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفًا وثمانين نجمًا وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددًا^(٤).

ولعل حكمة نزول سورة البقرة بهذا الشكل المتباعد والمتراخي - والله أعلم بمراده لتستوعب العهد المدني بأكمله، وتعبّر عن معاني القرآن المدني وأهدافه كلها والتي تتلخص في (إقامة

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية - شرح ابن عثيمين ص ١٧

(٢) تنجيم: مفرقًا في النزول

(٣) مختصر تفسير ابن كثير - عمدة التفسير - تحقيق أحمد شاكر - ص ٢٦٦

(٤) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص ١٥٩ : ١٦٠

الدين في دنيا الناس) بعدما قرر القرآن المكّي هذه العقيدة في نفوس وفي أخلاق طليعة المؤمنين... وذلك في ترتيبه النزولي.. فسورة البقرة أول سورة أتت في القرآن بعد الفاتحة، تمثل نموذجًا كافيًا وشافيًا لإقامة مهمة الأمة في الأرض، حيث شهد نزول آياتها كل أحداث ومناسبات الفترة المدنية من أول قيام دولة الإسلام الأولى وتأسيس قواعدها، مرورًا بمرحلة انتصار الدولة واستقرارها ثم اكتمال بنائها وهيكل نظامها التشريعي والواقعي...

"جو نزول الآيات الأولى من سورة البقرة وملاساتها"

- يذكر الشيخ سيد قطب رحمه الله في مقدمة تفسيره لسورة البقرة: "لقد تمت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بعهد تمهيد ثابت وإعداد محكم بعد تجميد الدعوة في مكة وما حولها بموقف قريش منها وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل..."

ولذلك بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة...

وقد طلب الرسول ﷺ المنعة والحماية من القبائل العربية وتحين فرصة الخروج من مكة طوال الثلاث سنوات الأخيرة قبل الهجرة...

وأبدى الأنصار المجهزون بالسلاح استعدادًا لحمايته ﷺ وبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم. والمقابل كما قال لهم النبي ﷺ: الجنة. لا مطمع ولا مغنم دينوي أو منصب أو مكسب مادي. فهاجر النبي ﷺ إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التي بحث عنها طويلاً، وقامت الدولة الإسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرته ﷺ.

- لقد كان اليهود (سلالة بني إسرائيل وأبناء الدعوة المستبدلة) هم أول من اصطدم بالدعوة الناشئة الجديدة في المدينة.. وقد كان اليهود أهل كتاب وعلم. ويزعمون أنهم شعب الله المختار وأن فيهم الرسالة والكتاب وكانوا يتطلعون أن الرسول الأخير الذي يعلمون مجيئه وأوصافه كما يعرفون آبائهم، أن يكون منهم كما توقعوا دائماً...

فلما جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته وأن يقتصر دعوته على الأميين من العرب فلما وجدوه يدعوهم.. أول من يدعو إلى كتاب الله بحكم أنهم أعرف به من المشركين وأجدر بالاستجابة له من المشركين...

فأخذتهم العزة بالإثم وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة: حتى إنهم حسدوا النبي ﷺ حسداً شديداً...

حسدوه مرتين: مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب، مع أنهم لم يشكوا لحظة في صحة ما جاء به...

ومرة لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة. وانتشار سريع لم يتوقعوه. كما أن هناك سبباً آخر لحنقهم وموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى.. وذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني بعد ما سُحبت منهم القيادة العقلية...

ولهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه سورة البقرة في تفصيل دقيق...

ومن هنا توجه سورة البقرة في ظلال هذه الأجواء والملابسات خطابين:

- الخطاب الأول: لأبناء الدعوة المستبدلة- يهود المدينة- لاتباع دعوة الحق الجديدة والتي يعرفون صدقها. ولا يقفوا في وجهها ولا يحاربوها... ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١].

كما تخاطبهم البقرة وتذكرهم بانحراف آبائهم وأجدادهم. لاتصافهم بصفات مذمومة استمرت كما هي في سلالة الأبناء وتذكيرهم أن هذا الانحراف هو سبب حرمانهم من شرف قيادة البشرية. لما خانوا الأمانة وفشلوا في المهمة...

- والخطاب الثاني: خطاب للجماعة المسلمة الوليدة والناشئة في بداية مراحل قيام دولة الإسلام ويتضمن هذا الخطاب ما يلي:

١. الحذر من الصفات المذمومة التي كانت سبباً في انحراف الدعوة السابقة الفاشلة ﴿سَلِّ بِنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

٢. تحديد الأسس التي يتم إعداد رجال الطليعة الجديدة عليها لحمل الأمانة الكبرى في قيادة البشرية.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

٣. قواعد إنشاء دولة الإسلام وهيكل نظامه.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعليقاً على هذا التوصيف القرآني الدقيق لأجواء المدينة: "ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم... وكأن هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة" (١).

وهذا كان جو القرآن الحركي الواقعي وقت نزوله... وهذا هو جو القرآن الحركي الواقعي اليوم...

"قصة البقرة ورمزيتها ودلالاتها"

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، سورة البقرة

اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ
مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا
يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

[البقرة: ٦٧-٧٤].

- يقول ابن كثير في تفسيره: "قال تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة وبيان القاتل من هو؟ بعد أن أحيا الله المقتول وأنطقه بمن قتله منهم..."
- فعن عبيدة السلماني: قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير. وكان ابن أخيه وارثه. فقتله ابن أخيه ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وتدافع بعضهم على بعض. فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضاً! وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له. فقال لهم: إن الله يأمركم لتبين القاتل ومعرفة الحقيقة أن تقوموا بذبح بقرة فاعترضوا عليه بدلاً من الامتثال لأمره فقالوا أتتخذنا هزواً؟

فقال نبي الله: (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين).

فعلموا أن هذا صدق ولكنهم أبوا اتباعه والإذعان له. ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة. لكنهم شددوا فشدد الله عليهم واستهزءوا بأمر نبيهم وأخذوا في جداله وعناده حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها...

بقرة وسط في العمر بين الصغر والكبر. شديدة الوضوح في لونها الأصفر الصافي التي تعجب الناظرين وأنها مكرمة حسنة مسلّمة من العيوب صحيحة لا تعمل في الحرث أو السقاية..

فقالوا: (الآن جئت بالحق) أي بالبيان الواضح. وهذا من جهلهم وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة. ولو لم يقولوا إن شاء الله لم يهتدوا إليها أبداً...

- وقال رسول الله ﷺ «إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بُيِّنَتْ لهم آخر الأبد»^(١).

- وقوله تعالى (فذبوها وما كادوا يفعلون) يعني أنهم مع هذا البيان والوضوح وهذه الأسئلة والأجوبة ما ذبحوها إلا بعد الجهد لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها فلم يكن غرضهم إلا التعنت وعدم الامتثال لأوامر الله التي ستجلي الحقيقة وتكشفها وتُخرج ما كانوا يكتُمونه من أمر القتال. لقوله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها) أي أمروا بضرب القتيل ببعض من أعضاء هذه البقرة فأحياء الله. وهذا دليل مادي شاهده على قدرة إحياء الله للموتى..

- قال تعالى (كذلك يحيى الله الموتى ويربكم آياته لعلكم تعقلون" فأحيى الله القتيل ببعض البقرة وقام يشخب أوداجه دمًا...

فقالوا له: من قتلك؟

قال: قتلي فلان ثم قبض!

- عن ابن عباس قال: إن المقتول حين سئل من قتلك؟

قال: بنو أخي قتلوني ثم قبض. فقال بنو أخيه حين قبضه الله (والله ما قتلناه) فكذبوا بالحق بعد أن رأوه أمامهم فقال الله تعالى "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ".

فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعدة وعن الاعتبار بعدما شاهدوه من الآيات المادية أمامهم حتى صارت قلوبهم كالحجارة التي لا علاج لقسوتها بل أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا.

ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله كما ذكر الله تعالى عن تأثير القرآن على الجبل ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] (١).

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٧٤)

- ونقف بعون الله مع رمزية قصة (البقرة) هذه والتي سميت أطول سورة في القرآن باسمها، دلالة هذه التسمية ومغزاها والله أعلم هي كالتالي:

(١) قصة البقرة كانت هي الوسيلة لبيان الحق والوصول إليه وكشف الحقيقة التي اختلف حولها بنو إسرائيل وحاولوا كتمانها وهي السبيل الذي اهتدوا به لمعرفة القاتل...
ومن ثم وجب علينا اتباع الحق وعدم كتمانها كلما تبين لنا..

بل الاعتراف به والإذعان إليه والعمل به ولذا يظهر هذا المعنى (اتباع الحق بعد وضوحه وبيانه) في باقي آيات السورة وارتباطه برفض بني إسرائيل اتباع دين الحق والذين يعلمون أنه الحق المبين بل قاموا بكتمانها وتلبيس الحق بالباطل. وخلطوا بالحق الشبهات بل وحاربوه وأبوا اتباعه...

قال تعالى: ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١-٤٢].

(٢) قصة البقرة تحمل في طياتها الصفات المذمومة التي ظهرت في بني إسرائيل وتفشت فيهم من الجدل والعناد والاستهزاء بأوامر الله ونبيهم. ومن التعتن والمادية وقسوة القلب والتكذيب بالحق واتباع الهوى. وهذه الصفات المذمومة ستستفيض فيها آيات السورة لتؤكد أنها كانت السبب الرئيسي لفشل بني إسرائيل في حملهم أمانة الاستخلاف في الأرض وحرمانهم من قيادة البشرية ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

(٣) قصة البقرة تؤكد أن العباد عليهم سرعة الاستجابة لربهم وتمام الانقياد لأوامره وفورية التنفيذ ويكفيهم أن يعلموا أن الله عز وجل يأمر بفعل كذا أو ينهي عن فعل كذا فيذعن ويمتثل على الفور على أن لا يتباطئ أو يتحايل على أوامر الله عز وجل أو يريد أن يفهم كل أوامر الشرع ومغزاها ومعرفة الحكمة منها ليقوم بتنفيذها وبنو إسرائيل في قصة البقرة ظهر تباطؤهم وتحايلهم

على أوامر ربهم الواضحة فكان يكفيهم قول موسى عليه السلام لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ أن يقولوا في الحال سمعنا وأطعنا ولكنهم أخذوا يماطلون ويجادلون بقولهم ثلاث مرات ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُبَيِّنْ لَنَا﴾، لذلك ما الفارق بين أمة قيل لها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وأمة قيل لها ﴿كتب عليكم﴾ ؟

الفارق هو ماتظهره لنا آيات السورة في حال أمتين تجاه أوامر ربها...

أمة شعارها "سمعنا وعصينا".

وأمة شعارها "سمعنا وأطعنا".

٤) قصة البقرة تظهر لنا قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعَصِيهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢] وهذه الآيات المادية في الإحياء والإماتة تكررت في السورة في أربع مواضع أخرى غير هذه القصة:

١. قصة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]. بعد إصابتهم بالصاعقة ماتوا ثم أحياهم الله من بعد موتهم...

٢. قصة ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٤٣].

٣. قصة ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى جِمْارِكَ وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لحمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٤. قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة... ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وفي هذه القصص الخمسة جميعًا إقامة الحججة والبيينة والبرهان المادي على أن الله عز وجل

يحي ويميت وهو الملك الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء...

ووجب لمن تبين له ذلك أن يدعن له سبحانه وتعالى ويعبده وحده لا شريك له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ويعلم أن الله لا يغلبه شيء ولا يمتنع عنه شيء ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

عزيز: لأن إرادته نافذة ومشيئته قاهرة غالب على أمره عزيز في انتقامه ممن يعصى أمره أو يخالف شرعه.

حكيم: له الحكمة المطلقة في أمره وشرعه وخلقه وتصرفه وقضائه ومن ثم وجب تمام الانقياد له ولأوامره سبحانه وتعالى...

"خريطة سورة البقرة"

محاوِر سورة البقرة ووحدها الموضوعية وهدفها العام

- نريد بعرض خريطة سورة البقرة أن نعرض خطوط ترابطها ووحدة نظامها المعنوي في جملتها^(١) ثم نقوم بعد ذلك بإذن الله بالعرض التفصيلي لمقاطع السورة وفق دورها الرئيسي وهدفها العام... ومن خلال الوقوف على قصة (البقرة) ورمزية دلالتها يمكن لنا أن نقول بعون الله وتوفيقه أن خطوط ترابط آيات سورة البقرة من أولها إلى آخرها والتي تمثل محاور سورة البقرة هي كالتالي:

الرابط الأول: خط بيان الحق والهداية إليه.

الرابط الثاني: خط كمال الاستجابة وتمام الانقياد وفورية التنفيذ.

الرابط الثالث: خط مهمة حمل الحق وقيادة البشرية بين حرمان أمة وتكليف أخرى.

(١) النبأ العظيم، د/ محمد عبد الله دراز، ص ١٦٠

الرابط الأول: خط بيان الحق والهداية إليه "قد تبين الرشد من الغي"**سورة البقرة تنطق بالحق**

كما أنطقت البقرة قتيل بني إسرائيل بالحق لما ضُرب ببعضها... كذلك سورة البقرة جاءت ببيان كل شيء يهدي إلى الحق الذي يريد به الله عز وجل من خلقه فأياتها محكمة بينة، ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

فصار الحق جلياً كالشمس الساطعة فلا يراه من كان على بصره غشاوة، ولا يهتدي إليه من كان على قلبه أكنة، ولا يسمعه من كان في أذنيه وقراً مستحباً العمى على الهدى.

— ولكن ما هو هذا الحق؟ وما هي ملامحه ومعالمه التي تبصرون بها سورة البقرة؟ وما هي أركانه ومتطلباته التي تبرزها لنا هذه السورة الجليلة؟

— الحق هو: (مراد الله من الخلق الذي شرّعه في دين الإسلام القويم وأظهره وبينه في منهج القرآن الكريم وهو صراط الله المستقيم الموصل إليه سبحانه وتعالى).

• إذن الحق هو: اتباع كافة أوامر الله عز وجل (إن الله يأمركم) والمتمثلة في اتباع شرعه ودينه الحق ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

— واتباع النبي ﷺ الذي جاء بالحق ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

— والعمل بالقرآن الذي بيّن الحق ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

ملامح الحق ومعالمه

١. وضوح معنى دين الإسلام وبيان طبيعته.

قال تعالى ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٣١].

معنى دين الإسلام هو: الاستسلام والانقياد التام لله وحده لا شريك له معبوداً ومطاعاً،

وأمراً وحاكماً.

﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ولذلك كانت طبيعة هذا الدين هي: إسلام العباد لرب العباد وخروجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وخروجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة^(١).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

أي: تمسكوا بجميع شرائعه الإسلام في كل شأن من شؤون الحياة واعملوا بها كلها دون فصل أو تمييز وهذه طبيعة هذا الدين...

• جاءت سورة البقرة لتظهر أن هذا الدين كل لا يتجزأ سبيكة واحدة جمعت من معادن شتى وتماسكت بعروة وثقى محكمة فقد اشتملت سورة البقرة على شرائع الإسلام مفصلة في شتى مناحي الحياة في شأن الفرد وفي شأن الأسرة وفي شأن الأمة وفي المسائل المدنية والتجارية وتنظيم العلاقات المالية وفي الشعائر التعبديّة وفي أحكام الطلاق وأحكام الأسرة وفي العلاقات الأخلاقية وفي العلاقات الاجتماعية وفي أحكام القتال والحروب وفي التنظيمات الجنائية في القصاص والحدود كل ذلك وغيره مما يبرهن على أن دين الحق ليس عبادة فحسب، بل هو عبادة وعقيدة، وتشريع وحكم. من آمن ببعضه وكفر ببعضه فقد كفر بالدين كله كفرًا صريحًا وخرج من الإسلام كما يقول العلامة القاضي الشرعي أحمد شاكر: "من زعم أنه دين عبادة فقط فقد أنكر كل هذا وأعظم على الله الفرية ومن قال ذلك فقد خرج عن الإسلام جملة ورفضه كله وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم"^(٢).

(١) معالم في الطريق، أ. سيد قطب، ص ٤٦.

(٢) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين، الشيخ أحمد شاكر

وقال صاحب الظلال: "الذين يشركون مع الله آلهة أخرى: إما في صورة الاعتقاد والعبادة وإما في صورة الحاكمية والاتباع وكلاهما شرك كالأخر، يخرج به الناس من دين الله ويرتدون إلى الجاهلية التي أخرجهم الله منها ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى"^(١).

وهذا المعنى سنفصله بإذن الله في عرض سورة البقرة ثم تنفرد له في هذه السلسلة سورتي (المائدة والأنعام) بالكامل لخطورته وهو: التشريك في الحاكمية والتشريك في العبادة.

٢. وضوح رسالة دين الإسلام وبيان أهدافه العليا

قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

أي الدينونة والخضوع والاستسلام والانقياد يكون في الأرض كل الأرض لله رب العالمين فالإسلام نظام عام يحكم البشر في الأرض كلها قاعدته العبودية لله وحده وذلك بتلقي الشرائع منه وحده^(٢).

٣. وضوح طريق تحقيق هذه الرسالة وإخضاع الأرض لألوهيته وحاكميته...

ومضمون هذا الطريق أنه لن تتحقق رسالة هذا الدين وأهدافه العليا ومقاصده الكبرى إلا بتحرير الأرض من كل سلطان إلا سلطان الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والفتنة هنا في تفسير ابن كثير هي.. "الشرك"^(٣) أي أن انتشار الكفر والشرك فتنة للناس وإزالتها بالجهاد في سبيل الله...

إنها الحقيقة الثابتة والواضحة - من بداية كتاب الله - لتقرير ألوهية الله في الأرض لا بد من إزالة: بداية العوائق والسدود أمامها وذلك عملاً بسنة التدافع التي شرعها الله عز وجل ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٤٦

(٢) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٦٤

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الأول، ص ١٨٣

فدفع الفساد وتطهير الأرض بانطلاق الجهاد لتحرير الأرض من كل سلطان قاهر مغتصب حتى يكون الدين لله وهذا معناه أنه لا تعايش بين الحق والباطل في هذه الأرض، إما إسلام أو جاهلية، وإما إيمان أو كفر، وهذا ما سنفصله بإذن الله في عرض سورة البقرة من شرح مبررات الجهاد وبواعثه وهو ما تنفرد به سورتي (الأنفال - التوبة) في هذه السلسلة الأولى من المنهج الحركي للقرآن لأهميته القصوى..

٤. وضوح رسالة أعداء الإسلام وظهورها وأن طبيعة العداوة دينية وليست سياسية...

قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وأن طبيعة المعركة هي الاستئصال التام للإسلام وليست التعايش كما يحددونها...

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

• وهذه هي معالم الحق الواضحة التي جاءت بها سورة البقرة مفصلة ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية: "هذا هو دين الحق والرشد دين الفطرة والحكمة، فلجماله وقبول الفطرة له لا تحتاج إلى الإكراه عليه لأن الإكراه إنما يقع على ما يتنافى مع الحقيقة والحق أو لما تخفي براهينه وآياته وإلا فمن جاءه هذا الدين وردده ولم يقبله فإنه لعناده فقد تبين الرشد من الغي فلم يبق لأحد عذر ولا حجة"^(١).

أما الكفر بالطاغوت وهو كل معبود أو متبوع أو مطاع يعبد من دون الله بشراً كان أو قانوناً وضعياً والكفر به من عرى الإيمان، ومعنى "وقد استمسك بالعروة الوثقى" أي استقام على الدين الصحيح حتى يصل به إلى الله...

(١) تفسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي، ص ١٠٠

أركان الحق ومقتضياته

تعرفنا سورة البقرة بواجبنا نحو هذا الهدف الذي أظهرت لنا حقيقته ومعاله:

١. معرفة الحق ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٤٦] ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦-١٤٧].

٢. قصده وإرادته والاهتداء إليه...

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٣. العمل به...

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

٤. الثبات عليه...

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٥. الدعوة إليه...

﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

٦. الجهاد في سبيل نصرته...

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٧. الصبر على الأذى فيه...

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

سبيل الهداية إلى الحق هو (القرآن)

• القرآن الكريم هو سبيل الهداية إلى الحق.. قال تعالى:

— ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

— ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

— ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

— ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الرابط الثاني: كمال الاستجابة وتام الانقياد وفورية التنفيذ "فليستجيبوا لي"

بعد بيان الحق ووضوحه في مسار الخط الأول جاءت سورة البقرة بخط آخر متصل من

أول السورة إلى آخرها وهو خط الاستجابة لله عز وجل وأوامره وشرعه قال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦] أي فليستجيبوا لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية التي جاءت في شرعه الحكيم ودينه القويم وكتابه الكريم لذلك قامت السورة بعرض أمثلة ونماذج عديدة وبينت موقفها حيال الحق الواضح المبين من مؤمنين مستسلمين لربهم وما يأتيهم من أوامره ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

حتى لو خفيت عليهم حكمته فهم يعلمون أن الله عز وجل صاحب الحكمة البالغة في قوله وفعله وأمره وتصرفه، وأما الكافرون إذا دعوا إلى الحق أعرضوا عنه واختاروا العمى والضلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وهناك بين الفريقين المؤمن والكافر فريقًا ثالث متذبذب بين الهدى والضلال عرف الحق ولكنه أنكره وظل في ظلمة وحيرة ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. ثم عرضت السورة نموذجًا آخر لمخالفة أوامر الله وعصيانه وهو الشيطان الذي أبى واستكبر عن أمر الله له بالسجود لأدم، والشيطان في لغة العرب مشتق من: شَطَنَ أي: بَعَدَ عن الصحيح، ثم تعرض لنا السورة مساحة كبيرة لبني إسرائيل الآباء والأبناء في إعراضهم عن الحق واستجابتهم له مع تمام معرفتهم له فقاموا بكتمانه وتلبيسه بالباطل ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، ولما أمرهم الله عز وجل أمرًا واضحًا بذبح بقرة لمعرفة القاتل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فقابلوا أمر الله عز وجل لهم بالجدال والعناد والاستهزاء والتعنت حتى ضيقوا على أنفسهم فذبحوها وما كادوا يفعلون بعد ذلك كله، ثم أعرضوا عن اتباع النبي ﷺ الذي يعرفونه تمام المعرفة كما يعرفون أبناءهم فخالفوه وأنكروا الحق الذي أنزل معه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وذلك حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فقاموا بتحريف كتابهم من بعد ما عقلوه وعلموه فيضعون له معاني ما أرادها الله عز وجل ليوهموا الناس أنها من عند الله وما هي من عند الله.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

فهذا كان حالهم مع كتابهم فكيف كان حالهم مع القرآن الكريم الذي نسخ كتابهم وجاء مصدقاً له فأمرُوا باتباعه ومع يقينهم أنه الحق أعرضوا واستكبروا..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وهذا أبلغ في الإعراض...

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

فتركوا علم الأنبياء والمرسلين واتبعوا كتاب الله، واتبعوا علم الشياطين والسحر الذي يعلموه للناس...

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وكانت مواقف اليهود الأبناء هي نفس مواقف بني إسرائيل الآباء والأجداد في عدم الامتثال للحق رغم علمهم به وذلك لأن قلوبهم جميعاً فاسدة.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

فكان شعارهم جميعاً واحد حيال أوامر الله عز وجل وحيال الحق الذي جاء به الرسول ﷺ وأنزله الله عز وجل في كتابه الكريم وهو شعار (سمعنا وعصينا).

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

أما الأمة المسلمة التي جاءت تسميتها من مادة الاستسلام والخضوع وهو معنى دينها وحقيقته فاستجابوا لله عز وجل وقالوا: سمعنا وأطعنا، سمعنا أي: صدقنا، وأطعنا أي: امتثلنا واستجبنا.

فعرضت سورة البقرة نماذج لكمال استجابة المؤمنين لربهم وتمام انقيادهم وفورية تنفيذهم لأوامره سبحانه وتعالى فهم بحق ينتسبون لأبيهم إبراهيم عليه السلام صاحب الدين الحق والملة الحنيفية ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

فكان تحولهم عن قبلة المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام دليل إذعان تام وانقياد متناهي لله ولرسوله (ﷺ).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَاقِبِيهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويقول ابن كثير في تفسيرها: "وإن كان هذا لأمرًا عظيمًا في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد" (١).

وهذه هي حقيقة استسلامهم إذا ابتلاهم ربهم بالشدائد والمصائب ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

— أي مملكون لله مدبرون تحت أمره وتصريفه فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمالكه وأموالهم فلا اعتراض عليه بل كمال العبودية" (٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، ص ١٧٥

(٢) تفسير الكريم الرحمن، تفسير السعدي، ص ٦١

— وهكذا كانت الأمة المسلمة أمة الاستجابة لربها وأوامر شرعه والتمسكة بدينها كما أراد الله عز وجل لها أن تكون، فهل امتثلت الأمة المسلمة وانقادت لشرع الله وتمسكت بالحق الذي وضحت معالمه جلية؟

— هل حملت الحق الذي كلفها الله عز وجل به واتبعت رسولها ﷺ في منهجه الشرعي وطريقته النبوية في قيادة البشرية لإقامة دينها في الأرض أم انحرفت وضلت؟

وقد حذرنا الله عز وجل من الانحراف عن الحق المبين بعدما جاءهم مفصلاً بأشد تحذير قال تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] أي إذا عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج فأعلموا أن الله عزيز في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب. حكيم في قضائه فإن عذب فمقتضى حكمته، وهذا وعيد شديد تنخلع له القلوب، فجاءت سورة البقرة بعشرات الأوامر والنواهي في شكل أحكام الدين وتشريعاته.. من (الآية ١٧٨ إلى الآية ٢٨٣).

وسواء أعلم المسلمون الحكم من وراء هذه الأحكام أم لم يعلموا فموقفهم ينبغي أن يكون في الحالتين كمال الاستجابة وتمام الانقياد وفورية التنفيذ وهذا هو المعيار الأساسي لنجاحهم في مهمتهم التي كلفوا بها لهداية البشرية إلى صراط الله المستقيم بإذن الله...

الرابط الثالث: مهمة حمل الحق وقيادة البشرية بين أمتين... "حرمان أمة" وتكليف آخره"

— ويعتبر هذا الرابط هو المحور الرئيسي لسورة البقرة لاندرج الخطين الآخرين تحته كما أنه هو الخط المتصل بالمنهج الحركي للقرآن الكريم في ربطه لسور القرآن المتتالية حول بيان معالم الطريق لمهمة الأمة أمام أفراد ورجال القاعدة الصلبة المؤمنة.

— إن مهمة الاستخلاف في الأرض هي عبارة عن: إقامة العبودية لله عز وجل في الأرض وتحكيم شرعه ومنهجه وحده لا شريك له...

— وبنو إسرائيل هم أول أمة مستخلفة بعد آدم ﷺ وكانت رسالة موسى ﷺ أولاً بتحريير بني إسرائيل من تحت قبضة وهيمنة فرعون مع دعوته للإيمان بالله. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْ

مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ [طه:
٤٧].

فبعد تحريرهم بهلاك الله لفرعون ونجاتهم في معجزة مادية خارقة أمام أعينهم. قال تعالى:
﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

أورثهم الله الأرض وكلفوا بإقامة دولة وبناء أمة. قال تعالى: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا
يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا
صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فكلفوا بأمانة كبرى وهي قيادة البشرية في زمانهم وأنزل الله عليهم التوراة ليعملوا بها
ويقيموا حكمها يطبقون تشريعاتها.. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ
الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا
تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فأهلوا العمل بالتوراة.. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ
عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

بل وحرفوها.. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ورضوا بدنيا رخيصة.. قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وظهرت فيهم أمراض القلوب والنفوس واستشرى الكبر والعناد واتباع الهوى وارتكاب المعاصي، فأعطاهم الله عز وجل فرصاً عظيمة وكثيرة ومتتابعة للتوبة والإيمان. وشكر نعمه والوفاء بعهدهم فأهدروا كل هذه الفرص.

فدعوا إلى سنة الجهاد في سبيل الله لدخول الأرض المقدسة ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، فكنثوا وتحاذلوا فأدخلهم الله عز وجل في تيه أربعين سنة عقوبة لهم ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، ومات نبي الله موسى ﷺ في فترة التيه وجاءتهم مئات الأنبياء فعاملوا أنبياءهم أسوأ معاملة ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون حتى أقام بهم نبي الله داود ﷺ أكبر دولة لبني إسرائيل واستخلفوا في عهد داود وسليمان عليهما السلام.. قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فانحرفوا عن منهج الله بعد سليمان ﷺ واستمرت فيهم الصفات المذمومة وأهملوا كتاب الله والعمل به حتى جاء آخر أنبياءهم عيسى ﷺ وأيده الله عز وجل بالمعجزات البينات وبالوحي.. قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فاشتد تكذيبهم له وعنادهم وحاولوا قتله ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان فنجاه الله عز وجل ورفع له إليه. وكانت هذه هي الفرصة الأخيرة لهم للاستقامة على منهج الله والاستجابة لأوامر الله عز وجل والانقياد لكتابه التوراة وتنفيذ شرعه وتحكيمه في الأرض فتم حرمانهم من شرف قيادة البشرية ونزعت منهم أمانة الاستخلاف في الأرض لما نقضوا عهودهم ومواثيقهم مع ربهم، واستبدلوا لما فشلوا هذا الفشل الذريع في حمل مسئولية إقامة حكم التوراة والإنجيل.. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وهكذا لم يؤد بنو إسرائيل حق المهمة التي كلفوا بها وكفروا بها فوكل الله بها قومًا آخرين وانتقلت قيادة البشرية إلى بني إسماعيل عليهم السلام إلى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم المرسلين وسيد الأنبياء وإمام البشرية أجمعين الذي كانوا يعرفون أوصافه وينتظرون مجيئه كما بشرتهم كتبهم.. قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

فجاءت سورة البقرة تخاطب يهود المدينة (أبناء الدعوة المستبدلة) كما بينا في جو نزول الآيات الأولى من سورة البقرة وملابساتها..

تخاطبهم باتباع الحق الذي يعرفونه والاستجابة للدعوة الجديدة التي يعرفون صدقها.. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

أي لما جاء يهود المدينة القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم مصدقًا للتوراة وكانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون لهم: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وأرم. فتذكر الآيات توعددهم للمشركين بمحاربتهم بدعوة الحق فلما ظهرت هذه الدعوة تخلوا عنها بل وحاربوها فكانوا أول من كفر بهذه الدعوة الجديدة حسدًا وغيرة على أن الحق حمله غيرهم فتمنوا أن تقع الدعوة الجديدة الناشئة في الكفر غيرة وحسدًا من عند أنفسهم.

يقول ابن عباس: "من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيء ولكن الحسد حملهم على الجحود"، وزعموا احتكارهم الهدى والقوامة على الدين..

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيًا كان ما يعملون!!

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

فأخبرهم القرآن أن الحق بالاتباع والعمل وليس بالدعاوي والشعارات..

قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

فجردتهم سورة البقرة من إدعاء انتسابهم لإبراهيم عليه السلام وأتهم ورثته وخلفاؤه كما يقول الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله: "لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها وورث عهودها وبشاراتها ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم فقد فسق عن عهد الله وقد فقد وراثته لهذا العهد"(١).

واستحقت الأمة المسلمة أن تكون هي الأمة المستخلفة الجديدة بعد فشل استخلاف بني

إسرائيل والمقارنة بينهم؟ والسؤال: لماذا التشبيه ببني إسرائيل والمقارنة بهم؟

وما هي حكمة الحديث المطول عنهم؟

وما هي الأسباب الرئيسية لحرمانهم؟

وعلى أي أساس كان خطاب التكليف للأمة الجديدة؟

- في البداية يقول الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله: "إن حكمة الحديث المطول عن بني إسرائيل في البقرة وغيرها من سور القرآن هي:

١. تحطيم دعاوى اليهود وكشف كيدها وبيان حقيقتها وحقيقة دوافعها في الدس للإسلام والمسلمين.

٢. تفتيح عيون المسلمين وقلوبهم لهذه الدسائس والمكايد التي تواجه مجتمعهم الجديد فتوجهه إلى وحدة الصف المسلم أمام تدخله وإشاعة الفتنة فيه...

٣. تحذير المسلمين من مزالق الطريق التي عثرت فيه أقدام الأمة المستخلفة قبلهم فحرمت مقام الخلافة وسلبت شرف القيام على أمانة الله في الأرض(٢).

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب, سورة البقرة

(٢) نفس المصدر السابق.

— نعم إن الحذر من تكرار تجربتهم والسير على خطاهم والانزلاق في أخطاءهم يعتبر هو السبب الرئيسي في طول الحديث عنهم لتعتبر به أمة الإسلام، ولكن قد يتساءل أحد ويقول:

هل نقارن أنفسنا باليهود؟ كيف نتشبه بتجربة استخلاف فاشلة؟

والإجابة والله أعلم.. أن وجود تجربة سابقة لأمة مستخلفة ولدعوة مستبدلة يحكي عنها القرآن هذه المساحة الضخمة ويكرر ويفصل في انحرافها ومظاهر هذا الانحراف وأسباب الفشل وعرض الصفات المذمومة التي اتصفت بها هذه التجربة السابقة حتى لا تكون هناك حجة لأحد من أمة الإسلام ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. ولكن ألا يوجد غير بني إسرائيل المذمومين في السمعة والسيرة في أذهاننا للاستفادة من تجربتهم والحذر من الوقوع فيها؟

والحقيقة في الرد على هذا التساؤل لابد أن نبين أن بني إسرائيل كانوا أختيار الناس في

زمانهم..

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

فهم سلالة الأنبياء الكريم يعقوب بن الكريم إسحق بن الكريم إبراهيم عليهم السلام أجمعين إنهم أفضل العالمين في وقتهم. ألم يخاطبهم الله عز وجل في سورة البقرة مرتين... بقوله تعالى: ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:

١٢٢].

في أوائل خطابه لهم في السورة وفي نهاية خطابه لهم بتقرير أن الله عز وجل فضلهم على عالمي زمانهم فلا بد أن نستفيد حق الاستفادة من تجربة استخلاف بني إسرائيل وأن نقر ابتداءً أنهم سلالة الأنبياء خيار الناس في زمانهم فمنهم العلماء والربانيون والعُباد والفقهاء...

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والربانيون هم: العلماء العباد.

والأحبار هم: العلماء الفقهاء.

بل ومنهم المجاهدون والشهداء.

قال تعالى:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهذه الآيات تتحدث عن طالوت ومن بقى معه من صفوة بني إسرائيل في جهادهم

لجالوت والعمالق...

لذلك فاليهود اتبع موسى ﷺ الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم وماتوا على

ذلك ولم تبلغهم دعوة الرسول ﷺ فهم على هدى ونجاة ومع المؤمنين في الجنة...

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

لذلك فبني إسرائيل كان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك... قال تعالى:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

أي منهم جماعة يهدون الناس إلى الحق وبه يحكمون بينهم... وذكرت سورة البقرة في عدة

مواضع انحراف فريق منهم لقوله تعالى:

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

﴿وَأَكَلْنَا عَاهِدًا مِنْهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَأَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ

وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وستأتي سورة (آل عمران) لتحدث أيضاً أنهم ليسوا سواءً فمنهم مجموعة استقامت على الحق وثبتت عليه، ومن هنا نقول أن موقف أبناء الدعوة المستبدلة من الدعوة الناشئة تفاوت إلى خمسة أصناف وهم:

١. صنف يواجه دعوة الحق الناشئة مواجهة مفتوحة مباشرة...

٢. صنف يواجه دعوة الحق الناشئة بالتشويه وتليبس الحق بالباطل...

٣. صنف لا يواجه دعوة الحق الناشئة ولكن يمنعه الكبر والهوى عن اتباعها...

٤. صنف تخلى عن الحق بالكلية وأخذ عَرَضَ هذا الأدنى من حطام الدنيا...

٥. صنف عرف الحق واستقام عليه وتمسك به وأولئك هم المفلحون بإذن الله...

— لذلك على أمة الإسلام أن تحذر بحق من تكرر أخطاء بني إسرائيل والوقوع في انحرافهم أو تسير على خطاهم.

فهل استجابت أمة الإسلام لتحذيرات القرآن من الانزلاق في أخطاء بني إسرائيل؟

أم سارت خلفهم تتبعهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه السلام فيما

رواه الشيخان... عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم». قلنا:

يا رسول الله: اليهود والنصارى؟

قال: فمن؟^(١) سنن: أي طريق.

(١) صحيح: البخاري في كتاب الاعتصام (٩٦)

- وهنا التشبيه في المتابعة بالشبر والذراع كناية عن شدة الموافقة لهم في المخالفات والمعاصي لا الكفر، ثم إن اللفظ خير معناه: النهي عن اتباعهم والالتزام بشرع الله واتباع سبيل الحق والبعد عن مخالفتهم التي ارتكبوها.

- والأسباب الرئيسية لحرمان بني إسرائيل من أمانة الاستخلاف في الأرض تتلخص في:

- ١) البعد عن الانتفاع بكتاب الله والعمل به وتركه وراء ظهورهم...
 - ٢) ترك أمراض النفوس المدمومة تستشري فيهم دون تطهير أو علاج حتى أصبحت أمراضاً مزمنة...
 - ٣) الانحراف عن منهج الله الذي ارتضاه لتحقيق مهمة إقامة الدين في الأرض... وسيأتي بإذن الله تفصيل هذه الأسباب والأمراض في العرض التفصيلي لسورة البقرة.
- أما الأساس الذي أسندت به مهمة الاستخلاف في الأرض إلى الأمة المسلمة هو:

تحقيق الصفات والشروط اللازمة لحمل هذه المهمة، فهذه الأمة ليست سلالة أنبياء (سبب تكريم بني إسرائيل) ولكنهم أمة صفات وأمة بلاغ، تكريمهم وخيريتهم مرهونة بمدى تحقق هذه الصفات التي تعطيهم أهلية هداية الناس إلى صراط الله المستقيم، فإن فقدت هذه الشروط أو الصفات دخلت الأمة أو الفئة التي تعمل على إقامة دين الله في تيه وظلمة وعقوبة ومهانة حتى ترجع تتمسك بالصفات والشروط والتي سيتم بإذن الله تناولها في العرض التفصيلي لسورة البقرة...

- وبعد عرض هذه الخطوط الثلاثة للترابط بين آيات سورة البقرة وتوضيح المحور الرئيسي للسورة...

وهو: "مهمة حمل الحق وقيادة البشرية بين حرمان أمة وتكليف أخرى". صار هذا المحور هو

الوحدة الموضوعية لسورة البقرة.

- وأن الهدف العام لسورة البقرة هو والله أعلم:

"تكليف الأمة المسلمة لقيادة البشرية يتطلب تمام الانقياد وفورية التنفيذ"

وهنا انتهت بفضل الله مقدمة سورة البقرة وبقي لنا قبل الدخول بعون الله إلى العرض التفصيلي للسورة، أن نوجه خطاباً إلى كل الباحثين عن الحق من أمتنا في هذا الزمان حيث أن سورة البقرة سورة تكفي لبيان هذا الحق بياناً واضحاً جلياً وتكفي للهداية إلى صراط الله المستقيم فكيف بالقرآن كله تأتي آياته وسوره بعرض هذا الحق بأساليب مختلفة وأدلة دامغة وبراهين ساطعة لئلا يكون للناس حجة بعد كتاب الله المبين...

نداء: إلى الباحثين عن الحق

— عليكم تحري الصدق ثم تحري الصدق في طلب الهداية إلى صراط الله المستقيم والوصول إلى الحق المبين.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٢١].

وأعلموا أنه من تحرى الصدق بلغه ووفقه الله عز وجل إليه بهدايته وفضله وعليكم بالتخلي عن أية أفكار قديمة تؤثر على تدبركم لكتاب الله عز وجل..

فتلك الموروثات التي تجعلك تقول هذه الآيات تخص الكافرين وهذه الآيات نزلت في المنافقين وهذه تتحدث عن اليهود..

هذه الموروثات لن تجعلك تنتفع بكتاب الله ومن ثم الوصول إلى الحق. وأقرأ كل آية وكأنها تخاطبك أنت...

ويقول الشيخ سيد قطب رحمه الله في شرط الانتفاع بالقرآن للوصول إلى حقائقه الكبرى:

"ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق وتقول لنا:

"هذا عدو لكم فتبرؤا منه، وهذا أخ لكم فتولّوه، وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيطه وكذا فاتخذوا من العدة"^(١).

● وآخر ما نتواصى به هو دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به كل ليلة في استفتاح صلاة الليل، أسوة وقدوة لنا في سعينا للوصول إلى الحق: "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"^(٢).

العرض التفصيلي لسورة البقرة

- يتناول العرض التفصيلي لسورة البقرة خمسة مقاطع رئيسية وهي:
 - المقطع الأول: موقف الناس من هداية القرآن (من الآية ١ : ٢٧).
 - المقطع الثاني: آدم ووظيفة الخلافة في الأرض (من الآية ٢٨ : ٣٩).
 - المقطع الثالث: فشل الأمة المستخلفة الأولى ودعوة سلالتهم لاتباع الحق (من الآية ٤٠ : ١٢٣).
 - المقطع الرابع: الدين الحق ملة إبراهيم وشروط الإمامة (من الآية ١٢٤ : ١٤١).
 - المقطع الخامس: تكليف الأمة المسلمة بقيادة البشرية (من الآية ١٤٢ : ٢٨٦).
- وستقوم بإذن الله بعرض مقاصد القرآن من خلال عرضنا لمقاطع السورة الرئيسية السابقة وهذه المقاصد هي:
 - المقصد الأول: معرفة الله عز وجل.. تعرف على ربك: (العليم الحكيم).
 - المقصد الثاني: الإعداد لليوم الآخر.. منازلنا الأولى والشوق إليها.
 - المقصد الثالث: تزكية النفس.. الكبر يخرج من دائرة العبودية..

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٥/١) عن عائشة ؓ

- المقصد الرابع: إقامة مهمة الأمة.. الأسس التي قام عليها منهج قيادة البشرية وبصائر: سنة التدافع...

المقطع الأول: موقف الناس من هداية القرآن ودعوتهم جميعاً إلى الحق

(من الآية ١: ٢٧)

- ﴿الم﴾: بدئت سورة البقرة بأحرف مقطعة لا عهد للعرب أهل البلاغة والفصاحة بمثلها ذكرت ولا يعرف أحدٌ من البشر معناها فهي من المتشابه في القرآن، ولكن اختلف المفسرون في المقصد منها وكان الأرجح في قولهم أنها ذكرت (لبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله).
- ألحقت بهذه الأحرف الثلاث جملٌ ثلاث عن القرآن الكريم وهدايته وهي:
 - ذلك الكتاب
 - لا ريب فيه
 - هدى للمتقين
- يقول د. عبد الله دراز عن هذه الجمل الثلاث: "أليس تفاضل الكتب إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل. أليس كمال هذا الحق أن يكون نيراً لا يثير شبهة. أليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك أن يكون ذلك الحق مما تمس إليه حاجة الناس في إنارة السبيل وإقامة الدليل إذا ما اشتبهت عليهم السبيل وتفرقت المسالك فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث فهو:
 - الحق المحض الذي لا باطل فيه.
 - الحق النير الذي لا شبهة فيه.
 - الهدى المبين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور^(١).

(١) النبا العظيم، محمد عبد الله دراز، ص ١٦٧

- والقرآن جاء بالحق ودليل الهداية إليه معًا، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. والناس لما طلبوا الهداية إلى الحق في الفاتحة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ جاءهم الهدى من رب العالمين في استجابة فورية لطلبهم.. هاهو الكتاب أمامكم هدى للمتقين إلى الحق.
- ولكن من الذي سيستجيب لهداية القرآن؟

— إهم: المتقون ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ﴾ [ق: ٤٥].

- ولماذا؟... لأن خوفهم ووجلهم سيجعلهم يبحثون عن الحق وعن كل ما يرضي ربهم كمن يتحسس الإبرة في كومة من القش، يحذرون من عقوبة الله لهم فينتابهم دومًا حالة من القلق والفرع خوفًا أن لا يكونوا كما أرادهم الله عز وجل فيتعاملون مع كل آية في القرآن وكأنها أنزلت لهم هم تخاطبهم دون غيرهم... لذلك سيظل المتقون هم المنتفعون بهداية القرآن.

أولاً: موقف الناس من هداية القرآن

- فانقسم الناس في موقفهم من هداية القرآن إلى أصناف ثلاثة:

١. مؤمن منتفع بالقرآن وهدايته (الآيات من ٣ : ٥).
٢. كافر معرض عن القرآن وهدايته (الآيات من ٦ : ٧).
٣. منافق متذبذب بين الهداية والضلال يتأرجح بينهما (الآيات من ٨ : ٢٠).

(١) صفات المؤمن المنتفع بالقرآن وهدايته:

- الإيمان بالغيب أولى صفاتهم والتي تنبني عليها كل صفاتهم فأعمالهم من صلاة ونفقة وجهاد وتضحية قائمة على يقينهم وتصديقهم بمثوبة غيبية.
- إقامة الصلاة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.
- الإيمان بما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ وما أنزل على المرسلين قبله لا يفرق بينهم.
- يصدق بالآخرة من البعث والحساب والميزان والجنة والنار وكل ما أخبر عنه الله ورسوله ﷺ عن يوم القيامة.

٢) الكافر معرض عن القرآن وهدايته

— أعرض ابتداءً عن هداية القرآن فأعرض الله عنه جزاءً وفاقاً، أغلق منافذ الهدى فلا يريد سماع الحق أو الاستجابة له.. واستحب العمى على الهدى.. فلهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم أذان لا يسمعون بها، لذلك فإن موانع هداية القرآن هي نتيجة قابلية القابل وليست سبباً في فاعلية الفاعل ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَهُمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

٣) المنافق المتذبذب بين الهداية والضلال

● هذه الفئة أخطر الفئات لغموض موقفها فهي تظهر الخير وتبطن السوء كما أنها أخوف ما يخاف المسلم لعدم استبعاد الوقوع فيها والعبد لا يدري، لذلك تم عرضها في أطول الآيات من دون سابقها في ثلاثة عشر آية تتحدث عن حالهم وتكشف أسرارهم، والمتقون هم من يعرضون أنفسهم على هذه الصفات خوفاً أن تصيبهم خصلة منها.. لأن النفاق نوعان: أ) نفاق عقائدي وهو المنافق الخالص.

ب) نفاق سلوكي وهو من كان فيه شعب من النفاق حتى يدعها.

فعن النبي (ﷺ): «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» رواه البخاري ومسلم، فقد يجمع قلب المسلم: إيمان ونفاق كما في حديث: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يُزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصَفَّح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجُه فيه نور، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفتح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثَل البقلة، يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثَل القرحة، يمدّها القيح والدم، فأَي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(١).

● وأهم صفات المنافقين التي ذكرت في هذه الآيات (من ٨: ٢٠):

(١) رواه أحمد في مسنده (١١١٤٦) (١٧/٣ حلي) وقال أحمد شاكر أن إسناده صحيح.

١ . عدم مطابقة القول والادعاء مع العمل والسلوك فيبطنون مالا يظهرون: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ

أَمَّنًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

٢ . ذاقوا الهداية ولكن حرموا منها لفساد بواطنهم ولاختيارهم طريق الضلال: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا

حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

٣ . رفض النصح وفرص العودة للهداية:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

٤ . لا يعترفون بعيوبهم ويحسبون أنهم على شيء:

- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ

وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

٥ . يكونون مع الحق فإذا أصابتهم نكبة انتكسوا إلى الضلال:

- ﴿كُلَّمَا أَضَاءَتْ لَهُمْ مَشْأُو فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

٦ . إهمال أمراض قلوبهم حتى تتفاقم دون تطهير:

- ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

٧ . الاستهزاء والسخرية من أهل الإيمان:

- ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

• احذر الخذلان الإلهي

— نحن لا نتحدث عن أناس بعينهم نشير إليهم ونأمن على أنفسنا من الوقوع في صفاتهم.. إن الحذر كل الحذر في إصابة إحدى خصائصهم ومن ثم الوقوع في العقوبة الإلهية وهي: الخذلان الإلهي.

— إذا رُفِعَ العون الإلهي عن العبد وتخلّى الله عز وجل عن عصمته وقع العبد في الخذلان وكان بداية الهلاك إن لم ينتبه ويتيقظ لهذه الخصال.

انظر لهذه العقوبات الإلهية ومدى خذلان الله لأصحاب هذه الأمراض:

— ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

— ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

— ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

• إن أخطر ما يكون عليه العبد هو خراب الباطن وإن بدا للناس حسناً مع ترك هذا الخراب وهذه الأمراض لسنوات وسنوات فتزداد أمراض القلوب وتحاصر العبد (وأحاطت به خطيئته) بل والأخطر من ذلك هو عدم شعور العبد بأمراضه فيعيش حالة من الوهم والخذاع.. يظن نفسه مصلح ويحسب أنه على شيء فيعيش مستدرجاً دون أن يشعر لذلك لا بد من:

— التخلص من كل مظاهر الانخداع في النفس من حديث النفس وخواطرها أنك على علم أو على هدى ﴿زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

— القناعة الدائمة أننا مسيئون ولسنا محسنون ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

— التعلق بعصمة الله عز وجل كل لحظة ودعاؤه ألا يكلنا لأنفسنا طرفة عين أو أقل منها.

— الاهتمام دائماً بأن تكون السريرة التي يطلع عليها الله عز وجل خير من العلانية التي يراها الناس.

● ضرب مثالين للمنافق في معرفته بالحق وتردده في الهداية

— قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠].

● يقول ابن القيم في "الأمثال في القرآن":

— "ضُرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين مثلاً نارياً ومثلاً مائياً لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة، وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزل من السماء - القرآن - متضمناً حياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه (روحاً من أمرنا) و(نوراً تُهدي به من نشاء)، إن المنافق استوقد ناراً لتضيء له وينتفع بها وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به ولكنهم لم ينتفعوا به فذهب الله بنورهم ولم يقل نارهم فإن النار فيها الإضاءة والإحراق فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وتركهم في ظلمات لا يبصرون"^(١).

وهذا حال من أبصر ثم عمى، وعرف ثم أنكر.. وتعرف على الهداية ثم تركها.. وعرف الحق ثم أعرض عنه.. فلن يرجع إليه عقوبة على فعله لذا فهم لا يرجعون...

— "وأما ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي فشبههم بأصحاب صيب وهو المطر الذي يصب أي ينزل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيته وخطابه الذي يشبه الصواعق فحالهم كحال من أصابهم مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوفه جعل إصبعيه في أذنه خشية من صاعقة تصيبه"^(٢).

(١) الأمثال في القرآن، ابن قيم الجوزية، ص ٢

(٢) الأمثال في القرآن، ابن قيم الجوزية، ص ٢

وهذا حال من كان الحق ثقیلاً علیه لأن تكالیفه لا یطیقها، فیها مشقة علیه أو لأنه ألف وضعه على غیر الهدى والحق ولا یجب تغییر حاله.. فاحذر أخي أن تكون من هؤلاء!

• إن هذه الأمثلة بعد ذكر تباین الموقف من هداية القرآن تجعلنا نقول:

- إن عدم الجدية في الهداية والوصول إلى الحق یسبب المزيد من الحيرة حتى یقع العبد في الضلال وهو البديل الآخر للهداية.

- إن الهداية في القرآن قد بلغت حدًا من الوضوح لا یتردد فيه ذو قلب سليم، وإنما یعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض... نسأل الله عز وجل أن لا نكون منهم.

ثانيًا: دعوة الناس جميعًا إلى الحق

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

- ولكن لماذا الناس كلهم؟ وما هي علاقة أول القرآن بآخره؟

• یقول الشيخ الشعراوي: "الناس هم المخاطبون بهذا القرآن، الناس جميعًا فهم هدف رسالات الرسل من لدن آدم عليه السلام أول الناس على الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم تلى سورة (الناس) سورة (البقرة) التي بدأت بالحديث أن هذا القرآن مرسل إلى الناس لهدايتهم ليؤمنوا به ثم تكلمت عن الناس وأصنافهم الثلاثة ثم توجهت إلى عموم الناس تدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فانتهى المصحف بكلمة الناس ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، وبدأ بالكتاب ثم حديث عن الناس وأصنافهم واختلافهم في الإيمان بهذا الكتاب وهو إعجاز النظم القرآني الذي لا ینفد ولا یبلى" (١).

(١) تفسير الشعراوي، المجلد السابع والعشرين، ص ١٧٣٩٢

● العقيدة هي أساس دعوة الناس (الآيات من ٢١ : ٢٥)

— إن إقرار عقيدة لا إله إلا الله بأركانها هو أساس دعوة الناس إلى الإسلام.. كما يقول د. منير الغضبان في المنهج الحركي للسير: "إن معالم الدعوة الجديدة والخطوط العريضة الأساسية لهذا الدين هي:

- الإيمان بالله الواحد.
- الإيمان برسول الله (ﷺ).
- الإيمان باليوم الآخر^(١).
- إن القرآن المكّي ظل يغرس هذه القاعدة الأساسية، ثم جاءت سورة البقرة في بدايتها لتؤكد عليها وهي أن أساس دعوة الناس في هذه الحياة هو إقرار عقيدة التوحيد.
- ويقول الدكتور دراز: "الآيات الخمس تسمع منها نداءً قويًا موجّهًا إلى العالم كله بثلاثة مطالب:
- (١) أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئًا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].
- (٢) أن آمنوا بكتابه الذي نزل على عبده ﷺ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].
- (٣) أن اتقوا أليم عذابه، وابتغوا جزيلا ثوابه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وهذه المطالب الثلاثة هي: الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية^(٢).

(١) المنهج الحركي للسير النبوية، منير الغضبان، ص ٤١

(٢) النبا العظيم، محمد عبد الله دراز، ص ١٧٨

المقطع الثاني: آدم ووظيفة الخلافة في الأرض (من الآية ٣٨: ٣٩)

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

- أوكّل الله عز وجل الخلافة في الأرض لآدم عليه السلام وذريته من بعده يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل وأساس هذه الخلافة هو تحقيق وظيفة رئيسية وهي: "عبودية الله عز وجل لا شريك له" ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكان من مستلزمات هذا الاستخلاف:

- تكريم هذا المخلوق الجديد على سائر المخلوقات بعقل يستطيع أن يصل إلى معرفة ربه سبحانه وتعالى لدرجة لم يصل إليها مخلوق من قبل.

- تسخير الأرض وكل ما عليها لينتفع بها الخليفة الجديد وتعيينه على وظيفته ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

- تخيير الخليفة في أداء وظيفة العبودية فهو مخلوق من طين وروح وهذه هي طبيعة اختلافه عن الملائكة التي خلقت من روح فقط ولذا فهم عبيد مريوبون لا يعصون الله عز وجل طرفة عين ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

- ويقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن وظيفة الخلافة في الأرض: "فإنه حين يقوم الإنسان بالخلافة عن الله في أرضه على وجهها الصحيح: إن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره. وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يحكم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة.

ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله على النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترقية الحياة، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها وجعل تلك النواميس الكونية أختامها، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة، أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق، ويصنع المادة الخام، ويقوم الصناعات المتنوعة ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله... حين يصبح وهو يصنع هذا كله "ربانياً" يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو - عبادة لله - يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة، فأما الإبداع المادي - وحده - فلا يسمى في الإسلام حضارة... وقد ذكر الله من هذا الإبداع المادي في معرض وصف الجاهلية ﴿أَتُنْبِئُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٧-١٣١] ^(١).

- إذن الوظيفة الأولى للخليفة ليست إقامة المصانع وإنشاء الجسور وشق الترع وإطالة البنيان.. إن الوظيفة الأولى لخليفة الله في أرضه هي: إقامة العبودية لله وإقرار الحاكمية لله وحده لا شريك له وفق شرعه سبحانه وتعالى.

ثم تأتي الحضارة المادية مع الأخذ بأسبابها وعمارة الأرض كوظيفة ثانية وتالية لها فمع تحقيق المسلمون للأولى ستتحقق الثانية بالتبعية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

• وقفات مع آدم عليه السلام الخليفة الأول

- أول معصية ارتكبت: كانت من إبليس وهي ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] والسبب: النفس، والمرض هو الكبر.

- المعصية هبوط وسفول بعد قرب وعلو
- ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].
 - ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨].
- التوبة رزق من الله عز وجل وتوفيق وإلهام منه سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].
- وقيل في تفسير ابن كثير أن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].
- ستأتي سورة (الأعراف) بإذن الله بتفصيل ما أجملته هنا سورة (البقرة) في معصية إبليس وإغوائه لآدم عليه السلام.
- وبقي أن نتعرف على اسم الله عز وجل (العليم الحكيم) والذي برز هنا في هذا المقطع ثم نتحدث بإذن الله عن منازلنا الأولى والشوق للعودة إليها.

مقصد: معرفة الله عز وجل... تعرف على ربك (العليم الحكيم)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٢].

- يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات حول سؤال الملائكة عن الحكمة من خلق مخلوق يفسد في الأرض ويسفك الدماء فقال رحمه الله: "وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن (نسبح بحمدك ونقدس لك)، قال الله تعالى مجيباً عن هذا السؤال: (قال إني أعلم ما لا تعلمون) أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف - على المفاسد التي ذكرتموها - ما لا تعلمون أنتم فيإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاصعون، واخيبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم" (١)، تعليمه سبحانه وتعالى آدم لأسماء الأشياء كلها عرضها على الملائكة امتحاناً لهم هل يعرفونها أم لا؟ فقالوا: (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) أي: "ننزهك من الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك لا علم لنا بوجه من الوجوه إلا ما علمتنا إياه فضلاً منك وجوداً إنك أنت العليم الحكيم، العليم أي: الذي أحاط علماً بكل شيء فلا يغيب عنه ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، والحكيم أي: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق ولا يشذ عنها مأمور. واعترفوا بعلم الله وحكمته وقصورهم عن معرفة أدنى شيء" (٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق أحمد شاکر، ص ٩٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي، ص ٢٩

- وسبحان من أتى باسمه العليم الحكيم، كأول اسمين من أسماءه الحسنى في سورة البقرة، وسبحانه من جعل عليهما مدار السورة كلها. فهيا نتشرف بالتعرف على اسم الله: (العليم)، واسم الله: (الحكيم) ومعرفة ما هي الصلة بينهما؟ فإن أشرف العلوم أن تعرف الله ويليهما العلوم الموصلة إلى الله وكلاهما في القرآن الكريم.
- ويقول ابن القيم في نوبته:

وهو العليم أحاط علمًا بالذي في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمرٌ لم يكن لو كان كيف يكون ذا إمكان

- لن يستقيم الإنسان على أمر الله ويستسلم له وينقاد لشرعه إلا إذا تيقن أن الله هو العليم الحكيم، يقول الدكتور محمد راتب النابلسي في شرح اسم الله العليم: "لأنك إذا أيقنت أن الله هو العليم بظواهر الأمور وبواطنها ويعلم سرّك وجهرك، يراك في خلوتك وفي جلوتك، في حضرك وفي سفرك، يعلم نباتك كلها، يعلم ما يدور في خلدك، ما جرى في نفسك، ما تتمناه وما تصبو إليه وما تشتهي، إذا أيقنت أن الله يعلم لزمت جانب الاستقامة"^(١).

- كما يقول في شرح اسم الله الحكيم: "الحكيم هو الذي يتنزه عن فعل ما لا ينبغي، يعني هو الذي يضع الشيء المناسب بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب وبالمكان المناسب وأن كل شيء وقع في هذا الكون أرادته الله عز وجل، وأن كل شيء أرادته الله وقع، وإن أفعاله تتعلق بالحكمة المطلقة، وأن حكمته المطلقة تتعلق بالخير المطلق بعباده"^(٢).

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، د. محمد راتب النابلسي، المجلد الأول، ص ٢٥٧

(٢) موسوعة أسماء الله الحسنى، د. محمد راتب النابلسي، المجلد الأول، ص ٤١٩، ٤٣١

• الله عز وجل علمه مطلق لا يسبقه جهل ولا يعقبه نسيان ويحيط بكل شيء علماً، يقول الشيخ السعدي في شرح نونية ابن القيم أسماء الله الحسنى: "وعلمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علم مكان ولا زمان فهو يعلم الغيب والشهادة والظاهر والباطن والجلي والخفي والسر وأخفى، ولا يطرأ على علمه غفلة ولا نسيان ويستوي في علمه الماضي والحاضر والمستقبل فهو يعلم ما سيكون مستقبلاً كما يعلم ما قد كان في الماضي وكما يعلم ما هو كائن الآن فالأشياء كلها حاضرة لديه وهو يعلم الكيفيات التي ستكون عليها الأشياء قبل وجودها، فيعلم ما لم يوجد من الأشياء لو وجد فعلى أي كيفية يكون وجوده في عالم الأعيان"^(١).

وعندما طمع المؤمنون في إيمان اليهود بكتاب الله وقد تظاهر بعض اليهود بالإيمان لهم قولاً بألسنتهم ما ليس في قلوبهم أطلع الله عز وجل العليم - ببواطن الأمور - المؤمنين بماضي اليهود في تحريف كتبهم والذي لا يعرفه المؤمنون كما أعلمهم بما يدور في سرائرهم إذا خلا بعضهم إلى بعض، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاوِرَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

- أثبت الله عز وجل العلم لذاته، فهو يعلم كل غيب مُطلع على جميع أحوال خلقه، فالله عز وجل يستوي عنده المشهد والغيب ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لذلك على كل عباده الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه فإن أعمالهم غير مغفول عنها بل مجازون عليها أتم الجزاء ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] فسبحانه وتعالى أشهد عباده على قصور علمهم وأذن لهم في العلم بقدر محدد بما شاء سبحانه وتعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فسبحانه وتعالى علمنا من جهل وهدانا من ضلال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ومعرفة العبد باسم الله (العليم) يرفع مستوى تقوى الله في قلبه وفي ضميره ففي قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُم سَتَدْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنَّ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرَمُوا عُقْدَةَ النَّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥] والآية تبيح النكاح بمن توفي زوجها بالتعريض لها في مدة عدتها مع تحريم التصريح به، ففي النفوس داع قوي إليه وكذا يضمّر الإنسان في نفسه الزواج منها، فلا يحل النكاح منها حتى تنقضي العدة لذلك تعتبر هذه الآية دعوة لتقوى الله العليم بما في النفوس والحد من منه.

- ارتبط اسم الله (العليم) في سورة البقرة مع اسمه تعالى (الواسع) ليعطي لنا معنى: أن سعة فضله سبحانه وتعالى وجزيل عطائه ومضاعفاته للأجر والثواب يرتبط بعلم الله لسرايركم ونياتكم والمستحق لهذا الفضل الواسع والجزيل، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: واسع الصفات كثير الهبات عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين وعلیم بمن هو أهل فيوقفه لفعل الخيرات وترك المنكرات.

- وارتبط اسم الله (العليم) في سورة البقرة مع اسمه تعالى (السميع) ليعطي لنا معنى: أن إطلاعه سبحانه وتعالى على عباده وهم يرجون نصره وحفظه وقبول أعمالهم ليستجيب لرجائهم حينما يستوفون شروط قبوله والتي لا يعلمها إلا السميع العليم قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

- وارتبط اسم الله (العليم) في سورة البقرة بفعل العباد للخيرات ليؤكد لنا أنه مهما صغر فعل الخير فإن الله عز وجل عليم بفاعله مجازيه بالإحسان إحساناً ومطلع على نيته ولن يضيع أجره أو يمنعه شيء هو له ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي

الْأَلْبَابِ ﴿البقرة: ١٩٧﴾، ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

— ومن تعبد باسم الله (العليم) حصلت له: المراقبة والاستقامة على أوامر الله وتقوى الله في سره وضميره وعلانيته وحاضره وطاعته سبحانه وتعالى واجتناب نواهيه والامتنثال لأوامره.

— وأما اسمه تعالى (الحكيم) فمتضمن لوصفين كل منهما غاية الكمال ونهاية التمام وهما: الحكيم والإحكام كما يقول الشيخ السعدي في شرح القصيدة النونية لابن القيم: "الحكم إما شرعي تكليفي وإما كوني قدري فالحكم الشرعي التكليفي الذي يعرفه علماء الأصول بأنه: خطاب الله المتعلق بأعمال المتكلفين على سبيل الاقتضاء أو الندب أو التخيير ويقسمونه إلى واجب ومندوب ومحرم ومكروه ومباح فهذا الحكم هو متعلق بإرادته الدينية الشرعية ويتناول كل ما كلف الله به عباده على السنة رسلهم عليهم الصلاة والسلام من أفعال وتروك"^(١) وقد جاءت سورة البقرة بعشرات التكاليف الشرعية في صيغة (كتب عليكم...) مع الأوامر المباشرة مثل ﴿وَذُرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

— "وأما حكم كوني قدري يتعلق بكل ما شاء الله كونه مما سبق به قدره كما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] والحكم الشرعي يتعلق بما يحبه الله ويرضاه دائماً.

ولم يخل عنه الوجود في وقت من الأوقات بل لم يزل الله آمراً ناهياً متعبداً عباده بما يشاء، فالحكم الشرعي هو أمره الديني الذي بعث به رسله وأمرهم بإقامته في جميع الأزمان"^(٢).

— وأما حكمه الكوني فهو قضاؤه في خلقه بالعدل والإحسان فأفعاله كلها في خلقه دائرة بين الرحمة والفضل وبين الحكمة والعدل، فقضاؤه سبحانه حق كله وعدل كله ومرضي كله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فلو شاء الله عز وجل لجمع الناس على الهدى فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً بعدما وقع الاختلاف بين خلقه الموجب

(١) كتاب شرح: أسماء الله الحسنى لابن القيم الجوزية - الشيخ السعدي - ص ١٨٩، ١٩٠

(٢) نفس المصدر السابق

للاقتتال ما اقتتلوا، ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على ما أراد يتصرف في جميع الأسباب لمسبباتها وأنه إن شاء أبقاها وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده فإنه فعال لما يريد فليس لإرادته ومشيتته معارض ولا معاون^(١).

- وحكمة الله نوعين: في خلقه، وفي شرعه وأمره، فأما الحكمة في خلقه فإنه خلق الخلق بالحق ومشتماً على الحق فخلق المخلوقات كلها بأحسن نظام ورتبها أكمل ترتيب وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً ولو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثلما خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدرُوا وأتَى لهم القدرة على شيء من ذلك قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، يقول الدكتور النابلسي: "وأنت عُذ إلى جسمك، فالدم الذي تنبض به عروقك فيه ملح بنسبة سبعة بالألف إلى ثمانية، إذا قلت النسبة عن هذا الرقم تنكمش الكريات ويموت الإنسان، وإذا زادت تنفجر الكريات، فمن جعل نسبة الملح في الدم ثابتة؟ الفضل لله عز وجل الحكيم في خلقه"^(٢).

وهو سبحانه وتعالى الحكيم في خلقه الذي خلق حشرة أصغر من البعوضة وجعلها تعيش فوقها لتقوم بتنظيف جسم البعوضة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

- والنوع الثاني من الحكمة- هو: الحكمة في شرعه وأمره فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه فأى حكمة أجل من هذا؟ وأي فضل وكرم أعظم من هذا؟ هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير فأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، ومن حكمة الشرع الإسلامي صلاح أمور الدنيا بالدين الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] فإن أمة مُحَمَّد ﷺ لما كانوا قائمين بهذا

(١) تيسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي، ص ٩٩

(٢) موسوعة أسماء الله الحسنى، د. مُحَمَّد راتب النابلسي، المجلد الأول، ص ٤٣٣

الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] فبين الله عز وجل حكمته العظيمة في مشروعية القصاص حيث تحقن بذلك الدماء، لأنه من عرف أنه مقتول إذا قتل لا يكاد يصدر منه القتل، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل وسفك الدماء وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكابة والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم^(١).

- ومن آثار التعرف على اسم الله (الحكيم): الاستسلام له في البلايا والشدائد والمصائب والآلام ونقص الأموال والأنفس والثمرات فأفعاله سبحانه وتعالى تتعلق بالحكمة المطلقة والتي تتعلق بالخير المطلق لعباده لذلك قول المؤمنين إذا أصابتهم مصيبة ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ومن هنا سنجد تكرار اسم الله (العليم الحكيم) في سورة الحن والابتلاءات سورة (يوسف) كما سيأتي بيانه بإذن الله عند عرض السورة.

- وارتبط اسم الله (الحكيم) في سورة البقرة مع اسمه تعالى (العليم) ليعطي المعنى المحوري الأبرز لسورة البقرة: "وهو أن إقرار العباد بعلم الله وإحاطته بكل شيء وبحكمته التامة في خلقه وأمره وشرعه وقضائه، فلم يأمر سبحانه بشيء إلا لحكمة بالغة، مع إقرار العباد بقصورهم عن معرفة أدنى شيء من علمه وحكمته إلا بما شاء سبحانه وتعالى مما يثمر هذا الإقرار بعلم الله وحكمته كمال الاستجابة له وتام الانقياد لشرعه وفورية التنفيذ لأوامره"، لذا تدور سورة البقرة والله أعلم على قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: سبحانه وتعالى أعلم بمصلحة عباده منهم وأعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون^(٢).

- والحكيم صاحب العلم المطلق الذي لا يعتريه جهل فكل شيء يحدث في خلقه وكونه لحكمة بالغة فلو أن ورقة سقطت من شجرة فذلك لحكمة بالغة وكل شيء قدره في شرعه فلحكمة

(١) تيسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي، ص ٧١

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، المجلد الأول، ص ٢٣٤

بالغة، فالملائكة تساءلت: لماذا يخلق مخلوق يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ والإجابة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقد يتساءل أحد: لماذا يشرع على هذه الأمة سنة التدافع وقتال أعداء الدين رغم أن القتال كره لهم؟ والإجابة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فمن حكمته العظيمة التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا المخلوق أنه يحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدونها كالجهاد في سبيل الله، والذي يظهر به أولياء الله من أعدائه وحزبه من حربه ومن على استعداد لبذل روحه في سبيل شوقه إلى ربه ونصرة دينه وتطبيق شرعه إذن من مقتضيات معرفة (العليم الحكيم): التسليم لشرعه والاستجابة لأوامره فهو صاحب الحكمة البالغة.

- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وهذه الآية فيها: خطاب لأولياء المرأة المطلقة أو طالقتين، إذا انقضت عدتها، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك فلا يجوز لوليها أن يمنعها من التزوج به حنفاً عليه وغضباً لما فعل من طلاقها الأول، وذكرت الآية أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من عدم التزويج، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر مما يظن الولي أن عدم تزويجه هو الرأي فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه فالله عز وجل شرع ألا تمنعوها (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فامثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم يريد لها قادر عليها ميسر لها من الوجه الذي تعرفون والذي لا تعرفون" (١).

سمعاً لربي وطاعة

• وهذا هو النموذج العملي لاستجابة الصحابة رضوان الله عليهم لأوامر العليم الحكيم فعن معقل بن يسار قال: "زوجت أختاً لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها فقلت له: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها لا والله لا تعود إليك أبداً وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ

يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٣٢﴾.

فقلت: الآن أفعل يا رسول الله قال: فزوجها إياه^(١).

وفي رواية: فسمع ذلك معقل بن يسار فقال: سمعاً لربي وطاعة فدعا زوجها فزوجها إياه^(٢).

وفي رواية قال: رغم أنفي لربي.

— وهكذا يتحول فهمنا لاسم الله العليم الحكيم إلى استسلام لله وأوامره وشرعه وإذعان وانقياد له
سواء أعلم العبد الحكمة من وراء هذه الأوامر والتشريعات مثل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] وقوله تعالى: ﴿قُلْ
هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا التَّسَاءُلَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أو لم يعلم
العبد الحكمة من وراء الأوامر والتشريعات مثل:

— لماذا الإيلاء تربص أربعة أشهر بالتحديد (والإيلاء هو حلف الرجل ألا يواقع زوجته) فإن
مضت أربعة أشهر فإما أن يطلق وإما أن يفى.

— ولماذا المطلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثة قروء بالتحديد (قروء: حيض أو طهر)؟

— ولماذا الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة؟

— ولماذا الذين يتوفون ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً؟ لماذا بالتحديد هذه
الأوامر الشرعية وبهذه المدد المحددة؟ والإجابة: (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) فيكيفك أنه
تكليف من الله العليم الحكيم فتسمع: (إن الله يأمركم) ويدعوك: (فليستنجبوا لي) لتجيب على
الفور: (سمعنا وأطعنا).

(١) صحيح البخاري (٨ / ١٤٣)

(٢) صحيح البخاري (٩ / ١٦٠)

- وحول من الذي ينبغي أن يقرر مصلحة البشر؟ يجب الأستاذ سيد قطب رحمه الله عن هذا السؤال: "أليس مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم؟ ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام:

- "أأنتم أعلم أم الله؟"

- "والله يعلم وأنتم لا تعلمون".

إن طبيعة هذا الدين وطبيعة المنهج الرباني القويم المؤسس على حكمة العليم الحكيم وعلمه بطباع البشر وحاجات الحياة تقتضي أن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله كما أنزل الله، وكما بلغه عنه رسول الله (ﷺ) ..

فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم فهم:

- أولاً: "واهمون" فيما بدا لهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: ٢٣-٢٥]، ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

- ثانياً: "كافرون" فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفة لما شرع الله ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين ومن أهل هذا الدين^(١) ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] لذلك هل شرع الله على سبيل التخيير في عرضه على الناس؟ يقول الأستاذ سيد قطب: "إن نظام الله خير في ذاته لأنه من شرع الله ولن يكون شرع العبيد يوماً كشرع الله... ولكن هذه ليست قاعدة دعوة الناس، إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحده أيًا كان ورفض كل شرع غيره أيًا كان هو ذاته الإسلام، وليس للإسلام

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٩٦

مدلول سواه فمن رغب في الإسلام ابتداء فقد فصل في القضية ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته.. فهذه إحدى بديهيات الإيمان^(١).

مقصد: الإعداد لليوم الآخر

"منازلنا الأولى والشوق إليها"

قال تعالى:

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

منذ اللحظة الأولى في كتاب الله والقرآن يقرر لنا حقيقة من حقائقه الكبرى أننا في هذه الحياة الدنيا في فترة مؤقتة عارضة وأن هذه الأرض ليست مسكننا الحقيقي إنما هي معبر هبطنا إليه من منازلنا الأولى، ومن دارنا الحقيقية مررنا بها لنتزود منها دون أن نرتبط بها، وهل هناك ضيف يستريح خارج منزله مهما كان مستوى الضيافة؟

إنما يشتاق للعودة إلى بيته ويحن إليه في كل لحظة، والقرآن الكريم من بدايته يربطنا بدارنا الحقيقية ويهدنا في هذه اللقطة العابرة نسبة إلى الحياة الحقيقية الخالدة في منازلنا الأولى ويجعلنا نعيش فيها كالغريب كما قال النبي (ﷺ): «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»^(٢)

ويقول الدكتور خالد أبو شادي: "فقد سكننا الجنة إلى أن أُخرج منها أبونا آدم عليه السلام إلى هذه الدار، والطريد من أمثالنا يسعى إلى الرجوع ويطلب العودة استجابة لدعوة العقلاء والحكماء من أمثال ابن القيم حين نادى...

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل تُرى نعود إلى أوطاننا ونسلم^(٣).

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٣٧

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٨٧٨

(٣) ليلى بين الجنة والنار، خالد أبو شادي، (الجزء الأول - الجنة)، ص ١٤

وفي بداية رحلتنا مع القرآن الكريم تقرر لنا سورة البقرة: عداوة الشيطان الأزلية، حقيقة الحياة الدنيا الانتقالية، الشوق إلى الجنة منازلنا الأولى للقاء الله عز وجل، ضرورة اتباع الهدى لسلامة العودة إلى منازلنا الأولى...

— فوجد آيات قصة الخلق الأولى تقرر أن الشيطان هو الذي أخرج أبونا من الجنة بإغوائه قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].
أزلهما: أي أبعدهما.

إذن فغواية الشيطان هي سبب الإبعاد والهبوط إلى الأرض ثم تقرر الآية حقيقة العداوة قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

أي آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته وفي هذا تحذير لبني آدم من هذا العدو المترص بنا لإنائنا عن الصراط المستقيم الذي ندعو في فاتحة الكتاب بالهداية إليه والثبات عليه، وجاءت سورة البقرة لتعرفنا بلامح الصراط ومعاله لنهتدي إليه، وهذا الشيطان يترصد لنا على هذا الصراط قال تعالى: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. عدو يريد أن ننحرف عن الصراط المستقيم وعدم الوصول إلى الجنة والانتهاة إلى السعير قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] عدو نجح الآن في غواية أربعة أخماس الأرض بعبادة الطواغيت وهم الأنداد والأرباب كانوا بشراً أو قوانين وضعية، وعلينا أن نخوض الحرب معه حتى نقهره في الأنظمة الجاهلية السائدة في الأرض التي تتبعه، ونقهره في نفوسنا في رحلة ستستمر معنا حتى نهاية كتاب الله حتى سورة (الناس)، ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

ويقول إبراهيم بن أدهم: "نحن نسل من نسل الجنة سبانا إبليس منها بالمعصية وحقيق على المسيء ألا يهنأ بعيشه حتى يرجع إلى وطنه"^(١).

أما عن حقيقة الحياة الدنيا ووزنها الحقيقي في ميزان الله يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:
 "إن الحياة في التصور الإسلامي تمتد طولاً في الزمان، وتمتد عرضاً في الآفاق، وتمتد عمقاً في العوالم،
 وتمتد تنوعاً في الحقيقة عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون عن الحياة الآخرة من
 حسابهم ولا يؤمنون بها، إن الحياة تشمل هذه الفترة المشهودة فترة الحياة الدنيا- وفترة الحياة
 الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله والتي تغدو فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار، وتمتد
 في المكان فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر داراً أخرى: جنة عرضها السموات
 والأرض، وداراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين
 وتمتد في العوالم فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ولا نعلم
 نحن عنه إلا ما أخبرنا الله به. وجود يبدأ من لحظة الموت وينتهي في الدار الآخرة وعالم الموت وعالم
 الآخرة كلاهما من غيب الله- إنما يزاوّل المسلم هذه الحياة الدنيا العابرة الصغيرة الزهيدة وهو يشعر
 أنه أكبر منها وأعلى ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا هو واجب
 الخلافة عن الله فيها، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ويكافح الشر
 والفساد والظلم محتملاً الأذى، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. باذلاً روحه بالشهادة في سبيل الله وهو إنما
 يقدم لنفسه في الآخرة- إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه ليس هنالك طريق للآخرة إلا
 ويمر بالدنيا وهو يتسابق فيها بفعل الخيرات. قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].
 ويتزودوا فيها بخير الزاد^(١). ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهكذا عرفتنا سورة البقرة بحقيقة الدنيا ودورها فيها وهو: تعبيد الناس لله ولسلطانه،
 وعرفتنا بوزن الحياة الدنيا بالنسبة للحياة الآخرة ليعيش المؤمنون في الحياة المؤقتة من أول كتاب الله
 في مهمة شاقة وهي الخلافة عن الله بكل ما تقتضيه من إقامة حاكمية الله وتعبيد كل من الأرض له
 سبحانه وتعالى، وقهر عبودية الشيطان ذلك العدو اللعين... أما المؤمنون في ذلك لا يرجون إلا
 وجه الله تعالى ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب

يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ١١٢﴾. وهم يرجون الحياة الأبدية في الدار الآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

إنها الحقائق الكبرى التي تعلمها الجيل الأول من القرآن ومن سيد الأنام ﷺ فلم يصبحوا عبداً للدنيا بل سبقوا أهل الدنيا في الدنيا كما سبقوهم كذلك في الآخرة.

عاش هذا الجيل وهم يدخرون زادهم إلى وطنهم الأصلي الذين صاروا على دراية كاملة به مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٦].

ومصداقاً لقول النبي (ﷺ): «فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان له في الدنيا»^(١).

ويقول الدكتور خالد أبو شادي عن الآية السابقة: "فهذا دليل على أن الله ألقى في روع المؤمنين أين بيوتهم ونعيمهم هناك فساروا إلى هناك بغير دليل أو أنهم من كثرة ما عرفوا عن الجنة في دنياهم لم يحتاجوا في الآخرة إلى تعريف.

أخي المسافر ماذا عرفت عن وطنك الأول ومستقرك الأخير ومحل إقامتك الأبدية؟ وفي الآية قول آخر أنها من العرف وهو الرائحة الطيبة. والمقصود الرائحة النفاذة للجنة التي قال عنها النبي (ﷺ): «وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»^(٢). وهذا من كرم الله وتفضله على عباده المؤمنين أن جعلهم ينتفعون بريح الجنة قبل أن يدخلوها وريحها تسري كلما ازداد قرب العبد منها والشهادة في سبيل الله خير مركب يُدني العبد من الجنة، وهذا هو النموذج العملي الذي وجد ريحها إنه أنس بن النضر رضى الله عنه قبيل استشهاده يوم أحد فقال: "وإنما لريح الجنة... والله إني لأجد ريحها دون أحد" وتفسير هذا: أنه لما حانت ساعة القتال ولحظة زفافه على الحور فتح الله له باباً إلى الجنة ليشم ريحها النفاذة العطرة حتى أثارت شجونه وهوت برجله نحوها فانطلق يطلبها بأي ثمن ولو كان الثمن روحه ليحيا عند ربه في دار كرامته^(٣)، وهكذا لا يثبت في ميادين الجهاد إلا من

(١) صحيح البخاري: عن أبي سعيد الخدري، كما في مشكاة المصابيح رقم: ٥٥٨٩

(٢) صحيح: البيهقي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٨٨

(٣) كتاب: (ليلي بين الجنة والنار)، خالد أبو شادي، (الجزء الأول - الجنة)، ص ١٩

اشتاقت للقاء ربه ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٤٩] يظنون أي: يعلمون ويستيقنون.

وأما منهج الهدى المطلوب اتباعه للنجاة من كيد الشيطان وعداوته ولسلامة العودة بإذن الله إلى منازلنا الأولى قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]. والهدى هو: الكتب التي أنزلت والرسول التي أرسلت فمن تبعهم حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية وانتفى عنه الضلال والشقاء ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

المقطع الثالث: فشل الأمة المستخلفة الأولى ودعوتهم لاتباع الحق

من الآية (٤٠: ١٢٣)

• أعطت سورة (البقرة) أمة الإسلام أمة البلاغ والشهادة أصحاب مهمة الاستخلاف في الأرض على منهج الله وعهده تجربة لأمة سابقة فُضلت على العالمين في زمانها واستخلفت في الأرض وكان منها الأنبياء والملوك وأقامت دولة كبرى وكلفت بأمانة الاستخلاف على منهج الله وعهده.. ولكنها فشلت.. وخانت الأمانة فاستبدلت وتعرضت للمقت والغضب الإلهي.. والقرآن حينما يفرد هذه المساحة الكبيرة لهذه الأمة المستخلفة الأولى ولعرض أسباب فشلهم وتفصيل مظاهر انحرافهم لأن الله عز وجل العليم الحكيم يعلم أن الأمة المستخلفة الثانية ستمر بما فترت من الزمن تقترف نفس أسباب الفشل وتقع في نفس مظاهر الانحراف التي وقعت فيها بنو إسرائيل وخير دليل حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر صَبَّ تبعتموهم؟ قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»^(١). وفي رواية "ومن الناس إلا أولئك؟"

(١) صحيح: رواه البخاري في كتابه الاعتصام (٩٦)

وكلمة سنن: أي طريق، جحر ضب أي: مأواه وخص الجحر بالذكر لشدة ضيقه وقال النووي: المراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم في المعاصي والمخالفات التي وقعوا فيها.

بأي هو وأمي رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.. لقد سارت الأمة بالشبر والذراع فعلاً في نفس أخطاء بني إسرائيل وارتكبت نفس عيوبهم.. فماذا تنتظر بعد ذلك.. إلا ذلاً وهواناً واستعباداً.

أولاً: عرض الصفات المذمومة لبني إسرائيل

• إننا نحاول هنا بإذن الله أن نعرض دليلاً استرشادياً للصفات المذمومة التي وقعت فيها بنو إسرائيل عسى أن تصحح الأمة المسلمة مسارها التي انحرفت عنه، وكان القرآن الكريم ليس بين أيدينا!! ينادينا صباح مساء: احذروا من الانزلاق في مزاليق بني إسرائيل، ومن هذه الصفات المذمومة لبني إسرائيل:

١. نقض العهد مع الله عز وجل:

• ذكّرهم الله عز وجل في أول خطاب لهم بعهد الذي في أعناقهم باتباع النبي ﷺ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فلم يوفوا بأي عهد أخذوه مع الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤].

— ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

— ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٨٤-٨٥﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

٢. الجحود بنعم الله وعدم شكرها:

• جحدوا بنعم ربهم وقابلوها بالكفران والعصيان ونسيان فضله سبحانه وتعالى عليهم فبدلاً من شكر الله عز وجل والامتنان إليه تمادوا في الجحود والعصيان.

• أنعم الله عليهم بالنجاة من فرعون وبطشه ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

— فعبدوا العجل بكفرهم ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

• فأنعم الله عز وجل عليهم بالعفو عن ذلك ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢] وأنزل على نبيه موسى ﷺ التوراة هداية لهم نعمة منه وفضلاً ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

— فطلبوا من نبيهم رؤية ربهم حتى يؤمنوا تبجحاً منهم وتجرواً ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

• فأنعم الله عز وجل عليهم ببعثهم بعد صعقتهم لعلهم يشكرون ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦] ... وزادهم الله بعد دفع النقم فأسبغ عليهم من النعم ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

— فبدلاً من الأكل من رزق الله وشكره بعبادته فخالفوه وكفروا وظلموا أنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

- فأمرهم الله عز وجل بدخول الأرض المقدسة سُجَّدًا له على فتحها عليهم ورد بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] وأمرهم أن يقولوا حطة: أي أخطط عنا خطايانا
- فبدلوا أمر الله فدخلوا يزحفون واستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعيرة ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩].

٣. الطبيعة المادية وعدم الإيمان بالغيب:

- لم يؤمنوا بالغيبيات وطلبوا أمورًا مادية كي يؤمنوا ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وهذه الطبيعة المادية لا تؤهلهم للتعرف على الله عز وجل وتقواه في أعمالهم ومراقبتهم في تصرفاتهم وطاعته في أوامره..
- ولقد أراهم الله عز وجل آيات مادية خارقة ورغم ذلك لم يؤمنوا كرفع جبل الطور فوق رؤوسهم للإيمان بالنوراة والعمل بها ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُدُّوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] كما فرق الله عز وجل البحر أمامهم وأغرق فرعون ونجاهم وهم ينظرون بأعينهم ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] وأخذتهم صاعقة من السماء وهم ينظرون إليها ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، هذا وقد رأوا إحياء الله لقتيلهم لما ضرب ببعض البقرة التي أمروا بدبحها ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

٤. ضياع الفرص الكثيرة والمتتالية للتوبة والهداية

- أهدروا كل الفرص التي منحهم الله إياها لتصحيح مسارهم والعودة إلى الحق المبين فتمادوا في تضييع الفرصة تلو الفرصة.. رغم معاملة الله عز وجل واسع المغفرة والرحمة لهم إلا أنهم استحقوا الخذلان الإلهي ونزول العقوبات بهم ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

- انظر لأصل معاملة الله عز وجل لهم رغم قبيح جرمهم وعظم عصيائهم:

- ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢].
- ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].
- ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].
- ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].
- ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].
- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٤].
- وانظر للعقوبات الإلهية التي نزلت بهم لما أهدروا كل فرص التوبة والهداية:
- ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].
- ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدِّيلَةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ [البقرة: ٦١].
- ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].
- ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].
- ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨].
- حتى نزول العقاب كان فرصة ليستفيق المتقون فيهم:
- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].
- ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].
٥. الاستهزاء بأوامر الله عز وجل وعدم تنفيذها
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧].
- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩].
٦. حب العيش في هوان وفي رتبة أذل عما أراد الله لهم:
- ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

٧. عدم الرضا والقناعة بما يقسم لهم.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١].

٨. قلة التحمل والصبر.

﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١].

٩. الفسوق وتجاوز الحد في الإسراف والعصيان.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]،

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٦٢].

١٠. التحايل ببحث على تكليفات الله عز وجل مثل تحايل أصحاب السبت:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:
٦٥].

١١. الجدال والعدا والتضييق على أنفسهم فشدد الله عليهم وصعب عليهم:

— قصة البقرة خير دليل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْع لُونَهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا سِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا
وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

١٢. قسوة القلب وغلظة الطباع:

— ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾
[البقرة: ٧٤].

١٣. النفاق وإدعاء الإيمان والهداية بالباطل:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦]،
﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

١٤. اتباع هوى النفس:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. يتبعون التوراة في فداء أسرى اليهود ولا يتبعوها في قتل اليهودي لليهودي.

١٥. الحسد والغيرة: (مثل غيرهم لنزول الرسالة الخاتمة على العرب):

﴿يَسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].
الكبر سبب كل الأمراض والموانع عن اتباع الحق:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

١٦. حب الحياة الدنيا على الآخرة بل حب أي حياة رخيصة كانت أو ذليلة أو حياة عبودية لشهوة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

١٧. تحريف كلام الله عزة وجل وتأويله بالباطل بعد العلم بالحق:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

١٨. الكذب والتخاصم بالباطل:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

١٩. الاستهانة بعذاب الله وعدم الخوف منه سبحانه والتجرؤ على عذابه:

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

٢٠. طبيعة غير جادة في حمل الأمانة والتكاليف:

﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، ﴿فَدَبَّحُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

٢١. القتل وسفك الدماء:

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

٢٢. عدم حب الخير للآخرين وتمني الشر لهم وكرهيتهم:

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٢٣. تغلغل المعصية في قلوبهم وتمكنها منهم:

﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة: ٩٣].

• وهنا تؤكد على خطورة تسلل الأمراض للقلوب وتناميها مع عدم المسارعة في تطهيرها فتحجب القلوب عن الهداية والنور:

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨].

ثانياً: امتداد نفس الصفات المذمومة في سلالة بني إسرائيل مع دعوتهم لاتباع

الحق (الآيات من ٧٥: ١٢١)

• ذكرت الآيات من (٧٥: ١٢١) أن اليهود المعاصرين لبعثة النبي محمد ﷺ اتصفوا بنفس الصفات المذمومة التي كانت في آباءهم منذ بعث موسى عليه السلام ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨]. ومن هذه الصفات المذمومة:

— حسدهم للنبي ﷺ ومجيء الدعوة الجديدة من العرب ورغم معرفة أن هذه الدعوة هي الحق فكفروا بها ولم يتبعوها ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

- احتكروا لأنفسهم الهدى والقوامه على الدين ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥].
- احتكروا لأنفسهم الجنة أيًا كان عملهم ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].
- اشتغالهم بكتب السحر وترك كتب الله وراء ظهورهم ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].
- ليهم ألسنتهم في خطاب الرسول ﷺ بكلمة^(١) تنطوي على الاستهزاء به والظعن في دينه وإن كان ظاهرها التعظيم له ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

دعوة أبناء الدعوة المستبدلة لاتباع الحق

- لقد ظلت سورة البقرة تكرر دعوتها لليهود المعاصرين للنبي ﷺ الدعوة لاتباع الحق المتمثل في دين الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ والذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] فحذرهم السورة من كتمان هذا الحق عن الناس.. وهاهو آخر نداء لهم قبل انتقال الآيات لخطاب أمة الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٢-١٢٣].
- فما زالت الآيات تناديهم بـ (يا بني إسرائيل) أحب أسمائهم وأشرف أنسابهم بنسبهم الكريم لنبي الله إسرائيل (يعقوب) عليه السلام، ليذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً، فبيني على ذلك دعوتهم

(١) قولهم (راعنا) أي: أرعنا سمعك. بينما تعني في العبرانية: شقي وشير، وفي الخطاب تعني: أنت ضربنا وشقوتنا.

إلى اتباع الحق.. وإليك آية واحدة تنصح اليهود وتدعوهم إلى الإيمان بالقرآن، في ألفاظ وجيزة ولكنها عميقة المعنى والدلالة، وبلاغة في الإحكام وروعة في البيان حيث تبرز جداهم في الباطل ورفضهم اتباع الحق كبراً وهوى في نفوسهم...، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَبِكُفْرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

يقول د. محمد عبد الله دراز حول هذه الآية: "قالت الآية ناصحة لليهود: آمنوا بالقرآن كما أمنتم بالتوراة، أستمتم قد أمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى، لأنها أنزلها الله، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله، فأمنوا به كما أمنتم بما.. فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.. فعدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنيته، فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته، أن الذي أنزلها هو الله سبحانه وتعالى.

• ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه، فلم يقل: "آمنوا بما أنزل الله على محمد" مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة.. أتدري لم ذلك؟ لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً. أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك. وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف وليس التفريق والخصومة.

— أما جواب اليهود فقد قالوا: إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمننا بما لأن الله أنزلها علينا والقرآن لم ينزله علينا، فلکم قرآنکم ولنا توراتنا.. وهذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله: ﴿نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ ولكنهم تحاشوا التصريح على أنفسهم بالكفر واقتصرهم على الإيمان بما أنزل عليهم وهو ما يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، فأراد القرآن أن يبرز ردهم كما هو في غاية الأمانة في النقل ثم في معرض التعليق على مقالته قال: ﴿وَبِكُفْرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.. ولفظ (بما ورائه) فيها وصف جامع لكل ما يكفرون به

فهم كما كفروا بالقرآن المنزل على مُحَمَّدٍ ﷺ وكفروا بالإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، وكلاهما وراء التوراة، أي جاء بعدها.

— ثم أخذ القرآن في نفس الآية يدحض دعواهم فيقول لهم: كيف يكون إيمانكم بكتابكم باعثةً على الكفر بما هو حق مثله؟ لا، بل (هو الحق) كله!.. ثم يترقى فيقول لهم: وليس الأمر كما بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق، فقد يكون الشيء حقًا وغيره حقًا، ولكنهما في شأنين مختلفين فلا يشهد بعضهما لبعض. أما هذا الكتاب فإنها جاء شاهداً و(مصدقاً) لما بين يديه من الكتب. فأني يكذب به من يؤمن بها؟!!

— ثم تظهر لهم الآية أن ليس لهم حجة في عدم اتباع الحق الذي جاء مصدقاً لما معهم من الكتاب الذي هو قائم في زمانهم، ومعهم في أيديهم ويدرسونه بينهم كما أكدت عليه كلمة (لما معهم). فبماذا يعتذرون وأنى يذهبون؟!!

— ثم ختمت الآية بالرد على دعواهم الكاذبة بإيمانهم بما أنزل عليهم، وقد أجلتها الآية لتفنيد باطلهم في عدم اتباعهم الحق أولاً ثم اختتمت ببيان كذبهم في دعواهم حيث أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه في قلوبهم ومضت عليهم القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً، وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على مُحَمَّدٍ ﷺ ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم وتحريفهم كتبهم.. فساق لهم الشواهد التاريخية المفضعة التي لا سبيل لإنكارها في تمردهم على أوامر الله وقتلهم الأنبياء ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.. هذه دعوة القرآن لليهود إلى اتباع الحق.. وهذا هو تكذيبهم وجحودهم ورفضهم لهذه الدعوة وذلك كله في نموذج آية واحدة^(١).

(١) النبا العظيم، د. مُحَمَّدٌ عبد الله دراز، ص ١٢٠ : ١٢٧.

مقصد: تزكية النفس**الكبر يخرج من دائرة العبودية**

- سبب كل الصفات المذمومة التي ظهرت في بني إسرائيل هو فساد قلوبهم ومرض نفوسهم ﴿فَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّمَّا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وأخطر أمراض النفس التي لو تركت لتسببت في هلاك صاحبها هو: مرض الكبر لأنه يخرج الإنسان من دائرة العبودية إلى دائرة العقوبة والخذلان الإلهي.
- "عندما خلق الله سبحانه الإنسان فقد خلقه في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه وكرمه غاية التكريم، كل ذلك ليؤدي وظيفة العبودية لربه.. والعبودية هي غاية الذل وغاية الحب.. وغاية الافتقار والاستسلام له سبحانه وتعالى فجوهر العبودية هو الذل.

إن العبودية هي الحالة التي ينبغي أن يعيشها المرء في تعامله مع ربه، حالة من الشعور بالذل والهوان أمامه جل شأنه.. العبودية تعني أنك لا شيء.. ليس لديك ما تعلقو به على غيرك فالكل من تراب.. أهون الأشياء.. الجميع طفيلي على الله، وينبغي أن يكون مطأطئ الرأس له، مادًا يده إليه بالسؤال.. لا يرى لنفسه أفضلية ذاتية على غيره، ولماذا يكون أفضل من غيره؟

هل بطوله؟ هل بشكله؟ هل بإمكاناته؟ هل بماله؟

كل هذا هو لا يملكه في الحقيقة ولم يوجد بذاته ولا يستطيع الحفاظ عليه من دون الله لذلك قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧] فالكبرياء والعلو لله فقط وهو المستحق ذلك في الحقيقة.

- أليس هو الخالق وغيره مخلوق؟

- أليس هو الرزاق وغيره مرزوق؟

- أليس هو القوي وغيره ضعيف؟

- أليس هو الغني وغيره فقير؟

• إن من يدعي أنه شيء فهو بذلك يعلو على الله ويتمرد على عبوديته له وينازعه كبريائه.

من هنا ندرك خطورة الكبر حين يتلبس به المرء فهو في حقيقته يناقض حالة العبودية التي ينبغي أن يعيشها.. ويكفي في بيان خطورة الكبر أن الشرع لم يسمح ولو بمثقال ذرة تكون في قلب العبد منه، لذلك قال رسول الله (ﷺ) : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

• ومن الصفات المذمومة التي ظهرت في بني إسرائيل وتعتبر مظهرًا من مظاهر مرض الكبر:

— عدم السلاسة في تنفيذ الأوامر والتكاليف الإلهية.

— العناد والتشبث بالرأي.

— الجدل بالباطل.

— رد الحق وعدم قبوله.

وستتناول بإذن الله بالتفصيل مظاهر مرض الكبر في عرض سورة الأعراف.

المقطع الرابع: الدين الحق ملك إبراهيم وشروط الإمامة (من الآية ١٢٤: ١٤١)

• قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

— يقول ابن كثير في تفسيره هذه الآية: "الله تعالى نبه على شرف إبراهيم خليفه (عليه السلام) وجعله إمامًا للناس يُقتدى به في التوحيد، حتى قام بما كلفه الله تعالى من الأوامر والنواهي، (بكلمات) أي: بشرائع وأوامر ونواهٍ... ولكن ما هي الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟

— قد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل فروى عن ابن عباس في روايات منها: ابتلاه الله بالمناسك، وابتلاه بالطهارة.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: ابتلاه الله بالكواكب فرضي عنه، وابتلاه بالقمر فرضي عنه، وابتلاه بالشمس فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه، وابتلاه بالختان فرضي عنه، وابتلاه بابنه فرضي عنه.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقال ابن عباس: "يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده، ومحسن ستنفذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته"^(١)... ومن هنا فأول شروط الإمامة هو: النجاح في الابتلاء بتحقيق مراد الله والوفاء بأوامره والقيام بتكاليفه.

الاستقامة على العقيدة الخالصة شرط وراثته إبراهيم:

- يقول الشيخ سيد قطب عن هذه الآية: "تقرر حقيقة دين إبراهيم وهي التوحيد الخالص، وحقيقة العقائد المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء، وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء. وأن وراثته هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة... فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها، وورث عهودها وبياراتها، ومن فسق عنها، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم، فقد فسق عن عهد الله، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبياراته"
- إذن ليس الاصطفاء والاجتباء بالدعاوى، كما ادعى اليهود والنصارى لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة.. وكذلك كل من سيدعي اصطفاه وحمله لوراثة هذه العقيدة، فالعبرة هنالك باستقامته على هذه العقيدة.. عقيدة التوحيد الخالصة.. وهذه هي ملة الأنبياء ودين الرسل أجمعين ﴿وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].. ومن هنا فإن ثاني شروط الإمامة هو: الاستقامة على عقيدة التوحيد الخالصة.

(١) مختصر تفسير ابن كثير - عمدة التفسير - ص ١٥٥

- وبذلك تم تجريد كل من يدعي احتكار الحق أو القوامة على الدين لمجرد الدعوى والشعارات..
إنما المقياس واحد هو الاستقامة على ملة التوحيد.. ملة إبراهيم عليه السلام.. ولكن ما هي
ملة إبراهيم كما وضحتها لنا آيات القرآن وسيرة خليل الرحمن؟

ملة إبراهيم.. البراءة من المشركين وعداوتهم

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].
 - الطريق الصحيح والمنهج القويم هو ملة إبراهيم.. لا غموض في ذلك ولا التباس، بهذه النصاعة
وبهذا الوضوح بين الله تعالى لنا المنهاج والطريق ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. ومن يرغب عن هذا الطريق بحجة المصالح والمفاسد فقد
سفه نفسه أي: جهلها وظن نفسه أعلم بالمصالح والمفاسد من إبراهيم عليه السلام الذي زكاه الله
تعالى فقال عنه ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].
- وملة إبراهيم هي:

١. إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ
العَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].
٢. البراءة من الشرك وأهله ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:
١٣٥].

- وهذه هي ملة إبراهيم الواضحة التي ابتلى بسببها وألقاه قومه من أجلها في النار بل ربما لو أنه
عليه السلام -حاشاه- داهنهم وسكت عن بعض باطلهم ولم يسفه آهنتهم ولم يعلن العداوة لهم متمثلاً
في الولاء والبراء والمعاداة والبغض والهجران في الله لما ألقوه في النار.

- وهذه هي ملة إبراهيم التي أحوج ما تكون الأمة إليها الآن بإظهار البراءة من المشركين
ومعبوداتهم الباطلة ومناهجهم وقوانينهم وشرائعهم وإبداء العداوة والبغضاء لهم قال تعالى: ﴿قَدْ
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَخُدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

— ويقول الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله: "فقوله (وبدا) أي: ظهر وبان، وتأمل تقديم العداوة على البغضاء لأن الأولى أهم من الثانية فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم، فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء ولا بد أيضاً من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين بيّنيتين، واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب فإنها لا تنفعه حتى تظهر آثارها وتبين علاماتها، ولا تكون كذلك حتى تقتزن بالعداوة والمقاطعة فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين" (١).

— إن التوحيد بشقيه: إيمان بالله وإخلاص العبادة لله، وبراءة من الشرك والكفر والطاغوت، ظل هو القضية المركزية الأولى التي يدور عليها مدار القرآن الكريم كله، وقد عبرت ملة إبراهيم عن التوحيد أوضح تعبير بل هي دين جميع الرسل والأنبياء على ملة إبراهيم أي: طريقته ومنهجه وهي قطب الرحي في دعوتهم أجمعين عليهم الصلاة والسلام ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

— ويقول ابن كثير في تفسيره عن قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]: أن الله تبارك وتعالى يرد على من ابتدع وأحدث من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفه عين، وتبرأ من كل معبود سواه وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه نفسه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] (٢). وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٦]. إن عداوة الشرك في ملة إبراهيم عداوة واضحة تشمل البراءة من الآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل والكفر بها والبراءة من الأقوام المشركين أنفسهم إن أصروا على باطلهم... براءة ظاهرة معلنة وليست خفية مبهمه.. براءة عملية في السلوك والممارسات وليست نظرية في الكتب

(١) سبيل النجاة، الشيخ حمد بن عتيق

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، ص ١٦٩

والمحاضرات.. براءة بإبداء العداوة والبغضاء لهذه المعبودات: بشرًا كانوا أو تشريعات من وضع البشر.. ولكن السؤال: هل يعبد الناس بعضهم بالركوع أو السجود؟ لا ليست هذه هي العبادة المقصودة إنما عبادتهم يجعلهم يملون ويحرمون لهم من دون الله صاحب الحق الأوحد في التحليل والتحریم، والدليل حديث عدي بن حاتم في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] أربابًا: أي أطاعوهم كما يطاع الرب، والأخبار هم: علماء اليهود والرهبان هم: العبّاد أو علماء النصارى، والحديث عن عدي بن حاتم رضى الله عنه أنه قبل إسلامه قدم على رسول الله ﷺ فدخل عليه وفي عنقه أي "عدي" صليب من فضة والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: "فقلت أنهم لم يعبدوهم فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): "بلى أنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم"^(١). سنتناول بالتفصيل بإذن الله موضوع التشريك في التشريع في سورة (المائدة).

— ويذكر ابن كثير في قوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) أي: ظلم نفسه بسفاهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من أصطفي في الدنيا للهداية والرشاد وهو في الآخرة من الصالحين السعداء فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي، فأى سفه أعظم من هذا؟! وأي ظلم أكبر من هذا؟! كما قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]^(٢)، والسؤال الآن: هل بعد ذلك يمكن أن يسلك أحد من المسلمين مسلكًا لا يظهر فيه العداوة الواضحة للتحاكم إلى الدساتير والقوانين الوضعية ناهيك عن المشاركة في وضعها؟ هل بذلك قد رغب عن ملة إبراهيم الحنيفية أم اتبعها وإنقاد خلفها؟ وإلا فمتى يظهر الحق جليًا وكيف يعرف الناس دينهم حق المعرفة؟

وعلى كل مسلم ألا يدع الطواغيت يلبسون الحق بالباطل ويخدعون الشعوب.

● ونحن في معرض سورة البقرة سورة بيان الحق ومعرفته واتباعه لذلك فالمسلم دينه ومنهجه هو: عداة أهل الشرك بوضوح وعلائية قبل عدائه للآلهة والمعبودات الباطلة التي يعبدوها وذلك في

(١) رواه الترمذي بإسناده في سننه وأحمد في مسنده (٣٧٨/٤)

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق الشيخ أحمد شاکر، ص ١٦٩

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الممتحنة: ٤] وفيها يقول الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله: "الله تعالى قدم البراءة من المشركين العابدين غير الله، على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله، لأن الأول أهم من الثاني فإنه إن تبرأ من الأوثان ولم يتبرأ ممن عبدها لا يكون أتياً بالواجب عليه وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم" (١).

● ولا يجاهد المسلم أعداء الدين قبل أن يتبرأ منهم ويظهر عداوتهم وبغضهم وهل يقاتل أحدًا أحدًا لا يعاديه؟ وستعرض بالتفصيل بإذن الله في سورتي الجهاد: (الأنفال) و(التوبة) لكل من (الولاء) للمؤمنين كما جاء في آخر السورة الأولى و(البراء) من المشركين كما جاء في أول الثانية على الترتيب، كما سيتم بإذن الله الحديث عن: "رابطة العقيدة" في الجزء: الثامن والعشرين.

● وقضية إظهار البراءة وإبداء العداوة لا تكون إلا بعد اللين في البلاغ والحكمة والموعظة الحسنة ثم يقابل بالإصرار على الشرك والكفر، فقد تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه بعد أن دعاه بالحكمة والموعظة الحسنة وكان يخاطبه (يا أبت) فلما تبين له أنه مصرّ على شركه وكفره ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وحين تتم الدعوة باللين والرفق وعرض الآيات والبيانات والحجج والبراهين ثم يقابل ذلك اتباع الهوى والكبر والإصرار على ارتكاب الشرك من أعداء الدين، فليس أمام المسلم إلا أن يقول كما قال إبراهيم عليه السلام والذين معه لقومهم: إنا براء منكم ومن قوانينكم الوضعية ودستوركم حتى ترجعوا إلى الله وتستسلموا وتنقادوا لشرعه وحده.

● قال تعالى محذراً عباده من الركون لأعدائه ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] والركون هنا: هو الميل اليسير ولو بالحبة القلبية، ومن الركون مداهنة أهل الشرك بحجة المصلحة، وذلك وهم فلا مصلحة في كتم الحق وعدم تبيينه للناس وكما قيل: "إذا تكلم العالم تقية والجاهل بجهله فمتى يظهر الحق؟! فلا بد من إظهار توحيد الله أيما إظهار وهو غاية أسمى من قيام دولة الإسلام وما الدولة الإسلامية إلا وسيلة من وسائل هذه الغاية العظمى وهي إظهار توحيد الله وإعلانه في كل الأرض، وفي قصة أصحاب

الأخدود العبرة فإن هذا الغلام ما أقام دولة ولا صولة ولكنه أظهر توحيد الله أيما إظهار ونصر الدين الحق نصرًا مؤزرًا ونال الشهادة وما قيمة الحياة بعد ذلك؟؟

● وهكذا ملة إبراهيم يتميز بها الناس إلى فريقين: فريق إيمان.. وفريق كفر وفسوق وعصيان وبها يتضح أولياء الرحمن من أولياء الشيطان، وبهذا النقاء والصفاء والوضوح يظهر شرع الله ويعرف الناس الحق من الباطل ولا يختلط الصالح بالطالح، والمداهنات والمساومات أو بدعوى الالتقاء مع الجاهلية في وسط الطريق إنما هو الوضوح والتمايز قال تعالى عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَكُمْ عَلَىٰ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله عن تحدي نبي الله نوح عليه السلام في هذه الآية: "التحدي الصريح المثير الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالى يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليُغري خصومه بنفسه ويجرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه فماذا كان لنوح من القوة والعدة؟... كان معه الله وكفى بالله هاديًا ونصيرًا". وهذا هو الطريق الواضح.. الصراط المستقيم الذي سار عليه كل الأنبياء والمرسلين، وهذا نبي الله هود يواجه قومه الذين كانوا أشد الناس قوة وأعتاهم بطشًا يعلن براءته واضحة جلية من شركهم ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله فيها: "إنها انتفاضة التبرؤ من القوم وقد كان منهم وكان أخاهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقًا، إنها انتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه وانحرافه عنهم وانفصاله منهم ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم" (١).

هذا هو الحق المبين.. هذا هو الصراط المستقيم.. الذي عرفتنا عليه سورة البقرة.. هذا هو الدين كما أراده صاحبه ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]. ونحن لا نملك إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب

المقطع الخامس: تكليف الأمة المسلمة بقيادة البشرية

(الآيات من ١٤٢: ٢٨٦)

• بعد انتهاء حديث سورة البقرة عن إبراهيم عليه السلام وذريته المسلمة يبدأ سياق السورة في مقطع جديد هو الأخير في السورة يتجه إلى الأمة المسلمة التي أخرجت للناس لتحمل أسمى تكليف وأشرفه قيادة البشرية إلى الله بمنهجه الذي شرعه في دينه، تقيم هذا المنهج الإلهي في الأرض وتقرره في حياة الناس إلى قيام الساعة...

— وإنما لتبعة ضخمة وأمانة ثقيلة ومهمة شاقة أن تصير هذه الأمة المسلمة الجماعة المستخلفة على دعوة الله في الأرض، لذا كان هذا المقطع هو الأهم في السورة. كل ما سبقه تحضيراً له وتمهيداً له ابتداءً بتقديم تجربة أمة مستخلفة سابقة فشلت في مهمتها ثم التهيئة في ﴿مَا نُنسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] في إشارة إلى استبدال هذه الأمة السابقة بخير منها ثم عرض شروط الإمامة للخليفة الجديد ثم يبدأ هذا المقطع برمزية انتقال الإمامة بحدث تحويل القبلة، ونقوم بعون الله وتوفيقه بتقسيم هذا المقطع إلى جزأين وهما:

- الجزء الأول: قواعد تأهيل القاعدة الصلبة المؤمنة لتنفيذ المهمة.
- الجزء الثاني: بيان الأسس التي قام عليها منهج قيادة البشرية ويشمل هذا الجزء توصيفاً دقيقاً لأهم أساسين قام عليهما هذا المنهج الإلهي وهما:
 - أولاً: شكل منهج قيادة البشرية وهيكله.
 - ثانياً: طريقة وصول هذا المنهج إلى الأرض كافة.

ولنبدأ بإذن الله في عرض الجزء الأول من خطاب تكليف الأمة المسلمة بمهمة: قيادة البشرية بمنهج الله.

الجزء الأول: قواعد تأهيل القاعدة الصلبة المؤمنة لتنفيذ المهمة

- إن النهوض لإقرار منهج الله في الأرض لن تقوم به الأمة المسلمة بكاملها ولكن سيتبنى هذه المهمة الشاقة طليعة من المؤمنين ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وبعد إقرار هذا المنهج الإلهي بفضله في الأرض ستشرف كل الأمة على رعايته وتشترك بأكملها في نشره والمسئولية عنه ولكن المهمة الأصعب هي إقراره وتمكينه أولاً وهذه لا ينهض إليها كل المسلمون.. بل فئة يصنعها الله بشروط خاصة ومؤهلات معينة وصفات محددة إنهم: القاعدة الصلبة المزكاة المطهرة بمنهج القرآن الكريم، وهؤلاء تعرض لهم سورة البقرة - في هذا المقطع الأخير - منها تعرض قواعد تأهيلهم لتنفيذ هذه المهمة العظيمة.

- إن القاعدة الصلبة المؤمنة مقبلة على جهاد شاق لإقرار منهج الله في الأرض ولأداء دورها المقسوم لها في قدر الله ولتسلم الراية والسير بها في الطريق الشاق الطويل الذي سنتناوله بإذن الله وحده في المنهج الحركي للقرآن، ستمر بتمحيصات وابتلاءات واختبارات ونصر وهزيمة حتى تصل إلى ذروة المستوى الرباني الذي يريده الله عز وجل لها وحينها فقط تصبح أمينة على إقامة دين الله في دنيا الناس..

- تبدأ سورة البقرة في تأهيل طليعة المؤمنين وإعدادهم بجملة من الصفات الهامة التي تقوم باقي سور القرآن بعد ذلك في تفصيل هذه الصفات حسب ترتيب عرضها في المنهج الحركي للقرآن، وهذه الصفات التي أجملتها سورة البقرة منها ما يلي:

- ١ . الاستجابة لنداء الله.
- ٢ . الصبر وقوة التحمل.
- ٣ . الصلة المباشرة بالله خير زاد.
- ٤ . الاستسلام التام لقدر الله.
- ٥ . محبة الله والشوق إليه.
- ٦ . عائشون بالله ولله.

١. الاستجابة لنداء الله.. لبيك ربي

• المؤمن يستجيب لنداء الله فوراً ويبادر إليه سعيًا وهو يردد: لبيك ربي.. لبيك ربي.. لبيك ربي، ومعنى لبيك ربي أي: أي جئتك يا ربي على الفور منقادًا مطيعًا مخلصًا متجردًا طاعة بعد طاعة لا أنشغل عنك ولا أتكاسل عن طاعتك وعبادتك، وهذا هو شعار المؤمن قولاً وفعلاً.. حقيقةً وامتنالاً متى سمع في كتاب الله نداء (يا أيها الذين آمنوا...) يلبي قائلاً: سمعنا وأطعنا. سمعنا أي: صدقنا، وأطعنا أي: استجبنا.

• ومن هنا فالاستجابة هي: أن تلبي أوامر ربك متفرغاً له من أية شواغل متجرداً من أية حظوظ أو هوى خالصاً مخلصاً، ومن صور الاستجابة التي عرضتها سورة البقرة:

- حادثة تحويل القبلة.

- الحج والعمرة.

- الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.

• حادثة تحويل القبلة

- قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

أراد الله عز وجل بحكمته أن يظهر استجابة من يتبع الرسول ﷺ ويطيعه ممن ينقلب على عقبيه.. فحدث اختبار عظيم للنفوس حيث شرع الله عز وجل التوجه أولاً إلى بيت المقدس - قبلة أهل الكتاب - ثم صرف النبي ﷺ والمسلمون إلى الكعبة - قبلة نبي الله إبراهيم - فمن هداه الله وتيقن بتصديق الرسول ﷺ امتثل لأمر الله في أعلى درجات الاستجابة، فعن ابن عمر ﷺ: "أنهم كانوا بقباء في صلاة الصبح وكانوا ركوعاً، إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى فكانت حادثة تحويل القبلة مظهر عظيم في سرعة الاستجابة لأوامر الله ورسوله ﷺ لتيقن الصحابة رضوان الله عليهم أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وله أن يكلف عباده بما شاء وله الحكمة

التامة والحجة البالغة، وكل ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه فما كان لهم إلا أن يقولوا: سمعنا وأطعنا.

• الحج والعمرة

— قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] شرع الله عز وجل الحج والعمرة وأمر بإتمامها أي إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما بعد الإحرام لا تريد الخروج إلا للحج أو للعمرة.

— وفي الحج والعمرة يخرج المسلمون من بيوتهم لا يقصدون إلا بيت الله الحرام تاركين كل شيء من زينة الدنيا يرتدون ملابس الإحرام عبارة عن قطعتين من القماش أشبه بالكفن استجابة لأمر الله عز وجل وتلبية لنداء إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] وهم يلبون: "لبيك اللهم لبيك" فيطوفون حول البيت الحرام وهو بيت من الحجارة ثم يقبلون الحجر الأسود، ويرمون شاخصًا من الحجارة يرمز لإبليس عليه لعنة الله وذلك بجمرات من الحجارة تم جمعها لرمي الجمرات في مناسك الحج.. فبين حجارة يتم تعظيمها وحجارة يتم امتهاؤها وكل ذلك امتثالًا لأوامر الله عز وجل وفعل النبي ﷺ لحديثه: «خذوا عني مناسككم» لتعطي مناسك الحج صورة بليغة في الاستجابة لله عز وجل وتنفيذ أوامره بما شاء أن يكلف به عباده ومماليكه واتباع ما جاء به الرسول ﷺ وإقتداءً بمناسكه وهم يقولون: سمعنا وأطعنا.

• الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس

— قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٤-٢٤٥].

إن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس هو ذروة صور الاستجابة لله عز وجل حيث يخرج المسلم من بيته لا يريد إلا لقاء الله عز وجل وقد باع كل شيء: أمواله.. تجارته.. مسكنه.. أهله.. زوجته.. أبناءه..

خرج من بيته وهو لا يريد أجرًا دنيويًا أو مغنمًا ماديًا أو عرضًا زائلًا.. خرج من بيته مفارقًا أهله وأحابيه وهو يعلم أنه قد لا يعود إليهم بل إنه صار يبغى دارًا أخرى غير تلك الدار التي نشأ فيها أو تلك التي تزوج فيها يبغى مقعد صدق عند مليك مقتدر..

وهو يفعل كل ذلك طوعًا منه واستجابة لأمر ربه الذي دعاه لنصرة دينه ورفع لوائه وإعلاء كلمته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وأنه سبحانه وتعالى قادر مقتدر على فعل ذلك كله وحده ولكنه دعا عباده المؤمنين أن يستجيبوا لما كتبه عليهم بحكمته بقتال أعدائه وأعداء دينه وأن يدافعوا بأنفسهم وأرواحهم عن حوزة الإسلام وأن يبذلوا من أموالهم ودمائهم لمنع الكفر والشرك من فتنة الناس عن ربهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].... أراد ذلك سبحانه وتعالى وكتبه على هذه الأمة المسلمة ليصطفي منهم المجاهدين والشهداء الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لربهم وتوجهوا بكليتهم إليه ولم يبق في خاطرهم إلا الله عز وجل وهم يقولون: سمعنا وأطعنا.

● لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة:

— عن بشر بن الخصاصية رضى الله عنه قال: "أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه على الإسلام، فاشتراط عليّ تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وتصلّي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله، قلت: يا رسول الله! أما اثنتان فلا أطيعهما أما الزكاة فمالي إلا عشر ذود "أي عشر إبل" هن رسل أهلي وحمولتهم، وأما الجهاد فيزعمون أن من ولّى فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرتي قتال، كرهت الموت، وخشعت نفسي، قال: فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حركها ثم قال: «لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟» قال بشير: ثم قلت يا رسول الله! أبايعك، فبايعني عليهن كلهن" (١).

(١) صحيح: المستدرک على الصحيحين ٨٠/٢، قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي

— قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

— لقد ظل القرآن المكي يزهّد المسلمين في الدنيا ويذكرهم بزوال متاعها، وأن المتاع الحقيقي هو ما عند الله عز وجل فهو خير وأبقى لهم، ثم جاء القرآن المدني يدل المسلمين على الطريقة التي يظهرون بها حقيقة زهدهم في الدنيا، وخروجها من قلوبهم واستغناءهم عنها ورجاءهم ما عند الله عز وجل في جنته وكانت هذه الطريقة المعبرة عن ذلك هي: بذل المسلمون لأرواحهم وأموالهم واختيارهم بأنفسهم جوار الله عز وجل في دار كرامته، وكلما خشعت نفس العبد عن الجهاد مع حسن كلامه عنه إلا دل ذلك على: أن الدنيا لا تزال في قلبه وأنه لا يزال يريد الدنيا التي يزعم أنه يزهّد فيها!

— يُرْجَى الرجوع إلى سورة (الجمعة) وتلبية نداء الله للصلاة وترك البيع والتجارة وعلاقتها بسورة (الصف) وتلبية نداء الله بالتجارة الراجعة: الجهاد بالمال والنفس.

٢. الصبر والتحمل

• قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

— يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "إن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب مجنّدة القوى.. ولا بد من الصبر في هذا كله.. لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشايق لله، والصبر على الكيد بشقى صنوفه، والصبر على بقاء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس وضلال القلوب وثقل العناد ومضاضة الإعراض"^(١)، ولأهمية الصبر على عناء الطريق وتكاليف المهمة الثقيلة سيتم عرض هذا الموضوع الهام في مساحة أكبر ليس في ثنايا الآيات فحسب ولكن في عرض نموذج متكامل للصبر في سورة (يوسف). إن التوجيه بالاستعانة بالصبر والصلاة في بداية تكليف بني إسرائيل

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

بدورها ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وجاء أيضاً نفس التوجيه في بداية تكليف أمة الإسلام بدورها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فما هي حقيقة الصلة بين الصبر والصلاة؟

— فيقول الشيخ سيد "حين يطول الأمد ويشق الجهد قد يضعف الصبر أو ينفد إذا لم يكن هناك زاد ومدد، ومن ثم يقرب الصلاة إلى الصبر فهي المعين الذي لا ينضب والزاد الذي لا ينفد، والمعين الذي يجدد الطاقة والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع ثم يضيف إلى الصبر: الرضا والبشاشة والطمأنينة واليقين"^(١).

٣. الصلة المباشرة بالله خير زاد

— إن الصلاة تمثل أكبر معين على أعباء وتبعات مهمة قيادة البشرية بمنهج الله، ألم ترى كيف انتهت سورة الحج بتوصيف تكاليف مهمة الأمة المسلمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨] ثم بدأت بعدها أول آيات سورة المؤمنون بصفة: (الخشوع في الصلاة) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]. فالصلاة هي الصلة المباشرة بصاحب القوة الكبرى (لا قوة إلا بالله)، يتوجه فيها حامل المهمة إلى صاحب الدين، يتململ بين يدي ربه، يشكو إلى مولاه طول الطريق وعنت الناس وبطش الظالمين وكيد الماكرين، يقر لمولاه بضعفه ويظهر له ذله ومسكنته.. ألم تسمع أن نبيك ﷺ ليلة بدر ظل يستغيث بربه والناس نيام؟ كما في حديث علي أنه قال: "لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم، غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح".

(١) نفس المرجع السابق.

- يا صاحب هم الدعوة: إذا حزبك أمر دعوتك.. افرع إلى الصلاة (كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فرع إلى الصلاة) (١).
- يا من أثقل ظهرك حمل المهمة: إذا فرغت من المهمة ومقتضياتها نهاراً فانصب بين يدي ربك ليلاً.. في جوف الليل ﴿فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهذا هو زاد نبيك ﷺ للإعداد للتكليفات الشاقة والمهمة العظيمة والأمانة الكبرى التي عرضت على الجبال والرواسي فأبين أن يحملنها.. وأنت لن تحملها إلا بطول الوقوف بين يدي ربك خاشعاً متبتلاً إليه.
- يا من أتعبك إعراض الناس عنك وأجهدك مجاهدة الطغاة.. اذهب لتسترح في كنف الله في روضة الصلاة كما كان حال نبيك ﷺ «أرحنا بما يا بلال» (٢).
- والمتأمل في عرض القرآن لعدة الصابرين على عناء الطريق الشاق سيجد الجزء: التاسع والعشرين (في نهايات الرحلة مع كتاب الله) مخصص لبيان عدة الصابرين والصفات اللازمة لهم كزاد لهذا الطريق الشاق.

٤. الاستسلام التام لقدر الله

- قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٦].
- يقول الرسول (ﷺ): «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرني في مصيبي، وأخلف لي خيراً منها، إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف الله له خيراً منها» (٣).
 - ولكن ما معنى (إنا لله وإنا إليه راجعون)؟
- يقول د. خالد أبو شادي في كتاب ينابيع الرجاء:

(١) رواه أحمد في مسنده، (٥/ ٣٨٨ حلي)

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود كما في صحيح الجامع: (٧٨٩٢)

(٣) صحيح: رواه مسلم عن أم سلمة في صحيح الجامع (٤٧٦٤)

- (إنا لله): إنا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل من كل ما يُجري علينا من أقدار، وعلى كل مؤمن أن يعرف حقيقة نفسه وملكيتها، فيقول: أنا مملوك لله وليس لي عنده حق، فما يُجريه على إنما يُجريه في مُلكه هو وخالق الخلق هو مالِكهم وأولى بهم من أنفسهم، قال السعدي: "إنا لله: أي مملوكون لله، مُدبّرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمالِكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه.
- وأما قوله: (وإنا إليه راجعون): أي راجعون إليه، وهو إقرار بختمية الرحيل إلى الله، والبعث للوقوف بين يديه، فإن ظلمنا في الدنيا، فسوف نأخذ ثواب ما ظلمنا فيه ونقتص من ظالمنا عند الرجوع إلى الله، فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله انتهاء بالرجوع إليه فهو سبحانه ملك الابتداء والانتهاج لثيب المحسن ويعاقب المسيء، ولا ظلم عند الله سبحانه فلا يظلم مثقال ذرة"^(١).

٥. محبة الله والشوق إليه

- قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].
- يقول الإمام ابن القيم: "معقد نسبة العبودية هو المحبة. فالمحبة معقودة بها، بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية، ومحبة الله هي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام.. وهي سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم وعنوان طريقتهم ودليلها..
- أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حي على الفلاح وبدلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم.. ولما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البيئة على صحة الدعوى. فتنوع المدعون في الشهود. فقيل: لا نقبل هذه الدعوى إلا ببيئة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) بنابيع الرجاء، د. خالد أبو شادي، ص ١٣٦، ١٣٧

فتأخر الخلق كلهم، وثبت اتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البيعة بتزكية: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، ف قيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلّموا إلى بيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جري على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة وأن لها شأنًا. فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. ففقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار. وقالوا: "والله لا نقيلك ولا نستقيلك".

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت أضعافها معًا ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] ^(١)...

وها قد وصل المحبون إلى بغيتهم.. ضحوا بأرواحهم وأنفس ما لديهم من أجل محبوبهم.. فصاروا عنده أحياء.. لا يجوز أن يقال عنهم: أموات.. بل أحياء ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى، بل ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها. فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر لأنهم بعد أحياء.. ثم هم بعد كونهم أحياء مكرمون عند الله، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه.. ^(٢).

٦. عائشون بالله والله

• قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

— هؤلاء المؤمنون عاشوا لله (إياك نعبد) لا يريدون إلا وجهه سبحانه وتعالى جاهدوا.. وبذلوا في سبيله ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٣].. ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية ص ٤٢٨ : ٤٣٠

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

وَأَنْفَقُوا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وأدوا عبادتهم وطاعتهم له وحده لا شريك له ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] فأخلصوا قصدهم وتوجهوا لله وحده بل وأخلصوا نفوسهم من كل حظ أو هوى ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].. هاجروا وتركوا الأموال والأولاد طلباً في رحمته ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].. لا يخشون أحداً من الطغاة والجبابة لأنهم لا يخشون إلا الله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

— وعاشوا بالله فالتجئوا إليه وحده حين تهمز الأسناد كلها وتتوارى الأوهام ويخلو العبد فلا يجد سنداً إلا سنده ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠] فعلموا أنه لا صبر لهم إلا إذا أفاض الله عز وجل عليهم بالصبر.. ولا ثبات لهم إلا إذا ثبتهم الله عز وجل فهم بالله لا بأنفسهم (وإياك نستعين).. لا قوة إلا قوته.. ولا حول إلا حوله.. لا ملجأ إلا إليه.. ولا نصر إلا من عنده وبإذنه.. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

— ولكن ما هي الغاية النهائية على أعمالهم وجهادهم وتضحياتهم وبذلهم؟ إنها.. نيل رحمة الله ومغفرته ورضوانه والعتق من نيرانه قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

ويقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "إنه لا يعدهم هنا نصراً، ولا يعدهم هنا تمكيناً، ولا يعدهم هنا مغانم، ولا يعدهم هنا شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يُعدُّ هذه الفئة المؤمنة لأكبر من ذواتها وأكبر من حياتها، فكان من ثمَّ يجردُها من كل غاية، ومن كل هدف، ومن كل رغبة من الرغبات البشرية حتى الرغبة في انتصار العقيدة، كان يجردُها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضا الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون.. هذا هو الهدف وهذه هي الغاية وهذه هي الثمرة

الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها... فأما ما يكتبه الله بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة وجزاء على القتل والشهادة، إن الكفة ترجح بهذا العطاء، فهو أثقل في الميزان من كل عطاء.. أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور^(١).

أمة وسطاً.. أمة الشهادة

• قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

— يقول ابن كثير في تفسيره: "إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واختارناكم لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هنا: الخيار والأجود، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً.

— أمة الإسلام هي أمة الشهادة على الأمم يوم القيامة حيث تشهد ببلاغ الأنبياء لرسالتهم، وهم شهداء الله في الأرض بالثناء الحسن أو الثناء السيئ على خيار الناس أو أشرارهم كما جاء في الحديث لقوله (ﷺ): «أنتم شهداء الله في الأرض»^(٢).

— ويقول الشيخ سيد قطب: "إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم، وهي الأمة الوسط في التصور والاعتقاد فلا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي.. أمة وسطاً في المكان في أوسط بقاع الأرض، أمة وسطاً في الزمان.. أمة وسطاً بمعنى أفضل الأمم..

— ولكن ما الذي يعوق هذه الأمة لتأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها؟ هو تخليها عن المنهج الذي اختاره الله لها، منهج التوحيد.. واتخذت لها مناهج مختلفة غربية وشرقية كمناهج العلمانية

(١) رواه أحمد في مسنده (١٥٥٠٦) وابن ماجه (٤٢٢١).

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - تفسير سورة البقرة.

والمدينة والديمقراطية والليبرالية والاشتراكية ليست هي التي اختارها الله لها، واصطبغت بصبغات أخرى ولم تصطبغ بصبغته.

- أمة وسطاً.. أمة الحق.. والحق وسط دوماً بين طرفي الإفراط والتفريط.
- أمة شهادة.. فلن تؤدي دورها في البشرية وهي غائبة عن الوعي، لا تدري سنن الله في الكون والحياة.
- أمة شهادة.. يتمثل أفرادها واقع الدين ويحيون به ويتحركون بمنهجه متمثلاً فيهم فيراهم الناس، فيشهدون للدين من خلال اتباعه.

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين^(١).

الجزء الثاني بيان الأسس التي قام عليها منهج قيادة البشرية

- إن أمة الإسلام كلفت في سورة البقرة بقيادة البشرية لإقامة دين الله في دنيا الناس فأصبح هذا الدين هو منهج قيادة البشرية والذي يكفل للبشرية الكرامة والسعادة والكمال وانتشار الخير والصالح ووقف أشكال الفساد والشور والظلم والبغي وسفك الدماء ومن ثم صارت قيادة أمة الإسلام للبشرية في طريق الله وفق هذا المنهج الرباني هو صميم وظيفة الاستخلاف في الأرض التي خلق الله عز وجل هذا المخلوق الجديد لها.
- سنتعرض بإذن الله في هذا المقطع إلى أهم الأسس التي قام عليها منهج الله لقيادة البشرية كي تنطلق الأمة المسلمة في مهمتها لإنقاذ البشرية وفق منهج الله عز وجل بمعالم واضحة لا لبس فيها ولا غموض كما بينتها لنا سورة البقرة، وهذه الأسس نجملها في أمرين رئيسيين وهما:

(١) شكل منهج قيادة البشرية وهيكله.

(٢) طريقة وصول المنهج إلى الأرض كافة.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير البقرة، ١ / ١٤٦

ولنبداً بإذن الله في عرض: شكل المنهج الإلهي لقيادة البشرية وهيكله وذلك بأنه (نظام كامل للحياة كلها) في التفصيل...

الأساس الأول: الإسلام نظام كامل للحياة كلها

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي: يا أمة الإسلام تمسكوا بجميع تشريعات دينكم وتكاليفه واعملوا بها كلها دون فصل أو تمييز ولا تكونوا كالذين خانوا الأمانة حينما تمسكوا ببعض تعاليم دينهم وكفروا ببعضها قال تعالى: ﴿أَفْتُونُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥] وحول تفسير ما وقع فيه بنو إسرائيل يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات: "يقول تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية عباد أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم وقاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعدائه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسرى (قاموا بفكاكهم) من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] ولهذا قال تعالى: ﴿أَفْتُونُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] أي: ما قمتم به فصل في تشريع الدين وحكمه وأخذ جزء منه تبعاً لأهوائكم، لذلك كان الوعيد الشديد لهم ولمن يفعل ذلك مثلهم ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

- وأما أمة البلاغ والشهادة التي استلمت أمانة الاستخلاف في الأرض لا بد أن تعلم أن المنهج الإلهي الذي ستقود به البشرية هو منهج شامل لكل شؤون الحياة، وشريعة كاملة وتامة ارتضاها

الله عز وجل للبشرية جمعاء إلى أبد الأبدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] لذلك كان نفس الوعيد الشديد لكل من ينتقص شعيرة من شعائر الإسلام ولو قيد أمثلة منه أو لمن يجزئ شرائعه ويجعل أحكامه عيّن أي: (أعضاء وأجزاء فيؤمنوا ببعضها ويكفروا ببعضها).

• ولكن كيف عرضت سورة البقرة شكل هذا المنهج الإلهي الصالح لقيادة البشرية وصالح الحياة؟

— يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: أنه قبل عرض السورة لشرائع الإسلام في الآيات (من ١٧٨: ٢٨٣) سبقها بيان حقائق الإيمان في خمس عشرة آية (من ١٦٣: ١٧٧) لتمثل الأساس الذي سيقوم عليه البنيان وهو: أساس العقيدة التي هي (روح الدين وجوهره) بدأت السورة بها قبل تفصيل الشريعة التي هي (مظهر الدين وهيكله) ^(١).

• وقد جاء بيان حقائق الإيمان في خطوات ثلاث:

- الخطوة الأولى: تقرير وحدانية الخالق المعبود (الآيات من ١٦٣: ١٦٧).
- الخطوة الثانية: تقرير وحدانية الأمر المطاع (الآيات من ١٦٨: ١٧٦).
- الخطوة الثالثة: فهرس قواعد الإيمان وشرائع الإسلام: آية البر الجامعة... ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الآية: ١٧٧].

الخطوة الأولى في أساس العقيدة وحقائق الإيمان (تقرير وحدانية الخالق المعبود) (الآيات من

١٦٧: ١٦٣)

• قال تعالى: ﴿وَالهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

— ويقول د. دراز: "هذه الأمة الواحدة تدور حول محور واحد وتتجه إلى مقصد واحد هو أعلى المقاصد وأسمها أتدرون من هو...؟ إنه ليس الكعبة وليس الصفا والمروة، ليس إبراهيم ولا مقام إبراهيم، ولكنه (الرحمن الرحيم) الذي وسع كل شيء رحمة ونعمة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

(١) النبا العظيم، محمد عبد الله دراز، ص ٢٠١

وَالْأَرْضِ... ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والذي بيده القوة كلها والبأس كله: لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

— إن هذه الخطوة كانت أساسًا وتقدمة لا بد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية للشريعة، لتكون توجيهًا للأنظار إلى الناحية التي ينبغي أن يتلقى منها الخطاب في شأن تلك الأحكام، ذلك أن المرء إذا عرف له سيدًا واحدًا وأسلم وجهه إليه وجب عليه ألا يصدر أمرًا إلا عن أمره ولا يأخذ التشريع إلا عنه ومن كانت له أرباب متفرقون وتنازعت فيه شركاء متشاكسون تقاضاه كل واحد منهم نصيبه من طاعته وكثرت عليه مصادر الأمر المطاع، فأمر للآباء والعشيرة، وأمر للعرف والعوائد الموروثة، وأمر للسادة والكبراء، وأمر للشياطين والأهواء.. ولذلك عززها بالخطوة الثانية.

الخطوة الثانية في أساس العقيدة وحقائق الإيمان (تقرير وحدة الأمر المطاع) [الآيات من ١٧٦: ١٦٨]

— وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلهًا من دون الرحمن (توحيد الألوهية)، الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع وحده (توحيد الربوبية)، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكمًا في سائر تصرفاتك بل تعتقد أن لا حكم إلا له وأن بيده وحده الأمر والنهي والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر (وهذا هو التشريك في التشريع) وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره (وهذا هو التشريك في العبادة) فلا يليق أن يكون هو الحاكم صاحب الملك والسلطان ويطاع غيره (التشريك في الحاكمية).

— إن أهل الجاهلية من وثنيين وكتنبيين لما اتبعوا خطوات الشيطان - العدو المبين - فأزهم عن توحيد المعبود حتى اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله (انظر سورة الأنعام والتشريك في العبادة بداية للتشريك في التشريع) فلم يطل عليهم الشيطان الأمد حتى فتح لهم باب التشريك في التشريع بعد التشريك في العبادة فجعلوا يرمون من الحرث والأنعام حلالها ويجعلون حرامها بل

جعلوا عند ذبح أنعامهم يهدون بها لغير الله، يهتفون بأسماء آلهتهم ويستحلون طعمتها بذلك فجمعوا فيها بين مفسد ثلاث: المعصية، والبدعة، والشرك الأكبر.

كان باب التحريم والتحليل في المطاعم والمكاسب كان هو أول باب فتح في الجاهلية للتشريع بغير إذن الله (التفصيل بإذن الله في عرض سورتي الأنعام والمائدة لباب تحليل الحرام وتحريم الحلال) ولذلك كان هو أول باب سده القرآن بعد الشرك الأكبر.

- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

الخطوة الثالثة في أساس العقيدة وحقائق الإيمان (إجمال الشرائع في فهرس آية البر الجامعة)

[الآية: ١٧٧]

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ١٧٧].

- يقول د. دراز: "ليس البر شعبة واحدة أو خصلة واحدة وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها نظرية وعملية في معاملة المخلوق وعبادة الخالق وتزكية الأخلاق، تبدأ الآية برد قواعد الإيمان وهي: الإيمان بالله واليوم الآخر ثم الوسائط التي تعرف الأحكام الشرعية وتتخذ عن يدها فبدء بالملائكة حملة الوحي ثم الكتاب وهو الوحي المحمول ثم بالنبين وهم مهبط الوحي^(١)....

ثم تعرض شمول البر لمعاملة المخلوقين من إنفاق الأموال المحبوبة للنفوس تقرباً إلى الله ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] ثم ذكر المنفق عليهم وهم أولى الناس بالبر والإحسان من الأقارب واليتامى والمساكين ثم العبادة من الصلاة والزكاة ثم تذكر الآية خصلة الوفاء بالعهد ثم خصلة الصبر في البأساء (الفقر) والضراء (المرض) وحين البأس (وقت قتال الأعداء) وأصحاب هذه الصفات هم المؤمنون الصادقون وهم المتقون لتؤكد الآيات في نهايتها أن هذه الأمة هي أمة صفات وهذا هو شرط تكريمها وخيريتها.

(١) النبا العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ١٩٥: ٢٠٠

• وبعد إرساء سورة البقرة للأساس (حقائق الإيمان) تقوم ببسط وإقامة البنيان (شرائع الإسلام) وذلك في الآيات من (١٧٨ : ٢٨٣) أكثر من مائة آية تعرض فيها تكليفات وأحكام في شتى مناحي الحياة في شأن الفرد، وفي شأن الأسرة، وفي شأن الأمة.. عرض لبنيان متلاصق في لبناته متناسق في فروعها..

• شعائر تعبدية.. أحكام جنائية.. معاملات مالية.. تشريعات أسرية.. شعائر أخلاقية.. أحكام للأسرة...

• "سبيكة واحدة ينبض فيها عرق واحد، ويجري فيها ماء واحد، على رغم أنها جمعت من معادن شتى"^(١)...

— يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن بنيان نظام هذا الدين وشكل هذا المنهج الإلهي: "وهكذا نرى أحكامًا تتعلق بالتصور والاعتقاد، وأحكامًا تتعلق بالشعائر التعبدية، وأحكامًا تتعلق بالقتال.. متعددة ولكنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ناشئاً من طبيعة هذا الدين الذي لا تنفصل فيه الشعائر التعبدية عن المشاعر القلبية عن التشريعات التنظيمية لشؤون العلاقات الاجتماعية والدولية كلها تتجمع في نطاق واحد ولا يستقيم العباد حتى تشرف هذه الأحكام على الحياة كلها فيصرفها وفق تصور واحد متكامل، ومنهج واحد متناسق ونظام واحد شامل يقوم على شريعة الله في كافة الشؤون، فروع باسقة تسقى من ماء واحد"^(٢).

— تعرض لنا سورة البقرة نحو اثنتين وعشرين تشريعاً، وهي طبقاً للوضع الحديث تنظم علاقة الفرد بالفرد وعلاقة الأفراد بالدولة وعلاقة الدولة بغيرها من الدول أثناء السلم والحرب كالتالي:

(كما تشمل العبادات بين العبد وربّه)

١. أحكام القصاص (قانون جنائي).

٢. أحكام الوصية (قانون مدني).

٣. أحكام الصيام (عبادات).

٤. أحكام أكل الأموال (قانون مدني).

(١) النبا العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ٢٠٧

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

-
- ٥ . أحكام الأهله (عبادات).
 - ٦ . أحكام القتال (دولي عام).
 - ٧ . أحكام الإنفاق (عبادات).
 - ٨ . أحكام الحج والعمرة (عبادات).
 - ٩ . أحكام الخمر والميسر (قانون جنائي).
 - ١٠ . أحكام التكافل مع الأيتام (مدني).
 - ١١ . أحكام النكاح (أحوال شخصية).
 - ١٢ . أحكام الحيض (الأسرة).
 - ١٣ . أحكام اليمين (شهادة مدني).
 - ١٤ . أحكام الإيلاء (الأسرة).
 - ١٥ . أحكام الطلاق (أحوال شخصية).
 - ١٦ . أحكام الرضاة والنفقة (أحوال شخصية).
 - ١٧ . أحكام عدة المتوفى عنها زوجها (أحوال شخصية).
 - ١٨ . أحكام متعة المطلقة (أحوال شخصية).
 - ١٩ . أحكام الصلاة (عبادات).
 - ٢٠ . أحكام الربا (قانون مدني/ تجاري).
 - ٢١ . أحكام الدين (قانون مدني/ تجاري).
 - ٢٢ . أحكام الرهن (قانون مدني/ تجاري).
- "وبذلك لا تجد فرقاً في الإسلام بين أمور الدين وغيرها من الأمور القانونية أو السياسية والاجتماعية، وهكذا ألبس الدين كل شيء من أمور المسلمين ثوب التشريع الذي يعتمد على أسس قوية صالحة لتحمل كل جديد وتساير كل زمن وتصلح لكل مكان، وبهذا تحقق بكل
-

اليقين أن الإسلام ليس عقيدة دينية فحسب وإنما هو دين ودولة سبق كافة التشريعات في أرقى ما وصل إليه الفكر القانوني الحديث"^(١).

- لكن لماذا بدأت هذه الأحكام والتشريعات بالقصاص؟
- وتجد في بدء هذه الأحكام بتشريع القصاص وعدم بدايتها بالعبادات كالصيام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] إشارة هامة وهي أن إقامة الشعائر التعبدية كالصيام يحتاج إلى الحماية وهي التي تتمثل في إقامة الحدود وتطبيقها والتي تصون المجتمع وتمنع سفك الدماء والإفساد في الأرض وذلك بزجر الجاني وردع كل من تسول له نفسه في مثل ذلك، ومن ثم يتمكن المجتمع من أداء الشعائر التعبدية في أمن وأمان وهذه هي وظيفة الحدود في التشريع كالمشكاة التي تحمي الزجاجاة، وهي لا تتعدى كونها ما يماثل قانون العقوبات في التشريع الجنائي، وليست هي ما يتبادر في الأذهان حينما يذكر الحديث عن الشريعة. بالرجوع إلى سورة النور ستجد فيها التفصيل بإذن الله.

- وأما في بدء هذه الأحكام والتشريعات بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم...) في هذا النداء للمؤمنين بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله الذي آمنوا به وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم هذه الفرائض وما عليهم إلا الامتثال لأوامره والانقياد لشرعه والإذعان لحكمه.

- هذا وقد بدأ أعداء هذا الدين في فصل الدين عن الحكم ثم قاموا بإقصاء الإسلام عن الحياة كلها بدعوى أنه لا شأن للدين بشئون سياسة الناس، لم يعرفها ولم ينكرها ولم يأمر بها ولم ينهي عنها وإنما تركها لنا.. استندوا لبعض أقوال مشايخ الأزهر مثل قاضي المنصورة علي عبد الرازق الذي قال في كتابه (الإسلام ونظام الحكم): "إن من نظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ في القرن الثاني من الهجرة ثم

(١) التشريع الإسلامي ونظرياته العامة الجنائية والمدنية، د. محمد علي محبوب

تجيء بعد ذلك فتطبق هذا القانون في ١٣٥٤هـ!!^(١). وهذا إدعاء باطل وافتراء على دين الله، تصدى له الشيخ مصطفى صبري في حاشيته فقال رحمه الله: "الإسلام ليس دين عبادة فقط بل دين حكم أيضًا، لذلك فصل الدين عن الحكم هو أقصر طريق إلى الكفر"^(٢). كما تصدى لذلك أيضًا العلامة القاضي الشرعي أحمد شاکر بقوله: "من زعم أن دين الإسلام دين عبادة فقط فقد أنكر أحكام القرآن وأعظم على الله الفرية ومن قال ذلك فقد خرج عن الإسلام جملة ورفضه كله وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم"^(٣)، ويقول الشيخ سيد قطب عن الفرق بين الإسلام والجاهلية هو مصدر التشريع الذي يعمل به الناس فيقول رحمه الله: "الجاهلية هي عبودية الناس للناس بتشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله، كائنة من كانت الصورة التي يتم بها هذا التشريع!" بينما الإسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم والتحرر من عبودية العبيد ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فهذان أمران لا ثالث لهما.. إما الاستجابة لله والرسول وإما اتباع الهوى.. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية"^(٤)..

- وهذا هو شكل المنهج الإلهي الذي على أساسه قادت هذه الأمة المسلمة البشرية، وهذه هي صبغة الله التي ارتضاها للعالمين ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] وصبغة الله أي: دين الله والمعنى: أي ألزموا دينه وقوموا به قيامًا تامًا وبجميع أحكامه وشرائعه في جميع الأوقات حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم وذلك أوجب لكم تمام الانقياد لأوامره ونحن له عابدون.. ونحن له مسلمون.
- هذا هو الحق المبين.. هذا هو صراط الله المستقيم التي دللنا عليه سورة البقرة.. وهذه هي البيئات الساطعات فمن عدل عن الحق بعدما قامت عليه هذه الحجج فليحذر انتقام الله عز

(١) الإسلام ونظام الحكم.. علي عبد الرازق

(٢) حاشية الشيخ مصطفى صبري

(٣) القرآن والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين.. أحمد شاکر

(٤) معالم في الطريق، سيد قطب

وجل لدينه وشرعه قال تعالى: ﴿فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

أصل شرع الله: التيسير ورفع الحرج

• جاءت تكاليف شرع الله في حدود الاستطاعة البشرية تيسيراً على الناس ورفعاً للحرج عنهم قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ومن أمثلة تيسير الله عز وجل في تشريعاته:

(١) شرع الله عز وجل للأمة المسلمة أخذ الدية في القتل العمد تخفيفاً من الله ورحمة بالأمة مما كان محتوماً على الأمم قبلها ولم يكن فيهم العفو بقبول الدية قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

(٢) رخص الله عز وجل للأمة المسلمة الفطر في شهر رمضان في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح وذلك تيسيراً على الأمة ورحمة بها قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

(٣) رخص الله عز وجل للأمة المسلمة مجامعة الزوج لزوجته بعد العشاء في ليالي رمضان قال تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٦] فكان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، فشق ذلك عليهم فمنهم من كان ينام بعد صلاة المغرب ولم يشبع من الطعام فيستيقظ وقد صلى النبي ﷺ العشاء فلا يأكل أو يشرب أو يأتي زوجته فنزلت هذه الآيات، ففرح بها المسلمون فرحاً شديداً بعفو الله ورحمته ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

(٤) رخص الله عز وجل مخالطة طعام ولي اليتيم بطعامهم وشرابهم بشرايه بعدما شق على الناس نزول الآية ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من شرابه وشرابه من شرابه، فجعل يفصل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فخلطوا طعامهم بطعامهم وفرحوا بتخفيف الله وتيسيره.

٥) تجاوز الله عز وجل عن محاسبة الأمة عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل، فبعدهما نزلت ﴿وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها، فقال رسول الله (ﷺ): "أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" فلما أقر بها القوم، وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك (وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) نسخها الله فأنزل قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ^(١).

التقوى وازع أداء التكليفات

- التقوى هي: "مراقبة الله عز وجل والحذر منه بسبب خشيته جل في علاه، تدفع للبعد عن الشهوات، واجتناب المنكرات، والحرص على الطاعات، وتنفيذ التكليفات، وفعل كل ما يرضيه سبحانه وتعالى بإتقان في كل صغيرة وكبيرة، واستشعار مشاهدته لك في سرّك وإعلانك".
- وباختصار هي: أن يراك الله حيث أمرك ويفتقدك حيث نهاك.. وقبل التقوى هي: "التخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه" ^(٢).
- ولقد ذكرت سورة (البقرة) بعض صفات المتقين في أول السورة ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

(١) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٩٩) وأحمد في مسنده (٤١٢ / ٢)

(٢) التفسير الثمين لابن عثيمين، المجلد الثاني، ص ٣٦٠

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ٣-٥﴾،
 كما جاءت آية البر الجامعة بصفات أخرى للمتقين ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى
 الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
 الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- تكرر ذكر التقوى في التعقيب على الكثير من التكليفات والتشريعات في سورة البقرة:
- التعقيب على القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
 تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨].
- التعقيب على الوصية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ
 وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].
- التعقيب على الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
- التعقيب على الحج والعمرة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].
- فخشية العبد لربه سبحانه وتعالى في أدق الأمور، وتيقن العبد من محاسبة ربه له على مثاقيل
 الذر هي أكبر معين على الامتثال لأوامر الله عز وجل وحسن أداء تكاليفه، والتي قد لا يراه
 الكثير من الناس أثناء قيامه بها وحتى لو تحرك أمام الناس، فمن ذا الذي يطلع على ذات صدره
 ودخيلة نفسه وخطراته ومكنوناته؟ إن علم العبد بذلك كله يطرد وازع الهوى ويجعل كافة
 تصرفات العبد ومعاملاته وفقاً لما يرضي الله عز وجل..

ثمره تحقق التقوى

- ومن الأمثلة التي تظهر فيها ثمرة تحقق تقوى العبد لربه عز وجل في معاملاته وعبادته كما جاءت
 في سورة البقرة:

(١) تعظيم الله عز وجل في حلف اليمين وعدم الحلف لمنع الخير ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

(٢) التعجيل أو التأخير في رمي الجمرات في أحكام الحج ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

(٣) عدم الضرر بالزوجة المطلقة وتعليقها وذلك بردها قبل انتهاء العدة ثم تطبيقها ثم ردها وهكذا ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

(٤) إتيان الزوجة كيف يشاء مادام في القبل ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ سِنْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

(٥) عدم التصريح للأرملة في وقت عدتها أو مواعيدتها سرًا بالزواج حتى تنتهي عدتها ﴿لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

(٦) استكمال مدة الرضاعة والتشاور في الفطام وتقديم نفقة الوالدة ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

(٧) عدم نسيان الفضل مع الزوجة المطلقة الغير مدخول بها في أداء متاعها ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ

عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿البقرة: ٢٣٧﴾.

٨) ترك الربا في التعاملات المادية والتجارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

٩) كتابة الدين لرعاية الحقوق ومصالح العباد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ
فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ
الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا
فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا
إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا
شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:
٢٨٢].

آية الدِّين: تقوى الله في أدق المعاملات للنجاح في وظيفة الاستخلاف

● تأتي في أواخر سورة (البقرة): آية هي أطول آية في كتاب الله، آية تشرع أحكامًا تفصيلية في
مسألة كتابة الديون بين العباد لتصوغ بهذه الأحكام الدقيقة دستورًا في حفظ الحقوق ورعاية
المصالح وذلك بضرورة وجود كاتب يكتب بين الدائن والمدين في المعاملات المؤجلة ليكون ذلك:
أحفظ لمقداره وميقات أداءها، وثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال: "قدم رسول الله ﷺ
المدينة وهم يُسَلِّفُونَ في الثمار السننتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: "من أسلف فليسلف
في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم" .. رواه البخاري، وهذا التحديد الدقيق لكل شيء
حتى لا تضيع الحقوق.

• بل زيادة في التوثيق أمرت الآية بالإشهاد مع الكتابة وضرورة أن يكون الشاهد من العدول الذين ارتضاهم الطرفين، وأن كلاً من الكاتب والشهداء لا يمتنعوا إذا ما طلبوا لذلك ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾...

• ثم نأتي إلى تمام إرشادات الآية وهو الأمر بكتابة الحق وإظهاره صغيراً كان أو كبيراً ﴿وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة.. ثم تعيد الآيات في نهايتها على ضرورة ألا يضار الكاتب ولا الشهيد ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي فلا يكتب الكاتب خلاف ما يملى، ولا يشهد الشاهد بخلاف ما سمع.. حق أوجه الله على الكاتب والشاهد.

• إننا أمام آية عجيبة ارتقت بمستوى التقوى إلى ذروته.. تقوى الله في أدق المعاملات وأقل الديون ﴿وَلِيَتَّقِيَ اللَّهُ رَبَّهُ﴾.. تحت المؤمنين على إظهار الحقوق وعدم كتمانها.. واستدعاء كاتب لا يضجر أو يمل من دقة التفاصيل البسيطة مهما صغرت ولا يتضرر شاهد أن يشهد بالحق مهما كان بسيطاً، كما أمرت الآية بإقامة القسط والكتابة بالعدل (وليكتب كاتب بينكم بالعدل)، (ذلكم أقسط عند الله).. إن من أعظم خصال التقوى الاعتراف بالحقوق الخفية كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقضها، كما حثت الآية على التذكير في الشهادة لو نسى الشاهد فيذكره الشاهد الآخر مما يؤكد أن الشهادة مدارها على العلم واليقين لا عن جهل وشك فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته- ولو غلب على ظنه- لم يجز له أن يشهد إلا بما يعلم^(١).

• ولكن ما علاقة هذه الآية بوظيفة الاستخلاف في الأرض؟

— إن الأمة المستخلفة في الأرض وظيفتها هي:

• إقامة الحق وتحقيق العدل وحفظ الحقوق بين الناس.

• الشهادة على الناس فهي أمة الشهادة.

ولن تقيم هذه الوظيفة إلا إذا ارتقى مستوى المؤمنين المستخلفين في الأرض إلى أرقى

مستوى في تقوى الله عز وجل.

(١) تيسير الكريم الرحمن، تفسير الشيخ السعدي، ص ١٠٨ : ١١٠

وهذه المعاني هي التي أشارت إليها الآية في عرضها لأحكام كتابة الديون، وبهذا فقد جمعت "آية الدّين" ولخصت وظيفة الأمة المستخلفة.

- وفي نهاية الآية ما يؤكد أن الله عز وجل حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم وأن الإسلام جاء ليصلح كل مناحي الحياة وأن القرآن الكريم تبياناً لكل شيء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

• **آخر تشريع في سورة البقرة:**

الرهن: ضمان للحقوق وحفظ مصالح العباد

- قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨١] أي: إن كنتم مسافرين وتداينتم بدين إلى أجل مسمى ولم تجدوا كاتبًا يوثق الدين، فليكن بديل الكتابة عند انعدامها أخذ صاحب الحق رهان مقبوضة من الشخص المدين.
- لذلك فالرهن شرع كتوثيق للدين ولحفظ الحقوق في حالة انعدام الكتابة، وتيسير للتعامل بين الناس، وبيث الطمأنينة في نفوس الدائنين، فقد لا يقبل الكثير منهم إقراض الغير أو منح أجل لديونهم إلا بتقديم ضمان.
- وشرعية الإسلام وضعت وسائل عديدة لتوثيق الحقوق وحفظ مصالح العباد بدءًا بالكتابة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وكذلك بالاستشهاد ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ثم كان الرهن وسيلة قوية من وسائل ضمان الحقوق.
- وقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ تُوِّفِيَ ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسُقًا من شعير، رهنها قوتًا لأهله.
- وفي هذا التشريع مصلحة للدائن والمدين، فشرع الله فيه مصلحة العباد فالمدين: يتمتع بأجل الدين في مقابل الضمان الذي قدمه للدائن حتى تتاح له الفرصة للوفاء بدينه، والدائن: يطمئن مع الرهن إلى أنه حتمًا سيستوفي دينه إما بالوفاء أو باستيفاء حقه من العين المرهونة عند حلول أجل الدين دون وفاء^(١).
- ولا ضرورة للضمان أو التوثيق إذا تحقق الأمان والثقة التي مصدرها وجود وازع تقوى الله ومراقبته قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

(١) كتاب "أثار الرهن الحيازي بالنسبة للدائن المرهن"، د. محمد نجيب المغربي، ص ٢٤

- ومن هنا تختتم سورة البقرة عرضها للتشريعات والأحكام بتشريعي الدين والرهن، وهما تشريعات لحفظ حقوق العباد وصيانة المجتمع والتأكيد على ضرورة التقوى كوازع وراذع داخلي يساعد على أداء التكليفات الإلهية، بل ويؤدي للنجاح في إقامة منهج الله في الأرض.

افتحة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن:

- تبدأ سورة (النساء) بما اختتمت به التشريعات في سورة (البقرة) بالحث على تقوى الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] والحث على حفظ الحقوق وصيانة المجتمع للضعفاء من الأيتام والنساء ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾، ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾... في ترابط عجيب بين السورتين سنتحدث بإذن الله عنه في بداية عرض سورة النساء، والله المستعان وعليه التكلان.

الأساس الثاني: طريقة وصول المنهج الإلهي إلى الأرض كافة

- من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل الذي تم ذكرت ملامحه سلفاً - بحول الله وتوفيقه - وأن حقها أيضاً ألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال، ثم من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحراراً في اعتناق هذا الدين لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم أيضاً ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة لا بالأذى ولا بالإغراء ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة، فكان لزاماً على الفئة المؤمنة صاحبة مهمة قيادة البشرية وفق منهج الله عز وجل لإقامة دينه في الأرض أن تتصدى بالقوة لكل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية أو تهدد حرية اعتناق العقيدة أو تفتن الناس عنها حتى لا تحرم البشرية من ذلك الخير العام الذي جاء به منهج الله لحياة الناس في هذه الأرض^(١)، لذلك نجد أن سورة البقرة حددت طريقة واحدة لوصول منهج قيادة البشرية إلى الأرض كافة متغلباً على كل العوائق التي ذكرت وهذه الطريقة نستخلصها من سورة البقرة في النقاط التالية:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

- كتب عليكم القتال.
- التشريع الأعظم وجو المعركة.
- جهاد بنو إسرائيل لإقامة دولتهم.
- سنة التدافع.
- آية الكرسي: إعلان سلطان الملك في مملكته.
- طرد سلطان الطواغيت.
- بواعث الجهاد ومبرراته.
- تقديم الأموال وبذلها للجهاد.
- النموذج التطبيقي: مسار قيام دولة الإسلام الأولى.

أولاً: كتب عليكم القتال

● قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، قال الزهري في تفسير هذه الآية: "الجهاد واجب على كل أحد غزاً أو قعداً، ولهذا ثبت في الصحيح: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية»^(١)، وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»^(٢)، وقال الإمام أبو عبد الله الحلبي الفقيه الشافعي: "أبان سبحانه أنه لولا دفع الله المشركين بالمؤمنين وتسليط المؤمنين على دفعهم عن بيضة الإسلام وكسر شوكتهم وتفريق جمعهم لغلب الشرك على الأرض وارتفعت الديانة فثبت بهذا أن سبب بقاء الدين واتساع أهله للعبادة إنما هو الجهاد، وما كان بهذه المنزلة فحقيق أن يكون من أركان الإيمان وأن يكون المؤمنون من الحرص عليه في أقصى الحدود والنهايات"^(٣)، وما يؤكد أن الجهاد ركن من أركان الإيمان، ما جاء عن ابن الخصاصية رضى الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ لأبأبعه على الإسلام فاشترط عليّ "تشهد أن لا إله إلا الله وأن

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده (٣٧٤ / ٢) والحاكم في المستدرک (١٩ / ٢)

(٢) صحيح: رواه أبو داود في كتاب الجهاد على شرط مسلم، كتاب الجهاد (٢ / ٣)

(٣) كتاب المنهاج في شعب الإيمان (٤٦٦ / ٢)

محمدًا عبده ورسوله وتصلي الخمس وتصوم رمضان وتؤدي الزكاة وتحج البيت وتجاهد في سبيل الله" (١).

● والجهد واجب على هذه الأمة وماضٍ إلى يوم القيامة ولا تزال طائفة من الأمة ثابتة عليه في كل زمان فعن سلمه بن نفيل رضى الله عنه قال: بينا أنا جالس مع رسول الله (ﷺ)، إذ دخل رجل فقال: يا رسول الله! إن الخيل قد سئبت ووضعت السلاح، وزعم أقوام أن لا قتال وأن قد وضعت الحرب أوزارها فقال رسول الله: "كذبوا، الآن جاء القتال، وإنه لا تزال أمة من أممي يقاتلون في سبيل الله، لا يضرهم من خالفهم، يزيغ الله بهم قلوب أقوام، ليرزقهم منهم يقاتلون حتى تقوم الساعة ولا يزال الخير معقودًا في نواصي الخيل إلى يوم القيامة، لا تضع الحرب أوزارها، حتى يخرج يأجوج ومأجوج" (٢).

● إن الجهاد كُتب على هذه الأمة المسلمة وفرض لبقاء الدين إلى يوم القيامة

فرض على أمة البلاغ والشهادة حتى لا يكون في الأرض وضع أو نظام يمنع البلاغ أو يحول بين شهادة الأمة على الناس أو يحجب نور الله وهداه أن يصل للأرض قاطبة إلى يوم القيامة، والجهاد هو السبيل لتمكين الأمة من أداء رسالتها السامية والنهوض لوظيفتها التي أخرجت من أجلها للناس.

● كُتب الجهاد على أمة الإسلام كما كتبت الصلاة والصيام والحج ولكن الجهاد فريضة شاقة كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

— يقول الشيخ سيد قطب عن هذه الآية: "إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة ولكنها فريضة واجبة الأداء لأن فيها خيرًا كثيرًا للفرد المسلم، وللجماعة المسلمة، وللبشرية كلها، وللحق والخير والصلاح. والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ولا يهون من أمرها ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكرهيتها وثقلها، فالإسلام لا يصادم

(١) صحيح الإسناد: رواه الحاكم في المستدرک ووافقه الذهبي (٢ / ١٠)

(٢) حسن: رواه النسائي، كتاب الخيل، ٢١٤/٦، وأحمد في مسنده (٤ / ١٠٤)

الفطرة ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، فيقرر أنه من الفرائض ما هو شاق مريب كريبه المذاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته وتسيغ مرارته وتحقق به خيراً محبوباً قد لا يراه النظر الإنساني القصير، إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، إن منهج القرآن في التربية منهج عجيب منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة بالحق وبالصدق.. فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمراً ويكون فيه الخير كل الخير.. وهو حق كذلك أن تحب النفس أمراً وتهالك عليه وفيه الشر كل الشر.. لذلك طريقة التكليف الإلهي بالجهاد تجعل النفوس تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله وأن الخير في الامتثال لأوامره وتمام الاستجابة لتكليفه دون محاولة منها أن تجرب ربحاً وأن تطلب منه البرهان... فيستسلم المسلم لربه لأن إيمانه بالله ويقينه بما أخبره ربه أن ذلك هو الخير إنما هو تعبيراً عن الصفة الأولى لهذه الأمة من: الإيمان بالغيب أولى صفات المؤمنين التي ذكرت في أول سورة البقرة، وليس الحسابات المادية المنظورة التي ترى في الجهاد هلاك للأَنْفُس والأموال ودماء وأشلاء ويتم للأبناء وتأييم للنساء وتغفل عن الخير كل الخير^(١).. الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين في الدنيا بالحياة في عزة برفع راية الدين والخير للبشرية بطرد الشر وإزالة الفساد والخير الضخم اللامحدود في الآخرة من رفعة الدرجات في جنة الخلد، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(٢). وهذا أجر المجاهدين في سبيل الله حتى لو لم يستشهدوا، وأما إذا رزقهم الله عز وجل الشهادة في سبيله فلهم أجرٌ عظيمٌ فضلاً من الله قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ﴾ [البقرة: ١٥٤] وكما جاء في الحديث أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى فناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلعه فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

(٢) صحيح: البخاري، فتح الباري رقم (٢٧٩٠)

لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى- لما يرون من ثواب الشهادة- فيقول الرب ﷻ: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون" (١).

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال نبه تعالى على أن انتشار الشرك بالله وظهور الكفر به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم من القتل ولهذا قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وإذا كانت الآيات تقرر حرمة الشهر الحرام وتقرر أن القتال فيه كبير ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] ولكن الصد عن سبيل الله والكفر بالله وبالمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام... وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ثانياً: التشريع الأعظم وجو المعركة

● عرضت سورة البقرة حديثها عن الإنفاق والجهاد في سبيل الله عرضاً يكاد يكون متصللاً على مدار عرض تكليفات وتشريعات أمة الإسلام: وقاتلوا في سبيل الله.. وأتموا الحج والعمرة.. كتب عليكم القتال.. يسألونك عن الخمر.. حافظوا على الصلوات.. وقاتلوا في سبيل الله.

- كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: "نرى التنويه بفضيلتي الإنفاق والجهاد في سبيل الله لا يزال يعاد ويردد في مطالع الحديث ومقاطععه في إجماله وتفصيله، ترديداً ينادي بأنه هو المقصود الأهم، والهدف الأعظم من التشريع في هذه السورة..."

فلو أننا في ضوء هذا الأسلوب تمثلنا تلك البيئة وأحداثها وتمثلها القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها، لتمثلنا معسكراً ثابتاً للجهاد المزدوج: المالي والبدني، ولتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائداً يقظاً حريصاً، لا يعزب عنه شأن من شئون جنوده خاصها وعامها، ولا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشئون كلما فرغ من إفتائهم في نوازلهم العارضة الوقتية، رجع بالحديث إلى مجراه العتيد في شأن مهمتهم الرئيسية...

(١) صحيح: مسلم في الإمامة رقم (١٢١)

ضع هذه اللوحة الجندية أمام عينيك... فلن يكون عجباً أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على إثر تلك الشئون، ذلك أن بساطه كان أبداً منشوراً، وأن داعيته كانت دائماً قائمة، فإذا عاد ذكره بعد أن زال ما حوله من الشواغل الوقتية، فإنما يجيء على أصله وسجيته^(١).

- إنه جو المعركة الذي يظهر بين دفتي المقطع الخامس بالسورة: مقطع أمة الإسلام، وكأن الجهاد في سبيل الله هو الخط المتصل في هذا المقطع وما يتخلل هذا الخط هو حل المشاكل التي تقف أمام المجاهدين.. وانظر هنا لهذه اللفتة التي يشير إليها د. دراز فيقول: "إن الخطاب في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨-٢٣٩].
- فأول هذه المشاكل أمام المجاهدين مشكلة الصلاة في الحرب: ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله؟

يجيبنا الكتاب العزيز: لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها في سلم ولا في حرب، ولا في أمن ولا في خوف: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد: في صفات الصلاة وهياتها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩] والجندي في الحرب تشغله على الأقل مخافتان: مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه من أخطار الموت أو الهزيمة، ومخافة على أهله من الضياع والعيلة لو قتل... لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين، أما أهله فقد وصى الله الزوجة إذا مات زوجها بأن تتمتع حولاً كاملاً في بيته، وكذلك مطلقته حتى يستقر لها حق في المتعة لا ينسى، فليقر عيناً من هذه الناحية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٠-٢٤٢]، وأما خوف الموت فليعلم أن الذي يطلب الموت قد توهب له الحياة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ

(١) النبا العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ٢١٠

أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وأما خوف الهزيمة فإن النصر بيد الله ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

● هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين بعد أن زودت أرواحهم بزيادة التقوى وعدة الصلاة كقوة معنوية على العدو وعدة من عدد النصر (واستعينوا بالصبر والصلاة).. هكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل لتلقي الأوامر العليا ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٤-٢٤٥] ثم تفصل لهم العبر التاريخية والتي تثبت أقدامهم حين البأس والتي تزيدهم أملاً في النصر^(١).

● وهكذا تفوح رائحة المعركة في ثنايا سورة البقرة وتستمر حتى آخر آياتها بدعاء المؤمنين بالنصر على الكافرين ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لذلك ليس من الغريب أن يتنادى المسلمون في المعارك: "يا أصحاب سورة البقرة" للتحفيز والتثبيت كما كان في حنين واليمامة.

ثالثاً: جهاد بنو إسرائيل لإقامة دولتهم.. طالوت وجالوت

● تمهيد: الله عز وجل هو واهب الحياة وواهب المال

- تعرض الآيات قبل سردها لقصة طالوت وجالوت تجربة مختصرة في آية واحدة لفئة أو جماعة خرجت من ديارها فراراً من الموت وهرباً من قدر الله، فأدركهم قدر الله الذي خرجوا حذراً منه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقد روى وكيع بن الجراح عن ابن عباس قال: "كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأني

(١) النبا العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ٢١١: ٢١٤

أرض ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: (موتوا) فماتوا فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، والعبرة هنا للأمة المسلمة أن من يظن أن الموت في الجهاد، وأن الحياة في الفرار منه والتخلي عنه، والجبن في الخروج إليه فهو واهم، فالإماتة والإحياء بيد الله وحده ومشيتته القاهرة وإرادته النافذة، ففي مشهد (ألم تر) واستعراض حشود الألوفا المؤلفة وهلعها من الموت في لحظة واحدة قال لهم الله كلمة واحدة: (موتوا) ذهب هذا التجمع وهذا الحذر إنما القدرة المالكة زمام الموت (ثم أحيها) إنه وحده المتصرف في زمام الحياة وكافة شؤون مملكته، وهو الذي يحي ويميت وحده لذلك (وقاتلوا في سبيل الله) أي انطلقوا للقتال في سبيل الله ولا تقعدوا عنه تخاذلاً وجبناً من الموت أو حرصاً وجباً للحياة، بل قاتلوا في سبيل الله لدفع الفساد والكفر وقتال الطواغيت الذين ينازعون ملك وسلطان صاحب الملك والسلطان في الأرض انطلقوا لترفعوا راية التوحيد التي جاء بها الرسل جميعاً.. قدموا الأرواح فالأنفاس معدودة وقدموا الأموال فالأرزاق مقدره ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. فالحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء، والمال لا يذهب بالإنفاق بل هو قرض حسن لله يضاعف عنده أضعافاً كثيرة، ولا جهاد بدون بذل الأموال والأنفس، والله يحي الروح ويميت وحده، والله يقبض المال ويبسطه وحده ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] سيأتي بعد هذا التمهيد قصة جهاد بني إسرائيل لإقامة دولتهم الكبرى ثم آيات الله في الإحياء والإماتة وبيان قدرته سبحانه وتعالى كما في قصة إبراهيم عليه السلام.

● إنه ملك الملوك واهب الحياة وواهب المال فلا تتخاذلوا عن الجهاد في سبيله أو تنكثوا عنه ولا تضنوا بأموالكم التي رزقكم إياها.

● والآن إلى هذه القصة الموحية عميقة الدروس والدلالة قصة جهاد بني إسرائيل مع ملكهم طالوت ولكن أو الحديث قد انقطع عن بني إسرائيل منذ قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] أكثر من مائة آية باستثناء ﴿سَلِّبْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] والآيات تحدثنا

عن: أمة الإسلام وقيام الدولة المسلمة ودعائمها ونظام الدين وبنیان التشريع، ما الحاجة للرجوع إلى الأمة المستخلفة الأولى؟ لأن الحديث هنا عن دولة الإسلام وبنیانها كان لا بد أن نستقي تجربة قيام دولة إسرائيل الكبرى في الأرض في مملكة داود عليه السلام وأنها أقيمت بعد ضياع مقدساتهم وذلمهم من أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأبناءهم بعدما ذاقوا الويل، بسبب انحرافهم عن الحق وعن اتباع هدى ربهم وتعاليم نبيهم موسى عليه السلام، وتجربة فشلهم في قيام دولتهم في عهد النبوة الكبرى فتاهوا في الأرض وتشرّدوا طويلاً تحت أقدام المتسلطين حتى استيقظت في قلوبهم العقيدة واشتاقوا إلى الطريق والسبيل الأوحّد لإقامة دولتهم المسلمة وهو طريق العزة والكرامة.. القتال في سبيل الله ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] وعرض القصة في ستة آيات (من الآية ٢٤٦: الآية ٢٥١) وفيها الكواليس السابقة للمعركة ثم عرض المعركة الحاسمة ثم ختامها بسنة الله عز وجل الشرعية في تدافع الباطل بالحق وتدافع الكفر بالإيمان... فإلى أهم الدروس والعبر للجماعة المسلمة في كل جيل والساعية لإقامة دولة الإسلام المسلمة:

١. ترك طريق الجهاد يعني العيش في ذل وهوان: أورد المفسرون كما ذكر ابن النحاس في المشارع: "أن ملأ من بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام تركوا الجهاد وأعرضوا عنه فتغلب عليهم العمالقة من قوم جالوت وكانوا يسكنون بين مصر وفلسطين فقتلوا من رجالهم وسبوا ذراريهم واستولوا على كثير من بلادهم فسألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يجاهدون معه"^(١). ولا سبيل لإنهاء حياة الذل والهوان إلا بالرجوع إلى الجهاد لإقامة الدين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(٢). والعينة: نوع من البيع بغير ثمن الشراء أشبه بالربا.

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ابن النحاس ص ٥٤٦

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٣ / ٧) رقم (٤٨٢٥) وقال الشيخ أحمد شاکر: إسناده صحيح

٢. المعركة مع أعداء الدين معركة عقيدة: طلب الملأ من بني إسرائيل وهم ذوو الرأي والمكانة فيهم من نبيهم في ذلك الزمان أن يختار لهم ملكاً يقودهم في معركتهم في سبيل الله، ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] لقد استيقظت العقيدة في قلوبهم وانتفضت ليتحركوا في سبيل الله، لا في سبيل غاية أخرى، وتحت راية الله لا تحت راية أخرى، وهذا تحديد منهم لطبيعة القتال، كما يقول أ. سيد قطب: "أنهم أهل دين وعقيدة وحق وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله" (١) وقد ذكروا في دعائهم أثناء النزال أن أعداءهم من الكافرين ﴿قَالُوا رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] إذن فالمعركة مع الكفر معركة عقيدة، وليست معركة سياسية أو اقتصادية، كما أن إحياء العقيدة في نفوس الأمة هو السبيل لإزكاء روح الجهاد في سبيل الله للانطلاق وعودة الحق المعتصب والدولة الضائعة من أعداء الله وأعداء دينه، والطريق واحدة وهي القتال، والغاية في سبيل الله.

٣. القتال فريضة لا سبيل عنه لدفع الفساد في الأرض عنه: سألم نبيهم ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦] أراد أن يستوثق من صدق عزمهم وثبات نيتهم وتصميمهم على النهوض بالعبء الثقيل، فأنتم الآن في سعة من الأمر فأما إذا استجبت لكم فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها، وهم قد أقرروا حينها أن أعداءهم قد أفسدوا في الأرض وأخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم فقتلهم صار واجباً.

٤. الجهاد ليس بالشعارات والدعاوى ولا ينهض له إلا الصادقون: حماسة بنو إسرائيل وكثرة كلامهم عن استعدادهم للجهاد وشوقهم للخروج في سبيل الله في ساعة الرخاء غير حقيقية الأمر لما صار واقعاً ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦] إن رجل القول غير رجل العمل، وأنه لا ينهض إلى الجهاد إلا أصحاب التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد، العميقة التأثير، الصادقين، بينما الناكثون هم الظالمون لأنفسهم وظالمون للحق الذي

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

خذلوه وهم يعرفون أنه الحق ثم يتخلون عنه والله عليهم بهم فهو الخبير بصدق النفوس والسرائر حتى لو بدت الحماسة في الظاهر والعلانية.

٥. اتباع من اختاره الله لحمل راية الجهاد دون النظر لاسمه أو تاريخه: لقد كان مطلب بني إسرائيل ملكًا يقاتلون تحت لوائه وقالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا في سبيل الله، فكيف يجادلون في اختيار الله لمن يقودهم؟ أليست الغاية في سبيل الله وإرجاع الحق المغتصب؟ لماذا يستنكرون أن يحمل الراية قائدًا من سبط ليس له وزن مادي معروف ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. والمعايير المادية هي نظرة (أصحاب) الدنيا لمن يحمل الحق كما سيأتي بالتفصيل في سورة الزخرف بإذن الله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، أما المعايير الربانية كحمل راية الجهاد فهي مختلفة ومنها: العلم والقوة - أولي الأيدي والأبصار - ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] لذلك فأصحاب الحسابات الدنيوية يبهتهم رؤية الآيات الخارقة التي تهرز قلوبهم ﴿وَقَالَ هُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

٦. التخلي عن الدنيا ومتاعها الزائل شرط للخروج للجهاد: لما هموا بالخروج قال لهم طالوت: لا حاجة لي في كل ما أرى، فلا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه، ولا رجل تزوج بامرأة لم يدخل بها، ولا من له أو عليه دين، ولا كبير ولا عليل، فخرج معه على شرطه ثمانون ألفًا وقيل: تسعون ألفًا^(١). فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود الذين صدقوا بعدما تولى الكثير منهم لما كتب عليهم القتال: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

٧. اختبار صدق الإرادة والانضباط ضرورة لاستبعاد أصحاب الوهن والهزيمة: وطالوت القائد مُقَدِّمٌ على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة لم تعناد القتال فعرفت الذل والهزيمة، وهو يواجه جيش أمة غالبية، فلا بد له من اختبار إرادة الجنود وصدقها في التحكم في النزوات والشهوات

(١) ذكره وهب بن منبه في مشارع الأشواق لابن النحاس، ص ٥٤٦

وهل لديهم قوة التحمل والصمود أمام المشاق والحرمات وتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء وللقائد أن يختبر صمود جنوده وصبرهم أمام الشهوات، ثم أمام المتاعب فالمطلوب للمعركة رجال عقيدة تخلوا عن الدنيا ومقاتلين أولي بأس شديد، وكما تقول الروايات أن مسيرهم كان في حر شديد، فشكوا إليه قلة الماء وخافوا العطش فصحت فراسته فهو القائد الرباني الذي اصطفاه الله عز وجل لهذه المعركة الفاصلة، فانفصل عنه أغلب الجيش الزاحف لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وهذا دليل على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي في الحروب ولا بد من التجربة العملية قبل الدخول في المعركة.

٨. سنن الدعوات: أهل الحق لا يتكافئون مادياً مع أهل الباطل: صار مع طالوت في أرض المعركة القلة القليلة التي جاوزت النهر وقيل هم ثلاث مائة وثلاث عشر رجلاً كما روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال: "كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوزه معه (إلا مؤمن)"^(١). فلما نظروا إلى جالوت وجنوده وكان أمير العمالقة وملكهم وكان في تسعين ألفاً كلهم شاكوا السلاح^(٢) ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] إن الحسابات المادية تقول: أنه لا تكافئ مطلقاً بين الجيشين في آية حروب في التاريخ، ولكن السنن الربانية في الدعوات تقول: أن المؤمنين المخلصين المؤهلين بالإمكانات المادية المستطاعة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَعَدُّوا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. هؤلاء المؤمنون لن تصل إمكاناتهم المادية أبداً - العدة والعتاد - إلى نفس إمكانات عدوهم، والذي سيتفوق عليهم مادياً ولكن سيجبر الله عز وجل هذا الفارق المادي والعسكري بتأييده الإلهي وذلك لتفوقهم الرباني والإيماني على عدوهم ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

(١) صحيح: البخاري عن البراء (٨/ ٢٢٨ فتح)

(٢) شاكوا السلاح أي: أصحاب شوكة وحد في سلاحهم

إذن اتصال هؤلاء المؤمنين بمصدر القوى القاهر فوق عباده، محطم الجبارين ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين، يمنحهم قوة تجبر كسرهم وضعفهم... وهذا داود عليه السلام وكان فتى صغيراً من بني إسرائيل قام برمي جالوت بثلاثة أحجار من مقلاعه، ليصيب جالوت ذلك العملاق المتترس بالدروع الحديدية كما وصفه الزمخشري في الكشاف: "كانت بيضة جالوت التي على رأسه ثلاث مائة رطل"^(١). ورغم ذلك أصابته حجارة داود فسقط قتيلاً بإذن الله ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٩. العائشون بالله المشتاقون لرؤيته هم الثابتون في المعارك:

لا يثبت في اللحظة الخارجة في المعركة ولا يصمد فيها إلا من اكتمل إيمانهم واتصلت بالله قلوبهم وأصبحت لهم موازين غير تلك الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم، وهؤلاء هم: (الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) فامتألت موازينهم بالإيمان برهم.. إيمان بالغيب تلك الصفة الأولى للمتقين كما جاءت في أول سورة البقرة.. فتيقنوا بها أن الأمور كلها يجريها ملك الملوك وحده لا شريك له.. وهؤلاء الذين يتوجهون إلى الله عز وجل في أحلك اللحظات وسط الأهوال الرهيبة في قلب المعركة فيرفعون أكف الضراعة لربهم مستغيثين به ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وهؤلاء هم سبب تثبيت باقي الجيش بتحقيق موعود الله الحق مع تذكيرهم للجنود وربطهم بالله وليس بالأسباب، إنهم المشتاقون لرؤية ربهم وجواره سبحانه وتعالى في دار كرامته ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

● وهكذا تنتهي المعركة بالنتيجة التي استيقنوها (فهزمهم بإذن الله) وكما يقول الشيخ سيد قطب: "ويؤكد النص هذه الحقيقة "بإذن الله" ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علماً، وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجر به أن المؤمنين ستار القدرة يفعل الله بهم ما يريد وينفذ بهم ما يختار بإذنه وليس لهم من الأمر شيء ولا حول لهم ولا قوة ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته فيكون منهم ما يريد بإذنه، وهي حقيقة خلقية بأن تملأ قلب المؤمن

(١) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل ١/ ٢٧٦

بالطمأنينة واليقين.. إنه عبد الله اختاره الله لدوره وهذه منة من الله وفضل، وهو يؤدي هذا الدور المختار ويحقق قدر الله النافذ ثم يكرمه الله بعد كرامة الاختيار بفضل الثواب ولولا فضل الله ما فعل ولولا فضل الله ما أتيب^(١)... وهؤلاء هم طليعة المؤمنين الأمناء على دفع الكفر بالإيمان ودفع الفساد بالصلاح.

رابعاً: بصائر.. سنة التدافع

• وبعد ذكر نموذج الصراع بين الحق متمثلاً في طالوت وجنوده المؤمنين وبين الباطل متمثلاً في جالوت واتباعه قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

— إن الله عز وجل قد أودع كونه قوانين وسنن تضمن استقراره واستمراره وجعل المسببات مرتبطة بالأسباب وفق إرادته ومشيتته، وهكذا اقتضت حكمته بتوجيه عباده بمراعاة هذه السنن، وعدم تجاوزها أو يأتون في زمان ويظنون أنهم خلاف هذه السنن أو فوقها أو أنها يمكن أن تحيبيهم.

— ومن هذه السنن الشرعية التي قررتها سورة البقرة: سنة التدافع، فالمؤمنين في كل وقت مكلفين بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض ودفع الشر بالخير.. ودفع الفساد بالصلاح.. وعليهم أن يعلموا أن سبب الشر والفساد هو: ظهور الشرك وغلبيته، وأن هؤلاء المؤمنين مكلفين من الله عز وجل لدفع هذا الشرك بالتوحيد وذلك بأيديهم، وهم تحت مشيئة الله وقدرته.

— إن الله عز وجل قادر على دفع الفساد في الأرض، وقادر مقتدر على إزالة الكفر والشرك من الأرض، لا يحتاج سبحانه وتعالى - حاشاه - لا يحتاج إلى بشر ولا يحتاج إلى ملائكة ولا إلى أي مخلوق ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤].

إنه مالك الملوك القوي العزيز ولكنه عز جاه وجل ثناؤه أراد أن يكون هذا الدفع بأيدي عباده المؤمنين الصادقين قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

— إن التدخل الإلهي لإهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين بنزول عذاب الاستئصال من خسف أو ريح أو صيحة أو إغراق للكافرين كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وعذاب الاستئصال كانت سنة الله في الأرض قبل إقراره سبحانه وتعالى لسنة التدافع، والتي وجب بعد إقرارها على المؤمنين أن يتصدوا لأهل الباطل.. إن الفساد في الأرض وسفك الدماء بسبب ظهور الكفر والشرك ومن ثم على المؤمنين التصدي لهما لإحقاق الحق وإبطال الباطل (انظر لعرض سورة الأنفال بعد سورة الأعراف في المنهج الحركي للقرآن بإذن الله، وكذلك لعرض سورة محمد بعد سورة الأحقاف للتأكد من انتهاء عذاب الاستئصال في الأمم السابقة بإقرار الجهاد).

— إن الإسلام لا بد له أن ينطلق سواء تحركت الجاهلية أم لم تتحرك لأن حركة الإسلام حركة ذاتية وفقاً لقانون التدافع والذي يقر أن الشأن الدائم في الأرض أنه لا تعايش بين الكفر والإيمان.. لا تعايش بين الحق والباطل في هذه الأرض.. هذا هو الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع المؤمنون الفساد عن الأرض ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَادَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

— إذن الإسلام لا يقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود إنما ينطلق ليدفع عن الإنسان في الأرض ذلك السلطان الغاصب من الكفر والشرك فيطهر الأرض منهما، ومن الفساد المصاحب لهما، وهكذا تصير الأرض إما إسلام وإما جاهلية.. والإسلام لا يقبل أنصاف الحلول لأن دوره دفع الجاهلية وإقصاؤها من قيادة البشرية، وتولي هذه القيادة على المنهج الإلهي القويم الخاص، المستقل الملامح، الأصيل الخصائص قيادة رشيدة يراد بها الخير للبشرية بردها إلى خالقها لتخرج من الظلمات إلى النور^(١)، وبذلك تصبح سنة التدافع فضل الله على العالمين وإنعام على البشرية كلها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] لذلك لو توقف الجهاد والدفع لفسدت الأرض واستقر الكفر وفتن الناس به.

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ١٥١

- وسنة التدافع تقتضي: امتلاك القوة المطلوبة لدفع الكفر والشرك فقيام دولة إسرائيل الكبرى كما في آيات طالوت وجالوت لم تتم إلا من خلال الجهاد، ووفقاً لقانون التدافع وهو السنة الشرعية، وهو ما يتناغم مع السنن الكونية في قيام الدول أياً كانت مسلمة أو كافرة.. فالدول شيء وجودي واحد جامع للبشر جميعاً فقيام الدولة يتطلب القوة المادية، ولكن الدولة المسلمة بالتحديد تتطلب مع القوة المادية وجود الجانب الرباني والإيماني بالمستوى الذي يريده الله عز وجل، وهو الأصل لها ولكنها لا يجوز لها إهمال سنة امتلاك القوة.. فالدنيا دار سنن لا يجوز تركها أو معارضتها تحت دعوى الاهتمام بالعبادة.. السنن الإلهية لا تحايي أحداً.

- إن الله عز وجل من رحمته وفضله بالمؤمنين أنه لم يطلب منهم فوق استطاعتهم من الأسباب ولكن فعل أقصى الاستطاعة والإمكانات ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] وما يزيد على استطاعتهم يتكفل الله تعالى به وبتأييده اللامحدود، إن الله عز وجل بيده نتيجة المعركة وبيده حسمها.. وما على المؤمنين إلا امتلاك القدرة والجاهزية مع تمام التوكل وحسن الاستعانة على ربهم.

خامساً: آية الكرسي - توحيد الله في مملكته

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فضل آية الكرسي - أعظم آية في كتاب الله

• عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله، "أي آية في كتاب الله أعظم؟" قال: الله ورسوله أعلم فرددها مراراً ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: "ليهنك العلم أبا المنذر والذي نفسي بيده إن لها لسائناً وشفقتين تقديس الملك عند ساق العرش"^(١) ليهنك العلم: أي هنيئاً لك العلم.

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده (٥ / ١٤١ / ١٤٢ حلي) وصحيح مسلم (١ / ٢٢٣)

- وبمقارنتها بفاتحة الكتاب أفضل سورة في القرآن الكريم كما قال النبي (ﷺ): أفضل القرآن: (الحمد لله رب العالمين)^(١). يقول أبو حامد الغزالي: "وإنما قال في الفاتحة أفضل وفي آية الكرسي سيده، لأن الجامع بين فنون الفضل وأنواعه يسمى أفضل إذ الفضل: الزيادة والأفضل هو الأزيد، والسؤدد: رسوخ في معنى الشرف الذي يقتضي الاستتباع وبأبي التبعية، فالفاتحة تتضمن التنبيه على معانٍ كثيرة ومعارف مختلفة فكانت أفضل، وآية الكرسي تشمل على المعرفة العظيمة المتنوعة التي يتبعها سائر المعارف فاسم السيادة بها أليق"^(٢).
- ومن أسباب عظمتها اشتغالها على اسم الله الأعظم كما جاء عن أسماء بنت يزيد ابن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. و﴿الْم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١٢]^(٣).
- وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله (ﷺ): «من قرأ آية الكرسي دُبُر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»^(٤).

تسميتها بآية الكرسي ودلالاتها

- الكرسي: خلق من خلق الله يقع بين يدي العرش وعنه ﷻ أنه قال: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»^(٥).
- أما العرش فخلق عظيم جدًا أعظم من الكرسي بكثير كما دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لذا لما نزلت آية الكرسي تعجّب الصحابة غاية العجب، فعن الربيع بن أنس رضى الله عنه قال: لما نزلت: (وسع كرسيه السموات والأرض) قالوا: يا رسول الله! هذا الكرسي هكذا فكيف العرش؟! فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]^(٦) ففي الحديث أن

(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم (١١٢٥)

(٢) فيض القدير (٢/ ٤٦)

(٣) حسن صحيح: رواه الترمذي (٤/ ٢٥٣)

(٤) صحيح: رواه النسائي في صحيح الجامع رقم: ٦٤٦٤

(٥) السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٩

(٦) الدر المنثور (٧/ ٢٤٦)

أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمئة عام، ويقول الدكتور خالد أبو شادي في عظمة الكرسي والعرش: "المقصود هو أن تستشعر عظمة الله من خلال التعرف على عظمة بعض مخلوقاته والتعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تدل على أنه وسعهما بالفعل، بعكس صيغة المضارع التي تعني إخباراً ليس بالضرورة أن يكون قد حصل"، ثم يقول في هدف آية الكرسي: "وعلى الرغم من أن عدد كلمات آية الكرسي خمسون كلمة وجملها تسع جمل فحسب لكنها اشتملت على ثمانية عشر اسماً لله تعالى ما بين ظاهر ومضمر وكل جملة من جملها تغرس التعظيم والإجلال لله رب العالمين وهو هدف الآية الأسمى على الإجمال"^(١).

- ودلالة (الكرسي) والله أعلم هو: أنه دليل مُلْكٍ عظيم لا يستوعب عظمته مخلوق، ودليل وجود ملكوت ومملكة لها مالك واحد ولها سلطان واحد وحاكم مهيم على كل شيء فيها وكل ما فيها يخضع لقهرة وسلطانه، وانظر لقوله ﷻ أن آية الكرسي: (لها لساناً وشفتين تقديس المَلِكِ عند ساق العرش)، إننا أمام أعظم آية في القرآن لأنها تشتمل على كل أنواع التوحيد ومعانيه، كما أنها تحتوي على وصف شامل لمقتضيات المُلْك، وما يستتبعه من إثبات العبادة لله وحده وإثبات أنه مالك جميع الممالك وجميع ما في السماوات والأرض عبيد لله ممالك له، لا شريك في عبادته، ولا شريك له في مُلْكِهِ.

مقتضيات توحيد الله في مملكته

- جمعت آية الكرسي جميع أنواع التوحيد: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ثم اشتملت على مقتضيات هذا التوحيد في مُلْكِهِ سبحانه وتعالى.
- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: الله الذي له جميع معاني الألوهية المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق فلا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فالوهية غيره وعبادة غيره باطلة، وكل معبود أو متبوع أو مطاع سواه فهو باطل، وهذا هو توحيد الألوهية وهذه هي أركان شهادة التوحيد: (١) النفي: إلغاء جميع الآلهة والكفر بها وعدم الاعتراف بها. (٢) الإثبات: إثبات الألوهية لله وحده لا

(١) ليلي بين الجنة والنار، خالد أبو شادي، الجزء الأول، ص ١١١

شريك له، ومن صفات الإلهية: الدين والشرع والأمر والنهي والسلطان والحاكمية فلا معبود إلا الله ولا مُطاع إلا الله ولا حاكم إلا الله.

• ﴿الْحَيُّ﴾: الذي له جميع معاني الحياة الكاملة من السمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها، والذي لم يسبق وجوده عدم ولم يلحق بقاءه فناء و(الحي) تدخل فيها معاني جميع الأسماء والصفات وبالتالي فيها توحيد (الأسماء والصفات).

• ﴿الْقَيُّومُ﴾: القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، والقائم بتدبير أمور الخلق من إيجادهم ورزقهم وتحديد آجالهم وأعمالهم، ولا قيام لأي موجود إلا به سبحانه وتعالى، فالقيومية هنا تدخل فيها جميع صفات الأفعال من العطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة والتفرد بالضر والنفع وتدبير أمور الخليقة ففيها توحيد (الربوبية).

— ومن مقتضيات توحيد الله في مملكته: أنه المطاع وحده وأن له الأمر والنهي والسلطان والحاكمية وحده كما في قوله (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وأنه الحي له الكمال في الحياة يفيض على كل خلقه بالحياة وكل من عداه يموتون مقهورون جميعاً وأن جميع مخلوقاته عاجزون مفتقرون إليه كما في قوله ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

— ومن مقتضيات توحيد الله في مملكته: أن لا سلطان لأحد عليه حاشاه فالنوم سلطان وأي خلق لو نام كان مغلوباً على أمره مقهور لأن النوم غلب النائم وقهره ومن تمام قيوميته على جميع خلقه وقيام كل خلقه به أنه لا يعتريه غفلة ولو لحظة واحدة كما في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

— ومن مقتضيات توحيد الله في مملكته: أن جميع ما في السموات والأرض عبيد له، ممالك لا يخرج أحد عن سلطانه وتحت قهره، فهو المالك لجميع الممالك وله صفات الملك والتصرف والكبرياء كما في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

— ومن مقتضيات توحيد الله في مملكته: أنه لا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه فكل الشفعاء عبيد له ممالك عنده، لا يقدمون على شفاعته حتى يأذن لهم قال تعالى:

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

والله لا يأذن لأحد أن يشفع عنده إلا من أراد الله فيمن ارتضى، ولا يرضى إلا توحيدَه
واتباع رسله كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

— ومن مقتضيات توحيد الله في مملكته: علمه الواسع المحيط بكل ما يدور في مملكته، فيعلم ما بين أيدي ممالكه من الأمور المستقبلية التي لا نهاية لها، وما خلفهم من الأمور الماضية التي لا حد لها فلا تخفى عليه خافية لقوله تعالى: ﴿بِعَلْمِ خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وإن خلقه لا يحيطون بشيء من علمه إلا ما شاء وأطلعهم عليه وهو جزء يسير مضمحل في جانب علمه لقوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

— ومن مقتضيات توحيد الله في مملكته: أنه له عرش، وله كرسي، وكرسيه وسع السموات والأرض، وأنه قد حفظ السموات والأرض ومن فيهن من العوالم بالناموس العام الذي قدره ولا يستطيع أن يتخلف عنه شيء لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] كما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

— ومن مقتضيات توحيد الله في مملكته: تفرد سبحانه بالعلو والعظمة في ذاته وصفاته لا يشاركه فيها أحد، ذلت لعظمته الرقاب وخضعت لجبروته الصعاب ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

• وبذلك جاءت آية الكرسي بإثبات الملكية الشاملة والملكية المطلقة لله عز وجل وحده لا شريك له والله عز وجل مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

— فالله عز وجل هو مالك الملك وحده لا شريك له، والبشر مستخلفون من المالك الواحد الذي يملك كل شيء لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ومن ثم وجب أن يخضع المماليك في خلافتهم لشروط المالك المستخلف فهو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء فهو مالك الملك على الحقيقة والمخلوقات ليس لها من الملك شيء..

بل كل ما في أيديهم مُعار لهم لأمد محدود على سبيل الاختبار قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فمن موجبات توحيد الله في مملكته:

(١) إثبات العبادة له وحده فلا معبود غيره ولا تنبغي العبادة إلا له سبحانه وتعالى فهو مالك السموات والأرض ومن فيهن بغير شريك لأن المملوك طوع يد مالكة وليس له خدمة غيره إلا بأمره^(١).

(٢) إثبات الحاكمية له وحده فلا حاكم غيره سبحانه وتعالى في ملكه وهو المتصرف وحده في خلقه وهو السيد الذي له وحده السيادة، وله وحده حق الطاعة والأمر والنهي والسلطان وهو الذي وضع نظامًا يسير له حركة الكون في مملكته ووضع نظامًا يسير به حياة البشر أيضًا فلا ينازعه سلطان أحد من ممالكه.

القرآن جاء ليثبت توحيد الله في مملكته

— جاء القرآن الكريم ليقرر ويثبت توحيد الله عز وجل في مملكته، فقرر القرآن: كما أن الله عز وجل له الخلق، فهذا يقتضي أن يكون له الأمر أيضًا.

فهو الذي خلق وهو الذي يأمر وينهى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].. والأمر والنهي حق للمتصرف في شئون ممالكه.

• والمُلك هو: الاستبداد بالشيء والتصرف فيه، قال في لسان العرب: "المَلِكُ هو الله تعالى وتقدس، ملك الملوك، وله الملك، وهو ملك الخلق وربهم"، ومعلوم أنه لا ينازع الله في ذلك إلا

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية

ملوك الأرض، وجاءت آيات القرآن تبطل دعوى هؤلاء الملوك، وتكشف بطلانها، وتقرر وحدانية الله عز وجل في ملكه ومملكته مثل قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

فهو سبحانه ﷻ الملك الحق، وكل ملك سواه هو ملك بالباطل، وقد أكد ذلك بقوله (رب العرش العظيم)، لبيان بطلان العروش الزائفة لملوك الأرض الذين ينازعون الله في ذلك بالباطل، قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢].

— لذلك توعد الله عز وجل من يدعون منازعة الله في كبريائه، وجبروته وملكه كما في الحديث الصحيح قال تعالى: "الكبرياء ردائي، والعزة إزاري، فمن نازعني فيهما أدخلته النار، وفي لفظ: "العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبتة"^(١). وجاء في الحديث: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»^(٢).

- وملوك الأرض ينازعون الله في مملكته، فيدعون أنهم يضررون وينفعون وأن لهم السلطان وحدهم.
- إن هؤلاء الطواغيت فرضوا طاعتهم على الخلق، ونازعوا الله في كبريائه وجبروته، وادعوا حق السيادة عليهم بأن لا يرد أحد أمرهم، ولا يستدرك عليهم قولهم^(٣)، ثم قاموا بالتشريع من دون الله وقهروا الخلق على الخضوع لقوانينهم وشرعهم فقال الله عز وجل في شأنهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

- وقد جاءت آية (الكرسي) وهي أعظم آية في كتاب الله عز وجل لتقرر وتثبت تفرد الله عز وجل بالملك فهو ملك الملك وحده لا شريك له، وقررت ذلك من خلال ذكرها مقتضيات توحيد الله في مملكته، ثم جاء موقع آية الكرسي بين نماذج أعطاه الله عز وجل الملك لتقييم الحق والعدل في الأرض،

(١) صحيح: البخاري، ومسلم (ح ٢٦٢٠)

(٢) صحيح: البخاري (ح ٧٣٨٢)، ومسلم (ح ٢٧٨٧)

(٣) تحرير الإنسان وتجريد الطغيان، حاكم المطيري، ص ٦٧

- مثل طالوت الذي أتاه الله الملك ليجاهد في سبيل الله ببني إسرائيل ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ومثل داود عليه السلام الذي أتاه الله الملك بعد جهاده في سبيل الله وإزالته مملكة جالوت ذلك العملاق الطاغية الذي نازع الله في ملكه ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

• ثم جاء بعد آية الكرسي نموذج لطاغوت ينازع الله في ملكه وادعى بالباطل أنه يحي ويميت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ثم جاءت الآيات بعده تثبت أن الإحياء والإماتة بيد ملك الملك وحده لا شريك له.

تناسب آية الكرسي مع الآيات بعدها

• وبعد إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والحاكمية وبعد تقرير عقيدة التوحيد (لا إله إلا الله) نجد أن ما أثبتته آية الكرسي هو الركن الثاني لشهادة (لا إله إلا الله) كما يقول العلماء وهو: إثبات الإيمان بالله وأن الله عز وجل هو الإله المعبود وهو الحاكم الأمر وهو مالك الملك وبقي الركن الأول لشهادة (لا إله إلا الله) وهو: نفي جميع الآلهة وعدم الاعتراف بأي آلهة، وهو ما سماه القرآن الكريم: (الطاغوت) فجاءت الآيات بعد آية الكرسي تدعوننا للكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله ليكتمل ركننا شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهذا هو دين الإسلام الواضح براهينه، الجلي دلائله، فلا يحتاج بعد ذلك البيان أن يكره أحد على الدخول فيه (قد تبين الرشد من الغي) ومن استمسك به بجميع أركانه فقد استمسك بالدين الحق والعروة القوية المحكمة التي لا تنفك أبدًا.

سأسأ: إزالة سلطان الطواغيت المنازعين لسلطان الله في مملكته

• ولكن ما هو الطاغوت؟ وكيف نكفر به؟

- الطاغوت في اللغة: من الطغيان أي: مجاوزة الحد، تجاوز الشيء حده: أي طغى.

- الطاغوت اصطلاحاً: أشمل تعريف ما جاء به ابن القيم وهو: "الطاغوت هو كل ما تجاوز به العبدُ

حده من معبود أو متبوع أو مطاع، وطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله (صلى

الله عليه وسلم)"^(١)، إذن إذا تجاوز الإنسان حد العبودية في معبود أو متبوع أو مطاع فذلك

المعبود أو المتبوع أو المطاع اسمه: طاغوت سواء أكان بشراً أو قانوناً أو عرفاً يتحاكم إليه يعبدونه

من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله.

- ولكن هل الطاغوت صنف واحد؟

وما هي أصناف الطواغيت التي تعبد من دون الله أو تتبع فيما يخالف توحيد الله تبارك وتعالى؟

والحقيقة أن هناك أصناف للطواغيت رئيسية منها:

- الصنف الأول: الشيطان.

الشيطان يطاع من دون الله، لذا يعتبر طاغوت:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)

وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

الصنف الثاني: الحاكم المبدل لشرع الله

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَنْ لَمْ

يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، ج ١، ص ٥٠

- لأنه قد تجاوز بذلك حده الذي خلقه الله تعالى له كعبد أمر أن يستسلم لشرعه فأبى وطمى وبدل شرع ربه.

الصف الثالث: المجالس النيابية التشريعية

لأن مهمة هذه المجالس هي سن القوانين الوضعية ووضع التشريعات بديلاً عن شرع الله تبارك وتعالى فبذلك تجاوز حده كعبد يصف التشريع التي لا يجوز أن يوصفها غير الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

- يقول الدكتور محمد علي محبوب في تعريف التشريع الوضعي:

"فهو مجموعة الأوامر والنواهي والقواعد التي يضعها فرد أو جماعة تختارها الأمة بواسطة من له السلطان لتحتكم إليها وتسير على ضوئها في الحياة"^(١).

الصف الرابع: من ادعى الألوهية أو نازع الله في ملكه

- قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]،

- ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ففرعون طاغوت والنمرود طاغوت وكل من على شاكلتهم ممن يدعي الألوهية أو ينازع الله في ملكه وسلطانه أو يدعو الناس إلى عبادته.

(١) كتاب التشريع الإسلامي ونظرياته العامة الجنائية والمدنية - محمد علي محبوب - ص ٢٤

● ولكن كيف نكفر بالطاغوت كما أمرتنا الآية ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾؟

— الكفر بالطاغوت يكون: بالقلب وباللسان وبالجوارح كما أن الإيمان بالله: اعتقاداً بالجنان ونطقاً باللسان وعملاً بالأركان.

(١) كيف أكفر بالطاغوت بقلبي؟

— الاعتقاد ببطان الطاغوت وبطالان عبادته.

— العداوة والبغضاء له.

(٢) كيف أكفر بالطاغوت بقولي؟

— بإظهار كفره.

— وتكفيره باللسان.

— وإظهار البراءة منه ومن دينه ومن اتباعه.

— بيان ما هم عليه من الكفر.

● والدليل قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

(٣) كيف أكفر بالطاغوت بجوارحي؟

— باعتزاله واجتنابه ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ

عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

— بجهاده وجهاد اتباعه عند القدرة والوجوب، وهذا من أصل الإيمان قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا

أَنِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

- وهذا الركن الأول من أركان (لا إله إلا الله) وهو: الكفر بالطاغوت، والركن الثاني من أركان (لا إله إلا الله) هو: الإيمان بالله والذي جاءت بإثباته آية الكرسي وفصلت فيه ببيان:

- توحيد الألوهية.
- توحيد الربوبية.
- توحيد الأسماء والصفات.
- مع إثبات آية الكرسي توحيد الله في مملكته بمعنى أن: الحاكمية والسلطان لمالك الملك وحده لا شريك له ومن مقتضى ذلك ألا يخضع الناس أو ينقادوا إلا لله عز وجل، وألا يتلقى الناس في الأرض الشرائع إلا منه دون سواه، ثم جاءت الآية التالية كما بيئنا تدعو المسلم لكي يكمل إيمانه وأركان توحيده ألا يعترف لأي معتدٍ على سلطان الله منازع ملكه بهذا الإدعاء الباطل، أو يتسلط على رقاب العباد بتعطيله حكم الله، وأنه على المسلم الذي استسلم لله وشرعه أن ينتزع حاكمية البشر والطواغيت من العباد ويرد سلطان الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له وأن يخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.
- ولكن كيف السبيل لإعلان توحيد الله في مملكته؟ وقد صار أغلب الأرض الآن يتحاكمون إلى الطاغوت، وقد عبدوا الشيطان الذي أخرج أبونا من الجنة، وتعهد بإثباتنا عن صراط الله المستقيم، ونجح في غواية الأرض عن عبودية الله وتحكيم شرعه، وانتشرت الجاهلية في الأرض كلها وفسدت الأرض بظهور الكفر واستعلاء الشرك؟.. فلنرجع إلى دلالة موقع آية الكرسي لنحصل بإذن الله على الإجابة الشافية الكافية ولنتنضم إلى باقي الأدلة البينة والحجج الواضحة التي ساقتها سورة البقرة لبيان الطريقة الوحيدة للوصول بالمنهج الإلهي إلى الأرض كافة.

مغزى موقع آية الكرسي درة أي القرآن

- إن آية الكرسي آية جليلة الشأن عميقة الدلالة، فهي درة أي القرآن، فهل توضع في المصحف في أي مكان؟ معاذ الله.. إن نظم آيات القرآن وسوره جاء في ترتيب محكم متماسك وخط متصل ومترابط، فجاءت أعظم آية في القرآن بعد جهاد بني إسرائيل لإقامة دولتهم الكبرى بعد

انتفاضة العقيدة في نفوسهم، ثم إقرار سنة التدافع لدفع الكفر بالإيمان ومنع الفساد في الأرض وإقامة دولة وفق السنن الشرعية، ثم مشيئة الله في اقتتال الأمم التي اختلفت بين الكفر والإيمان، ثم الحث على الإنفاق وبذل الأموال لقتال الكفار والجهاد في سبيل الله، ثم جاءت آية الكرسي لتقرر الألوهية لله وحده والحاكمية لله وحده والتشريع لله وحده لأنه هو صاحب السلطان ومالك الملك وجميع العباد ممالك عنده، ثم بينت الآيات التالية لها أن إثبات توحيد الله في مملكته يستلزم الكفر بالطاغوت كي تكتمل أركان هذا التوحيد وأن إقراره في الأرض يقتضي طرد هؤلاء الطواغيت من سلطاتهم وأن هذه النتيجة لن تقع إلا بمسبقاتها ومقدماتها وهي: إعمالاً لسنة التدافع التي كتبها الله عز وجل على هذه الأمة المسلمة، كما كتبها على بني إسرائيل قبلها والتي تتطلب البذل والتضحية والإنفاق لتملك الجاهزية المطلوبة لجعل كلمة (لا إله إلا الله) هي العليا في الأرض ولقيام مملكة الله في الأرض وفقاً لمقتضيات توحيده في مملكته والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

● ومن هنا نصل في عرضنا لسورة البقرة عن أهمية الجهاد في سبيل الله وكونه الركيزة الكبرى والأساس الأول بامتياز لإقامة بنيان هذا الدين ونظامه في الأرض، نستخلص في هذه المخططة القادمة بواعث الجهاد ومبرراته، وأصل فلسفته التي شرع من أجلها، على ما جاء في سورة البقرة من حقائق جلية وبصائر نيرة.

سابعاً: بواعث الجهاد ومبرراته

— لم تكن بواعث الجهاد في الإسلام لإكراه أحدًا على الدخول فيه، ولكن لتكفل عدة أهداف تقتضي كلها الجهاد وهذا هو صاحب المعالم والظلال يعلنها مدوية أن بواعث الجهاد مرتبطة بطبيعة الإسلام ذاته وأهدافه العليا، فيقول رحمه الله: "إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول ﷺ بهذه الرسالة وجعله خاتم النبيين، وجعلها خاتمة الرسالات، إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه وربوبيته للعالمين..! إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة

على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ذلك أن الحكم الذي مرّد الأمر فيه إلى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله.. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب، وردّه إلى الله وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقومون منهم مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مكان العبيد، إن معناه: تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض أو بالتعبير القرآني الكريم:

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

• وقيام مملكة الله في الأرض وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد وردّه إلى الله وحده، وسيادة الشريعة وحدها وإلغاء القوانين البشرية... كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لأن المتسلطين على رقاب العباد والمغتصبين لسلطان الله في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض، وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وتاريخ هذا الدين على مر الأجيال.

— ومن ثم لم يكن بدّ للإسلام أن ينطلق في الأرض لإزالة الواقع المخالف لذلك الإعلان العام إلا بالبيان والحركة مجتمعين، وهذه هي حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف والسنان إلى جانب الجهاد بالبلاغ والبيان، لا بد من إزالة العوائق والسدود التي تعبد الناس لغير الله.. أي تحكّمهم بغير شريعة الله وسلطانه والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى (البيان) واعتناق (العقيدة) بجرية لا يتعرض لها السلطان.. إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته ولكن الإسلام ليس مجرد "عقيدة"، الدين أشمل من العقيدة فالدين نظام عام فيه الدينونة لله رب العالمين، فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الطواغيت كل الطواغيت، حتى يكون النظام الذي يحكم البشر في الأرض قاعدته العبودية لله وحده وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم ليعتق كل فرد في ظل هذا النظام العام ما يعتنقه من عقيدة مع دفعه الجزية، وبهذا يكون الدين

كله لله أي الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله مع تقرير مبدأ: "لا إكراه في الدين" أي لا إكراه على اعتناق العقيدة بعد الخروج من سلطان العبيد والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله فلا يبقى في الأرض إلا مسلم أو مسلم.

• والمد الإسلامي ليس في حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿الدِّينَ أَمَّنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

• الجهاد ليست حالة عارضة لوقوع ظلم أو دفعه فحسب إنه حالة مستمرة دائمة.

• الإسلام ليس مجرد عقيدة حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان إنما هو منهج يتمثل في تجمع حركي يزحف لتحرير كل الناس فيزيل الطواغيت بوصفها معوقات للتحرير العام وهذا معنى أن يكون الدين لله.

• إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداءً فالإسلام ليس نحلة قوم ولا نظام وطن ولكنه منهج إله ونظام عام ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية الإنسان في الاختيار وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة والمفسدة للفطرة المقيدة لحرية الاختيار^(١).

• ومن هنا جاءت سورة البقرة مع بداية كتاب الله لتبين الرشد من الغي.. وها قد تبين الرشد واتضح الطريق.. وبان الحق.. هذا هو الطريق الصحيح والحقيقي لإقامة دين الله إله السموات والأرض وملك السموات والأرض ورب السموات والأرض إنه الجهاد في سبيل الله وهذه هي مبرراته:

١. تقرير ألوهية الله في الأرض في مملكته.

٢. تحقيق منهجه في حياة الناس.

٣. مطاردة الشياطين ومناهجهم.

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٦٠: ٨٠

٤. تحطيم سلطان البشر الذين يتبعون الناس وكل الطواغيت والأرباب التي تتخذ من دون الله.

وهذه المبررات لم تنقضي من الأرض لحظة فالجهاد عبادة ماضية إلى يوم القيامة وهو وظيفة المسلمين ووسيلة تقربهم إلى الله عز وجل لتحكيم شرعه، وإقامة مملكته، ورفع كلمته حتى يكون الدين كله لله.

ثامناً: الحث على بذل الأموال للانطلاق بالجهاد في سبيل الله

● اقترنت آيات الجهاد والقتال في سبيل الله في سورة البقرة، بآيات تحث على بذل المال والإنفاق في سبيل الله، فالمال عصب الجهاد، فيه يتجهز الغازي بالعدة والراحلة، كما أن بذل المال صنو بذل النفس في سبيل الله، فلن يقدم روحه من يضمن بماله في سبيل الله وأيضاً جاء الحث على الإنفاق في سبيل الله كما يقول الشيخ سيد قطب: "وبخاصة في تلك الفترة حيث كان الجهاد تطوعاً والمجاهد ينفق على نفسه وقد يقعد به المال حين لا يقعد به الجهد فلم يكن بد من الحث المستمر على الإنفاق لتيسير الطريق للمجاهدين في سبيل الله^(١).

— قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

— قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

— قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

— قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة البقرة

• روى البخاري وابن أبي حاتم في تفسيره وغيرهما عن حذيفة في قوله تعالى: (وَلَا تُثَقُّوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) قال: يعني بترك النفقة في سبيل الله^(١).

- قال ابن عمر لما نزلت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] قال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي» فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي» فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] رواه ابن حبان في صحيحه^(٢).

• وعن خريم بن فاتك^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق في سبيل الله كتبت بسبع مائة ضعف»^(٤).

• وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] وقد ذكر ابن كثير في تفسيره: "وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة"^(٥)، والله عز وجل يضاعف لمن يشاء أي: بحسب إخلاص العبد في عمله ونفقته، (والله واسع عليم) أي: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق وتفاوت الدرجات بميزان دقيق، والأحاديث كثيرة في الفضل المضاعف للنفقة في سبيل الله وبالأخص إذا جاهد صاحبها وأنفقها في جهاده ومن هذه الأحاديث الشريفة:

(١) صحيح: البخاري في فتح الباري رقم (٤٥١٦)

(٢) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، كتاب الجهاد: ص ٣٩٧

(٣) قال الذهبي: خريم بن فاتك وقيل: خريم بن عمرو بن الفاتك شهد بدرًا مع أخيه سبره قاله البخاري: تجريد أسماء الصحابة: ١/

(٤) صحيح: سنن الترمذي أبواب الجهاد (٣/ ٩٠) والنسائي قال: إسناده صحيح على شرط مسلم كتاب الجهاد (٦/ ٤٩)

(٥) مختصر تفسير ابن كثير - عمدة التفسير - ص ٢٨٥

— عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بفرس يجعل كل خطوة منه أقصى بصره فسار وسار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء المجاهدون^(١) في سبيل الله تضاعف لهم الحسنه بسبع مائة ضعف وما أنفقوا من شيء يخلفه وهو خير الرازقين^(٢).

— وعن أبي مسعود الأنصاري رضى الله عنه قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله فقال رسول الله (ﷺ): «لك بها يوم القيامة سبع مائة ناقة كلها مخطومة» وقوله: "لك بها يوم القيامة سبع مائة ناقة": يحتتمل أن معناه لك بها أجر سبع مائة ناقة، ويحتتمل أن يكون على ظاهره ويكون له بها في الجنة سبع مائة ناقة كل واحدة منهم مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه كما جاء في خيل الجنة قال النووي: "وهذا الاحتمال أظهر والله أعلم".

— روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن الربيع عن خريم رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أنفق نفقة في سبيل الله جعلت في ميزانه كل غداة» وجاء في الحديث أيضاً أن: النفقة إنما تكون بسبع مائة ضعف إذا أرسلها الرجل أو جهز بها من يجاهد وأما من جاهد وأنفقها في جهاده فإنها تكون له عند الله بسبع مائة ألف ضعف^(٣).

— روى ابن ماجه والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب وأبي الدرداء وأبي هريرة كلهم يحدث عن رسول الله (ﷺ): أنه قال: «من أرسل نفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبع مائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم سبع مائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]»^(٤).

— وحديث أبي هريرة رضى الله عنه عنه عن النبي ﷺ قال: من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فُلْ هَلُمَّ، قال أبو بكر: يا رسول الله ذاك الذي لاتوى عليه، فقال النبي

(١) دلالات النبوة: ٢ / ١٤٣ وفيها: المهاجرون في سبيل الله.

(٢) صحيح: مسلم في كتاب الإمارة رقم (١٨٩٢)

(٣) سنده: صحيح على شرط مسلم وفي مصنف ابن أبي شيبة: ٥ / ٣١٨.

(٤) رواه ابن ماجه كتاب الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله: ٢ / ٩٢٢

(ﷺ): «إني لأرجو أن تكون منهم»^(١) وهذه رواية البخاري وفي رواية لأحمد صحيحة قال رسول الله (ﷺ): «ما نفعني مال قط إلا مال أبي بكر قال فبكى أبو بكر رضى الله عنه وقال: وهل نفعني الله إلا بك وهل نفعني الله إلا بك»، وكلمة (من أنفق زوجين): أي اثنين متشابهين أو صنفين من أي شيء مثل: بعيرين شاتين حمارين درهمين، فُلُّ: نداء يا فلان ويا فلانة، هَلُمَّ: أي تعال، لا توى عليه: أي لا بأس عليه أن يدخل الجنة من باب ويترك آخر.

- وقد روي عن كعب أنه قال: "دخل الجنة رجل في إبرة أعارها في سبيل الله ودخلت امرأة الجنة في مسلة أعانت بها في سبيل الله". والمسلة: بكسر الميم هي المخيط الضخم، ومازال السلف الصالح ﷺ يبذلون جهدهم في الإنفاق في سبيل الله، ومساعدة الغزاة بما تصل إليه استطاعتهم قليلاً كان أو كثيراً وقد يقوى الإنسان على الشيطان في خروجه إلى الجهاد في سبيل الله ولا يقوى عليه في سعة الإنفاق مع القدرة، لما يوسوس إليه من أنك إذا رجعت من جهادك لا تجد لك مالاً وقد يحصل لك جراح فترجع فقيراً ليس معك شيء ولا لك مال تعول عليه، فترك مالك إلى أن ترجع واجتهد على توفير النفقة ما أمكنك ونحو هذا الكلام، وإنما يسكن إلى الدنيا وكرهة القتل في الله والبخل ببذل النفس في سبيل الله، إذ لو كان يصمم العزم على طلب الشهادة صادقاً في قصدها لما تفكر في أحوال رجوعه إذ لا يحدث نفسه بالرجوع أبداً^(٢). وسيأتي بإذن الله التفصيل في: تجهيز الغزاة وبذل الأموال والتخلي عن حب الدنيا في عرض سورة (التوبة) والله المستعان.

- وقد تناولت سورة (البقرة) بعد حثها على المبادرة في الإنفاق في سبيل الله بذكر المضاعفة في الأجر والثواب ذكرت الآيات أهمية الإخلاص لله عز وجل في هذه النفقة وحذرت من أية شائبة من رياءٍ أو منٍ أو أذى، وأعطت الآيات في ذلك ثلاثة أمثلة لبيان خطورة الشرك في النية مما يبطل النفقة ويحبط العمل، وهكذا القرآن لا يكتفي بالحث على المسارعة في الخيرات ولكن يرينا القرآن على الإخلاص لله عز وجل مع هذه المسارعة ليأخذ بأيدينا إلى قبول الأعمال بإذن الله.

(١) صحيح: البخاري في كتاب الجهاد والسير رقم (٥٦)

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ابن النحاس: ص ٢٩٧

— قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٤]

يمدح الله عز وجل الذين ينفقون في سبيله وابتغاء وجهه ولا يمتنون به على أحد لا بقول ولا فعل ولا أذى أو مكروهاً يخطون به ما سلف من الإحسان، وقد ورد في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله (ﷺ): «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم وهم عذاب أليم: المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالخلف الكاذب»^(١).

— والتحذير ببطلان الصدقة والنفقة إذا قصد العبد مدح الناس له أو شهرته بأنه جواد وكرم ليُشكر بينهم ويشار وينظر إليه (كالذي ينفق ماله رياء الناس) ولهذا قال: (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) أي من يفعل ذلك قطع نظره عن معاملة الله تعالى ولا يفعل ذلك من اتصف بصفات الإيمان واليقين في جزيل ثواب الله وهذه هي صفات المؤمنين بالغيب التي بدأت بها سورة البقرة والتي تدور عليها مدار الأعمال الصالحة من الجهاد والإنفاق والاستسلام لأوامر الله وشرعه قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

أي: متحققون مُتَبَتُونَ أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ولذلك لا يخشى أن ينقص ماله من صدقة وهو على يقين أن الله عز وجل يضاعف عنده وأن ما عند الله خير له وأبقى وأنفع من إنفاقه على نفسه.

(١) صحيح: رواه مسلم (١/ ٤١)

مثال: الرياء بالصخرة الملساء والإخلاص بالبستان المرتفع

— قال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

• ضربت الآية مثال تشبيهي للمنفق المرائي في ضياع أجره كالصخرة الملساء (صفوان عليه تراب فأصابه وابل) فلما جاء المطر الشديد ذهب كل التراب من على الصخرة وكذلك عمل المرائي يذهب ويضيع وإن ظهر للناس كالتراب.

— قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وهذا مثال تشبيهي للمنفق المخلص في مضاعفة أجره ونمائه حسب صدقه وإخلاصه كالبستان المرتفع من الأرض (كمثل جنة بريرة أصابها وابل) فلما جاء المطر الشديد فأنبت ثمراتها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من البساتين الأخرى (فإن لم يصبها وابل فطل) أي لو جاءها المطر الخفيف أو الرذاذ وليس المطر الشديد فهي أيضاً لن تبور وستنمى، وهنا تفاوت في الأجر على قدر درجة الإخلاص والله أعلم.

أخطر مثال: ضياع كل شيء من الأجر في أحوج اللحظات إليه

— قال تعالى: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وقد روى البخاري فيها حديث عن ابن عباس الذي سئل فيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن هذه الآية فقال في آخرها عمر: ضربت مثلاً لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرقته أعماله^(١) وفي هذا الحديث تفسير هذه الآية: بعبد أحسن العمل أولاً ثم انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياداً بالله من ذلك فأكلت السيئات

(١) صحيح البخاري (٨ / ١٥١ فتح الباري)

الحسنات وأبطلت بعمله الثاني ما أسلفه من صالحات، فاحتاج إلى شيء من الحسنات في أحوج اللحظات أثناء تطاير الصحف يوم القيامة فلم يحصل له منه شيء وخانه أحوج ما كان إليه كما حرم هذا جنته عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته^(١). والله أعلم.

- ثم تدعو الآيات المؤمنين بإنفاق أفضل ما لديهم من صدقات وأجود ما عندهم وألا يقصدوا الخبيث من نفقاتهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أي: تنفق مما ترضاه لنفسك وتجبه لأهلك، والشيطان دائم الوسوسة بتقطير النفقة وإمساك اليد، والأنفس أحضرت الشح فإن أنفقت فلها حظوظ من الرياء والمن... والإخلاص أن يعافيك الله من وساوس الشيطان ومن حظوظ النفس ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] والله عز وجل غني عن عباده ونفقاتهم، واسع العطاء كريم جواد، يجازي ويضاعف بغير حساب، وهو الحميد أي الحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه.

البشارة بأن أمة الإسلام ستقيم مملكة الله في الأرض

- قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- وفي الحديث الصحيح عن النبي (ﷺ): «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها».

- لقد جاءت البشارات في التوراة والإنجيل ونبوءات أنبياء بني إسرائيل ما يؤكد ما جاء في القرآن والأحاديث بأن النبي محمد (ﷺ) وأمته سيحطمون طغيان الملوك وقيمون مملكة الله في الأرض، كما جاء في كتاب (محمد في الكتاب المقدس) للدكتور فيسور عبد الأحد داود بنيامين^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ص ٢٨٨

ومما ورد في هذه النبوءات والبشارات:

"لقد جاء مُحَمَّدٌ ﷺ بالقوة العسكرية والقرآن ليحل محل الصولجان والشريعة القديمة التي تقوم على الرهينة الفاسدة، ونادى مُحَمَّدٌ بأنقى الأديان وهو توحيد الإله الحق، ووضع أفضل القواعد العملية، والضوابط الأخلاقية للبشر، وكان أهدى وأصدق رجل في مكة، ولكنه بعد أن تحمل رسالة النبوة أصبح يحارب الكفار وسيفه بيده، ليس لمصلحته الشخصية، بل من أجل مجد الله، وقيام دينه وهو الإسلام، وقد عرض عليه مفاتيح كنوز الأرض، فرفضها وتوفي فقيراً، وجاء في رؤيا دانيال وغيره من الرؤى عن (ابن الإنسان) الذي أرسل وسيبقى إلى آخر الدهر لتحطيم ديانة الشيطان وقرنه أي الملوك الطواغيت، والمقصود بـ (ابن الإنسان) هو مُحَمَّدٌ، ثم تكمل رؤيا النبي دانيال:

إن عقيدة الثالوث في الشرق اتباع القرن الرهيب (قسطنطين الأكبر) قد أتيح لهم أن يحاربوا الموحدين، وأن يقهروهم ويعذبوهم لمدة ثلاثة قرون ونصف ثم بعد ذلك تستأصل وتمحى جميع القوى الوثنية من جهة وممالك الشر والطغيان من جهة أخرى على يد مُحَمَّدٌ الذي استل سيفه وعاقب العدو الكافر تنفيذاً لأمر الله لتأسيس مملكة الله على الأرض"^(٢).

عرض النموذج التطبيقي... الطريق النبوي لإقامة دولة الإسلام الأولى:

● أُرِدَتْ سورة الفاتحة في توصيفها الصراط المستقيم الذي نطلب جميعاً الاهتداء إليه بقوله تعالى: (صراط الذين أنعمت عليهم) وهم: السالكين له من أنعم الله عز وجل عليهم نموذجاً لنا، فنسب إليهم الصراط المستقيم لمرورهم عليه وما علينا إلا الاقتداء بهم فهم الذين قال الله عنهم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وإذا أرشدتنا سورة البقرة إلى معرفة الحق وبينت لنا في أجلى بيان المنهج الشرعي في إقامة دين الله في الأرض، فما كان لنا إلا أن ننظر إلى أسوتنا وقودتنا الذي أنعم الله عليه وأقام دولة الإسلام الأولى في الأرض إلى الرسول مُحَمَّدٌ ﷺ والنظر في سيرته وطريقته النبوية في إقامة هذه

(١) هو البروفيسور عبد الأحمد داود بنيامين من كبار علماء الطائفة المسيحية في إيران في أواخر القرن ١٩ وأسلم وتسمى بعبد الأحد.

(٢) مُحَمَّدٌ في الكتاب المقدس ص ٢٦٢: ٢٦٣ بتصرف يسير

الدولة المسلمة فكانت بحق التطبيق العملي للمنهج القرآني في إقامة دين الله وكانت بحق الأ نموذج الواجب الاتباع لطليعة المؤمنين في كل وقت وحين، لإقامة هذا الدين، ولن نستطيع هنا في معرض الحديث عن سورة (البقرة) الحديث عن السيرة كلها ولكن نقوم فقط بإذن الله بتوضيح أهم العلامات البارزة المضيئة في الطريق النبوي والمسار الذي سلكه النبي ﷺ والذي يمثل الترجمة الحية لما عرضته سورة البقرة في الأسس التي قام عليها نظام الدين وهيكله ومن هذه العلامات البارزة ما يلي:

- ✓ أولاً: البراءة من الشرك والكفر بالطاغوت في فترة الاستضعاف.
- ✓ ثانياً: لا مدهانة في العقيدة أو مساومة عليها ولو المقابل السلطة.
- ✓ ثالثاً: إنقاذ العصابة المؤمنة من طول الفتنة وعدم الاستسلام لها.
- ✓ رابعاً: الهجرة خطوة لازمة لقيام الدولة لا تنقطع أبداً.
- ✓ خامساً: اتخاذ مسار الجهاد لأنه مبدأ مستقر لحماية الدعوة ونشر الدين.

— أولاً: البراءة من الشرك والكفر بالطاغوت في فترة الاستضعاف

نزل القرآن المكي على الرسول ﷺ يدعو لإعلان براءته من الكفار ومعبوداتهم الباطلة وذلك بعد الجهر بالدعوة— وذلك على قلة اتباعه واستضعافهم في مكة قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون: ١-٦] وسورة الكافرون مكية تدعو النبي ﷺ أن يتبرأ من الشرك ويصرح بكفر أهله وبراءته من دينهم، وبراءة دينه منهم، واستمرت الآيات القرآنية تدعو النبي ﷺ أن يعلن لهم أنه ثابت على طريقته هذه برئ ممن خالفها ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤] وقوله تعالى مخاطباً له ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وسورة يونس مكية، ولا يزال القرآن ينزل وسط جو التعذيب والاضطهاد يأمر بالكفر بالطاغوت وكل المعبودات الباطلة بوضوح قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتِ ﴿النحل: ٣٦﴾ فانطلق النبي ﷺ يصدع بما أمره به القرآن وأعلن ﷺ براءته من المشركين وأظهر كفره بالطاغوت، وربي صحابته على ذلك وما داهن الكفار لحظة واحدة وحاشاه من أن يداهنهم وما سكت عن باطلهم ﷺ وأخذ يثبت طليعة المؤمنين على ما ناهم من الأذى كقوله: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» رواه الحاكم وغيره وقوله لخباب: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشطه بأمشاط الحديد دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه» رواه البخاري وغيره، بل قام النبي ﷺ بتسفيه أحلامهم ومعبوداتهم كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى آلهتهم الباطلة فقال لهم (صلى الله عليه وسلم): ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وهذا ما أغضب المشركين وجعل أشراف قريش يرسلون للنبي ﷺ فقالوا له: "يا مُحَمَّدُ إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد سببت الآباء وعبت الدين وشتتت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة"^(١).

وهذا الكلام معناه بوضوح أن النبي ﷺ كان يكفر بالطاغوت ويقول لهم بوضوح: آلهتكم باطلة، وأصبح المسلمون يدعون لله جهاراً ويعبدون الله جهاراً ويعلمون التوحيد في مكة رغم التعذيب الرهيب والاستضعاف، بل إن النبي ﷺ قام بمحاولة لتحطيم الأصنام حينما تمكن من ذلك وقدر عليه فعل ذلك في الحقيقة كما روى الإمام أحمد وأبو يعلى والبخاري بإسناد حسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي رسول الله ﷺ اجلس وصعد على منكبي فذهبت لأهض به فرأى مني ضعفاً فنزل وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد على منكبي: قال فصعدت على منكبيه قال: فنهض بي قال: فإنه يخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول الله ﷺ: اقذف به فقدفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت

خشية أن يلقانا أحد من الناس"^(١). وبوّب له الهيثمى في مجمع الزوائد تحت عنوان: (باب تكسيره ﷺ الأصنام) وقال: ورجاله الجميع ثقات، وهكذا سار النبي ﷺ متبعاً لملة أبيه إبراهيم ﷺ في التبرء من الشرك وأهله، والكفر بالطاغوت والمعبودات الباطلة، في كل وقت حتى زمن الاستضعاف فهو طريق واحد.. ومنهج واحد.

ثانياً: لا مدهانة في العقيدة أو مساومة عليها ولو المقابل السلطة

دخل مشركوا قريش في محاولات كثيرة لمساومة الرسول ﷺ للتنازل عن دينه ومنهجه وتقديم أية تنازلات لهم، يتخلى فيها عن عقيدة التوحيد، وعرضوا عليه ﷺ عروضاً تبدو للدعاة مغرية منها تولى السلطة وجمع الأموال له، فما داهنهم النبي ﷺ لحظة واحدة وحاشاه أن يداهنهم وأعلنها بوضوح: لا مساومة على العقيدة. فعندما أراد أشرف قريش من كل قبيلة وهم: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والنضر بن حارث والوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف ومن اجتمع إليهم أرادوا التفاوض مع الرسول ﷺ وقالوا له: "فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، فإن كنت تطلب به الشرف فينا نحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك". فما كان رد النبي ﷺ عليهم: "ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم" فطلبوا منه ﷺ أن يسأل ربه أن يسير لهم الجبال ويفجر لهم الأنهار ثم يحي لهم الموتى من زعمائهم، فأعاد النبي ﷺ وقال لهم: "ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه ذلك ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"^(٢) وهاهو أبو طالب لما اشتكى النبي ﷺ قادة قريش في محاولة أخرى لمساومة النبي ﷺ في دينه وقالوا لعمه: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى،

(١) حسن: رواه أحمد في مسنده (٨٤ / ١) وصححه أحمد شاكراً في هامش تحقيقه للمسنود (٥٨ / ٢) وقال: إسناده صحيح

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٥ / ١ / ١

وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب فجاء النبي ﷺ فدخل البيت فقال أبو طالب يا بن أخي هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك فقال رسول الله (ﷺ): "كلمة واحدة يعطونها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم". فقال القوم: كلمة واحدة! قال: "نعم". فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات. قال: "تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه". فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيك شيئًا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا^(١).

• ويعلق على هذا الموقف الدكتور منير الغضبان فيقول: "وها نحن نرى أن محاولات قريش للقاء مع محمد ﷺ أخذًا وعطاءً ولقاءً في منتصف الطريق قد رفضت كلها، ولا يمكن التنازل عن كلمة التوحيد التي هي مفرق الطريق بين المسلمين والكافرين، وفشلت المفاوضات. ورفض الرسول ﷺ كل الحلول المطروحة لإعادة الائتلاف الوطني في مكة وتوحيد الكلمة ولو تحت قيادة محمد ﷺ على أن يتخلى عن رسالته وعن دينه"^(٢).

• وهكذا كان طريق النبي ﷺ طريق المفاصلة لا طريق المهادنة.. ولو كان نهج النبي ﷺ أن يتولى القيادة والسيادة، ثم يوجه ذلك لإقرار عقيدة التوحيد من موقع الحكم والسلطان، لفعل ذلك ولظن كثير من الدعاة أن هذه فرصة ذهبية للتغيير التدريجي ثم حملهم على قبول التوحيد من خلال هذا المسار ولكن ليس هذا هو الطريق كما يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه المساومات: "فلما اقتضت حكمة الله أن تبدأ الدعوة بكل هذا العناء؟ رغم أن النبي ﷺ إذا أراد أن يجعلها:

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢ / ٣٤٥

(٢) المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير الغضبان، ص ٩٤، ١١١

(١) قومية عربية: تستهدف جميع قبائل العرب التي أكلتها الثارات ومزقتها النزاعات لتواجه الإمبراطوريات المعتصبة لأراضيها من الرومان في الشمال والفرس في الجنوب لاستجابته له العرب قاطبة.

(٢) عدالة اجتماعية: فيقوم بحرب على طبقة الأشراف لرد أموال الأغنياء على الفقراء لكان معه الكثرة الغالبة بدلاً من وقوف المجتمع كله في وجهه (لا إله إلا الله).

(٣) دعوة إصلاحية: تتناول تقويم الأخلاق من الرذائل التي انتشرت في المجتمع الجاهلي لاستجاب له جمهرة صالحة بدلاً من أن تثير دعوة (لا إله إلا الله) المعارضة القوية منذ أول الطريق والدعوة في بدايتها ضعيفة العدد والإمكانات.

- لو فعل النبي ﷺ أيًا من هذه الأمور من باب المهادنة - وحاشاه (صلى الله عليه وسلم) - بدلاً من المفاصلة والصدام ثم بعدما يولوه الناس القيادة والسيادة أن يوجه ذلك كله لإقرار العقيدة التي بعث بها بعد أن عبدهم لسلطانة البشري، ولكن الله عز وجل العليم الحكيم يعلم أن هذا ليس هو الطريق فالمطلوب ليس تخليص الأرض من يد طاغوت روماني أو فارسي إلى يد آخر عربي إن الأرض لله فلا بد من الوضوح والفرقان من أول يوم أن تخلص الأرض كلها لكلمة واحدة: لا إله إلا الله فتخلص من أي أرباب أو أنداد أو شركاء أو طواغيت أي:

✓ لا حاكمية إلا لله.

✓ لا شريعة إلا من الله.

✓ لا سلطان لأحد على أحد لأن السلطان كله لله.

وما كان هذا المنهج ليخلص لله لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية أو اجتماعية أو أخلاقية وأنه على النبي ﷺ ومن معه أن يتحملوا كل هذا العناء الذي سيلقونه في سبيل هذا الإعلان العام لأن هذا هو المعنى الرئيسي للإسلام^(١).

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٢٩، بتصريف يسير

• إن الله عز وجل أرشد نبيه ﷺ إلى الطريق الصحيح فقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَذُورُوا لَوْ تَدَّهْنُوْنَ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨-٩] أي أحبوا لو توافقهم وتلاينهم فيما يعرضونه عليكم فيلاينونك فلا تفعل واصدع بالحق ولا تقبل أنصاف حلولهم.

• وهكذا تربى الجيل الأول على عدم المساومة على العقيدة تحت أي ظرف حتى لو اقتضت المصلحة فعل ذلك، فهؤلاء المهاجرين إلى الحبشة ومصلحة استقرارهم في المأوى الجديد تقتضي مجارة أمورهم وكسب النجاشي ومن معه من ملأه، حينما حاول عمرو بن العاص استئصال وجودهم من الحبشة.

• وهذا هو الموقف بكامله كما حكاه د. منير الغضبان في المنهج الحركي للسيرة: "لقد هُزم عمرو في الجولة الأولى شر هزيمة ولكنه عمرو الذي أراد إلحاق شر هزيمة منكرة بالمسلمين عبر عنها بقوله لصاحبه: والله لأتينه غداً بما استأصل به خضراءهم، فقال للنجاشي في اليوم الثاني بقوله: إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فيستكمل د. منير الغضبان: "لم تعد تجدي العبقرية هنا لأننا أمام أصحاب مبادئ لا تجارب سياسية لأننا أمام دعاة إلى الله وليس مع دجالين نهازين للفرص حتى يصلوا إلى الحكم.. إننا أمام واقع قد يفقدتهم كل المكاسب والتي منها: إسلام النجاشي والتي منها حرية الدعوة بل قد يؤدي إلى التكيل بهم والقضاء عليهم وتسليمهم إلى عدوهم.. كيف يتصرف السياسي المسلم أمام هذه الموازنات؟ أمام هذه الخيارات الصعبة؟ أن يجد كل ما بناه منهاراً يضحى بهذا كله من أجل حقيقة عقيدية واحدة أبداً إما السياسي وإما المسلم فلا خيار عندها له إلا الإسلام. انتهى دور العبقرية ولم يكن من بد إلا إعلان العقيدة ولو كانت تعيظ الكثيرين أو تقضي على كل ما حققه المسلمون من مكاسب.. فاجتمع المسلمون ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالوا: "نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن!

هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول". فقال لهم النجاشي:

(والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي)...^(١).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/١ / ٣٣٤ - ٣٣٨ عن حديث أم سلمة ﷺ

- وهكذا عظمة التمسك بالمبدأ يكون لها من السحر الحلال أحياناً ما يفوق كل دهاقنة السياسة وعباقره الدبلوماسي^(١).

ثالثاً: إنقاذ العصابة المؤمنة من طول الفتنة وعدم الاستسلام لها

- على الرغم من أن الرسول ﷺ كان يبحث أصحابه على الصبر والثبات ومزيد من الصدق بالحق إلا أنه كان يعمل على عدم إطالة فتنة الاضطهاد والتعذيب لقسوة طبيعتها عليهم، فقام النبي ﷺ بكل الوسائل الممكنة لإنقاذ المستضعفين وعدم الاستسلام لواقع الخنة بعد شدتها وطولها ويقول الأستاذ منير الغضبان في ذلك: "فالبقاء بين براثن الشرك من إبادة المسلمين عملية خرقاء صحيح أن الجندي يتحتم عليه أن يتحلى بالصبر ويثبت على دينه لكن مهمة القيادة الأساسية هي حماية جنودها من الخطر ومن أجل هذا نرى سيد القادة محمداً عليه الصلاة والسلام يبحث في الأرض كلها عن مكان آمن ولا تستطيع يد الشرك أن تطاله وكان هذا المكان هو أرض الحبشة، فقد روى ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد- وهي أرض صدق- حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم في رجب من السنة الخامسة من البعثة وكان ذلك بعد عامين فقط من التعذيب بعد جههم بالدعوة في العام الثالث من البعثة.. عامين فقط من التعذيب وبدأ النبي ﷺ يبحث عن إنقاذ طليعة المؤمنين من الفتنة، وهي فترة اعتبرها النبي ﷺ طويلة تحت أتون التعذيب لعلمه ﷺ أن النفس البشرية من لحم ودم وأعصاب ولها طاقة محدودة ينبغي مراعاتها وأنه مأمور شرعاً ﷺ بحماية من معه وألا يستسلم للقدر الكوني في استعلاء الباطل ويطشه وعليه أن يدفعه بالقدر الشرعي ويأخذ بالأسباب ويبحث عن مكان آمن للحفاظ على الصفوة المؤمنة ومخرج جدي من الفتن فينبغي كذلك أسوة وقدوة للدعاة بالنبي ﷺ ألا يرضخوا لفتنة استعلاء الباطل تحت دعوى الصبر والثبات حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً فهذا مخالف لسنة الله الشرعية والتي تتفق مع سنته القدرية وتتناغم معها حركة الكون والحياة.

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية ص ٨٩

رابعاً: الهجرة خطوة لازمة لقيام الدولة لا تنقطع أبداً

١. ومن الملاحظ في نوعية المهاجرين إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة أنهم لم يكونوا فقط الموالي المستضعفين، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات لهم من عصبيتهم ما يعصمهم من الأذى ويحميهم من الفتنة، كما ذكر الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن^(١) وأيده الأستاذ منير الغضبان بقوله: "وهذه اللفتة العظيمة من (سيد) رحمه الله، لها في السيرة ما يعضدها ويساندها وهو: أن رسول الله ﷺ لم يبعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب وبدر وأحد والخندق، والحديبية لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات وأخرها كان هذا الهجوم والاجتياح في الخندق وحين اطمأن رسول الله ﷺ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة آمنة للمسلمين وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية التي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ لو سقطت يثرب في يد العدو"^(٢).

كما أن من أهم الملاحظات في هجرة الحبشة هي إعداد المهاجرين والتي مثلت الثقل الكبير للمسلمين فقد انتقل إلى الحبشة كما قال ابن إسحاق وغيره أعداداً بلغت: (١٠١) مئة وواحد من المسلمين: ثلاثة وثمانون رجلاً وثمان عشرة امرأة^(٣) بينما بقي في مكة كما تذكر الروايات أن عدد المسلمين يوم أسلم عمر رضى الله عنه لم يكن يتجاوز الأربعين فكان عددهم في الحبشة كما ذكر مائة وواحد أي أن أعداد المسلمين في مكة قبل هجرة الحبشة عام خمسة من البعثة وصل إلى: مائة وواحد وأربعون (١٤١) مسلم، هاجر منهم ما يقرب من سبعين بالمائة (٧٠%) من القوة الأساسية ذوي النسب والمكانة، مما يؤكد أن الفرار من الفتنة والتعذيب ليس وحده السبب في الهجرة إنما هناك سبباً آخر بالغ الأهمية وهو: "البحث عن مكان آمن يمثل قاعدة انطلاق جديدة تنشر منها الدعوة وتنتقل لإقامة الدين"، وكان من المهاجرين إلى الحبشة: جعفر بن أبي طالب وفتيان بني هاشم معه والذين كانوا يحمون النبي ﷺ ومنهم الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩)

(٢) المنهج الحركي للسيرة (١/ ٦٧، ٦٨)

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص ٣٠٣، والروض الأنف للسهيلي (٣/ ٢٢٨)

وأبو سلمة المخزومي وهاجرت نساء من أشرف بيوتات مكة مثل: حبيبة بنت أبي سفيان زعيم الجاهلية.

٢. إن أعداد ونوعية وأسماء المهاجرين إلى الحبشة في العام الخامس من البعثة ليبرهن أن رؤية النبي ﷺ بوضوح من أول يوم هي: السعي لإقامة الدولة المسلمة التي تنطلق لنشر دين الله في الأرض، وهذه الرؤية تطلبت عدم الرضا بالواقع القائم إذا تجمدت الدعوة ووصلت إلى طريق مسدود فإن تخليه ﷺ مبكرًا عن ٧٠% من قوته الأساسية في هذا الوقت ولمدة وصلت إلى أربعة عشر عامًا مثلوا فيها: مخزونًا استراتيجيًا احتياطيًا لقيام الدولة المسلمة لم يستدعيهم ﷺ إلا مع فتح خيبر عام ٧ هجرية، ولو كان يرجو الاحتماء بهم لظلوا بجواره في مكة وما هاجرت هذه الكتلة الحرجة، ولو كان المطلوب في إعدادهم وتأهيلهم أن يمروا بفتنة التعذيب ليشتد عودهم وتقوى عزائمهم لتركهم النبي ﷺ في مكة يتربوا بالحن، بينما هو في منعة من عمه أبي طالب ومن قبيلته بني هاشم ولكنه ﷺ قام بإعداد وتربية هذه القاعدة المؤمنة بغرس العقيدة في نفوسهم وضمائرهم، ثم تعرضوا للفتنة بشكلٍ قدرتي وليست من صناعتهم أنفسهم والله عز وجل قدر تنوع الفتن التي تمر بطليعة المؤمنين فمنهم من تعرض لفتنة التعذيب وهم من بقي في مكة من الصحابة مع النبي ﷺ ومنهم من هاجر إلى الحبشة فتعرض لفتنة الغربة والتضحية بترك الأهل من أجل العقيدة والدين وهؤلاء قال لهم رسول الله (ﷺ): «ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه - عمر بن الخطاب ومهاجري مكة - أي هجرة واحدة ولكم أنت أهل السفينة هجرتان»^(١). وفي رواية: «لهم هجرة أي لمهاجري يثرب ولكم هجرتان أي لمهاجري الحبشة».

٣. ومن هنا قد مثلت الهجرة: الخلاص من وضع مأزوم تصلب فيه موقف الباطل واستعلى حزيه وتجمدت فيه الدعوة، وتعرض فيه المؤمن للفتنة في دينهم وفي مثل هذه الملابس كان لجوء الأنبياء والمرسلين من قبل لربهم بالدعاء لنجاة المؤمنين وإنزال العذاب بالمشركين، فيستجيب الله عز وجل ويتدخل بعذاب الاستئصال للفتنة الكافرة كلها، أما في هذه الأمة المسلمة وأمة بني إسرائيل فقد شاءت إرادة الله أن يقر لهما سنن أخرى وهي سنة التذافع - كما سبق عرضها

(١) صحيح: البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢٣١

بعون الله وتوفيقه- ومن ثم انطلق النبي ﷺ يبحث عن منعة وشوكة ينحاز إليها هو ومن معه من العصبة المؤمنة ولن يتم هذا الانحياز إلا بالهجرة إلى هذه المنعة تحمي الدعوة بالقوة وفقاً لسنن الله عز وجل الثابتة له ولأمته، والتي تتبدل إلى قيام الساعة.

٤. ومن هنا تحرك النبي ﷺ وفق خطة واضحة المعالم محددة الأهداف، يطلب الإيواء والنصرة فأول ما توجه ذهب إلى الطائف ودعاهم إلى الإسلام ثم طلب منهم الحماية والمنعة وذلك في السنة العاشرة للبعثة فكما يقول د. منير الغضبان: "الأول مرة نجد عنصر طلب النصره فلقد كان رسول الله ﷺ يدعو القبائل ويجزر مواسم العرب قبل هذه المرحلة غير أن هذه الدعوة كانت محصورة في الدعوة إلى الإسلام بل يمكن القول: إن الرسول ﷺ لم يطلب النصره إلا في هذه المرحلة وكانت الحماية والنصرة السابقة بناءً على عرض المشركين وليست بناءً على طلبه، وأبو طالب هو الذي قاد هذه المرحلة السابقة، أما حينما تسد المنافذ التي تنطلق منها الحركة وتصل إلى مكان مسدود فمن واجب القيادة البحث عن قاعدة جديدة للانطلاق بها من المؤهلات المناسبة للقاعدة المؤمنة الأولى"^(١)، ولما لحق النبي ﷺ الإيذاء الشديد في رحلته إلى الطائف توجه النبي ﷺ في مواسم الحج في نفس العام العاشر ومعه أبي بكر رضى الله عنه اختلفت الدعوة حينها فصار ليس من الضروري أن تُسلم القبيلة، وإنما صار المطلوب أن تُؤمن الحماية اللازمة للنبي ﷺ ولعصبة المؤمنين لتبليغ دعوة الله عز وجل.

وهذه دعوة صريحة ظهرت في قوله ﷺ لبني عامر وبني شيبه وبني حنيفة: «من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟»^(٢). وكان أبو بكر رضى الله عنه يسأل بوضوح وجوه القبائل ويقول لهم: كم العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ حتى عرض نفسه على رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ولنبيه ودعوته

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، ص ١١٩

(٢) إمتاع الأسماع ٣/١، ٣١

الانطلاق لقيام الدولة حيث شرح الله صدرهم لدعوة النبي ﷺ فأمنوا به وصدقوه وهم ستة نفر من الخزرج^(١).

٥. لقد ظل النبي ﷺ يتحين الفرصة المناسبة لينحاز إلى منعة وشوكة يطلب منها النصر لقيام الدولة المسلمة التي تنطلق لنشر دين الله في كل الأرض، حتى انحاز إلى الأنصار المسلحين المؤهلين للقتال وهذا ظهر جلياً في بيعة الحرب في السنة الثانية عشر من البعثة حيث قال لهم الرسول (ﷺ) : (على أن تنصروني إذا قدمت إليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة)^(٢). فجاءت سرعة الاستجابة دون تردد من الأنصار حيث قال قائدهم في هذه البيعة البراء بن معرور: (والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر).

٦. ومن هنا نستطيع بعون الله وتوفيقه أن نحدد ثلاث خطوات رئيسية لقيام الدولة المسلمة لا تنقطع أبداً بإذن الله وهي:

(١) وجود عصبية مؤمنة مؤهلة عقدياً.

(٢) قيام هذه العصبية المؤمنة بالهجرة من دار الاستضعاف وانحيازها إلى دار المنعة والشوكة.

(٣) وجود أنصار لديهم المنعة والشوكة تأوي إليها العصبية المؤمنة الأولى.

• إذن الهجرة: "خطوة لازمة لإقامة الدولة" في حالة تعثر مسار الدعوة ووصول الواقع القائم إلى طريق مسدود، وهذه الخطوة الهامة مستمرة وباقية إلى يوم القيامة وسيظل هناك مهاجرون ينتقلون من بلد إلى بلد لإقامة دينهم وسيظل هناك أنصار يستقبلون المهاجرين ويمثلون لهم المأوى والسند والمنعة، والدليل على ذلك ما يلي:

(١) حديث النبي ﷺ الصحيح: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» رواه أحمد والنسائي في سننه الكبرى والصغرى وابن حبان والطبراني في الأوسط وفي رواية عن عبد الله بن السعدي قال: قال رسول الله (ﷺ) : «لا تنقطع الهجرة ما

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٨، ٤٢٩

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٩٩).

قوتل العدو» وفي رواية لأبي داوود عن معاوية وصححه الألباني في إرواء الغليل وقال الطيبي: لم يرد الهجرة من مكة إلى المدينة لأنها مضت.

(٢) شرح حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» متفق عليه البخاري (٧/ ٣٩٠٠) ومسلم (١٨٦٤) واللفظ له، شرحه النووي وقال: "معناه لا هجرة من مكة لأنها صارت دار إسلام" قالها في كتاب رياض الصالحين، ص ٩. وشرح اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ف قيل في شرح الحديث ص (٤٠٣) أن المعنى هو: لا هجرة من مكة إلى المدينة ولكن جهاد ونية أي أن الهجرة بسبب: أ- الجهاد في سبيل الله.

ب- النية الخالصة لله عز وجل كطلب العلم والفرار من الفتن.

فهما باقيان مدى الدهر.

فالمقصد أن معنى هذا الحديث يقتصر على الهجرة من مكة إلى المدينة بعينها، حيث أنها انقضت بعد فتح مكة أما قبل فتحها فكانت الهجرة واجبة على أهل مكة.

(٣) نص الآية الصريحة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّأَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وانظر إلى تفسير الآية للحافظ بن كثير: "نزلت هذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهري المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية"^(١)، وسيأتي تفصيل: "الهجرة وعبادة المراغمة" في عرض سورة (النساء) بإذن الله.

(٤) سور (النحل والإسراء والكهف) والتي في رمزية أسماءها الثلاثة معنى الانتقال من مكان إلى آخر تحدثت هذه السور بوضوح عن الهجرة وهي سور مكية نزلت قبل الهجرة من مكة إلى المدينة

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي الصلابي، ص ٢٤٠-٢٤١

ترسخ صورة في نفوس الصحابة والأمة المسلمة من بعدهم على معنى "ترك الأهل والوطن من أجل العقيدة" فهذه الآيات الصريحة من سورة النحل تدعو للهجرة في سبيل الله قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وفي أواخر السورة يؤكد المعنى مرة أخرى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] كما أن نزول سورة الكهف وتحديثها عن الفتية الذين آمنوا برهم وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف من أجل دينهم وعقيدة التوحيد، فرسخت مشروعية الهجرة وأنها مستمرة وباقية وليس كما يتبادر إلى أذهاننا كلما قرأنا آيات الهجرة في القرآن ظننا أنها تتحدث عن هجرة الصحابة الأوائل من مكة إلى المدينة فحسب.

٥) يقول الدكتور الصلابي في كتابه السيرة النبوية "مشروعية الخروج من الوطن- وإن كان الوطن مكة على فضلها- إذا كان الخروج فراراً بالدين وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد وأوذي على الحق مؤمن فرأى الباطل قاهرًا للحق فإن الخروج على هذا الوجه حق على المؤمن وهذه الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]"^(١).

٦) مفهوم دار الإسلام ودار الحرب، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "وإن هناك دارًا واحدة هي دار الإسلام تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة فتهمين عليها شريعة الله، وتقام فيها حدوده ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضًا وما عداها فهو دار حرب قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣]

(١) مختصر تفسير ابن كثير - عمدة التفسير - ص ٤٩٥/١

(١) وانظر إلى قوله تعالى: " مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا " أي أن الهجرة صارت شرطاً لولاية المؤمنين لبعضهم البعض وهذا ما ظهر في قوله تعالى أن: الهجرة انخياراً للمؤمنين هو شرط الولاية ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩].

ومن كل ما سبق نصل إلى تعريف عام للهجرة وما المقصود بها: "الانتقال من دار الاستضعاف والانخياز إلى المنعة والشوكة لإقامة دولة الإسلام التي تحمل الدعوة وتجاهد في سبيلها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله". ومن هنا صارت الهجرة هي نقطة التحول دوماً من الدعوة المستضعفة إلى دولة الدعوة الحامية لها.

خامساً: اتخاذ مسار الجهاد لأنه مبدأ مستقر لحماية الدعوة ونشر الدين

١. انطلق النبي ﷺ يصدع بالحق في مكة يتبرأ من المشركين ومن معبوداتهم الباطلة ويتحرك في مسار واضح مرسوم لتبليغ دعوته وكان مكفوفاً له حرية البلاغ في عصمة من الله ثم بحماية سيوف بني هاشم يخاطب الأذان والعقول والقلوب، فتكونت معه قاعدة صلبة مؤمنة استجابت لدعوته بلغت واحد وأربعون ومائة مسلم فقط حتى السنة الخامسة من البعثة رباهم على النبع الرباني الصافي: (القرآن الكريم) تحت شعار: (التلقي للتنفيذ والعمل) غرس فيهم ملامح التكوين الأولى وهي:

١. حقيقة (لا إله إلا الله) في تحقيق العبودية وإقرار الحاكمية لله تعالى.

٢. التجرد من حظوظ النفس ومن حظوظ الدنيا فتخلص نفوسهم لله وحده.

٣. رابطة العقيدة أعلى من رابطة الأهل والوطن.

٤. الجهر بالحق دون تمييز أو مساومة أو تنازل.

٥. الصبر على تحمل الأذى في سبيل كل ذلك.

فاشتم إيداء (قريش) له ولطليعة المؤمنين وتحركت فيهم الحمية لقتال المشركين والدفاع عن أنفسهم، فقد أتى عبد الرحمن بن عوف وأصحابه إلى النبي ﷺ بمكة فقالوا: "يا نبي الله كنا في عزة

ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة قال: "إني أمرتُ بالعمو فلا تقاتلوا القوم"^(١) فكان الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة تكتيكية في خطة طويلة كما يقول الشيخ سيد قطب أنها مسألة خطة لا مسألة مبدأ... مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة واجتهاد الشيخ سيد في استخراج الأسباب والحكم من الكف عن القتال في المرحلة المكية ومنها بإيجاز:

- ١) لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة وسط ظروف معينة.
- ٢) لأن الدعوة السلمية في بيئة قريش أشد أثراً وأنفذ لاتسام قريش بذات العنجهية والشرف فقد يدفعها القتال إلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة.
- ٣) اجتناباً لإنشاء معركة أو مقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين بينما باقي الجمهور القرشي يتابع المشهد. إنما كان التعذيب موكولاً إلى أولياء كل فرد، والإذن بالقتال فيها مقتلة في كل بيت، فأما بعد الهجرة فقد انعزلت الجماعة المسلمة كوحدة مستقلة تواجه سلطة أخرى في مكة.
- ٤) وربما كان ذلك لما يعلمه الله من أن كثيراً من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قاداته كعمر بن الخطاب مثلاً.
- ٥) وربما كان ذلك أيضاً لقلّة عدد المسلمين حينئذ وانحصارهم في مكة وحدها قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام ولا منهج.

● إن هذه الاعتبارات كلها كانت بعض ما اقتضت حكمة الله، وبعد تربية وإعداد العصبة المؤمنة على ملامح التكوين الأولى كما ذكر وظلوا في انتظار أمر القيادة بالإذن في القتال حينما يتهيأ له الجو المناسب والبيئة المناسبة التي كان يسعى النبي ﷺ إليها فلم ينتظر عشرات الأعوام ليتوفر هذا المناخ.. بل تحرك بأبي وأمي هو ﷺ يزيل العوائق.. يبحث عن قاعدة انطلاق جديدة.. يطلب النصر.. يتحين الفرصة.. يحمي الدعوة.. ينطلق هو ومن معه من أفراد القاعدة الصلبة الأولى من الواقع المسدود إلى أرض الله الواسعة، فأرسل كما ذكر من قبل مجموعة من السابقين

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٨)

الأولين من المهاجرين إلى قاعدة انطلاق جديدة فأرسل سبعين بالمائة من قوته الأساسية إليها وانطلق هو والنسبة الباقية معه من المؤمنين يبحث عن المنعة والشوكة فانحاز إلى الأنصار المسلحين ووصل إلى المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار ووجد صفهم، وصارت قوته الأساسية: (١٥٠٠) محارب (ألفاً وخمسمائة رجل من المسلمين) وفقاً للتعداد الإحصائي لسكان المدينة والمقاتلين فيهم والذي طلبه النبي ﷺ في السنة الأولى من الهجرة^(١) فعقد الألوية وأرسل السرايا كي تستقر الدولة المسلمة الناشئة وتثبت دعائمها وتزيل ما يهدد كيائها وتتغلب على أعدائها المتربصين بها وتستعد للفتوحات المرتقبة والتي ما فتى النبي ﷺ يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى وبدأ النبي ﷺ بزمام المبادرة فأرسل أول سرية على رأس سبعة أشهر من الهجرة فكان أول لواء عقده ﷺ كانت سرية حمزة بن عبد المطلب^(٢). ثم صارت المدينة خلية نحل لتنتقل منها أربعة سرايا وأربعة غزوات قبل غزوة بدر الكبرى عام ٢ هـ في خط ومسار واضح وحركة مدروسة بعد تهيئ القاعدة الواسعة نسبياً في المدينة لتحمي هذا الخط الجهادي بل إن اختيار المدينة نفسها كان اختياراً على أسس عسكرية لما تتمتاز به من تحصن طبيعي حربي لا تراجحها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة كما يقول ابن إسحاق: "كان أحد جانبي المدينة عورة وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل لا يتمكن العدو منها"^(٣). والناحية الوحيدة المكشوفة هي المنطقة الشمالية والتي حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمسة في غزوة الأحزاب وكانت الجهات الأخرى محاطة بأشجار النخيل الكثيفة لا يمر منها جيش نظامي بسبب ضيقها وكانت خفارات عسكرية صغيرة كافية بإفساد النظام العسكري ومنعه من التقدم^(٤). إن الحركة في هذا المسار ظلت تنتظر الأمر بالقتال فقط والذي تأخر لتملك القدرة لحمايته إذا انطلق بإذن الله وهو ما جعل النبي ﷺ يكرر قبل مجيء الأمر بالقتال هذا المعنى للصحابة المشتاقين لقتال أعداء الله ورسوله ﷺ وإقامة (لا إله إلا الله) في دنيا الناس... فالمهاجرين متحفزين والأنصار يريدون

(١) انظر: السيرة النبوية للصلاحي.

(٢) انظر: المنهج الحركي للسيرة لمدير الغضبان: ص ٣٢٩

(٣) انظر السيرة النبوية للصلاحي: ص ٣١٧، وقد اختلف العلماء هل كانت سرية عبيدة هي أول سرية أم سرية حمزة.

(٤) انظر الوثائق السياسية، حميد الله، ص ٦٥ نقلاً عن كتاب السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث للدكتور الصلاحي،

الوفاء ببيعتهم مع النبي ﷺ والميثاق الذي أخذوه على أنفسهم فكانت رغبتهم مبكرًا أن يميلوا على أهل منى مبكرًا منذ السنة الثانية عشر من البعثة قبل الهجرة وقت البيعة فقالوا: "نميل على أهل منى بأسيافنا ورسول الله ﷺ يقول: "لم أؤمر بذلك"... حتى صدر الأمر وجاء الإذن ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]... ثم تدرج ليبدأ بقتال المعتدين ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] حتى وصل لفرض قتال المشركين كافة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وهذه هي النصوص النهائية المستقرة والأصلية في طبيعة هذا الدين.. جاء الأمر وصار واجبًا متى توافرت القدرة وصار السعي لتملكها والجاهزية لها صارت واجبة وما لا يتم إلا به الواجب فهو واجب.. ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] صار الأمر بالقتال نهائيًا واضحًا يقول الرسول (ﷺ): «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(١).

وهكذا كان التنفيذ الفوري لهذا الأمر الإلهي وصار ماضيًا إلى يوم القيامة هو خط النبي ﷺ لإقامة دولة الإسلام الأولى فانطلق يربي القاعدة الصلبة بالحوادث وهو يخوض بهم المعارك: بدر وأحد... نصر وهزيمة.. نزول سورتي الأنفال وآيات من آل عمران.. تربية عملية بالتزكية والتمحيص ثم استمر الخط الجهادي مع استمرار نضج وتأهيل القاعدة الصلبة: الخندق والحديبية.. زلزلة وانضباط تام.. سورتي الأحزاب والفتح.. واستمر النبي ﷺ يزيل العوائق والسدود نحو تحرير الإنسان في كل الأرض من سلطان الطواغيت ومن العبودية لغير الله لتستقبل دعوة الله في حماية القوة فأجلى اليهود من المدينة: يهود بنو قينقاع والنضير وبنو قريظة.. حتى بلغت القاعدة الصلبة ذروة المستوى الرباني والإيماني وذلك يوم بيعة الشجرة عام (٦ هـ) وكانوا: (ألف وخمسمائة) مجاهدًا مؤمنًا بشرهم النبي ﷺ بأنهم صاروا خير أهل الأرض حين صرح لهم بذلك ﷺ بقوله: "أنتم اليوم

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله

خير أهل الأرض" (١). فأصبحت القاعدة الصلبة الأمانة بالتمكين لدين الله في الأرض، وجاء الفتح تلو الفتح نعمة من الله وفضلاً فكان فتح خيبر عام (٧ هـ) متزامناً مع إرسال النبي ﷺ لمهاجري الحبشة للانضمام إلى خط دولة الإسلام المستقرة أركانها، ثم كان فتح مكة عام (٨ هـ) بمثابة التمكين لدين الإسلام في الجزيرة العربية، فتحتها جيش قوامه: (عشرة آلاف) مقاتل مسلم منهم (ألف وخمسمائة) هم الكتيبة الخضراء.. الصفوة الأولى حول النبي (ﷺ) .. رجال القاعدة الصلبة المزكاة المطهرة.. وسنوضح هذا المسار النبوي في شكل خريطة ذهنية نعرضها لتبسيط حركة هذا المسار بإذن الله ونرفقها هنا في ختام هذه الفقرة.

● هذا هو المسار الذي أقام به النبي ﷺ دولة الإسلام، ذكر ابن النحاس في كتابه أن النبي ﷺ غزى بنفسه الشريفة (سبعًا وعشرين غزوة) (٢) وأرسل ستة وخمسون سرية جهادية، مسار واحد في المنهج القرآني حتى يكون الدين كله لله.. مسار واحد تؤيده السنن الشرعية كسنة التدافع.. مسار واحد أيدته الطريقة النبوية في إقامة الدولة الأولى.. مسار واحد اتفق مع السنن الكونية في إقامة الدول عامةً أيًا كانت قيمها ودينها.. مسار واحد تؤيده حركة التاريخ المتكررة من سلكه وصل إلى مراده، ومن سلك غيره ظل يدور في حلقة مفرغة.. ومن النماذج التي أخذت به واتبعته فحصلت على نفس النتيجة نموذج (دولة المرابطين) بدأت بتكوين قاعدة صلبة بدأ بسبعة أفراد فقط رباهم الشيخ عبد الله بن ياسين على منهج النبي ﷺ في جزيرة على نهر السنغال حتى وصلوا في (أربع) سنين إلى: ألف مسلم كوثهم على ملامح التكوين الأولى للعقيدة الخالصة لله عز وجل، ثم توجه بهم إلى القبائل حولهم والتي كانت في بدع وضلالات وإعراض عن تطبيق شرع الله وتحكيمه فقام بإنذارهم ودعوتهم للعودة إلى منهج الإسلام وشرعه ثم بدؤوا في اتخاذهم خط الجهاد حتى أخضعوا القبائل المحيطة بهم من عام (٤٤٠ هـ) حتى وصلوا في ثمان وعشرين سنة فقط وتحديداً في عام (٤٦٨ هـ) فتحوا أكثر من خمسة دول كاملة وهي: السنغال وموريتانيا

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي (٧/ ٤٤٣ فتح)

(٢) نقلاً عن السيرة النبوية لابن هشام: ٤ / ١٨٩

والمغرب والجزائر وتونس كلها تخضع لراية دولة المرابطين وعلى رأس هذه الدول أميرها: يوسف بن تاشفين ومعه جيش قوامه: مائة ألف فارس^(١).

ختامًا للقاعدة الثانية التي قام عليها منهج قيادة البشرية

● هذا هو الطريق.. هذا هو الصراط المستقيم.. هذا هو الحق المبين الذي هدتنا إليه سورة البقرة.. خطوات واضحة.. ملامح بينة.. سنن متكررة.. ولا عذر بعد هذه البينات الساطعات للانحراف عن هذا المسار تحت أي دعوى سواء كانت عدم وجود الجاهزية.. أو دعوى التربية الهادئة الطويلة أولاً.. هذا كله يخالف منهج الله القويم وطبيعة هذا الدين ومبررات الجهاد وبواعثه.. وسنة التدافع الشرعية والسنن الكونية والطريق النبوي.. وهذا كله هو الواجب ويتحتم السعي للجاهزية وتملك القدرة: قاعدة صلبة مزكاة مطهرة تمر بمرحلة الغرس والتكوين الأولى والتأهيل العقدي ثم تنحاز إلى منعة وشوكة مؤهلة.. تتاجر إليها إذا انسدت الحواجز أمامها.. ثم تنطلق تُركى وتُربى في خضم المعارك.. تتمحص وتنضج بالحوادث حتى يكتب الله عز وجل بإذنه وفضله النصر لها والتمكين لدينه لما يصيروا خالصين له وحده أمناء على إقامة دينه في الأرض...

— ألا يكفيك أن السورة الوحيدة التي سميت باسم نبي الرحمة مُحَمَّد ﷺ تعرف بسورة القتال!!

● ولكن لماذا عرض ملامح السيرة النبوية بهذا التفصيل في معرض الحديث عن سورة البقرة؟

— والإجابة: هي أن سورة (البقرة) جاءت ببيان الحق الواجب الاتباع في منهج الله لتحقيق مهمة الأمة المسلمة (إقامة الدين في دنيا الناس) "الوحدة الموضوعية لسلسلة السبع الطُول"، جاءت سورة البقرة لتبين الرشد من الغي كي تنهض هذه الأمة المسلمة وتتولى زمام قيادة البشرية "الوحدة الموضوعية لسورة البقرة".

— فكان لزامًا عرض كل ما هو شأنه تبيين الحق في طريق وإقامة هذا الدين وتوضيحه في نصاعة تامة ودون أدنى ريب أو شك.. عرضًا إجماليًا كشأن سورة البقرة التي أجملت خط بيان الحق والهداية إليه، ثم تفصله باقي سور السلسلة الأولى حتى سورة التوبة، ثم تصير رحلتنا بإذن الله في

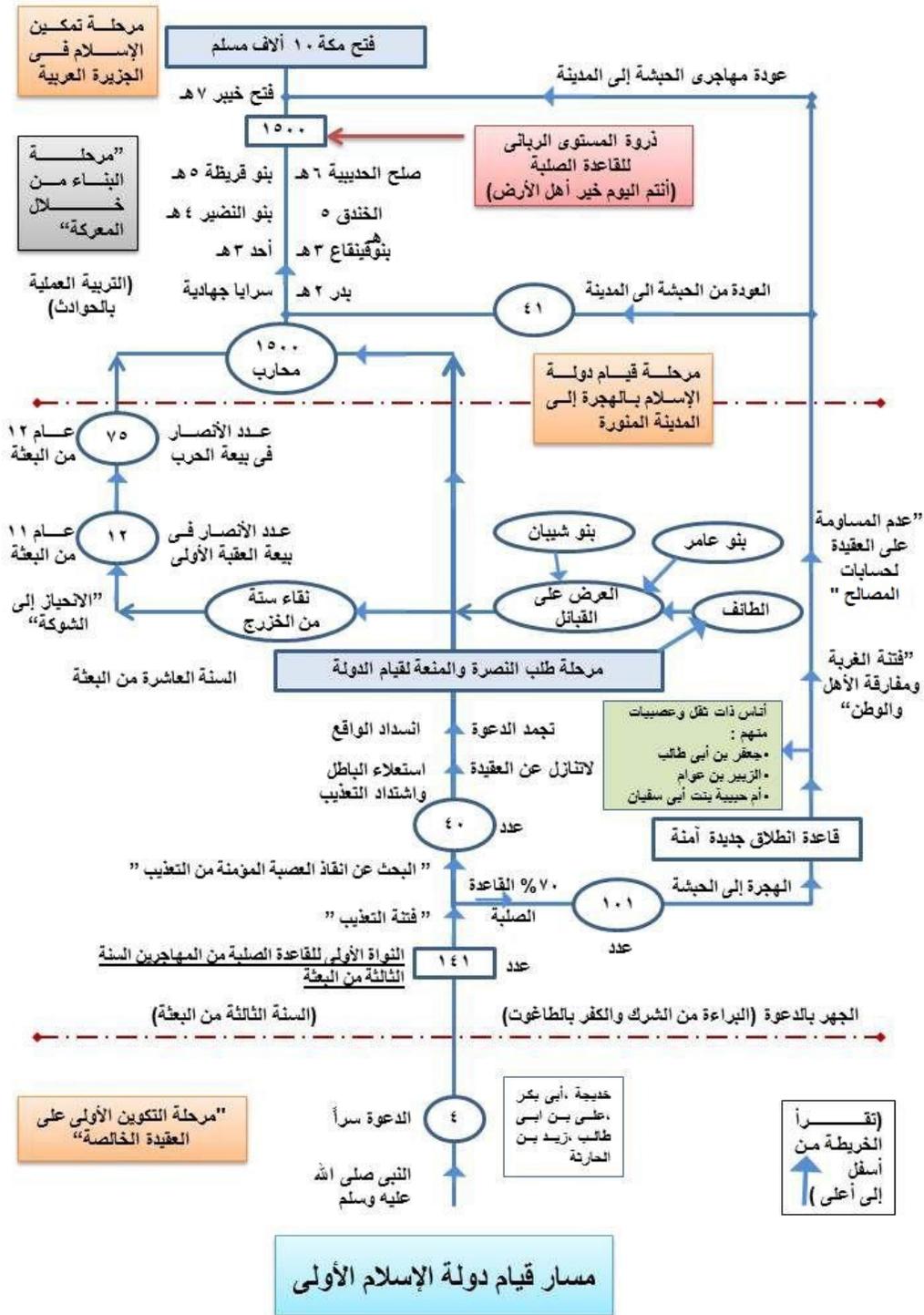
(١) قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، د. راغب السرجاني، ص ٣٨١: ٣٩١

عرض المنهج الحركي للقرآن ببيان المؤهلات والركائز اللازمة لهذه المهمة الشاقة بعد إقرار معاملها وبيان ملامحها والتكليف بحملها على بينة وبصيرة.. يسير بنا هذا المنهج الحركي للقرآن في خط معجز رباني متصل حلقاته لا ترى فيها فطور ولا شقوق إنما صنع الله عز وجل الذي أتقن كل شيء، ورتب كتابه وآياته في أحكم ترتيب وأعظم تبويب ونسأله سبحانه وتعالى التوفيق في عرضه والقبول في تقديمه والنجاة في الدنيا والآخرة.

— كما أن عرض ملامح السيرة النبوية فيه بيان نهج النبي (ﷺ). وطريقه، وهو الشطر الثاني في شهادة التوحيد (وأن محمدًا رسول الله) فكما أن التوحيد: إيمان بالله، وكفر بالطاغوت، وبراءة من المشركين ومعبوداتهم، هو أيضًا اتباع منهجه (ﷺ) وطريقه. ومن هنا بينا بفضل الله في سورة (البقرة)... منهجه (ﷺ) وطريقه بوضوح لإقامة دولة الإسلام، ثم تأتي سورة (آل عمران) لتحث على ضرورة اتباعه (ﷺ) وعدم مخالفة طريقه ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ثم تجيء سورة (النساء) لتحذر من مخالفة منهجه (ﷺ)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿[النساء: ١١٥-١١٦].

— والذي يشغلنا في الحقيقة.. هل نحن جادين كمسلمين في الجهر بالحق بعد معرفته، وفي اتباعه بعد بيانه لنا؟ هل نستجيب لرنا العليم الحكيم ونقول للحق الذي أراده في منهجه وشرعه: "سمعنا وأطعنا"؟ أم نفعل كبنى إسرائيل فنكنتم الحق بعد معرفته ونلبسه بالباطل بعد بيانه ونقول: "سمعنا وعصينا"؟! نسأل الله عز وجل أن يهدينا إلى الحق ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

— ونقوم هنا بإذن الله بوضع: الخريطة الذهنية التي توضح المسار النبوي في إقامة دولة الإسلام الأولى.. نختتم بها عرض القاعدة التي قام عليها منهج قيادة البشرية: "قاعدة الجهاد في سبيل الله".



في وداع سورة البقرة....

ها قد قاربت سورة البقرة على الانتهاء.. وأنا على فراقها لحزنون.. فقد ارتبطنا بما بفضل الله حق الارتباط.. وأنت الآن اذهب وقم بتلاوة سورة البقرة ولكن بتدبر وتأمل... سيفتح الله عز وجل لك خير من ذلك كله.. وتجد مذاقاً مختلفاً.. ثم اسأل نفسك: هل أحببت أخي الكريم سورة البقرة أكثر من ذي قبل؟ هل صار بينك وبين سورة البقرة أنس وألفة؟ هل سيقال لنا: يا أصحاب سورة البقرة أو نتنادى بما؟ "تلك هي سورة البقرة.. رأيت وحدتها في كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها في لوحاتها؟ رأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها، كل جزء فيها قد أخذ مكانه المقسوم، وفقاً لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها"^(١).

والآن نأتي إلى خواتيم سورة البقرة والسؤال.. هل استجاب أحدٌ للهدى الذي جاء في سورة البقرة؟ أطلعنا أول السورة على وعد كريم لمن سيؤمن ويتبع الحق الواضح- الذي لا ريب فيه- والذي جاء في بيان شافي، وعدٌ بأنهم أهل الهدى والفلاح.. فهل ظهر هؤلاء المؤمنون الصادقون المستجيبون لربهم..

والآن إلى خواتيم السورة.. نرى جزاء من امتثل وانقاد لربه وأوامره وشرعه..

• واسمع لقول د. عبد الله دراز عن خواتيم السورة:

"وهكذا سيكون مقطع السورة الأخير:

١. بلاغاً عن نجاح دعوتها: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.... ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

٢. وفاء بوعدنا لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

٣. فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين. فلييسطوا إذا أكفهم مبتهلين: "ربنا..

ربنا.. ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

(١) النبا العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ٢١٧، بتصرف يسير

• ظهر المؤمنون المستجيبون لربهم المنقادون لشرعه المطيعون لأوامره.. فماذا كان جزاؤهم؟

— روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء، قال: فقال رسول الله (ﷺ): "قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا". فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦].

كرم وعظمة التأييد الإلهي لهؤلاء المؤمنين

— وفي رواية مسلم عن ابن عباس: لما قال المؤمنون: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا).. قال الله عز وجل: قد فعلت. قالوا: (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) قال الله عز وجل: قد فعلت. قالوا: (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به). قال الله عز وجل: قد فعلت. قالوا: (واعف عنا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين). قال الله عز وجل: قد فعلت^(١).

— وفي رواية مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله (ﷺ) قال: «قال الله: نعم».

• وهكذا إن تمسكت طليعة المؤمنين بصراط الله المستقيم ودخلت دائرة عبوديته سبحانه وتعالى.. أدخلها الله عز وجل دائرة تأييده ونصره وولايته.

(١) صحيح: مسلم (٤٧/١) وأحمد في مسنده (٢٠٧٠)

كنز تحت العرش

- وذكر في فضل خواتيم سورة البقرة نفعا الله بما:
- روى البخاري عن ابن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»^(١).
- وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله (ﷺ): «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي»^(٢).
- إنها خاتمة خاصة.. لسورة لها فضل خاص.. أتذكر آية الكرسي؟ هي لها أيضًا شأن خاص: "تقدس الملك عند ساق العرش" كما في حديث مسلم الذي ذكر في فضل آية الكرسي.

خاتمة عرض سورة البقرة

- بهذه النصاعة الكاملة عرضت سورة البقرة صراط الله المستقيم ومنهجه القويم وهدانا الله عز وجل بها إلى معرفة الحق المبين (قد تبين الرشد من الغي).. نعم لقد تبين بفضل الله الرشد من الغي.. واتضح الحق بالبراهين الساطعة.. واستقام المنسم^(٣). فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا رده ولم يقبله.. بأن الطريق الحق في:
- إقامة دين الله في دنيا الناس.
- طبيعة وظيفية الاستخلاف في الأرض.
- ملامح مهمة قيادة البشرية بمنهج الله.
- أسس إعداد طليعة المؤمنين لحمل هذه المهمة.

- وهذا هو دور سورة البقرة بل دور القرآن كله: الهداية إلى الحق إلى الطريق المستقيم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].. فقط أجملت سورة البقرة توصيف معالم الطريق وستقوم كل سورة من سور السلسلة الأولى للسير الطول بإذن الله بتفصيل ما أجملته سورة البقرة.

(١) صحيح: البخاري (٥٠/٩، ٨٢ فتح) ومسلم (١/٢٢٢)

(٢) صحيح: أحمد في مسنده (٥/١٥١، ١٠٨٠ حلي)

(٣) استقام المنسم: أي تبين الطريق ووضح

— ولقد ذُكر في عرض سورة الفاتحة أن أركان الصراط المستقيم هي:

- ١ . معرفة الحق .
- ٢ . قصده وإرادته .
- ٣ . العمل بمقتضاه .
- ٤ . الدعوة إليه .
- ٥ . الاستقامة والثبات عليه .
- ٦ . الصبر على الأذى فيه .

— لذلك ندعو بإذن الله كل من قرأ سورة البقرة أن: يتبع الحق بعد معرفته .. والعمل بمقتضاه .. وأن لا يكتفم الحق، ويقوم بحسن الدعوة إليه .. في رفق وشفقة فقد يهتدي العبدُ إلى الحق ولكن يُسئ عرضة والدعوة إليه مما ينفر الناس من هذا الحق المبين .. ولنتذكر كيف كنا قبل هداية الله لنا ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]

— ولكن كيف نثبت على هذا الحق بعد معرفته؟ كيف نستقم على تكاليفه؟ كيف لا ننحرف عنه بعد الهداية إليه؟ كيف نواجه الشبهات التي ستقابلنا لتبعدنا عن الحق؟ كيف نستمسك بالعرورة الوثقى؟

— إن إجابة هذه الأسئلة بإذن الله هو مقصود سورة (آل عمران) والتي جاءت تلي سورة (البقرة) في ترتيب القرآن الكريم لتعيننا بعون الله وتوفيقه على:

(الثبات على الحق)

بين سورتي البقرة وآل عمران:

كلفت سورة (البقرة) أمة الاستخلاف بأمانة الاستخلاف في الأرض ومهمة قيادة البشرية بمنهج الله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ومهدت سورة (البقرة) لهذا التكليف الإلهي بإعطاء نموذج لأمة مستخلفة سابقة وهي بني إسرائيل والتي فضلت على العالمين في زمانها ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي

فَضَّلْتُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: ٤٧﴾، ولكن بنو إسرائيل فشلوا في مهمتهم وخانوا أمانة ربهم فاستحقوا اللعن والغضب بعد التكريم والفضل ﴿فَبَاءُوا بَعْضٌ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] فسُحبت منهم المهمة وأسندت لأمة الإسلام، ثم مهدت سورة (البقرة) تكليفها لأمة الإسلام بتوضيح شروط الإمامة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] ثم قامت سورة (البقرة) بإعداد وتأهيل الفئة المؤمنة المنوط بها النهوض لتنفيذ هذه المهمة الشاقة ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] ثم وضحت سورة (البقرة) شكل المنهج الإلهي المطلوب إقامته في دنيا الناس وطبيعته ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ٢٠٨] كما بينت لهم الطريق لإقامة هذا المنهج في الأرض ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، كما عرفتهم أن معركة أعداء دين الله من اليهود والنصارى والطواغيت مع هذه الأمة هي معركة عقيدة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، فأنت سورة (آل عمران) تذكر أمة الإسلام أن اصطفاها وتكريمها مرهون بأداء مهمتها ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وأن هذه الخيرية حملهم دين الحق الذي أنزله الله عز وجل ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ثم بيّنت سورة (آل عمران) أن طريق إقامة منهج الله في الأرض سيعترضه الكثير من العقبات لتثني الأمة المسلمة عن المضى قدماً في طريقها في هداية البشرية وتطبيق حاكمية الله في الحياة من هذه العقبات إثارة شبهات تخلط الحق والباطل و تسبب هزات فكرية لأهل الحق ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨] فعرضت سورة (آل عمران) مواجهة حججهم الباطلة وشبههم الزائفة بالحوار المبني على العلم الراسخ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥) ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٦] كما حذرت (آل عمران) أمة الإسلام من التخلي عن الحق بسبب هذه الشبهات الفكرية ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ [آل عمران: ١٠٠] وأن عليهم الاعتصام بدين الله وكتابه ضمانه لهم للثبات على الحق ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ومن هذه العقبات تربص أعداء الدين ليجهزوا على الأمة عسكرياً، لذلك دعت سورة (آل عمران) المؤمنين للثبات ميدانياً في مواجهة أعداءهم ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] وتحذيرهم من أسباب الهزيمة مثل التنزع والمعاصي وحب الدنيا ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ووجهتهم إلى موجبات الثبات والتي من أهمها التحلي بالصبر والتقوى ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وأن الله عز وجل إذا تولى المؤمنين وقاهم وأيدهم وثبتهم ونصرهم ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

تم عرض سورة البقرة والله الحمد والثناء الجميل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم والحمد لله رب العالمين.

الخريطة الكلية لعرض سورة البقرة :



سورة آل عمران
(الثبات على الحق أهم موجبات
الإصطفاء لأداء مهمة الأمة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

مقدمة عرض سورة آل عمران

﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ

التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ

اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

(٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿﴾

فضل سورة آل عمران

- ذكر ما ورد في فضل آل عمران مع سورة البقرة: أول البقرة^(١).

جو نزول سورة آل عمران وملابساتها

- يذكر الشيخ سيد قطب رحمه الله في مقدمة تفسيره لسورة آل عمران: "كانت غزوة بدر

الكبرى قد وقعت، وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش. وكان هذا النصر بطروفه التي

تم فيها والملابس التي أحاطت به، تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة ومن ثم اضطر رجل كعبد

الله بن أبي بن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكرهته لهذا الدين ونبيه (صلى الله

عليه وسلم) وأن يكتب حقه وحسده للرسول الكريم، وأن ينضم - منافقاً - للجماعة المسلمة

وبذلك وجدت بذرة النفاق في المدينة.

(١) انظر: عرض سورة البقرة

- حقد وعداء معسكر المنافقين (الصف الداخلي)
- قد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم في اليهود الذين كانوا يجدون في أنفسهم من الحقد على الإسلام ونبي الإسلام (ﷺ) مثل ما يجد المنافقون بل أشد فقد هددهم الإسلام تهديداً قوياً في مكائنتهم بين "الأميين" من العرب في المدينة، وقد غص اليهود بانتصار المسلمين في بدر، وارتفع غليان حقدهم على الجماعة المسلمة، وانطلقوا بكل ما يملكون من دس وكبد وتآمر يحاولون تفتيت الصف الإسلامي، وإلقاء الحيرة في قلوب المسلمين ونشر الشبهات والشكوك، في عقيدتهم وفي أنفسهم على السواء.
- حقد وعداء معسكر قريش (المشركون)
- كذلك كان المشركون ممتورين من هزيمتهم في بدر، يحسبون يتهيئون لدفع هذا الخطر الماحق على تجارتهم وعلى مكائنتهم وعلى وجودهم. كذلك يريدون دفع هذا الخطر قبل أن يصبح القضاء عليه مستحيلاً.
- خلخلة في الصف المسلم وتفاوت النضج التربوي
- كان الصف المسلم ما يزال في أوائل نشأته بالمدينة غير متناسق تماماً. ففيه الصفوة المختارة من القاعدة الصلبة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.
- وكذلك هناك نفوس وشخصيات لم تنضج بعد وهم حديثو العهد بالإسلام، والجماعة المسلمة كلها لم تنل على العموم من التجارب الواقعية ما يسوي التتواءات، ويوضح حقيقة منهجها العملي وتكاليفه.
- ولم ينضج في نفوس المسلمين الشعور بأن عقيدتهم وحدها هي وشيختهم التي لا وشيخة معها حيث كان للمنافقين روابط عائلية وقبلية لم تنفصم بعد، وكان لليهود ارتباطات اقتصادية مع المسلمين...
- فلم ينضج في نفوس المسلمين الشعور بأنه لا بقاء لصلبة إذا هي تعارضت مع العقيدة.

- وقع نصر بدر على الصف المسلم
- كان نصر بدر في الوقعة الأولى التي يلتقي فيها جند الله ذلك العدد القليل وهم غير مزودين بعدة ولا عتاد إلا اليسير، بجند الشرك ذلك إلى الحفل الضخم من قريش في عدتهم وعتادهم.. كان هذا النصر قدرًا من قدر الله.
- ندرك اليوم طرفًا من حكمته. ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة ولإثبات وجودها الفعلي على محك المعركة، ولتأخذ بعد ذلك طريقها.
- فأما المسلمون فلعلهم قد وقع في نفوسهم - من هذا النصر - إنه الشأن الطبيعي الذي لا شأن غيره. وأنه لا بد ملازمهم على أي حال في كل مراحل الطريق، أليسوا بالمسلمين؟ أليس أعداؤهم بالكافرين؟ وإذن فهو النصر لا محالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين!
- غير أن سنة الله في النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة، فهذه السنة مقتضياتها في تكوين النفوس، وتكوين الصفوف، وإعداد العدة، واتباع المنهج، والتزام الطاعة والنظام، واليقظة لخلجات النفس ولحركات الميدان^(١).
- لذلك احتاج الصف المسلم في هذه المرحلة وفي بدايات سعيه لقيام دولة مسلمة مستقرة.. احتاج إلى:
- التثبيت على الحق الذي هو عليه وذلك بدحض الشبهات ونفي الشكوك التي يلقيها أهل الكتاب حول عقيدة التوحيد.
- التحذير من كيد المنافقين وكشف نواياهم المستترة ووسائلهم الخطرة وفضح أحقادهم على الإسلام والمسلمين.
- اليقظة أن المعركة لازالت طويلة مع معسكر الشرك والكفر مما يستدعي ضرورة التأهيل والجاهزية في جو المعركة المتصل.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة آل عمران

- تثبتهم على التكليف المفروضة حمل مهمة قيادة البشرية في الأرض وذلك بالتطهير من آية نتوءات ظهرت من حب الدنيا أو حظوظ النفس والتمسك بواشحة العقيدة لا واشحة الصلة والقرابة.

أسباب نزول آيات السورة

• تذكر عدة روايات أن الآيات من (١-٨٣) نزلت في الحوار مع وفد نصارى نجران اليمن الذي قدم المدينة في السنة التاسعة من الهجرة في عام الوفود، ذكر ذلك محمد بن إسحاق وواقفه الزهري، وذلك لمناظرتهم النبي (ﷺ) في أمر عيسى (ﷺ) وطرحهم لشبهات النصارى في إدعاء النبوة والإلهية وذلك سبب نزول آية المباهلة ﴿فَمَنْ حَاكَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]... وانتهى حوار وفد نجران مع النبي (ﷺ) بدفعهم الجزية له.

غير أن ابن كثير أورد احتمالات أخرى لنزول هذه الآيات بسبب ورود الآية ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤].

حيث خاطب بها الرسول (ﷺ) هرقل عظيم الروم كما روى البخاري عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على هرقل، وهذه القصة كانت بعد الحديبية وقبل الفتح.

• ومن هذه الاحتمالات التي أوردها ابن كثير أنه:

- يحتمل أن صدر سورة (آل عمران) نزل في وفد نجران حتى الآية (٦٤) وقول ابن إسحاق إلى "بضع وثمانين آية" غير دقيق لدلالة حديث أبي سفيان.

- يحتمل أن يكون وفد نجران كان قبل الحديبية وأن الذي دفعوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية^(١).

• ويرى الأستاذ محمد عزة دروزة أن "احتمال نزول الآيات من (١-٨٣) من سورة آل عمران في وفد نصارى نجران متعلق باحتمال هو أن: الوفد قدم قبل الحديبية فإذا صح هذا صح ذلك، أما

(١) مختصر تفسير ابن كثير - عمدة التفسير - تحقيق أحمد شاكر، المجلد الأول، ص ٣٣٨

إذا اعتمدنا الروايات التي تتحدث عن قدوم وفد نجران عام الوفود في السنة التاسعة، فإننا نجد أنفسنا مضطرين للفصل بين هذه الآيات ومناسبة وفد نجران^(١).

● لذلك يرجح الشيخ سيد قطب رحمه الله أن هذه الآيات نزلت مبكرة في السنوات الأولى للهجرة وأنها غير مقيدة بحادث وفد نجران في السنة التاسعة والتي كان الإسلام قد انتهى إلى درجة من القوة والشهرة جعل هذه الوفود تأتي تخطب وده أو تعرض التعاهد معه، بينما طبيعة هذه الآيات في نفيها لشبهات أهل الكتاب ودحضها لحججهم التي أرادوا بها زعزعة العقيدة في الصف المسلم، حيث أن جوهر الحجج والمجادلة كانت في الجماعة المسلمة بعد نشأة. وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها أو في سلوكها^(٢) بينما لم يكن لليهود وجود بعد إجلاءهم من المدينة ثم انتهاءً بفتح خيبر عام ٧هـ.

● بينما الآيات من (١٢١: ١٧٩) نزلت في أعقاب غزوة أحد، تعلق الآيات على هزيمة المسلمين، مع بيان أسباب هذه الهزيمة.

- ثم رتبت هذه الآيات الأولى من صدر آل عمران والخاصة بشبهات النصارى وحججهم فيما يتعلق بعيسى عليه السلام مع آيات غزوة أحد مع باقي الآيات التي نزلت منجمة، ووضعت جميعاً في سورة (آل عمران) ثم وضعت تالية لسورة (البقرة) في الترتيب النهائي للمصحف، وكل ذلك بأمر توقيفي من الله عز وجل.

- فما هي خطوات ارتباط آيات سورة (آل عمران)؟ وما هي الوحدة الموضوعية التي تجمع أولها وآخرها؟ وما دلالة تسمية السورة بآل عمران؟

(١) كتاب: سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم، محمد عزة دروزة

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة آل عمران ، ١/٣٥٢.

رمزية ودلالة (آل عمران) بمجاور السورة وموضوعاتها

- في البداية من هم (آل عمران)؟
- بيت من بيوت بني إسرائيل معروف بالصلاح والتقوى والعبادة والزهادة والطهر على عكس الصفات المذمومة التي ظهرت في بني إسرائيل، والتي عرضت في سورة (البقرة)، وصلاح هذا البيت يدل أن بني إسرائيل ليسوا سواء.
- عمران هو: عالم جليل شهير من علماء بني إسرائيل، وامرأته اسمها: حنّة بنت فاقود وهي سيدة كريمة صالحة.
- اصطفى الله عز وجل هذه العائلة الكريمة واختارها لأمر عظيم في البشرية كلها، لما يعلم الله عز وجل من أهليتهم لهذا الاصطفاء وهذا الأمر العظيم هو: أن يوجد منها عبد الله ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام أحد أولي العزم الخمسة العظام من الرسل وآخر أنبياء بني إسرائيل وخلق الله عز وجل بآية خارقة تدل على عظيم قدرة الله عز وجل (ولنجعله آية للناس) بخلق الله لعيسى من أنثى بلا ذكر فسبحانه وتعالى نوع في خلقه، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه خلقه من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].
- وامرأت عمران لم يكن لها ولد ولا تحمل فاشتتت الولد فدعت الله أن يرزقها بالولد، فاستجاب الله عز وجل لدعائها فلما أحست بالجنين يتحرك في داخلها، أرادت أن تشكر الله عز وجل فنذرت ما في بطنها خالصاً محرراً لله عز وجل مفرغاً لعبادته وخدمة بيته المقدس وكانوا يتقربون بذلك ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ [آل عمران: ٣٥] فلما وضعتها وكانت تنتظر ولداً ذكراً لتحمل أعباء مهمة النذر لخدمة المسجد الأقصى، فوجدتها أنثى فسمتها: (مريم) وتعني: (العابدة) بالعبرية، ثم دعت أم مريم الله عز وجل أن يتقبلها منها وييسر لها أسباب القبول ويقرنها بالصالحين من عباده، فلما مات أبوها وصارت يتيمة، قدر الله عز وجل أن يتكفلها نبي الله (زكريا) بعدما تدافع علماء بني إسرائيل كلهم يريد أن ينال شرف تربيتها ورعايتها.

فرباها (زكريا) ﷺ خير تربية وتعلمت منه العلم النافع والعمل الصالح، وزكريا ﷺ كان زوج أختها كما ورد في الصحيح:

فإذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة.

• وأراد الله عز وجل لحكمته البالغة أن يصطفي مريم لتكون خير نساء العالمين، فاختارها لكثرة عبادتها وزهادتها ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، طهرها من الأكدار والوساوس والعلائق فصارت خالصة له سبحانه وتعالى، ثم اصطفاها ثانيًا لأمر عظيم في تاريخ البشرية كلها، بعرض خارقة ميلاد عيسى ﷺ من خلالها وعن طريقها بلا أب وبمشيئته المطلقة سبحانه وتعالى، فجعلها الله عز وجل هي وابنها آية قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]. وقبل علمها بطبيعة الاصطفاء الإلهي لها، أمرتها الملائكة بطول العبادة لله عز وجل وتمام الخشوع والخضوع لله رب العالمين ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وبذلك تأهلت لما أَرَادَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بها من الأمر الذي قدره وقضاه، مما فيه محنة وابتلاء لها.. فلا اصطفاء بلا ابتلاء تظهر به أهلية هذا الاصطفاء وتحمّل تكاليفه.. فبشرتها الملائكة بأنه سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

كما كان في هذه المعجزة العظيمة رفعة لها في الدارين لما صدقت بكلمات ربها واستجابت لأوامره واستسلمت لقضائه ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْصَانُ فَرْجِهَا فِي مِثْرِ الشُّعْبِ الْمُنْتَهَى﴾ [التحريم: ١٢]، أحصنت فرجها أي: حفظته وصانته فهي العفيفة الطاهرة، فنفخنا فيه من روحنا أي: بواسطة الملك وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى ﷺ (وصدقت بأمر ربها وكتبه) أي: بقدره وشرعه وأوامره.. لذلك صارت مريم بنت عمران من خير نساء العالمين، ففي حديث علي بن أبي طالب ﷺ: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «خير نساء مريم بنت عمران، وخير نساءها خديجة بنت

خويلد»^(١)، وحديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَلَ من الرجال كثير، ولم يكْمَل من النساء إلا: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٢).

اضطهاد بنو إسرائيل لمريم وعيسى

- أخذ بنو إسرائيل في اضطهادهم لمريم برميها بالفرية وقذفها بالفاحشة، وألقوا الشبهات حولها فبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة طاهرة صاروا يرمونها بالعاهرة الزانية، فأنطق الله عز وجل عيسى ﷺ في مهده أمام أعينهم (قال إني عبد الله): فكان أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، وبرأ أمه مما نسب إليها من الفاحشة.
- فاختلفت أقوال بنو إسرائيل في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله على أنه ولد زانية، وقالوا: كلامه في مهده هذا سحر، بينما قالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين.
- ولما أتاهم عيسى ﷺ بالبينات والمعجزات الخارقة وجد منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ هموا بالفتك به ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافراً، ورموه بالاتهامات الكاذبة والشبهات الباطلة.
- فانتدب لعيسى طائفة له من بني إسرائيل لتنصره وتؤازره ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].
- فبعث الملك في قتله وصلبه والتنكيل به، فلما أحاطوا ببيته وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله من بينهم ورفعاه إليه، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده في المنزل. فأخذوه في ظلمة الليل وصلبوه، وكان هذا من مكر الله لهم ﴿وَمَكُرُوا وَكَمَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

(١) صحيح: البخاري في كتاب الأنبياء (٦٠)

(٢) صحيح: البخاري في كتاب الأنبياء (٦٠)

[٥٤]، ولما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيئاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة، وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن ورد على كل فريق منهم، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

وهكذا حكم الله بكفر فرق النصارى التي أشركت بالله عز وجل وانحرفت عن دين التوحيد الذي جاء به عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ وكذلك قال لهم في حال نبوته ، أمراً لهم بتوحيد الله وعبادته سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

شبهات اليهود سبب الانحراف من التوحيد إلى التثليث

- استمرت دسائس اليهود وحيلهم الماكرة لتشويه عقيدة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى بن مريم عليه السلام وذلك ببث الشبهات حول عيسى لزعة عقيدة النصارى وخلطها بالشرك وانحرافها من التوحيد إلى التثليث حتى لا يبقى أحد على التوحيد. فكيف كانت بداية هذا الانحراف؟
- يحكى أهل التاريخ بعد وفاة عيسى عليه السلام بثلاثمائة سنة نبغ ملك من ملوك اليونان على اليهود والنصارى اسمه: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية حيلة ليفسده فإنه كان فيلسوفاً، وقام بتبديل دين المسيح وتحريفه، وقيل رجل آخر يهودي اسمه (شاؤول) في زمن عيسى عليه السلام، هو الذي قال للنصارى: سمعت منادي يقول يا شاؤول كفاك قتلاً في النصارى.. وأنا أريد أن اعتنق ديانة النصرانية.

- فاعترض بعض الرهبان لشدة (شاؤول) على النصارى، فتوسط راهبًا اسمه (برنابة) ليقبلوا في النصرانية..

- فبدأ (شاؤول) يعمل على تشكيك النصارى من الداخل في عقيدة التوحيد ليتزعزعوا عنها وذلك عن طريق سلاح الشبهات، فألقى ثلاثة شبهات على الترتيب وهي:

● الشبهة الأولى:

قال لهم: هل ممكن أن يولد طفل دون أن يكون له أب أو أم؟

- قالوا له: لا، فسنة الله عز وجل أن الطفل يولد من أب وأم.

- فقال لهم: طالما لا يوجد له أب بشري، إذن أبوه هو الله (زعمًا وكفرًا)... فاستسلموا لهذه الشبهة، فجاءهم بشبهة أخرى.

● الشبهة الثانية:

- قال لهم: طالما أن أبو عيسى هو الله، فنحن نعلم أن الطفل لا يكون إلا بجزء من الأب وجزء من الأم، إذن عيسى فيه شيء من الله عز وجل (تعالى الله عما يقول الكافرون علوًا كبيرًا)، وفيه شيء من مريم... فاستسلموا لهذه الشبهة وعقيدة النصارى حتى هذا اليوم قائمة على هذا الأساس يقولون أن عيسى فيه الجزء اللاهوتي (زعمًا وكفرًا أن جزء من الله دخل في عيسى)، وفيه الجزء الناسوتي (زعمًا وبهتانًا أن جزء من مريم دخل في عيسى)...

● الشبهة الثالثة:

- قال لهم: طالما اتفقنا أن عيسى فيه شيء من الله (هم يزعمون ذلك) إذن يستحق عيسى أن يعبد، ومن هنا تحول هذا الدين من دين توحيد إلى دين تثليث فقالوا: المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، وهكذا أطاع النصارى (شاؤول) فيما جاء به من شبهات وصار خلفه علماء النصارى يدعون إلى هذه الشبه، وأطاعوهم النصارى في ذلك ولتبعوهم...

دلالات اسم (آل عمران)

ونقف بعون الله مع رمزية اسم (آل عمران) والدلالات التي يحملها، والذي سميت به السورة بكاملها، ومن هذه الدلالات - والله سبحانه وتعالى أعلم - ما يلي:

١. (آل عمران): رمز لاصطفاء الله عز وجل لبعض خلقه، أي: اختيار لمجموعة من البشر وتفضيلهم ليكونوا صفوة خلقه.

وهذا الاختيار والاصطفاء يستدعي القيام بمهمة محددة وتكاليف خاصة مميزة عن سائر الخلق، مما يستوجب القيام بأعباء وتبعات خاصة لتحقيق متطلبات هذا الاصطفاء.

ولقد اصطفى الله عز وجل عائلة عمران من وسط حطام بني إسرائيل، تلك الأمة التي استشرت فيها الصفات المذمومة والتي استدعت الذل والهوان وغضب الله عليهم.. اصطفى الله عز وجل هذه العائلة الكريمة لشأن عظيم أراده لها.. شأن عظيم فيه رفعة لاسم (آل عمران) في الدارين.. قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وعمران هو الوحيد من الأعيان التي ذكرت في هذه الآية لم يكن نبياً، فأدم ونوح وإبراهيم من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام جميعاً...

والشأن العظيم الذي اختار الله عز وجل هذه العائلة له هو: أن جعل فيهم آية خارقة في البشرية كلها إلى قيام الساعة، وهو ميلاد ابن من أم بلا أب، ويصطفى هذا الابن ليكون آخر أنبياء بني إسرائيل، كما يكون أحد أولي العزم العظام من الرسل الخمسة: محمد (ﷺ)، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى عليهم السلام جميعاً.

- ولكن هذا الاصطفاء الإلهي له تكاليفه وتبعاته، فأهم تكاليفه هي: حمل رسالة توحيد الله عز وجل والدعوة لعبادته بهذه الآية المادية الخارقة في بني إسرائيل، الذين اعتادوا الإيمان بالماديات كما ذكر في سورة البقرة.

— ومن أهم تبعات هذا الاصطفاء هو: الابتلاء ليظهر حقيقة الأهلية لهذا الاصطفاء لمن تم اصطفاءهم وللناس كافة، كما أن الابتلاء تطهير وتمحيص لازم لتحقيق هذه الأهلية.. والقاعدة الثابتة: "لا اصطفاء بلا ابتلاء"...

فامرأت عمران ابتليت بالأنثى وكانت تتمنى المولود ذكراً، لتفي بنذرهما لخدمة بيت المقدس، فلما رزقت بالأنثى رضيت، ولما مات زوجها صبرت، ومريم ابتليت بأن تكون أمًا لابن دون أن يكون لها زوج، وفي ذلك اختبار شديد تمت الموت بسببه ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، لأن ذلك الحدث يمس شرفها وسمعتها وهي الطاهرة العفيفة، ولكنها لما علمت أنه أمر الله وقضاه القدري فاستسلمت لربها واستجابت لأمره ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

وابتلى عيسى هو وأمه بالأذى النفسي جراء الشبهات التي أثرت حولهما من الاتهام بالزنا فصبرا واحتسبا هذا الإيذاء، ثم ابتلى عيسى بكفر بني إسرائيل بدعوته ثم محاولتهم لقتله..

— من أهم موجبات هذا الاصطفاء: التطهير والتزكية اللازمين للإعداد والتأهيل لنيل شرف هذا الاصطفاء الإلهي، والقيام بهذه المهمة الخاصة وتكاليها الشاقة، قال تعالى ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].. وهنا نجد أن التطهير يأتي بعد اصطفاء أولي يقع فيه الاختيار الرباني لمن يعلمه الله عز وجل أنه سيكون أهلاً لهذه المهمة، ثم يمر بمرحلة من التمحيص والتنقية والتزكية يبلغ بها الدرجة التي يريدتها الله عز وجل للاصطفاء الثاني بإقامة المهمة وتحقيق تكاليها، كما إن طول العبادة وحسن الصلة بالله أحد أهم هذه المؤهلات ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

• ولقد تكررت صورة الاصطفاء الإلهي في القرآن في نماذج كثيرة منها اختيار الله عز وجل لنبيه موسى ﷺ ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣]، اختيار تفضيل وتكريم ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، لأداء مهمة ثقيلة وشاقة ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢]، أي لا تفترا في تبليغ رسالتي، واستدعى هذه المهمة الثقيلة إعداداً خالصاً

﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَنِّي﴾ [طه: ٣٩]، والمرور بمحن وابتلاءات للتطهير والتخليص لله عز وجل من أية عوائل ﴿فَتَجْنَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، أي خلصناك من المحن لتخلص لنا، كما استوجبت هذه المهمة الشاقة مؤهلات وركائز ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٥-٣٠].. هذا هو معنى الاصطفاء وموجباته وتكاليفه وتبعاته، وهو الشرف الذي يختار الله عز وجل له كل جيل وكل زمان لأداء رسالته ودعوته ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

٢. (آل عمران): رمز يشهد بتوحيد الله عز وجل، كلما تذكرنا أهم ما يميز عائلة عمران.. تذكرنا قصة عيسى عليه السلام، وهو عبد الله ورسوله الذي جاء بتوحيد الله عز وجل ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهو الذي أعلن في المهدي في أول كلماته أنه عبد الله ورسوله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].. كلما ذكر القرآن عيسى عليه السلام ذكر التوحيد وأبطل الشرك ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، وروى البخاري عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» ورواه مسلم^(١).

• إن الشهادة بتوحيد الله عز وجل، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه من موجبات دخول الجنة.

• إن الله عز وجل خلق عيسى بن مريم بكلمة منه وهي: كن، فكان، فليست الكلمة هي التي صارت عيسى، ولكن بالكلمة كن صار عيسى، فهو ناشئ عن الكلمة التي قالها الله عز وجل له بها: كن، فكان، والروح التي أرسل بها جبريل، والمراد في ذلك والله أعلم: أن الله شاء أن ينشئ حياة على غير مثال. فأنشأها وفق إراداته المطلقة ومشيئته القاهرة التي تنشئ الحياة بنفخة من روح الله. ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها. ويجب أن نجهلها فنحن عبيد ملك لله وخلق من خلقه وجميع ما في السموات والأرض عبيده تحت تسييره وتصرفه يذعنون لإرادته ومشيئته وهذا هو التوحيد..

فلولا خلق عيسى ﷺ ما كان الاختبار باتباع كل الآيات والبراهين الساطعة التي تشهد على وحدانية الله عز وجل في الآفاق وفي الأنفس، وكل ما في السموات وما في الأرض يشهد بتوحيده سبحانه وتعالى، وما أرسلت الرسل، روما أنزلت الكتب إلا لتقرير توحيد الله عز وجل.. وكفى بالله شهيداً الذي شهد لنفسه بالتوحيد ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

٣. (آل عمران): ترمز للشبهات والخرافات التي ضل بسببها المضلون والخرقوا عن توحيد الله عز وجل، وتركوا الهدى في الآيات البينات والبراهين الساطعة التي تشهد على وحدانية الله عز وجل، لقد قام اليهود (أهل الكتاب) عليهم لعنة الله بإضلال النصارى وإلقاء الشبهات في عقيدة التوحيد التي جاء بها عيسى ﷺ وادعوا بهتانا وكفراً بالوهمية عيسى ابن مريم، وبنوة الله له تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، كما ادعوا عليهم لعنة الله بأن عيسى وأمه شريكين لله في الألوهية وقالوا ثلاثة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

- إن بداية انحراف النصارى عن التوحيد إلى التثليث كان بسبب شبهات اليهود عليهم جميعاً لعنة الله بكفرهم وقولهم على الله كفراً وبهتاناً عظيماً.

إن النصارى اختلفوا أصلاً في ضلالهم فهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقول غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً.. واختلفوا إلى فرقاً شتى منه الملكية واليعقوبية والنسطورية.. وكل هذه الفرق تثبت

الأقانيم الثلاثة في المسيح (الأب والابن وروح القدس). باعتبارهم كائناً واحداً هو الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحاداً، أو ما اتحاداً، بل امتزجاً أوحد فيه؟ وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن بفضل الله نكفر الثلاثة.

• إن آيات سورة (آل عمران) ردت كل هذه الشبهات الباطلة والدعاوى المزيفة السخيفة بأسلوب لا تعقيد فيه ولا غموض قال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. هكذا ببساطة وبطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أية شبهة من الأساس في بشرية عيسى الكاملة.. وأنه واحد من سلالة الرسل.. حقيقة عيسى وحقيقة آدم وحقيقة الخلق كله إنما هو محض مشيئة مطلقة لملك الملوك وحده.. خلق آدم من تراب وبنفخه من روح الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فأمن أهل الكتاب وأقروا بنشأة آدم دون أن يصوغوا حوله الشبهات والأساطير التي صاغوها حول عيسى.. ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية.. فكيف إذن ثار الجدل حول خلق عيسى وهو جار وفق السنة الكبرى!.. سنة الخلق والنشأة جميعاً، ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].. لذلك فرمزية (آل عمران) هنا أيضاً هي إما الوقوع في الشبهات واتباعها ومن ثم الانحراف والضلال عن العقيدة الصحيحة، وإما الإيمان والتسليم بقدره الله وتوحيده وآياته البينة.

٤. (آل عمران): ترمز للثبات على الحق في وجه الماكرين والمخادعين، ودحض الشبهات بالبينات، ورد المتشابهات المحكمات.

تذكرنا رمزية (آل عمران) بدسائس أهل الكتاب وشبهاتهم في مريم وعيسى التي كانت سبباً في زعزعة عقيدة التوحيد عند النصارى وخلختها قلوبهم حتى وقعوا في الضلال والشرك ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

كما تذكرنا رمزية (آل عمران) بإيمان الحواريون بالله، وتصديقهم عيسى ابن مريم عليه السلام وتوحيدهم لله عز وجل، وثباتهم على هذا الحق المبين ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

٥٢-٥٣]، وتحكي كتب السير كم ثبت أصحاب عيسى ابن مريم، حملوا على الخشب ونشروا بالمنشير، ما دون لحمهم وعظامهم، فما صدهم ذلك عن دين الله^(١).

والحواريون: جمع حواريّ- بتشديد الياء- وهو من الحور وهو البياض، وسموا حواريين لنصرتهم لعيسى عليه السلام، فالحواري هو الناصر كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي حواري وحواريي الزبير»^(٢).. وهؤلاء الحواريون كانوا نموذج للثبات على الحق أمام مكر بني إسرائيل بنبي الله عيسى عليه السلام، فأمنوا به وآزره ونصروه لما انصرف الناس من حوله وارتدوا عنه، وأعلنوا اتباعهم له (واتبعنا الرسول) وهذا في الحقيقة أهم دليل على الثبات على الحق هو اتباع الرسول والسير خلف منهجه وهداه، وهذه علامة الإيمان، (واكتبنا مع الشاهدين) أي: اكتبنا مع الذي شهدوا لرسلك بالحق، فاتبعوهم بين أئمة الكفر حتى لا يداهن في دين الله

- وهنا تجدر الإشارة أن الرسل محتاجون لمن ينصرهم لقوله (من أنصاري إلى الله)، وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه، وهاجر إليهم فمنعوه من الأسود والأحمر.

(١) المنهج الحركي للسيرة، د. منير الغضبان، ص ٧٥

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦٨١، ٧٩٩) من حديث عليّ رضي الله عنه.

خريطة سورة آل عمران

خطوط ترابط سورة آل عمران ووحدها الموضوعية وهدفها العام

- نريد بعرض خريطة سورة (آل عمران) أن نعرض خطوط ترابطها، ووحدها الموضوعية في جملتها، ثم نقوم بعد ذلك بإذن الله بالعرض التفصيلي لمقاطع السورة وفقاً لمحورها الرئيسي وهدفها العام.
- ومن خلال الوقوف على دلالات اسم (آل عمران) ورمزية هذا الاسم الذي أشرنا إليه بفضل الله، يمكن لنا أن نقول بعون الله وتوفيقه أن خطوط ترابط آيات سورة (آل عمران) من أولها إلى آخرها هي كالتالي:
- الرابط الأول: خط الاصطفاء للمهمة وتكاليها.
- الرابط الثاني: خط بيان عقيدة التوحيد الخالصة ومعنى الدين.
- الرابط الثالث: خط الشبهات لتشكيك الأمة في عقيدة التوحيد.
- الرابط الرابع: خط الثبات على الحق في مواجهة الشبهات والفتن والشهوات.

الرابط الأول: خط الاصطفاء للمهمة وتكاليها

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾

- شهدت سورة آل عمران ألواناً عديدة من اصطفاء الله عز وجل لأعمال وأعيان، لعبادات ورسالات، فقد اختار الله عز وجل من بين خلقه رسلاً وأنبياءً تكريمًا وتفضيلاً لهم على سائر أهل الأرض بهذه المرتبة والمكانة، ثم اختار واصطفى من الأنبياء بعض النبيين ليكونوا أولي العزم من الرسل، ثم اختار واصطفى منهم النبي الخاتم للبشرية جمعاء، ثم فضل واصطفى أمته لتكون خير أمة أخرجت للناس، واختار واصطفى من بين رسالاته وشرائعه دين الإسلام ليكون الدين الذي ارتضاه الله عز وجل للعالمين إلى يوم الدين، ولا يقبل دين سواه، واختار الله عز وجل واصطفى من بين خلقه من يحمل أمانة إقامة منهجه في الأرض، واختار منهم المجاهدون في سبيله، واصطفى من المجاهدين الشهداء في سبيله، وكل مرتبة ودرجة لها من الشروط والصفات التي تؤهل لهذا

الاختيار والاصطفاء، فليس هذا التفضيل والتكريم بناءً على وساطة أو محسوبة حاشى لله ولكنه اختيار بناءً على استحقاق لا يعلمه إلا الله (السميع العليم)، ولا يظهر حقيقة هذا الاستحقاق إلا بالابتلاء بالحن والتمحيصات، وبالشدّة والاختبارات...

• ومن الاصطفاءات التي جاءت في سورة (آل عمران):

١. اصطفاء الدين والرسالة الخاتمة: قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].
٢. اصطفاء الأنبياء: قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].
٣. اصطفاء بعض النبيين: قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].
٤. اصطفاء النبي الخاتم محمد (ﷺ) على سائر الأنبياء: قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].
٥. اصطفاء أمة الإسلام على سائر الأمم: قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].
٦. اصطفاء ذرية من خلقه على سائر البشر كعائلة آل عمران: قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].
٧. اصطفاء السيدة مريم: قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].
٨. اصطفاء فئة من الأمة لمهمة إقامة منهج الله في الأرض: قال تعالى ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].
٩. اصطفاء أنصاراً لدينه: قال تعالى ﴿قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

١٠. اصطفاء المجاهدين في سبيله: قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

١١. اصطفاء الشهداء في سبيله: قال تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

• ثم بينت سورة (آل عمران) أن الاصطفاء مرهون بصفات ومؤهلات، وهي الموجبات التي ترتقي بالعباد لئلا يشرفوا بهذا الاستحقاق ومن هذه الموجبات (نذكرها هنا إجمالاً ثم نصلها مع عرض السورة التفصيلي بإذن الله):

١. القنوت وطول العبادة

- نموذج اصطفاء آل عمران يظهر عاملاً مميزاً في هذه العائلة، أهلها لتكريم الله عز وجل وهو طول العبادة مع الخضوع فيها وإخلاصها لله عز وجل والقنوت لله عز وجل.

والقنوت: هو الطاعة والخضوع لله عز وجل والاشتغال به سبحانه وتعالى عما سواه"، قال تعالى ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وكثرة السجود والركوع دليل على طول العبادة ودوام الطاعة وتحقيق أركانها من الخشوع والخضوع.

٢. الاعتصام بالله عز وجل ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، والاعتصام بالله هو: الاعتماد عليه والتوكل عليه والاستعانة به ٩، ومن أهم مظاهر الاعتصام بالله التي تكررت كثيراً في هذه السورة هي الدعاء، والدعاء: يحمل من معاني العبودية الكثير فهو تعبير عن الرابنية والافتقار والاستعانة والتضرع والعود إلى الله رب العالمين.

قال تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، قال تعالى ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، قال تعالى ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا

عَذَابَ النَّارِ ﴿آل عمران: ١٩١﴾ .. وهذه هي حقيقة العائشون بالله (إياك نستعين) أن تتوكل عليه وتعتصم به سبحانه وتعالى في كل أمورك الظاهرة والباطنة.

٣. التطهر من الذنوب

- فالاصطفاء الرباني تكريم ورفعة يستوجب التطهير من الذنوب والآثام وذنس النفوس، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فالذنوب والعصيان هي السبب الأول للفشل والخذلان في مواجهة أعداء الدين وفي التولي عن القتال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

٤. الصبر والتقوى

- من أهم شروط استدعاء التأييد الإلهي تحقق شرطي الصبر والتقوى في الفئة المؤمنة، وهما من أقوى أسلحة مواجهة كيد الظالمين والماكرين، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، واقتربنا الصبر والتقوى معاً في هذه السورة في مواضع كثيرة للدلالة لأهمية مراقبة الله عز وجل واتصال القلوب به والبعد عن محارمه مع الصمود والثبات أمام الظالمين والماكرين. فقد يصبر العبد على البلاء صبراً اضطرارياً ولكنه يقع في المعاصي ولا يحافظ في ثنايا المشقة والصراع المرير على تقوى الله، فالذي يتقي ربه وهو يعاني الشدائد هم أولو العزم الأقوياء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٥. التجرد لله عز وجل والتحرر له

- قال تعالى ﴿رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

هذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبل ربها نذرها وهو فلذة كبدها ينم عن التوجه الخالص لله، والتوجه إليه بالكلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه^(١).. وما التطهير بالحن والشداد إلا للوصول لهذا المستوى من الإخلاص لله عز وجل من أية عوالم أو شوائب.. وهذا هو طريق الاصطفاء.. العائشون لله.. أن تكون خالصًا مخلصًا لله (إياك نعبد)، عملية تصفية من الحظوظ والأكدار ﴿فَنَجِّينَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] أي: خلصناك من الحن تخلصًا لتصير خالصًا لنا، وقوله تعالى ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٥٦-٤٧].

قال مجاهد: "جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها"، وقال مالك بن دينار: "نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها"^(٢).

الرابط الثاني: خط بيان عقيدة التوحيد الخالصة ومعنى الدين (شهد الله أنه

لا إله إلا هو)

- أكدت سورة (آل عمران) من أولها على بيان عقيدة التوحيد الخالصة وهي توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية.. وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله.. أي لا يقوم شيء إلا بالله تعالى ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢] فشهدت بداية السورة معنى الإسلام وهو الاعتقاد بوحدة الألوهية (الله لا إله إلا هو) ووحدة القوامة (الحي القيوم).. وهو ما يعني أن التوجه والقصد من الخلائق بالعبودية لا يكون إلا لله.. وأنه لا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى.. ومن ثم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو "الإسلام" أي: الاستسلام المطلق لله عز وجل بالعبودية له وحده.. والتحاكم إلى كتابه وشرعه.. واتباع الرسول الذي نزل عليهم كتابه ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٣٩٢

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، المجلد الثالث، ص ١٥٣

ولن يقبل الله من عباده أي دين أو منهج عن هذا الدين أو المنهج:

استسلام مطلق له.. عبودية له وحده.. تحاكم إلى كتابه وشرعه.. اتباع رسوله (ﷺ) ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] أي: استسلم له سبحانه من في السموات والأرض طوعًا بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهًا لأنه تحت القهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.. والإسلام ولاء للمؤمنين، وبراء من كل أعداء الدين ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، والإسلام طريق واحد، ومنهج واحد، ونظام واحد من تلقى من غيره من المناهج والنظم سار على غير طريق الإسلام ولن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].. وهذه هي ملة إبراهيم ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، وهذا الإسلام هو مقتضى التوحيد المطلق الناصع القاطع لله عز وجل الذي شهد الله عز وجل لنفسه الكريمة به ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٨-١٩].

ومن يتبع نظم أعداء الدين فقد خالف دين الإسلام ووقع في طريق الكفر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

• وأما المؤمنون المستسلمين لربهم يتلقون كل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿قَالَ الْخَوَارِثِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣]، ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].. والذين شهدوا لله عز وجل بالوحدانية وجاهدوا في سبيل شهادتهم لله عز وجل هذه ثم ماتوا في سبيل شهادة التوحيد لربهم، هؤلاء يسمون بالشهداء وهؤلاء هم أكرم خلق الله على الله بعد الأنبياء والصدقيين ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهُ أَمْوَانًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٦٩-١٧١].

- لذلك فالقرآن يكاد يهتف ويقول: التوحيد والجهاد لإقامة التوحيد والجهاد لإقامة التوحيد وإقراره في الأرض.. وهذا هو مراد القرآن كله.. فمن انخرق عن التوحيد.. وتخلى عن الجهاد فقد صار في واد... والقرآن الكريم في واد..

الرابط الثالث: خط الشبهات لتشكيك الأمة في عقيدة التوحيد

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾

- بينت سورة آل عمران مدى ضراوة الحملة الطويلة التي يقوم بها أهل الكتاب وأعداء الدين لتشكيك الأمة في عقيدة التوحيد الخالصة القاطعة، فبدأت بشبهات اليهود فيما يتعلق بعيسى عليه السلام وما تعمدوا من إلقاء شبهات مأكرة تسببت في خلخلة عقيدة التوحيد عند النصارى إلى عقيدة التثليث، وانحرفوا إلى عقائد باطلة، والقرآن يحسم هذه الشبهة بكل بساطة ووضوح برد خلق عيسى إلى المشيئة الإلهية المطلقة كخلق آدم عليه السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠] أي: كيف تدعون أيها اليهود، أن إبراهيم كان يهوديًا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟، وكيف تدعون أيها النصارى، أنه كان نصرانيًا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟! ولهذا قال: (أفلا يعقلون).. وهكذا تستمر الدسائس والمكر، ويستمر كيد أهل الكتاب وتشكيكهم في محاولات مستميتة لزعزعة العقيدة وإضلال أمة الإسلام عن دينها ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

لذلك يأتي تحذير القرآن شديدًا لأمة الإسلام من أن تؤتى من هذا المدخل، لأنها هذه الأمة لا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها بينما لا يبلغ أعداؤها منها شيئًا وهي ممسكة بعروة الإيمان، سائرة على نهج الإسلام، لا تحيد عن منهج الله وطريقه.. أما إذا انخدعت الأمة بتزيين أعداء الدين لها بمناهج غريبة، وتقاليد ومبادئ دخيلة على عقيدة التوحيد الصافية..

فإن هذا هو أول طرق الانحراف إلى الهاوية وسقوط الأمة في الضلال والشرك، ومن الشبهات والمكائد التي أراد بها أهل الكتاب لبس الحق بالباطل، وخديعة الضعفاء من الناس في دينهم، وهو أن أهل الكتاب يتسترون بين المسلمين فيظهرون الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدَّهم إلى دينهم إطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] لعلهم يرجعون أي: لعلهم يرتدون عن دينهم.. وهذا هو هدفهم بوضوح وصراحة: أن يرتد المسلمون بعد إيمانهم كافرين.. لذلك كان التعجب القرآني لمن يرتد إلى ظلمة الشرك بعدما قامت عليه الحجج والبراهين الساطعة عن طريق النبي (ﷺ) الذي سلكه، وهديه الذي أمرنا باتباعه لإقامة دينه في الأرض ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

ونفس المعركة القديمة التي أظهرتها لنا سورة (آل عمران) وكشفت عن حقيقتها أنها كانت وستظل معركة عقيدة بين هذه الأمة وأعدائها من كل دين.. وحين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والاقتصاد والخصولات، فإنهم يحاولون أولاً أن يغلبوها على العقيدة.. لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئاً والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها^(١).. ولكن الحقيقة أن حبائل أعداء الدين وشباكهم قد التفت على أمة التوحيد بتزيين مناهج غريبة مثل الليبرالية والعلمانية والديمقراطية.. واتخذت الأمة في هذه المناهج وانحرفت عن منهجها وعقيدتها.. لذلك تأخذ (آل عمران) بأيدي الأمة المسلمة والفئة المؤمنة بالثبوت على الحق والاستقامة على دينها.

الرابط الرابع: خط الثبات على الحق في مواجهة الشبهات والفتن والشهوات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١/ ٣٥٤

• جاءت سورة (آل عمران) تدفع الأسلحة المسمومة التي يستخدمها أعداء الدين ويصوبونها في صدر عقيدة التوحيد، وذلك لتثبيت المؤمنين على الحق، فأخذت الآيات تلو الآيات تدحض الشبهات وترد الشكوك، وتنفي الدعاوي الكاذبة التي يلقيها أهل الكتاب، وتجلي الحقيقة الكبيرة للتوحيد ولهذا الدين وذلك بكشف النوايا المستمرة والوسائل القذرة لأهل الكتاب ثم بدعوة المؤمنين لتملك الحجج القوية الدامغة والعلم الراسخ لمواجهة هذه المكائد والشبهات، فكلما تحصن المؤمنون بالبينات والعلم كان أول أسلحتهم هو رد المتشابه إلى المحكم ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ثم الاعتصام بالله عز وجل هو: السلاح الأهم لهذه الأمة وهو العاصم لها من الزلل والانحراف ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ثم تبصر سورة (آل عمران) المؤمنين بأهمية الثبات على العقيدة وذلك بالتلقي من منهج الله وحده وعن رسوله (ﷺ)، وأن محبة الرسول (ﷺ) بالاتباع وليس بالشعارات والدعاوي ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

ثم بينت سورة (آل عمران) في بيان واضح وجلي أن طريق المؤمنين أصحاب مهمة إقامة الدين ملئ بالعقبات والشهوات، والعراقيل والإغراءات، والفتن والابتلاءات، والدماء والتضحيات... وهكذا طريق الجنة حف بالمكاره، وطريق النار حف بالشهوات ﴿رَبِّينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]. والشهوات هي كل اللذائذ الدنيوية المحببة إلى النفس البشرية، والميل للشهوات فطري، أما اتباعها والانغماس فيها ففيه فساد القلب والدين.. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَا﴾ [مريم: ٥٩]، فالإقبال على ملذات الدنيا والرضا بالحياة الدنيا، فيه خسارة العبد لآخرته، فالاستجابة للشهوات هبوطاً للأرض والطين، بينما الارتقاء إلى السماء يستوجب الاستعلاء على هذه الشهوات، وضبطها بأن يصير الإنسان هو مالكتها والتسامي لما هو أعلى منها ﴿قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ

بَخِيرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِّلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ [آل عمران: ١٥] وهذا المتاع الأخروي عوض كامل عن متاع الدنيا وشهواتها الزائلة، ثم هنالك ما هو أكبر من كل متاع.. هنالك "رضوان من الله". رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما.. ويرجح.. رضوان الله عز وجل ﴿رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

والمؤمن لا يزال يتزكى ويتطهر من حب الشهوات الفطرية، ومن إغراء النساء، ونهم المال وأمراض الشح والحرص.. ليجد طريقه مليء بالفتن بكيد الظالمين وإيذاءهم في نفسه وماله ﴿لَتُبْلَوْنَ فِيْ اَمْوَالِكُمْ وَاَنْفُسِكُمْ وَاَنْتُمْ سَمِعْنَ مِنَ الَّذِيْنَ اٰتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِيْنَ اَشْرَكُوا اَدٰى كَثِيْرًا وَاِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا فَاِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر﴾ [آل عمران: ١٨٦].. إنه طريق مفروش بالفتن والآلام والتضحيات والأذى والابتلاء.. هذا هو الطريق والثبات عليه أمام الشبهات إن قابلتك بدحضها وردها إلى المحكم، وأمام الشهوات إن اشتد إغراؤها بالتحلق بما عند الله من حساب المآب، والثبات أمام البلايا والمصائب بالصبر والتقوى فسورة (آل عمران) تؤكد أن الثبات على الحق.. على الإيمان والهداية.. على التوحيد ومنهج الإسلام.. هو أهم موجبات الاضطفاء والتكريم لإقامة منهج الله في الأرض، وقيادة البشرية بمنهج الله... فلا تزال السورة تثبت الفئة المؤمنة حتى إن اقترفت الذنوب والفواحش ﴿وَالَّذِيْنَ اِذَا فَعَلُوْا فَاْحِشَةً اَوْ ظَلَمُوْا اَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّٰهَ فَاَسْتَغْفَرُوْا لِذُنُوْبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوْبَ اِلَّا اللّٰهُ وَمَنْ يُصِرُّوْا عَلٰى مَا فَعَلُوْا وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، بألا تتخلى عن دينها وإيمانها.. بألا تترك الهداية التي أمنن الله عليهم بها.. بأن تستقيم على الحق وإن خذلها الناس.. ولن يحدث نصر في معركة الميدان والقتال إلا بالانتصار في معركة الضمير أمام الشبهات والشهوات والابتلاءات.

•• لذلك يعتبر الخط الرابع: الثبات على الحق هو المحور الرئيسي لسورة (آل عمران) والذي يمثل وحدتها الموضوعية: (الثبات على الحق في مواجهة الشبهات والفتن والشهوات).

وصار الهدف العام لسورة آل عمران هو والله أعلم:

(الثبات على الحق أهم موجبات الاضطفاء لأداء مهمة الأمة)

- وهذا الهدف هو الذي يرتبط بسور السلسلة الأولى في المنهج الحركي للقرآن كما بينا بفضل الله وتوفيقه في مقدمة هذه السلسلة.

لفتة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن

- الفوارق بين سورتي (آل عمران) و(مريم):
 - سورة (آل عمران) وردت فيها ردود أهل الكتاب حول عيسى ومريم بأمر لم ترد في سورة (مريم)، وعرضت سورة (آل عمران) قصة مولد مريم وتاريخها هو ما لم تعرضه سورة (مريم).
 - كما لم تذكر سورة (آل عمران) أن عيسى قد ولد بالفعل، ولا أن أمه واجهت به القوم فكلمهم في المهدي، ولا أنه عرض عليهم هذه المعجزات التي ذكرت في البشارة لأمه كما جاء في سورة (مريم).
 - إن سياق سورة (آل عمران) يركز على قضية التوحيد: توحيد الألوهية وتوحيد القوامة والرد على شبهات أهل الكتاب حول هذه القضية لتثبيت الفئة المؤمنة على عقيدتها دون أن تزعزعها شبهات أهل الكتاب، وهذا ما يتناسب مع سياق وموضوع السورة كلها.
 - بينما سورة (مريم) سياقها وموضوعها هو يتناسب مع رمزية مريم: العابدة الطاهرة كما يحمل اسمها من معنى، لذلك ركزت السورة مع نفيها فكرة الولد والشريك إلى التركيز على العبودية مثل الخلوة التعبدية والصلاة.. كما سيرد بإذن الله في عرض سورة (مريم) بإذن الله.
- تم بفضل الله عرض مقدمة سورة (آل عمران)

العرض التفصيلي لسورة آل عمران

- يتناول العرض التفصيلي لسورة آل عمران خمسة مقاطع رئيسية وهي:
 - المقطع الأول: مقدمة السورة وملخص محاورها (من الآية ١ : ٣٢).
 - المقطع الثاني: دحض الشبهات والدعوة لاتباع الحق (من الآية ٣٣ : ٩٩).

- المقطع الثالث: دعوة الفئة المؤمنة للثبات على الحق وأداء تكاليف مهمتها (من الآية ١٠٠ : ١٢٠).
- المقطع الرابع: الانقلاب على الأعقاب ميدانياً والتطهير اللازم لإقامة منهج الله في الأرض - غزوة أحد (من الآية ١٢١ : ١٧٩).
- المقطع الخامس: خاتمة السورة والفوز الحقيقي (من الآية ١٨٠ : ٢٠٠).
- وسنقوم بإذن الله بعرض مقاصد القرآن من خلال عرضنا لمقاطع السورة الرئيسية السابقة، وهذه المقاصد هي:
- المقصد الأول: معرفة الله عز وجل... تعرف على ربك: (السميع العليم).
- المقصد الثاني: الإعداد لليوم الآخر... النجاة من النار وثواب الآخرة.
- المقصد الثالث: تزكية النفس... صفات المتقين وتطهير النفس.
- المقصد الرابع: إقامة مهمة الأمة... تكاليف مهمة إقامة منهج الله في الأرض، بصائر: سنة التداول بالنصر والهزيمة.

المقطع الأول: مقدمة السورة وملخص محاورها (من الآية ١: ٣٣)

- يشمل المقطع الأول في سورة آل عمران ملخص لمحاور السورة وموضوعاتها الرئيسية وهي:
- ١. بيان حقيقة التوحيد: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وبيان معنى دين الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].
- ٢. المحكم والمتشابه بين التسليم والتأويل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧].
- ٣. الثبات على الحق في مشهد بالعصمة والاستقامة: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

٤. سنة الله في النصر والهزيمة: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فِتْنَةُ تُفَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

٥. ضرورة التطهر من العوالم والقيود والاستعلاء على الشهوات لنيل شرف الاصطفاء: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، مع أهمية الصبر وطول العبادة كمؤهلات لهذا الاصطفاء ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

• وسنقوم هنا في هذا المقطع الأول بإذن الله بعرض:

أولاً: بيان حقيقة التوحيد ومعنى دين الإسلام.

ثانياً: المحكم والمتشابه بين التسليم والتأويل.

ثالثاً: الثبات على الحق في مشهد العصمة والاستقامة.

• بينما سنقوم بإذن الله بعرض: "سنة الله في النصر والهزيمة" مع المقطع الرابع الخاص (بغزوة أحد)

وذلك لاتصال المعنى هناك وتناسبه أكثر.

• مع عرض: "ضرورة التطهر من العوالم والقيود والاستعلاء على الشهوات لنيل شرف

الاصطفاء.. مع المقطع الثالث الخاص بـ (دعوة الفئة المؤمنة للثبات على الحق وأداء

تكاليف مهمتها) حيث سنقوم هناك بتفصيل تكاليف المهمة وموجبات الاصطفاء فكان

عرض هذا المحور هناك منعاً للتكرار.

• إشارة هامة:

يقيناً دون الاحتياج للذكر أن طريقة القرآن في عرض عناصر السورة ومحاورها هي عين

الإحكام والإتقان.. وقد أراد الله عز وجل أن نعيش مع هذه المعاني في طول السورة منذ بدايتها

وحتى نهايتها دون أي تضاد أو اختلاف أو تعارض وما يجمل في موضع يتم تفصيله في موضع آخر.

مع وضع كل آية في أنسب مكان لها.. والمطلوب منا هو تدبر السورة واستخراج عناصرها ومحاورها الرئيسية ثم القيام بتربيطها ببعض لنحصل على الوحدة الموضوعية للسورة كلها ومن ثم الواجبات العملية لها.. لذلك نقوم بتجميع عناصر موضوع السورة المشتركة من أولها إلى آخرها ثم عرضها في مقاطع متصلة سويًا حتى يتصل المعنى دون تكرار منا.

أولاً: بيان حقيقة التوحيد ومعنى دين الإسلام

- قال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿آل عمران: ١٨-١٩﴾.

• يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: "شهد تعالى وكفى به شهيدًا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين أنه سبحانه وتعالى هو المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦] (١).

• يقول ابن القيم في المدارج عن شهادة الله عز وجل لنفسه بالوحدانية: "هذه الآية تضمنت أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها من أجل شاهد، بأجل مشهود به.. وهذه الشهادة لها أربعة مراتب: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به ونطقه به وإن لم يعلم به غيره، وإعلامه وإخباره خلقه بما سنشهد به، أمرهم وإلزامهم بمضمونها.. وهذه مراتب وأركان تتضمنها أي شهادة وشرحها كالتالي:

١. أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمن العلم بالحق ضرورة وإلا كان الشاهد شاهداً لما لا علم له به قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]... والله عز وجل أعلم بصحة المشهود به وأعلم بثبوته وهو وحدانيته سبحانه وتعالى.

(١) مختصر تفسير ابن كثير - ٣٢٢/١.

٢. وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به وإن لم يتلفظ بالشهادة، فشهادة المرء على نفسه هي إقراره على نفسه ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]... والله عز وجل نطق بتوحيده وتكلم به سبحانه وتعالى جل في علاه.

٣. وأما مرتبة الإعلام والإخبار: وهي نوعان إعلان بالقول وإعلام بالفعل وشهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه نقول: وهو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه.. وجميع الرسل جاءوا بتوحيد الله عز وجل وأمروا به العباد أن يشهدوا به، وجميع كتب الله نزلت بتوحيد الله عز وجل والدعوة إلى أن يشهد العباد بوحديته سبحانه وتعالى.

قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قال تعالى ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١-٤].

— وشهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي لا تعلم دلالتها بالعقل والفطرة وهي آياته المخلوقة الدالة عليه فتتطابق شهادة القول عن طريق الرسل والكتب وشهادة الفعل عن طريق دلائل الوحدانية في آيات الأفاق والأنفس ﴿سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

● لذلك فالعباد مأمورون بالتفكير في آياته الدالة على توحيده، قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].. فآيات الله تعالى تشهد بوحديته سبحانه.

٤. وأما المرتبة الرابعة: وهي الأمر بذلك والإلزام به، فسبحانه وتعالى قضى وأمر، وألزم عباده بتوحيده، كما قال تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر، وبين وأعلم، وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه. كما لا تصلح الإلهية لغيره^(١).

- وهذه الشهادة معناها: تفرد الله عز وجل بالألوهية، ونفي الألوهية عن غيره سبحانه وتعالى.. وهذا هو معنى التوحيد (لا إله إلا الله).
- ولكن ما هي حقيقة التوحيد؟ وما هي متطلباتها؟

يجيب عن هذا السؤال الشيخ سيد قطب رحمه الله فيقول: "إن حقيقة تفرد الله عز وجل بالألوهية تعني وتستلزم: الإقرار بالعبودية لله عز وجل وحده وتحكيمه في شأن العبيد كله، واستسلام العبيد لإلههم، وطاعتهم له، واتباعهم لكتابه، واتباعهم لرسوله (ﷺ)"^(٢).. وهذه هي حقيقة التوحيد:

✓ تحقيق العبودية لله عز وجل.

✓ إقامة الحاكمية لله عز وجل.

القرآن وتوحيد الله

- والقرآن الكريم نزل لتوحيد الله عز وجل.. فكل آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه كما يقول ابن القيم: "فإن القرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائه والقرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد (العلمي الخبري)،

(١) تهذيب مدارك السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ٥٦٤ : ٥٦٦

(٢) في ظلال القرآن، سيد ، ٣٧٧/١.

(وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه.. وهو التوحيد (الإرادي الطلي)، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي (حقوق التوحيد ومكملاته) وإما خبر عن كرامة الله لأهل التوحيد وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة. فهو جزاء توحيدهم وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبي من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد)^(١).. وهذه هي وظيفة القرآن: نزل من أجل التوحيد.

• يقول الدكتور علي الصلاحي: "لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٢-٣]، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب، فكذلك تطبيق الحاكمة غاية من إنزاله، وكما أن العبادة لا تكون إلا عن وحي منزل، فكذلك لا ينبغي أن يحكم إلا بشرع منزل"^(٢).

• ولكن كيف يقام التوحيد في الأرض ويقر؟

يقول النبي (ﷺ): «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» وهذه رواية جابر بن عبد الله، وأما في رواية أبي هريرة رضي الله عنهما: «حتى يشهدوا أنه لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

- إن القرآن الكريم لو قدر له أن ينطق لهتف وقال: "التوحيد والجهاد" كلمتان فقط يدور حولهما مدار القرآن: توحيد الله عز وجل والجهاد لإقامته في الأرض ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً

(١) تهذيب في مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ٥٦٣

(٢) السيرة النبوية، د. علي الصلاحي، ص ٣٩٧ نقلاً عن الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٦/ ٤٣٣)

وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ١٩٣﴾، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿الأنفال: ٣٩﴾.

- وهذه هي حقيقة التوحيد ومعنى (شهد الله أنه لا إله إلا هو)، ثم قرن الله عز وجل شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.

● وفي قوله تعالى ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وهو العدل، أي شهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيدِهِ، وبالوحدانية في عدله، والمعنى فيها إحدى قولين كما يقول ابن القيم:

- "شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو أي أن هذه الشهادة شهادة عدل وقسط، وهي أعدل شهادة وأن جزاء الموحدين الجنة، وجزاء المشركين النار كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها والله أعلم وهذا جزاء الشاهدين بها والجاحد لها معنى "قائمًا بالقسط"^(١).

- مرادها أنه: لا إله إلا هو قائمًا بالعدل، أي هو وحده المستحق للإلمية مع كونه قائمًا بالقسط، وقال ابن تيمية وهذا التقدير أرجح.

فإنه يتضمن: أن الملائكة وأولي العلم يشهدون له بأن لا إله إلا هو.. وأنه قائم بالقسط.. أي بشهادة الوحدانية يصاحبها بأنه تعالى قائم بالعدل بوصفها حالة ملازمة للألوهية.

- يقول الشيخ سيد قطب حول طبيعة شهادة الملائكة وأولي العلم: "وأما شهادة الملائكة وشهادة أولي العلم، فهي متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها، والتلقي عن الله وحده، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال.. فهذه شهادة أولي العلم وشهادة الملائكة: تصديق. وطاعة. واتباع. واستسلام"^(٢).

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ص ٥٦٧

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٣٧٨/١.

- وأما شهادة أمة الإسلام تشمل شهادة إقرار بالتوحيد، وشهادة إظهار وإعلام، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].
- ومن لم يقيم بحق هذه الشهادة: علمًا وعملاً ومعرفة وإقراراً ودعوة وتعليمًا وإرشادًا فليس من شهداء الله^(١).

كيف تؤدى شهادة لا إله إلا الله؟

- لذلك فمن مقتضى شهادة التوحيد كما يقول الشيخ سيد قطب هو: "أن يجاهد المسلم لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض، كما بلغها محمد (ﷺ) فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس، والذي بلغه عنه محمد (ﷺ) هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله، فهو إذن شهيد أي: شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها.

وهذا هو مدلول شهادة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومقتضاه، وهذه هي العلاقة بينها وبين الشهادة في سبيل أداء حقها في الأرض وإخضاع الأرض لألوهية الله وحده^(٢).

الشهادة الحية لهذا الدين

- وهام الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه، يقول تعالى ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

- أي أن يوقفهم الله عز وجل في أن يجعلوا أنفسهم صورة حية لهذا الدين، وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في هذه الحياة... وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعي

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ٥٦٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤٠٢/١ بتصرف يسير.

لنفسه الإسلام فهذا هو الإسلام كما يفهمه الحواريون، ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه. فأما إذا ادعى الإسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الإسلام أو حاولها في نفسه، ولم يجاهد لإقامة منهج الله في الحياة إثارةً للعافية، وإثارةً لحياته على حياة الدين فقد قصر في شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين" (١).

- وهذه هي حقيقة التوحيد وهذه هي حقيقة شهادة التوحيد.

لا دين سوى الإسلام

- ويضمن حقيقة التوحيد قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وفيها إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام.. الإسلام الذي هو: الاستسلام والطاعة والاتباع.. إذن ليس الدين الذي يقبله الله من الناس هو مجرد تصديق في القلب.. إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور.. وهو: تحكيم منهج الله في أمر العباد كله، وطاعتهم لما يحكم به، واتباعهم لرسوله في منهجه ولا دين يقبله الله إلا الإسلام. ولا إسلام بغير استسلام لله وطاعة لرسوله، واتباع لمنهجه، وتحكيم لكتابه في أمور الحياة.. وهذا هو معنى دين الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

- قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] يقول ابن كثير: "يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتايبهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع النبي (ﷺ) تولوا وهم معرضون عنهما" (٢).

- إذن الدين: الإسلام، والإسلام: التحاكم إلى كتاب الله وطاعته واتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) ومنهج وشرعه.. ومن لم يفعل فليس له دين وليس مسلمًا، وإن ادعى الإسلام وادعى أنه على دين الله.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤٠٢/١)

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق أحمد شاکر، ص ٣٢٤

- وقد اشتملت سورة (آل عمران) على بيان حقيقة التوحيد الساطعة على بيان معنى دين الإسلام، كما ربطت سورة (آل عمران) بين التوحيد ودين الإسلام حيث بينت أن (الإسلام) هو: التعبير العملي للتوحيد، وأن شهادة التوحيد تتمثل واقعياً في دين الإسلام بمعنى الاستسلام ليس بالاعتقاد والشعور فحسب بل الاستسلام بالعمل والطاعة واتباع المنهج الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب واتباع الرسول (ﷺ) في شرعه ومنهجه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [آل عمران: ١٨-١٩].

اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) شطر الدين

- إن اتباع طريق الرسول (ﷺ) هو أحد أركان الإسلام وأعمدته الرئيسين.. فما الإسلام إلا طاعة الله واتباع الرسول (ﷺ) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

- يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "هذه الآية يسميها بعض السلف آية الخنة، أي: آية الاختبار والامتحان، وذلك أن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله، فأمر الله نبيه أن يتحداهم بهذا الميزان، وهو إن كانوا صادقين فليتبعوا الرسول (ﷺ)، لأن الدعوى سهلة. لكن الكلام على البينة، والبنية على المدعي، فإذا كانوا يحبون الله حقًا فليتبعوا النبي (ﷺ)، لينالوا ما هو أعظم من دعواهم وهو محبة الله لهم (فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم، والجملة شرطية، وفعل الشرط (كنتم) وجوابه (فاتبعوني) أي: على ما أنا عليه من الشريعة، عقيدة وقولاً وفعالاً وتركاً، فمن اتبع الرسول (ﷺ) بهذه الأربعة صدق في اتباعه، ومن خالف فهو غير صادق.

- عقيدة: بحيث تكون عقيدته على ما كان عليه الرسول (ﷺ) وأصحابه دون تحريف أو شك.

- وقولاً: لا يزيد ولا ينقص عمّا جاءت به الشريعة من الأقوال.

- وفعالاً: كذلك لا يزيد ولا ينقص.

- وترگا: بحيث يترك ما لم يعمله الرسول (ﷺ) في تعبده، فكل ما لم يتعبد به الرسول (ﷺ) يجب عليه ألا يتعبد به^(١).
- وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن الرسول (ﷺ) أنه قال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»، وفي رواية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).
- ويقول الإمام النووي في شرح الحديث: "قال بعض العلماء أن هذا الحديث هو شطر الدين، فالدين ينقسم قسمين: قسم يتعلق بالنية، وهو في حديث عمر رضي الله عنه «إنما الأعمال بالنيات»، وقسم يتعلق بالظاهر: وهو في حديث عائشة رضي الله عنها «من أحدث في أمرنا» وأنه لا بد من أن تكون الأعمال على وفق الشرع.. فالحديث الأول صلاح الباطن، والحديث الثاني: صلاح الأعمال الظاهرة لذلك شرط العمل أمران: أن يكون لله، وأن يكون موافقاً للشرع. الذي لله داخل في شهادة أن لا إله إلا الله، والذي موافق للشرع داخل شهادة أن محمداً رسول الله"^(٣).
- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة: أن لا إله إلا الله. والتلقي عن رسول الله (ﷺ) في كيفية هذه العبودية هو شطرها الثاني المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله.
- قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].
- ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذاقها.
 - وهكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول... وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم.

(١) التفسير الثمين، ابن عثيمين، ص ١١٨.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

(٣) شرح الأربعين النووية، الإمام محي الدين النووي، ص ٣٥.

ودين الله ليس غامضاً، ومنهجه للحياة ليس مائعاً فهو محدد بشرط الشهادة الثاني: مُحَمَّد رسول الله، فهو محصور فيما بلغه رسول الله (ﷺ) من النصوص في الأصول.. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع النص. وإن لم يكن هناك نص فهناك يجيء دور الاجتهاد وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته لا وفق الأهواء والرغبات ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة.. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه: هذا شرع الله^(١).

• هذا هو الإسلام الذي يتقبله الله عز وجل، فمن لقي الله بعد بعثة مُحَمَّد (ﷺ) بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، فالله عز وجل سد جميع الطرق إليه إلا من جهة مُحَمَّد (ﷺ) ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

• إن طريق النبي (ﷺ) ومنهجه لإقامة دين الإسلام في الأرض طريق واحد ومنهج واضح لا لبس فيه ولا شك.. وقد هدانا الله عز وجل للتعرف عليه في سورة البقرة^(٢)..

وتدعوننا سورة (آل عمران) إلى حسن اتباع رسول الله (ﷺ) في طريقه والتمسك بمنهجه وأهم ملاحظه هي:

أولاً: البراءة من الشرك والكفر بالطاغوت في فترة الاستضعاف.

ثانياً: لا مدهانة في العقيدة أو مساومة عليها ولو المقابل السلطة.

ثالثاً: إنقاذ العصابة المؤمنة من طول الفتنة وعدم الاستسلام لها.

رابعاً: الهجرة خطوة لازمة لقيام الدولة لا تنقطع أبداً.

خامساً: اتخاذ مسار الجهاد لأنه مبدأ مستقر لحماية الدعوة ونشر الدين.

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ٨٣: ٩٥

(٢) للتفصيل: ارجع إلى عرض سورة البقرة، الأساس الثاني: طريقة وصول المنهج الإلهي إلى الأرض كافة، مسار قيام دولة الإسلام

الأولى، ص ١٨١: ٢٠٨

- وأولى خطوات الثبات على التوحيد وعلى دين الإسلام هي: الإخلاص لله واتباع الرسول (ﷺ)، قال تعالى ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

(فإن حاجوك) أي: جادلوك في التوحيد وفي الدين فقل (أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له (ومن اتبعن) أي: على ديني.. هذا اعتقاد محمد (ﷺ) ومنهج حياته والمسلمون متبعوه ومقلدوه في اعتقاده ومنهج حياته.

- وليس لنا إلا أن نقول كما قال الحواريون ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

- وليس لنا إلا أن تبع ملة إبراهيم (ﷺ) في البراءة من المشركين ومعبوداتهم الباطلة ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥] براءة ومفاصلة واضحة ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨].. فكيد الكافرين وكل أعداء الدين لا يزال يترصد بالأمّة حتى انخرقت عن طريق وشرع رسول الله (ﷺ) وعن ملة إبراهيم (ﷺ) ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وأول زلل وقعت فيه الأمة المسلمة هو تأويلها للمنهج المحكم لرسول الله (ﷺ) والذي بينت سورة (البقرة) معاملة وملاحمه ثم وقعت الأمة المسلمة في المتشابه.. تركنا المنهج القويم والطريق الشرعي لإقامة الدين وسلكنا سبل المناهج الغربية وسنن (أي: طرق) أعدوها لنا كي تضل الأمة وتنحرف عن حقيقة التوحيد فتقع الأمة في الشرك بالله، وتزيغ عن معنى دين الإسلام فتقع الأمة في مخالفة رسول الله (ﷺ) ومن ثم تتعرض للخذلان والتيه والضلال.

- والآن بعد عرض: حقيقة التوحيد ومعنى دين الإسلام، نقوم بعون الله وتوفيقه بعرض المحكم والمتشابه لنفهم ما هو المحكم؟ وما هو المتشابه؟ فتتعرف على خطوات الشيطان المتدرجة وعلى دسائس أعداء الدين، والفخ الكبير الذي وقعت فيه الأمة المسلمة وحبائل الشرك التي سقطت فيها بتركها المحكم من الشرع وزيفها إلى المتشابه منه استجابة لمخطط الشيطان وأوليائه.

ثانياً: المحكم والمتشابه بين النسليم والتأويل

- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

— يقول ابن كثير في تفسيره: "(آيات محكمات): أي بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد، (هن أم الكتاب): أي أصل الكتاب الذي يرجع إليه عند الاشتباه، (وأخر متشابهات): أي ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم"^(١).

- ويقول السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن": "قد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه على أقوال:

- فقيل: المحكم ما عُرف المراد منه، إما بالظهور وإما بالتأويل، والمتشابه ما أستأثر الله بعلمه، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور.
- وقيل: المحكم ما وضع معناه، والمتشابه نقيضه.
- وقيل: المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه ما احتمل أوجهًا.
- قال ابن أبي حاتم: وقد روى عن عكرمة وقتادة وغيرهما، "أن المحكم الذي يُعمل به، والمتشابه الذي يؤمن به ولا يُعمل به"^(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، المجلد الأول، ص ٣١٣

(٢) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ص ٥٥٥

- ويقول محمد بن إسحاق: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ "فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس هن تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه، والمتشابهات في الصدق، هن تصريح وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، ألا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق".

- وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾: أي الذين في قلوبهم ميل عن الحق إلى الباطل يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها؟؟؟ به لاحتمال لفظه لما يصرفونه تبعاً لأهوائهم، وأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: (ابتغاء الفتنة) أي: الإضلال لاتباعهم والصد عن دين الله المحكم والجلي وفي ذلك حجة عليهم لا لهم^(١)، (وابتغاء تأويله) أي: طلب تأويله لما يريدون، فهم يفسرون المتشابه على مرادهم لا على مراد الله.

- وفي حديث عائشة أن رسول الله (ﷺ) تلا هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

قالت: قال رسول الله (ﷺ): «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم»^(٢).

- ودلت الآية على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا إليه.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ص ٣١٤

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٨٧ / ١٠) (ج ٤٥٧)

- ويقول الشيخ ابن عثيمين: وجوب الرجوع إلى المحكم في السنّة، إذا وجدت أحاديث متشابهة وأحاديث واضحة محكمة، فالواجب رد المتشابه به إلى المحكم ليكون الجميع محكماً" (١).

- ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾

الرسوخ: كما يقول السيوطي لا يحصل إلا بعد الاجتهاد والتبليغ في العلم ثم يقول (فإذا استقام القلب على طرق الرشاد، ورسخ القدم في العلم أفصح صاحبه النطق بالقول الحق (آمنا به كل من عند ربنا) وكفى بدعاء الراسخين في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٢).

• والعلماء أقرب إلى التسليم لعلمهم بعجز العقل البشري، وأنه من العلم ألا يخوض العقل فيما لا مجال فيه للعلم (٣).. وبهذا القول للراسخين في العلم وتسليمهم لله عز وجل، يقول ابن كثير: "فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر" (٤).

ومن أمثلة المتشابه في القرآن:

١. آيات الصفات كقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

• وموقف جمهور أهل السنة على: الإيمان بها، وأن تثبت لله عز وجل جميع أسمائه وصفاته، التي أثبتها لنفسه في كتابه، كما ننفي المماثلة وذلك بالأ نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته ،

(١) التفسير الثمين، ابن عثيمين، سورة آل عمران، ص ٢٨

(٢) الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ص ٥٥

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/٣٧٠.

(٤) تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق أحمد شاكر، ص ٣١٥.

ولا نقوم بتحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل هذه الصفات ، فأيات الصفات لا تتأولها مع تنزيها له عن حقيقتها (وهذا هو المحكم).

- وأما المتشابه فهو من ذهب إلى تأويل هذه الآيات فذكر مثلاً أن: (الرحمن على العرش استوى) أي استقر (والاستقرار يُشعر بالتجسيم)، وأن (الوجه) مؤول بالذات، وأن (اليد) مؤولة بالقدرة، وأن (العين) مؤولة بالبصر في قوله (فإنك بأعيننا).
- ٢. ومن المتشابه أوائل السور كقوله تعالى (آلم)، وقوله تعالى (يس) وقوله تعالى (المص)، وقوله تعالى (كَهَيْعَص)، (آلر)، (ق).

- وموقف الجمهور فيها: أنما من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى (وهذا هو المحكم).
- وأما المتشابه فهو من ذهب إلى التأويل فذكر مثلاً: (آلم) أي: (أنا الله أعلم) من طريق أبي الضحى وخاض فيها آخرون، ومنها (آلر) أي: (أنا الله أرى)، (المص): الألف من الله، والميم من الرحمن، والصاد من الصمد (قيلت عن محمد بن كعب القرظي).

الحكمة من المتشابه

- يقول السيوطي رحمه الله: "منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه، والتفويض والتسليم والتعبّد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمناجاة، وإن لم يجز العمل بما فيه"^(١).
- إذن لو كان القرآن كله محكمًا لم يحصل الابتلاء والاختبار فيظلم المؤمن المستسلم لله ويظهر صاحب الهوى.

من يستمسك بالمتشابه وأمامه المحكم البين

- الباحث عن الحق يقوم برد ما اشتبه عليه من الأدلة إلى الواضح الجليّ منها، وحكم المحكم على المتشابه وهؤلاء يهديهم الله عز وجل إلى الحق، ويثبتهم عليه، ويرسخ أقدامهم فيه دون زعزعة أو تشكك، لأنهم امتثلوا الأوامر الواضحة الساطعة وهي بالفعل أصل الكتاب وأساسه.

(١) الإتيان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ص ٥٧٦

- أما الذين في قلوبهم شك وريبة كانت راحتهم في تتبع المشكلات المتشابهات والتمسك بها وعدم تصديق البيئات أو سعيه لفهم الأمهات.
 - وقد أوردت سورة (آل عمران) أمثلة لمن يستمسك بالمتشابه وأمامه المحكم من الآيات بهدف الإضلال والانحراف عن الحق ومن ذلك:
 - حين احتج النصارى بأن القرآن نطق بأن عيسى كلمة الله وروح منه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وتركوا الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبدته ورسول من رسل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].
 - لذلك فالمؤمن المستمسك بالعروة الوثقى يرد المتشابه إلى المحكم من الكتاب والسنة بينما الذي في قلبه زيغ يبث المتشابه به ويلبس الحق بالباطل.
 - إن دسائس أعداء الدين ومكرهم بالأمة المسلمة كي تضل عن طريق الحق بعد هداية الله لها بدأت ببث الشبهات حول المتشابه في دين الله لتصرف الأمة عن المحكم من الكتاب والسنة فخالفت الأمة المسلمة حقيقة التوحيد وانحرفت عن دين الإسلام وشرع رسول الله ﷺ ..
- إنها حملة طويلة من الكيد لزعة العقيدة وخلخلة الصف المسلم، قد أتت هذه الحملة بثمارها على مستوى الأمة بطمس عقيدتها وعلى مستوى الصف المسلم بغزوه ثقافياً وفكرياً، فصار عشرات السنين بالمناهج الغربية الصليبية واتبع سننهم وسبلهم وحاد عن صراط الله المستقيم ومنهجه القويم الأصيل المحكم.
- وقبل أن تعرف على نماذج لشبهات أعداء الدين بينتها لنا سورة (آل عمران)، ثم نرى كيف قام القرآن الكريم بتفنيدها ودحضها بكل بساطة ويسر...
- نلجأ أولاً إلى الله عز وجل.. ليعصمنا من الزلل والانحراف ويثبت أقدامنا على طريق الحق، فهو سبحانه وتعالى الركن الشديد الذي نأوي إليه ونحتمي به من الفتن ونستجير به من الزيغ والخذلان.

ثالثاً: الثبات على الحق في مشهد العصمة والاستقامة

• قال تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

- يقول ابن كثير في تفسيره للآية: "وهؤلاء الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته يدعون ربهم قائلين (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم، (وهب لنا من لدنك رحمة) أي هب لنا من عندك رحمة تثبت بها، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً و يقيناً"^(١).

- وروى الإمام أحمد عن شهر بن حوشب قال: "سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يكثر في دعائه أن يقول: "اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك" قالت: قلت يا رسول الله، أو إن القلوب لتتقلب؟ قال "نعم، ما من خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإن شاء الله عز وجل أقامه، وإن شاء أزاعه"^(٢).

• والعبد في أشد الاحتياج إلى عصمة الله عز وجل في كل لحظة في أن لا يكله إلى نفسه. كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "التوفيق هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه. بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا. فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه. ثم يعصيه ويخالفه ويُسخطه ويغفل عنه بخذلانه له. فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته. وإن خذله فبعدله وحكمته. وهو الحمدود على هذا وهذا. له أتم حمد وأكمله. ولم يمنع العبد شيئاً هو له. وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ص ٣١٦

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٥ حلي)، صحيح الإسناد

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، على شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين.

وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فدأب لسانه: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصِّرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك"، ودعواه: "يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث، أصلح لي شأنه كله. ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. ولا إلى أحد من خلقك".

ففي هذا المشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقته، فيسأله توفيقه مسألة المضطر. ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف، ويلقي نفسه بين يديه، طريقًا ببابه مستسلمًا له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعًا ذليلاً مستكينًا، لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا^(١).

• إن ثبات القلب على التوحيد وعدم زيغته إلى الشرك هو أصل الثبات على الحق في هذه الحياة، واختص القلب لأن عليه مدار العمل كله وهو بداية التقلب والزيغ ثم يتبعه الميل عن التوحيد في الأعمال والأفعال..

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة - أبو بكر رضي الله عنه - عن الاستقامة؟

فقال: "أن لا تشرك بالله شيئًا". يريد الاستقامة على محض التوحيد.. فمن استقام على محض التوحيد الخالص، استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم.. فاستقام له كل عمل وكل حال، وقال مجاهد عن المؤمنين الثابتين على التوحيد: "استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

- والعبد أول ما يحتاج لاستقامته على الحق هو عون الله وتوفيقه ولن يصل إليه إلا بالاعتصام بربه والالتجاء إليه مستغيثًا به، تؤكد سورة (آل عمران) على أهمية الاعتصام بالله للثبات على

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ص ١٩٥-١٩٦

صراطه المستقيم ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿[آل عمران: ١٠١-١٠٢].

- وسنقوم بإذن الله بتناول منزلة الاعتصام أثناء عرض المقطع الثالث: الخاص بإعداد الفئة المؤمنة لحمل مهمتها وأداء تكاليفها (الآيات من ١٠٠: ١٢٠).
- كما أن القرآن الكريم في سلسلة عرض المنهج الحركي يفرد أكثر من موضع لموضوع: أهمية الاستعانة بالله للتثبيت على الحق. ومنها سورة (إبراهيم) كما سيحيى في عرضها بإذن الله وحوله وقوته.. ﴿وَاجْتَنِبِي وَبِيِّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

المقطع الثاني: دحض الشبهات والدعوة لاتباع الحق (من الآية ٣٣: ٩٩)

- يشمل المقطع الثاني في سورة آل عمران عرض النقاط التالية:

أولاً: حقيقة المعركة.. زعزعة عقيدة التوحيد.

ثانياً: دور القرآن في دفع سلاح الشبهات والشكوك.

ثالثاً: عرض شبهات أهل الكتاب وأساليب تضليلهم وكشف القرآن لها ودحضها.

رابعاً: عرض شبهات معاصرة لزعزعة التوحيد وللوقوع في الشرك.

خامساً: الوعيد الشديد من الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان وبعد قيام الحجة.

سادساً: أهمية العلم في نفي الجهالة ودور البينات في كشف التأويل.

أولاً: حقيقة المعركة.. زعزعة عقيدة التوحيد

- بداية يؤكد الشيخ سيد قطب حقيقة معركة أعداء هذا الدين في استهدافهم هذه الأمة المسلمة أولاً في عقيدتها، فيقول رحمه الله: "وهكذا نرى أن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب إنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها. كانوا يحاربونها بالبدس والتشكيك، ونشر الشبهات وتدمير المناورات، كانوا يعمدون أولاً إلى عقيدتها الإيمانية وهذا هو مدخل أعداء الأمة بيث الشبهات القديمة والمعاصرة، ويدركون أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من

هذا المدخل، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان، سائرة على منهج الله.. وهؤلاء الأعداء يبذلون جهداً جباراً في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة.. ويستخدمون كل الأسلحة المسمومة كي تحيد الأمة عن منهج الله وطريق رسول الله (ﷺ).. نفس الغاية القديمة ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩]، هي الغاية الثابتة الدفينة في كل زمان.. إضلال الأمة لتتخلى عن التوحيد وتقع في الشرك" (١).

ثانياً: دور القرآن في دفع سلاح الشبهات والشكوك

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "لقد كان القرآن يدفع سلاح الشبهات المسموم أولاً.. فكان يأخذ الجماعة المسلمة بالثبوت على الحق الذي هي عليه، وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب، ويجلوا الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين، ويبصر المؤمنين بحقيقة ما هم عليه من الحق، وحقيقة ما عليه أعداؤهم من الباطل، وحقيقة ما يبته لهم هؤلاء الأعداء بكشف نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة وأخيراً بتشريح هؤلاء الأعداء.. طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم وإسقاط دسائسهم بتركها مكشوفة عوراء، لا تخدع أحداً ولا تنطلي على أحد" (٢).

ثالثاً: محرض شبهات أهل الكتاب وأساليب تخليلهم، وكهفة القرآن لها وحدهما

الشبهة الأولى: إدعاء البنوة والإلهية لعيسى (ﷺ)

- وفيها شبهات اليهود في عيسى (ﷺ) وميلاده بكونه مخلوقاً من غير أب فادعوا البنوة لله عز وجل كذباً وكفراً، وادعوا أن عيسى (ﷺ) فيه جزء لاهوتي وجزء ناسوتي، ثم ادعوا أن عيسى يستحق أن يعبد وأن المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة- تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وتبعهم النصارى في تلقي هذه الشبهات فأنحرفوا عن دين وعقيدة التوحيد إلى دين وعقيدة التثليث، فلما أراد وفد نجران من النصارى محاجة النبي (ﷺ) في عيسى ابن مريم (ﷺ) مع ما يزعمون فيه من البنوة والإلهية،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ٣٥٤ بتصرف يسير

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٣٥٤، ٤٠٩

• وجاء رد القرآن لدحض هذه الشبهة بكل بساطة ووضوح في أمرين:

• أولاً: حسم هذه شبهة ميلاد عيسى عليه السلام برد خلق عيسى إلى المشيئة الإلهية المطلقة كخلق آدم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، يقول ابن كثير: "الذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريقة الأولى والأخرى، وإن جاز إدعاء النبوة في عيسى بكونه مخلوقاً من غير أب، فجاوز ذلك في آدم بالطريقة الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً. ولكن الرب عز وجل، أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى" (١).. وهي في كل هذه الأحوال إرادته ومشيئته المطلقة...

هذا القول هو الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

ثانياً: أمر الرسول ﷺ أن يُباهل من عاند هذا الحق في أمر عيسى بعد ظهوره وبيانه ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] أي: نحضر هؤلاء في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نلتعن ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي: منا أو منكم وروى ابن مردويه عن الشعبي، عن جابر قال: قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب (صاحبنا نجران من النصارى) فدعاهما إلى الملاعنة فواعدها علي أن يلاعنا الغداة، قال: فغدا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا، وأقرأ له بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: لا، لأمطر عليهم الوادي نارا».. قال جابر: (أنفسنا وأنفسكم): رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب (وأبناءنا): الحسن والحسين (ونساءنا): فاطمة. وهكذا رواه الحاكم بمعناه، ثم قال: صحيح علي شرط مسلم، ولم يخرجاه.. ثم قال الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد، ثم تثبت الآية وتقرر توحيد الله

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ص ٣٣٧ / ١

عز وجل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴿أي: من عدل عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الحق فهو المفسد والله عليهم به﴾ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿.

- الشبهة الثانية: إدعاء أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً.

• وفيها إدعاء كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان منهم، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً.

• وجاء رد القرآن لدحض هذه الشبهة بكل بساطة ووضوح بقوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥] أي: كيف تدعون، أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟! ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم أنكر عليهم القرآن الحاجة فيما لا علم لهم به، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة. ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

- من أساليب التضليل والخداع: إدعاء الإيمان أول النهار ثم الارتداد آخره لخدعة الناس أن في الدين نقائص وعيوب قال تعالى ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيْنَا الَّذِي آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وهذه محاولة مكررة لئيمة لزعة المسلمين في دينهم وردهم عن الهدى، وذلك بإظهار الإسلام أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم لقول ضعاف النفوس وغير المثبتين: إنما ردهم إلى دينهم إطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين.

• وقد فضح القرآن خبث مكرهم للجماعة المسلمة الأولى، ولا يزال ينبه القرآن ويحذر المؤمنون في كل زمان من العملاء المندسين في صورة مثقفين وباحثين يحملون أسماء المسلمين كما فعل

المستشرقين، ليزعزعو الأمة في دينها وعقيدها بدعوة رجعتها، وعدم مناسبة الشريعة لهذا الزمان، والدعوة لتجديد الخطاب الديني، وتعايش الأديان كلها، وأن الجهاد عنف وإرهاب وغيرها من شتى الأساليب الماكرة لتضليل الأمة وانحرافها عن دينها وعقيدها.

- من أساليب التضليل والخداع: تأويل آيات كتاب الله لتوافق أهواءهم.

- قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وهذا نموذج آخر من تضليل أهل الكتاب للأمة باتخاذهم من كتاب الله مادة للتضليل وذلك بتحريفهم النصوص وليهم أعناقهم لتوافق أهوائهم، ثم يزعمون أنها مدلول نص الآيات وأنها تمثل ما أراد الله منها.. وهذا الأسلوب في تضليل الأمة في دينها وخديعتها في عقيدة مستمر حتى الآن لإقامة أرباب من دون الله في شتى الصور من أناس يشرعون من دون الله، مع التأويل بجواز ارتكاب الشرك لإقامة دين الله، وجواز المشاركة في حكم كفري للتمهيد والتدريج في حكم الشريعة... والأدهى في ذلك هو استدعاء آية أو آيتين وعرض نموذج أو نموذجين من المتشابهات مع تأويلها وترك مئات الآيات وعشرات النماذج المحكمة الصريحة.. وذلك ليوهبوا الناس أنه في كتاب الله كذلك وهو كذب على الله.. وما هو من الكتاب وما هو من عند الله.

لذلك تؤكد الآيات التالية هذه المحاولة التضليلية بأنه لا ينبغي لبشر مؤمن أن يأمر الناس بعبادته ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩] وذلك أن أهل الكتاب كانوا يتعبدون لأحبارهم ورهبانهم، وذلك ليس بالركوع والسجود لهم إنما بالتشريع لهم من دون الله فيحلون لهم الحرام ويحرمون لهم الحلال كما قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وفي مسند الإمام أحمد

والترمذي كما سيأتي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال له (ﷺ): «بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»^(١).

الشبهة الثالثة: إدعاء أهل الكتاب تعارض القرآن مع التوراة، وأنه ليس مصدقاً لها

• أراد اليهود تصيد كل شبهة وكل حيلة، لينفذوا منها إلى الطعن في صحة القرآن، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب، فلما قال القرآن: أنه مصدق لما في التوراة، برزوا يقولون: فما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما حُرّم على بني إسرائيل في التوراة؟ وذكروا بالذات لحوم الإبل وألبانها وهي محرمة على بني إسرائيل.

• وجاء رد القرآن لدحض هذه الشبهة بقوله تعالى ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وهنا ردهم القرآن بوضوح إلى الحقيقة التاريخية التي يتجاهلوها وهي أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل (ﷺ) - نبي الله يعقوب - على نفسه من قبل نزول التوراة - والتي أنزلت على موسى (ﷺ) بعد يعقوب (ﷺ) بزمان، وتقول الروايات أن يعقوب مرض مرضاً شديداً، فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن تطوعاً عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه فقبل الله منه نذره. وجرت سنة بني إسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما حرم، هذه هي الملابسات الخاصة بهم، فإذا أحلها للمسلمين فهذا هو الأصل الذي لا يثير الاعتراض، وتحداهم القرآن أن يرجعوا إلى التوراة، وأن يأتوا بما ليقروها وسيجدون أن أسباب التحريم فيها خاصة بهم.

وأبجاً: محرض شبهات معاصرة لزمزمة محققة التوحيد والوقوف في الشرك

الشبهة الأولى: اتخاذ الشرك لتخفيف المفسد أو لتحقيق المصالح كإقامة شرع الله

- عرض الشبهة: يباح الوقوع في الشرك من باب:
- دفع المفسد كوقوع الضرر على المسلمين أو تخفيف الظلم الواقع عليهم.

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤)، والترمذي في سننه (٣٠٩٥).

- تحقيق المصالح كإقامة شرع الله وإقرار التوحيد والانطلاق بالدعوة.

• تفنيد الشبهة ودحضها على جزأين:

الجزء الأول: لا يباح الشرك من أجل جلب مصلحة أو دفع مفسدة

- لا رخصة في الكفر والشرك من أجل تحقيق أي مصلحة مهما كان نوعها، لأن باب ارتكاب

المسلم لأي شرك أو نطقه بالكفر مغلق أصلاً إلا حالة استثنائية وحيدة وهي: حدوث الإكراه

المفضي إلى الموت أو التعذيب الشديد الذي يخاف منه تلف النفس أو تلف عضو أو نحو ذلك

مما لا طاقة للإنسان بتحملة وهذا ما يسمى بـ "الإكراه الملجئ".

والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

والآية تتوعد كل من كفر بالله من بعد إيمانه أنه قد غضب الله عليه، وأعد له عذاباً

عظيماً.. ثم استثنى الله تعالى من ذلك حالة وحيدة "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان". قال

ابن كثير: "فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب

وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله"^(١).

والحكمة في جواز المكره بالنطق بالكفر هو سقوط التكليف عنه لامتناع تكليفه بما لا

يطاق ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما الذي يتعرض للأذى ويستطيع الصبر عليه والثبات أمامه فلا رخصة لصاحبه في

الكفر بل يتعين عليه إما المدافعة وإما الصبر.

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ٣٥٣/٢ .

والآية ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ نزلت في عمار بن ياسر بعد تعذيب المشركين له تعذيباً شديداً فاضطر لقولها، وما كان ينطق بكلمة الكفر حتى عذبه المشركون.. عذاباً فوق ما يطيق ويحتمل فاستثناه النبي (ﷺ) وقال له: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، ثم قال النبي (ﷺ): فإن عادوا فعد.

- إذن حالة عمار ليست هي الأصل فما أذن النبي (ﷺ) لبلال وهو يعذب تحت الحجرة الثقيلة في هيب الصحراء ولكنه ثبت وأخذ يردد كلمة التوحيد: أحد - أحد.

- فالأصل هو أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله ففي حديث خباب بن الأرت لما شكى للنبي (ﷺ) شدة التعذيب فقال له الرسول (ﷺ): "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط أمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه).

- إذن ثبات المسلم على التوحيد حتى الممات مهما كانت الفتن والأذى، هو القاعدة الأساسية المستقرة وقد روى مسلم في صحيحه عن صهيب قصة أصحاب الأخدود وفيها:

أن الراهب صبر حتى قتل، وأن الغلام أمر بقتل نفسه لما علم أن ذلك سبباً لإيمان الناس إذا رأوا تلك الآية، وأن الناس لما آمنوا فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا حتى أن المرأة التي أرادت أن ترجع أنطق الله صبيها وقال: اصبري يا أمه فإنك على الحق.

- وقد حدثت آيات (آل عمران) وغيرها من سور القرآن على الثبات عند التعرض للفتن وعدم الكفر بعد الإيمان، قال تعالى:

- ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

• فإذا كان الكفر مباحًا للمصلحة فكيف نفسر كل هذه الآيات التي تعد المؤمنين بالابتلاء وتحثهم على الصبر والثبات.

بل هذه الآيات دليل على ذم وإثم كل من وقع في الفتنة فاختر التنازل عن دينه والتخلي عن عقيدته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]... فالأصل: الثبات وليس الارتداد.

— يقول ابن تيمية "وكذلك يذم من يترك الواجب للظاهر ويفعل الحرام الظاهر عندما يصيبه من الأذى والفتن" (١).

(١) الاستقامة، ابن تيمية، (٢ / ٣٣٧)

ولو كانت المصلحة والحاجة مبيحة للكفر لما ثبت الناس على دينهم لحظة واحدة بل صاروا متقلبين بين الكفر والإيمان كلما تقلب الليل والنهار، قال تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

— وهذا التقلب بين الكفر والإيمان سماه الرسول (ﷺ): "فتنة" كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(١).

— وقال ابن تيمية: "والرجل لو تكلم بكلمة الكفر لمصالح دنياه من غير حقيقة اعتقاد صح كفره باطنًا وظاهرًا"^(٢).

وتابعه على ذلك تلميذه ابن القيم فقال: ولا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز الإذن في التكلم بكلمة الكفرة لغرض من الأغراض إلا المكروه إذا اطمأن قلبه بالإيمان"^(٣).

• ولهذا اتفق أهل العلم على أن الكفر لا يجوز أن يكون حيلة للوصول إلى أي غرض أو غاية، فالشرك لا مصلحة فيه ولا خير، وحين يعتقد المسلم أن الشرك فيه مصلحة فتلك علامة خذلان وبداية خسران.

(١) رواه مسلم

(٢) إقامة الدليل على إبطال التحليل، (٤ / ٤٧٧)

(٣) إعلام الموقعين، (٣ / ١٧٨)

• فالإسلام الدين الحق هو اتباع الهدى والاستقامة على التوحيد ومتابعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإن لزم الأمر أن يعادي المسلم جميع أهل الأرض وفوات حظوظه ومنافعه العاجلة.

- قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]

وهذه المحرمات الأربع محرمة في جميع الشرائع كما يقول ابن تيمية (الشرع لم يُبح منها شيئاً لا لضرورة ولا غير ضرورة كالشرك والفواحش والقول على الله بغير علم والظلم المحض، وهذه الأشياء محرمة في جميع الشرائع، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل ولم يُبح منها شيئاً قط ولا في حال من الأحوال ولهذا أنزلت في هذه السورة المكية^(١).

ومن أقواله رحمه الله: "الشرك لا يكون فيه شيء من المصلحة"^(٢) للضرورة فقد رجح معظم أهل العلم منع حل السحر بالسحر لهذه العلة مع الحاجة إليه، كما قال ابن تيمية: "والمسلمون وإن تنازعوا في جواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير، فلا يتنازعون في أن الكفر والشرك لا يجوز التداوي به بحال، لأن الكفر والشرك محرم في كل حال، وليس هذا كالتكلم به عند الإكراه"^(٣).

(١) الفتاوى (١٤ / ٤٧٠-٤٧١)

(٢) الفتاوى (١٤ / ٤٧٦)

(٣) الفتاوى (١٩ / ٦١)

الجزء الثاني: لا يشرع اتخاذ وسيلة شركية لإقامة شرع الله أو لإقرار**التوحيد أو للانطلاق بالدعوة**

• بعد دحض الشبهة بفضل الله عامة: أنه لا يباح اتخاذ الشرك من أجل جلب مصلحة أو دفع مفسدة، قد يحاجُّ البعض في أن هناك نوع خاص من المصالح يباح من أجلها ارتكاب الشرك والترخص فيه وهو مصلحة: "إقامة شرع الله أو تحقيق التوحيد أو الانطلاق بالدعوة".

لذلك كان الجزء الثاني في دحض هذه الشبهة التي انحرفت بالكثير من أبناء الأمة عن سبيل الحق وعطلت الجهود عشرات السنين، فكان لزاماً تخصيص هذه الجزئية وحدها بالتنفيذ والإبطال بإذن الله فتنفي أي حجة باطلة وتقام الحجة البالغة الناصعة وهي "لا يشرع الدخول في الشرك من أجل محاربة الشرك، ولا يشرع نقض التوحيد من أجل إقامة التوحيد، وأن طريق إقامة شرع الله في الأرض طريق واحد مبين فصلناه في سورة (البقرة) بفضل الله تحت عنوان: "الأساس الثاني: طريق إقامة منهج الله في الأرض" وهذا الطريق قامت على صدقه الحجاج والبراهين الساطعة لمن أراد الهدى فعليه الرجوع لسورة البقرة، وأما هنا في سورة (آل عمران) فنعمل بعون الله وتوفيقه على إزالة الشبهات والدعاوى الزائفة التي تفتري على هذا الحق المبين وهذا الطريق المستقيم وخاصة أنها تأتي في صميم معنى التوحيد وحقيقة دين الإسلام والتي تم توضيحهما في المقطع الأول من سورة (آل عمران)، وأما الأدلة المدحضة لشبهة اتخاذ الشرك لإقامة شرع الله وتحقيق التوحيد هي كالتالي:

أولاً: التوحيد الخالص لا يخالطه أي شرك وهذا مفترق طريق

قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون: ١-٦].

- قال ابن جرير الطبري في سبب نزول سورة (الكافرون): "عن ابن عباس: أن قريشاً وعدوا رسول الله (ﷺ) أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجلاً بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل، فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح. قال: "ما هي؟" قالوا: تعبد آلهتنا سنة: اللات

والعزى، ونعبد إلهك سنة، قال: "حتى أنظر ما يأتي من عند ربي"، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلي دِينِ (٦)﴾ وأنزل الله: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٥].

- والسؤال هنا: لماذا بدافع المصلحة لم يقبل النبي (ﷺ) عامًا من التوحيد من باب فن الممكن؟ أو لماذا لم يقبل (ﷺ) أن يقع في شرك - حاشاه - ليتدرج معهم لأعلى المصالح وهو قبولهم بالتوحيد شيئًا فشيئًا؟

• وعن محمد بن إسحاق قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمّية بن خلف، رسول الله (ﷺ) فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرك، وأخذت منه بحظك، فأنزل الله: (قل يا أيها الكافرون) حتى انقضت السورة) تفسير الطبري، (٧٠٣ / ٢٤).

• لقد بينت سورة (الكافرون) أمرين هامين وهما:

- أن الشرط الذي اشترطه كفار قريش لا يشرع قبوله بحال مهما كان فيه من المصلحة التي ترجع إلى الدين نفسه.

- وأن عبادتهم لله تعالى على هذا النحو غير صحيحة لما فيها من مخالطة الشرك.

• ويستفاد من هذه السورة أن الشرك والتوحيد نقيضان لا يجتمعان ولهذا فقد أبى رسول الله (ﷺ) إلا الثبات على محض الحق، والمحافظة على خالص التوحيد دون أن يخالطه شيء من الشرك.. فهذه السورة براءة كاملة ومفصلة تامة ومقاطعة بين الشرك والتوحيد وبيان واضح بأنهما لا يمكن أن يجتمعا لحظة واحدة.

وعن هذه المفاصلة الكاملة بين التوحيد والشرك وأن الإسلام جاء لتغيير الأوضاع الجاهلية وليس لإصلاحها، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "فالحقيقة أن الإسلام يبذل التصورات والمشاعر، كما يبذل النظم والأوضاع، كما يبذل الشرائع والقوانين تبديلاً أساسياً لا يمت بصلة إلى قاعدة الحياة الجاهلية التي تحياها البشرية.. ويكفي أن ينقلهم جملة وتفصيلاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده..."

والمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام، وليس لدينا ما نخجل منه أو نوارى بعض حقائق منهج الإسلام التي قررها الله عز وجل حتى يقبلها الناس" (١).

- إن سورة (الكافرون) وحدها أغلقت باب أي شبهة لمهادنة الكافرين ولو شيئاً قليلاً.. أو التدرج مع الواقع الجاري تحت دعوى المصلحة والمفسدة.. أو التقية لدفع الضرر.. أو الحرص على عدم الصدام مع النظم والقوانين والأوضاع والعمل من خلالها للوصول إلى غاية إقامة الدين!!

ثانياً: لا يباح الشرك لتحقيق أي مصلحة ولو كانت دينية

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذُنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

- وقد أورد ابن جرير في تفسيره سببين لنزول هذه الآيات فقال:
- أهل التأويل في الفتنة التي كاد المشركون أن يفتنوا رسول الله (ﷺ) بما عن الذي أوحى الله إليه إلى غيره، فقال بعضهم: ذلك الإلمام بالألهة (أي استلام الأصنام) لأن المشركين دعوه إلى ذلك كما جاء عن القاسم عن ابن جريج عن مجاهد: أنت آلهتنا فامسسها، فذلك قوله: "شيئاً قليلاً" وعن جعفر عن سعيد: قال: كان رسول الله (ﷺ) يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش،

وقالوا: لا ندعه حتى يُلم بآلهتنا، فحدّث نفسه، وقال: ما عليّ أن أُلّمّ بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر، والله يعلم أي لها كاره، فأبى الله، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ [الإسراء: ٧٣].

• وقال آخرون: إنما كان ذلك أن رسول الله (ﷺ) هم أن ينظر قومًا بإسلامهم إلى مدة سألوهم الإنظار إليها. وذكر من قال ذلك عن ابن عباس: وذلك أن ثقيفًا كانوا قالوا للنبي (ﷺ): يا رسول الله أجّلنا سنة حتى يُهدى لأهتنا، فإذا قبضنا الذي يُهدي لأهتنا أخذناه، ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة، فهم رسول الله (ﷺ) أن يعطيهم، وأن يؤجّلهم، فقال الله ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ تفسير الطبري، (٥٠٧/١٧).

وسواء كان سبب نزول الآيات هو الأمر الأول أو الثاني أو هما معًا فإن كلاً من استلام الأصنام وإقرار ثقيف على عبادة أصنامهم سنة واحدة بالشروط التي ذكرها الكفار فيها مصلحة دينية لكن الله تعالى سمى ذلك فتنة.

• وفي ذلك دليل على أن: الشرك لا يباح لأي مصلحة ولو كانت دينية.

هذا هو هدى النبي (ﷺ).. وهذا منهج النبي (ﷺ) الواجب الاتباع.. هذا هو رسول الله (ﷺ) الذي علمنا أن نقول صباح مساء: "اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً أعلمه أو أستغفرك لما لا أعلمه".

ثالثاً: الشرك لا يمكن أن يكون وسيلة للدعوة

قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقد أمر الله تعالى نبيه (ﷺ) أن يخبر عن دعوته بأنها دعوة إلى التوحيد الخالص على بصيرة وعلم وأنه في دعوته هذه مجتنب للشرك وبعيد منه، كما يقول الطبري في تفسيرها "وما أنا من المشركين: أي أنا برئ من أهل الشرك، لست منهم ولا هم مني. فأساس الدعوة إلى الله عز وجل وتوحيده لا يمكن أن تتبع وسيلة شركية..

وكل هذه النصوص.. هي نصوص محكمة واضحة لا ينبغي أن يأتي أحد ويدعها جانباً ثم يستمسك بنص متشابه ويدعي أنه حجته لإقامة دين الله في الأرض وتحكيم شرعه.. فهو بذلك ألقى كل الأدلة المحكمة وترك الجمع التي دلت على أن الكفر والشرك لا يباح لأي مصلحة كانت فضلاً عن كون المصلحة هي: إقامة التوحيد!!

الشبهة الثانية: النجاشي لم يحكم بشرع الله ورد المتشابه إلى المحكم

عرض الشبهة: لقد كان النجاشي ملكاً مسلماً في بلاد كفر لا تعلوها سيادة شريعة الإسلام، وبقي مسلماً حتى توفي فعاه النبي (ﷺ) وأثبت له الإسلام وصلى عليه، ولم يعلن الإيمان بإعلان سيادة الشرع والبراءة مما سواه، ولم ينكر النبي (ﷺ) عليه ذلك.. وكان بقاءه في الملك بقاء (منازعة وإنكار) لحكم غير الله إذا كان يحمي التغيير ويدعمه من خلال حماية المسلمين.. فيثبت أن الدخول في الحكم (غير الشرعي) على سبيل (المنازعة والإنكار) ولتحقيق ما يمكن من (المصالح الشرعية) ودفع ما يمكن من (المفاسد والمظالم) من باب (فاتقوا الله ما استطعتم).

- تفنيد الشبهة ودحضها: أولاً: نبدأ فيها بعرض المختصر للروايات التي تحدثت عن النجاشي مع المسلمين المهاجرين في الحبشة في كتب السيرة: النجاشي هو اسم يطلق على من كان يحكم الحبشة، وملك الحبشة الذي نتحدث اسمه: (أصحمة): أرسل النبي (ﷺ) عدد كبير من صحابته رضوان الله عليهم إلى بلاده الحبشة (أثيوبيا الآن) لحماية الدعوة ولتكون بلاده قاعدة انطلاق آمنة جديدة للدعوة في حالة انسداد الموقف في مكة، واختاره النبي (ﷺ) لعدله كما روى ابن هشام عن ابن اسحاق في قول النبي (ﷺ) لأصحابه:

"لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه".

- أحسن النجاشي جوار المسلمين ووقف في مواجهة قومه وخالفهم في رغبتهم في تسليمهم لقريش بعدما أراد وفد قريش بقيادة عمرو بن العاص تقليبهم على المسلمين بقوله أنهم يقولون في عيسى

ابن مريم قولاً عظيماً فلما قال المسلمون هو: عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود.

فتناخرت بطارفته حوله حين قال ما قال، فقال النجاشي: "وإن نخرتم الله، فاذهبوا فأنتم شيوم (أي آمنون) بأرضي، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً (جبلاً) من ذهب وإني آذيت رجلاً منكم! ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بما (يقصد وفد قريش).

- تروي أم سلمة رضي الله عنها أن: "بعد ذلك أراد رجل من الحبشة الثورة على النجاشي ومنازعته في ملكه حتى أظهر الله النجاشي على عدوه ومكّن له في بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة، وكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة"^(١).

- ولم ترسل المكيدة بالنجاشي لإيوائه المسلمين المضطهدين من قريش في بلاده مكائد يقودها البطارقة المحيطون به، حيث يذكر د. منير الغضبان في كتابه المنهج الحركي للسيرة: "انقسمت الحبشة إلى فريقين: فريق مؤيد لرسول الله ﷺ والوجود الإسلامي وعلى رأسه النجاشي. وفريق معارض للوجود الإسلامي في الحبشة وعلى رأسه قائد انقلاب، ومن خلفه البطارقة اللذين دفنوا غيظهم مؤقتاً على المسلمين. ثم ساندوا هذا المغامر الانقلابي، وألبوا الجو ضد النجاشي حتى قامت الثورة عليه حتى ظفر النجاشي على عدوه.. ثم اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك فارقت ديننا فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهبأ لهم سفناً وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم. فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا، ثم عمد إلى كتاب يشهد أن لا إله إلا الله، وأن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له فقال: يا معشر الحبشة، أأست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى. قال: وكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة. قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا وزعمت

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/١/٣٣٤-٣٣٨

أن عيسى عبد. قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله. فقال النجاشي- ووضع يده على صدره على قبائه: "هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا شيئاً، وإنما يعني ما كتب، فرضوا وانصرفوا"^(١).

● وفاة النجاشي: يقول ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ابن الأثير في أسد الغابة في الإصابة، "قبل فتح مكة قبل عام ٨هـ"^(٢)، وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه يوم وفاته قال النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه: إنه اليوم مات رجل صالح قوموا فصلوا على أخيكم أوصحمة^(٣) فصفهم صفوف وصلى عليه صلاة الغائب.

- هناك ثلاثة احتمالات في قصة إسلام النجاشي نذكرهم جميعاً ثم نذكر الترجيح بينهم بإذن الله:

الحالة الأولى: أن النجاشي أسلم مبكراً وكتب إيمانه لمغالبة قومه له، وفي هذه الحالة يقول ابن القيم: "أن النجاشي أظهر الكفر وأبطن الإيمان، وكذلك لم تنزل طائفة ضرب في الناس على علمه عليه السلام وبعده، وهم على عكس المنافقين من كل وجه كمؤمن آل فرعون الذي كان يكتب إيمانه وكان النجاشي الذي صلى عليه النبي عليه السلام" أ.هـ

● وفي هذه الحالة لم يطبق النجاشي الشريعة لأنه لم يعلن إسلامه أصلاً.

الحالة الثانية: أن النجاشي أسلم مبكراً ولم يحكم بالشريعة لأن التشريع لم يصله.

● وفي هذه الحالة: النجاشي أعلن إسلامه من السنة الخامسة للبعثة حتى وفاته في السنة السابعة من الهجرة لمدة ثلاثة عشر عاماً وظل ما يعرفه عن الإسلام هو ما جاء به الصحابة المهاجرون رضوان الله عليهم.

والدليل على ذلك:

● قول ابن حزم في (الملل والنحل): "ومن لم يبلغه الباب من واجبات الدين فإنه معذور لا ملامة

(١) المنهج الحركي للسيرة، د. منير الغضبان، ص ٨٨، نقلاً عن السيرة النبوية لابن هشام ٣٤/١/١

(٢) أسد الغابة (١/٩٩)، الإصابة (١/١٠٩)

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأبيصار حديث رقم ٣٨٧٧

عليه، وقد كان جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضى الله عنهم بأرض الحبشة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة والقرآن ينزل والشرايع تشرع، فلم يبلغ إلى جعفر وأصحابه أصلاً لانقطاع الطريق حملة من المدينة إلى أرض الحبشة، ويقوا كذلك ستة سنوات فما ضرهم ذلك في دينهم شيء إذا عملوا الحرام وتركوا المفروضة".

● وفي رواية أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما رجع من الحبشة سلم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكان يصلي فلم يرد عليه النبي ﷺ فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله كنا نسلم عليك فترة، قال ﷺ: «إن في الصلاة شغلاً» رواه البخاري.

● ومن المعلوم أن بداية مشروعية الصلاة: كان إذا سلم عليك أحد ترد عليه السلام وأنت تصلي، لكن بعد فترة نسخ هذا التشريع وصار التشريع أن ترد بيدك بالإشارة بأن تجعل بطن يدك إلى الأرض وظهرها إلى السماء، وهذه هي السنة في رد السلام وأنت تصلي لكن ابن مسعود لم يعلم هذا التشريع الجديد في شرائع الصلاة لأنه لم يكن يصله من شرائع الإسلام شيء وهو في الحبشة.

● لذلك فالنجاشي والصحابه في الحبشة على مدار ثلاثة عشر سنة لم تصلهم أي تشريعات جديدة غير ما عرفوه من القرآن المكي الذي نزل على النبي ﷺ في الخمس السنوات الأولى للبعثة وما علمه لهم رسول الله ﷺ...

● لذلك من موانع التكفير: من اعتنق الإسلام وهو يعيش في منطقة نائية مقطوعة عن المسلمين كما يقول ابن حزم في (المحلى): "لا خلاف في أن أمرؤاً اسلم ولم يعلم شرائع الإسلام فاعتقد أن الخمر حلال وأنه ليس على الإنسان صلاة وهو لم يبلغه حكم الله تعالى.. لم يكن كافرًا بلا خلاف يعتد به" أ.هـ

الحالة الثالثة: أن النجاشي لم يسلم في السنة الخامسة من البعثة، وأسلم متأخرًا في السنة السابعة من الهجرة لما جاءه خطاب النبي ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام على يد عمرو بن أمية الضمري ويدعوه إلى إرسال من عنده من المسلمين. وهذه الرسالة وصلت النجاشي عام ٧هـ ثم رد النجاشي على

النبي (ﷺ) في رسالة يعلن فيها إسلامه من النجاشي إلى رسول الله : "إنني آمنت بك صادقاً مصداقاً وإني أشهد أن لا إله إلا الله، بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمتُ لله رب العالمين"^(١).

يقول د. منير الغضبان عن تاريخ إسلام النجاشي: "فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله (ﷺ) إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمري.. ثم حمل الصحابة المهاجرين عنده في الحبشة في سفينتين ووافق قدومهم على النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح خيبر عام ٧هـ"^(٢).

• وعقب خروج عمرو بن أمية الضمري من عند النجاشي دخل عليه عمرو بن العاص لاجئاً إليه خشية ظهور النبي (ﷺ) على مكة بعد هزيمتهم واندحارهم يوم الخندق وشهدت هذه الواقعة إسلام عمرو على يد النجاشي في نهاية لقاءهما كما تروي كتب السير لواقعة إسلام عمرو بن العاص، عندما قال له النجاشي: "ويحك يا عمرو أتعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط النجاشي يده فبايعته على الإسلام"^(٣).

• وعند الجمع بين الروايات كلها نصل بعون الله وتوفيقه إلى:

١. أن النجاشي خالف قومه في أمرين: في حماية المهاجرين المسلمين ضد ما أرادوه، وخالفهم في عقيدة التثليث حيث بقى على النصرانية ولكن كدين توحيد حيث آمن بأن عيسى هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، كما قال له جعفر بن أبي طالب وظهر في رد النجاشي عليه: "والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت، وأكد ذلك فعله حينما كتب ورقة فيها أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم)، ثم خرج إلى قومه ووضع يده على صدره فقام بالتورية عليهم إخفاءً لتوحيده ثم كتم هذا التوحيد عن قومه الذين أرادوا الثورة والانقلاب عليه.

(١) ذكره البيهقي عن الحاكم، وأوردها الطبري في تأريخه .

(٢) البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم ٤٢٣٠، ٤٢٣١

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٢٧٧

٢. ظل النجاشي على النصرانية كدين توحيد يأوي المهاجرين المسلمين في بلاده حتى وصله خطاب النبي (ﷺ) مع عمرو الضمري يدعو إلى الإسلام وذلك في عام ٦ هـ، فأسلم النجاشي واتبع النبي (ﷺ) منذ هذا العام حتى وفاته قبل فتح مكة قبل عام ٨ هـ، في مدة أقل من عامين هي مدة إسلامه واتباعه النبي (ﷺ).

٣. أظهر النجاشي منذ هذا الحين إسلامه حتى توفاه الله عز وجل، وصدع بالحق وتبرأ من النصرانية التي عليها قومه فاتبعوه، واتبعه الأساقفة والرهبان ثم تحدى ملك الروم ولم يقدم له الخراج الذي كان يخرج له، وكل ذلك صدعاً منه بالحق الذي صار يعتنقه، والدليل على هذا الصدق بالحق، قول ابن القيم: "أن عبد بن الجلندي أحد ملكي عمان قال لعمرو بن العاص: أين كان إسلامك، قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم، قال: انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له من الكذب، قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: بلى، قال: بأي شيء علمت ذلك، قلت: كان النجاشي يخرج له خراجاً فلما أسلم وصدق بمحمد (ﷺ) قال: "لا والله، ولو سألتني درهماً واحداً ما أعطيته، بلغ هرقل قوله، فقال له يناق أخو هرقل؟ أتدع عبدك لا يخرج لك خراجاً ويدين ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رغب في دين فاختره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع"^(١).

٤. ظل المسلمين المهاجرين ومعهم النجاشي لا يعلمون التشريعات التي تنزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) في المدينة لانقطاع الطريق بين المدينة والحبشة وبقي هو حاكماً مسلماً لمدة لا تزيد عن عامين يحكم بما علمه من شريعة الإسلام عن طريق مجموعة الصحابة التي تعيش في بلاده، بل وأرسل ابنه ورجال من قومه إلى النبي (ﷺ) يستأذنه بالهجرة إليه ونصرته ونصرة دينه^(٢)،

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ٣ / ٦٩٤، وانظر عيون الأثير ٢ / ٢٦٧-٢٦٩، وشرح المواهب ٣ / ٣٥٢-٣٥٥، ونصب الراية

٤ / ٤٢٣-٤٢٤

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٢٨ / ٦٢٠

محاوياً طلب الحق وتعلم الدين ويسدد ويقارب إلى أن يلقي الله على هذه الحال وذلك قبل اكتمال التشريع وبلوغه إليه كاملاً...

هذه هي الصورة الحقيقية الواردة في الأحاديث والآثار الصحيحة والروايات الثابتة في شأن أصحاب النجاشي ملك الحبشة.

القياس بحالة النجاشي

- أما نحن قد وصلنا التشريع كاملاً.. واستقر بنيان الدين وتمت أركانه، فهل يصح لنا القياس بحالة النجاشي ذلك الحاكم الذي كان كافراً ثم أسلم حديثاً وهو في منصبه في الحالتين حاكماً على دولة من النصارى، فهل القياس منضبط؟ ليأخذ منه قياس الدخول في الحكم (غير الشرعي) لتحقيق مصالح (شرعية)؟!

- يقول الإمام أحمد بن حنبل عن شروط القياس عندي ألا يخالفه في أي وجه من الوجوه، فإن وافقه في كل الوجوه فأقبل وأدبر كما شئت".

- ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالقياس الصحيح مثل أن تكون العلة التي علق بها الحكم في الأصل موجودة في الفرع من غير معارض في الفرع يمنع حكمها، ومثل هذا القياس لا تأتي الشريعة بخلافه... إلى قوله.. وحيث علمنا أن النص جاء بخلاف القياس علمنا قطعاً أنه قياس فاسد"^(١).

• إن النجاشي كتم توحيده، وهو لا يزال نصراني وبجواره جعفر بن أبي طالب لم يخفي بوضوح حقيقة الإسلام وصدع بالحق في نفس توقيت تورية النجاشي عن قومه، فما الفارق بين وقفة جعفر ووقفة النجاشي؟

يقول الدكتور منير الغضبان مجيباً عن هذا السؤال: "أما جعفر فهو الذي يمثل الإسلام والمسلمين، ومن خلاله يعرف الإسلام وتعرف عقائده. فلا مجال للغممة والتخفية، لأن هذا يعني طمس عقيدة

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٥٠٥ / ٢٠)

الإسلام في نفوس الناس.. أما النجاشي فلا يعرف الإسلام بشخصه، ولا يعرف من خلاله، بل هو فرد عادي، الأصل أنه نصراني لا مسلم:

إن شخصية النجاشي، وشخصية العباسي، وشخصية نعيم بن مسعود هي نماذج إسلامية من خلال أدوارها التي تؤديها، دون حرج تحمله الدعوة الإسلامية أو تحمل أوزاره"^(١).

المحكم والمتشابه

• ثم يسبق كل ما سبق أن حالة النجاشي حتى بعد تفنيد شبهتها ودحضها هي حالة استثنائية ليست الأصل، فالأصل هو النبي (ﷺ).. الأصل هو فعل النبي (ﷺ) لقيام دولة الإسلام الأولى.. هل المحكم هو النبي (ﷺ) أم النجاشي؟ من صاحب الرسالة؟ من الذي أقام الدولة؟ من الذي كان معه التشريع كاملاً؟ إن حالة النجاشي تمثل المتشابه الذي وجب رده إلى المحكم: وهو منهج النبي (ﷺ) والطريقة النبوية التي أقام بها الدين والتي تم توضيحها بفضل الله في سورة (البقرة).. لن ينصلح حال هذه الأمة وهي تبحث عن المتشابه لإقامة به الدين.. ليس أماننا غير خط واحد.. ومسار واحد.. وصراط مستقيم واحد سار عليه النبي (ﷺ) وليس علينا إلا حسن اتباعه ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

• مهما زعمنا حبنا للنبي (ﷺ) فليس أماننا إلا اتباعه إن كنا صادقين في دعوانا ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ٣١-٣٢].

• إن الانحراف عن اتباع النبي (ﷺ) مخالفته هي بداية الوقوع في الضلال بعدما تبين له الهدى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وهذا الضلال هو بداية الوقوع في الشرك الذي لا يغفره الله عز وجل مع مغفرته سبحانه وتعالى لكل الذنوب إلا الوقوع في الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، ص ٨٨

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿[النساء: ١١٦]﴾، وهذا المعنى ما سنتناوله بالتفصيل بإذن الله في سورة (النساء).

خامساً: الوعيد الشديد من الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان وبعد قيام الحجة

- قال تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

• روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سلوا لي رسول الله (ﷺ): هل لي من توبة؟ قال: فنزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم^(١).. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول (ﷺ)، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من الهداية؟!^(٢).

• وبعد بيان حقيقة التوحيد ناصعة جلية، وبعد وضوح معنى دين الإسلام، وبعد ظهور المنهج القويم الذي يريده الله عز وجل ويقبله من عباده...

وبعد التيقن من حقيقة معركة الأمة مع أعدائها أنها معركة عقيدة التوحيد، ورؤية شبهاتهم وأساليب تضليلهم قديماً وحديثاً لزعزعة هذه العقيدة وخلخلتها ومن ثم وقوع المسلمين في الشرك جاءت الآيات محذرة تحذيراً شديداً متوعدة بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وبالخلود في العذاب المهين لمن استجاب لهذه الشبهات ولم يثبت على منهج الحق.. منهج التوحيد الساطع ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧-٨٨].

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٢١٨) وإسناده صحيح والحاكم (١٤٢ / ٢)

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ص ٣٤٦ / ١

- ويقول الشيخ سيد قطب: "هذا هو الإسلام كما يريد الله، ولا عبرة بالإسلام كما تريده أهواء البشر في جيل من أجيال الناس، فأما الذين لا يقبلون الإسلام على النحو الذي أراده الله، بعدما عرفوا حقيقته، ثم لم تقبلها أهواؤهم، فهم في الآخرة من الخاسرين ولن يهديهم الله، ولن يعفيهم من العذاب.. وهو وعيد رعب يرجف له كل قلب فيه ذرة من إيمان، ولكن الإسلام مع هذا يفتح باب التوبة، فلا يغلقه في وجه ضال يريد أن يتوب ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

فأما الذين لا يتوبون ولا يثوبون. الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفرًا حتى تفلت الفرصة المتاحة، وينتهي أمد الاختبار ويأتي دور الجزاء. هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة ولو أنفقوا ملء الأرض ذهبًا فيما يظنون هم أنه خير وبر، مادام مقطوعًا عن الصلة بالله. فقد أفلتت الفرصة وأغلقت الأبواب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا هُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٠-٩١].

سادسًا: أهمية العلم في نفي الجهالة ودور البيئات في كشف التأويل

- قال تعالى ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].
- يقول محمد بن كعب: "من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي (ﷺ)"، وقال أيضًا: "من بلغه القرآن فقد بلغه محمد".
- إن القرآن الكريم هو العلم النافي لأية جهالة، فالله عز وجل له الحجة البالغة على خلقه.. لم يتركهم سبحانه وتعالى في جهل أو جهالة.
- الجهل ضد العلم وهو نوعان:

جهل عجز: لا يعرف صاحبه أي شيء إلا بالتلقي كمن نشأ وعاش في غابة أو صحراء لا يسمع ولا يدري أية علم، إلا عن طريق آخر لأنه عاش منقطعاً كأصحاب الفترة.
جهل إعراض: كمن لديه الفرصة ومتاح أمامه العلم والبيانات، ومع ذلك لا يُلقي بالألم مع امكان ذلك.

- والصنف الأول: أرجح الأقوال في شأن أهل الفترة أنهم يمتحنون يوم القيامة، أما في الدنيا فمن وقع في الشرك فهو حكمه حكم المشركين.

- أما الصنف الثاني: فهم غير معذورون لأن الحق مبذولاً لهم، فباعوا واشتروا به الضلال على علم وعن بينة، ومن هنا استحقوا أن يتركهم الله يسارعون في الضلال ليستنفدوا رصيدهم كله لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

● والمقصود أن إزالة الجهل في مقدور المكلفين الذين بلغهم القرآن، وأعرضوا عن تعلمه وفهمه، يقول ابن تيمية في الفتاوى:

"لا يكون العذر عذراً إلا مع العجز عن إزالته وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقعد فيه لم يكن معذوراً"^(١).

● لذلك من بلغه القرآن وأقيمت عليه حجته الساطعة وأدلتها الناصعة وآياته المحكمة فقد انتفى عنه أية جهالة ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩] يقول ابن كثير "إن الذين أوتوا الكتاب إنما اختلفوا بعدما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم إنما اختلفوا في الحق بعد علمه لتحاسدهم وتباغضهم، (ومن يكفر بآيات الله): أي من جهد وأعرض عن ما أنزل الله في كتابه (فإن الله سريع الحساب): فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

• لذلك وجب على كل مسلم أن يتعلم كتاب الله ولا عذر له في تخلفه عن ذلك، فالقرآن أمامه والتفاسير متاحة بكل يسر وسهولة ومتى تدين له ذلك فقد أقيمت عليه الحجة، فمن خالف بعدها كتاب الله وأعرض عن الحق المبين فيه فقد وقع في الضلال والخسران.. ومن استقام على الحق أو وصل إليه حجة على من لم يستقم أو قصر في طلبه.. والذي يسمى بعد ذلك "معرضاً" ولا يسمى "جاهلاً".

• أما التأويل فيعرفه العلماء بأنه: "وضع الدليل الشرعي في غير موضعه باجتهاد أو شبهة تنشأ عن عدم فهم دلالة النص".. والتأويل في هذه الحالة يعذر صاحبه متى تبين له الحجج وجاءته البينات المحكمات، فوجب عليه المسارعة برد الشبهات إلى المحكمات، والرجوع عن اجتهاده متى تبين له خطؤه.

• أما التأويل الذي فيه ليّ للحق، ناشئاً عن محض رأي وهوى فلا يعتبر عذراً لصاحبه، وعليه أن يتوب ويثوب إلى كتاب الله وآياته البينات وألا يصير على مخالفته.

المقطع الثالث: دعوة الفئة المؤمنة للثبات على الحق وأداء تكاليف مهمتها

(من الآية ١٠٠: ١٣٠)

• يشمل المقطع الثالث في سورة (آل عمران) عرض العناصر التالية:

أولاً: التلقي من مناهج أعداء الدين بداية الانحراف عن الحق.

ثانياً: القرآن يرسم معالم الطريق

ثالثاً: طبيعة مهمة قيادة البشرية بمنهج الله

رابعاً: مؤهلات المهمة وركائزها

خامساً: تكاليف الطريق وتبعات المهمة... الابتلاء سنة الله في الدعوات (بصائر).

• مع عرض مقصد: تركية النفس تحت عنوان: (صفات المتقين).

• مع عرض مقصد: معرفة الله عز وجل (السميع العليم).

- وهذا المقطع الثالث يشمل الإعداد اللازم لرجال القاعدة الصلبة المنوط بها إقامة منهج الله في الأرض، ففيه التوجه بالنداء المباشر للمؤمنين، مع مجيئه بعد إنهاء الجدل مع أهل الكتاب حول شبهاتهم، وقبل الدخول إلى آيات غزوة أحد، فهو مقطع بمثابة التمهيد والإعداد للمعركة.

أولاً: التلقي من مناهج أعداء الدين بداية الانحراف عن الحق

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].. أول خطاب من بداية السورة يوجه بالنداء المباشر للفئة المؤمنة في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾..

- وهذه الآية: آية محورية في السورة فهي وسط السورة التي تبلغ آياتها مائتي آية، وهي تماثل الآية المحورية لسورة البقرة والتي جاءت في منتصفها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

- وعن تفسير هذه الآية المحورية في سورة (آل عمران)، يقول ابن كثير رحمه الله: "يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من طاعة طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] لذلك قال هاهنا ﴿إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾^(١).

- إذن ذروة عداوة أهل الكتاب لهذه الأمة تمثلت في صدها عن سبيل الله ﴿لَمْ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: ٩٩]، وإن أهم وأخطر أساليبهم للصد عن سبيل الله وطريقه المستقيم هو تضليل الأمة عن منهج الله القويم. وهذا السلاح أقوى من سلاح المواجهة المباشرة بالقتال والذي قد يتسبب في حشد طاقات الأمة في ميدان المواجهة... بينما أفتك الأسلحة وأشدّها بأساً هو زعزعة الجماعة المسلمة عن خصائص منهجها، وخلخلة عقيدتها ومن ثم تنحرف شيئاً فشيئاً عن المنهج الأصيل الخالص الذي رسمه الله عز وجل لها، وقدره عليها صافياً من أية شوائب أو فسادٍ أو اعوجاجٍ.. إن منهج الله هو الطريق المستقيم وما عداه عوج

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ص ٣٥٣

غير مستقيم وسبل شتى من سلكها انحرف ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية: "قد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشئ في الأرض طريقها على منهج الله وحده. متميزة متفردة ظاهرة. لقد انبثق وجودها ابتداء من منهج الله، لتؤدي في حياة البشر دوراً خاصاً لا ينهض به سواها..

لقد وجدت لإقرار منهج الله في الأرض وتحقيقه في صورة عملية تُترجم فيها النصوص إلى حركات وأعمال، ومشاعر وأخلاق، وأوضاع وارتباطات..

وهي لا تحقق غاية وجودها، ولا تستقيم على طريقها، ولن تنشئ هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة، إلا إذا تلقت من الله وحده.. لا التلقي من أحد من البشر، باتباعها رسول الله (ﷺ).. لا اتباع أحد من البشر بطاعة الله ورسوله (ﷺ).. لا طاعة أحد من البشر..

إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف...

- هذا ما يؤكد القرآن ويكرره في شتى المناسبات ويقوم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها.. وذلك في كل جيل من أجيالها.. فهو توجيه دائم لكل فئة مؤمنة تنهض لقيادة البشرية بمنهج الله.

لقد وجدت هذه الطليعة المؤمنة لقيادة البشرية. فكيف تتلقى إذن من الجاهلية والتي جاءت لتبدها ولتقودها بمنهج الله؟ وحين تتخلى عن مهمة القيادة فما قيمة وجودها إذن.. وغاية إخراجها للناس.. (١).

"هذه الآية المحورية في سورة (آل عمران) قدر الأمة المسلمة من اتباع غيرها، وتبين لها كذلك طريقها لإنشاء الأوضاع الصحيحة وصيانتها.. وهذا المقطع من السورة يفصل في طبيعة هذه المهمة ومؤهلاتها وتكاليفها.. لذا بدأ بهذه الآية في التحذير من اتباع أهل الكتاب وكل أعداء

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ٤٣٧

الدين في كل زمان وحين، وإلا فالبدليل بطاعتهم هو أنهم سيقودوا المؤمنين إلى الكفر لا مناص ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].. ويكمل الشيخ سيد قطب كلامه فيقول محذراً رحمه الله:

"إن طاعة أعداء الدين والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداءً معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعوداً في طريق النماء والارتقاء. وهذا بذاته ديبب الكفر في النفس. وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب. هذا من جانب المسلمين، فأما من الجانب الآخر، فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها. فهذه العقيدة هي صخرة النجاة، وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة، وأعداؤها يعرفون هذا جيداً.. يعرفونه قديماً ويعرفونه حديثاً.. ويبدلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعُدّة. وحين يعجزون أن يحاربوا هذه العقيدة اهرين يدسون لها ماكرين متظاهرين بالإسلام جنوداً مجنّدة لتتخرق في جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتزيين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعاً غير أوضاعها، وقيماً غير قيمها، وتقاليد غير تقاليدها، ونظماً غير نظامها.

وحين يجدون من بعض المسلمين طواعية واستماعاً واتباعاً سيقودونهم حتماً ويقودون الجماعة كلها من ورائهم إلى الكفر والضلال"^(١).

• وبالفعل حدث اختراق لمناهج أمة الإسلام بمناهج الجاهلية، ونجح أعداء الدين في تزيين للأمة مناهج غريبة فأطاعتهم الأمة المسلمة فأنحرفت عن منهج الله.

والسؤال: كيف اخترقت المناهج الغربية الأمة فضلت وانحرفت؟

- يجب عن هذا السؤال الأستاذ محمود مُجّد شاكِر في كتابه رسالة في الطريق إلى ثقافتنا فيقول: إن الصراع بين الأمة المسلمة وأهل الكتاب من الروم والصليبيين مر بمراحل كثيرة بداية من عام

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١/٤٣٨، ٤٣٩

٦٥٣م وبعد هزيمة الروم في أرض الشام في معركة اليرموك، دخل الصراع في المواجهة المسلحة المباشرة حيث حشد الصليبيون جيوشًا جرارة في الحملات الصليبية لمدة قرنين كاملين لاختراق دار الإسلام وذلك من عام ١٠٩٦م حتى ارتدوا خائبين إلى موطنهم في قلب أوروبا عام ١٢٩١، وبدء الروم (الغرب الصليبي) يلجأ لتعلم علوم دار الإسلام للخروج من المأزق الضنك وأغلال الجهل والقرون الوسطى، حتى بدأ الصراع يستخدم بعد فتح المسلمون للقسطنطينية عام ١٤٥٣م، ثم بدأت بعهدا تنتاب الأمة مظاهر السقوط والانحيار متمثلة في الغفلة بزخرف الحياة الدنيا وارتكاب المعاصي والغرور بالقوة والكثرة والبعد عن العمل بكتاب الله وترك فهمه وتعلمه، فمثلت هذه الأسباب أرضية خصبة للغرب الصليبي لينقض على أمة الإسلام، فتبعوا سلاحًا آخر غير سلاح المواجهة المسلحة المباشرة واستخدموا سلاح المستشرقين وهم أهم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية فهم جند الروم الصليبيين وهبوا أنفسهم لاختراق دار الإسلام من الداخل بكل سبيل فبدأت مرحلة اليقظة والنهضة في أوروبا الصليبية منذ عام ١٦٠٠م وحتى الآن بحماسة متوقدة وصبر طويل بعد عشرة قرون من الظلام، وبعد تخطيط كبير وجهد خارق سخرت فيه كل طاقاتهم وجنودهم من الرهبان: قادة الكنيسة والاستعماريين من الساسة طبقة الملوك، ومن رجال التبشير والمستشرقين الذين استخدموا سلاح المكر والخداع وحبائل الدهاء والمداهنة (كما كان يفعل أهل الكتاب في زمن الجماعة المسلمة الأولى) فاندسوا داخل الأمة وتعلموا العربية، ونقلوا العلوم العربية لبلادهم، واستغلوا فترة غفلة الأمة في ملذات الدنيا وشهواتها، ونسجوا خيوط العنكبوت للأمة، وفي قلوبهم حمية الصراع بين المسيحية والإسلام على مدار عشرة قرون ودار الإسلام كانت ممتنعة على الاختراق.

وجدوا بغيتهم وعرفوا طريقهم إنه: زعزعة عقيدة الأمة المسلمة وتبديل منهج التوحيد إلى مناهج استحدثت خصيصًا لتضليل الأمة وتمزيقها، وإفساد أخلاقها، وتنكيس فطرتها السوية، وطمس هويتها وكانت فترة التحول هذه هي: حملة نابليون الصليبي لمصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م) الذي دجن مشايخ وعلماء الأزهر وأدخلهم في حكومة الديوان في بداية الخديعة الكبرى بالمشاركة

السياسية تحت التبعية الصليبية والأدهى هو أنه وجد بفعل المستشرقون أن الكثير من المثقفين يرون أن نابليون جاء ليخرج المصريين من الجهل إلى التنوير، وجاء ليصلح نظام الممالك بنظم وتقاليد غربية حديثة، ثم انفجرت الأوضاع في بقية من حمية الجهاد في الأمة وغادر نابليون وترك خليفته كبير، لتبدأ فكرة البعثات العلمية لأوروبا للتعرف على التقاليد والأفكار والنظم الغربية ليعودوا بها إلى مصر لتغريب الثقافة وتخريب العقول وإفساد الفطرة وزعزعة العقيدة وطمس الهوية. وكانت أول البعثات العلمية إلى فرنسا عام ١٨٢٦م تحت قيادة رفاة الطهطاوي، والذي عاد بإنشاء مدرسة الألسن عام ١٨٣٦م وهي ثمرة من ثمار الاستشراق لضرب المناهج الإسلامية وبداية لتعلم مناهج الغرب المستوردة، ثم جاءت مرحلة الاحتلال الإنجليزي عام ١٨٨٢م وتم إنشاء مدارس إنجليزية لإفساد التعليم والثقافة وتم تفرغ الأمة من مناهجها ومن ماضيها^(١).

ومرت أعوام واتبعت الأمة خطوات الشيطان تدريجياً، واتبعت زخرف المناهج الغربية الصليبية في التعليم والثقافة لطمس العقيدة أولاً ثم اتبعتها في شئون الحياة وسياسة الناس وأمور الحكم ثانياً فظهرت المناهج الحديثة الغربية صنعة الروم الصليبيون مثل مناهج: الديمقراطية والعلمانية والليبرالية والمدنية والاشتراكية.. فتخلت الأمة المسلمة.. أمة الاستجابة لله وشرعه ومنهجه تخلت عن عقيدتها تحت دعاوى الحضارة الحديثة، فظهر الفساد في البر والبحر، وظهر الانحلال والإباحية بدعوى التحرر والتنوير.. ثم نحى الإسلام عن الحكم.. ثم فصل الدين عن الحياة. ووقعت الأمة في طاعة واتباع الذين أتوا الكتاب الذين يزعمون أنهم اتباع المسيح.. اتبعت الأمة سنن ونظم وتقاليد الغرب الصليبي فانحرفت الأمة المسلمة عن منهجها الأصل الصافي إلى يومنا هذا!

ولم تستجب الأمة لهذا التحذير الحاسم المخيف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

- وكانت أشد هذه المناهج الغربية خطورة على الأمة هو منهج ونظم الديمقراطية، والتي أرسدت دعائمها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م بتبليورها لأساس المذهب الديمقراطي وهو مبدأ: "سيادة

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر

الأمة وحققها في وضع قوانينها وأن الأمة مصدر السلطات"، فكانت هذه هي البداية التاريخية للديمقراطية الحديثة والتي من خلالها تم وضع دساتير وسن قوانين وتشريعات وضعية، وتُحيت شريعة الرحمن، وسارت الأمة في فلك هذا النظام الغربي الصليبي تقفوا آثاره حتى وقعت الأمة في حبال الشرك والضلال.. والتي سنقوم بإذن الله بتوضيح الأوجه الشرعية لهذه المناهج في عرض سورتي (النساء) و(المائدة).. تبعًا لمناسبة الوحدة الموضوعية في كل منهما..

● ولخطورة اتباع أعداء الدين في مناهجهم ونظمهم وتقاليدهم، وترك منهج الله عز وجل وصبغة الله التي فطر الناس عليها.. أفرد القرآن سورتين كاملتين لحماية الأمة وعصمتها من حبال الانخداع والسقوط في شرك مناهجهم والانحراف عن عقيدة التوحيد، وهما سورتي (العنكبوت والروم)، وستناول بإذن الله في عرضهما تفاصيل فتنة الأمة عن دينها ومنهجها، ونفهم معنى حديث "والروم ذات القرون" من خلال الآيات وواقع الصراع بين أمة الإسلام والروم الصليبيون.

- وبعدهما صار هذا هو واقع الأمة المسلمة اليوم في قلب خيوط عنكبوت الروم.. نرى أن السبب الرئيسي هو إهمال التعامل مع كتاب الله وهدى رسوله (ﷺ).. المنهج القويم والصراف المستقيم.. فلو الأمة لم تحمل تحذيرات سورة (آل عمران)، ولو لم تتخلى عن فهم هدى النبي (ﷺ) والنصوص الصحيحة لأحاديث النبي (ﷺ).. لو لم يحدث ذلك كله لاستقامت الأمة وما انحرفت عن عقيدتها ومنهجها الصافي الأصيل.. لو تمسكت الأمة بالقرآن والسنة واعتصمت بجبل الله وشرعه لما انحرفت عن صراط الله المستقيم.

- لذلك كان هذا الاستفهام القرآني العجبي والاستنكاري هو الآية التالية للتحذير من اتباع مناهج أعداء الدين والتلقي عنهم، قال تعالى ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

يقول الشيخ سيد قطب حول هذه الآية: "أجل إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن في ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان، وإذا كان رسول الله (ﷺ) قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى،

فإن آيات الله باقية، وهدى رسوله (ﷺ) باقٍ.. ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون، وطريق العصمة بيّن، ولواء العصمة مرفوع^(١).

- روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت أنه قال: جاء عمر إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله. إني أمرت بأخ يهودي من بني قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة. ألا أعرضها عليك؟

قال: فتغير وجه رسول الله (ﷺ)، قال عبد الله بن ثابت: قلت له: ألا ترى ما في وجه رسول الله (ﷺ)؟ فقال عمر: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال: فسرى عن النبي (ﷺ) وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى - ﷺ - ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم. إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»^(٢).

- وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا حماد عن الشعبي عن جابر، قال: قال رسول الله (ﷺ): «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء. فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا. وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق. وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»^(٣).. وفي بعض الروايات: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي".

هؤلاء هم أهل الكتاب. وهذا هو هدى رسول الله (ﷺ) في التلقي عنهم في أمر يختص بالعقيدة والتصور أو بالشرعة والمنهج.. فلا ضير من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة الدنيوية علماً وتطبيقاً مع ربطها بالمنهج الإيماني.

- أما التلقي عنهم في منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضاً.. أما التلقي في شيء من هذا كله فهو الذي تغير وجه رسول الله (ﷺ) لأيسر شيء منه. وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته وهي الكفر الصراح:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤٣٩/١.

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٧٤).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٤٣٩/١، ٤٤٠.

- وهذا هو توجيه الله سبحانه وهذا هو هدي رسوله (ﷺ)، فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا (ﷺ) عن المستشرقين وتلامذتهم، وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة ومن ذلك المستنقع الآسن ثم نزعم- والله- أننا مسلمون"^(١).

ثانياً: القرآن يرسم معالم الطريق

- قال تعالى ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠١-١٠٤].

- في هذه الآيات نجد التوجيه الإلهي للجماعة المسلمة الأولى في المدينة ما يزال هو للجماعة المسلمة في كل وقت وحين.. توجيه قائم اليوم وغداً فالقرآن هو القرآن والطريق هو الطريق، وعن دور القرآن الكريم في رسم معالم الطريق للفئة المؤمنة.
- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "هذا التوجيه الإلهي يبصر كل فئة مؤمنة تعتمز سلوك الطريق، لإعادة نشأة الإسلام

- يجلو لأبصارها طبيعة هذه الدعوة، وطبيعة تكاليفها وطبيعة مهمتها.
- يبصرها بطبيعة أعدائها وهم هم مشركين وملحدين وأهل كتاب- الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية!

(١) نفس المصدر السابق.

- يبصرها بطبيعة العقبات والفخاخ المرصودة في طريقها، وبطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء.

- يعلق قلوبها وأبصارها بما هنالك. بما عند الله. ويهون عليها الأذى والموت والفتنة في النفس والمال.

فيبقى هذا التوجيه القرآني رصيلاً للجماعة المسلمة كلما همت أن تتحرك بهذه العقيدة وهي تحاول تحقيق منهج الله في الأرض، فتعرف حين تناوشها الذئاب بالأذى، وحين تعوي حولها بالدعاية، أنها سائرة في الطريق، وأنها ترى معالم الطريق..

فالقرآن هو القرآن. كتاب هذه الأمة الخالد. ودستورها الشامل. وحاديها الهادي. وقائدها الأمين^(١)، ولا سبيل لأي فئة مؤمنة تسعى لإقامة منهج الله في الأرض أن تسير في طريقها إلا بالقرآن الكريم.

ثالثاً: طبيعة مهمة القيادة البشرية بمنهم الله

- قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

• إنها أمة ذات دور خاص، لها مقام خاص، ومهمة خاصة أخرجت من بين دفتي هذا الكتاب المعجز ودبت فيها الحياة لقيادة البشرية بمنهج الله.. فهي أخرجت لتكون طليعة ولتكون لها القيادة.. والله عز وجل يريد القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض..

بهذه الكلمات يصف الشيخ سيد قطب طبيعة مهمة الأمة والتي عرفتنا حقيقتها هذه الآية.. فيكمل كلامه رحمه الله فيقول:

"أول مقتضيات هذه المهمة هو أن تقوم الأمة على صيانة الحياة من الشر والفساد.. وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فهي خير أمة أخرجت للناس لا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١/٥٣٦، ٥٤٠

عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف.. تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.. كلا! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف.

• ولابد من فئة مؤمنة هي التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

لابد من قوة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. الذي تكرر الحث عليه في هذا المقطع من الآيات ثلاث مرات لبيان أهميته وخطورته..

والسؤال الآن: ما هو المعروف الأكبر؟ وما هو المنكر الأكبر؟

إقامة المعروف الأكبر وإزالة المنكر الأكبر

- المعروف الأكبر هو: التوحيد.
- المنكر الأكبر هو: الشرك.
- فلا بد أن تنتج الفئة المؤمنة أولاً لإقامة المعروف الأكبر والذي من أجله شرع الله الدين، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وتقام من أجله دولة الإسلام، ويقام له الجهاد في سبيل الله ويتخذ من أجله الشهداء.. إنه توحيد الله عز وجل وتقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى وذلك:

✓ بإقامة العبودية لله عز وجل وحده لا شريك له.

✓ بتقرير الحاكمية لله عز وجل وحده لا شريك له.

وهذا المعروف الأكبر يتطلب لإقامته: إزالة المنكر الأكبر في الأرض وهو الشرك، وتطهير الأرض من نجسه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. والشرك سبب الفساد وفتنة الناس ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

- وكل معروف أو منكر فرعي يأتي بعد إقامة المعروف الأصلي وإزالة المنكر الأصلي كما يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله:

"حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم.. ولا يكون مجتمع الحاكمية فيه لله وحده، وشريعة الله وحدها هي الحاكمة فيه، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر وهو: تقرير ألوهية الله وحده سبحانه. والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولاً إلى النهي عن المنكر الأكبر وهو: حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله.. ثم بعد ذلك يكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي، والذين أقاموا دولة الإسلام الأولى لم ينفقوا قط جهدهم في شيء من هذه التفريعات إلا بعد قيام الأصل الأصيل وقبل قيام الدولة المسلمة"^(١).

رابعاً: مؤهلات المهمة وركائزها

- قال تعالى ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴿آل عمران: ١٠١-١٠٣﴾.

ذكرت هذه الآيات ثلاثة ركائز للجماعة المسلمة للنهوض بمهمة قيادة البشرية بمنهج الله ولإقامة المعروف الأكبر وإزالة المنكر الأكبر، وهذه الركائز والمؤهلات هي:

١. الاعتصام بالله عز وجل ومنهجه وكتابه.
 ٢. الثبات على تقوى الله ومنهجه حتى الممات.
 ٣. وحدة الصف المسلم لتحقيق منهج الله في الأرض.
- الركيزة الأولى: الاعتصام بالله عز وجل ومنهجه وكتابه:

- الاعتصام بالله هو: الاعتماد عليه، والتوكل عليه، والاستعانة به والاعتصام بحبل الله هو: شرعه، وسمي شرعه حبلاً لأنه موصل إليه، فالحبل يوصل إلى المقصود، وحب الله هو شرعه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١٧٢٠

الموصل إليه^(١)، وورد في الحديث عن النبي (ﷺ): «إني تارك فيكم كتاب الله، وهو حبل الله من اتبعه كان على الهدى»^(٢).

- ويقول ابن كثير في تفسيره: "الاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعُدَّة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد"^(٣).
- وقد تكررت مظاهر الاعتصام بالله في سورة (آل عمران) ومن أهمها: الدعاء، والاستجابة لله بقول (حسبنا الله ونعم الوكيل) كما حدث في حمراء الأسد.
- والدعاء يحمل الكثير من معاني العبودية فهو تعبير عن الافتقار إلى الله وقوة الاستعانة به وصدق التضرع واللجوء إليه ودوام العوذ إلى الله رب العالمين وحسن الصلة به، ومن الأدعية التي وردت في سورة (آل عمران):

— طلب المؤمنين من الله الثبات على الهداية والاستقامة على الحق، قال تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [آل عمران: ٨-٩].

— سؤال المؤمنين من ربهم مغفرة ذنوبهم ونجاتهم من عذابه، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَنْبِرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].. حتى في قلب المعركة يتوجه المجاهدون بطلب الصفح من الله عز وجل على إسرافهم في أمرهم إقراراً منهم بتقصيرهم وتفريطهم قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ

(١) التفسير الثمين، ابن عثيمين، تفسير آل عمران، ص ٣٦٦

(٢) رواه مسلم (٢/ ٢٣٨)

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ص ٣٥٣

إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿آل عمران: ١٤٧﴾ .. دعاء خاشع منيب واستغاثة برب غفور مجيب .

— طلب من الله عز وجل الذرية الطيبة وسؤاله الولد الصالح ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] .. مناجاة إلى الله عز وجل في كل الأحوال ومهما كانت حوائج العبد صعبة المنال في ظنه فإنه يلجأ إلى الله عز وجل متضرعاً متذللاً على يقين بإجابته سبحانه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] ، ولقد أستجيب الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر الذي علق رجاءه بمن يسمع الدعاء، ويملك الإجابة حين يشاء ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] .

— استعاذة بالله عز وجل من شر الشيطان، قال تعالى ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] .

— دعاء يحمل عقد بيعة مع الله عز وجل بالإيمان به واتباع رسوله (ﷺ) ونصرة دينه، قال تعالى ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] .

● والاعتصام بالله يتطلب استشعار العبد افتقاره وضعفه وتذللته لله عز وجل فلسانه يهتف: بك أستجير ولا يجبر سواك فارحم ضعيفاً يحتمي بجمالك .. وقد أحاط بالمسلمين الخوف يوم حمراء الأسد وأثخنهم الجراح وتوعدهم الناس بالجموع، وقال أبو سفيان لركب يريد المدينة: أبلغوا محمداً أنا أجمعنا الكرة، لنستأصله ونستأصل أصحابه .. فمر الركب برسول الله (ﷺ) وهم بحمراء الأسد فأخبرهم بالذي قاله أبو سفيان وقالوا (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) .. فقال لهم الرسول (ﷺ) قولوا: "حسبنا الله ونعم الوكيل" .. فتوكلوا على ربه واستعانوا به واعتصموا بحوله وقوته ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .. فلما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ﴿فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤] ، ومن ثمرات الاعتصام بالله

زوال الخوف من العبيد مهما بلغ كيدهم ومكرهم ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].. فسبحانه وتعالى هو حسبنا أي كافينا.. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].. كافينا الرب من المربوبين.. كافينا القوي من الضعفاء.. كافينا الله ونعم الكافي.

— والاعتصام بالله هو شعار العائشون بالله (وإياك نستعين)، ولأهميته اختتم كتاب الله بالاعتصام بالله والتعوذ به من كافة الشرور في المعوذتين سورتي الفلق والناس.

● والعبد يحتاج إلى عصمة الله عز وجل في كل لحظة حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

الركيزة الثانية: الثبات على تقوى الله ومنهج حتى الممات

التقوى هي حالة دائمة من اليقظة والحذر والخوف من الله عز وجل، حالة لا تفتقر لحظة من لحظات العمر.. كالذي يسير في أرض مليئة بالأشواك.. سيكون حذرًا يقطأ وجلاً من أن يصيبه مكروه أو شر.. كذلك في طريقه إلى الله عز وجل يسير إليه وهو لا يدري هل سيثبت أمام الفتن والشهوات أم لا؟ هل سيزيغ قلبه بعد هدايته؟ هل سيسلب إيمانه منه؟ هل سيتقبل الله عز وجل منه أم يرد إليه أعماله هباءً منثوراً؟ لذلك فحالة المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

التقوى حالة ينتفي معها أي شعور بالأمان، بل هي حالة من القلق والفرح من الخزي يوم القيامة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

- وقد عرضت سورة (آل عمران) صفات عديدة للمتقين سنقوم بإذن الله بتناولها في أثناء عرض المقصد الثالث: تزكية النفس بعد قليل..

- ويقول الشيخ سيد قطب أن: "ذكر الإسلام بعد التقوى يشير بمعناه الواسع: الاستسلام لله، طاعة له، واتباعاً لمنهجه، واحتكاماً إلى كتابه. وهو المعنى الذي تقرره السورة كلها في كل موضع

منها" (١). إذن مطلوب من طليعة المؤمنين أن يتقوا الله ويثبتوا على منهجه ولا ينحرفوا عنه حتى الممات، ولا يتلقوا من أية مناهج أخرى مهما كان.

الركيزة الثالثة: وحدة الصف المسلم لتحقيق منهج الله في الأرض

هذه الركيزة هي ركيزة الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله.. فهي أخوة انبثقت من الركيزتين السابقتين فأساسها الاعتصام بحبل الله وليس بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة، ولا على أي هدف آخر، والأساس الثاني لها هو: التقوى والإسلام فهي إخوة الدين التي تتجمع حول راية (لا إله إلا الله) ويتلاشى بينهم أي تصور آخر، وأي راية أخرى، وأي هدف آخر.. إنها الراية العالية التي يأتلف تحتها المؤمنون من كل المشارب فتذوب بينهم الفوارق لتكون كلمة الله هي العليا فحسب..

ولن يقام الدين إلا بوحدة الصف المسلم الساعي لتحقيق منهج الله في الأرض ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ولن يقوى بأس المؤمنين في القتال مع أعداءهم إلا بقوة ترابطهم ووحدة صفهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا﴾ [الصف: ٤]، والبنيان المرصوص أي الملتصق بعضه في بعض، وقال قتادة: "إن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمته لمن أخذ به" .. وهذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ .. وكما رأينا من أسماء بعض السور في القرآن تدعو للائتلاف والوحدة ونبد التفرق والتشردم بين الصف المسلم مثل سورتي: (الشورى، والصف).

خامساً: تكاليف الطريق وتبعات المهمة

- إنه الطريق إلى الجنة.. وقد حفت الجنة بالمكاره والشدائد، بالقرح والضرر والإيذاء... بينما حفت النار بالشهوات التي زين للناس حبها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.. لذلك نحن أمام مفترق طريق.. فإما طريق المؤمنين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١/ ٤٤٢

أصحاب الدعوات الذين لن يتركوا أن يقولوا أمنا دون اختبار وتمحيص ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].. وإما طريق كل من أراد زينة الدنيا ومتاعها وزخرفها وشهواتها ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]... فأى الطريقين تختار؟

- فمن أراد طريق أصحاب الدعوات.. وأراد شرف قيادة البشرية بمنهج الله في الأرض.. فليعلم وليوقن أن سنة الله الماضية لهذا الطريق هي الابتلاء والتمحيص.. فلا اصطفاء بلا ابتلاء.

سنة الله في الدعوات (بصائر)

- قال تعالى ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].
- لا بد من الابتلاء ليظهر ويكشف حقيقة إدعاء الإيمان ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].
- لا بد من الابتلاء لتمييز ضعاف الإيمان والمنافقين الذين اندسوا في الصفوف ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].
- لا بد من الابتلاء ليُقدم المجاهدين الصابرين ويسقط الخوالب أصحاب الدنيا والعيش الرغيد ﴿وَلَتُبْلَوُنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].
- لا بد من الابتلاء لتنقية المؤمنين من الشوائب وتطهيرهم من الذنوب ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، يحص: بمعنى يُنقى ويصفي ويظهر من الذنوب والآثام، فيخرج المؤمنون من الفتن أطهار خلص لله عز وجل، خالصين مخلصين له أنقياء أتقياء، متجردين من كل حظ سوى حظهم في مرضاة ربهم، وهذا هو معنى كلمة (فتنة) في أصلها اللغوي فكلمة (تفتن النار الذهب) أي: تفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، كذلك حين يتعرض المؤمن للفتنة فيثبتوا عليها فيخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم.. وهؤلاء هم المختارين من الله، ليكونوا أمناء على إقامة منهج الله في الأرض.

• لا بد من الابتلاء ليشتد عود وصلابة أصحاب مهمة قيادة البشرية، وذلك بما يذوقون في سبيل هذه المهمة من الآلام والتضحيات، وبما يبذلون من دماء وجراحات، وبما يتحملون من أذى وحرمان، وما يجرمون من لذات ورجائب الذين يتعرضون لكل ذلك وما يصيبهم وهن أو ضعف أو استكانة، قال تعالى ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

- ربيون: أي طوائف وجماعات تناصر هؤلاء الأنبياء، فيهم صفة الربانية، فالربيون هم الذين قاموا بعبادة الرب فنالوا معه سبحانه وتعالى تربية خاصة، (فما وهنوا) أي: ما جبنوا لما أصابهم في سبيل الله، (وما ضعفوا) أي: ما ضعفت عزيمتهم حتى لو قتل الكثير منهم، (وما استكانوا) أي: ما ذلوا لعدوهم أو خضعوا له مع أنه قتل منهم كثير لكن كانوا على غرة^(١)، إذا كانت حالتهم رغم الجراح والأذى والتقتيل والدماء هي حالة إقدام وقوة وعزة، ولم يزدادوا بالبلاء إلا ثباتاً وصلابة وعزيمة، جاء في الصحيح: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء.

- واستمع لكلمات الشيخ سيد قطب رحمه الله عن الحكمة من ابتلاء الفئة المؤمنة التي قررت أن تنهض لإقامة المعروف الأكبر وإزالة المنكر الأكبر، فيقول رحمه الله:

"إنه هو الطريق الذي لا طريق غيره، لانشاء الفئة المؤمنة التي تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليها.. طريق التربية لهذه الفئة المؤمنة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً.

فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملة إذن والصبر عليها فهم عليها مؤتمنون وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنت وبلاء، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال. فلا يفرطوا فيها بعد ذلك، مهما تكن الأحوال.

فإذا طال الأمد، وأبطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى. وكان الابتلاء أشد وأعنف. ولم يثبت إلا من عصم الله ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:

(١) التفسير الثمين، ابن عثيمين، سورة آل عمران، ص ١٥٢

[١٩٦]، وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيتهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعد الله. وما يشك مؤمن في وعد الله. فإن أبطأ فلحكمة مقدره، فيها الخير للإيمان وأهله. وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله^(١).

• وهون في سبيل الله كل تضحية وكل أمر، فيكفي أنه في سبيل الله (وأوذوا في سبيلي) فأبي شرف هذا ينسى معه المؤمن كل ضرر وقرح ومخمصة ونصب وغم وإيذاء.. ولما دميت إصبع النبي ﷺ في إحدى الغزوات قال:

«هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَصْبُعُ دَمِيَّتٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ»^(٢).

• ومع إعداد وتأهيل الفئة المؤمنة المنوط بها إقامة منهج الله في الأرض، وقبل الدخول في خصم المعركة.. معركة أحد.. نأتي إلى عرض صفات المتقين الذين تطهروا من الذنوب وتمحصوا من الشوائب واستعلوا على الشهوات، وهؤلاء الذين ينزل عليهم بإذن الله نصره وتأيدته، وهؤلاء الذين تعرضوا للشدة في مسيرة البلاء والدماء التي أظهرتها لنا سورة (آل عمران) وبينت لنا جو إعداد وتربية هذه الفئة المؤمنة الأمينه على قيادة البشرية بمنهج الله بتحقيق العدة الحقيقية اللازمة للنصر في الدنيا والفلاح في الآخرة..

مقصد: تزكية النفس صفات المتقين

- قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة العنكبوت

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦)

الْمُحْسِنِينَ(١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يَصِرْ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣-١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥].

الصلة بين صفات المتقين وبين معركة الميدان

وردت هذه الآيات بعد بداية الحديث عن غزوة أحد ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، وعلى مدار تسعة آيات تحدثت عن لقطات الخروج للقتال، والاستعداد للمعركة ثم جاءت آيات تحريم الربا، وآيات صفات المتقين كتوجيهات قبل الدخول في سياق المعركة الحربية لتشير إلى نقطة هامة جداً يذكرنا بها الشيخ سيد قطب رحمه الله عن طبيعة المنهج الإسلامي في تربية النفوس المؤمنة وإعدادها للقتال في سبيل الله: "والمنهج الإسلامي يأخذ النفس من أقطارها، وينظم حياة الفئة المؤمنة جملة لا تفارق. ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية، وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب، والسيطرة على الأهواء والشهوات.. فكلها قريب من قريب.. وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات، وكل توجيه من هذه التوجيهات، يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الفئة المؤمنة، وبكل مقدراتها في ميدان المعركة وفي سائر ميادين الحياة!

- إن الصفات التي تقرها الآيات السابقة: ترك الربا وتقوى الله، الانتصار على الشح، الانتصار على الغيظ، الانتصار على الخطيئة، والرجوع إلى الله وطلب مغفرته ورضاه لها صلة أساسية وبارزة وبين معركة الميدان التي يتعقبها السياق، فكل هذه الصفات ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة... وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة! وهم إنهم كانوا أعداء لأنهم لا يخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته. ففي هذا تكون العداوة، وفي هذا تكون المعركة، وفي هذا يكون الجهاد.. فالمسلم يعادي الله، ويعارك الله، ويجاهد الله!

- كما أن الصلة وثيقة بين هذه الصفات وبين الملامبات الخاصة التي صاحبت هذه المعركة. من مخالفة عن أمر رسول الله (ﷺ)، ومن طمع في الغنيمة نشأت عنه المخالفة. ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد الله بن أبي ومن معه، ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولى من تولى من

الميدان، ومن غبش في التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى الله.. وسؤال بعضهم: (هل لنا من الأمر من شيء)؟.. (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ).

•• إن الانتصار على النفس في معركة التزكية هو الطريق للانتصار على الأعداء في معركة الميدان.. وإن النفوس كلما طهرت واقتربت من تحقيق المستوى الراقى من صفات المتقين، هي النفوس التي تقترب من نزول المدد الإلهي لها والدخول في دائرة تأييده سبحانه وتعالى، وعلى قدر التخلف عن تطهير النفوس وتزكيتهما والارتقاء بها إلى شروط التقوى وصفات المتقين، تكون الهزيمة والتأخر عن أهم أسباب النصر للفئة المؤمنة!! فغياب النفوس المطهرة المزكاة بالتقوى عن ميدان القتال يستوجب انتصار صاحب العدة والعتاد، وحتى لو المسلمون هم أصحاب العدة والعتاد فغياب هذه الصفات يستوجب الخذلان الإلهي لأن تميز هذه الأمة وتفردتها في التقوى والإيمان (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين).

• والسؤال الآن: ما هي حالة التقوى المطلوبة منا؟ وكيف نصل إليها؟

— "التقوى هي الحالة الصحيحة التي ينبغي أن تصبغ علاقتنا بالله جل شأنه، وكيف لا، وهي الحال التي يريدنا الله من عباده ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى﴾ [الحج: ٣٧].

— فالتقوى هي: الحذر والانتباه والترقب والخوف من شيء أو أشياء يمكنها أن تضر بالمرء، كالذي يسير في أرض بها شوك أو ألغام أو حيات وعقارب.. كيف سيكون سيره فيها؟! هل سيسير آمناً مطمئناً أم سيكون حذراً منتبهاً يقظاً مترقباً خائفاً ووجلاً من أن يصيبه مكروه أو شر؟

بلا شك سيسير وهو في حالة من التقوى أي اتقاء ما نخشاه.. وهذه باختصار هي الحالة التي ينبغي أن نكون عليها في علاقتنا بالله عز وجل، وأسبابها كثيرة جداً.. فلا يضمن أحد استمرار إيمانه، وهل سيثبت أمام الفتن أم لا؟

- هل قمت بفعل في حياتي أغضب الله عز وجل مني وأسقطني من عينه؟

- وهل سينكشف ستر ربه عليه أم لا؟

- وهل سيختتم له بخير أم شر؟

- وهل خالط عمله آفة وشائبة تحبطه أم لا كالعُجب والغرور والرياء؟
- وهل سيتقبل الله هذا العمل منه أم لا؟
- وهل ساستمر على أعمال الإيمان أم سيسلبه الله مني قبل الموت؟
- وهل سيثبت قلبي على الحق أم يزيغ نحو الباطل؟
- وهل يوجد في قلبي دسياسة سوء تحبط أعمالي وتعرضني لسوء الخاتمة؟
- وهل سأنجو من عذاب القبر أم لا؟
- وهل سيحاسبني الله بالإحسان أم بالعدل؟
- وهل سأنجو من النار أم أقع وأسقط من على الصراط؟
- وهل... وهل...؟
- من لديه إجابة قاطعة فليكن من الآمنين ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْيُرُونَ ﴿[القلم: ٣٧-٣٨].
- لقد سمع رسول الله (ﷺ) أم العلاء (رضي الله عنها) تنفي على عثمان بن مظعون (رضي الله عنه) بعد موته، وتقول: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله (وعثمان بن مظعون كان من الصحابة المجتهدين في الطاعة والعبادة)، فقال النبي (ﷺ): "وما يدريك أن الله قد أكرمه؟" فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله، فقال: "أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي!"^(١).
- لقد أخبرنا رسول الله (ﷺ) بأمر يكفي وحده لكي تفارقنا حالة الأمن ولو كنا نعمل أعمالاً صالحة متواصلة بالليل والنهار، وذلك حين قال: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم

(١) صحيح: البخاري (٢/ ٧٢ برقم: ١٢٤١)

ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١).

والسؤال.. ما المانع من أن يحدث ذلك قبل الموت؟

• إن سورة (آل عمران) وهي تحدثنا عن أهمية الثبات على الحق حتى الممات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] إنما تدعون للثبات على التقوى والإيمان حتى لفظ آخر نفس، وهذا الأمر بيد الله وحده سبحانه وتعالى مقلب القلوب كل لحظة لذلك كان الدعاء الخاشع المتبتل في كل وقت يطلب من الله عز وجل عدم زيغ قلبه إلى الضلال أو الكفر أو الشرك في أي لحظة وما الذي يمنع ذلك؟! ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ما الذي يمنع من الوقوع في الكفر والشرك؟ فالعبد يصبح مؤمناً ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً كما جاء في الحديث الصحيح.

أوليس رسل الله عليهم الصلاة والسلام كانوا أشد الناس حذراً من الله مع كونهم أقرب الخلق إليه، فهذا إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن يقول ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وهو الذي كسر الأصنام بيديه في شبابه، يخشى أن يعبدها في كبره! وهذا يوسف عليه السلام بعد ابتلاءات وابتلاءات ومحن وثبات يقول ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

• إن الثبات على الإيمان والهداية بل والإسلام بيد الله وحده ولا عاصم من أمره إلا من رحم.

- إن أكثر دعاء المؤمنين الذي ورد في سورة (آل عمران) يطلب من الله عز وجل مغفرة الذنوب والنجاة من النار والخوف من الحزني يوم القيامة ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي

لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)
 رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿آل عمران: ١٩٢-١٩٤﴾، والخزي هو الفضيحة وهتك الستر وحدوث ما لا يتوقعه العبد، وكيف يأمن العبد مكر الله؟ وكيف لا يفزع من أعمال السوء التي اقترفتها وهي معروضة عليه يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

- إن سورة (آل عمران) تستهدف أن نعيش حالة من الوجل والحذر واليقظة، والخوف من الخزي ومن الذنوب ومن سقوط الأقدام في النار ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إشارة ولفتة في المنهج الحركي للقرآن

- وتأتي سورة (المؤمنون) تستهدف كيفية تحقيق هذه الحالة من الوجل والحذر في تناسب بينها وبين سورة (آل عمران) في إعداد كلاً منهما للفئة المؤمنة التي حملت التكليف الإلهي بإقامة منهج الله في الأرض.. كما سنعرض بإذن الله تفاصيل هذا التناسب في المنهج الحركي للقرآن في مقدمة سورة (النساء) للعلاقة بين سور (البقرة وآل عمران والنساء) مع سور (الحج والمؤمنون والنور).
- إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة بينما المنافق جمع إساءة وأمناً^(١)، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].
- والآن نستعرض بإذن الله صفات المتقين التي جاءت في آيات سورة آل عمران، وهي كالتالي:
 ١. المسارعة إلى مغفرة الله أولاً والإنابة لله مهما كانت المعصية.
 ٢. الإنفاق في السراء والضراء.
 ٣. كظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم.

(١) تفسير الطبري، (١٩ / ٤٥)

٤. القنوت "خشوع مع طول العبادة ودوامها".

٥. الاستعلاء على الشهوات والغرائز.

- وإلى التفصيل ونسأل الله عز وجل أن يعيننا على تحقيق هذه الصفات، وأن نكون من الذين يقولون فيعلمون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيقبلون.. اللهم آمين.

الصفة الأولى: المسارعة إلى مغفرة الله أولاً والإنابة إليه مهما كانت المعصية

- قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

- إن النصر على الأعداء هو ثواب الدنيا، بينما المغفرة هي ثواب الآخرة، ومن سأل الله عز وجل ثواب الآخرة أعطاه الله عز وجل ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

• وهذه هي الأولويات وترتيبها في نظر المؤمن المغفرة أولاً، فالجهاد أصلاً للفوز بالمغفرة والنجاة من العذاب الأليم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

• والمغفرة ليست استحقات للعبد، بل استجداء من الله عز وجل وتذلل إليه وإن شاء غفر وإن شاء عذب ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

● والمغفرة تحتاج مسارعة وفرار وسباق إليها، فاللحظة القادمة قد تكون رؤية ملك الموت! وبغثة ينقضي الأجل.. فلا بد من التشمير والمبادرة إليها ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

● إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين.. ولكن الله عز وجل يعلم ضعف النفس البشرية وتملك النزوة الحيوانية من هذه النفس.. فقد يقع المتقون في الفاحشة!! الفاحشة أبشع الذنوب وأقبحها.. لهذا الحد؟!.. نعم أعلى مراتب المؤمنين يقع في أسفل درك المذنبين.. ولكن سرعة أنين التائبين وبكاء المنيبين ونحيب المستغفرين هي علامة صحة تقواه.. وقوة إيمانه.. وصدق حبه لربه.. ويقينه أنه واسع المغفرة.. كتب على نفسه الرحمة.. سيأخذ بيده قبل أن تسقط وقبل أن تستهويه الشياطين لتزل قدمه على إثر اقترافه هذه الفاحشة.. إن العبد المؤمن الصادق مهما ارتكب من غدرات أو فجرات فهو يعلم أن عفو ربه أوسع من ذنوبه ومن المسلمين.. إنه يلوذ مسرعاً إلى باب ربه مقراً معترفاً بذنبه.. متذلاً منيباً ﴿وَوَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].. إن المتقين من صفاتهم عدم الإصرار على الذنب أي لا يستمرون عليه ويبقوا عليه، ما إن حدث ووقع في المعصية يتوب إلى ربه ويستغفره في الحال وليس بعد قليل (يتوب من قريب) وفي الحديث الشريف، يقول النبي (ﷺ): «أن رجلاً أذنب فاستغفر الله ثم أذنب فاستغفر الله، ثم أذنب فاستغفر، ثم أذنب فاستغفر، فقال الله تعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»^(١).

— ويقول الشيخ سيد قطب حول توبة المتقين إذا ارتكبوا فاحشة: "حين يظلم نفسه المؤمن. حين يرتكب الفاحشة.. المعصية الكبيرة متناهية القبح.. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تدبل، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له رباً يغفر.. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير.. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل، فليعثر ما شاء

(١) متفق عليه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)

له ضعفه أن يعثر. فهو واصل في النهاية مادامت الشعلة معه، والحبل في يده. مادام يذكر الله ولا ينساه، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته^(١).

فضل الاستغفار بالأسحار

- ومن صفات المتقين في طلبهم مغفرة ذنوبهم اختيارهم وقت السحر في آخر الليل ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، لأنه وقت نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا، فثبت في الصحيحين أن رسول الله (ﷺ) قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيته؟ هل من داع فاستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»^(٢)، وفي الصحيحين عن عائشة قالت: من كَلَّ الليل قد أوتر رسول الله (ﷺ)، من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر، وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبي حاتم.

الصفة الثانية: الانفاق في السراء والضراء

والعلاقة بين الانفاق في سبيل الله والجهاد في سبيل الله واضحة، فلا يبذل نفسه في سبيل الله من بخل بماله، والأنفس أحضرت الشح أي البخل والحرص، ومن أراد أن يعرض نفسه على ربه ليقبلها في سبيله، لا بد أن يتحرر من الشح والحرص، بل وينفق في كل حال في السعة والضيق ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٠] والسراء: السعة والرخاء، والضراء: العسر والضيق.. بل إن المتقين ينفقون مما يحبون ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فهذا أبو طلحة الأنصاري كان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبله المسجد، فلما سمع (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قال: يا رسول الله إن أحب أموال إلي بيرحاء، وأنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبي (ﷺ): «بَخِ بَخِ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٤٧٦ / ١

(٢) صحيح البخاري (٣ / ٢٥، ٢٦ فتح)، ومسلم (١ / ٢١٠)

أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعُلُ يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه^(١).

• إن شهوة المال من أقوى الشهوات التي حببت إلى الناس، وهي من الفطرة الجبلية ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ولن ينطلق للجهد إلا من تخلص من القيود والأغلال لتخلص نفسه لله عز وجل وتححرر من حظوظها، والدافع على ذلك هو دافع التقوى وهو دافع أقوى من شهوة حب المال وشح الأنفس.

الصفة الثالثة: كظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر من يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»^(٢).

ولا يزال المتقون ينتصرون على أنفسهم قبل مواجهة العدو في الميدان، ولا يزالون يتطهرون من حظوظ النفس وأهوائها ورغباتها بالتطهر من الذنوب، ثم التطهر من حب النفس في المال والتخلص من ربة الحرص وقيد الشح، والآن ينتصرون على انفعالاتهم البشرية بحبس غيظهم والكاظمين الغيظ، الكاظم معناه: المنع مع ألم وتأثر، وقيل الغيظ: أشد الغضب يعني: أنهم إذا غضبوا وثاروا وحبسوا غيظهم، وهو أشد ما يكون على الإنسان أن يحبس غيظه كأن أحدًا يصرعًا صرعًا، ولهذا قال النبي ﷺ: «من يُعْدُونَ الصَّرْعَةَ فيكم؟ قالوا الذي لا يصرع- والصرع معناه الطرح- قال: إن الصرعة من يملك نفسه عند الغضب»^(٣).

فلا يملك نفسه إذا ثارت إلا صاحب قوة روحية منبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من أفاق الذات، وهذه القوة الروحية هي: التقوى.

- وكظم الغيظ هو الدرجة الأولى في الانتصار على النفس وقهرها لتملك زمامها، والدرجة الثانية هي: العفو لقوله تعالى ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، والعفو: هو الصفح مع ترك المؤاخذة على

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢٤٦٥) عن أنس بن مالك

(٢) حسن: رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه، كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٦٤٢

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٠٨) وأبو داود (٤٧٧٩)

المذنب، والمعنى: الذين إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالعفو ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فقد يكظم العبد غيظه ولا يزال في قلبه حقد أو ضغينة فيأتي العفو ينظف ويطهر القلب من الحقد والضغينة، ولا يطلع على ذلك إلا الله عز وجل.. لذلك لا يعفو عن المسيء إلا المتقين الذين يراقبون الله عز وجل في ضمائرهم وسرائرهم.

ثم تأتي الدرجة الثالثة والأرقى وهي: مقابلة الإساءة بالإحسان لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهو لاء أسي إليهم والنفس وما فيها من ذرات كبر تأتي الانتقاص منها والنقد والتجريح، وخاصة أمام الناس فقهروا أنفسهم وانتصروا عليها وكظموا غيظهم ثم أسقطوا حقهم عن المؤاخذة والعتاب ثم قابلوا المسيء بالإحسان والفضل ولا يقوى على ذلك إلا المتقين المحسنين ابتغاء محبة الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الصفة الرابعة: القنوت: "خشوع مع طول العبادة ودوامها"

• قال تعالى ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَاتِنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، والقنوت كما ذكر في تعريفه في مقدمة السورة هو: "الخشوع في العبادة مع طولها ودوامها والاشتغال به سبحانه عما سواه" ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وقال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. أي: خاشعين، ولهذا لما نزلت هذه الآية أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام.

"والخشوع" في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون، قال تعالى ﴿وَوَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت، وذلت، وخضعت، لذا فالخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، وقيل: الخشوع: خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور وإشراق نور التعظيم في القلب، وقال الجنيد: "الخشوع تدلل القلوب لعلام الغيوب"^(١)، وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، وهذه أول صفات المؤمنين أصحاب مهمة

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم، ص ٢٤٣

قيادة البشرية بمنهج الله، تلك المهمة التي اختتمت بها سورة الحج ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]... لتبدأ سورة (المؤمنون) بصفات المتقين وأولها: الخشوع في الصلاة.. وهذا هو الأول في معنى "القانتين"، والطرف الثاني: هو طول العبادة ودوامها، وفي وصف المؤمنين من أهل الكتاب قال تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، واختتم وصفهم بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]. وقوله ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يقومون الليل، وبطيلون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم، فوصفهم بتلاوة آيات الله وهي أفضل الذكر، وبالسجود وهو أفضل الحالات فجمعت الآية أعلى أوصاف القول والفعل، وعن جابر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»^(١) أي طول القيام.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٢).

الصفة الخامسة: الاستعلاء على الشهوات والغرائز

- قال تعالى ﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

والشهووات هي: "كل ما يلد من أمور الدنيا"، وقد جمعت الآية الأولى أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان: النساء والبنين والأموال والخيول والأرض المخصبة والأنعام وهي خلاصة للراغبات الأرضية كما يقول الشيخ سيد قطب: "آية واحدة جمعت أحب شهوات الأرض إلى النفس

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٦)، (١٦٥)

(٢) صحيح: متفق عليه رواه البخاري (٤٨٣٧/٨) ومسلم (٢٨٢٠)

وهي خلاصة الرغائب الأرضية واللذائذ الطينية، والآية الأخرى عرضت لذائذ أخرى في العالم الآخر ولكن لمن؟ للذين اتقوا واستعلوا على لذائذهم ورغباتهم الجبلية، (وزين للناس) تشير إلى أن التركيب الفطري تضمن هذا الميل، فهو محب ومزين. ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه "الشهوات"، وهو جزء من تكوينه الأصلي كي تنمو الحياة وتطرد، ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانباً آخر يوازن ذلك الميل، هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عن الحد السليم من مزاولة هذه الشهوات، مع التطلع المستمر إلى ترقية النفس ورفعها إلى الأفق، وربط القلب البشري بالملأ الأعلى والدار الآخرة ورضوان الله.. والاتجاه إلى الله، وتقواه هو خيط الصعود والتسامي إلى تلك الأشواق البعيدة.

فهى شهوات مستحبة ومستلذة، وليست مستقدرة ولا كريهة. والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها، إنما يدعو إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكانها لا تتعداه ولا تطغي على ما هو أكرم في الحياة وأعلى والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك "الشهوات" في غير استغراق ولا إغراق!.. فمن أراد الذي هو خير من ذلك كله فليطلع إلى السماء ولا ينكب على الأرض.. ويتطلع إلى متاع الآخرة الذي لا يناله إلا المتقين^(١). وفي الحديث «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»^(٢)، والآن بعد الارتقاء إلى صفات المتقين، نذهب لتتعرف على الله عز وجل السميع العليم بمدى تحقق هذه الصفات في نفوس وقلوب الفئة المؤمنة.

مقصد: معرفة الله عز وجل تعرف على ربك (السميع العليم)

- قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٥].

• اختتمت آية الاصطفاء التي ذكر فيها اصطفاء (آل عمران) بقوله: (والله سميع عليم) إشارة إلى أن كل ما يقوله هؤلاء المصطفون يسمعه الله عز وجل، وكل ما يدور في قلوبهم وصدورهم يعلمه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٣٧٥ / ١

(٢) حلية الأولياء ٤ / ١٨٢، وهي رواية مسلم

الله عز وجل بل يعلم ما سيفعلون وإن لم يكن في قلوبهم، لأن الله يعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون..

● واختتمت الآية التالية لها في دعاء امرأة عمران بقولها (إنك أنت السميع العليم) أي: السميع لدعائي، العليم بنيتي وقصدي من هذا الدعاء المستجيب له، فاقتزان العليم بالسميع أفاد سمع الإدراك وسمع الإجابة.

● ثم جاءت أول آية تصف التحضير لغزوة أحد بقوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. ليأتي اسم الله (السميع العليم) في تذييل الآية ليؤكد لنا: سمع الله وعلمه بكل ما كان وما دار بين المؤمنين وهم على أهبة المعركة، يستعدون لخوضها... فيقول الشيخ سيد قطب على هذه الآية (والله سميع عليم): "يا له من مشهد، الله حاضره! ويا له من موقف، الله شاهده! ويا لها من رهبة إذن ومن روعة تحف به، وتخالط كل ما دار فيه من تشاور. والسرائر مكشوفة فيه لله، وهو يسمع ما تقوله الألسنة ويعلم ما تهمس به الضمائر..."

ولما همت طائفتان من الأوس والخزرج أن يضعفا، وذلك في حديث نفس حاك في صدورهم بسبب رجوع ثلث الجيش مع المنافقين: من الذي علم ما حاك في صدورهم غير السميع العليم؟ كشف الله عز وجل هذا الهم المخبوء في مكنونات صدورهم، والذي لم يعلمه إلا أهله، حين حاك في صدورهم لحظة ثم وقاهم الله إياه، وصرفه عنهم، وأيدهم بولايته، فمضوا في الصف.. يكشف الله السميع العليم لاستعادة أحداث المعركة، ثم لتصوير خلجات النفوس، وإشعار أهلها بحضور الله معهم، وعلمه بمكنونات ضمائرهم كما قال لهم: "والله سميع عليم" لتوكيد هذه الحقيقة وتعميقها في حسهم. ثم لتعريفهم كيف كانت النجاة، وإشعارهم عون الله وولايته ورعايته حين يدركهم الضعف، ويدب فيهم الفشل، ليعرفوا أين يتوجهون حين يستشعرون شيئاً من هذا وأين يلتجئون... (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)^(١).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٤٦٨/١.

- لذلك فاسمي (السميع العليم) هما الاسمين اللذين يدور عليهما محور السورة ومدارها.. فلا اصطفاء إلا بإطلاع السميع العليم ومعرفته، ولا تطهير إلا بإحاطة السميع العليم وعلمه، ولا قبول للدعاء إلا بسمعه وإجابته..

● والناس قد يخدعون في مظهر أحد من المسلمين، يظنون فيه الصلاح والتقوى، يرون سمته ويستمعون لعلمه وخطابته، يشاهدون قوته وشجاعته، يتأثرون بعبادته وأوراده.. ولكن لا يعلمون ما يحيك في صدره، وكيف حال قلبه ونيتته؟ وهل سريرته مثل علانيته؟.. إن الله عز وجل السميع العليم يصور خبايا النفس.. ومكنونات الصدر.. يعلم السر وأخفى.. فيرى ويطلع.. ويسمع ويعلم حقيقة كل عبد فينا.. وأين مقامه ودرجته بدقة لا نظير لها، ولا ظلم فيها ولو مثقال ذرة؟! ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

● لذلك فإذا كنا نتحدث في سورة (آل عمران) على اصطفاء فئة مؤمنة لتقييم منهج الله في الأرض، فإن الله عز وجل السميع العليم هو الذي يختارهم بعناية فائقة، ويعلم ويحيط بارتقائهم لبلوغ الاستحقاق الذي يريده هو سبحانه وتعالى لينزل عليهم نصره وتأيدته.. ويجتبي منهم من يعلم صدقة وطهارة سريرته لنيل شرف الشهادة في سبيله ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

● وحول معنى اسم الله (السميع) يقول ابن القيم في نونيته:

وهو السميع يرى ويسمع ما

في الكون من سرٍ ومن إعلانٍ

ولكل صوت منه سمع حاضر

فالسُّرُّ والإعلان مسـتويانِ

والسمع منه واسع الأصوات لا

يخفى عليه بعيدها والـداني

• ويشرح الشيخ السعدي هذه الأبيات لبيان معنى (السميع) فيقول: "المدرِك لجميع الأصوات، سرها وعلنها، فلا يخفى عليه شيء منها مهما خفت، بل جميع الأصوات بالنسبة إلى سمعه سواء، كما أن بعيدها والداني سواء فسمعه سبحانه حاضر عند كل صوت منها، لا تشتهه عليه، ولا يختلط بعضها ببعض، ولا يتميز بعضها عن بعض بوضوح أو خفاء"^(١).

سَمِيعُ الدَّعَاءِ

- يقول د. مُحَمَّد راتب النابلسي في شرحه اسم الله (السميع): "الله سبحانه وتعالى سميع لا يعزُب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فقد يكون حديث النفس للنفس، قد يكون خاطرة تردُّ على الخاطر، أي شيء يخفى على الناس لا يخفى على الله.. يسمعك إن جهرت وإن أسررت ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، أنت بإمكانك أن تنادي ربك، وأنت ساكت، وشفقتك ملتصقتان، ولا أحد يعلم بهذا النداء، هذا الإله يجب أن تعبده، خواطرك مكشوفة، دعاؤك مسموع، طلبك ملبي، استغفارك مجاب، توبتك مقبولة..

- وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمرن بأن يتقبل ربها منها نذرها قال تعالى ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، إنها مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه، يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديمًا مباشرًا لطيفًا، وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون المصطفون مع ربهم. حال الود والقرب والمباشرة، والمناجاة بسيطة العبارة، التي لا تكلف فيها ولا تعقيد، مناجاة من يحس أنه و يحدث قريبًا ودودًا سمعًا محببًا، ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] نداء خفي يسمعه السميع، من قلب خالص يعلمه العليم..... تعيد وليدها وذريتها من الشيطان الرجيم..

فكيف كانت إجابة السميع العليم؟

(١) شرح أسماء الله الحسنى، ابن قيم الجوزية، ص ١٦١

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] جزء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر.. وفي الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مسه إياه، إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١)... وهذه من إجابة السميع العليم، ﴿وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، ثم كفلهما ربهما زكريا لتقتبس منه علما نافعا وعملا صالحا، وهيا الله لها من رزقه فيضًا من فيوضاته وهذه من إجابة السميع العليم.

قبول الأعمال

- إن الإخلاص والصدق والتجرد والتقوى سرٌّ بين العبد وربّه، لا يعلمه أحد من البشر، ولكن يعلمه ويطلع عليه السميع العليم.
- لذلك فأمر قبول الأعمال الصالحة، وقبول الدعاء مرتبط باسمي (السميع العليم).. قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فهاهو سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يتوجهان إلى الله السميع العليم، وهما يرفعان قواعد بناء الكعبة يسألان ربهما قبول عملهما ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].
- قال العلماء: السميع الذي وسع سمعه كل شيء، هو الذي يسمع نداء المضطرين، وهو الذي يجيب دعاء المحتاجين، فسيدنا يونس أين نادى ربه؟ في بطن الحوت، والحوت في عمق البحر وفي ظلمة الليل ﴿وَإِذْ نُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْوَالِدِينَ إِذْ يَسْتَعْجِلُ بِكَ وَيَسْتَعْجِلُ لَكَ الْفُلُ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

إذا تكلمت يسمعك، إن تحركت يراك، يراك حين تقوم، إن نطقت أو سكت يعلم ما في نفسك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

لا تحتاج إلى طلب ترفعه إليه، ولا إلى واسطة، ولا إلى شاهد.

إذا كنت في كل حال معي فعن حمى زادي أنا في غنى

لا يشغله شأن عن شأن

- يقول الدكتور النابلسي: "إنك كإنسان إن خاطبك واحدٌ وخاطبك آخر تقول له: انتظر أنا إنسان واحد.. لكن خالق السموات والأرض لو خمسة آلاف مليون إنسان الآن دعوه معاً لسمع دعاء كل واحد منهم".

يا من لا يشغله شأن عن شأن! ولا سمع عن سمع! ولا تشتهه عليه الأصوات، يا من لا تخلطه المسائل! ولا تختلف عليه اللغات! يا من لا ييرمه إلحاح الملحين! ولا تضجره مسألة السائلين، أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك.

فالسميع يسمع كل نجوى، ولا يخفى عليه شيء في الأرض وفي السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. خائنة الأعين، كيف؟ أوضح مثل: طبيب بإمكانه أن ينظر إلى جسد المرأة لعله العلاج، فلو شطحت عينه إلى مكان آخر ولا يستطيع أحد في الأرض أن يكشف هذه المخالفة لكن الله وحده يكشفها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، عندما يعلم أنه مكشوف أمام الله، خواطره مكشوفة، مناجاة ضميره مكشوفة، نياته مكشوفة عندئذ يستحي من الله.

وقيل: السميع هو الذي يسمع دعوتك عند الاضطرار، ويكشف محنتك عند الافتقار، ويغفر زلتك عند الاستغفار، ويقبل معذرتك عند الاعتذار^(١).

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، د. محمد راتب النابلسي، الجزء الثاني، ص ٣٦٢

• وهذه خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، وكان به لم فأرادها فأبت، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت عليّ، فقالت: والله ما ذاك طلاق، وأنت رسول الله (ﷺ) وعائشة (رضي الله عنها) تغسل شق رأسه وقالت يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابة غنية ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرق أهلي، وكبر سني، ظاهر مني وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه، فقال رسول الله (ﷺ): حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ، فقال رسول الله (ﷺ): حرمت عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي ووحدتي، قد طالت صحبتي، وإن لي صببية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فجعلت تراجع رسول الله (ﷺ)، وإذا قال لها رسول الله (ﷺ): "حرمت عليه"، فجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم! إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر (ﷺ)، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداءك! يا نبي الله! فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله (ﷺ)؟ وكان رسول الله (ﷺ) إذا نزل عليه أخذه مثل السبات، فلما قضى الوحي قال لها: ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة تحاور رسول الله (ﷺ) وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفي عليّ بعضه إذ أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

• وهذا فنحاص اليهودي يجادل كذباً أبا بكر (رضي الله عنه) ويقول له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير إما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر، فغضب وجهه فنحاص ضرباً شديداً،

(١) تفسير البغوي، سورة المجادلة عن موسوعة أسماء الله الحسنى، د. محمد راتب النابلسي

فذهب فنحاص يكذب إلى رسول الله (ﷺ)، وينكر قولته التي قالها لأبي بكر، فأنزل الله ردًا وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] (١).

عليه بذات الصدور

— ميزان الله دقيق يدور مع حركة وزيف القلب، وهو ميزان يتحدد به أهلية الاصطفاء، واستحقاق نزول النصر من عدمه، وذلك بإطلاعه سبحانه وتعالى العليم على مواطن الأمور ومكونات الصدور.. يعلم حقيقة حب الدنيا في قلبك.. حقيقة تعلقك بأبنائك وأهلك.. حقيقة ما في قلبك من شهوات وعوالم وشوائب قد تقعدك عن إقامة دينه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

— حقيقة منزلة العبد ومرتبته عند الله يستوفيهما العبد بمقياس دقيق جدًا ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، كما قال تعالى ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] أي: سيوفهم أعمالهم، لا يظلمهم خيرًا ولا يزيدهم شرًا، بل يجازي كلًا بعمله.

ميزان دقيق

- قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، والركون هو الميل القلبي بالحب.. انظر شيء يسير بميل قلبي يستوجب عقاب المؤمنين بالنار، قال تعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وهنا مجرد ميل قلوب بعض الصحابة الذين خرجوا للجهاد مع رسول الله (ﷺ) إلى التخلف عنه (ﷺ) لما رأوا من مشقة وشدة في غزوة تبوك، فاستدعى هذا الميل القلبي لفريق منهم إلى الإنابة والتوبة إلى الله... - وهذا تحذير للمؤمنين من موالاته اليهود والنصارى وكل أعداء الإسلام، ولو مجرد موالاته قلبية، فيقول الله تعالى ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي

(١) رواه ابن أبي حاتم والطبري (٨٣٠٠) وإسناده جيد أو صحيح

أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ [المائدة: ٥٢] .. مجرد إسرارهم في أنفسهم يظهره الله عز وجل يفضحه لأنه سبحانه عليم بذات الصدور.. إنه صاحب ميزان دقيق وبالأخص للمؤمنين المختارين لقيادة البشرية بمنهج الله ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمَّحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

المقطع الرابع: الانقلاب على الأعقاب ميدانياً والتطهير اللازم لإقامة منهج

الله في الأرض - غزوة أحد الآيات (من ١٢١: ١٧٩)

- ما لاقى الصحابة في جهادهم مع رسول الله (ﷺ) مثلما لاقوا في غزوة أحد، فكانت هذه الغزوة هي أعنف هزة للجماعة المسلمة الأولى وهي تمضي في طريقها لإقامة منهج الله في الأرض، فكانت هزيمة (أحد) صدمة شديدة للمسلمين، خاصة بعد نصر الله لهم بيدروهم ضعاف قليل غير مزودين بعدة ولا عتاد إلا اليسير على الكفار الكثرة المدججين بالسلاح، حتى حسبوا أن النصر هو حليفهم في أي مواجهة عسكرية مع معسكر الكفر والشرك وأنه هو السنة الكونية الثابتة، حتى وقعت الهزيمة ففوجئوا بالحنّة والابتلاء كأهم لا ينتظرونه! فحدث انقلاب على الأعقاب لم يكن منتظر.

- إن هذا الحدث الجلل أكد على أن المعركة الحربية هي حلقة في سلسلة إعداد وتهيئة ربانية للفئة المؤمنة التي ستتحمل أمانة قيام منهج الله في الأرض.. وأن هذه الفئة المؤمنة تحتاج للتربية العملية بالحوادث والمناسبات لتمحص وتنضج وترتقي وتنضج في خضم المعارك فيظهر درجة تمسكها بالحق المبين وثباتها على المنهج القويم الذي تتشرف بحمله البشرية خاصة إذا ما كانت الغلبة والكرة عليها، كما يظهر درجة صفاء العقيدة في قلوبهم من أي غبش في التصور نشأ عن ضعف الاستعانة بالله أو عدم رد الأمور إليه، ويظهر لهم في خضم المعارك درجة التجرد لله عز

وجل من أي مطمع دنيوي أو مغنم مادي، كما يظهر لهم درجة نقاء الصف من أي نفاق أو دخن لا ينكشف أو يتمايز إلا في الشدة والمواقف الصعبة في أتون المعركة...

- كل هذا يظهر الفئة المؤمنة نفسها، ينجلي لكل فرد حقيقة صدقه من إدعائه، وينكشف له خبايا في نفسه ما كان ليعلمها إلا بهذا المحك العملي.. وقبل ظهور كل هذا للمؤمنين، يعلمه ويحيط به السميع العليم الذي يشهد المعركة فيسمع ما تقوله الألسنة، ويعلم ما تهمس به الضمائر، ويكشف ما تكن به الصدور من السرائر وخلجات النفس وخبايا القلوب.

طبيعة ما حدث في أحد

- يصف لنا د. منير الغضبان لحظة الانقلاب على الأعقاب: "خرج الرسول (ﷺ) يوم السبت السابع من شوال في السنة الثالثة من الهجرة في ألف من أصحابه، فلما صار بين المدينة وأحد، انعزل رأس النفاق: عبد الله بن أبي بن سلول بنحو ثلث الجيش عائداً إلى المدينة فكانت المفاجأة الأولى، مما أحدثت رجعة في الصف المسلم من أول خطوة في المعركة بعدما كادت طائفتان وهما بنو حارثة وبنو سلمة أن تفشلا وتضعفا، ثم مضى الناس والتقى الصفان ودارت رحى الحرب الزبون، وظل الجيش الإسلامي الصغير (سبعمئة مقاتل) مسيطراً على الموقف كله، حتى خارت عزائم أبطال المشركين كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا يضع منات قلائل، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين،" فكانت الدوْلَةُ أول النهار للمسلمين على الكفار وصدق الله وعده وأنزل نصره على المسلمين وسقطت راية الكفر على الأرض، وانهمز أعداء الله وولوا مدبرين.

فلما رأى الرماة هزيمة المشركين وانكشافهم، تركوا مراكزهم التي أمرهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ألا يبرحوها.. وقالوا: يا قوم: الغنيمة! فذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير عهد رسول الله (ﷺ) فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة! فذهبوا في طلب الغنيمة، وأخلوا الثغرا! عندئذ أدركها خالد بن الوليد، فوجدوا الثغر خاليًا فاحتلوه من خلف ظهور المسلمين وقتلوا عبد الله بن جبير ومثلوا به أقبح المثل.. فأقبل المنهزمون من المشركين حين رأوا خالدًا والفرسان قد علوا المسلمين فأحاطوا بهم.

وانقلبت المعركة، فدارت الدائرة على المسلمين ووقع المهرج والمرج في الصف، واستولى الاضطراب والذعر، لهول المفاجأة التي لم يتوقعها أحد.. وكثر القتل واستشهد من المسلمين من كتب الله له الشهادة.. وخلص المشركون إلى رسول الله (ﷺ).. وقد كانت أخرج ساعة في حياة رسول الله (ﷺ) فجرح وجهه الشريف (ﷺ) وكسرت سنته الرباعية، ورماه المشركون بالحجارة حتى وقع لجنبه، وسقط في حفرة من الحفر حفرها أبو عامر الفاسق قد قام بتغطيتها! يكيدها بها المسلمين. وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته بأبي هو وأمي (ﷺ).. في وسط هذا الهول المحيط بالمسلمين صاح صائح: أن محمداً قتل.. فكانت الطامة التي هدت ما بقي من قواهم.. وانهارت الروح المعنوية.. فانقلبوا على أعقابهم مهزومين هزيمة نكرة.. وتوقف من توقف منهم عن القتال ثم ألقى بأسلحته مستكيناً.. وذلك من أثر سماع نبأ اغتيال الرسول القائد (ﷺ).

تباين موقف المسلمين بين الثبات والفرار

- تباين موقف المؤمنين الجاهدين في هذه اللحظات العصيبة بين الثبات والفرار إلى نماذج كانت أثبتت من جبل أحد ونماذج هزتها الخنة من الأعماق حتى تولت يوم الزحف كالتالي:
١. فريق جاهد وصبر، أرادوا الآخرة فسكن الله في قلوبهم السكينة والأمن إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل حيث بلغهم النعاس في قلب المعركة، وهذا شأن أهل الثبات ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، كما روى البخاري عن أبي طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه.
 ٢. فريق وصل به الضعف والوهن إلى عودة النفسية الجاهلية لديه ودخل الخلل إلى تصوراته العقيدية ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وهؤلاء لم يكن همهم إلا أنفسهم لم يغشاهم النعاس من شدة القلق والخوف والارتباك واعتقدوا أن الإسلام قد باد وأهله! وهذا شأن أهل الشك... وهذه الطائفة أخذت طريق الفرار وتركت ساحة القتال، وهي لا تدري ماذا وراءها. وفر من هذه الطائفة البعض إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا

مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانَ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿[آل عمران: ١٥٥]... ولقد عفا الله عنهم لشدة الهول الذي لا قوة.

٣. فريق رجع فاختلط بالمشركين ولكنه في شدة الارتباك والفوضى لا يدرون أين يتوجهون، فلم يتميزوا فوق القتل في المسلمين بعضهم من بعض.. حتى كان من قُتل من المسلمين بأيدي المسلمين اليمان أبو حذيفة فقال حذيفة رضي الله عنهما: أي عباد الله.. أي أبي يغفر الله لكم. وهكذا كان التمايز في عموم صفوف الجيش المسلم بين الثبات والفرار، ولكن كيف كان الوضع حول رسول الله (ﷺ)؟

- كان رسول الله (ﷺ) حوله تسعة نفر فقط من الصحابة (سبعة من الأنصار واثنين من المهاجرين وهما طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص)..

فهل فكر النبي (ﷺ) أن ينجو بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور؟ ولكن حاشاه (ﷺ) فهو قائد المجاهدين (ﷺ) ما كان له إلا أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ليتخذ بهم جهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد... فقد رفع صوته ينادي أصحابه في شجاعة منقطعة النظير: "عباد الله" وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، وفعلاً قد علم به المشركون فخلصوا إليه قبل أن يصل إليه المسلمون... ثم بدأ يتجمع الصحابة حول رسول الله (ﷺ) في لحظات خاطفة، فكان أول المجتمعين أبي بكر الصديق وأبو عبيدة بن الجراح كما روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فكنت أول من فاء إلى النبي (ﷺ)، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فذاك أبي وأمي، فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني، فدفعنا إلى النبي (ﷺ)، فإذا طلحة بين يديه صريعاً، فقال النبي (ﷺ): "دونكم أحاكم فقد أوجب".

وأما أنت فقل لي بريك.. لو كنت هناك أمام جبل أحد في وسط المعركة وحينما تسمع..
 (قتل رسول الله ﷺ)! كيف ستجهش بالبكاء؟؟... وتذكر كيف أُخرج مكرهاً ﷺ) نزولاً على
 رأي الشورى.. ثم كيف بك حين تسمع صوتاً صائحاً يقول: "أبشروا هذا رسول الله ﷺ)..؟"
 كيف بك حينها؟ هل ستنتقل نحو رسول الله ﷺ) كالسهم تحميه بروحك وتفديه
 بدمائك.. قالها سعد بن الربيع وهو في رمقه الأخير وبه سبعون ضربة، فقال سعد لزيد بن ثابت:
 قل لرسول الله: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلف
 إلى رسول الله ﷺ) وفيكم عين تطرف.. وفاضت روحه من وقتها.

أثر إشاعة مقتل النبي ﷺ)

- إن إشاعة مقتل النبي ﷺ).. تسببت في حدوث انقلاب المسلمين على أعقابهم كما ذكر القرآن ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].
- إن الآيات القرآنية وهي تربي الجيل الأول وتربي المسلمين إلى يوم القيامة تذكر أن محمداً رسول من عند الله، جاء ليبلغ كلمة الله. والله باق لا يموت، وكلمته باقية لا تموت.. وما ينبغي أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبي الذي جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قتل^(١).
- يقول د. منير الغضبان عن ارتباط الجماعة المسلمة في كل زمان بقائدها: "إن عمق العقيدة وحبها لا بد أن يكون أكبر من حب القائد فلو سقط القائد فلا بد من الموت على ما مات عليه، والسير على نهجه، ولئن تزعر القائد فلتكن العقيدة أكبر منه، وما حبه والتفاني ذوداً عنه، إلا لأنه يمثل الاستقامة على منهج الله"^(٢).
- وهذا ما حرك أنس بن النضر ؓ لما انهزم الناس ولكنه لم يهزم ؓ حيث انتهى إلى عمر بن الخطاب في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم! فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ) فقال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله

(١) في ظلا القرآن، سيد قطب، تفسير سورة آل عمران

(٢) المنهج الحركي للسيرة، د. منير الغضبان، ص ٢٨٣

(ﷺ) ثم استقبل المشركين ولقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد واهما لريح الجنة إني أجدتها من دون أحد! فقاتل حتى قتل.. ووجد به بضع وسبعون ضربة. ولم تعرفه إلا أخته.. عرفته ببنانه.

فدائون ثابتون حول النبي (ﷺ).... نماذج بطولية

• لم يبق مع النبي (ﷺ) كما روى مسلم عن أنس بن مالك إلا تسعة من الصحابة كما قال في الحديث: "أفرد رسول الله (ﷺ) يوم أحد في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: "من يردهم عنا وله الجنة؟" أو "هو رفيقي في الجنة"، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله (ﷺ) لصاحبيه- أي القرشيين-: "ما أنصفنا أصحابنا"^(١)، فلم يبق مع النبي (ﷺ) يقاتل إلا طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص"^(٢)، وكانت أخرج ساعة بالنسبة إلى حياة النبي (ﷺ) ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي (ﷺ) وطمعوا في القضاء عليه.. فقاما سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وحدهما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير فلم يتركا سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم حتى بدء تجمع الصحابة مرة أخرى حول رسول الله (ﷺ)، فأما سعد نثر له رسول الله (ﷺ) كنانته وقال: "ارم سعد فذاك أبي وأمي" وكان سعد من أمهر رماة العرب، وأما طلحة بن عبيد الله فقال الرسول (ﷺ) كما في رواية النسائي: "من للقوم؟" فقال طلحة: أنا، ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حس، فقال النبي (ﷺ): "لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون"، قال: ثم رد الله المشركين"^(٣)، وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: "رأيت يد طلحة شلاء، وفقى بها النبي (ﷺ) يوم أحد"^(٤)، وكان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: "ذلك اليوم كله لطلحة".

• بداية تجمع الصحابة حول رسول الله (ﷺ) أولهم كان أبو بكر ثم أدركه أبو عبيدة بن الجراح ثم اجتمع عصابة من أبطال المسلمين منهم: أبو دجانة ومصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب،

(١) صحيح مسلم (٣/١٤١٥).

(٢) صحيح البخاري (٢/١٢٤/٥).

(٣) سنن النسائي (٦/٢٥).

(٤) صحيح البخاري (٢/١٢٥/٥).

وأُم عمارة نسيبة بنت كعب، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب،... وفي المقابل تضاعف عدد المشركين واشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم لقتل رسول الله (ﷺ) فكان قتالاً مريباً، فيقول نافع بن جبير: شهدت أحداً وقد احتضنه طلحة بن عبيد الله والنبل تأتي من كل ناحية ورسول الله (ﷺ) وسطها كل ذلك يصرف عنه، فرمى ابن قميئة بسهم فأصاب مصعب بن عمير (رضي الله عنه) فقتله، وأقبل عبد الله بن زهير مقنعا في الحديد يقول: أنا ابن الزهير! دلوني على محمد، فوالله لأقتلنه أو أموتن دونه، فقال له أبو دجاجة: هلم إلى من يقي نفس محمد بنفسه، وضرب فرسه فعرقها ثم علاه بسيفه فقتله، ورسول الله ينظر إليه ويقول: "اللهم ارض عن أبي خرشة كما أنا عنه راضٍ".

• النبي (ﷺ) يقتل أبي بن خلف:

أقبل أبي بن خلف يركض بفرسه فجعل يصيح بأعلى صوته: يا محمد، لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله إن شئت عطف عليه بعضنا، فأبى (ﷺ) فتناول الحربة من الحارث بن الصمة وانتفض بأصحابه فطعن بها أبي بن خلف في عنقه وهو على فرسه فجعل يخور كما يخور الثور...
الثور...

• جبريل وميكائيل يقاتلان عن النبي (ﷺ):

ففي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: "رأيت رسول الله (ﷺ) يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان معه^(١) عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد"^(٢)، وفي رواية: يعني جبريل وميكائيل.

• أبو عبيدة بن الجراح ينزع حلقنا المغفر من وجه النبي (ﷺ) بفيه فأخذ ينضضه كراهة أن تؤذي رسول الله (ﷺ) فندرت ثنية أبي عبيدة، ثم ذهب أبو بكر لينزع الأخرى فيناشده أبو عبيدة: نشدتك الله أبا بكر إلا تركتني (كما ناشده أول مرة)، فاستله حتى ندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى ثم قال رسول الله (ﷺ): "دونكم أحاكم فقد أوجب".

(١) كان هذا في اللحظة التي سقط فيها طلحة جريحاً، ولم يبق حول رسول الله (ﷺ) إلا قرشي واحد هو سعد راوي الحديث

(٢) صحيح البخاري ١٢٤ / ٥ / ٢

- وقد قام مالك والد أبي سعيد الخدري بمص جرح رسول الله (ﷺ) حتى أنقاه. فقال له: "مجه" أي: الفظه فقال: والله لا أجه أبدًا! ثم ذهب، فقال النبي (ﷺ): "من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا".

- ثم تجمع حوالي ثلاثين رجلًا من الصحابة حول رسول الله (ﷺ)، وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله (ﷺ) في الانسحاب المنظم إلى الجبل وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم لعرقلة الانسحاب، إلا أنهم فشلوا أمام بسالة الفدائيين من الصحابة رضوان الله عليهم، وفي أثناء انسحاب رسول الله (ﷺ) عرضت له صخرة من الجبل، فنهض إليها ليعلوها، فلم يستطع وقد أصابه جرح شديد، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوي عليها، وقال: أوجب طلحة، أي الجنة، فصعد المشركون على الجبل في محاولة أخيرة للنيل من المسلمين فقال رسول الله (ﷺ) لسعد: "أجنبهم" أي: ارددهم، فقال: كيف أجنبهم لوحدي؟ فقال ذلك ثلاثًا، فأخذ سعد سهمًا من كنانته، فرمى به رجلًا قتله، قال: ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر فقتلته، حتى هبطوا من مكائهم، فانسحب المسلمون في مشهد من الخجل والضعف في اضطراب ودهشة لا يلتفت أحد منهم إلى أحد فأصابهم الحزن والغم لما أصاب نبيهم (ﷺ) وكان ذلك أشق عليهم من كل ما نزل بهم ووصفت الآيات هذا المشهد الذي ساور نفوسهم في قوله تعالى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] فأثابكم: أي فجازاكم الله بما عصيتم.

أسباب الهزيمة في أحد

- قال تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْعَمِ الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥-١٦٦] والمسلمون الذين أصيبوا بالجراح والآلام والهزيمة التي عانوها في هذا اليوم المرير وما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم هو ما حدث لرسولهم الحبيب (ﷺ) من جرح شديد الأمر الذي لا يقوم بوزنه شيء في نفوس المسلمين مثله...

فأخذوا يتساءلون في دهشة (أنى هذا؟) أي: من أين جرى علينا هذا؟ فكانت الإجابة القرآنية لهم: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: بسبب عصيانكم فانطبقت سنة الله عليكم حين عرضتم أنفسكم لها، فهي لا تحايي أحد، سنة الله لا تتعطل من أجل أحد، فحينما كنتم مستقيمين على أمر الله ورسوله (ﷺ) أصبتم منهم يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش، وأصبتم مثلها في مطلع يوم أحد.. ولكن حين ضعفتم أمام إغراء الغنائم وعصيتم أمر رسول الله (ﷺ) أصابوا منكم نفس العدد فقعدتم سبعين من شهدائكم غير الجراح والآلام الشديدة. إن المسلمين مطالبون قبل النظر في الحكمة الإلهية من الهزيمة حيث كل شيء حدث لهم كان بقضاء الله وقدره ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مطالبون أولاً بالبحث في أسباب الهزيمة التي كانت بأخطائهم وبعضياتهم ليعالجوا هذه الأخطاء ويتوبوا من هذه الذنوب، ثم يتفكرون في الحكمة الإلهية من وراء الأحداث فتزداد العبرة والعظة مما نزل بهم.

• وهنا الآيات تفسر بوضوح أسباب الهزيمة في أحد في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].. آية واحدة صورت تحقق وعد الله عز وجل بالنصر الساحق في بداية المعركة، حيث بدأ المسلمون يحسون المشركين أي يقتلونهم قتلاً ذريعاً ويستأصلون شأفتهم حتى يخدمون حسهم، ثم انقلبت الكرة في لحظة واحدة من الزمان.. فحدث حركة من الهوى ورغبة في شهوة الغنيمة تسببت في مخالفة أمر النبي (ﷺ).. وهو تقرير الحالة الرماة وقد ضعفوا أمام إغراء لعاع من الدنيا فوقع النزاع بينهم وانتهى الأمر إلى العصيان، والحقيقة أن الرماة لم يعصوا كلهم أمر رسول الله (ﷺ)، فكانوا فريقين: فريقاً يريد غنيمة الدنيا، وفريقاً يريد ثواب الآخرة، فكم عدد الذي فشل وتنازع وأحب الدنيا؟

يقول د. منير الغضبان: "ظاهر الأمر أن هذا الكلام منصب على الرماة السبعين، وهم عُشر الصف الإسلامي (١٠%) من الجيش الذي بلغ سيمائة جندي بعد انسحاب المنافقين)، والتنازع قد وقع بينهم بين من يريد أن ينفذ أمر رسول الله (ﷺ) ويريد الآخرة، وبين من نازعته نفسه إلى

الغنيمة في الدنيا لأنه بقى على الجبل منهم عشرة ونزل ستون وقعوا في المعصية فنزلت العقوبة بالجيش الإسلامي كله، ورغم انسحاب المنافقون بثلاث الجيش في بداية الأمر فلم يحرم المؤمنون النصر، إنما كانت العقوبة من أجل هذا العشر، فانتزع النصر بأمر منه سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾^(١).

يقول الشيخ سيد قطب عن هذه الآية: "لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر. فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل، وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار، وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم، ولكن مدبراً من الله ليبتلهم.. ليبتلهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح، وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب، ومن تمحيص النفوس، وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها، وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسبها.. بلا تعارض بين هذا وذاك، فلكل حادث سبب، ووراء كل سبب تدبير وحكمة من اللطيف الخبير"^(٢).

الحكمة الإلهية من الابتلاء بالهزيمة في أحد

● ولكي نتعرف على حكمة الله عز وجل ما استطعنا في ذلك من خلال التأمل في آيات الله والنظر في سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث، مصداقاً لقوله تعالى في بداية بيانه للناس عن أحداث الهزيمة في أحد ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

واهتدأنا بهذا البيان يعني أننا مؤمنون.. والبيان للناس كافة، والهداية منه والموعظة والعبرة للمؤمنين المتقين، والآيات تدعوننا للسير في الأرض والنظر في حركة الحياة وحسن فهم سنن الله عز وجل التي تحكم الحياة والتي قررتها المشيئة الإلهية المطلقة ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ فما وقع منها في غير زمانكم فسيقع مثله بمشيئة الله في زمانكم وما يحدث على الأرض كلها من أحداث وتجارب مسرح للحياة البشرية كلها كالكتاب المفتوح أمام المؤمنين أولي الأبواب وأصحاب الأبصار والبصائر،

(١) المنهج الحركي للسيرة، منير الغضبان، ص ٢٨٦

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٤٩٤/١.

ولكن ما هي سنة الله الثابتة في النصر والهزيمة؟ ما هي سننه في التداول بين الشدة والسعة والابتلاء والعافية؟

سنة التداول بين النصر والهزيمة (بصائر)

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "القرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض فهم ليسوا بدعاً في الحياة، وسنن الله لن تحابيههم في أي زمان فهي لم تحابيههم ومعهم النبي (ﷺ) يعيش بينهم، فإذا هم درسوا هذه السنن، وأدركوا مغازيها، تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدل الأخذ بأسباب النصر..."

● لقد كتب الله على نفسه النصر لأولياته، حملة رايته، وأصحاب عقيدته ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في سلوكهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم فهذه سنة الله.. فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير. فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وإبطال الناموس من أجلهم. فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن الإلهية^(١). (الشرعية والكونية على حد سواء)... إن الحكمة الكبرى من وراء الأحداث كلها سواء كانت هذه الأحداث نصر أو هزيمة فالحكمة هي: (إعداد الجماعة المسلمة بالأحداث، والتربية بآيات القرآن لتأهيلهم للمستوى الذي أرادته عز وجل لمن يقيم منهجه في الأرض). إن الله عز وجل هو يعلم الجماعة المسلمة الأولى"، وهو يربطها بالأحداث في "أحد" نصر ثم هزيمة ثم بالتعقيب على هذه الأحداث بآيات في سورة (آل عمران) ليقرر لهم أن الجماعة المسلمة ليس لها من أمر النصر شيء، إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره من خلال جهادها، وأجرها هي على الله، يؤتيها الله النصر إذ يشاء لحساب الأهداف العليا التي يشاؤها الله. وكذلك الهزيمة.. فإنها حين تقع وفق ما يقع من الجماعة المسلمة من تقصير وتفريط، إنما تقع لتحقيق غايات يقدرها الله بحكمته وعلمه، لتمحيص

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٤٧٨ / ١.

النفوس، وتمييز الصفوف، وتجليه الحقائق، وإقرار القيم وإقامة الموازين وجلاء السنن للمستبصرين.

إنها معركة الله، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له، وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها كي لا يكون هناك غش ولا دخن.. إنها معركة العقيدة، ومعركة العقيدة ليست ككل معركة، إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير، فإذا حمل راية العقيدة رجالاً لم يتجردوا لها فلا يمنحهم الله النصر أبداً، حتى يتلبيهم فيتمحصوا ويتمحضوا وهذا ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمه للجماعة المسلمة في (أحد)، وهي تتلقى الهزيمة المبررة والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا يُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

● لا بد أن يكون النصر على أساس المنهج الرباني في الانتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة، وتقدير الحق الذي أراده الله في حياة الناس ليكون النصر نصراً لله ولنهج الله وليس انتصاراً عسكرياً أو سياسياً وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية.. لا بد من تصفية النفوس وتخليصها لله عز وجل وتحريرها من ربة الشهوات وثقة المطامع وظلمة المعاصي وضعف الحرص والشح وحب الدنيا والرغبات الدفينة، ولن يتم كشف ذلك كله إلا بالتمحيص والابتلاء لو تطلب ذلك مرارة الهزيمة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد: "منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة"، وبذلك وضع القرآن قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها، ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها.

● لذلك كانت سنة التداول بمدولة الأيام بين الناس فتكون لهؤلاء يوماً ولأولئك يوماً أيضاً كي تنكشف الأخطاء وينجلي الغبش وتظهر الغيوب، وتمحص القلوب، ويتبين المؤمنون ويتبين المنافقون..

● لذا فمدولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، ميزان لا يظلم، فكم من نفوس تبصر للشدة وتماسك ولكنها تتراخي بالرخاء وتنحل بينما النفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء، وتتجه

إلى الله في الحالين، وقد كان الله يربي طليعة المؤمنين في مطالع خطواتها لقيادة البشرية فرباها بهذا الابتلاء بالشدة، بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المبررة بعد الابتلاء بالنصر العجيب، وليكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ومجريات أحداثهما، ووفقاً لسنن الله الجارية في النصر والهزيمة لتتعلم هذه الطليعة المؤمنة أسباب النصر والهزيمة، فتزيد طاعة الله، وتجرداً وإخلاصاً له، وتوكلًا عليه، والتصاقاً بركنه، ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين^(١).

● إن سنن التداول بالنصر والهزيمة كلها لهدف واحد عظيم هو: (تربية رجال للقاعدة الصلبة المنوط بها شرف حمل منهج الله في الأرض وتطهيرها وتأهيلها وفق مراد الله منها).. تربية عملية في خضم المعارك، وتربية حية بكتاب الله الذي يحيي بها جو المعركة من أوله إلى آخره، فربي المؤمنين تربية واقعية، ولا غنى لهم عن كلتا التريبتين.. التربية العملية في خضم المعارك والتربية الحية بالقرآن الكريم.

البناء من خلال المعارك

- يقول الشيخ محمد الأمين المصري: "إن أعظم ميدان للتربية المتكاملة هو ميدان القتال فإن تركية النفوس وتربية الإخلاص وتحقيق التجرد يجب أن يتم في حقل الدعوة الإسلامية وفي ميادين الجهاد وهكذا كانت تربية الجماعة المسلمة الأولى وهذا الأسلوب التربوي بما يشمله من شدائد وأهوال هو الوحيد القادر على إخراج قاعدة صلبة قادرة على حمل أمانة الدماء والأموال والأعراض وقيادة البشرية بمنهج الله"^(٢).

- إن الصحابة رضوان الله عليهم نزلت فيهم (سورة الأنفال) لما اختلفوا وتنازعوا حول الغنائم، وأخذت السورة تربيتهم على حقيقة النصر الذي نالوه وأنه من عند الله الذي أخرجهم من بيتهم بالحق وثبتهم بالملائكة وألقى بالرعب في قلوب المشركين وهو الذي نال من عدوهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ كما حذرهم من التولي والفرار إن هم لاقوا عدوهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُؤَلُّوهُمْ الْأُدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، كما حذرهم من التنازع على لعاع الدنيا ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].. ورغم هذه الآيات وما رآه الصحابة رضوان الله عليهم بأعينهم في هذا النصر الذي يشبه المعجزة الخارقة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، سورة آل عمران

(٢) سبيل الدعوة الإسلامية، محمد الأمين المصري

إلا إنهم بعد عام واحد فقط، نزل ستون منهم من فوق جبل الرماة وهم يقولون: الغنيمة.. الغنيمة!! وذهبوا في طلب الغنيمة.. وعصوا الرسول (ﷺ)، حبًا في لعاع الدنيا ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].. ثم تولى الكثير منهم وفر من المعركة وتركوا الرسول (ﷺ) وحده ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].. وما حدث للمسلمين في (أحد) من الأخطاء التي وقعوا فيها والتي ما كانت لتتكشف إلا في خضم المعركة.. ولو جلسوا يدرسون العقيدة نظريًا عشرات السنين في تربية هادئة طويلة ما كان ليظهر لهم أوجه الخلل والقصور، ولو قرئوا آيات القرآن المكي التي ترهدهم في الدنيا، وتحقر من شأن متاعها ما كانوا ليدركوا أن منهم من يحب الدنيا ويريدها إلا بالملك العملي في خضم المعركة.

- لذلك تحتاج القاعدة الصلبة المختارة في تربيتها السنوات معدودات تغرس فيها العقيدة الصافية ثم تنطلق تتمحص وتتطهر عمليًا وتنضج وترتقي وتبني من خلال المعركة.

التربية القرآنية الحية

- يقول الشيخ سيد قطب: "إن القرآن هو كتاب هذه الدعوة هو روحها وباعثها، وهو بيانها وترجماتها، وهو دستورها ومنهجها وهو المرجع الذي تستمد منه الدعوة والدعاة وسائل العمل، ومناهج الحركة وزاد الطريق.

هذه الآيات نزلت لتواجه نفوسًا ووقائع وأحداثًا حية ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيهًا واقعيًا حيًا، وخاصت بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها في فترة محددة من التاريخ، ولكنه مع هذا يملك أن يعايش ويوجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو ينتزل اللحظة الراهنة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية وفي صراعها الحالي مع الجاهلية من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النفس، وفي عالم الضمير بنفس الحيوية، ونفس الواقعية التي كانت له هناك يوم ذاك.

ولا بديل أمام طليعة المؤمنين في معركتها مع الجاهلية إلا أن تخوضوها بالقرآن.. يوجه خطواتها في أرض المعركة الكبيرة: مع نفسها التي بين جنبيها، ومع أعدائها المتربصين بها في كل مكان.

إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حيًا يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى، ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضًا، وسنحس أنه معنا اليوم وغداً. وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية بعيدة عن واقعنا المحدد، كما أنه ليس تاريخاً مضى وانقضى وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية^(١).

الانتصار الكبير في غزوة أحد

• لم تكن غزوة أحد معركة في الميدان وحده، إنما كانت معركة كذلك في الضمير.. كانت معركة ميدانها أوسع الميادين. لأن ميدان القتال فيها لم يكن إلا جانباً واحداً من ميدانها الهائل الذي دارت فيه:

ميدان النفس البشرية ومشاعرها وأطماعها وشهواتها.. وكان القرآن هناك يعالج هذه النفس بالطف وأعمق وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزال.

وكان النصر أولاً، وكانت الهزيمة ثانياً، وكان الانتصار الكبير فيها بعد النصر والهزيمة:

— انتصار الرؤية الواضحة المستنيرة للحقائق التي جلاها القرآن ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

— وتمحيص النفوس ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١].

— وتميز الصفوف وتميز المنافقين ووضوح سمات النفاق وسمات الصدق، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

— وانطلاق الجماعة المسلمة بعد ذلك متحررة من كثير من غبش التصور، وتميع القيم، وتأرجح المشاعر في الصف المسلم ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

— وضوح تكاليف الإيمان وتكاليف الدعوة إليه والحركة به ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٤٩٣/١.

- ووضوح مقتضيات ذلك كله من الاستعداد بالمعرفة والاستعداد بالتجرد، والتزام الطاعة والتوكل على الله وحده، في كل خطوة من خطوات الطريق، ورد الأمر إلى الله وحده في النصر والهزيمة، وفي الموت والحياة، وفي كل أمر ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، الحصيلة الضخمة التي استقرت في الجماعة المسلمة من وراء الأحداث العملية ومن وراء التوجيهات القرآنية الحية بعد الأحداث، أكبر وأخطر بما لا يقاس من حصيلة النصر والغنيمة. وقد دفعوا الثمن غالباً.. ليتلقوا الدرس عالياً، وقد كانت الجماعة المسلمة إذ ذاك أحوج ما تكون لهذه الحصيلة الضخمة.. كانت أحوج إليها ألف مرة من حصيلة النصر والغنيمة. وكان الرصيد الباقي منها للأمة المسلمة في كل جيل أهم وأبقى كذلك من حصيلة النصر والغنيمة^(١).

المستهدف النهائي لأفراد القاعدة الصلبة

- أظهرت لنا سورة (آل عمران) من خلال أحداث غزوة (أحد) أن المستهدف النهائي المطلوب للوصول إليه لأفراد القاعدة الصلبة المنوط بها قيادة البشرية بمنهج الله هو:

"أن تصير نفوسهم خالصة من حظ ذاتها في ذاتها، متجردة من مطامعها وشهواتها، ومن أدراخها وأحقادها، ومن قيودها وأصفادها، أن تفر إلى الله متحررة من هذه الأتقال، منسلخة من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها لتكل الأمر كله إلى الله عز وجل".

● هذا المستهدف لا بد أن يظل معنا وأماننا خلال رحلتنا مع كتاب الله ومع عرض المنهج الحركي له.. فنرى طريقه إعداد القرآن لتحقيقه.. نرى ارتقاء الآيات به شيئاً فشيئاً.. ونرى نضجه في أنفسنا بإذن الله، استجابة لمنهج القرآن في التزكية والتطهير، وحينما نكون بإذن الله: عبيداً خالصين مخلصين لله عز وجل محررين من حظوظ النفس وشهواتها، متجردين من حظوظ الدنيا وفتنها متوكلين على الله في كل أمورنا.. "عائشون لله وبالله".. نكون قد دخلنا بعون الله وتوفيقه في دائرة العبودية الخالصة والاستعانة التامة (إياك نعبد وإياك نستعين)، وحينها يدخلنا الله عز وجل بفضلته ورحمته إلى دائرة التأييد الإلهي من: الحفظ والتثبيت والنصرة والولاية.. وهذه سنة الله الثابتة والطريق المستقر لإقامة منهج الله في الأرض والتمكين لدينه في حياة الناس.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١، ٤٦٦.

- وبعد انتهاء سلسلة السبع الطول والتي تنتهي بإقرار الطريق القويم والطريق المستقيم الوحيد لإقامة منهج الله في الأرض بعد إجماله في سورة البقرة وتفصيله في باقي سور السلسلة الأولى حتى سورة التوبة، ثم تأتي بعدها السلسلة الثانية بتوضيح كيفية دخول دائرة الاستعانة التامة والعبودية الخالصة لاستدعاء التأييد الإلهي وذلك من سورة (يونس: المؤمنون) حتى يخرج نور المنهج الإلهي إلى الأرض كلها في سورة (النور) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ارتباط آيات غزوة أحد بموضوع السورة: الثبات على الحق

- وفي ختام عرض المقطع الخامس الخاص بغزوة أحد، نجد أن غزوة أحد أكدت خطورة الانقلاب على الأعقاب والتخلي عن المنهج، كما أكدت ضرورة التطهير لإقامة منهج الله في الأرض، وبذلك صارت غزوة أحد النموذج التطبيقي لتحقيق هدف السورة العام حيث ارتبطت الآيات التي تتحدث عن الغزو بمعالم السورة:

١. بينت الآيات أن المعركة العسكرية في الإسلام ليست معركة أسلحة وخيل ورجال وعدة وعتاد، وتدبير حربي فحسب بل هي معركة منهج ومعركة عقيدة فلم تحكي الآيات أحداث الغزوة بين فئتين التقتا وبنفوز أحدهما وهزيمة الآخر... إنما أكدت الآيات في بداية عرضها للغزوة أن النصر يكون بقدر الثبات على المنهج الإلهي وعلى العقيدة الصحيحة من: حسن التوكل على الله وليس على الأسباب بعد رجوع ثلث الجيش ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

- اليقين أن الأمور بيد الله والنصر بمشيئته وحتى الملائكة ليس لها من الأمر شيئاً إنما الأمر كله بيد الله وحده ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].. وذلك تأكيداً على سنة الله في النصر لا تتخلف وأن الله عز وجل يؤيد بنصره على قدر الاستقامة على منهجه ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿آل عمران: ١٣﴾.

٢. بينت الآيات أن النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيل الله ولا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيدة.. فجاءت آية الربا وسط أحداث الغزوة تأكيداً على أنه من يريد المكسب السريع في البيع معصية لله وطمعاً في دنيا رخيصة، كمن طمع في إغراء الغنيمة والنصر السريع معصية للرسول (ﷺ) وأوامره...

• لذلك وجب التطهر من شهوات النفس وعلى متاع الدنيا والتحرر من عبوديتها ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

٣. بينت الآيات أن الاصطفاء لمن يقيم الله به منهجه في الأرض يستلزم التطهر من الذنوب كما استلزم التطهر من متاع الدنيا، وأن هذه الذنوب من أكبر العوائق على ثبات الأقدام في الجهاد لذلك جاءت في منتصف وصف الآيات لسير المعركة جاءت آيات المسارعة إلى مغفرة الله والتوبة من المعاصي والفواحش وعدم الإصرار عليها ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَصِرُ عَلَيْهِ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

• كذلك طريق الاصطفاء لأمر الله العظيم يستوجب التطهر من الأكدار والشوائب ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

٤. بينت الآيات ضرورة الالتجاء إلى الله عز وجل والالتصاق بركنه وطلب منه ثبات الأقدام ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] فالتثبيت منه سبحانه وتعالى كما أن العصمة من زيغ القلوب بيده سبحانه وتعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

٥. بينت الآيات خطورة موقف المنافقين وحذرت الآيات من موالاتهم ليكون الصف المجاهد خالصاً كله لله وحده لا شريك له ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِنَا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

• كما أكدت الآيات من قبل على ضرورة الحذر من عداوة المنافقين والمشركين وعدم موالاتهم ﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، قال تعالى ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

• حتى أن رسول الله (ﷺ) حينما قالوا له أن كتيبة من اليهود حسنة التسليح يمكننا أن نستعين بهم فقال (ﷺ): "أأسلموا؟" قالوا: لا يا رسول الله، فقال: "مروهم فليرجعوا فإننا لا نتنصر بأهل الكفر على أهل الشرك"^(١).

٦. بينت الآيات أن الشبهات التي يبثها أعداء الله من المنافقين هدفها زعزعة العقيدة وهدمها وظهر دورها في إثارة التشكيك في جدوى الإصرار على الاستمرار في المعركة وهدفهم بلبلة القلوب وخلخلة الصفوف لهدم كيان الجماعة المسلمة ثم لهدم كيان العقيدة، قال تعالى على لسانهم:

- ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].
- ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦].

- ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].
- ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٩ / ٢

فهم يدعون بفساد عقيدتهم أنهم لو مكثوا في بيوتهم لما حدث للمسلمين سقوط هذا العدد من القتلى، فهم لا يفهمون أمر الحياة والموت، بينما العقيدة السليمة تقر أن الأجل مكتوب لا يستقدم ولا يستأخر، وأنه إذا جاء الأجل المقسوم سعى صاحبه بتقديمه إليه وأنه لو كتب أجله على مضجعه لجاء وهو في بيته بين أهله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، لذلك فالؤمن من صاحب العقيدة مطمئن إلى قدر الله، يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له فيتلقى قدر الله وتديره وحكمته بالتسليم والرضا...، بينما إذا استمع لشبهات المنافقين سيرتد على عقبيه كافرًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

• وهذا التحذير من الارتداد على الأعقاب، من الإيمان إلى الكفر، من الهداية إلى الضلال، من الثبات إلى الزيغ استجابة لشبهات أعداء الدين هو نفس التحذير الذي سبق توجيهه للمسلمين من قبل في سورة (آل عمران): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَزِدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

• وهذا هو ذاته نفس هدف أعداء الدين من وراء بث شبهاتهم الباطلة، ودعواهم الزائفة هو: هدم عقيدة التوحيد وانحراف الأمة عن منهجها.

٧. بينت الآيات أن سبب الفشل والهزيمة والخذلان في الغزوة هو عدم اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) وعصيان أوامره ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، لذلك أكدت الآيات من قبل على ضرورة اتباع الشرع الذي جاء به النبي (ﷺ) والسير على نهجه وطريقته ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وأنه من يخالف أوامره ونهجه تعرض للفشل والخذلان حتى وإن ادعى محبته بل إن تعمد مخالفة النبي (ﷺ) فقد وقع في الكفر ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

٨. بينت الآيات أن العبادة على كل حال هو حال الثابتين على الحق فالغزوة شهدت حالة من الفرار والتخلي عن السلاح وخاصة بعد إشاعة مقتل النبي (ﷺ)، ولكن الله عز وجل ثبت من عباده الربانيين الذين لا يعرفون الوهن أو الضعف ﴿وَكَايِنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلٍ مَعَهُ رَبُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ومن هؤلاء كان أنس بن النضر (رضي الله عنه) الذي صاح فيمن رآهم ألقوا سلاحهم حين قال لهم: (قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله (ﷺ))، لذلك ختمت الآية التي تحدثت عن موت النبي (ﷺ) أو قتله بقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، يقول الشيخ السعودي في تفسيره الشاكرون هم: العابدون لله على كل حال.. في وجود النبي (ﷺ) وبعد وفاة النبي (ﷺ)، وهذا هو حال الثابتين دوماً في عبادتهم فهم يبذلون ويطيعون في السراء أي اليسر وفي الضراء أي العسر ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهذا هو وصفهم في كل حال ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

٩. بينت الآيات أن الاستجابة لله والرسول (ﷺ) في حمراء الأسد بعد الجراحات والضر والقروح والإلتحان هي من أعلى صور الاستجابة رغم وقوع المخالفة في اليوم السابق يوم غزوة أحد، وهذا الموقف أراد به النبي (ﷺ) رفع الروح المعنوية لجنوده حينما دعا النبي (ﷺ) للخروج من شارك في القتال يوم أحد، فقال (ﷺ): "لا يخرج معنا إلا من شهد القتال"، فاستجاب المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزيد وقالوا: سمعنا وأطعنا، وفيهم قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٣].. وهذا هو معنى دين الإسلام: استسلام لله ورسوله (ﷺ) وكمال الاستجابة وتمام الانقياد وفورية التنفيذ ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ أُمَّنًا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] استجابة عند طلب النصر تؤكد أن الطريق طويل

وشاق.. نفير.. وراء نفير.. بذل وراء بذل.. وكانت حمراء الأسد تصحيح لأخطاء يوم (أحد) ودليل أن العقيدة هي كل شيء في نفوس الجماعة المسلمة الأولى يعيشون لها وحدها.

١٠. بينت الآيات العلاقة بين الشهادة في سبيل الله وشهادة التوحيد (لا إله إلا الله) حيث أن الشهداء هم أناس اصطفاهم الله عز وجل واجتباهم (ويتخذ منكم شهداء).. اختارهم الله من بين المجاهدين.. كما يقول الشيخ سيد قطب ليؤدوا بموتهم شهادة حية على هذا الدين: "الشهداء يتخذهم الله ليستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة، يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق وتقديره في دنيا الناس.

إن كل من ينطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. لا يقال له إنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها. ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهًا. ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله. وألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله. ولا يعتمد مصدرًا آخر للتلقى إلا هذا المصدر.

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض، كما بلغها محمد (ﷺ).. فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله، فهو إذن شهيد أي: "شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها. واتخذ الله شهيدًا.. ورزقه هذا المقام".

- وهذا هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ومقتضاه^(١).

قال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

- وهكذا كان التناسب بين آيات السورة وبين غزوة أحد والتي عبرت بحق على الهدف العام للسورة وموضوعها الرئيسي: "الثبات على الحق من أهم موجبات الاصطفاء لإقامة منهج الله في الأرض".

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/٤٨٢.

الشهادة اصطفااء.. حياة الشهداء

• قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

- يختار الله عز وجل المجاهدين في سبيله ويصطفي منهم الشهداء، يستخلصهم لنفسه- سبحانه وتعالى- ويخصهم بقربه.. فهي رزق لا يناله إلا ذو حظ عظيم، كما يقول ابن النحاس في كتابه مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق:

"أعلم أن الشهادة رتبة عظيمة ومنزلة جسيمة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، ولا ينالها إلا من سبق له القدر بالفوز المقيم. وهي الرتبة الثالثة من مقام النبوة كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].. الآيات تنفي عن من قتل في سبيل الله الموت وتثبت لهم الحياة، رغم أن الظاهر هو مفارقتهم الحياة، ولكن لأنهم "قتلوا في سبيل الله" فجادوا بأرواحهم في سبيل الله، فاتصلت أرواحهم بالله، وانتقلوا إلى حياة أخرى غير تلك التي نعرف حدودها.. حياة أخرى في مجال فسيح عريض تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة التي نحياها في هذه الدنيا..

- يقول الشيخ سيد قطب عن حياة الشهداء: "إنها تعديل كامل لمفهوم الموت- متى كان في سبيل الله- وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم، وفي النفوس التي يخلفونهم من ورائهم.. وهم يستقبلون رزق الله بالفرح، لأنهم يدركون أنه "من فضله" عليهم. فهو دليل رضاه وهم قد قتلوا في سبيل الله. فأى شيء يفرحهم إذن أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه؟

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم، ولم تنقطع بهم صلاتهم، مستبشرون بإذن الله لا يضيع أجر المؤمنين: فما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة في نفس الذين لم

يلحقوا بهم من خلفهم، وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضا وأنس عن هذه الرحلة إلى جوار الله عز وجل" (١).

- وعن رزق الشهداء يروي ابن عباس عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً» (٢)، بارق نهر: جانب نهر.
- ولأننا لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء فقد اختلف العلماء في معنى حياة الشهداء:

- قال القرطبي: والذي عليه المعظم: أن حياة الشهداء محققة وأنهم أحياء في الجنة يرزقون كما أخبر تعالى. ولا محالة أن أجسادهم في التراب وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم.

- وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أي: يجدون ربحها وليسوا فيها.

- وقال آخرون: إن أرواحهم في جوف طير خضر، وإنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون.. وهذا هو الصحيح من الأقوال.

- ويقول ابن النحاس: الذي يظهر لي - والله أعلم - والظاهر أن أرواحهم عند الله على رتب في المكان كما أنهم على رتب في المكانة، فمنهم من روحه في جوف طير أخضر، يرعى في الجنة، ويأوي إلى قناديل في ظل العرش، ومنهم من هو على بارق نهر باب الجنة ويخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً كما في حديث ابن عباس، ومنهم من يطير مع الملائكة في السماء وفي الجنة حيث يشاء كما في حديث جعفر بن أبي طالب، ومنهم من هم على أسرة في الجنة كما في حديث ابن رواحة وصاحبيه. وإنما تفاوتت منازل أرواحهم لتفاوت رتب إخلاصهم وسماحة أنفسهم بأنفسهم وما كانوا عليه قبل حصول الشهادة من رتب الإسلام والإيمان والإحسان.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ٥١٨/١.

(٢) رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرک (٢/ ٧٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم

- ومن الأحاديث في فضل الشهداء في سبيل الله:
- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا وقف العباد للحساب، جاء قوم واضعو سيوفهم على رقابهم تقطر دمًا، فازدحموا على باب الجنة، ف قيل: من هؤلاء؟ قيل: الشهداء كانوا أحياء مرزوقين»^(١).
- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: نظر إليّ رسول الله ﷺ فقال: "يا جابر مالي أراك مهتمًا؟". قال: قلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك عليه دينًا وعبالًا. فقال: "ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحًا، فقال: سلني أعطك، قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا ثانية فأقتل ثانية.. فقال الرب عز وجل: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: أي رب أبلغ من ورائي.. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]^(٢)، الكفاح: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.
- وفي الصحيحين أن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وأن له ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»^(٣). وفي رواية "لما يرى من فضل الشهادة".
- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أثمار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا أطيب ماكلهم ومشرهم ومقبلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق، لتلا يزهدهوا في الجهاد ولا ينكفوا عن الحرب فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]^(٤).

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن

(٢) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم في المستدرک (٢٠٣ / ٣) وقال الحاكم: صحيح الإسناد

(٣) رواه البخاري في الجهاد (٢٠٨ / ٣)، ومسلم في الإمارة (١٤٩٨ / ٣)

(٤) رواه أبو داود في الجهاد (٣٢ / ٣)، رواه مسلم في الإمارة (١٥٠٢ / ٣)

- وروى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن عبادة بن الصامت، عن النبي (ﷺ): «عند الله سبع خصال: أن يغفر له في أول دُفْعَةٍ من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلى حلة الإيمان، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقرابه»^(١).

عجب ربنا من رجلين

- عن ابن مسعود (رضي الله عنه)، عن النبي (ﷺ) قال: عجب ربنا من رجلين، رجل ثار عن وطأته ولخافه من بين أهله وحببه إلى صلاته، فيقوم وأهله إلى صلاته، فيقول الله عز وجل: انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطأته من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم أصحابه وعلم ما عليه في الانهزام وماله في الرجوع، فرجع حتى يهريق دمه، فيقول الله: "انظروا إلى عبدي رجع رجاء فيما عندي وشفقة مما عندي حتى يهريق دمه"^(٢).

ثلاثة يحبهم الله عز وجل

- وعن زيد بن طيبان، يرفعه إلى أبي ذر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «ثلاثة يحبهم الله، فذكر أحدهم كرجل كان في سرية فلقوا العدو فهزموا فأقبل بصدرة حتى يقتل أو يفتح له»^(٣).

أفضل الشهداء

- وعن يحيى بن أبي كثير، قال: قال رسول الله (ﷺ): «أفضل الشهداء الذين يلقون في الصف فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون في الغرف العلام من الجنة، يضحك إليهم ربهم، إن ربك إذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم». المصنف: مصنف ابن أبي شيبة (٨٥/١)، رواه ابن المبارك وهو معضل (سقط منه راويان).

(١) روه أحمد في مسنده (١٣١ / ٤)

(٢) رواه ابن أبي شيبة والحاكم وقال الذهبي: صحيح (١١٣ / ٢)

(٣) رواه ابن أبي شيبة والحاكم وقال الذهبي: صحيح (١١٣ / ٢)

المقطع الخامس: خاتمة السورة وبيان الفوز الحقيقي (من الآية ١٨٠: ٣٠٠)

• يشمل المقطع الخامس في سورة آل عمران ما يلي:

أولاً: حقيقة الموت والحياة.

ثانياً: بيان الفوز الحقيقي، مع عرض مقصد الإعداد لليوم الآخر.. تحت عنوان: (النجاة من النار وثواب الآخرة).

ثالثاً: عبادة التفكير ودعاء المجاهدين الخاشع.

رابعاً: عبادة المرابطة وجو المعركة.

• تختتم السورة بالخطاب إلى الفئة المؤمنة تحدثها عن القيم التي تضحي من أجلها وتحدثها عن الفوز الحقيقي مع بيان أشواك الطريق وآلامه، وتهيب بها إلى الصبر والتقوى والمرابطة.

أولاً: حقيقة الموت والحياة

• قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

- يقول ابن كثير: "يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون وكذلك الملائكة وحتى حملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرًا كما كان أولاً"^(١).

- ولكن لماذا تكررت عرض هذه الحقيقة كثيراً في سورة (آل عمران): لأن سورة آل عمران تخاطب الفئة المؤمنة بإقامة المعروف الأكبر وهو: توحيد الله عز وجل، وإزالة المنكر الأكبر وهو: الشرك وحكم الطاغوت، وأداء هذه المهمة السامية الشاقة لن يكون إلا بالجهاد بالبيان والسنان معاً، والجهاد بالسنان معناه: الاستغناء عن الدنيا بشهواتها المحببة ومتاعها الزائل.. لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ص ٣٩٥ / ١

يجتمع معاً في قلوب المجاهدين لرغبة في الدنيا مع الرغبة في الآخرة، فإما هذه وإما تلك ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

- لذلك لا بد من استقرار حقيقة الموت والحياة في نفوس المؤمنين أصحاب هذه المهمة قيادة البشرية بمنهج الله لإقامة التوحيد وإزالة الشرك.. لا بد أن تستقر هذه الحقيقة وتتمكن من نفوسهم جيداً وهم يخطون خطواتهم في هذا الطريق.. ليتيقنوا أن الكل يموت فالأجل محدود، فلتكن في جهاد، والجميع سيغادر هذه الحياة الأولى المؤقتة، فلتكن شهادة قال تعالى ﴿وَلَيَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَيَنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِيَّ اللَّهِ تُخْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

● ومعنى الآيات: أن كل من مات أو قتل فمصيره، ومرجعه إلى الله عز وجل فيجزيه بعمله إن كان خيراً فخير، وإن شراً فشر.. ﴿وَإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ولكن من قُتِلَ في سبيل الله، أو مات أيضاً في سبيل الله فهو في رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها الفاني.

- يقول الشيخ سيد قطب حول هذه الحقيقة الثابتة: "إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل، ثم تأتي نهايتها حتماً.. يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المستعملون بالعقيدة ويموت المستدلون للعبيد. يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.. الكل يموت.. كل نفس تذوق هذه الجرعة كأس دائر على الجميع إنما الفارق في شيء آخر.. الفارق في قيمة أخرى.. الفارق في المصير الأخير"^(١).

- لذلك تجد كلما ذكر القتال في سبيل الله في القرآن، تجيء التذكرة بحقيقة الموت لترسيخ معنى أنه قد يموت الجبان في مضجعه، ولا يموت الشجاع في ميدان الجهاد، وترسيخ معنى عرض الدنيا الزائل لا يقارن بأجر الآخرة الباقي.. حتى لا تخشع نفس مؤمنة أو تجبن من الخروج للجهاد

نصرة للتوحيد وإزالة لفتنة الشرك من الأرض.. تدبر هذه الآيات، قال تعالى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨].

ثانياً: بيان الفوز الحقيقي

• قال تعالى ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].. وهذا هو الفوز الحقيقي الذي قررته هذه الآية وأكدته القرآن الكريم في مواضع كثيرة إنه: الزحزحة عن النار والنجاة منها، وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾»^(١).

وقوله تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].. إنها متاع، ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع اليقظة.. إنها متاع الغرور الذي يخدع صاحبه فيحسبه متاعاً ثم يكشف زيفه وزواله.. بعدما زين له فكان مصيره إلى وادٍ سحيق والعباد بالله لأنه اغتربه.

- أما المتاع الحقيقي الذي يستحق الجهد في تحصيله والجهاد من أجله والشهادة للوصول إليه هو: الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار..

• ونقوم هنا بعرض تذكرة عن النار ووصف لون من عذابها وهو؟؟؟ أهل النار حتى نستشعر كيف أن الزحزحة عنها تعد الفوز الحقيقي في هذا الوجود.

مقصد الإعداد لليوم الآخر النجاة من النار وثواب الآخرة

- روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ﷺ): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ولو أن قطرة من الزقوم فطرت

(١) رواه أحمد في مسنده (٩٦٤٩) والحاكم في المستدرک (٢ / ٢٩٩) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي

لَأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْشَتَهُمْ فَكَيْفَ بَمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزَّقُومُ»^(١).

- فما هو الزقوم؟ إنها شجرة جهنم الشهيرة، والزقوم كما يقول ابن حجر: "من الزقم وهو اللقم الشديد والشرب المفرط"^(٢)، قال الزجاج: "العرب تقول لكل طعام مكروه: ملعون"^(٣). قال تعالى ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥].

- يقول د. خالد أبو شادي: "والتشبيه بالشيطان لما يقع في القلب من قبح صورته، فليس الطعام المرعب ما ينتظر المعذب فحسب بل يسبق هذا: المنظر الفظيع والرعب من الشكل المخيف وهذا من العذاب النفسي الذي يضاعف أثره الجسدي"^(٤).

• قال تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

والأثيم هو صاحب الإثم في قوله وفعله، كالمهل قيل هو: عكر الزيت وهو أحره، قالها عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وقيل: الصديد المنتن خبيث الريح والطعام شديد الحرارة، وهو في الحالتين يجمع بين أكثر من لون من ألوان العذاب: أحدهما بصري وهو اللون والشكل القبيح، وآخر حسي وهو حرارته الصاهرة ولهبه الفظيع، وآخر في الطعم المنتن خبيث الريح، يغلي في البطنون كغلي الحميم، والحميم يقول عنه الضحاك: "يغلي من يوم خلق الله السموات والأرض إلى يوم يُسقونه أهل النار ويُصَّب على رؤوسهم".

• ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي: بزعمك أنك عزيز هل تستطيع أن تمتنع من عذاب الله الآن؟ وإنك كريم على الله هل لم يصيبك العذاب اليوم وتخزي في النار: فالיום تبين أنك أنت الدليل المهان الحسيس^(٥).

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٧٣٥) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وقال الحاكم: على شريط الشيخان

(٢) فتح الباري ١/ ١٢٧

(٣) فتح القدير ٣/ ٣٤٢

(٤) ليلى بين الجنة والنار، خالد أبو شادي، ٢/ ٢٤

(٥) تفسير السعدي، ص ٨٥٧

• وكيف حال شراب أهل النار؟

- والصديد يقول عنه قتادة: "ما يسيل من بين لحمه وجلده" قال تعالى ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧] وهو ما أبكى خليفة من أغنى خلفاء الأمة لم يشغله الحطام الدنيوي عن العذاب الأخروي، فعن عبد الملك بن مروان أن شرب ماءً باردًا فقطعه وبكى، فقيل: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال: "ذكرت العطش يوم القيامة وذكرت أهل النار، وما منعوا من ماء بارد الشراب، ثم قرأ (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) يتجرعه: من العطش الشديد ولكنه إذا قربه إلى وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء.

• والسؤال الآن:

﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْنُورًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

• هل هذا الطعام من الزقوم والشراب من الحميم والصديد خير أم رزق الشهداء في سبيل الله ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]... أرواحهم في جوف طير خضر ويأكلون ويتمتعون في الجنة.. أليس الزحزحة عن النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم؟

• حتى النصر على الطواغيت ليس هو الفوز العظيم.

- إن النصر هو ثواب الدنيا يعطيه الله متى يشاء وكيف يشاء لمن يشاء، فمن مات ثابتًا على دينه مستمسكًا بالعروة الوثقى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، حتى لو لم يرى نصرًا في الدنيا، ونجاه الله عز وجل في الآخرة من عذابه فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٤].

- إن هدف عرض هذا المقصد هو الإعداد لليوم الآخر وذلك لن يكون إلا حينما يصبح كل من يقرأ هذه الكلمات أخروى الهم والهمة، كما يقول د. خالد أبو شادي: هدف من أهداف التذكير بالنار هو: الانقلاب وهو ما يعني: إعادة صياغة نفسيتك لتكون أخروية وعقليتك لتتقلب إيمانية، وهذه هي السعادة الحقيقية أن تكون على حال ينفعلك في الآخرة.
- ليس السعيد الذي دنياه تُسعدُه إن السعيد الذي ينجو من النار
- يقول علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته إلى عبد الله بن عباس عليه السلام:

"أما بعد، فإن المرء يسرُّه إدراك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليُدركه، فليكن سرورك بما نلتَ من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منه، وما نلتَ من أمر دنياك فلا تكن به فرحًا، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزئًا، وليكن همُّك ما بعد الموت"^(١).

ثالثًا: عبادة التفكر ودعاء المجاهدين الخاشع

- قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].
- روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها ذات ليلة: "ذريني أتعبد لربي ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقالت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة آيات وبل لمن قرأها ولم يتدبر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]"^(٢). "ويل لمن قرأها ولم يتدبر فيها".

(١) العقد الفريد ٣/ ٧٦، ط دار الفكر نقلًا عن ليلي بين الجنة والنار

(٢) حسن: رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦)، وقد حسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، وفي السلسلة

- والتفكر: هو التأمل وإطالة النظر في معاني الأشياء لإدراك المطلوب، والتفكر في الكون للتعرف على قدرة الله وعظمته، وحكمته وتدبيره، وفضله ورحمته. والتفكر عبادة عظيمة هجرها الكثيرون، قال الحسن: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة" رواه ابن أبي شيبه في مصنفه، وأولوا الألباب هم: أصحاب العقول، وسمى العقل لبًا لأنه: خالص الإنسان.. وفي قوله تعالى (آيات لأولي الألباب) دلالة على عدم انقطاع هذه الآيات وأنها متنوعة ومتعددة تستمر في فيوضاتها على العباد كلما أعادوا التفكير والتأمل في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويقول ابن عثيمين في بعض هذه الآيات في خلق السموات والأرض:

١. من هذه الآيات الحسن والبهاء والجمال ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥].
٢. من هذه الآيات الإتقان وعدم التخلخل ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].
٣. من هذه الآيات الكبر والسعة.
٤. من هذه الآيات الإعجاز والقدرة الإلهية ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].
٥. من هذه الآيات المنافع العظيمة للخلق ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].
- ويقول في بعض هذه الآيات في اختلاف الليل والنهار ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٢].
- ١- من هذه الآيات أن الليل ظلمة والنهار نور ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٢].
- ٢- من هذه الآيات اختلافهما من جهة الطول والقصر.
- ٣- من هذه الآيات اختلافهما في الحر والبرد.

• والسؤال ما هي العلاقة الوجدانية بين إدراك ما في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات، وبين الدعاء بالنجاة من النار؟

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله في إجابة هذا التساؤل: "إن إدراك الحق الذي في تصميم الكون وفي ظاهره، معناه عند أولي الألباب أن هناك تقديرًا وتدييرًا، وأن هناك حكمة وغاية، وأن هناك حقًا وعدلاً وراء حياة الناس في هذا الكوكب. وكذلك لا بد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقدم الناس من أعمال، ولا بد إذن من دار غير هذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل في الجزاء، فيكون الدعاء إلى الله أن يقيم منها هو الخاطر الأول لهذا التفكير وهي لفظة عجيبة إلى تداعي المشاعر عن ذوي البصائر.. ثم تنطلق ألسنتهم بذلك الدعاء الطويل، الخاشع الواجف الراجف المنيب، ذي النعم العذب، والإيقاع المنساب، والحرارة البادية في مقاطعة"^(١).

دعاء يجمع معاني السورة كلها

• دعاء في أربع آيات في ختام السورة، فيها نداء ورجاء مفعم بالوجل والحياء بقولهم: ربنا.. ربنا تنكرر في خمس مرات، تجميع وتلخيص معاني سورة (آل عمران) كلها ولكن كيف؟

قال تعالى ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

- إنها لحظة عبادة، لحظة اتصال تفاعل فيها العقل بالتفكير والتأمل، مع المشاعر بالرجفة والإشفاق، مع اللسان بالذكر والدعاء... لحظة نظر فيها المؤمنون للكون فوجدوا السموات والأرض والليل والنهار تهنف جميعًا بوحدانية الله، عندها توجه المؤمنون إلى ربهم وحده التجاءً واحتماءً واعتصامًا به (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم)، استثمروا لحظة تفاعل المشاعر وتحركها للدعاء الخاشع المنيب رجاءً باستجابة سميع الدعاء (هنالك دعا زكريا ربه)..

لحظة إقرار بالتقصير والمعصية ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، لحظة رغبة في التطهر من الذنوب في المعركة الشاملة مع شهوات النفس ومع أكدارها لمن يتأهل للاصطفاء الإلهي ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾.. لا توقفه خطيئة أو تعرقله فاحشة عن الرجوع إلى ربه والتمسك بجبله، فيظل مقاومًا ضعفه وغرائزه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ لَنْ يُضِرَّهُمْ شَيْئًا سَاءًا﴾.. لا يترك لحظة إلا يذكر الله وعبادته في كل الأحوال والأوقات ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ﴾، ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.. إنها ارتجافة قلب خاشع منيب تحقق بمعاني السكون والخشوع والقنوت ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ﴾، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾.. قلب استعلى على حظوظ الدنيا فلم يسأل مغنمًا فيها إنما تجرد لله عز وجل محررًا خالصًا.

● وإنما وقفة وجل وإشفاق وحذر تمتلئ بتقوى الله عز وجل (وسارعوا)... (أعدت للمتقين) حذر وخوف من الخزي أحاطت بدعائهم في أوله وختامه، والخزي: هو الفضيحة وهتك الستر يوم القيامة، ذلك اليوم الذي تتوجه إليه أفئدتهم وعقولهم لتقيهم من انتهاء أجلهم وأن الموت حقيقة لا بد منها (كل نفس ذائقة الموت) فكان كل رجاءهم واستغاثتهم برهم بعد كل هذه الحقائق هو أن ترحح أقدامهم عن النار لينالوا الفوز الحقيقي في هذا الوجود ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، وهم في هذه اللحظة الصادقة يعلنون استجابتهم لربهم واتباعهم لرسله وانقيادًا لكتابه ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهذا هو كتاب الله نادهم للإيمان برهم... فاستجابوا لله وأعلنوا إيمانهم برهم وشهدوا أن الله عز وجل حق ورسله حق وكتابه حق والجنة حق والنار حق، وما خلق السماوات والأرض إلا بالحق، وكما أن هناك ناموس عام وسنن أرادها الحق ليسير بها حركة السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، فهم يعلمون أن هنالك أيضًا سنن أرادها الله عز وجل ليسير بها حركة البشر، سنن تداول الأيام بين المؤمنين وأعداء الدين ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٠٠﴾، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.. فلم يكن خلق الكون باطلاً.. إنما الحق قوامه والحق قانونه.. وكذلك النصر والهزيمة وتقلب الذين كفروا في البلاد بسنن ونظام لا يجابي أحداً ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ والعاقبة في كل الأحوال للمتقين إذا اعتبروا وتطهروا ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

• ولكن من هؤلاء المؤمنين الربانيين الذين تحركت في قلوبهم هذه المعاني لما تفكروا في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار؟

إنهم العصبة المؤمنة التي انطلقت في الأرض لإقامة المعروف الأكبر فيها وإزالة المنكر الأكبر منها.. إنهم أصحاب المهمة السامية لقيادة البشرية بمنهج الله.. الذين شهدوا لله بالوحدانية كما شهد له سبحانه الكون كله من سموات وأرض وليل ونهار.. فتحركوا ليقوموا هذه الشهادة في دنيا الناس، وجاهدوا من أجل ذلك، وتعرضوا في سبيل هذه المهمة للشدة والبلاء، والجراح والدماء فتركوا الأموال والأولاد وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيله..

فتوجهوا إلى ربهم كما يتوجه العبيد في إشفاق ووجل أن يتقبل منهم جهادهم، ولا يرد بذلمهم، وأن يجعل ابتلاءهم خالصاً لوجهه، فارتعشت قلوبهم كلما تذكروا يوم القيامة خشية أن يخيّبهم ربهم على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار.. فبكوا بين يديه مرتجفين محبتين... أين؟ وهم قانتين يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون.. كما علمنا النبي (ﷺ) في قيام الليل، كما أورد البخاري عن ابن عباس: أن النبي (ﷺ) إذا قام من النوم قبل أن يتوضأ يمسح النوم عن عينيه بيديه ثم يقرأ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].. ينظر في السماء ويقرأ هذه الآيات ويبدأ في قيام الليل^(١).. فمناسبة هذه الآيات لهذا الوقت من الليل مع عبادة التفكير والقيام تبدو واضحة ومتصلة.

ربّ كريمٌ مجيبٌ

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٥٦٩) كتاب تفسير القرآن

لما توجه إليه عبده مشفقاً منيباً.. وجد ربه كريماً مجيباً.. (فاستجاب لهم ربهم) فسبحانه سميع عليهم لهم، تقبل دعاءهم وأدخلهم في تأييده ومعيته، كما اختتمت سورة (البقرة).. لما استجاب المؤمنون لربهم (وقالوا سمعنا وأطعنا).. استجاب ربهم وقال: قد فعلت^(١).. وهذا هو عظيم كرمه سبحانه وتعالى فلا يضيع عمل عامل، ولا نفقة منفق، ولا جهاد مجاهد.. يخبرهم ربهم أن كل ما حدث معهم من بلاء وشدة وقرح وجراح ودماء وأشلاء لن تضيع سدى.. فهي كانت لتزيتهم وتأهيلهم لحمل أمانة دينه.. فمن مات فهو شهيد.. ومن جرح فالدم ربح المسك.. ومن ثبت فقد وجبت له الجنة.. ومن فر وتولى فلقد عفا الله عنه.. ومن استجاب رغم الجراح فله أجر عظيم.. وهذا هو حبيبنا ربنا، وأتركك مع الآيات ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

● إنه يعدهم هنا شيئاً واحداً.. ثواباً واحداً.. لم يقل سبحانه: النصر والعز.. القوة والتمكين.. القيادة والخلافة.. فذلك كله خارج عن الصفة.. وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة: التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية، ومن كل مطمع أو مقابل من أعراض هذه الأرض.. ثم انتظار كل شيء هناك! هناك في الجنة.. وهكذا ربح البيع ولا نقتيل وهكذا تربت الفئة المؤمنة الأولى.. وهكذا تصنع الفئة المؤمنة المنوط بها تسلم الأمانة الكبرى بعد أن تتجرد من كل أطماعها، وكل رغباتها، وكل شهواتها^(٢).

رابعاً: عبادة المرابطة وجو المعركة

● قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

(١) صحيح: رواه مسلم عن ابن عباس وتقدم ذكره في سورة البقرة

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١/ ٥٥٠

- وهكذا يأتي هذا الختام متنسقاً مع محور السورة ووحدتها الموضوعية، فهو نداء رباني للمؤمنين أصحاب المهمة بمزيد من الصبر على طريقها الذي وضح أنه طريق طويل وشاق وليس مفروشاً بالنصر والورود.. إنما كله عقبات وشهوات.. دماء وأشلاء.. إيذاء وابتلاء.. شبهات ومكر ودسائس للانحراف عن المنهج.. منهج التوحيد الخالص الساطع..
- والمصابرة: وهي مفاعلة من الصبر.. بمعنى مغالبة من يضادك في الصبر، أي تكون أصبر منه.. فالمشاعر في حالات الكرب والضيق تحتاج لمصابرة، والأعداء في حالات الكيد والنزال يحتاجون لمصابرة.. وهكذا لا ينفد صبر المؤمنين مع طول الجاهدة في الضمائر وفي الميدان.. فكأنما هو رهان وسباق.. والعاقبة للمؤمنين كلما كانوا أثبت وأصبر.
- والمرابطة: وهي الإقامة والحراسة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء.. إنها حالة يقظة دائمة وثبات طويل، يقول ابن النحاس في كتاب المشارع: "الرباط المطلوب عبارة عن ربط الإنسان نفسه في ثغر يُتوقع فيه نزول العدو، بنية الجهاد أو الحراسة، أو تكثير سواد من فيه من المسلمين، وكلما كان الخوف أشد في مكان، كان الرباط فيه أفضل والثواب أجزل"^(١).
- وكان محمد بن كعب القرظي يقول عن هذه الآية: "رابطوا عدوي وعدوكم حتى يترك دينه لدينكم".
- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها»^(٢).
- وعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»^(٣).

(١) مشارع الأشواق، ابن النحاس، ص ٤٠٨

(٢) صحيح: رواه البخاري (فتح الباري رقم: ٢٨٩٢ كتاب الجهاد)

(٣) صحيح: رواه مسلم في كتاب الإمارة (رقم ١٩١٣)

فكل ميت إذا مات ينقطع عمله إلا المرابط إذا مات في رباطه، فإنه يجري عليه أجر عمله الصالح من الرباط وغيره إلى يوم القيامة، وهذا دليل على أن الرباط في سبيل الله أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختتم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر»^(١). وهكذا أحاط جو المعركة بالسورة من أولها حتى ختامها من فتنين التقتا إلى المرابطة على الثغور في الجهاد.

— أما التقوى.. فهي ختام النداء ورأس الأمر فهي الحارس اليقظ في الضمير يحرسه أن يغفل، ويجرسه أن يضعف، ويجرسه إن يجيد عن الطريق أو ينحرف عن الصراط المستقيم من هنا ومن هناك^(٢).. والعاقبة بعد هذا الطريق الطويل ينوط بها الفلاح بإذن الله (لعلكم تفلحون).. والحمد لله رب العالمين.

فإنهما الزهراوان

- تم بفضل الله وتوفيقه عرض سورة (آل عمران)، وبذلك اكتمل عرض الزهراوان (البقرة) و(آل عمران).. نسأل الله العظيم الكريم أن يتم فضلها علينا ويرزقنا أجرهما الذي بشرنا به النبي ﷺ ونعيد هنا التذكير به مرة أخرى..
- عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول «تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة.. قال.. ثم سكت ساعة ثم قال "تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان. يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف"^(٣)».

الزهراوان: المنيرتان..

(١) حسن صحيح: أبو داود في سننه (٢٠ / ٣) والحاكم في المستدرک (١٤٤ / ٢) وقال: صحيح

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ص ١ / ٥٥٣

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨ / ٥) وأخرج له مسلم

- وعن النواس بن سمعان قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران»^(١).

- وفي الحديثين الشريفين نجد التأكيد أن هناك الفضل العظيم لمن تعلم البقرة وآل عمران وعمل بهما.. ونسأل الله عز وجل أن يكون عرض سورتي البقرة وآل عمران في هذه السلسلة من هذا البحث، قد أعان على تعلمهما للبدء في العمل والتخلق بهما.. جعلنا الله من أهلتهما.. اللهم آمين.

تم عرض سورة آل عمران والله الحمد والثناء الجميل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم والحمد لله رب العالمين.

الخريطة الكلية لعرض سورة آل عمران :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤ / ١٨٣)

الخريطة الكلية لعرض سورة آل عمران

سورة آل عمران
(٢٠٠ آية)

الهدف العام : اصفاء الفئه المؤمنه وتاهيلها لقرار منهلج الله في الارض " ولتكل منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر "

حقيقة التوحيد (شهد الله انه لا اله الا هو) ومعنى بين الاسلام (ان الدين عند الله الاسلام)

المحكم والمنشابه بين التسليم والتأويل (والراسخون في العلم يقولون انا به) الثبات على الحق في مشهد العصمة (ربنا لا تزغ قلوبنا) الاستعلاء على الشبهات (زين للناس حسب الشهوات)

المقطع الأول (١ : ٣٢)
مقدمة السورة وملخص لمحاورها

حقيقة المعركة : زعزعة عبدة التوحيد
دور القرآن في دفع سلاح الشبهات
الوعيد الشديد من الارتداد للكفر بعد الإيمان

المقطع الثاني (٣٣ : ٩٩)
تحض شبهات أعداء الدين

حقيقة الموت والحياة (ان نفس ذائقة الموت) بيان الفوز الحقيقي (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) عبادة التفكير في دعاء المجاهد الخالص (ربنا انك من لا تعلم الغيب فقد أخرجنا) المرابطة في جو المعركة (اصبروا واصبروا ورباطوا)

المقطع الخامس (١٨٠ - ٢٠٠)
خاتمة السورة وبيان الفوز الحقيقي

المقطع الثالث (١٠٠ : ١٢٠)
"دعوة الفئه المؤمنه لاداء تكاليف المهمة"

بداية الاحراف : التلقى من مناهج أعداء الدين
طبيعة المهمة " كنتم خير امة اخرجت للناس"
إقامة المعروف الأكبر
إزالة المنكر الأكبر
مواثبات المهمة (واعصموا بحمل الله جميعا ولا تفرقوا)
تكليف الطريق (الذين في أموالكم وأنفوسكم)

المحور الرئيسي : الثبات على الحق بعد بيانه والامتناء اليه " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا "

المقطع الرابع (١٢١ : ١٧٩)
الانقلاب على الأعقاب ميدانيا " غزوة أحد "

تبيين موقف المسلمين بين الثبات والفرار (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)
أثر إشاعة مقتل النبي (صلى الله عليه وسلم) (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)
أسباب الهزيمة (ان هو من عند أنفسكم)
سنة الله في النصر والهزيمة (قد خلفنا من قبلكم سبنا فسيروا في الأرض فتنظروا)

سورة النساء

(تطهير منهج الإسلام
لرؤاسب الجاهلية لإقامة
المجتمع الإسلامي)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 نَزَّلَهَا بِاللَّيْلِ فِي الْمَدِينَةِ
 وَأَنزَلَ فِيهَا آيَاتِهَا وَرَحْمَتَهُ
 وَالْحُكْمَ الْحَكِيمَ

وما توفيقي إلا بالله

مقدمة سورة النساء

فضل سورة النساء:

- روى الحاكم عن عبدالله بن مسعود، قال: إن في سورة النساء خمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه، فقد اختلف في ذلك^(١).

جو نزول الآيات وملابساتها:

- نزلت آيات سورة النساء في الفترة من بعد غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة، إلى ما بعد السنة الثامنة، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة- والتي نزلت في حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه قبل فتح مكة-، وفي سورة النساء نماذج تدل على تواريخ نزولها على وجه التقريب في هذه الفترة الزمنية من السنة الثالثة حتى اكتمال نزولها في السنة الثامنة الهجرية، ومن هذه النماذج:

الآية الواردة في حكم الزانيات: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].. يقول ابن كثير في تفسيره: "كان الحكم في ابتداء الإسلام: أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت رضي الله عنها حَتَّى

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٠٥) وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود: سمع من أبيه، كما هو الراجح الذي رجحه البخاري

يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو: الحكم الذي أنزله سبحانه وتعالى في سورة النور^(١) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وهذه الآية الأخيرة نزلت بعد حديث الإفك في السنة الخامسة الهجرية، فقد قال رسول الله ﷺ حين نزلت: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً...»^(٢). وبذلك نسخت آية النور حكم آية النساء.

- وعن جو نزول آيات السورة وملابساتها يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "سورة النساء نزلت لتعالج رواسب الجاهلية وتمحوها من المجتمع المسلم الناشئ، وقد ينالنا الدهش لعمق هذه الرواسب حتى لتظل تغالب الجماعة المسلمة الأولى طوال هذه الفترة الزمنية وحتى ذلك الوقت المتأخر (قبل ٦ هـ).. ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرفيعة التي انتهى إليها هذا المنهج الرباني العجيب بالجماعة المسلمة. وقد التقطها من ذلك السفح الهابط، الذي تمثله تلك الرواسب، فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد للوصول إلى تلك القمة السامقة.. القمة التي لم ترتق إليها البشرية قط، إلا على إثر ذلك المنهج العجيب الفريد"^(٣).

- إنه في الوقت الذي قامت فيه الطليعة المؤمنة الجديدة لتنهض بتكاليف مهمتها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية بمنهج الله، جاءت سورة النساء بملامح هذا المنهج الرباني لتنفض عن هذه الطليعة كل راسب من رواسب الجاهلية التي جاءت منها، لتزكي نفوس أفرادها وتطهرها، كي يقيم بها هذا المنهج مجتمعاً مسلماً جديداً طاهراً بدوره من آثار السفح السحيق الذي كان عليه المجتمع الجاهلي القائم، الآثار الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاعتقادية والفكرية حين نزلت آيات هذه السورة.

- وفي الوقت الذي كان فيه اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة وينشرون الأكاذيب، ويضللون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية ويهاجمون المجتمع المسلم من خارجه، كما يعمل في

(١) مختصر تفسير ابن كثير - عمدة التفسير - ١ / ٤٢٠

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥ / ٣١٨ حلي) عن عبادة بن الصامت

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢ / ٥٥٦

ذلك المنافقون على تفسيح المجتمع المسلم من داخله تنزل آيات هذه السورة لتكشف هذه المحاولات الخبيثة لإضلال الفئة المؤمنة عن منهجها، وإفساد المجتمع المسلم بكل أساليب الإضلال والإغواء قال تعالى ﴿أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤-٤٥].. فانطلقت آيات سورة النساء تخوض المعركة مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة كما تخوضها في كل زمان وفي كل حين.

- وهكذا عملت سورة النساء على إعداد نفوساً مزكاة مطهرة لتقيم بها مجتمعاً مسلماً سليماً طاهراً ولتخوض بها المعركة مع أعدائها في كل جبهة.. في الداخل والخارج مع اليهود والمنافقين والمشركين كما خاضتها في ضمائر ونفوس الفئة المؤمنة بعد استنقاذهم من ركام الجاهلية ومحو قيمها وتقاليدها ونظمها وأخلاقها بهذا المنهج الرباني الذي جاءت سورة النساء بتبيين سماته وتفصيل ملامحه ومظاهره.

- إن هذا المنهج الرباني ظل يظهر ويزكي نفوس الفئة المؤمنة الأولى في عملية مستمرة تفاعلية مع الحوادث والمناسبات حتى ارتقى بهم إلى ذلك المستوى الراقى الذي أراده الله عز وجل لهم، حينها صاروا أمناء على إقامة هذا المنهج في الأرض، فكانت قيادة البشرية أمراً طبيعياً حينها وقائماً على أسس صحيحة.

- وهذه القمة السامقة الراقية وصل إليها هذه الفئة المؤمنة وأخذوا صكها في بيعة الرضوان عام (٦ هـ)، حينما قال لهم رسول الله (ﷺ): "أنتم اليوم خير أهل الأرض"^(١).

- وبذلك كانت سورة النساء حلقة في سلسلة تربية وإعداد هذه الفئة المؤمنة منذ العام الثالث الهجري وهي تنزل منجماً لتطهر رواسب الجاهلية في النفوس وفي المجتمع، حتى نزول سورة النور بدءاً من العام الخامس الهجري لتستلم منها الحلقات التربوية التطهيرية المستمرة حتى تصل إلى ذروتها مع سورة الفتح في العام السادس الهجري في صناعة الجيل الأول وعندئذ صنع الله بها

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٧/٤٤٣) فتح الباري

الفئة المؤمنة في الأرض ما قدر أن يصنعه، وأقامها حارساً لدينه ومنهجه وتوالت عليها من حينها الفتوحات تلو الفتوحات من الفتوحات تلو الفتوحات من فتح خيبر عام ٧ هـ مروراً بفتح مكة عام ٨ هـ إيذاناً بتمكين هذا الدين في الجزيرة العربية واتساع رقعة الإسلام من حينها إلى الآن.

- وبالرغم من ذلك فإن المنهج الرباني لم يصنع حالة خارقة صعبة المنال في الاقتداء، أو يقيم تجربة تعجز عن التكرار.. فالقرآن هو القرآن، والإنسان هو الإنسان، لذلك فهذا المنهج الرباني ثابت في أصوله ومقوماته وقادر على مواجهة الكينونة البشرية الثابتة في كل زمان، لأنه من صنع نفس المصدر الذي صنع الإنسان^(١).

لفتة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن

- إن المنهج الحركي للقرآن في صورة الترتيب النهائي لسوره، قد راعى في خط سيره إنشاء تجربة الفئة المؤمنة الأولى حيث عمد إلى رسم منهاجاً ثابتاً يصنع بإذن الله ما يحاكي هذا النموذج البشري الأول إذا ما أحسن التعامل معه، والبناء على أسسه وقواعده.

- فقامت سورة (البقرة) أولى سور القرآن بعد الفاتحة- والتي هي بمثابة مقدمة هذا المنهج الحركي- بتكليف الفئة المؤمنة الناشئة بمهمة قيادة البشرية بمنهج الله على أساس تمام الانقياد وفورية التنفيذ للحق الذي أراده الله العليم الحكيم وشرّعه في منهجه القويم، ثم جاءت سورة (آل عمران) بإعداد وتأهيل هذه الفئة المؤمنة على أسس المنهج الرباني ببيان موجبات اصطفاها، وتوضيح معالم طريقها، ودعوتها للشبات على الحق المبين الذي هداهم الله عز وجل إليه، وكلفهم به في سورة البقرة، ثم جاءت سورة (النساء) ببيان ملامح هذا المنهج الرباني اللازم لتطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية ومن ثم بناءه لمجتمع مسلم جديد طاهر يخوض معركته مع أعدائه المترصين بالداخل والخارج لحماية هذا المنهج وللعمل على تثبيت دعائمه.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢ / ٥٥٦

- وبهذه السور الثلاث: (البقرة وآل عمران والنساء... يفتح المنهج الحركي قوسًا كبيرًا يظل مفتوحًا أثناء خط سيره بين سور القرآن وبقائه حتى يغلق هذا المنهج قوسه المقابل مع عرضه الثلاثية المناظرة للثلاث سور الأولى، وهذه الثلاثية الأخيرة سور الحج والمؤمنون والنور)، واللائي يأتين في تناظر وتناسب عجيب مع السور الثلاث الأول (البقرة وآل عمران والنساء).

أولاً: التناسب بين سورتي البقرة والحج:

- حيث شهدت كلتا السورتين التكليف بمهمة الأمة بالشهادة على الناس، قال تعالى في منتصف سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، بينما جاء في آخر سورة الحج ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

- أقرت كلتا السورتين سنة التدافع لتحقيق مهمة الأمة المكلفة بها، قال تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، كما قال سبحانه في سورة الحج ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

- ورد في كلتا السورتين الإذن بالقتال والتكليف به في أوائل الآيات التي نزلت تفرض القتال على هذه الأمة عملاً بسنة التدافع لإقرار مهمة الأمة وتحقيقها، قال تعالى في سورة الحج ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، كما جاء في سورة البقرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

- أكدت السورتين على هداية الله لعباده المؤمنين إلى صراطه المستقيم لتمسكهم بالحق المبين الذي بينته كلتا السورتين لإقامة هذا الدين، قال تعالى في سورة البقرة ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

لَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مَنِ الْحَقُّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿البقرة: ٢١٣﴾،
وقال تعالى في سورة الحج ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

- كما يحمل اسمنا كلتا السورتين (البقرة والحج) لمعنى واحد وهو: "الاستجابة لله وتمام الانقياد لأوامره"، حيث تشير رمزية (البقرة) بضرورة كمال استجابة أفراد الأمة ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ كلما سمعت لشرع الله يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، كما تشير رمزية (الحج) إلى معنى التلبية وهي سرعة الاستجابة لنداء الله عز وجل ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

ثانياً: التناسب بين سورتي آل عمران والمؤمنون:

• تتحدث كلتا السورتين عن الصفات المؤهلة للفئة المؤمنة المنوط بها القيام بالمهمة التي كلفت بها في سورتي البقرة والحج ومن أهم هذه الصفات:

- الخشوع والقنوت، قال تعالى في سورة (آل عمران) ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وفي سورة المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

- الاعتصام بالله، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، وفي سورة المؤمنون ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ومن صور الاعتصام بالله: الاستعاذة به من الشيطان ووساوسه وإغوائه كما جاء في سورة آل عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، كما جاء في سورة المؤمنون: ﴿وَقُلْ رَبِّ اعْوِذْ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

- الوجل والإشفاق، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وفي سورة المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

- المسارعة في الخيرات، قال تعالى ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤]، ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

• كما تبين كلتا السورتين أن الفوز الحقيقي هو النجاة من النار، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وفي سورة المؤمنون ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، وقوله تعالى ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

• كما بينت كلتا السورتين أن الابتلاء سنة الله في أصحاب الدعوات، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالى في سورة المؤمنون ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

• كما يرمز اسما كلتا السورتين (آل عمران والمؤمنون): إلى فئة مؤمنة آمنت بالله وصدقت بكتبه وحملت رسالته، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، وفي سورة المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨-٥٩].

ثالثاً: التناسب بين سورتي النساء والنور:

- جاءت كلتا السورتين بتشريعات وأحكام لتطهير المجتمع المسلم وحمایته مثل أحكام حالة ارتكاب الفاحشة والوقوع في الزنا، كقوله تعالى في سورة النساء ﴿وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٥]، وفي سورة النور ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

- كما فتحت كلتا السورتين باب التوبة لتطهير من يرتكب الذنوب والآثام ليعود إلى صفوف المجتمع كقوله تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّرَّاءَ إِجْهَالَةً ثُمَّ يَتُوبُونَ

مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿النساء: ١٧﴾، وقوله تعالى في سورة النور ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

- كما حثت كلتا السورتين على الزواج للإحصان والاستعفاف ونشر العفة والطهارة في المجتمع المسلم، قال تعالى في سورة النساء ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله تعالى في سورة النور ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢].

- كما حثت السورتين إلى طاعة الله ورسوله (ﷺ)، قال تعالى في سورة النساء ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وفي سورة النور ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

- وقامت كلتا السورتين النساء والنور بالدعوة إلى تحكيم الرسول (ﷺ) وشرعه قال تعالى في سورة النساء ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥٠]، وفي سورة النور قال تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

- وفضحت كلتا السورتين موقف المنافقين الراضين للتحاكم إلى شرع الله عز وجل، ففي سورة النساء قال تعالى في شأنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وفي سورة النور قال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨].

- كما يرمز اسم كلتا السورتين (النساء والنور): إلى منهج الله المكلف بحمله المؤمنون الذين اصطفاهم الله عز وجل لهذه المهمة.

- هذا المنهج الرباني الذي قام بانتشال النساء من سفح الجاهلية التي ظلمتها وامتهنتها، فقام بتكريمها وارتقى بها إلى القمة السامقة، فأقر لها بالميراث ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿النساء: ٧﴾. مع تحذيره من وراثتهن كرها ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩]، هذا المنهج الرباني الصافي الخالص هو منهج النور ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] المنهج الذي قام بتطهير النفوس والمجتمعات من رواسب الجاهلية ليشع نوره في الأرض كلها،

— فارتبطت السورتان (النساء والنور) بهذا المنهج الرباني وبيان ملامحه وسماته التربوية لإنشاء مجتمع مسلم طاهر متماسك.

التعقيب على التناسب بين هذه السور

— لا يعني تناسب سور (البقرة، آل عمران والنساء) مع سور (الحج، المؤمنون والنور) على الترتيب تطابق الوحدة الموضوعية أو تكرارها لهذه السور، لكن يشير هذا التناسب والله أعلم إلى ارتباط هذه السور معًا بحلقة اتصال في خط المنهج الحركي للقرآن. ولكن ما هي هذه الحلقة؟ وما هي الصلة بين المجموعة الأولى والمجموعة الثانية؟

— إن ما سبق التأكيد عليه بفضل الله أن كل سورة نزلت إثر مناسبة معينة لتحقيق هدفًا معينًا يتوافق مع هذه المناسبة، كما ذكر في سورة آل عمران في مناسبة نزول صدرها وما قيل حول مجادلة وفد نجران للنبي (ﷺ)^(١)، وما ذكر في مناسبة نزول: الجزء الأخير منها لأحداث غزو أحد والتعقيب على الدروس المستفادة منها للجماعة المسلمة الأولى التي خاضت هذه الغزوة... كما نزلت سورة الأنفال بعد أحداث غزوة بدر، ونزلت سورة التوبة بعد أحداث غزوة تبوك لنفس هدف وغرض التعقيب على الغزوة وتربية الجماعة المسلمة الأولى بهذه الآيات الحية المتفاعلة مع المناسبات والأحداث التي وردت بها أول بأول.

(١) انظر: تفاصيل سبب نزول صدر آل عمران في ص ٣٣٧.

- لقد تناولنا في تمهيد هذا البحث^(١): أن هذه السور اتخذت ترتيبًا مختلفًا وتسلسلاً محددًا في المصحف بأمر توقيفي من الله لتحقيق هدفًا آخرًا وغرضًا إضافيًا غير هدف وغرض الذي عاجله نزولها، هدفًا وغرضًا يناسب الفئة المؤمنة في كل زمان إلى يوم القيامة إذا ما أحسنت فهمها له من خلال عون الله وتوفيقه والتدبر والتأمل في هذا الترتيب النهائي والتبويب المعجز لكتاب الله.
- غير أننا نستشعر بصدق أن تسلسل سورة النور في كتاب الله مع الخط الواصل قبلها، والنظر في السور بعدها حتى نهاية المصحف نجد أن سورة (النور) في وضعها هذا تشير إلى قيام دولة الإسلام واستقر سلطانها وفق السير على خطوات المنهج الحركي للقرآن في ترتيبه النهائي.
- ونعود إلى سورة (النساء) والتي بدأت في رسم ملامح المنهج الرباني ودوره في تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، وتثبيت ملامح المجتمع المسلم الجديد... الذي ستستقر ملامحه وتثبت دعائمه مع سورة (النور).

رمزية (النساء) ومدلول تسمية السورة بها

أولاً: (النساء) إحدى الضعفاء داخل المجتمع المسلم، واللواتي أوجب الإسلام الرفق بهن ورحمتهن، فعن رسول الله (ﷺ) أنه أوصى بالنساء خيرًا، كما ثبت في صحيح مسلم أنه قال (ﷺ) في خطبته في حجة الوداع:

«فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبرح، وهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(٢)، فالإسلام يقر بضعف النساء لذا أوجب صيانة حقوقهن وحفظ أموالهن وحسن معاشرتهم، وروى ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «أخرج مال الضعيفين: المرأة واليتيم»^(٣)، أي أوصيكم باجتنب ما لهما.

(١) انظر: تمهيد البحث من ص ٦١ : ٦٦.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١ / ٣٤٧)

(٣) إسناد ابن مردويه صحيح، قاله أحمد شاکر في تحقيقه

والإسلام أقر بضعف النساء لطبيعة خلقهن وفطرتهن، والتي تناسب الوظيفة التي أرادها الله عز وجل لهن في الحياة وهي الأمومة، فقد خلق الله عز وجل حواء عليها السلام من ضلع آدم الأيسر، فقال النبي (ﷺ): «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمعت بما استمعت بما وفيها عوج»^(١)، وهذه النشأة الخلقية أكسبتها طبيعة فطرية من الرقة والضعف غير طبيعة الذكر، لتقوم بمتطلبات الأنوثة من حسن تربية الأطفال ورعايتهم برفق ولين وشفقة وعاطفة لا يمتلكها الرجل مثلما تمتلكها المرأة، وذلك لطبيعة الذكر الحشنة والجادة والقوية والتي تتناسب مع مهام وظيفته من السعي على الرزق والحركة في المجتمع، والقيام بالأعمال الشاقة للإنفاق على أسرته، والجهاد في سبيل الله لقتال أعداء الدين والذود عن المستضعفين.

لذلك جعلت القوامة للرجل على المرأة قال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. يقول ابن كثير في تفسيره: "الرجل قيم على المرأة، أي: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت"^(٢).

ويقول الشيخ سيد قطب عن هذه القوامة التي تتناسب مع طبيعة خلق الله للذكر والأنثى، فيقول رحمه الله: "إن منهج الإسلام يتبع الفطرة في تقسيم الوظائف، والفطرة ابتداء جعلت الرجل رجلاً والمرأة امرأة، وأودعت كلاً منهما خصائصه المميزة، لتتوسط بكل منهما وظائف معينة.. لا لحسابه الخاص. ولا لحساب جنس كل منهما بذاته. ولكن لحساب هذه الحياة الإنسانية التي تقوم، وتنظم، وتستوفي خصائصها، وتحقق غايتها من الخلافة في الأرض وعبادة الله بهذه الخلافة عن طريق هذا التنوع بين الجنسين، والتنوع في الخصائص والتنوع في الوظائف وعن طريق هذا التنوع ينشأ تنوع التكليف، فجعل الله من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل.. وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانياً.

(١) صحيح: رواه مسلم (١/ ٤٢١)

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٤٤٢

وليست هينة ولا يسيرة، بحيث تؤدَّى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى، والتي زودت من خصائص الرقة والعطف، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة - بغير وعي ولا سابق تفكير - لتكون الاستجابة سريعة ومريحة مهما يكن فيها من المشقة والتضحية، وهذه خصائص ليست سطحية بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة بل يقول كبار العلماء المختصين: إنها غائرة في تكوين كل خلية، فسبحان صنع الله الذي أتقن كل شيء" (١).

- إن حكمة الله عز وجل في أداء المرأة لهذه الوظيفة الخطيرة ومن تربية الأبناء وتنشئة الأجيال تنشئة على منهج الله، استوجبت هذه الخصائص الفطرية التي أكسبت المرأة ضعفًا في تكوينها، استدعت توصية الإسلام بها والتأكيد مرارًا وتكرارًا على الرفق بهن، وحسن معاشرتهن.

- قال تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، وهكذا أوصى الإسلام برحمة ضعف النساء، والإقساط لهن، وصيانة حقوقهن، والعطف عليهن، فقال رسول الله (ﷺ) موصيًا الرجال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (٢). وكان من أخلاقه (ﷺ) أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين، يتودد إليها بذلك.

ثانيًا: (النساء) ترمز للنقلة البعيدة التي نقلها منهج الإسلام لأوضاع وتقاليد الجاهلية من السفح الهابط إلى القمة السامقة الرفيعة، والجاهلية هنا ليس المقصود بها الحياة البدوية للعرب قبل مجيء الإسلام، ولكن الجاهلية هي: "كل نظام نحى منهج الإسلام وأقام منهج البشر، وسير أوضاعه وكيف حياته بُناءً على أهوائه ومصالحه". والجاهلية في كل عصورها أهانت المرأة وعسفت بحقوقها وجعلتها في أخس وأحقر مكان في المجتمع، ولم ينصفها أبدًا في تاريخها إلا منهج الإسلام ذلك المنهج الرباني الفريد.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢ / ٦٤٣، ٦٥٠.

(٢) حسن صحيح: رواه الترمذي (٤ / ٣٦٧).

- وانظر لأدلة امتهان نظم الجاهلية قديماً وحديثاً للمرأة، والتي ذكرها د. غالب عواجي في كتابه المذاهب الفكرية المعاصرة:

١. أقدم النظم الجاهلية وهي شريعة حمورابي الذي يرجع إلى سنة ٢٣ قبل الميلاد، جاء فيها:

(أ) الزوج إذا طلق زوجته فإنها تُلقى في النهر، وإذا أراد عدم قتلها نزع ثوبها عن منزله وطردها من منزله نصف عارية إعلاناً منه بأنها أصبحت شيئاً مباحاً لكل إنسان.

(ب) المرأة إذا أهملت زوجها أو تسببت في خراب بيتها تُلقى في الماء.

(ج) الزوجة التي تُرمى بالزنا بدون دليل عليها وتناولتها ألسنة الناس تُلقى في النهر وتغطس في الماء، فإن عامت على وجه الماء كانت بريئة، وإن غطست أُعتبرت آثمة" وهذا حكم هذه المنظومة الجاهلية في المقدوفة بدون دليل: أنها تُرمى في النهر، وهو أمر عجيب، والأعجب منه أن حكم براءتها إذا طفت على الماء ميتة!!... هكذا حكم الجاهلية.

(د) من حق رب الأسرة بيع أفراد الأسرة أو هبتهم إلى الغير مدة من الزمن.

٢. وفي القانون الروماني، كما في الألواح الأثني عشر: أن المرأة لا أهلية لها، فأسباب انعدام الأهلية عندهم هي: (صغر السن، الجنون، الأنوثة)، وفيه أن رب الأسرة يحق له أن يبيع زوجته وابنه وابنته.

٣. وفي القانون اليوناني: إن المرأة تدخل ضمن ممتلكات ولي أمرها قبل الزواج، وتدخل ضمن ممتلكات زوجها بعد الزواج، وكانت قيمة المرأة عندهم هي الامتهان كما سجلها "ديموستين" في قوله: إننا نتخذ العاهرات للذمة، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية، ونتخذ الزوجات ليكون لنا أبناء شرعيون.

٤. وفي القانون الهندي: لا يحق للمرأة في أي مرحلة من مراحل حياتها أن تجري أي أمر وفق مشيئتها ورغبتها حتى ولو كان ذلك الأمر من الأمور الداخلية لمنزلها، وكما جاء في قانون

"مانو" الهندي: "إن مانو عندما خلق النساء فرض عليهن حب الفراش والشهوات الدنسة والتجرد من الشرف وسوء السلوك". فالنساء دنسات عندهم في قانونهم الجاهلي^(١).

٥. أما المجتمع العرب الجاهلي الأول فكان يحط من نظرتة للمرأة، حيث كان يمتنها بصورة هابطة مزرية في نكاحها، وكانت توأد طفلة، وكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة، ومن هذه الصور الهابطة المزرية:

(أ) ما جاء في وصف حديث عائشة رضي الله عنها وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية كما في صحيح البخاري: "إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء. فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته، فيصدقها، ثم ينكحها.. والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه! ويعتزلها ولا يمسهما أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه! فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الرجل! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.. ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيها. فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت. فهو ابنك يا فلان. تسمي من أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها. ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل! والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها- وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا- فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطه، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك"^(٢).

• وهذه الصورة لا تحتاج إلى تعليق والتي تظهر تدني التصور الجاهلي وبهيميته: سفاح ومخادنة وبغاء هي الأنواع من الثاني إلى الرابع، بينما النوع الأول هو النكاح الحلال وهو الإحصان

(١) كتاب "المذاهب الفكرية المعاصرة" د. غالب بن علي عواجي، ص ١٠١: ١٠٣

(٢) صحيح أخرجه البخاري في كتاب النكاح

الذي نص على طلبه الإسلام. وهكذا كانت صورة معاملة الجاهلية للمرأة صورة هابطة حيوانية مزرية.

(ب) يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه "ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين" عن وضع المرأة في الجاهلية الأولى: "وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحييف، تؤكل حقوقها، وتبتز أموالها، وتحرم من إرثها، وتعزل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه^(١)، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة"^(٢).

فمن هذه الصور الهابطة لمعاملة مجتمع العرب الجاهلي للمرأة: أنهم كانوا يورثون المرأة لبعضهم البعض إذا مات زوجها، فروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: "كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوّجوها، وإن شاءوا لم يُزوّجوها، فهم أحق بها من أهلها"^(٣).

وقال عطاء بن رباح: "إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل، فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم".

(ج) ومن هذه الصور الهابطة لتعامل الجاهلية العربية الأولى مع المرأة وأدهم للبنات، ذكر الهيثم بن عدي: أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد البنات. فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن. ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات. ومنهم من كان يقتلهم خشية الإنفاق وخوف الفقر. وكان يتأخر وأد المؤودة لسفر الوالد وشغله، فلا يئدها إلا وقد كبرت، وصارت تعقل. وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق^(٤). قال تعالى في وصف هذا الحال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ

(١) سورة البقرة: ٢٣٢

(٢) سورة النساء ١٩

(٣) البخاري (٨ / ١٨٤ - ١٨٦ فتح الباري)

(٤) بلوغ الأدب في أحوال العرب

وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٨﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

٦. واستمرت الجاهلية الحديثة في امتهان المرأة وهضم حقها، فالمادة (٢١٣) من القانون الفرنسي تقضي بالزام المرأة طاعة زوجها وإلزامها بعدم التصرف في أموالها إلا بإذن كتابي من زوجها، وقال هيرت سبنسر في كتابه علم الاجتماع: إن أوروبا حتى القرن الحادي عشر الميلادي كانت تعطي الزوج الحق في أن يبيع زوجته، فجعلت حق الزوج قاصرًا على الإعارة والإجارة وما دونها".

- وفي إنجلترا كان القانون يسمح ببيع الزوجة حتى عام ١٨٠٥، وقد حدث أن باع إنجليزي زوجته سنة ١٩٣١م بخمسمائة جنيه، وفي مرافعات المحكمة قالوا له إن قانون بيع الزوجات قد ألغي سنة ١٨٠٥م، وحكمت المحكمة عليه بالحبس عشرة أشهر.

● فجاء الإسلام وقام بانتشال المرأة من هذا السفح الهابط ليكرمها ويرتقي بها إلى القمة الرفيعة، فأُنفص الإسلام المرأة بما لا يوجد له مثيلاً في القديم ولا الحديث، حيث قام منهج الإسلام بما يلي:

(أ) حدد للمرأة نصيباً في الميراث حسب درجة قرابتها للميت، فالأم والزوجة والابنة، والأخوات الشقيقات والأخوات لأب وبنات الابن والجدّة، لمن نصيب مفروض من التركة قال تعالى ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، وبذلك أقر الإسلام للنساء حق في الميراث، لم تعطها الجاهلية لها حيث كان أساس التوريث عندهم الرجولة التي تقاقل وتذود عن الديار.

(ب) أعطى المرأة حقاً صريحاً وشخصياً في صداقها ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] نحلة أي: هبة خالصة من الزوج لزوجته عن طيب نفس، وارتياح خاطر، فأزال الإسلام ما كان واقعاً في المجتمع الجاهلي من هضم هذا الحق في صور شتى حيث كان يقبض ولي المرأة

هذا الصداق ويأخذه لنفسه، وكأنما هي صفقة بيع هو صاحبها، وكما كان يحدث في زواج "الشغار": وهو أن يزوج الولي المرأة التي في ولايته في مقابل أن يزوجه من يأخذها امرأة في ولاية هذا الآخر. واحدة بواحدة صفقة بين الوليين لا حظ فيها للمرأتين، فحرم الإسلام هذا الزواج كلية، وجعل الصداق حقاً للمرأة تأخذه لنفسها ولا يأخذه الولي.

ج) جعل زواج المرأة من الرجل رغبة واختيار لإحصان الرجل وإحصان المرأة ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤] والإحصان هو: الحفظ والصيانة، وهذا هو طريق الاستمتاع بالمرأة من الحلال ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]. أي عن طريق الزواج لا عن طريق آخر من السفاح والمخادنة والبغاء وكل الصور الهابطة المزرية التي كانت في مجتمع الجاهلية.

ثالثاً: (النساء) ترمز لنموذج استثمارته الجاهلية في إشاعة الفاحشة وبث الشهوات كي تميل البشرية ميلاً عظيماً عن سبيل الله وتنحرف عن طاعته، فلما أرادت الجاهلية علاج امتهاها للمرأة وظلمها لحقوقها، اشتطت بها في الضفة الأخرى وأطلقت للمرأة العنان، وجعلتها مادة لإثارة الغرائز، فقاموا بتعرية جسد المرأة بدعوى التحرر من قيود الدين والأخلاق والحياء، لذلك كانت النساء أولى الشهوات التي زينت للناس لاختبار إيمانهم، قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، يقول ابن كثير في تفسيره: "يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بمن أشد^(١)، كما ثبت في الصحيح في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي (ﷺ) أنه قال: «ما تركتُ بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء»^(٢)، والفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن لذلك بدأ بالنساء قبل بقية الأنواع كون الشهوة بمن أشد، فالرجل يحب الولد لأجل المرأة، وكذا يحب الولد الذي أمه في عصمته، والفتنة: هنا في الانخداع بزينة المرأة ومفاتها مما يتسبب في الانصراف عن طاعة الله، والوقوع في محارمه وما يغضبه سبحانه وتعالى.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٣١٩

(٢) صحيح البخاري (٩ / ١١٨ فتح الباري) ومسلم (٢ / ٣٢٠)

- لقد تعرضنا في السورتين السابقتين إلى بنى إسرائيل حيث أن قصة (البقرة) حدثت مع بنى إسرائيل ,, وآل عمران هم عائلة مصطفىة من بنى إسرائيل .. وأول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء كما جاء فى الحديث الصحيح^(١) لذلك فاسم سورة (النساء) يحمل رمزية الفتنة التى تحدث للرجال.

- والمرأة تمثل فتنة للرجل عن قيامه بالأعمال الصالحة إرضاءً لأوامرها وخضوعاً لها، لذا أخبر الله تعالى أن من الأزواج والأولاد عدواً للرجل، فحذرته على دينه من هذه العداوة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لِّلرَّجُلِ، فَحَذَرَهُ عَلَى دِينِهِ مِنْ هَذِهِ الْعِدَاوَةِ، قَالَ تَعَالَى ﴿يَا تَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى قَطِيعَةِ الرَّحْمِ أَوْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مَعَ حَبِّهِ إِلَّا أَنْ يَطِيعَهَا، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (عَدُوًّا لَكُمْ) بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَلْتَهِي الرَّجُلُ بِهَمِّ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ (فاحذروهم) يَعْنِي: عَلَى دِينِكُمْ، وَهَذَا التَّحْذِيرُ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ تَشْغَلُ الرَّجُلَ عَنِ طَلْبِ أُمُورِ الدِّينِ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى التَّهَالُكِ عَلَى طَلْبِ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَشَدُّ الْفَسَادِ.

- لذلك أراد الذين يتبعون الشهوات أن تنطلق شهوة الجنس كالسعار المحموم بلا حاجز ولا كايح من أي لون كان، سعار محموم لا يقر معه قلب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة- يريدون أن يعود الأدميون قطعاناً من البهائم، قال تعالى ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. فتميل الأمة عن دينها، وتنكب على شهواتها وإشباع غرائزها وهذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين منه، لأن أعداء الدين يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية، ولا عاصم لمجتمعاتنا إلا منهج الله الرشيد، أما لو سقطت الأمة فى هذا الوحل فذلك هو الضلال البعيد.

● ومن أمثلة استخدام (النساء) للغواية والإضلال والفتنة عن سبيل الهدى ومنهج الله القويم فى الجاهلية الحديثة:

١. إغراء الشباب والاستيلاء على ولائهم عن طريق نشر البغايا.

(١) صحيح: البخاري (٩/ ١١٨ فتح الباري) ومسلم (٢/ ٣٢١)

٢. قتل الاحتشام عن طريق إغراء الفتيات بشقى الأزياء الفاجرة، وأنواع المساحيق والموضات العالمية.

٣. عرض الصور الماجنة في وسائل الإعلام لإلهاب الغرائز الجنسية.

٤. انتشار الأفلام السينمائية السافرة وظهور النساء فيها عاريات.

٥. حث المرأة على النزول للعمل للاختلاط بين الجنسين بدعوى التحضر والمساواة بين الرجل والمرأة بلا قيد ولا التزام.

٦. انتشار الروايات الأدبية الخليعة والمثيرة للغرائز.

• وهدف كل هذه الأمثلة وغيرها هو إطلاق الشهوات الجنسية، مما تسبب في إحداث فوضى في العلاقات الجنسية كان من نتائجها: انتشار أطفال الزنا وتفكك الأسرة، وانهيار المجتمعات أخلاقياً، وانتشار الأمراض السرية.

ومن بعض مظاهر وآثار فوضى العلاقات الجنسية:

أ) أجرت المعاهد العلمية بالسويد عدة استفسارات عن ظاهرة سموها "الحب الحر"، فتبين منها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج في سن الثامنة عشرة، والفتاة في سن الخامسة عشرة. وأن ٩٥% من الشباب في سن ٢١ سنة لهم علاقات جنسية، وأن ٨٠% من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج.

وأدت حرية الحب بطبيعة الحال إلى الزواج المتأخر، مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين.

ب) ما قد جرى على الفرنسيين بعد تمكن الشهوات منهم: اضمحلال قواهم الجسدية، وانتشار الأمراض السرية الفتاكة كمرض الزهري، فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم، وسهولة تلبية الميل الجنسي أدى إلى ضعف مستوى القوة والصحة البدنية للفرنسيين، ومن ثم قل الزواج، وقل التناسل، وتندرج فرنسا منحدره إلى الهاوية.

(ج) انتشار موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا، وقررت لجنة الأربعة عشر الأمريكية التي تُعني بمراقبة حالة البلاد الخلقية عام ١٩٥٠ (قبل وجود المركبات الحديثة من المضادات الحيوية) أن ٩٠% من الشعب الأمريكي مصاب بالأمراض السرية الفتاكة.

• وهذا جزء مما تتكلفه البشرية الضالة، في جاهليتها الحديثة، من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيتوا إلى منهج الله للحياة، بل يريدون أن يفتنوا الناس عنه ليقعوا في الكفر والفسوق والعصيان.

• ومن النماذج الصارخة في استخدام (المرأة) للغواية وإشاعة الفواحش من خلالها واتباع الشهوات الجنسية ما جاء في مؤتمر بكين للسكان عام ١٩٩٥ تحت عنوان: (المساواة والتنمية والسلم) حيث أردوا أن يفرضوا على العالم أيديولوجية موحدة للمرأة عرفت بـ "عولمة المرأة"، وقد دعت الوثيقة الختامية لهذا المؤتمر إلى:

١. الاعتراف بالشواذ جنسيًا وإدراج حقوقهم ضمن حقوق الإنسان.

٢. المطالبة بحق المرأة والفتاة في التمتع بحرية جنسية آمنة مع من تشاء.

٣. المطالبة بحق المراهقات الحوامل في مواصلة التعليم دون إدانة لهذا الحمل السفاح.

٤. لا تتحدث الوثيقة على أن الزواج رباط شرعي يجمع الرجل والمرأة في إطار اجتماعي هو الأسرة، إنما ترى أن الزواج المبكر يعوق المرأة عن العمل.

• ومما سبق نجد أن ملخص المعاني الثلاثة الرئيسية التي ترمز كلمة (النساء) لها هي:

- المعنى الأول: كيف رفع الإسلام بالمرأة لضعفها؟ فأكد على كفالتها ورعايتها، فصارت (النساء) رمزًا للضعفاء ولأهمية حفظ حقوقهن وإقسطهن.

- المعنى الثاني: كيف أهانت الجاهلية المرأة بالنظرة الهابطة لها؟ فجاء الإسلام لتكريمها والارتقاء بقيمتها ومكانتها من سفح الجاهلية، فصارت (النساء) رمزًا لمعالجة منهج الإسلام لرواسب الجاهلية وتطهيرها.

- المعنى الثالث: كيف استخدمت الجاهلية المرأة للغواية والإضلال؟ فحذر منهج الإسلام من السقوط في فتنها، فصارت (النساء) رمزًا للاستقامة على المنهج والحذر من عدم الانصراف عنه والفتنة بغيره.

خريطة سورة النساء**خطوط ترابط سورة (النساء) والوحدة الموضوعية لها**

- الرابط الأول: خط العدل التواضع والتكافل مع الضعفاء.
- الرابط الثاني: خط تطهير منهج الإسلام لرواسب الجاهلية.
- الرابط الثالث: خط الاستقامة على المنهج وعدم الفتنة به.

الرابط الأول: خط العدل التواضع والتكافل مع الضعفاء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو**الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾**

- أوصى الإسلام في التعامل مع الضعفاء مثل: (النساء - اليتامى - المساكين - الصغار - السفهاء - الخدم) بالرحمة والرفق والعطف والقيام على حقوقهم، وأداء إليهم أماناتهم بقسط وسماحة، وذلك لأن المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً دأبت على الظلم والاعتداء على الطبقة الضعيفة، والتي لا تملك النفوذ والسلطان لنيل حقوقها، والضعيف دوماً مغلوب على أمره أمام القوي، بينما منهج الإسلام مبني على قاعدة: "القوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أخذ الحق له"^(١)، لذلك فمنهج الإسلام في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم كله قائمة على أساس: التكافل والتواضع والأمانة والعدل، والسماحة والمودة والإحسان.

- وسورة النساء جاءت تبرز ملامح عدالة وكفالة منهج الإسلام، لترسي هذا المنهج الرباني في المجتمع بل في الحياة البشرية بأكملها، فلم تعرض سورة النساء ملامح منهج الإسلام عرضاً نظرياً ليكتفي باستشعار السعادة بعدالته وتكافله، بل أرادت هذه السورة أن ندرك خيرية هذا المنهج للبشرية ومدى حاجتها إليه، بل شقاؤها في عدم تطبيق هذا المنهج وإقامته في الحياة.

- ولقد وردت توجيهات وتشريعات شتى في سياق سورة النساء تبرز خط العدل التواضع والتكافل في التعامل مع الضعفاء، ومنها على سبيل المثال:

(١) من كلمات الخليفة الأول للمؤمنين أبي بكر رضي الله عنه في خطبة توليه الخلافة

أولاً: مع الأيتام

- أوصى منهج الإسلام ولي اليتيم الذي يقوم على رعايته وحفظ أمواله بما يلي:
١. دفع أموال اليتامى كاملة إذا بلغوا الحُلُم ووجد منهم صلاحًا في دينهم لقوله تعالى ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّبِيبِ﴾ [النساء: ٢].
 ٢. عدم ضم أموال اليتامى إلى أموال ولي اليتيم فيأكل منها بعد اختلاطها لقوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]. حوبًا: ظلماً.
 ٣. عدم الأكل من أموال اليتامى بلا سبب أو فقر، ومن يفعل ذلك يأكل نارًا تتأجج في بطنه يوم القيامة لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أخرج مال الضعيفين المرأة واليتيم»^(١). أي أوصيكم باجتنب ما لهما، أما في حالة الحاجة لفقر ولي اليتيم واضطراره، فقد أجاز الشرع له الأكل منها ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].
 ٤. أداء مهر اليتيمة إذا أراد وليها الزواج منها، فليست كونها ضعيفة فيمنع عنها المهر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عزق من تمر وكان يمسكه عليها، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، أي فليعدل إلى ما سواها من النساء إن رغب في الزواج فإنهم كثير وبإمكانه التعدد دون أن يظلم اليتيمة فقد وسع الله عز وجل عليه ورخص له.

ثانياً: مع السفهاء

- السفهاء هم: كل من يسئ التصرف لنقص في العقل أو في الدين كالمجنون والصغير، قال تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]، أي: لا تعطوهم الأموال التي تقوم عليها معاشكم، فلن يستطيعوا التصرف فيها ولكنهم يحتاجون الترفق بهم، فليس لهم إرادة أو عقل فحثت الآية على الإنفاق

(١) رواه ابن مردويه بإسناد صحيح

عليهم وكسوتهم ومؤنتهم ورزقهم مع القول بالمعروف لهم الذي يشمل البر وحسن الخلق والكلام الطيب.

ثالثاً: الذرية الضعيفة

- أمر الإسلام بتوريث الصغار وعدم تركهم عالة يتكفون الناس، فكفل لهم حقوقهم وفرض لهم نصيباً مفروضاً، قال تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، وقوله تعالى ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

رابعاً: أولوا القربى من اليتامى والمساكين

- قال تعالى ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]، وهنا الآية تحت على البر والإحسان بالفقراء من القرابة الذين لا يرثون، وخاصة إذا حضروا قسمة التركة وقد حجبتهم عن الوراثة من هم أقرب منهم، لأن أنفسهم تتشوف إلى شيء من الميراث، وهم يرون هذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يعطون، فأمر المنهج الرباني أن يعطوا من التركة صدقة عليهم، وتطيباً لخطأهم، وجبراً لكسرهم، في نموذج راقى لهذا المنهج الرباني في التراحم والتكافل مع الضعفاء.

الرابط الثاني: خط تطهير منهج الإسلام لرواسب الجاهلية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾

- أكدت سورة النساء أن المنهج الرباني كي ترسى قواعده، وتثبت ملامحه لابد أن يزيل قواعد الجاهلية أولاً وينسخ معالمها، ويظهر رواسبها في النفوس والمجتمع، لذلك جاءت سورة النساء ببيان جانب تركية منهج الله للنفوس وتطهيره لأفعال الجاهلية في المعاملات والتقاليد، والقيم والمبادئ حتى يصوغ نفوساً مزكاة ومطهرة ينشئ بها مجتمعاً مسلماً صالحاً طاهراً، ولن يثبت هذا المنهج الرباني أوضاعاً وتقاليد وقيماً ومبادئ جديدة في هذا المجتمع المسلم الصالح إلا بعد محوه ملامح الجاهلية الشائعة.

- ومن ملامح الجاهلية التي أزالها منهج الإسلام، وعرضتها لنا سورة النساء:

١. أكل المجتمع الجاهلي لحقوق الأيتام وبخاصة اليتيمات في حجب الأهل والأولياء والأوصياء واستبدالهم الخبيث منها بالطيب، قال السدي: "كان أحدهم يأخذ الشاه السمين من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاه المهزولة ويقول شاه بشاه، فأوقف الإسلام ذلك ونهى عنه قال تعالى ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢].

٢. جور المجتمع الجاهلي لليتيمة حينما يتزوجها وليها دون أن يقسط في صداقها، فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ فقالت: "يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنها أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بمن أعلى سنتهن في الصداق وأمروا أن ينكحوا من النساء سواهن" (١).

٣. امتهان المجتمع الجاهلي للمرأة في كل أدوار حياتها بؤاها صغيرة، وحرمانها الميراث، وتوريثها للرجل كما يورث المتاع فإذا مات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه، فيعرف أنها محجوزة له. إن شاء نكحها بغير مهر، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها، كما كانوا يعضلون المرأة إذا طلقها زوجها فيمسكها لا هي زوجة ولا هي مطلقة لتترك له صداقها، فجاء الإسلام فأزال هذه التقاليد الفاسدة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ [النساء: ١٩].

٤. انتشار السفاح والمخادنة في المجتمع الجاهلي، والسفاح أن تكون المرأة لكل من أراد كما ذكر في اجتماع الرهط ما دون العشرة فيدخلون عليها كلهم يصيبها، والمخادنة هي أن تكون المرأة لواحد سرًا بينهما، وكان سادة من أشرافهم يرسلون رقيقاتهم (خدمهم) يكسبن بأجسامهن في هذا السبيل القذر لحساب سادتهن. وكان عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين في المدينة وهو من سادة قومه له أربع جوار يكسبن له من هذا السبيل، وكانت هذه بقايا أحوال الجاهلية، التي

(١) صحيح: رواه البخاري

جاء الإسلام ليرفع العرب منها ويظهرهم ويذكهم، كما يرفع منها سائر البشرية كذلك، فجعل منهج الإسلام طريقاً واحداً للمعايشة بين الرجال والنساء هي طريق النكاح والإحصان، قال تعالى ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤].

٥. أكل المجتمع الجاهلي الأموال بالباطل في المعاملات الربوية، وانتشار الغش والقمار والرشاوى، فقام منهج الإسلام بعملية تطهير لرواسب الحياة الجاهلية في المجتمع المسلم، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

٦. ظاهرة الخمر التي كانت مميزة في المجتمع الجاهلي، وإحدى أكبر تقاليد المتغلغلة، فعالجها منهج الإسلام على مراحل من التنفير إلى حظر الشراب أوقات الصلاة ثم بالتحريم البات، حيث عالجها المنهج الرباني باستيقاظ الضمير بخشية الله ومراقبته قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

• وسنقوم بإذن الله بعرض سمات منهج الإسلام التي واجه بها الجاهلية قديماً وحديثاً، مع عرض كامل لمظاهر هذا المنهج في العرض التفصيلي للسورة بعون الله وتوفيقه.

الرابط الثالث: خط الاستقامة على المنهج وعدم الفتنة عنه ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

— إن المسلم لا يصح إسلامه إلا بالتلقي من منهج الإسلام، وهذا هو شرط الإسلام وحد الإيمان قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. .. فهذا الخط الرابط في سورة النساء يبرز بوضوح في الكثير من مواضع السورة من أولها إلى آخرها، ليؤكد على أن هذا المنهج الرباني الذي يحمي المستضعفين وينتصر لحقوق الضعفاء، وقيم المجتمع المسلم على أسس من التكافل والتراحم، وينشر الفضيلة، وقيم القسط ويرد الأمانات، هذا المنهج الذي يظهر المجتمع المسلم من كل أدناس الجاهلية ورواسبها.

هذا المنهج الذي تحتاج إليه النفس البشرية لأنه المنهج الوحيد الذي يلاءم فطرتها ويلبي احتياجاتها..

هذا المنهج الرباني نزل ليقام، وشريعته واجبة التنفيذ وأحكامه واجبة الاتباع، فلم ينزل هذا المنهج الرباني من السماء ليكتب في الأوراق، وينحى عن الواقع!!

قال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥] وهنا يقرر الله سبحانه وتعالى بنفسه الكريمة حين يقسم بذاته أن شرط الإيمان وحد الإسلام: هو التلقي من هذا المنهج الرباني، ولا تلقي من آية مناهج وضعية من صنع البشر.

- ومنهج الإسلام صنعه العليم الحكيم قال تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، إن الله هو الذي يوصي، وهو الذي يفرض ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١] ومن عنده وحده سبحانه وتعالى تترد التنظيمات والشرائع والقوانين.

- ومنهج الإسلام جاء به النبي (ﷺ) لا ليعظ بالمنهج ويمضي، ولكن الله أرسله ليطاع بإذنه، ويُتبع في تحقيق منهجه الذي أراده الله لتصريف هذه الحياة، فتكون طاعته (ﷺ) طاعة لله، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

- ومنهج الإسلام نزل للتحاكم إلى نظامه وإلا فالبدل هو التحاكم إلى الطاغوت وهو أي منهج آخر غير منهج الله، والجاهلية ليست حقبة زمنية محددة، وليست هي الفترة البدائية للعرب قبل مجيء الإسلام كما أسلفناه وأي حكم آخر غير حكم الله، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

- ومنهج الإسلام أوجب ليقام في حياة الناس، وكي يتحاكمون إليه طريقًا واحدًا لحمايته وإقامته وهو: التصدي للطاغوت الذي يصرف الناس عن منهج الله، وإزالة عقبته حتى تتمتع البشرية بخيرات هذا المنهج الرباني وبعده المطلق بين الناس، قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

• إذاً أركان التلقي من هذا المنهج الرباني أربعة وهي:

١. الاستسلام لصانعه العليم الحكيم.
٢. اتباع الرسول (ﷺ) الذي جاء به وطاعته.
٣. التحاكم إلى الكتاب الذي حمل ملامحه وقواعده.
٤. حمايته وإزالة العوائق التي تعوق إقامته.

إذن لابد من الحذر من المحاولات الخبيثة لإضلال أصحاب الحق وإغوائهم عن هذا المنهج الرباني وذلك بتزيين لهم مناهج أخرى وضعية من صنع أعداء هذا الدين.. الكارهين لمنهج الإسلام والمخربين لإقامته.. لا لشيء إلا لأن منهج الإسلام حارب شهواتهم، وواجه ظلمهم ودافع عن المظلومين المقهورين وانتصف لهم من المستبدين الفاسدين ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، وهذا دأب أعداء الدين في كل جاهلية قديمة وحديثة هو فتنة المؤمنين عن سبيل منهج الإسلام الصافي النقي ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

- ولا يوجد أمام الفئة المؤمنة المنوط بها إقامة منهج الإسلام في دنيا الناس إلا الاستقامة على هذا المنهج الرباني الخالص، والتلقي منه وحده، وتحقيق أركان هذا التلقي الأربعة: (استسلام - اتباع - تحاكم - حماية).
- وهذا الخط الثالث يمثل المحور الرئيسي لسورة النساء، والوحدة الموضوعية لها: "الاستقامة على منهج الإسلام والتلقي منه وعدم الفتنة عنه".
- أما الهدف العام لسورة النساء هو والله أعلم: "تطهير منهج الإسلام لرواسب الجاهلية لإقامة المجتمع المسلم".

لفتة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن

- بقي لنا قبل أن نبدأ في العرض التفصيلي لسورة النساء بعون الله وتوفيقه، أن نقف مع إشارتين: (الإشارة الأولى): العلاقة بين خاتمة التشريعات في سورة البقرة وبين بداية سورة النساء.

الإشارة الثانية): الرابط بين ما جاء في ختام سورة آل عمران وبين سورة النساء.

الإشارة الأولى (وظيفة المنهج)

- اختتمت التشريعات في سورة (البقرة) بتشريعي (الدين والرهن) وهما تشريعين لحفظ الحقوق المالية بين العباد، وأوصت الآيات فيها بإقامة العدل في أكثر من مرة ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾، ﴿ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾
- وابتدأت سورة (النساء) بالحث على أداء الحقوق المالية بين العباد ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾، ﴿وَأَتُوا النَّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كما أوصت الآيات بإقامة العدل في أداء هذه الحقوق المالية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا...﴾
- فالإشارة في ذلك والله أعلم هي:

- أن سورة البقرة والتي جاءت بالتكليف بالخلافة على منهج الله، وسورة النساء والتي جاءت بعرض ملامح هذا المنهج، أكدت خاتمة (البقرة) وبداية (النساء) أن: منهج الإسلام جاء لينشئ مجتمعًا صالحًا يصون الحقوق، وجاء ليقوم حكمًا يرتكز على تحقيق العدل كأهم ركائز الخلافة على منهج الله، فالعدل هو أساس منهج الإسلام.
- وعلى المؤمنين الذين تم اصطفاؤهم وتأهيلهم في سورة (آل عمران) حماية هذا المنهج الرباني، والمصابرة حتى يحققوا وظائفه: إنشاء مجتمعًا صالحًا وإقامة حكمًا عادلًا.

الإشارة الثانية (وظيفة النساء)

- جاء في ختام سورة (آل عمران) قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. نزلت هذه الآية في أم سلمة ؓ، وكانت أول مهاجرة من (النساء) إلى المدينة، فذهبت ذات مرة لرسول الله (ﷺ) تقول له: يا رسول الله: لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟^(١)

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٠٠) وقال: صحيح على شرط البخاري.

وفي رواية قالت: يا رسول الله، لا نقاتل فنستشهد، ولا نقطع الميراث^(١)..

فأنزل الله قوله تعالى ﴿أَيُّ لَّا أُضْيَعُ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

• إن هذه الآية الكريمة والتي جاءت في ختام سورة آل عمران تمهيداً لسورة النساء، ومع بيان أسباب نزولها هذه، نجد الإشارة في ذلك والله أعلم هي:

- حرص النساء على نيل أجر الرجال في هجرتهم، وجهادهم.
- مساواة الإسلام بين الرجال والنساء في الأجر والثواب، على حسب إحسان كل إنسان فيما وكل إليه والوظيفة التي طلب لها، فالجهاد لم يكتب على المرأة، ولكن الإسلام صانها وأكرمها وأقر لها حقوقها كي تتفرغ وتؤدي دوراً ووظيفة في غاية الأهمية وهي: ولادة الرجال الذين يجاهدون، وتنشئتهم وتربيتهم ليجاهدوا في سبيل الله..
- وهذا التوزيع في الوظائف بمراعاة التنوع في خصائص الجنين من، الذكورة والأنوثة أدى لتنوع التكاليف بينهما، وعلى كل منهما ألا ينظر إلى وظيفة الآخر فيتحسر على تفاوت التكاليف بل يسأل الله عز وجل مباشرة من فضله، وهو سبحانه معطي كل عبد على قدر إحسانه في مهمته وليس على حسب جنسه، لذلك جاء قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا كَتَبْنَا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا كَتَبْنَا وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

وهذه الآية الثانية نزلت أيضاً في أم سلمة رضي الله عنها، كما روى الإمام أحمد، والحاكم وابن أبي حاتم وابن جرير عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، تغزو الرجال ولا تغزو، ولنا نصف الميراث؟
فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾^(١).

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في المستدرک من حديث الثوري عن أبي نجيح عن مجاهد

تم بحمد الله وتوفيقه عرض مقدمة سورة (النساء)

العرض التفصيلي لسورة النساء

- يتناول العرض التفصيلي لسورة النساء أربعة مقاطع رئيسية وهي:
 - المقطع الأول: تطهير منهج الإسلام لرواسب الجاهلية وتقاليدها (من الآية ١ : ٤٣).
 - المقطع الثاني: شرط الإسلام في التلقي من منهجه ومحاولات الجاهلية للإضلال عنه (من الآية ٤٤ : ٧٠).
 - المقطع الثالث: حماية المنهج والدفاع عنه (من الآية ٧١ : ١٠٤).
 - المقطع الرابع: الاستقامة على منهج الإسلام والتحذير من الانحراف عنه (من الآية ١٧٦ : ١٠٥).
- وسنقوم بإذن الله بعرض مقاصد القرآن الأربعة كالتالي:
 - مقصد معرفة الله عز وجل: تعرف على ربك (الرحيم).
 - مقصد الإعداد لليوم الآخر: الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة.
 - مقصد تركية النفس: الحاجة إلى تطهير النفس من أمراضها.
 - مقصد مهمة الأمة: عرض (بصائر) عن سُنَّة الله في التأيد والخذلان.

المقطع الأول: تطهير منهج الإسلام لرواسب الجاهلية وتقاليدها (من الآية ١ : ٤٣)

- ويتناول هذا المقطع العناصر التالية:
 - أولاً: أهم سمات منهج الإسلام ومزاياه.
 - ثانياً: معنى الجاهلية والمقصود بالمجتمع الجاهلي.
 - ثالثاً: قاعدة إنشاء المجتمع المسلم الصحيح.
 - رابعاً: مظاهر تطهير منهج الإسلام لتقاليد الجاهلية وأوضاعها.

خامساً: لا بد للشرعية من سلطة تقييمها وتحميها.

- مع عرض مقصد معرفة الله: تعرف على ربك (الرحيم).
- وعرض مقصد تزكية النفس: الحاجة إلى تطهير النفس من أمراضها.

أولاً: أهم سمات منهج الإسلام ومزاياه

— عرضت سورة النساء لعدة سمات يتميز بها منهج الإسلام، يمكن استخلاصها بمشيئة الله من خلال التوجيهات والتشريعات التي حملتها آيات السورة، ومن أهم هذه السمات والمزايا ما يلي:

١. صانع المنهج هو صانع الإنسان وخالقه.
 ٢. منهج يراعي فطرة الناس وواقعهم.
 ٣. منهج يأخذ بأيدي الناس من السفح المنحدر إلى المرتقى النظيف الطاهر.
 ٤. منهج ثابت في أصوله ومقوماته.
 ٥. منهج جاء ليظهر رواسب الجاهلية وإزالة قواعدها لا لترقيتها من الداخل.
 ٦. منهج يقوي الوازع الداخلي كحارس وضمان لأداء تكاليفه.
 ٧. منهج يشدد في العقوبة ويفتح باب التوبة.
- ونبدأ بعون الله وتوفيقه في استعراض هذه السمات والمزايا:

١. صانع المنهج هو صانع الإنسان وخالقه

- قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

— من أول آية من آيات السورة وتنجلي الحقيقة الكبرى إن إرادة الله في الخلق والإيجاد هي التي أوجدت الناس في هذه الحياة، ورسمت لهم الطريق، وحددت لهم المنهج، وشرعت لهم النظام بداية من الإحياء الذي جاء في أول السورة حتى الإمامة التي جاء في آخر السورة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكُلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. والكلالة: المتوفى ليس له ولد ولا والد، وهكذا

اتسع منهج الله للناس كلهم على هذه الأرض، كما اشتمل هذا المنهج على جميع أطوار الإنسان في حياته وصولاً لأحكام وتشريعات للإنسان بعد وفاته، ويتضح لنا أن الذي وضع المنهج للناس في كافة شؤونهم هو الذي خلق كل شيء وحده، ويملك كل شيء وحده، وهو سبحانه وتعالى الذي يعلم عنهم كل شيء وحده.

- إن صانع هذا المنهج هو صانع الإنسان نفسه وخالقه، الذي يعلم حقيقة فطرته، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، ويعلم مصلحته، يقول تعالى في الآية الأولى لتحديد أنصبة الميراث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وفي ختامها يقول تعالى ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

جهة إصدار التشريعات والتي لها الحق الوحيد في التشريع

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن بداية هذه الآية ونهايتها:

"إن الله هو الذي يوصي، وهو الذي يفرض، وهو الذي يقسم الميراث بين الناس، كما أنه هو الذي يوصي ويفرض في كل شيء، ومن عند الله ترد التنظيمات والشرائع والقوانين، وعن الله يتلقى الناس في أخص شؤون حياتهم - وهو توزيع أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم - ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ الله هو الذي يفرض وهو الذي يشرع. وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم، ولا أن يحكموا أهواءهم، كما أنهم لا يعرفون بحق مصلحتهم، ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ والله سبحانه وتعالى هو أبر بالناس وأنفع لهم مما يقسمونه هم لأنفسهم ويختارونه لذرياتهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لتشعر القلوب وتطمئن أن الذي شرع هذه الأحكام إنما شرعها عن علم وحكمة فالله يحكم لأنه عليم - وهم لا يعلمون - والله يفرض لأنه حكيم - وهم يتبعون الهوى".

• لذلك فمن اعترف لبشر بحق التشريع من دون الله فحرموا عليهم وأحلوا لهم فاتبعوهم في هذا فقد منحوهم خاصية من خصائص الألوهية فحق عليهم وصف الشرك لأنهم خالفوا ما أمروا

به من التوحيد ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فيقيموا له وحده الشعائر، ويتلقوا منه وحده الشرائع والأوامر^(١).

٢. منهج يراعي فطرة الناس وواقعهم

- من أهم سمات المنهج الإلهي ومزاياه مراعاته لفطرة الناس وواقعهم، لأن الذي وضع هذا المنهج هو العليم بفطرتهم هذه، وبما يصلح لها وما يصلحها.. وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

- إن مراعاة واقع الفطرة بُعد لا تدركه التشريعات والمناهج البشرية لأن الملاحظة البشرية لا تنتبه لحاجات الفطرة، ولا تنظر من جميع الزوايا لواقع حياة الناس الذي تعامل معه التشريع الإلهي، والذي لا يصطدم معه بل يقوم بتوجيهه برفق ويسر إلى تحقيق مراد الله لهم من الصلاح والنقاء والخير والهداية والرشاد.

- ومن أمثلة مراعاة منهج الإسلام لفطرة الناس وواقعهم والتي وردت في سورة النساء مسألة إباحة الشرع لتعدد الزوجات والترخيص لها مع تقييدها بقيد تحقيق العدل، قال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣] فواقع النساء يبيننا بعدة حقائق وهي:

(١) عدد النساء التي تصلح للزواج تتفوق على عدد الرجال الصالحين للزواج في المجتمعات بنسبة تدور في حدود أربع إلى واحد.

(٢) فترة الإخصاب في الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها، بينما هي تقف في المرأة عند سن الخمسين. فهناك في المتوسط عشرون سنة من سنين الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة، ويرتبط بهذا الواقع: وجود عوائق لأداء الزوج للوظيفة الفطرية مثل عقم المرأة أو مرضها إضافة إلى فارق سنين بسبب فترة الإخصاب مع رغبة الزوجين في عدم الانفصال مع كل هذه الأسباب.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة النساء، ٥٩٠، ٥٩٣

- وهذه الحقائق الواقعية أرادها الله عز وجل حتى يأتي تشريعه يقدم علاجًا ضابطًا لها، وبذلك يختبر الناس بالانقياد لأوامره وشرعه، فتحدث لهم المصلحة إذا استسلموا لشرع الله عز وجل ومنهجه، وتختل القيم وتشيع الفواحش إذا خالفوا شرع الله عز وجل ومنهجه.

- فنجد من الاحتمالات الواقعية التي تحدث في المجتمعات لعلاج مشكلة زيادة عدد النساء عن الرجال:

- ١- أن يتزوج كل رجل امرأة تصلح للزواج.. ثم تبقى واحدة أو أكثر- حسب درجة الاختلال الواقعة- بدون زواج، تقضي حياتها- أو حياتهن- لا تعرف الرجال!
 - ٢- أن يتزوج كل رجل امرأة واحدة زواجًا شرعيًا نظيفًا. ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر من هؤلاء اللواتي ليس هن مقابل في المجتمع من الرجال.
 - ٣- أن يتزوج الرجال كلهم أو بعضهم أكثر من واحدة زواجًا شريفًا في وضوح النور لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام.
- أولى هذه الاحتمالات تجده يصطدم مع فطرة المرأة واحتياجاتها للحياة الطبيعية من السكن والأنس بالعشير، وما يتسبب في انتشار العنوسة. (وبالمناسبة وصلت العنوسة في مصر عام ٢٠١٧م وفق أرقام الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء إلى (١٠.٥) مليون فتاة فوق سن الـ ٣٥ عام لم تتزوج).
 - والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف، حيث تشيع به الفاحشة في المجتمع، كما أنه ضد كرامة المرأة الإنسانية.
 - أما الاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام. لمواجهة الواقع الذي لا يجدي معه الإنكار. يختاره متمشيًا مع واقعيته الإيجابية، في مواجهة الإنسان بفطرته وظروف حياته، مع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر.. وهكذا جاء منهج الإسلام يلي واقع فطري حقيقي برخصة مقيدة لا على سبيل الإلزام الفردي، ولكن على سبيل إيجاد مجال عام يلي هذا الواقع الفطري^(١).

- أما واقع تفاوت فترة الإخصاب بين الرجل والمرأة، فنجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

- (١) أن يكبت الرجل عن مزاولة نشاطه الفطري بقوة التشريع وقوة السلطان!
- (٢) أن يطلق هذا الرجل بخادن ويسافح من يشاء من النساء!
- (٣) أن يباح لهذا الرجل التعدد- وفق ضرورات الحال- مع الحفاظ على الزوجة الأولى من انفصالها عن زوجها.

- فالاحتمال الأول ضد الفطرة وفوق طاقة الرجل واحتماله العصي والنفسي.
- والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام الأخلاقي، وضد منهجه في ترقية الحياة البشرية وتطهيرها وتركيتها.
- والاحتمال الثالث هو وحده الذي يلي ضرورات الفطرة الواقعية، ويلي منهج الإسلام الأخلاقي، ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية، ويحميها من الظلم، وكرامتها من الامتهان، ويحمي المجتمع من الانحلال، ويحمي الأسرة من الاختلال مع ضمان العدل كشرط وقيود لهذه الرخصة رخصة تعدد الزوجات والتي لم يطلقها الإسلام، ولكن جاء ليحدد ويضبط التعدد بالعدل في: المعاملة والنفقة والمعاشرة وسائر الأوضاع، مع التيقن أنه سيظل هناك ميل قلبي بعاطفة خاصة لزوجتي دون عن غيرها وهذه العاطفة أقرتها الآية التالية في السورة في مسألة التعدد ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩] وعدم العدل المقصود به هنا: الميل القلبي.

وهكذا تعامل منهج الإسلام مع واقعيات الحياة البشرية، وضرورات الفطرة الإنسانية.

٣. منهج يأخذ بأيدي الناس من السفح المنحدر إلى المرتقى النظيف الطاهر

- منهج الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يملك أن يلتقط الكينونة البشرية من السفح المنحدر الهابط والذي تمثله رواسب الجاهلية وتقاليدها وقيمها، فيرتقي بالكينونة البشرية رويداً رويداً، في رفق ويسر، وفي ثبات وصبر وفي خطوات متناسقة موزونة بقدر إلى القمة السامقة

الرفيعة.. القمة التي لم ترتق إليها البشرية قط ولن تصل إليها إلا على حذاء ذلك المنهج الرباني العجيب الفريد.

- ومن أمثلة أخذ منهج الإسلام بأيدي الناس من ركام الجاهلية برفق ويسر، ما عرضته لنا سورة النساء في علاج ظاهرة الخمر حتى الوصول إلى تحريمها كما جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

• يقول الشيخ سيد قطب عن هذه الآية: "إنها حلقة في سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة- التي التقطها المنهج الإسلامي من سفح الجاهلية- وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة، وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع. كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضاً.

الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته! وللمجتمع الفارسي. وكذلك هي اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوروبي والأمريكي في أوج جاهليته.

- في السويد- وهي أرقى أمم الجاهلية الحديثة- كان متوسط ما يستهلكه الفرد، حوالي عشرين لترًا من الخمر، فوضعت الحكومة قيودًا بعد استشعارها خطورة هذا الحال وما ينشره من إدمان، فمنعت شرب الخمر في المحال العامة ثم عادت فخففت هذه القيود وأباحت شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام، وفي بعض المحال حتى منتصف الليل فقط، فلم تستطع بتشريعاتها أن تواجه هذه الظاهرة فتضاعف إدمان الخمر وخاصة عند المراهقين.

- في أمريكا، حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونًا في سنة ١٩١٩، ولكنه ظل قائمًا لمدة أربعة عشر عامًا، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣، بعدما أنفقت في الدعاية ضد الخمر وما تحملته في سبيل تنفيذ القانون في أربعة عشر عامًا ما لا يقل عن ستين مليونًا من الدولارات.

- فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي... ببضع آيات من القرآن. وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية، وفي علاج المجتمع الإنساني.. بين منهج الله، ومنهج الجاهلية قديمًا وحديثًا على السواء!

ولكي ندرك تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع العربي الجاهلي، ننظر إلى رجال هذه الظاهرة من أبطال الإسلام وفيهم عمر بن الخطاب، وعلي، وحمزة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن معاذ رضى الله عنهم أجمعين.

- يقول عمر رضي الله عنه في قصة إسلامه.. في رواية.. "كنت صاحب خمر في الجاهلية. فقلت لو أذهب إلى فلان الخمار فأشرب...."

وظل عمر يشرب الخمر في الإسلام. حتى إذا نزلت آية سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.. قال عمر: اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر.. واستمر.. فنزلت الآية في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً". فنزلت الآية التي في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. قال عمر: انتهينا، انتهينا! وانتهى^(١).

- روى ابن أبي حاتم عن سعد بن معاذ قال: نزلت في أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل حتى بعير (عظم فك البعير) ففرز به أنف سعد، فكان سعد مفروز (مشقوق) الأنف، وذلك قبل بدء تحريم الخمر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾. والحديث بطوله عند مسلم^(٢).

- وهذه الروايات تدل على تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي، وتقاليده حتى ظلت في المجتمع المسلم، فكيف عاجلها المنهج الرباني؟ ماذا صنع منهج الإسلام لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ الظاهرة التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واعي أبداً.

- لقد عاج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن، وعلى مراحل، وفي رفق وتؤدة:

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٧٨)

(٢) رواه مسلم (٢/٢٣٩، ٢٤٠)

• لم يلجأ الإسلام إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان إنما كان أولاً سلطان القرآن.. وبدأ المنهج عمله بآية البقرة رداً على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

• وكانت هذه هي الطريقة الأولى ذات الصوت المسموع في الحس الإسلامي.. فمدار الحل والحرمة والكرهية.. على رجحان الإثم أو رجحان الخير في أمر من الأمور، وهذا هو منطق في الفقه الإسلامي^(١).. وإذا إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما.. فهذا مفرق الطريق..

• ولكن الأمر كان أعمق من هذا.. فأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل.. فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فكانت هذه الآية مرحلة وسيطة، بين التنفير من الخمر، لأن إثمها أكبر من نفعها، وبين التحريم البات، لأنها رجس من عمل الشيطان.. فكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة: هي "قطع عادة الشراب" أو "كسر الإدمان"...

وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة. وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار. وبينها فترات لا تكفي للشراب- الذي يرضي المدمنين- ثم الإفاقة من السكر الغليظ! حتى يعلموا ما يقولون!

وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب.. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة.

• ومع ذلك... فقد قال عمر رضي الله عنه - وهو عمر!! "اللهم بين لنا بياناً شافياً في الخمر".. ثم مضى الزمن. ووقعت الأحداث وجاء الوعد المناسب- وفق ترتيب المنهج- للضربة الحاسمة.

(١) ولكن هذه القاعدة ليست هي الأصل، فمدار التحريم والتحليل ليست على رجحان الإثم أو رجحان الخير فحسب، إنما مداره على ما شرعه الله عز وجل، فما حرمه الله فهو قبيح وإن لم يظهر لنا قبحه عقلاً، وما أحله الله فهو حسن وإن لم يظهر لنا استحسانه عقلاً.

فنزلت الآيتان في المائة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]. وانتهى المسلمون كافة.. وأريقت زقاق الخمر.. بمجرد سماع الأمر.. ومع الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم حين سمعوا ولم يبلعوها وهي في أفواههم.

• لقد انتصر القرآن- وأفلح المنهج وفرض سلطانه- دون أن يستخدم السلطان!!

لقد تمت المعجزة التي لا نظير لها في تاريخ البشر، ولا مثيل لها في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان، ولا في أي زمان!

لقد تمت المعجزة، لأن المنهج الرباني، أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة.. برفق ويسر من السفح الهابط إلى القمة السامقة الرفيعة.. أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته.. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة.

إنه استنقذ الفطرة من ركاب الجاهلية وفتحها بمفتاحها، الذي لا تفتح بغيره.. ينشر النور والحياة والنظافة والطهر.

إنها لم تكن كلمات.. هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة. إنما كان منهج. منهج هذه الكلمات ممتنه وأصله. منهج من صنع رب الناس. لا من صنع الناس! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج^(١).

٤. منهج ثابت في أصوله ومقوماته

- إن منهج الإسلام ثابت في أصوله ومقوماته، لأنه يتعامل مع "الإنسان". وللإنسان كينونة ثابتة، فهو لا يتبدل منها إلى كينونة أخرى. وكل التحورات والتطورات التي تلابس حياته لا تغير من طبيعته، ولا تبدل من كينونته، ولا تحوله خلقاً آخر. إنما هي تغيرات وتطورات سطحية.. ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة، تلك الكينونة البشرية الثابتة ولأنها من صنع المصدر الذي

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة النساء، ٦٦٤، ٦٦٧

- صنع الإنسان كما ذكر فإنها تواجه حياته بظروفها المتغيرة، وأطوارها المتجددة، بنفس المرونة التي يواجه بها الإنسان ظروف الحياة المتغيرة، وأطوارها المتجددة، وهو محافظ على مقوماته الأساسية.. مقومات الإنسان^(١).
- وهذه طبيعة مناسبة المنهج الرباني الثابت لانتقال الإنسان في كل عصر من السفح إلى القمة، دون أن يحتاج أن يبدل أو يغير في أصوله ومقوماته.
- أما التشريعات الوضعية البشرية قابلة للنقض والتغير والتبديل، تُحرم اليوم ما أحلته بالأمس، وتُحرم في غدٍ ما أحلته اليوم لأنها من صنع بشر تتبدل أهوائهم وتغير، كما أنهم في كل مرة يكتشفون جهلهم وقصر نظرهم... أما منهج الإسلام فهو ثابت أبداً لا يمكن أن يطرأ عليه التبديل لأنه صادر عن علام الغيوب.
- قال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية: "فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنه للمؤمنين جميعاً. وهو منهج ثابت في أصوله، موحد في مبادئه.. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد. ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.. وبذلك يكشف القرآن عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان"^(٢).
٥. منهج جاء ليظهر رواسب الجاهلية وإزالة قواعدها لا لترقيتها من الداخل
- جاء منهج الإسلام لينسخ معالم الجاهلية في النفوس والمجتمعات، ويثبت معالم الإسلام، ويمحو سمات الجاهلية، ويثبت ملامح الإسلام. وذلك ليصوغ المجتمع الجديد ومشاعره وتقاليده، وشرائعه وقوانينه.
- جاء منهج الإسلام ليبطل الجاهلية بطلائاً أصلياً، جاء ليعلن بطلانها بكل تصوراتها وقيمتها وموازينها وعرفها وتقاليدها وشرائعها وقوانينها، فلم يأتي هذا المنهج الرباني ليتعامل من خلال أوضاع الجاهلية القائمة ويكمل عليها بل نسخها وأبطلها واعتبرها غير قائمة، لأنها من جهة لا تملك إصدار أحكاماً وقوانين ابتداءً..

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة النساء، ٦٣١

(٢) نفس المصدر السابق

- قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

إن هذه المحرمات كانت محرمة في عرف الجاهلية فيما عدا حالتين اثنتين وهما: ما نكح الآباء من النساء، والجمع بين الأخنتين. فقد كانتا جائزتين على كراهة من المجتمع الجاهلي.

يقول الشيخ سيد قطب عن هذه الآية: "إن الإسلام وهو يحرم هذه المحارم كلها لم يستند إلى عرف الجاهلية في تحريمها. إنما حرمها ابتداءً، مستنداً إلى سلطانه الخاص. إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده، لأنهما أخص خصائص الألوهية، ومن ثم فإن الجاهلية تحرم أو تحلل فيصدر هذا التحريم والتحليل عنها باطلاً بطلاناً أصلياً، غير قابل للتصحيح، لأنه لا وجود له منذ الابتداء..."

هذه نظرية منهج الإسلام في الحل والحرمة تشمل كل شيء في الحياة الإنسانية، ولا يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة^(١).

● وسنقوم بتفصيل قضية التحريم والتحليل في عرض سورة (المائدة) بإذن الله.

- إذن الإسلام لم يأتي ليكيف أوضاعه من خلال الجاهلية وتقاليدها ونظمها، بل جاء يزيل قواعدها ابتداءً ليقيم أسسه وقواعده الخالصة، ومن ثم فأية محاولات تقر للجاهلية بتقاليدها أو تعترف بأوضاعها أو تستقي من نظمها، ثم تدعي هذه المحاولات إنشاء أسساً إسلاميةً جديدةً.. هي محاولات فاشلة لأنها لم تخطو الخطوات الصحيحة التي تراعي فيها سمات المنهج الرباني وطبيعته.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة النساء، ص ٦١١

- إن كل التشريعات والأحكام والتوجيهات التي جاءت في سورة النساء مثل: إقرار الصداق للمرأة، عدم وراثتها كرهاً، فرض نصيب لها في الميراث، الرخصة المقيدة بتعدد الزوجات، عزل الفاحشات، الزواج من الحرائر، والسماح للزواج من الإماء، تحديد المحارم، وتحريم الزواج من امرأة الأب، النهي عن أكل الأموال بالباطل... كل هذه التشريعات جاءت تبطل الأوضاع والتقاليد التي كانت في الجاهلية قبلها.. ناسخة لها، مطهرة لرواسبها لتنشئ ملامح جديدة للمجتمع المسلم الجديد... حتى تشريع تحريم الخمر الذي جاء تدريجياً، لم يعني ذلك قبول الإسلام له أو إقراره بها، ولكن قام منهج الإسلام بإبطاله بطريقته الخاصة والتي راعت تغلغله في النفوس والحياة الجاهلية.

٦. منهج يقوي الوازع الداخلي كحارس وضمن لأداء تكاليفه

- إن منهج الإسلام تميز بإيقاظ الضمير الداخلي، وإحياء رقابة من التقوى في القلوب وذلك، لأن هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات ما لم يكن هناك رقابة من التقوى لتنفيذ التكاليف والالتزام بالتشريعات..

وهذه التقوى تكون صادرة من قلب يخشى الله عز وجل، ويعلم صاحبه أن الله عز وجل مطلع على خفايا السرائر وخبايا القلوب.

- إن الله عز وجل أعلم بعباده وهو سبحانه يعلم أنه لا يطاع أبداً شرع لا يرتكن إلى هذه الجهة التي تخشاها وترجوها القلوب، وتقوى الله هي التي تكفل الرقابة الداخلية على الضمائر فتصبح للتشريع قيمته وأثره.

- وعندما يحس الفرد.. وهو يهم بانتهاك حرمة القانون أنه يخون الله، ويعصي أمره، ويصادم إرادته، وأن الله مطلع على نيته هذه وعلى فعله.. وعندئذ تنزل أقدامه، وترتجف مفاصله، وتجيئ تقواه..

- ومن أمثلة تقوية المنهج الرباني للضمير كحارس والتقوى كضمن ورقيب، والتي جاءت في سورة النساء، قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية: "وهي صورة مفزعة رسمتها الآية: صورة النار في البطون.. وصورة السعير في نهاية المطاف.. إن هذا المال.. نار.. وإن الذين يأكلون أموال اليتامى ليأكلون هذه النار. وإن مصيرهم لإلى النار فهي النار تشوي البطون وتشوي الجلود.. هي النار من باطن وظاهر.

ولقد فعلت هذه النصوص القرآنية، بإجاءاتها العنيفة العميقة فعلها في نفوس المسلمين. خلصتها من روايب الجاهلية. هزتها هزة عنيفة ألفت عنها هذه الرواسب. وأشاعت فيها الخوف والتحرج والتقوى والحذر من المساس - أي مساس - بأموال اليتامى.. كانوا يرون فيها النار التي حدثهم الله عنها في هذه النصوص القوية العميقة الإيحاء.. وانظر إلى التطبيق: فعن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفصل الشيء، فيحبس له، حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم..

وكذلك رفع المنهج القرآني هذه الضمائر، إلى ذلك الأفق الوضئ، وطهرها من غيبس الجاهلية ذلك التطهير العجيب^(١).

٧. منهج يشدد في العقوبة ويفتح باب التوبة

- هذا المنهج الرباني يتسم بميزة فريدة لا يملكها منهج آخر في القديم والحديث وهي أنه يشتد في العقوبة ويغلظ فيها تناسباً مع الجريمة، ولكنه في ذات الوقت يفتح الباب على مصراعيه للتوبة الصادقة ليس تسامحاً في الجريمة، وليس رحمة بالمجرمين.. ولكن سماحة ورحمة بالتائبين النادمين المتطهرين المصلحين، الذين يريدون العودة إلى المجتمع المسلم، واستئناف حياة طيبة نظيفة كريمة مع نسيان المجتمع لجريمتهم بعد توبتهم الصادقة فلا يعيرهم بها حتى لا تشير في نفوسهم التأذي

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، تفسير سورة النساء، ص ٥٨٩

كلما خالطوا الناس لممارسة الحياة الطبيعية فبذلك يحميهم منهج الإسلام من الانتكاس واللجاج في الخطيئة وخسارة أنفسهم في الدنيا والآخرة، والإفساد في الأرض، وتلويث المجتمع. - ومن أمثلة هذه السمة والتي جاءت في سورة النساء قوله تعالى ﴿وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥-١٧].

- حكمت الآية حكمًا ابتدائيًا في حق من ترتكب جريمة الزنا وثبت عليها ارتكابها بعزلها عن المجتمع، لا تختلط به ولا تلوثه ولا تتزوج ولا تراول أي نشاط حتى الموت تطهيرًا للمجتمع من الفاحشة، وتشددًا في مكافحتها بكل وسيلة.. وذلك قبل أن يعجل الله لهن سبيلًا بصدور الأحكام النهائية الباتة في سورة النور بالجلد مائة والتغريب عام للبكر وبالجلد مائة والرجم بالحجارة للثيب..
- كما حكمت الآية على الرجلين اللذين يأتيان الفاحشة الشاذة حكمًا ابتدائيًا بإيذائهما بالتعير والضرب بالنعال، حتى عدلت العقوبة وغلظت لفظاعة الجرم وقباحته- بالقتل كما في حديث رسول الله (ﷺ): «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».
- وهكذا يعتني المنهج الإسلامي بتحديد العقوبة لتطهير المجتمع المسلم وحمائته من الفاحشة، ولكنه في ذات الوقت لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخطائات، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين، بل يشجعهم ويفسح لهم الطريق على مصارعيه بأن يجعل الله قبول توبتهم- متى أخلصوا فيها وأبدوا صدقهم في التطهر والنشأة نشأة أخرى- حقًا عليه سبحانه وتعالى يكتبه على نفسه الكريمة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾، وسنتعرض بإذن الله لسعة رحمة الله عز وجل في توبته على عباده المذنبين مع عرضنا لاسم الله (الرحيم) في مقصد معرفة الله.

- وأما هذا المنهج الإسلامي الفريد في ميزاته، العجيب في سماته هو جدير بأن يلتزمه الناس ليسعدوا في الدارين ويهنئوا، وإنه لحري بالفئة المؤمنة أن تستفرغ كل طاقتها ووسعها مجاهدةً في سبيل إقراره في الأرض، وإقامته في دنيا الناس، ولن يتم ذلك حتى تزيح الجاهلية وتزيل تقاليدها وأوضاعها ونظمها لتنشئ هذه الفئة المؤمنة المنهج الرباني بسماته وميزاته وتثبت ملامحه وترسي قواعده في المجتمع المسلم الجديد.

ثانياً: معنى الجاهلية والمقصود بالمجتمع الجاهلي

- ولكن ما المفهوم الحقيقي للجاهلية المطلوب إزاحتها وإزالتها أولاً لإقرار منهج الإسلام؟ هل هي تلك الحقبة التاريخية التي سبقت مجيء النبي (ﷺ)؟ وما هو المقصود بالمجتمع الجاهلي؟ هل هو ذلك المجتمع العربي البدوي الذي سبق مجيء الإسلام؟
- في البداية نؤكد حقيقة الأسماء أنها ثلاثة أنواع: شرعية ولغوية وعرفية، فهناك نوع من الأسماء حده الشرع وعرفه كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر، ونوعه يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] ^(١)، الجاهلية في لسان العرب: من مادة الفعل (جهل)، و"الجهل" هو: نقيض العلم وخلافه.
- وقد جاءت كلمة (الجاهلية) في القرآن الكريم في أربعة مواضع وهي:
 ١. قوله تعالى ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقول ابن عثيمين في تفسيره: "يظنون بالله سبحانه وتعالى ظناً غير الحق مثل قولهم: هل لنا من الأمر من شيء؟ وظنهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قُتل حقيقة، وأنه لا نصر للإسلام

بعده، وأن الدولة ستكون للكافرين وغيرها من الظنون الفاسدة المبنية على الجهل عن الله لأن من عرف الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأحكامه لا يمكن أبدًا أن يظن به هذا الظن^(١).

٢. قوله تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

يقول ابن كثير في تفسيره: "ينكر تعالى على من خرج من حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات"^(٢).

٣. قوله تعالى ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

- يقول ابن كثير في تفسيره: "الزمن في بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية، وقال قتادة: إذا خرجت من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر فهى الله عن ذلك"^(٣).

٤. قال تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، الحمية هي: الأنفة والنعرة، يقول ابن عثيمين في تفسيره: "حيث أنف المشركون من كتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" وأنفوا من دخول رسول الله (ﷺ) والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لئلا يقول الناس: "دخلوا مكة قاهرين لقريش" وهذه الأمور (الأنفة والنعرة ونحوها) من أمور الجاهلية، لم تنزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت كثير من المعاصي"^(٤).. بينما المؤمنون فقد حماهم الله من هذه الحمية وأحل محلها السكينة والتقوى.

• وهذه المواضع الأربع التي وردت فيها كلمة الجاهلية في القرآن، أفرزت لنا أربعة أوصاف وهي:

(١) ظن الجاهلية: وهو التصورات الفاسدة المبنية على الجهل عن الله ودينه.

(٢) حكم الجاهلية: وهو الآراء والأهواء التي يضعها البشر بلا سند من شريعة الله.

(١) التفسير الثمين، ابن عثيمين، تفسير سورة آل عمران، ٢ / ١٩٤

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٦١٢

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ٣ / ٤٢

(٤) التفسير الثمين، ابن عثيمين، المجلد العاشر، ١١٩

- ٣) تبرج الجاهلية: وهو التقاليد والأوضاع التي تتعارض مع شرع الله ومنهجه.
- ٤) حمية الجاهلية: وهي القيم التي تنبثق من هوى النفس ولا تنبثق من العقيدة أو الدين.
- وهذه الأوصاف الأربع تفرز هذا المفهوم المشترك لكلمة "الجاهلية" وهو: "التصورات والآراء والتقاليد والأوضاع والقيم المنبثقة من الهوى مخالفة لشرع الله".
 - ومن هنا نؤكد أننا أمام مصدرين لا ثالث لهما، تنبثق منهما نظم الحياة وتصورتها وقوانينها وتقاليدها وقيمها: إما شرع الله وإما الهوى.
- ومن أدلة ذلك آيات كثيرة ومتواترة في القرآن منها:
- قوله تعالى ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].
- قوله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].
- قوله تعالى ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].
- قوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].
- وهذا تأكيد صريح جازم من القرآن الكريم لا مجال بعده لأية جدال أو التباس...
 - ← أنه إذا كان مصدر نظم حياة الناس وقوانينها وتقاليدها وقيمها هو شرع الله فهي إذن "العبودية لله وحده" وذاك هو "المنهج الإسلام".
 - ← وأنه إذا كان مصدر نظم حياة الناس وقوانينها وتقاليدها وقيمها هو هوى البشر فهي إذن "عبودية الناس للناس" وذلك هو "المنهج الجاهلية".
- ومن أول لحظات هبوط البشرية إلى الأرض، وهي أمام الخيارين: إما اتباع هدى الله أو اتباع هوى البشر، قال تعالى ﴿فَلَنَّا هِيطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٣٨-٣٩﴾.

لذلك فالجاهلية ليست الحقبة التاريخية التي سبقت مجيء النبي (ﷺ)، بل الجاهلية منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة هي عبارة عن: "كل إعراض عن هدى الله ومنهجه، واتباع لنظم وتقاليد ومناهج أخرى من صنع البشر".

- وقد عرف الشيخ سيد قطب رحمه الله الجاهلية تعريفاً شاملاً فقال: "هي الانحراف عن العبودية لله وحده وعن المنهج الإلهي في الحياة، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي"^(١).

- أما عن المقصود بالمجتمع الجاهلي فيقول الشيخ سيد: "المجتمع الجاهلي هو: كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده، متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التبعدية، وفي الشرائع القانونية".

ويدخل في إطار "المجتمع الجاهلي":

١. المجتمعات الشيوعية: وهي ما تزال قائمة في روسيا والصين وفنزويلا وكوبا، وتدخل فيه أولاً: بإلحادها في الله سبحانه وتعالى وإنكار وجوده أصلاً، وإقامة نظام العبودية فيه للحزب لا لله سبحانه، ثم ما يترتب على ذلك التصور من إهدار لخصائص الإنسان وذلك باعتبار أن المطالب الأساسية له هي فقط مطالب الحيوان من: الطعام والشراب والمسكن والملبس والجنس مع حرمانه من حاجات روحه التي يتميز بها عن الحيوان، وفي أولها: العقيدة في الله، وحرية اختيارها، وحرية التعبير عنها.

٢. المجتمعات الوثنية: وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية، وتدخل فيه أولاً: بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله - معه أو من دونه - وتدخل فيه ثانياً: بتقديم الشعائر التبعدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بالوهيتها.

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص ١٤٩

٣. المجتمعات اليهودية والنصرانية: وهي ما تزال قائمة في أمريكا وأوروبا، وتدخل فيه أولاً: بتصورها الاعتقادي المنحرف، الذي لا يفرد الله سبحانه وتعالى بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك سواء بالبنوة أو بالتثليث أو يتصور الله سبحانه على غير حقيقته، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وتدخل فيه ثانياً: بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الصّالة ثم تدخل فيه ثالثاً: بأنظمتها وشرائعها وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده، بالإقرار له وحده بحق الحاكمية واستمداد السلطان من شرعه.. وقد وصفهم الله بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان، يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه، قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].. وهم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحبار والرهبان.. ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية، إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم بما لم يأذن به الله، حيث حرموا لهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام...

٤. المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها "مسلمة": وهي ما تزال قائمة في بلدان الوطن العربي وغيرها في آسيا وأفريقية.. وتدخل فيه ليس لأنها تعتقد بالألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله، ولكنها تدخل فيه لأنه لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، وذلك بتلقيها نظامها، وشرائعها وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها.. وكل مقومات حياتها تقريباً من غير منهج الله عز وجل، فتدين بذلك بحاكمية غير الله وإن لم تعتقد بالألوهية أحد إلا الله، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا

بَعِيدًا ﴿[النساء: ٦٠]. وقال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

- وقد وصف الله عز وجل كلاً من اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر مجرد أنهم جعلوا الأحرار والرهبان أرباباً لهم من دونه، واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى بن مريم رباً يؤطونه ويعبدونه سواء بسواء.. فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده، فهي خروج من دين الله، ومن شهادة أن لا إله إلا الله.
- وهذه المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها "مسلمة" بعضها يعلن صراحة "علمانيته" وعدم علاقته بالدين أصلاً، وبعضها يعلن أنه "يحترم الدين" ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً^(١).
- وقفة هامة: جاهلية المجتمع لا تعني تكفير أفراده
- نتحدث هنا عن الصنف الرابع في المجتمعات الجاهلية وهي المجتمعات التي تزعم أنها "مسلمة" ولكنها تتحاكم إلى غير الله عز وجل فهي مجتمعات جاهلية في وصفها العام، ولكن جاهليتها لا تنقض الإسلام عن أفرادها، إنما المراد بجاهلية هذه المجتمعات: جاهلية التشريع.. جاهلية التقاليد.. جاهلية النظم.. جاهلية الأخلاق.. جاهلية الآداب حتى يزيل منهج الإسلام هذه الأوضاع كاملةً، ثم ينشأ هذه المجتمعات نشأة أخرى على قاعدة العبودية لله في الاعتقاد والتصور، في العبادات والشعائر، في النظام والشرائع.
- إذن الذي يزيل عن هذه المجتمعات وصف الجاهلية، هو إقامة منهج الله في كافة شؤون حياتها، والتحاكم إلى شرعه سبحانه وتعالى وهذا قولاً حاسماً وجازماً.
- أما أفراد هذه المجتمعات فيجب الحذر من التساهل في قضية التكفير، خصوصاً تكفير المعين لأن علماء السلف وضعوا شروطاً وموانع كثيرة قد تنتفي في حق المعين، ولا بد من معرفة الفرق بين التكفير المطلق وتكفير المعين وما هي موانع تكفير المعين؟

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص (٨٦: ٩٢)

الفرق بين التكفير المطلق والتكفير المعين

- التكفير المطلق: هو تنزيل الحكم بالكفر على السبب المجرد أي الإتيان بقول أو فعل مكفر- فيقال من قال كذا كفر أو من فعل كذا كفر.
- التكفير المعين: هو الحكم بالكفر على الشخص المعين الذي فعل السبب- من قول أو فعل مكفر، وهذا يستلزم النظر في ثبوت هذا السبب على فاعله وخلوه من موانع الأحكام.
- إذن التكفير المطلق هو تجريم الفعل بالنظر إلى السبب المكفر المجرد، من حيث استيفاؤه لشروط ووصفه بأنه مكفر من جهة الدليل الشرعي ومن جهة قطعية دلالة الفعل نفسه.
- أما التكفير المعين فهو تجريم الفاعل من حيث ثبوت الفعل عليه وانتفاء موانع الحكم في حقه.
- يقول الإمام ابن تيمية: "التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع يبين هذا الإمام أحمد وعامة الأئمة أنهم لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه"^(١).
- قال الشيخ محمد عبد الوهاب: "ومسألة تكفير المعين مسألة معروفة إذا قال قولاً يكون القول به كفرةً، فيقال: من قال بهذا القول فهو كافر، ولكن الشخص المعين إذا قال ذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها"^(٢).
- ومن موانع التكفير: التأويل والجهل والخطأ والإكراه، وإذا ثبتت إحدى هذه الموانع على مسلم معين يثبت فعل الكفر عليه، وجب إقامة الحجة البينة كي تنتفي هذه الموانع أولاً قبل تجريم الفاعل المسلم، وللتأكيد نحن هنا لا نتحدث عن الكافر الأصلي، ولا نتحدث عن المجتمعات الجاهلية: الشيوعية والوثنية واليهودية والنصرانية.. إنما نتحدث عن مجتمعات الصنف الرابع وكونها: "مجتمعات جاهلية" لأنها لا تقيم منهج الإسلام، ولا تتحاكم إلى شرع الله أما أفراد هذه المجتمعات فلا نكفر المعين فيها والذي نطق بالشهادتين حتى تقوم عليه الحجة.

(١) مجموع الفتاوى ٢٣ / ٣٢٦

(٢) الدرر السنية ٨ / ٢٤٤

ثالثاً: قاعدة إنشاء المجتمع المسلم الصحيح

• قبل التفكير في إقامة منهج الإسلام كنظام اجتماعي يحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع لا بد من وجود أولاً فئة من الناس تمثل الطليعة المؤمنة، رجال القاعدة الصلبة تقرر عبوديتها الكاملة لله وحده لا تتلقى عن أحد غير الله.. وهذه الطليعة خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله اعتقاداً وعبادة وشريعة، وهذه هي قاعدة المجتمع المسلم الصحيح، لأن هذه الفئة دورها أن تقرر عقيدة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) في هذا المجتمع المسلم الجديد وذلك بإقرار هذا المجتمع أن الحاكمية لله وحده لا شريك له..

حينها يتم ميلاد جديد للمجتمع المسلم يخرج من رحم المجتمع الجاهلي القديم.. وحين يقوم هذا المجتمع فعلاً، تكون له حياة واقعية فيحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع لقوم مستسلمين أصلاً للنظم والشرائع وهذه هي قاعدة إنشاء المجتمع المسلم الصحيح، والتي ظهرت جلياً في خط المنهج الحركي للقرآن، حيث جاءت سورة (البقرة) لتدعو للاستسلام والاستجابة لعقيدة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ثم جاءت سورة (آل عمران) لتؤكد على ضرورة قيام الطليعة المؤمنة التي تخلص ضمائر أفرادها من ربة أي عبودية لغير الله إيماناً واتباعاً وتحاكماً.. ثم جاءت سورة (النساء) بقاعدة إزالة منهج الإسلام لقواعد الجاهلية ورواسبها في نفوس أفراد المجتمع وفي التقاليد والنظم، وتنشئة المجتمع المسلم الجديد الطاهر النظيف الذي أقر بالعبودية لله وحده، والحاكمية لله وحده..

- بقي أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من سلطان يكفل لهم تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع حتى يكون للنظام هيئته، ويكون للشريعة جديتها وهو ما سنتناوله سورة (المائدة) بإذن الله.

- أما سورة (النساء) جاءت تزيل الجاهلية ونظامها، وتطهر النفوس والمجتمع من رواسبها... تطهر النفوس من الشح والحرص والرياء والحسد... تقوي الوازع الداخلي وتوقظ الضمير وتنمي التقوى لتقيم الرقابة في الضمائر أولاً... تزيل آثار الظلم الاجتماعي على الضعفاء من الأيتام والنساء والذرية الضعيفة...

وتقييم المنهج الإسلام التكافلي يعدل بعدل الله ويرفع رآية العدالة الاجتماعية تحت رآية الإسلام"...

وتحارب الذين يتبعون الشهوات وتعزل الفاحشة وتصون كرامة المرأة بعدما أهانتها الجاهلية وجعلتها مادة للإغراء والغواية والفتنة...

هكذا جاءت سورة (النساء) بمنهج الإسلام لترتقي بالبشرية كلها في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط، والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام.

مفاصلة

- إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية فإما إسلام وإما جاهلية.. فظرة الإسلام في أن الحق واحد لا يتعدد ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية.. إما منهج الإسلام والتلقي من نظمه وقيمه وتقاليده، وإما منهج الجاهلية والتلقي من نظمها وقيمتها وتقاليدها..

- "وظيفة الإسلام إذن هي إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص المستقل الملامح، الأصيل الخصائص.. يريد بهذه القيادة الرشيدة الخير للبشرية وذلك بردها إلى خالقها وصانع هذا المنهج العليم الحكيم.. لم يجيء الإسلام إذن ليرت على شهوات الناس الممثلة في تصوراتهم (أكل أموال اليتامى) وعاداتهم (الخمر والميسر) وتقاليدهم (وراثه المرأة كرهاً) وقيمهم (السفاح والمخادنة) ونظمهم (أكل الأموال بالباطل).. بل جاء منهج الإسلام ليلغي هذا كله إلغاء.. وينسخه نسخاً، ويقوم الحياة البشرية على أسسه الخالصة تلك شجرة تطلعها حكمة الله، وهذه شجرة تطلعها أهواء البشر ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وهذه الجاهلية خبثت قديماً وخبثت حديثاً.. وحين تحمل الفئة المؤمنة هذا المنهج تحمله في عزة وتسير به بهذه المفاصلة دون تقييع أو مساومة أو تنازلات... دون أن تأخذ جزء من منهج الله،

وجزء من المناهج البشرية التي يزينها أعداء الدين.. لا بد للفتنة المؤمنة التي تم اصطفاؤها وتأهيلها أن تكون صريحة غاية الصراحة وتعلنها بوضوح: هذه الجاهلية التي أنتم عليها نجس والله يريد أن يطهركم.. هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يهديكم ويتوب عليكم ويطيبكم.. هذه الحياة التي أنتم فيها شقوة وبؤس ونكد، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم"^(١).

• إن فائدة هذه المفصلة كانت في الحفاظ على منهج التوحيد الخالص الصافي من الاختلاط والالتباس، إنها مفصلة جعلت الإسلام إسلامًا، والجاهلية جاهلية..

رابعاً: مظاهر تطهير منهج الإسلام لتقاليد الجاهلية وأوضاعها

- تم عرض بعض مظاهر الجاهلية التي أزالتها منهج الإسلام في مقدمة سورة (النساء) بشكل موجز، ونقوم هنا بإذن الله بالعرض التفصيلي لمظاهر تطهير منهج الإسلام للتقاليد الجاهلية وأوضاعها التي وردت في السورة.

لفتة وإشارة:

عرضت سورة النساء أحكام وتشريعات منهج الإسلام لبناء المجتمع المسلم الجديد بشكل متفرق على مدار السورة كلها، فلم تأتي نصوص هذه الأحكام كمواد القانون الجنائي متتالية الترتيب، ولكنها أتت في السورة بجزء منها الحكم في موضع في بداية السورة، ثم بقية الحكم في موضع آخر، ويقول الشيخ الشعراوي رحمه الله عن حكمة ذلك والله أعلم بمراده: "بأنه سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن المنهج الإلهي منهج واحد متكامل، وأنه ينقلك من شيء إلى شيء، وذلك حتى تتعرف على المنهج ككل، وأنت إذا كنت بصدد شيء فلا تظن أن هذا الشيء بمفرده هو الحكم كاملاً، ولكن هناك أشياء ستأتي استطراداً تتداخل مع هذا الشيء الذي تبحث عن حكم الله فيه، كما أنه هناك حكمة أخرى غير وحدة المنهج وتكامله هي أن الحق أراد أن يجعل للعقل مهمة

(١) معالم في الطريق، سيد قطب، ص (١٥١ : ١٥٣)

البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى نأخذ الأحكام بعشق وحسن فهم^(١). ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾
الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

- ومن أمثلة ذلك عرض المنهج لأحكام الكلاله في الموارث في الآية (١٢) في أول سورة (النساء)
الميراث لأخوة المتوفى من الأم، وثم في الآية (١٧٦) في آخر السورة عرض أحكام الكلاله لميراث
الأخوة الأشقاء فيها للمتوفى.

- ومن أمثلة ذلك عرض المنهج لتشريع تعدد الزوجات في الآية (٣) في أول السورة، ثم في الآية
(١٢٩) جاء بالحث على العدل بين الزوجات في حالة التعدد.

- ومن أمثلة ذلك حث المنهج للقسط مع اليتيمات في الآية (٣) في أول السورة، ثم في الآية
(١٢٧) جاء بتوجيهات في الزواج من اليتيمات والقسط معهن.

• وهكذا جاءت أمثلة أخرى من مظاهر المنهج الإسلامي وملاحظته متفرقة على مدار السورة
لنعيش في ظلها مع منهج متكامل ومتناسك ونقوم بتدبر أحكامه وحسن فهمها.

فإلي تفصيل مظاهر تطهير منهج الإسلام لتقاليد الجاهلية

المظاهر	تقاليد الجاهلية وأوضاعها	منهج الإسلام وإزالتها
أولاً: مع اليتامى	١. حجرهم على أموال اليتامى. ٢. إعطاءهم الرديء في مقابل الجيد، كاستبدال أحدهم الشاه السمينه من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة. ٣. أكلهم أموال اليتامى. ٤. إذا أراد ولي اليتيمة أن ينكحها فيظلمها في مهرها، باعتبارها يتيمة تحت	نهى منهج الإسلام عن ذلك كله ومعى كل هذه التقاليد وأزالتها: ١. قال تعالى ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ يأمر بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحُلُم كاملة موفرة. ٢. قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ﴾ ونهى عن تبديل أموال اليتيم وأراضيه أو ماشيته الطيبة بالخبثه أو الرديئة أو الحرام من ممتلكات ولي اليتيم.

<u>منهم الإسلام وإزالته لها</u>	<u>تقاليد الجاهلية وأوضاعها</u>	<u>المظاهر</u>
<p>٣. قال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ونهى عن خلط أموال اليتامى مع مال الولي وأكل جميعها.</p> <p>٤. ثم قام المنهج بإقامة الضمير حارساً والتقوى رقيباً على هذه التشريعات والتوجيهات، قال تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي إن أفعالكم وتقاليدكم كانت إثماً كبيراً عظيماً.</p> <p>٥. ثم أباح المنهج الرباني ورخص بالتعدد في الزوجات شريطة العدل بينهن، إذا خاف أن يقسط اليتيمة مهرها قال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ وكان رخصة التعدد جاءت حتى لا يجوز أحد على حق اليتيمات في المهور فليعدل إلى غيرها فقد وسع الله عليه.</p> <p>- النهي عن منع اليتيمات من الزواج ﴿وَمَا يُنَلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾.</p> <p>- المسارعة بتسليم أموال اليتامى بمجرد تبين رشدهم لقوله تعالى ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾</p>	<p>ولابته مغلوقة.</p> <p>٥. كانوا يمنعون اليتيمات من الأزواج خشية أن يشركوهم في أموالهن، وكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهو بها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها.</p>	

المظاهر	تقاليد الجاهلية وأوضاعها	منهج الإسلام وإزالته لها
المظاهر	تقاليد الجاهلية وأوضاعها	منهج الإسلام وإزالته لها
ثانياً: أكل الأموال بالباطل وانتشار القمار والرشاوى	كانوا في المجتمع الجاهلي يأكلون الأموال بينهم بالباطل في المعاملات الربوية	طهر الإسلام كل هذه المعاملة الباطلة وقام بتحريمها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].
ثالثاً: ظاهرة الخمر	كانت ظاهرة متغلغلة وعميقة في المجتمع الجاهلي	أخذ المنهج الرباني بسلطان الله وخشيته وعالج الفطرة برفق حتى حرم الخمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].
رابعاً: النساء	١. هضم حق المرأة في المهر، فكان يأخذ وليها صداقها لنفسه، وكان ولي المرأة يزوجها لرجل مقابل أن يتزوج هو من هي في ولاية هذا الآخر، كأنها صفقة يبيع بين الوليين. ٢. إذا مات الرجل منهم فأولياؤه يستحوزون بأحقيتهم في امرأته، يرثونها عنه كما يرثون المتاع والمتروكات، إن شاء	نهى منهج الإسلام عن هذه التقاليد والأوضاع وقام بحوها وإزالتها: ١. قال تعالى ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِنَّ نِحْلَةً﴾ فأعطى الصداق حقاً للمرأة تأخذه لنفسها ولا يأخذه الولي فريضة لها، يؤديه الزوج هبة خالصة لها عن طيب نفس. ٢. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَنْدَهُبُوا بِبَعْضِ مَا

منهم الإسلام وإزالته لها	تقاليد الجاهلية وأوضاعها	المظاهر
<p>آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ ﴿٤﴾، فحرم منهج الإسلام وراثه المرأة كما تورث السلعة والمتاع، كما حرم عضلها للإضرار بها.</p>	<p>بعضهم تزوجها، وإن شاءوا عضلوها وأمسكوها في البيت دون تزويج حتى تفتدي نفسها منه بمال أو تموت فيرثها.</p>	
<p>٣. قال تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فحرم منهج الإسلام زواج الأبناء مما نكح آباؤهم أشد التحريم وجعله شنيعاً غاية الشناعة، وفاحشة وبغضاً سيئاً.</p>	<p>٣. كان الأبناء ينكحون ما نكح آباؤهم من النساء وكان سبباً من أسباب عضل النساء أحياناً، حتى يكبر الصبي فيتزوج امرأة أبيه.</p>	
<p>٤. جاء الإسلام وطهر دنس السفاح والمخادنة وانتشل المرأة من هذا السفح الواطي، فجعل الزواج نكاحاً واحداً في صورة نظيفة عفيفة لإحصان الرجل وإحصان المرأة وإحصان للأسرة أي حفظها وصيانتها قال تعالى ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.</p>	<p>٤. كان زواج المرأة عندهم عبارة عن سفاح ومخادنة وبغاء: فيرسل الرجل امرأته إلى غيره تستبضع منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه حتى يتبين حملها من ذلك الرجل، رغبة منه في نجابة الولد، وكان الرهط منهم ما دون العشرة يدخلون على المرأة كلهم يصيها، ونكاحاً آخر كانت تنصب فيه البغايا على أبوابهن رايات تكون علماً فيجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها.</p>	
<p>٥. جاء الإسلام يطهرهم ويزكيهم حتى في دنيا الرقيق من وحل الجاهلية، قال تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، وارتقى الإسلام بنظرة المجتمع للرقيق، فلم يسمي الرقيقات: جواري ولا إماء إنما يسميهن "فتياتكم" في قوله تعالى ﴿فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، ولم يسمي من هن ملك لهن</p>	<p>٥. كانوا يطلقون الرقيق من النساء انطلاق البهائم للممارسة الجنسية، ليتكسبن بأجسامهن لحساب سادقن.</p>	

المظاهر	تقاليد الجاهلية وأوضاعها	منهج الإسلام وإزالته لها
<p>سادت، بل يسميهم "أهلاً" في قوله تعالى ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، ولم يجعل مهر الفتاة الجارية لسيدتها حيث القاعدة أن كسبها كله لسيدتها، وهذا المهر ليس كسباً إنما هو حق ارتباطها برجل ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، كما يكرمهن عن أن يكن بائعات أعراضهن بثمن من المال، إنما هو النكاح والإحصان: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾.</p> <p>٦. قضى الإسلام على ظلامه من ظلمات الجاهلية للنساء، عاشت أسيرة لها قروناً طويلة، وفرض الإسلام للمرأة نصيباً من الميراث حقاً مفروضاً خالصاً لها لا منه فيه لأحد ولا فضل، قال تعالى ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ فكان هذا قلباً كاملاً للأوضاع السائدة، وتغييراً جذرياً لمألوفات الأحقاب والقرون.. وصار للمرأة نصيب في الميراث بعد أن كانت هي نصيباً من الميراث.</p>	<p>٦. كانوا لا يورثون النساء والأطفال، وكان معيار التوريث عندهم هو الرجولة، لأن الرجال هم الذين يقاتلون، ويمون ديارهم، والنساء لا تقاتل فكانوا يجرمونهم من الميراث، قال عمر بن الخطاب: "والله أن كنا في الجاهلية لا نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم" وهذه المقولة تؤكد أن المرأة كانت مسلوقة الحق والإرادة تماماً لأنها لا تحمل السيف ولا تحمي الديار.</p>	

وقفه هامة.. نظام المواريث تكريم للنساء

• وهنا يتبادر لبعض الأذهان عدة تساؤلات وهي: لماذا أعطى الإسلام ميراثاً للنساء؟ وكيف يعتبر نظام المواريث تكريمًا للنساء وهو يفرض للذكر ضعف الأنثى كما في قوله تعالى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾؟

• ونبدأ بإذن الله بإجابة السؤال الأول: لماذا أعطى الإسلام المرأة من الميراث؟

١. حتى يكون لها مال تنفق منه على نفسها إذا لم يُتَّخَ لها الزواج، فصان عرضها من الاختلاط بالرجال تحت دعوى البحث عن العمل أو التعرض لإغراء الأموال للوقوع في الفاحشة.

٢. إذا مات زوجها ولم يترك لها ما تقوم به نفقتها، فيصير ميراثها من قبيل المال الاحتياطي لها وللأسرة.

٣. لأن معيار الميراث كان في الجاهلية هو: القتال، فيعطي الميراث للرجال الذين قد تزهق أرواحهم لدفاعهم عن الديار، والمرأة ليس لها أية أدوار في الجاهلية في القتال... بينما الإسلام جعل لها دورًا هامًا في الجهاد وهو: تربية المجاهدين ونذرهم لله، وحفظهن لغيبه أزواجهن المجاهدين.

فالمرأة قد تكون فتنة لزوجها لإقاعده عن الجهاد، فأقر الإسلام لها ميراثًا مفروضًا من تركة زوجها إن قُتل في الجهاد، فلا تخشى فاقة من بعده ومن ثم لا تكن عائقًا له أو فتنة له عن الخروج للقتال في سبيل الله، فكما كان الميراث من قبل في الجاهلية لاعتبارات القتال، وأهملت المرأة لعدم وجود دور لها في القتال.. فجاء الإسلام وأعطى للمرأة دورًا إيجابيًا في القتال وهو دفع الزوج والابن للخروج في سبيل الله، وأقر لها بذلك نصيبًا مفروضًا من التركة لم يكن لها من قبل.. هذا والله سبحانه وتعالى أعلم.

وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾.. وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها للولد الذكر والأنثى والأبوين، كرهها الناس أو بعضهم وقالوا: تعطى المرأة الربع أو الثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة؟! اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله (ﷺ) ينساه، أو نقول له فيغير!

فقالوا: يا رسول الله تعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تترك الفرس، ولا تقاتل القوم ويعطي الصبي الميراث، وليس يُعني شيئاً - وليس يُعني شيئاً - وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، ولا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر... رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

• وبذلك صارت فلسفة منهج الإسلام في الموارث: صيانة المرأة وعرضها، يكفل لها حقها، تنهياً لدورها هي وزوجها وابنها.. فالرجال: يحمون المنهج ويدافعون عن حقوق المستضعفين، والنساء: يدفن الرجال للجهد، ويحفظن أعراضهن في غيبتهن.

- أما عن إجابة السؤال الثاني بخصوص: أن المرأة لها نصف الرجل، وبذلك أين تكريم الإسلام لها؟

فنجيب عن هذا السؤال في عدة نقاط وهي:

١. قرر الإسلام للمرأة حقاً في الميراث، ولم يكن لها شيء من ذلك في الجاهلية.
 ٢. قدر الإسلام هذا الحق بنصف نصيب الذكر، طبقاً للأعباء والالتزامات المالية منهما حسب قاعدة "الغنم بالغرم" وذلك كالتالي:
- ← فالرجل يتزوج امرأة ويتكلف إعالتها وإعالة أبنائها منه، سواء وهي معه أو وهي مطلقة منه.. أما المرأة فإما أن تقوم بنفسها فقط، وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء.. وليست مكلفة نفقة للزوج ولا للأبناء في أي حال.
- ← الرجل مكلف بأداء مهر للزوجة حقاً لها، ويعتبر هذا المهر ذمة مالية خاصة بها مدخر لجبر ضعفها كما أن الرجل مكلف بتأثيث البيت للمرأة وإعداد السكن لها.

• إذن الرجل له حق الميراث فقط، والمرأة لها حق الصداق، وحق السكن، وحق النفقة، وحق الميراث... وبالتالي فالرجل مكلف على الأقل بضعف أعباء المرأة في التكوين العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي ومن ثم يظهر العدل في التوزيع الحكيم في قاعدة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ﴾ وذلك للأعباء والالتزامات التي كلف بها الرجل عن المرأة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فالغنم بالغرم.. ولذلك نقول أن نصيب الرجل من التبعات أثقل من نصيبه في الميراث.

٣. المفاجأة التي قد تذهل الكثيرين هي أن حالات وراثة المرأة نصف الرجل: أربع حالات فقط، بينما هناك أكثر من (٣٠) حالة ترث فيها المرأة مثل الرجل تمامًا، وهناك (١٠) حالات ترث فيها المرأة أكثر من الرجل، كما أن المرأة ترث في أكثر من (١٧) حالة بالفرض مقابل (٦) حالات للرجل بالفرض فقط، وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال.

حالات تحصل المرأة نصف نصيب الرجل

- المرأة لا تحصل على نصف نصيب الرجل إلا إذا كانا متساويين في الدرجة، والسبب الذي يحصل به كل منهما إلى الميت، مثل:

(أ) حالة وجود البنت مع الابن ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

(ب) حالة وجود الأخ مع الأخت ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١٧٦].

(ج) حالة وجود الأب مع الأم ولا يوجد للمتوفى أولاد ولا زوجة فالأمة الثلث والباقي للأب الثلثان ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١].

(د) حالة موت الزوج فالزوجة ترث الربع إن لم يكن لها ولد، وإن كان لها ولد ترث الثمن، أما إذا ماتت الزوجة فيرث الزوج النصف إذا لم يكن لها ولد، وإذا كان لها ولد فيرث الربع، لقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدٍ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَالِأُمَّةِ أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

حالات ترث المرأة فيها مثل الرجل

• من أمثلة هذه الحالات:

- حالة ميراث الأب مع الأم عند وجود ابن أو بنت ﴿لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾، وكذلك ميراث الأخوة أو الأخوات من جهة ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَالْأَلَّةِ أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾.

حالات تتفوق المرأة على الرجل في الميراث

• من أمثلة هذه الحالات:

- الأب يأخذ السدس وهو أقل بكثير مما أخذت البنت (النصف) أو البنات (الثلاثين) كما في قوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١].

- وقد تتفوق المرأة على الرجل في الميراث إذا كانت في درجة متقدمة كالبنت مع الأخوة الأشقاء، كالأب والبنت مع الأعمام.

إذن قاعدة (الذكر مثل حظ الأنثيين) ليست هي الأصل لكل ذكر وأنثى يرثون من الميت إنما العبرة بصلة الذكر والأنثى بالميت.

• للتوضيح: توزيع الموارث على طريقتين هما: الميراث بالفرض وهو النسب الواردة في القرآن، والميراث بالتعصيب وهو الباقي بعد توزيع الميراث المفروض نسبه. والحقيقة أن أكبر فروض الميراث في القرآن الكريم تعطى للنساء أكثر من الرجال، فالفروض المقدره شرعاً ستة وهي:

١. الثلثان ٢. النصف ٣. الثلث

٤. الربع ٥. الثمن ٦. السدس

← ونسبة (الثلاثان) لا يحصل عليها رجل فهي نسبة مخصصة للنساء فقط في (٤) حالات وهي:

١	البنتان فأكثر	إذا لم يوجد عاصب ابن
٢	بنتا الابن فأكثر	إذا لم يوجد الفرع الوارث للميت الأقرب منهما أو منهن أو ذكر يعصبهما أو يعصبهن
٣	الأختان الشقيقتان فأكثر	عند عدم العاصب وعدم الفرع الوارث للميت الأقرب منهما أو منهن أو ذكر يعصبهما أو يعصبهن
٤	الأختان لأب فأكثر	عند عدم العاصب وعدم الأخت الشقيقة.

← نسبة (النصف) في الميراث لا يحصل عليها من الرجال إلا الزوج عند عدم وجود ورثة آخرين،

بينما يحصل عليها (أربع) نساء:

١	البنات الصلبية	إن كانت واحدة ولم يوجد من يعصبها.
٢	بنت الابن	إذا كانت واحدة ولم يوجد من يعصبها أو فرع وارث للميت مطلقاً أقرب منها.
٣	الأخت الشقيقة	إن كانت واحدة عند عدم العاصب وعدم الفرع الوارث مطلقاً والأصل الوارث.
٤	الأخت لأب	إن كانت واحدة عند عدم العاصب وعدم الفرع الوارث مطلقاً، والأصل الوارث الذكر.
٥	الزوج	إذا لم يكن للزوجة فرع وارث مطلقاً.

- وبالنظر في الآيات الثلاث التي وردت في سورة النساء، واختصت بتحديد النسبة المفروضة للموارث، نجد أن الفرائض حددت نصيب النساء كإبنة وأم وأخت قبل نصيب الرجال، وما تبقى وفقاً لقاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين.
- وهكذا أنصف المنهج الرباني المرأة بما لا يوجد له مثيل في القديم ولا في الحديث كما رأينا في نموذج الموارث والتي فرض نصيبها الله عز وجل بنفسه الكريمة، ولم يدع هذه الفرائض لنبي أو لأحد من خلقه، قال تعالى ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].. وهكذا الذي يقسم هو الذي يشرع هو الذي يفرض وهو الذي خلق، ليست المسألة هوى أو محاباة إنما هي المصلحة المبنية على العلم والحكمة ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ ويطرب على طاعة الله ورسوله وتنفيذ حدوده: الجنة والخلود فيها أو والعذاب المهين والخلود فيه... فالمسألة مسألة الدين.. ومسألة الشريعة.. مسألة المنهج وإما طاعة واتباع.. وإما عصيان وانحراف.
- وهكذا جاء منهج الإسلام ليظهر الأرض من مناهج الجاهلية، جاء ينسخ تقاليدها ويزيل قواعدها ويبطل أوضاعها السائدة.. جاء ينتشل الناس من السفح الهابط ليرتقي بهم إلى القمة السامقة.. جاء يقيم مجتمعا جديداً صالحاً طاهراً.. جاء هذا المنهج الرباني ليدين الناس فيه لله وحده، وتقوم عليه سلطة تنفذه بقوة السلطان في حياة الناس.

خامساً: لا بد للشريعة من سلطة تنفيذها ونحوها

- منهج الإسلام منهج للحياة.. منهج واقعي عملي، لم يأتي للتنظير به في الكتب والأبحاث أو يظل حبيس الأدراج أو يوضع شكلياً في دساتير وضعية ولا يقام في حياة الناس.
- ولكي تقوم حياة الناس العملية على منهج الإسلام لا بد للمنهج من سلطة تنفذه وتقييمه وتحميه، والدين لا يقوم بدون دولة وبدون سلطة.. فالدين نظام تدين الناس فيه لله وحده، ولتكون الدينونة لله وحده، لا بد أن يتلقى المجتمع تقاليده وتصوراته وقيمه ومبادئه وقوانينه وتشريعاته من شريعة الله عز وجل.

- وهذا ما أدركه صحابة الرسول (ﷺ) بفطرتهم وتربية القرآن والرسول (ﷺ) لهم.. فبمجرد وفاة الرسول (ﷺ) فإذا بأبي بكر (رضي الله عنه) في سقيفة بني ساعدة يجمع المسلمين ويقول لهم: "أيها المسلمون لا بد لهذا الأمر من قائم يقوم عليه"، وكان عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يقول: "إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن".
- ومن المعلوم أنه لا أحد يستجيب لعقيدة ضائعة ليس وراءها سلطة تحميها، وتنفذ توجيهاتها وشرائعها.. سلطة تأخذ الخارجين المتبجحين بالتأديب والعقوبة.. وهكذا دور السلطة هو خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا.
- وبعد عرض سورة (النساء) لمنهج الإسلام في إقامة المجتمع المسلم الجديد، وتثبيت دعائمه، تأتي سورة (المائدة) بعدها لتدعو الفئة المؤمنة لتحكيم هذا المنهج، والوفاء بعهدتها مع ربها لحماية هذا المنهج الرباني وإقامته في المجتمعات وفي حياة الناس، وهو ما سنتناوله في عرضها بإذن الله وتوفيقه في عرض سورة (المائدة).. ثم يسير بنا المنهج الحركي للقرآن في خطواته وتسلسله حتى تقام الدولة المسلمة وتثبت دعائم المجتمع المسلم بالوصول إلى سورة (النور).
- وبعد استعراض مظاهر تطهير المنهج الرباني لرواسب الجاهلية في المجتمع، نستعرض الآن مظاهر تطهير المنهج الرباني لرواسب الجاهلية في النفوس والتي تعتبر المعركة الأساسية الأولى لهذا المنهج الرباني، والتي في حالة نجاحها بإذن الله.. تنجح في تطهيرها في المجتمع بعون الله وتوفيقه.

مقصد: تزكية النفس

الضرورة الماسة لتطهير النفس من رواسب الجاهلية

- قال تعالى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٦-٣٨].
- تستهدف سورة النساء في المقام الأول تزكية النفوس وتطهيرها من شهواتها وحظوظها

وأهوائها، والتي ذكر منه في الآيات السابقة: الاختيال والتكبر والعجب والغرور والبخل والرياء. وهذه الحظوظ جزء كبير جبلي وفطري في النفوس البشرية، قال تعالى ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] أي أن الشح وهو البخل مع الحرص حاضر دائماً وقائم في النفوس، وكي ندرك ضرورة تطهير النفس من الأمراض، على حقيقة النفس هي مجمع الشهوات والغرائز داخل الإنسان، ولقد جعلها الله كذلك لتكون بمثابة الاختبار الذي يخوضه العبد في الدنيا.

فالنفس تحب دوماً تحصيل شهواتها من كل أعمال صاحبها، ولأنها لا تستطيع ذلك بمفردها؛ فهي تُلحُّ على القلب حتى يستجيب لها، ولو لم ينتبه المرء إلى خطورة ما تدعوه إليه نفسه، وسار وراء هواها فإن هذا الهوى يتسلل إلى المشاعر ويستحوذ عليها، ومن ثم يصبح القلب تابعاً لذلك الهوى.. إن تكلم بلسانه فيما يأمر به هواه، وإن سكت فله، إن ضحك أو غضب أو بكى أو فرح أو اشمأز.. فالإرضاء نفسه وهوها.

وكلما تنامي الهوى في المشاعر زادت التبعية التي تصل لدرجة الاندماج النفسي، أي يندمج هوى النفس في مشاعر القلب، ويندس فيه، وتصبح وظيفة المشاعر هي التعبير عن هذا الهوى، مما يؤدي إلى سيطرة النفس على القلب في المواضع التي يحدث فيها اندماج، فلا يشعر المرء بالفارق بين قلبه وبين نفسه، ولا يشعر بمقاومة داخلية قبل فعل المعصية وبخاصة فيما يتعلق بالشهوة الخفية.

- فهو حين يتحدث عن نفسه أمام الآخرين بما يزيكها لا يشعر أنه يرتكب أي خطأ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩]. وكذلك عند عناده وإصراره على موقفه الباطل، وعند تفاخره بنسبه وتباهيه بمسكنه ومقتنياته ومركبته أي يمدحونها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]... لا يشعر بذلك لأنه مأسور، وإذا غوتب على هذا تمادى في الدفاع عن نفسه وتبرير أفعاله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

خسارة النفس:

لو أن رجلاً له ولدٌ وحيدٌ، وكان يُحبُّ ولده حبًّا شديدًا، لدرجة أنه لا يرفض له طلبًا، حتى لو أيقظه في ساعات الليل الأخيرة لكي يشتري له حلوى.. فماذا تقول عنه؟
 ألا توافقني الرأي أنه بتدليله المفرط لابنه يُسيء إليه من حيث يظن أنه يحسن، وأنه بذلك يخسر ابنه؟!!

كذلك أنفسنا، لو سرنا وراء هواها، وقمنا بتنفيذ كل ما تطلبه لخسرتها في الدنيا والآخرة.. لماذا؟!!

لأننا لن نستطيع القيام بأي طاعةٍ أو ترك أي معصيةٍ لأن أنفسنا تكره ذلك، أي أننا لن نستطيع الاستقامة على أمر الله إلا إذا جاهدنا أنفسنا وسيطرتنا عليها، وإن لم نفعل فستسيطر علينا وتبعدنا عن طريق الله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

.. إن نفوسنا أمانة لدينا، وينبغي أن نتعامل معها كما أمرنا صاحب الأمانة، وعندما لا نفعل ذلك، ونسير وراء هواها، فإننا نظلمها أيما ظلم.. نظلمها بوضعها في غير موضعها، نظلمها حين نتبع هواها وقد أمرنا صاحبها ألا نفعل ذلك.

إن الوقوع في أي معصية هو في الحقيقة ظلم للنفس، لأنه يعكس اتباع هواها، ومن ثم الإخلال بالأمانة التي أئتمنا عليها، لذلك كان الجواب الصادق لآدم وحواء عليهما السلام عندما سُئلا عن سبب أكلهما من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

هتمية التزكية:

لعل ما قيل في الصفحات السابقة يدقُّ لنا جميعًا ناقوس الخطر، ويُشعرنا بضرورة تزكية أنفسنا وتطهير المشاعر من هواها..

← إن المعركة الأساسية والكبرى للمرء هي معركته مع نفسه، فإن انتصر عليها كان علي غيرها أقدر بإذن الله..

أهداف التزكية

التزكية هي التطهير والنماء... "تطهير القلب من أهواء النفس"... لذلك فهي تهدف إلى السيطرة على النفس وعدم الضعف والهزيمة أمامها.

تهدف التزكية إلى تطهير القلب من أسر الهوى وسطوة النفس، وعودته إلى الصحة والبطرة الحنيفية...

وتهدف التزكية إلى التحقق بمعاني العبودية الحققة لله عز وجل من ذل وانكسار وخضوع وافتقار وتعلق تام به، وهذا يستدعي السيطرة على النفس وإخراج هواها من القلب.

ومن أهم أهداف التزكية تحقيق التوحيد الحقيقي والكمال لله عز وجل، والبعد التام عن الشرك الجلي والخبفي.. الأكبر والأصغر ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، مع التحقق بمعاني الإخلاص له سبحانه.. إخلاص العبادة وإخلاص الاستعانة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومع الممارسة الصحيحة للتوكل التام والدائم عليه سبحانه، والاعتصام به، وتفويض الأمر إليه...

وتهدف التزكية إلى تمكين المرء من إقامة الصلاة على حقيقتها وذلك حين يطهر قلبه، ويتصف بصفات العبودية من افتقار تام ومطلق لربه، ذل وانكسار له، ليدخل بهذا القلب إلى هيئة الصلاة، فيتصل من خلالها بالسماء.. اتصال العبد بالرب.. هذا الاتصال لا يمكن للمرء تحقيقه بصورة صحيحة إلا من خلال التزكية.. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ [الأعلى: ١٤-١٥]. بالله، فإن التزكية هي العملية التطهيرية اللازمة للقلب كي يكون عابداً ربانياً ذا قلب سليم، لذلك فإن القاعدة التربوية الأساسية للمسلم ينبغي أن تشمل كيفية تحقيق معاني الصلاة والزكاة، ولا ينبغي تجاوز تلك تحت أي دعوى، بمعنى أن تحقيق الربانية والتزكية بحدها الأدنى ينبغي أن يكون أساس المرحلة التكوينية للمسلم قبل تكليفه بالأعمال، حتى ينجح بعد ذلك في أدائها على الوجه الذي يرضي ربه، تأمل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا

لَمْ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلاً ﴿النساء: ٧٧﴾.

فالآية تقص علينا نبأ أناس قيل لهم: عليكم أنفسكم.. قوموا بتركيتها.. أقيموا الصلاة وكفوا أيديكم عن القتال، لكنهم تحت بريق فضائل الجهاد وأهميته تآقت أنفسهم إليه دون استكمال مرحلة الغرس والتكوين الأولى، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] انكشف مستواهم الحقيقي، وظهر ضعف إيمانهم وتعلق قلوبهم بالدنيا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، لذلك منهج الإسلام أراد تطهير النفوس من الحرص على الدنيا والتناقل إليها الذي يمنع من الهجرة في سبيل الله ومن الجهاد في سبيله.

مقصد: معرفة الله عز وجل

تعرف على ربك الرحيم

— قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

- للتعرف على اسم الله (الرحيم) لا بد أن نعلم أن الرحيم اسم مشتق من الرحمة، يقول د. محمد راتب النابلسي: "والرحمة تقتضي مرحوم وراحم، والمخلوق هو المرحوم لأنه ضعيف وعاجز وفقير وقيامه ليس بذاته فهو دومًا يحتاج للرحمة لأنه عبد والرب هو الراحم ونحن نحتاج إلى رحمته "اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ولا تعذبنا فأنت علينا قادر".
- من لوازم الرحيم أنه يريد أن يرحمك فقد يريد عبد أن يوقع بك الأذى ولكن يجعل الله عز وجل إرادة العبد الخبيثة في صالحك، ومن لوازم الرحيم أن يكون قادرًا على رحمتك فقد يريد عبد قضاء حاجتك ولا يستطيع أن يقضيها لذلك فالله هو الرحيم حقًا لأنه يريد رحمة عباده ويفعل ذلك دومًا معهم لأنه يقدر على ذلك ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

- وعباده يحتاجون دومًا لرحمته سبحانه وتعالى فنجاة عباده في الدنيا برحمته ﴿فَأَجْبِنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]. وكشف الضر رحمة منه سبحانه وتعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِنْدَنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢].

الرحمة العامة والرحمة الخاصة:

قد يستمتع العبد بالحياة يأكل أذ الطعام، ويسكن في بيت مريح، فهذه رحمة عامة ينالها كل الناس، لأن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب فقد أعطى قارون المال وهو لا يحبه، ولكن الرحمة الخاصة أن يتجلى الله عز وجل على قلبك فيملاً قلبك بنور يقربك به إليه، وهذه رحمة خاصة لا ينالها إلا المستحق.

فهناك اجتناء وتقريب ونور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده فيرى به الخير خيراً والشر شراً، فالرحمة الخاصة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال ورحمة اليتيم والزوجة ومعاونة الأرملة والرفق بالمستضعفين.. ومن القربات الخاصة التي لم ينالها إلا المستحقين باجتناء من الله عز وجل ما ورد في سورة النساء عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وعن موسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

الرحيم يريد الخير للمرحوم بإبتلائه:

- الطبيب يفتح اللحم بالمشروط ليستأصل الزائدة الملتهبة رحمة بالمريض ليتم شفاؤه فالعملية الجراحية هذه ظاهرها فيه قسوة ودماء ولكن باطنها فيه الرحمة، لذلك في الحديث القدسي "أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا إلي فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعائب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفوا وأنا أرحم بعبي من الأم بولدها"^(١).

(١) ذكره ابن القيم، ضعفه الألباني رقم ٤٣٩٢

• وهذا معنى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. إن الله عز وجل كما قال عن نفسه الكريمة ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، لذلك فالله عز وجل يطهر عباده بالبلاء ليأتوا إليه وليس عليهم أوزار فيدفعهم إلى بابه لقوله تعالى: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلْوَنِ الَّذِي فِيهِ أَلْغَاةٌ لِّكُلِّ نَفْسٍ مِّنْهُمْ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ يَّرْءُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، فلا يوجد شر مطلق يراد للعبد حاشى لله إنما يريد سبحانه من عبده العاصي أن يأتي إليه ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، إذن فلماذا البلايا والمصائب... الإجابة (فأنا طبيههم) فيضيق على عبده ليرحمه.. فإذا كان الألم القليل سبباً للذة الدائمة فلن يكون شراً بل هو خيراً، فكل شيء وقع إرادته الله، فإرادة الله عز وجل متعلقة بالحكمة المطلقة وحكمته متعلقة بالخير المطلق^(١).

رحمة الله عظيمة وهي أصل معاملته بعباده:

— ولكن ما هي علاقة اسم الله (الرحيم) بسورة النساء؟ لقد شملت سورة النساء آيات كثيرة تبرز رحمة الخالق بعباده مؤكدة أن هذه الرحمة الواسعة هي أصل معاملته الله عز وجل بعباده، داعية كل من يقوم على ضعيف يتيم أو زوجة أو خادم، أنه إذا أراد هذه الرحمة الواسعة فليرحم هو من يقوم على أمرهم، كما تدعونا السورة لتطبيق شرع الله عز وجل ومنهجه في بيوتنا وفي مجتمعاتنا لأن الأصل فيه هو التيسير والسعة والرحمة ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

فعن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون»^(٢).

وعن العلاء قال: قال رسول الله (ﷺ): «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»^(٣).

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، د. محمد راتب النابلسي

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣)

(٣) أخرجه مسلم في التوبة (١٤)

- إذن ارتباط اسم الله (الرحيم) بسورة النساء في أن هذه السورة تدعو إلى رحمة الضعفاء فقدمت لنا نموذج من رحمة الله عز وجل بعباده ومن احتياجنا لهذه الرحمة لينعكس ذلك على تراحمنا مع الضعفاء والمستضعفين كما أن أساسا منهج الإسلام هو التيسير والرحمة وليست المشقة والعنت فعلينا إقامة هذا المنهج في حياتنا، ومن النماذج التي تحدثت عن سعة رحمة الله عز وجل في سورة النساء:

١. مع المنافقين

- الله عز وجل بعدما توعد المنافقين بالدرك الأسفل من النار في أغلظ عذاب في جهنم، يفتح لهم سبحانه وتعالى الرحيم باب للتوبة إن ندموا وأخلصوا في توبتهم وأصلحوا عملهم واعتصموا برحمهم ثم يقول الله عز وجل ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وتأكيداً أن هذا هو الأصل هو استغناء الله عز وجل عن عذاب عباده إن آمنوا به سبحانه وتعالى وبرسوله وأصلحوا في أعمالهم، فهو سبحانه وتعالى لا تنفعه عبادة ولا تضره معصية ولا يجب أن يعذب عباده، فلا يزال يعطيهم كامل الفرص مهما اقترفوا في حقه حتى الرمق الأخير في حياتهم لعلهم يرجعون إليه مهما كان ظلمهم.

٢. مع بني إسرائيل

- ومن أشد ظلمًا من بني إسرائيل؟ نجاهم الله عز وجل من البلاء العظيم من عذاب فرعون لهم، فسألوا موسى عليه السلام بطغيانهم وعتوهم أن يروا الله عز وجل جهرة فاستحقوا عقاب الله بأن أخذتهم الصيحة وليس ذلك فحسب بل بعد ما رأوا الآيات القاهرة والباهرة في هلاك فرعون اتخذوا عجلًا إلهًا لهم!! أي طغيان وظلم هذا، ثم انظر إلى رحمة الله عز وجل وعظم عفوه في قوله تعالى ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣] إن الله عز وجل هو العفو الرحيم.

٣. آيات الرحمة والمغفرة

- وإليك قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن آيات الرحمة والمغفرة في سورة النساء، قال رضي الله عنه: خمس آيات من النساء هن أحب إلي من الدنيا جميعًا:
- ١. ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

٢. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

٣. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٤. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

٥. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

- وتؤكد هذه الآيات أن من تاب من أي ذنب مهما كان صغيراً أو كبيراً، وإن تكرر منه تاب الله عليه ولو بلغت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال ما دام لم يشرك بالله عز وجل فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حديث طويل: «ذاك جبريل أتاني فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق؟ قال: "وإن زنى وإن سرق"»^(١).

- وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ثمانى آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أولهن ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، والثالثة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ثم ذكر الخمس آيات الأخرى التي قالها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خلق الإنسان ضعيفاً كي تتحقق فيه مادة العبودية من الافتقار ودوام العوز والاحتياج لمولاه القوي الغني، ولذلك كان التخفيف في شرعه سبحانه وتعالى والتيسير هو أصل الأوامر والنواهي رحمة بعباده الضعفاء، فما بالناس بالضعفاء من خلقه كالنساء واليتامى الذين وجب الرفق بهم ورعايتهم وحفظ حقوقهم وما بالناس بالمستضعفين المضطهدين الذين وجب حمايتهم والدفاع عنهم.

٤ . الرحمة في التشريع

- ومن التشريعات والأحكام التي وردت في سورة النساء والتي تحمل التخفيف والتيسير والسعة مؤكدة عظيمة رحمة الله عز وجل:

(١) المواريث وكما ذكر أن الإسلام فرض توريث النساء والصغار وضعفهم وهو ما لم يكن في الجاهلية وهذا من رحمة الله عز وجل بالنساء والصغار وتكريمهم بإقرار حقوقهم وفرضها.

(٢) تشريع التيمم في حالات فقدان الماء أو المرض الذي يخاف معه استعمال الماء توسعة على الأمة ورخصة لها، وهذا من عفوه سبحانه وتعالى لذلك اختتمت الآية بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ [النساء: ٤٣]، وما يؤكد مشروعية التيمم لهذه الأمة خصيصاً دون سائر الأمم ما قاله رسول الله (ﷺ) «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي منها وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(١).

(٣) تشريع القصر في الصلاة عند السفر وعند الخوف لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَجْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠٠]، عن يعلي بن أمية قال سألت عمر بن الخطاب قلت له قوله ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس فقال لي عمر رضی الله عنهم: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله (ﷺ) عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(٢).

(٤) تدرج تحريم الخمر باجتنابها عند حضور الصلوات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، وهذا قبل نزول آية تحريم الخمر بالكلية في سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النساء: ٩٠]، وآية سورة النساء تؤكد سعة الشرع وتيسيره في تدرجه فلو نزل التحريم مرة واحدة قبل دخول الإيمان القلوب لكانت الاستجابة

(١) صحيح البخاري كتاب الصلاة عن محمد بن سنان

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥ / ١)

أصعب فعن عائشة رضي الله عنها قالت "لو كان أول ما نزل من الدين لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً"^(١).

٥) تحريم قتل النفس للحفاظ عليها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] وتوعد من يفعل ذلك بعقوبة مغلظة زجرًا وردعًا من الوقوع فيها ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّبُهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠].

٦) قبول الدية في القتل العمد تخفيفًا من الله ورحمة مما كان مكتوبًا على الأمم قبلنا من الفعل فعن ابن عباس كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله عز وجل لهذه الأمة ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقبول التوبة في القتل الخطأ إن لم يستطع دفع الدية بصيام شهرين متتابعين توبة من الله لقوله تعالى ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

٧) ثم بينت لنا سورة النساء أنه لو كان التشريع الإلهي مبنيًا على المشقة والعنت وليس التيسير والرحمة لكلف الشارع الناس بقتل أنفسهم وما كان استطاع أن يفعل ذلك إلا القليل قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، بينما جزاء الملتزمين بتكاليف الشرع الحنيف بفعل الأوامر وترك النواهي مثوية بالأجر العظيم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

المقطع الثاني: شرط الإيمان في التلقي من المنهج الرباني ومحاولات الإضلال

عنه (الآيات ٤٤: ٧٠)

• يشمل المقطع الثاني في سورة النساء عرض العناصر التالية:

أولاً: شرط الإيمان وحد الإسلام بحسم دون تأويل.

(١) صحيح البخاري (الطلاق ٤٩٩٣) ، صحيح مسلم (١٠٩٣).

ثانيًا: مكر أعداء الدين وتزيينهم لإضلال الفئة المؤمنة وانحرافها عن المنهج الرباني.

ثالثًا: منهج الجاهلية الحديثة - الديمقراطية.

رابعًا: ولو أنهم استقاموا على منهج الله ولم ينحرفوا عنه!!

• ونبدأ بإذن الله بعرض تفاصيل هذا المقطع الأبرز في هذه السورة

أولاً: شرط الإيمان وحد الإسلام بحسم دون تأويل

• قال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

- قال ابن كثير في تفسيره: "يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكم الرسول (ﷺ) في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً، ولهذا قال "ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، أي: مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١) (٢).

• قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

- يقول الشيخ أحمد شاكر: "وها هي ذي الآيات في هذه السورة من الآية (٥٩) إلى آخر الآية (٦٥) واضحة الدلالة، صريحة اللفظ، لا تحتاج إلى طول شرح، ولا تحمل التلاعب بالتأويل. يأمرنا الله سبحانه فيها بطاعته وطاعة رسوله، وأولي الأمر منا، أي من المسلمين، ويأمرنا إذا تنازعنا في شيء واختلفنا أن نرده إلى حكم الله في كتابه وحكم رسوله في سنته. ويقول في ذلك: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. فيرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن طاعته وطاعة رسوله في

(١) حسن صحيح: ذكره النووي في الأربعين النووية

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٤٧٢

شأن الناس كلهم، وفيما يعرض لهم من قضايا وخلاف ونزاع.. شرط في الإيمان بالله واليوم الآخر. وكما قال الحافظ بن كثير: "تدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر". ثم يرينا الله سبحانه وتعالى حكمه في الذين يزعمون أنهم يؤمنون برسوله محمد (ﷺ) وبما أنزل إليه ﴿أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّحَاكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]. فيحكم بمن عدلوا عن المنهج الرباني وتحاكموا إلى ما سواه من الباطل، فيحكم بأنهم منافقون، والنفاق شر أنواع الكفر. ثم يعلمنا الله سبحانه وتعالى أنه لم يرسل رسله عبثاً، وإنما أرسلهم ليطيعهم الناس بإذن الله، ثم يقسم ربنا تبارك وتعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أن الناس لا يكونوا مؤمنين حتى يتحاكموا في شأنهم كله إلى رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنهم إن لم يفعلوا لم يكونوا مؤمنين قط، بل دخلوا في عداد الكافرين والمنافقين^(١).

- ويقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الآيات: "حين يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة في مواجهة الجاهلية وأوضاعها وتقاليدها، يبدأ القرآن فيقيم للجماعة المسلمة تصورها الصحيح ببيان شرط الإيمان وحد الإسلام، ويربط بهذا التصور- في هذه النقطة بالذات- نظامها الأساسي الذي يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها، ويفردها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس، ويتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها، والطريقة التي تتلقى بها، والمنهج الذي تفهم به ما تتلقى.. إن هذه الآيات تعرض بديهيات بوضوح يعجب الإنسان كيف يجادل "مسلم" فيها!

- القرآن يقول: إن الناس لا يؤمنون ابتداء إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ممثلاً- في حياة الرسول (ﷺ)- في أحكام الرسول (ﷺ). وبقياً بعده في مصدره القرآن والسنة بالبداهة، ولا يكفي أن يتحاكموا إليه ليحسبوا مؤمنين- بل لابد من أن يتقبلوا حكمه مسلمين راضين.. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ فهذا شرط الإيمان وحد الإسلام.. شرطاً واضحاً ونصاً

صريحًا.. يقرره الله سبحانه بنفسه ويقسم عليه بذاته.. فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل.. ولا تأويل لمؤول.. ليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله (ﷺ) هو تحكيم شخصه في حياته.. إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه.. والعجب العاجب أنك ترى قوم.. يزعمون.. الإيمان.. ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟! قوم يتحاكمون إلى ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك؟! إنهم فئة تدعي الإيمان بمنهج الله ولكنهم يريدون أن يتبعوا منهجًا آخر ويسيروا في مسار آخر.. وتكون مرجعيتهم إلى شيء آخر.. إلى.. الطاغوت.. الذي لا يستمد مما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.. بل يستمد إلى منهج آخر.. صنعه الشيطان وأولياؤه بهدف واحد ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.. تزيين أراد به الشيطان إضلال الإيمان.. نعم يدعي لأن شرط الإيمان هو التحاكم إلى منهج الله ورسوله (ﷺ).. أما التحاكم إلى الطاغوت فهو الضلال والكفر.. وهو طاغوت لأنه لا يقف عند ميزان مضبوط ويدعي خاصية من خواص الألوهية.. وهم لا يفعلون هذا عن جهل.. ولا عن ظن.. إنما يعلمون يقينًا ويعرفون تمامًا أن هذا الطريق كفر.. واتباع هذا المسار شرك.. وأن هذا المنهج محرم التحاكم إليه ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فليس في الأمر جهالة ولا ظن.. بل هو العمد والقصد.. ومن ثم.. ولذلك لا يستقم صاحب ذلك الزعم..

وهكذا يكشف لهم القرآن هذه الحقيقة.. إنها شرط الإيمان وحد الإسلام لعلهم ينتبهون فيرجعوا" (١).

ثانيًا: مكر أعداء الدين وتزيينهم لإضلال الفئة المؤمنة وانحرافها عن

المنهج الرباني

• قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٦٨٦ : ٦٩٤ بتصرف يسير

- يقول ابن كثير في تفسيره: "يخبر تبارك وتعالى عن اليهود- عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة- أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، في صفة مُحَمَّدٍ (ﷺ)، ليشتروا به ثمنًا قليلاً من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَصِلُوا السَّبِيلَ﴾ أي: يودون لو تكفروا بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركوا ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي: هو يعلم بهم ويجذركم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: كفى به ولياً لمن لجأ واعتصم به، ونصيراً لمن استنصره"^(١).

- وهكذا تستمر محاولات أعداء الدين في كل حين وفي القلب منهم اليهود العدو الأزلي للأمة المسلمة من المكر والخداع والتزيين والدسائس كي تنحرف الأمة المسلمة وفي القلب منها الفئة المؤمنة المنوط بها قيادة البشرية بمنهج الله..
- وبذلك التحذير يخوض القرآن الكريم معركة وعي للفئة المؤمنة يستنقذها من أي وهم يصنع لها، ومن أي زيف يزين لها، ومن أي خداع ينصب لها.. فالقرآن خاض بالفئة المؤمنة معركة تطهير النفوس ومحو ملامح الجاهلية منها وإزالة رواسيها العالقة بها، وأيضاً يخوض معركة خارجية بين الفئة المؤمنة وأعداءها من أولياء الشيطان.. إنها معركة البناء.. بناء مجتمع جديد.. على أسس المنهج الرباني الجديد.. والذي يتطلب أولاً إزالة الجاهلية بقواعدها وتقاليدها ونظمها وعقيدتها الفاسدة، لينشئ قواعد جديدة وتقاليد جديدة ونظم جديدة وعقيدة صحيحة.
- معركة الوعي بدأت بتنبية المسلمين وتحذيرهم من الأعياب أعداء الدين وتديبرهم.. فكشف القرآن للمسلمين عن حقيقة المعركة أنها: "معركة العقيدة"، والمطلوب فيها هو: "زعزعة المسلمين عن عقيدتهم وانحرافهم عن منهجهم".. ولا يزال القرآن يبصر المسلمين بهدف أعدائهم هذا، قال تعالى ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].. فهل استجابت الأمة المسلمة لتحذيرات القرآن..

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٤٥٩

وخاضت معركة الوعي.. وتمسكت بمنهجها الرباني؟ أم اتبعت سنن (طرق) ومناهج الجاهلية الضالة والمزيفة فسقطت في فتنها وانحرفت عن عقيدتها ومنهجها؟

ثالثاً: منهج الجاهلية الحديثة (الديمقراطية)

• وللأهمية البارزة لهذا المبحث، سنقوم بعون الله وتوفيقه بعرض تفصيلي له في تمهيد وستة فصول، نين فيها بإذن الله الصلة بين سورة النساء وعرض هذا المبحث فيها حيث يظهر لنا في الفصل السادس مدى التناسب بين موضوع السورة وبين: منهج الجاهلية الحديثة (الديمقراطية).

← الفصل الأول: حقيقة الديمقراطية ونشأتها.

← الفصل الثاني: قواعد منهج الديمقراطية وتقاليدها.

← الفصل الثالث: الخديعة الكبرى والوهم الزائف.

← الفصل الرابع: الحكم الشرعي على الديمقراطية.

← الفصل الخامس: شبهات خوض مسار الديمقراطية والرد عليها.

← الفصل السادس: سورة النساء تعرض منهج الإسلام وتبطل منهج الديمقراطية.

تمهيد: تذكر تحذيرات سورة (آل عمران)

- ركزت سورة (آل عمران) في وحدتها الموضوعية على الثبات على الحق والاستقامة على العقيدة الخالصة.. عقيدة التوحيد الصافية، وكشفت محاولات أهل الكتاب لزعة المسلمين عن منهجهم وعقيدتهم، لأن أعداء الدين في كل حين يدركون أن مصدر قوة هذه الأمة المسلمة هو منهجها الصافي وعقيدتها الخالصة، وأنهم لن يستطيعوا هزيمتها إلا بعد أن تحيد الأمة عن مصدر قوتها، ولن يتم ذلك إلا بتزيين حبال العنكبوت للأمة والتي تمثلت في: مناهج غريبة مستوردة اخترقت الأمة المسلمة، كما عرضنا في سورة آل عمران^(١) عن صراع الروم والصليبيين مع أمتنا منذ عام ٦٥٣م، والذي وصل بعد قرون من المواجهات المسلحة المباشرة إلى استخدام سلاح المستشرقين المندسين داخل ديار الإسلام، ثم كانت حملة نابليون الصليبي لمصر بداية الخديعة

(١) عرض سورة آل عمران

الكبرى لزعة العقيدة وطمس الهوية.. وجاءت البعثات العلمية من فرنسا لتروج للمناهج الحديثة الغربية بدعوى التنوير، غزت الأمة مناهج الغرب الصليبي، وصارت هي المسيطرة والمتحكمة في بلاد المسلمين.. وظهر الفساد في البر والبحر.. وظهر الانحلال والإباحية.. ونُحيت الشريعة عن التحاكم إليها.. ثم فصل الدين عن كل شؤون الحياة.. وبقي لنا من الدين أسماء المسلمين، وطقوس وشعائر تعبدية.. وسيرت الحياة بدساتير وقوانين وضعية!!

- والسبب أننا تخلينا عن تحذيرات القرآن والتي أفرد لها سورة (آل عمران) بعدم التلقي من مناهج أعداء الدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[آل عمران: ١٠٠-١٠١].

الفصل الأول: حقيقة الديمقراطية ونشأتها

- أصل كلمة "الديمقراطية" من اللغة اليونانية، وتتألف من لفظتين الأولى وهي: "ديمو" وتعني حكم أو سلطة، والثانية وهي: "كراتيا" وتعني الشعب، أي معنى كلمة "ديمقراطية": "حكم الشعب" أو "سلطة الشعب"، والمقصود بها وفق الفلسفة الغربية "حكم الشعب نفسه بنفسه عن طريق اختيار الشعب لحكامه وممثليه".
- وجاءت في الموسوعة السياسية ما نصه (تقوم كل الأنظمة الديمقراطية على أساس فكري واحد هو: أن السلطة ترجع إلى الشعب وأنه هو صاحب السيادة)^(١).
- وقال د. عبد الحميد متولي أستاذ القانون الدستوري: "الديمقراطية يعبر عنها في الدساتير بمبدأ سيادة الأمة، والسيادة طبقاً لتعريفها هي سلطة عليا لا يوجد أعلى منها"^(٢).
- نشأة الديمقراطية القديمة في أثينا وأسرطة باجتماع رجال المدينة لانتخاب حكومة عرفت باسم (حكومة المدينة) تقوم بإصدار القوانين في كل قضية تعرض عليهم، ويتخذون لها حلاً، وبقيت كذلك (حكومة المدينة) حتى اندثرت هذه الديمقراطية، وساد أوروبا الإقطاع لقرون طويلة^(١).

(١) الموسوعة السياسية، د. عبد الوهاب الليالي، ٢ / ٧٥٦

(٢) أنظمة الحكم في الدول النامية، ص ٦٢٠

- والإقطاع: هو تسلط النبلاء والأشراف من البابوات ورجال الكنيسة والوجهاء الأثرياء وكبار الملاك على الحكم ومقاليد الأمور، وإخضاع الشعوب لتسلطهم تحت زعمهم أنهم أصحاب الحق الإلهي المقدس، فيما عرف بنظرية "التفويض الإلهي" بأن الحكام والملوك يحكمون باختيار وتفويض من الله، وسادت هذه النظرية في أوروبا نحو عشرة قرون من الزمان.
- ثم لعبت الأيدي اليهودية بمكرها ودسائسها في صياغة شعارات الثورة الفرنسية من الحرية والمساواة للتمرد على نظرية التفويض الإلهي، والانتقال إلى نظرية سيادة الأمة وذلك عام ١٧٨٩م، حيث نصت المادة الثالثة من إعلان حقوق الإنسان على: "الأمة مصدر السيادة ومستودعها وكل هيئة وكل شخص يتولى الحكم إنما يستمد سلطته منها"^(٢).
- وقامت بذلك الديمقراطية الحديثة التي أرست دعائمها الثورة الفرنسية، وكان دعاة الديمقراطية حينئذ يهدفون إلى إنهاء عصر الإقطاع لمنع الظلم والجور الواقع على الطبقات المستضعفة من العمال والفقراء والمحرومين، هذه الطبقات التي كانت لا قيمة لها ولا وزن.
- لذلك كانت هذه الطبقات هي وقود الثورة الفرنسية إلى أن جاء أصحاب الجاه والنفوذ وانتزعوا هذه الثورة تحت تأثير جهل هذه الطبقات الفقيرة وحاجتها إلى المال فصوروا أنفسهم هم حماة الشعب، فقاموا بتمثيلهم في مجالسهم النيابية، فانتهى حكم الإقطاعيين والبابوات وجاء الرأسماليون الجدد المنتخبين بكل حرية وباسم الديمقراطية، وقاموا بالسيطرة على مقدرات الشعوب كما فعل الإقطاعيون، ولكن هذه المرة باسم الديمقراطية.. وتحت زعم وخديعة أن الشعب يحكم نفسه بنفسه.. ولكن الحقيقة أنها ليست إرادة الناس، إنما إرادة أصحاب الثروة ومراكز القوى المسيطرون على الصحافة والإذاعة والدعايات.

الفصل الثاني: قواعد منهج الديمقراطية وتقاليدها

- تأسست قواعد منهج الديمقراطية على أربعة قواعد شكلت مبادئها وتقاليدها الرئيسية التي لا تنفك أبدًا عن بعضها البعض لتقدم لنا هذا المنهج على حقيقته، وهذه القواعد هي:

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة، ص ٧٦١

(٢) فتنة الديمقراطية، ص ٤٥ : ٤٦

- القاعدة الأولى- الجانب السياسي: السيادة للشعب والإرادة للأغلبية.

- القاعدة الثانية- الجانب الاقتصادي: الرأسمالية والحرية المطلقة لرأس المال.

- القاعدة الثالثة- الجانب العقدي: حرية الاعتقاد وفصل الدين عن الدولة.

- القاعدة الرابعة- الجانب الاجتماعي: المساواة والتحرر.

• ونقوم بإذن الله بتوضيح موجز لكل قاعدة

القاعدة الأولى- الجانب السياسي: السيادة للشعب والإرادة للأغلبية

- بُنيت الديمقراطية على قاعدة السيادة للشعب، وهذه القاعدة تمثل القيمة المثالية العليا في

النظام الديمقراطي، ويقول جوزيف فرانكل أحد السياسيين الغربيين في معنى السيادة: "السيادة

تعني السلطة العليا التي لا تعترف بسلطة أعلى منها أو من ورائها تملك صلاحية إعادة النظر

في قراراتها، وهذا المعنى الأساسي لم يلحقه التغيير على طول العصور الحديثة".

- وقد تم التعبير عن هذه السيادة في الدساتير التي وضعتها الدول المعاصرة، والتي تمثل النصوص

الحاكمة والمنظمة لشؤون هذه الدول، كما جاء في الدستور الفرنسي الصادر عام ١٧٩١م

ونص على أن: "السيادة ملك الأمة ولا تقبل التجزئة ولا التنازل عنها"، ومنها تلقت الأمة

المسلمة هذه القاعدة المستوردة من الغرب، كما جاء في الدستور المصري عام ١٩٧١م على

سبيل المثال، حيث نصت المادة الثالثة فيه على أن: "السيادة للشعب وحده وهو مصدر

السلطات، ويمارس الشعب هذه السيادة ويحميها ويصون الوحدة الوطنية على الوجه المبين في

الدستور".

- أما المعيار المحدد لسلطة سيادة الشعب فهو: تحكيم إرادة الأغلبية، وقد أخذت ثلاث صور

وهي:

(١) الديمقراطية المباشرة: أن يدير الشعب أمور نفسه بنفسه بشكل مباشر، وهذه الصورة نظرية

ليس لها وجود الآن إلا في بعض الولايات السويسرية.

(٢) الديمقراطية غير المباشرة: وهي عن طريق انتخاب نواب يشكلون مجالس برلمانية تمارس شؤون

الحكم، وتشرع القوانين المنبثقة من مواد الدساتير الموضوعة.

٣) الديمقراطية شبه المباشرة: تجمع بين الديمقراطية المباشرة وغير المباشرة على أساس ركنين وهما:
أ) يزاول الشعب بنفسه مقدار معين من المشاركة المباشرة في صنع القرارات مثل المشاركة في الاستفتاءات التي تدعوهم إليها السلطة الحاكمة لها.

ب) تتألف هيئة نيابية ينتخبها الشعب تمارس شؤون الحكم وتشرع القوانين المنبثقة من الدستور والقوانين المكملة له.

القاعدة الثانية- الجانب الاقتصادي: وهي الحاكمة الحقيقية لمقاليده النظم الديمقراطية الحديثة.

- والرأسمالية هي: "الحرية المطلقة لرأس المال من حرية السوق وحرية التملك المطلق بكل الصور بدون قيم أو ضوابط أو حواجز".

مما يعني أن أي وسيلة ستحقق الربح فهي مباحة في الرأسمالية، وقد أدت الرأسمالية إلى سيطرة قلة على رؤوس الأموال، احتكرت الثروات في كل المجتمعات الحديثة وهي طبقة لا تزيد عن ١% منها، بينما باقي المواطنون من أصحاب الطبقة المتوسطة والأغلبية هم أصحاب الفقر المدقع.

- وتقوم القلة القليلة لأصحاب الثراء الفاحش بالسيطرة على وسائل الإعلام والأحزاب السياسية والبرلمانات وتقوم بتشكيل الرأي العام، وهذه القلة في الحقيقة تحتكر السياسات العالمية للدول الكبرى من خلال الشركات الكبرى الاقتصادية الرأسمالية التي تملكها، كما تقوم بتزييف أفكار الناس من خلال الإعلام الموجه.

- والحقيقة أن الديمقراطية بمجالسها النيابية- بممثلي الشعب فيها- هي التي تصدر القوانين التي تبيح للرأسمالية أن تتصرف على هذا النحو دون أن تجرؤ على التدخل فيها.. فصارت السيادة المطلقة في النهاية في يد أقلية من الأثرياء الذين يتحكمون في كل صغيرة وكبيرة وليست في يد الشعب الذي أغلبه من الفقراء الذين لا يستطيعون الوصول لهذه المجالس، ويتلاعب بعقولهم الإعلام، ويستغل فقرهم أصحاب المصالح والأموال.

- وصارت الرأسمالية والديمقراطية وجهان لعملة واحدة، حيث الرأسمالية هي الوجه الاقتصادي للديمقراطية، والديمقراطية هي الوجه السياسي للرأسمالية.. وصار الإعلام ورأس المال في النظام الديمقراطي يقابل الكراييج والعصيان في النظام الديكتاتوري...

القاعدة الثالثة- الجانب العقدي: حرية الاعتقاد وفصل الدين عن الدولة

- الديمقراطية تركز على حرية الاعتقاد المطلقة، فمن شاء أن يلحد أو يرتد عن دينه فالديمقراطية تكفل له هذا الحق حيث أن كل فرد في النظام الديمقراطي يدين بما شاء من العقائد والملل والنحل ويعلن ذلك دون أن يكون دخل للقانون أو للمجتمع بذلك.

- كما أن الديمقراطية تركز على أن إرادة الأغلبية هي مصدر الشرعية، والعلمانية هي فصل الدين على أن يكون مصدرًا للشرعية، ويكون أي شيء غير الدين هو مصدر للشرعية كالعقل المطلق المجرد أو العلم التجريبي أو الدستور أو رأي الأغلبية..

- لذلك فالديمقراطية هي صورة من صور العلمانية لأنها لا تجعل الدين مصدرًا للشرعية، يقول الدكتور سفر الحوالي: ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب وليس باسم الله وعلى حرية التدين بدلًا من الكتلثة وعلى الحرية الشخصية بدلًا من التقييد بالأخلاق الدينية وعلى دستور وضعي بدلًا من قرارات الكنيسة^(١).

- وانتشر مبدأ ما لله الله وما لقيصر لقيصر في النظم الديمقراطية الغربية إعلانًا بفصل الدين عن التدخل في شؤون الحياة، وسارعت أمة الإسلام تعلن عن طريق أنظمتها الحاكمة ومثقفاتها عن تبنيها مبادئ العلمانية مثل: لا دين في السياسة... ولا سياسة في الدين، والدين لله والوطن للجميع.. وأن الإسلام عبارة عن شعائر وطقوس وعبادات ولا دخل له بشؤون الحكم والاقتصاد.

القاعدة الرابعة- الجانب الاجتماعي: المساواة والتحرر

- من القواعد الرئيسية للنظام الديمقراطي: المساواة المطلقة التي لا تعرف الحدود، مساواة بين المسلم والكافر على أساس المواطنة، مساواة بين الرجل والمرأة دفعت المرأة للخروج والاختلاط مع الرجال بدون أي قيود، مما جعل المرأة فريسة للذئاب وتقع في مستنقع الدعارة والانحلال الخلقي.

(١) العلمانية لسفر الحوالي، ص ١٦٩

- ثم كفل النظام الديمقراطي من خلال القانون الحرية الشخصية في ممارسة الرذائل وإظهار الفجور وحرية الجنس بدعوى الحرية، فالسلوك الجنسي غير مجرم ولا يتدخل القانون بشأنه طالما باتفاق الطرفين، ويتدخل فقط في حالة جريمة الاغتصاب لأنها تقع بالإكراه.
- كما يقر النظام الديمقراطي بحرية الرأي والتعبير التي أباحت الطعن في الدين في كل وسائل الإعلام بل وصلت إلى سب الله ورسوله (ﷺ)، إذ لا يوجد في الديمقراطية شيء مقدس يجرم الخوض فيه أو أي إنكار على ذلك، وبعد نشر جريدة "يلاندس بوستن" الدنماركية الرسوم المسيئة للنبي (ﷺ)، قال رئيس الوزراء الدنماركي حينها: "اندرس فوج راسموسن": "إنه لن يتدخل في تلك المسألة بدعوى أن حرية التعبير هي من أهم أسس الديمقراطية الدنماركية" كما رفض إدانة الرسوم المسيئة واصفًا نشرها بأنه يدخل في حرية التعبير التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة.
- فسارعت كثير من دول أمة الإسلام تحت دعاوي حرية التعبير لكتابة روايات تسيء للذات الإلهية مثل: أولاد حارتنا، أعشاب البحر، مع دعم وزارة الثقافة المصرية لمثل هذه الروايات..
- ولما منع النقاب في جامعة القاهرة لم يصرح المنادون بالديمقراطية أنه: حرية شخصية.
- ومما سبق في عرض قواعد وتقاليد منهج الديمقراطية، نجد أن الديمقراطية وجهها السياسي هو سيادة الشعب، ووجهها الاقتصادي هو الرأسمالية، ووجهها العقائدي هو العلمانية، ووجهها الاجتماعي هو الإباحية والانحلال الأخلاقي.. وجوه عدة لمنهج واحد لا تنفك عنه في الدول الغربية المصدرة للمنهج، والدول المسلمة المستوردة له.

الفصل الثالث: الخديعة الكبرى والوهم الزائف

- خُدعت الأمة المسلمة بتزيين الغرب الصليبي لها بلعبة بالديمقراطية، من خلال مساحيق وضع على عجوز شمطاء، فلهتت الأمة خلف صيحات خادعة وشعارات براقية، وسعت خلف سراب لامع وزخرف عارض من صناعة الشيطان وأوليائه.. وحينما أخذت الأمة سكرة هذه الخديعة الكبرى وتم بيع لها هذا الوهم الزائف كانت النشوة عندها أكبر من محاولات الإيقاظ بكثير..

حتى اكتشفت الأمة المسلمة جزء من الواقع وهي معلقة في الهواء بعد سحب الغرب الصليبي
لسلم الديمقراطية من تحتها.. فما هي أبعاد هذه الخديعة؟

أولاً: نشأة الديمقراطية الحديثة لتعطي الحكم للشعب بدلاً من حكم الملوك الإقطاعيين،
فاتضح أن النظام الديمقراطي أعاد الحكم الإقطاعي تحت مسمى جديد وهم أصحاب رؤوس
الأموال والنفوذ، وهم صاروا طبقة الأسياد، وصار عموم الشعب هم طبقة العبيد، فلا الديمقراطية
هي حكم الشعب في الواقع وليست السيادة للأمة فيها كما يدعون!

• يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "لقد هربت أوروبا من الكنيسة الطاغية في أثناء ثورتها عليها،
وعلقوا كل أمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية والأوضاع النيابية
البرلمانية والحريات الصحفية والضمانات القضائية وحكم الأغلبية المنتخبة إلى آخر هذه
المهالات التي أحيطت بها، فظهر أن الحاكم في الديمقراطية الليبرالية هو الرأسمالية التي تملك
وتحكم ولا معقب من البشر لحكمها، الرأسمالية يهودية أو غير يهودية هي التي تدير المسرحية
كلها وهي التي تضع التشريعات المحافظة على مصالحها على حساب مصالح الشعب الذي يقع
عليه الظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في كل جاهلية من جاهليات التاريخ، ووقعت
الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية"^(١).

ثانياً: حقيقة أن الديمقراطية هي التي أعطت العمال والفقراء حقوقهم بعد الثورة الفرنسية
على الإقطاع عام ١٧٨٩م، ظهر زيفه.. فالذي أعطى هؤلاء الضعفاء حقوقهم في أوروبا هو
نضالهم وانتزاعهم بدمائهم لحقوقهم المالية وأجورهم وليس النظام الديمقراطي!

ثالثاً: وكما أن الديمقراطية ليست سيادة الشعب في الواقع، أيضاً ليست الإرادة فيها
للأغلبية كما زعم في تأسيسها وفي شعارتها وتصوراتها الكاذبة.. فالديمقراطية ليست تعبير حقيقي عن
إرادة الناس! فالديمقراطية هي حكم الأقلية وبلغة الأرقام:

- على سبيل المثال: أجريت انتخابات رئاسية في موريتانيا يوم ٢٥/٣/٢٠٠٧، وكان عدد المسجلين فيها: (١٧٦, ١٣٢, ١) وعدد المصوتين كان (٧٦٤, ٠٤٥) صوتاً. وقد نجح المرشح الفائز بالرئاسة لأنه صوت له: (٣٧٣, ٥١٩) فقط مع أن عدد المواطنين الموريتانيين أكثر من: (٣, ٣٠٠, ٠٠٠) نسمة حينها.. أي أن الذين انتخبوا الرئيس هم ١٠% من المواطنين، فهل هذه إرادة الأغلبية أم حكم الأقلية؟! فلقد شارك (١٠%) وغاب (٩٠%)!

- وفي كل البلاد التي تزعم أنها أصحاب الديمقراطيات العتيقة، ينفرد بالمنافسة حزبين فقط يتم الاختيار منهما بالاجبار ولا توجد خديعة التداول بين المواطنين.. إنما احتكار المرشحين بين شخصين اثنين من هذين الحزبين، كحزب العمال والمحافظين في بريطانيا، وحزب الجمهوريين والديمقراطيين في أمريكا، فهل هذه هي إرادة الأغلبية.

رابعاً: حتى الـ ١٠% الذين شاركوا لم يكونوا أحرار في إرادتهم، وإنما كانوا تحت تأثير الإعلام الموجه، والأموال المتحكمة، فليست المشكلة في نظام الانتخاب كأداة التصويت ولكن العيب في آلية الانتخاب التي دعت العوام بأهوائهم وجهلهم ووقوعهم تحت حسابات المصالح وليست الكفاءات، والأमीين منهم الذين يتأثرون بالإعلام المزيف للحقائق، والفقراء منهم المتأثرين بالأموال وشراء الذمم والأصوات! فلا تملك الديمقراطية: الآلية الصحيحة في اختيار الأصلاح والأكفأ.

خامساً: وهي البُعد الأخطر في هذه الخديعة الكبرى، وهي أن الديمقراطية هي أداة هيمنة النظام الجاهلي العالمي تحت قيادة أمريكا على مقاليد الأمور في الأرض، وعدم خروج الأمة المسلمة عن مسار التبعية الذي رسم لها، فجميع القوى التي تخوض اللعبة الديمقراطية تظل داخل الإطار الأمريكي وليس مصطدمين معه متصالحين فلسفياً وواقعياً معه، ولو فكروا في الخروج عن هذا الإطار فالتعامل معهم سهل، ودماؤهم وحدها هي الثمن المسفوك ودون النتيجة المرجوة..

- فالأرض تعيش تحت خلافة أمريكية مكتملة الأركان، معها كل المنظمات الدولية التي تبقى على شرعيتها الدولية في قلوب المغفلين، مثل منظمة الأمم المتحدة التي تمثل ديوان الشكاوى في نيويورك، ومجلس الأمن يمثل القيادة السياسية لجيوش الخلافة في نيويورك أيضاً، والبنك

وصندوق النقد الدولي بمثابة بيت المال في واشنطن، ووكالة الطاقة الذرية تعبر عن مفتش الخليفة للتحكم في تسليح بلدان الخلافة، والناتو هو جيش الخلافة الفاتح الذي يأمر فيقطع ويبطش فلا يلام.. والديمقراطية هي المسار المرسوم لتظل الدول التابعة تدور في فلك هذا النظام الجاهلي العالمي..

- والسياسة الأمريكية تدعم خطين يبدو أنهما متعارضين لتظل الأوضاع تحت سيطرتها: مساراً يمثل إرادتها الحقيقية فيه تقوم بدعم أنظمة الاستبداد، وفي الوقت نفسه خطأ آخر يعترض على الخط السابق بدعم قيم الديمقراطية وحاملها لتظل الأمور لا تخرج عن صندوقها..

الفصل الرابع: الحكم الشرعي على الديمقراطية

• نبدأ أولاً بالإجابة على سؤال: لماذا تمثل الديمقراطية منهج الجاهلية في العصر الحديث؟
والإجابة بإذن الله هي أن تقاليد ومبادئ وأركان الديمقراطية تتطابق هي نفسها مع تقاليد ومبادئ وأركان الجاهلية الأولى مطابقة مكتملة الأركان، والتي نلخصها في النقاط التالية:

أولاً: التحرر هو تبرج الجاهلية الأولى

- قال تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، إن التبرج كان سمة بارزة في الجاهلية الأولى، والذي لم يكن كناية عن عدم الحشمة فحسب، بل كان التبرج كناية أن المرأة صارت سلعة معروضة لإثارة الشهوات، والوقوع في السفاح والمخادنة والبغاء، كما ذكرنا في الصورة التي كانت منتشرة في الجاهلية الأولى من زواج الاستبضاع وأصحاب الرايات من البغايا..

- وهو نفس ما اتسمت به الجاهلية الحديثة بسبب تقاليد الديمقراطية ومبادئها، فتحت دعوى "الحرية الشخصية" وجدنا صفة زغلول وهدى شعراوي يخلعان الحجاب في ميدان سمي "بالتحرير" كناية عن تحرهن بإعلان تبرج الجاهلية الجديدة، وصارت المرأة أيضاً سلعة معروضة لإثارة الشهوات، فجردت تقاليد الديمقراطية المرأة من عفتها وأطلقت لها العنان فصارت المرأة عارضة أزياء، ومطربة ولاعبة باليه وممثلة!

- وأنشئت الكثير من الحركات التي سميت بحركات التحرر النسائية تدعو للمساواة بين الرجل والمرأة في كثير من الدول الديمقراطية.
- كما رأينا حرية ممارسة الجنس بلا ضابط من خلق أو قانون يجرم باعتبار أن الحرية الشخصية تبيح ذلك، وكما ذكرنا على سبيل المثال: أن ٨٠% من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج، بينما بقين ٢٠% بلا زواج.. بسبب كشف العورات والسفور وإشاعة الفاحشة ثمرات التحرر والحرية الشخصية مبادئ منهج الديمقراطية!!

ثانياً: الدساتير والبرلمانات حكم الجاهلية الأولى

- قال تعالى ﴿أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، إن الجاهلية الأولى اتسمت بتحليل الحرام وتحريم الحلال من خلال علماء اليهود والنصارى الذين سماهم الله عز وجل أرباباً من دون الله، قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال النبي (ﷺ) لعدي بن حاتم «إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»^(١). فكانت طاعتهم في تشريعهم هذا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً، لأنهم أطاعوهم كما يطاع الرب.

- واعتادت الجاهلية الأولى على التحليل والتحرير فيما لم ينزل الله به سلطاناً، فكانوا أحدثوا تحليل شهر الحرم بتأخيره إلى صفر، فيحلوا الشهر الحرام، ويحرموا الشهر الحلال ليوافقوا إجمالي الشهور التي حرمها الله عز وجل وهي أربعة أشهر، فيقولون عاماً: إنا قد حرّمنا الحرم، وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل يقولون: إنا قد حرّمنا صفر، وأخرنا الحرم يقول الله عز وجل عنهم ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجْلُونَ عَامًا وَيُجْرِمُونَ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

(١) رواه أحمد في مسنده (٤ / ٣٧٨)، وصححه الألباني

- إن أساس النظام الديمقراطي هو مبدأ "السيادة للشعب"، والتعبير عنه بانتخاب وتشكيل مجالس برلمانية أعطت للبشر مرة أخرى مزاولة التحليل والتحرير من دون الله، وإباحة ما حرم الله من الزنا والربا.

فصار الدستور الوضعي بديلاً عن الشريعة الإسلامية، حتى وإن وضع فيه مادة شكلية لذر الرماد في العيون أن: "مبادئ الشريعة هي مصدر رئيسي للتشريع"، وصار النواب الجدد هم الأرباب الأوائل، كما يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله يقع هذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الدكتاتوريات سواء، إن أول خصائص الربوبية هو حق تعبد الناس، هو إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازنين، وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس، في صورة من الصور التي يرجع الأمر فيها إلى مجموعة من الناس.. وهي المجموعة التي تخضع الآخرين لتشريعاتها وموازينها وتصوراتها وهي الأرباب الأرضية التي يتخذها بعض الناس أرباباً من دون الله"^(١).

- إن استناد النظم الديمقراطية إلى دساتير وضعية بغير سند إلى شريعة الله، يقوم عليها أناس من البشر يشرعون قوانيناً تخالف الحكم بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) يكون حكم الجاهلية الجديدة كما كان حكم الجاهلية الأولى، وكما كان حكم الجاهلية في كل زمان، قال تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، يقول ابن كثير في تفسيره: "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، والناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم سنكرز خان (جنكيز خان) الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى

من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(١).

ثالثاً: فصل الدين عن الحياة معتقد الجاهلية الأولى

- من التصورات الفاسدة والمعتقدات الباطلة لدى الجاهلية الأولى: الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضها، قال تعالى ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ١٩٠-١٩١]، يقول ابن كثير: "أي جزؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فأمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، روى البخاري عن ابن عباس (جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) قال: هما أهل الكتاب جزؤوه أجزاءً، فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه^(٢)"^(٣).

- وكان الناس في الجاهلية يجعلون لله جزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون، وجزءاً يجعلونه لشركائهم، قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: "إن أعداء الله كانوا إذا أحدثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سموه للصدمة ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير! ولم يردوه إلى ما جعلوا لله، وكانوا يجرمون من الأنعام البحرية والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونها للأوثان، ويزعمون أنهم يجرمونه لله"^(٤).

مزاعم باطلة وتصورات فاسدة تنم عن مذهب الجاهلية الأولى في تجزئة ما لله من التصرف والأوامر والنواهي، وما للبشر من التصرف والأوامر والنواهي، لذلك جاء في أواخر سورة الأنعام التي وردت فيها الآية السابقة قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٦١٣

(٢) صحيح: البخاري (٤٧٠٥)

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ٢/ ٣٢٤

(٤) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٧٢٦

العَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢] أي أن الحياة كلها شعائر وشرائع وأوامر ونواهي لله تعالى فهو رب كل شيء ومليكه وخالقه وله الملك وحده، وكل شيء له وفي تصريفه لا إله غيره، ولا رب سواه.

- وكما كان مذهب الجاهلية الأولى في تجزئة دين الله وأوامره ونواهيه، اتجهت جاهلية العصر الحديث إلى جعل الدين يقف عند حيز العبادات والطقوس والشعائر فقط، وليس للدين أي علاقة بشؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والقانونية وهذا هو مفهوم "العلمانية".

- وتعتبر الديمقراطية التعبير السياسي للعلمانية، حيث تعتمد أهم قواعد الديمقراطية في كل البلدان على عزل الدين عن جميع النواحي السياسية وشؤون الحكم بحجبتهم المزعومة أنه: لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين، فصار معتقد الديمقراطية في فصل الدين عن الحياة هو معتقد الجاهلية في العصر الحديث.

الحكم الشرعي في الديمقراطية

- بعدما اتضح لنا بفضل الله الخديعة الكبرى والوهم الزائف للنظام الديمقراطي بعد التعرف على أركانه وتقاليده وركائزه ومبادئه، فثبت أكذوبة هذا المسار، يبقى الاعتبار الأهم والمحرك الأساسي لأي فئة مؤمنة وهو ما حكم الشرع في الديمقراطية؟، ونؤكد ابتداءً أن الحكم الشرعي من خلال الكتاب والسنة وأقوال الأئمة والعلماء يقتصر على الديمقراطية كنظام ومنهج، وليس على من سلك هذا المسار متأولاً أو جاهلاً..

- وقد بُني الحكم الشرعي في الديمقراطية على أركانها وركائزها ومكونات نظامها ومنهجها، فاستند الحكم عليها وجود مناطاته أي مسبباته وتحقق العلة منه.

(١) حكم: السيادة للشعب وعدم التحاكم إلى شرع الله.

(٢) حكم: تشريع ما لم يأذن به الله.

(٣) حكم: العلمانية وفصل الدين عن الدولة.

• ونبدأ بعون الله وتوفيقه...

أولاً: حكم السيادة للشعب وعدم التحاكم إلى شرع الله

- السيادة تعني: السلطة العليا المطلقة أي الحاكمية، ودين الله القيم السيادة فيه والحاكمية لله عز وجل وحده لا شريك له ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

- ومعنى سيادة الشعب أي التحاكم إلى الدستور الوضعي فهو السلطة العليا في النظم الديمقراطية بديلاً عن التحاكم إلى شرع الله، وحكم ذلك أنه "كفر بواح" والأدلة على ذلك فهي:

• قال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

- قال ابن كثير: "يقسم الله بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا"^(١).

- وقال أحمد شاكر: "هذه الآيات من (٥٩: ٦٥) من سورة النساء، واضحة الدلالة صريحة اللفظ لا تحتاج إلى طول شرح ولا تحمل التلاعب بالتأويل وكما قال الحافظ بن كثير آنفًا (ص: ٤٧٠): "تدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر". .. وأما حكم الذين يزعمون أنهم يؤمنون برسول الله محمد (ﷺ) وبما أنزل إليه ثم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، فيحكم بأهم منافقون، والنفاق شر أنواع الكفر، لا ينافقون به المؤمنون، ولا يخضعون في قبوله لقوة حاكم أو غيره، بل يرضون به مهما يلقوا في ذلك من مشقة أو مؤنة، وأنهم إن لم يفعلوا لم يكونوا مؤمنين قط، بل دخلوا في عداد الكافرين والمنافقين"^(٢).

- ويقول الشيخ أبو الحسن البليدي: "لما وقع في القرون الأخيرة هذه استبدال القوانين الوضعية بالشرع المطهر، أحوج ذلك أهل العلم إلى بيان خطر هذه الواقعة على الإسلام وأهله، إذا كان

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، تحقيق أحمد شاكر، ١/ ٤٣٧

(٢) نفس المصدر السابق

التحاكم إلى شريعة الله تعالى والرضا بحكمه والتسليم له فارقاً بين الشرك والتوحيد، وكان تحكيم هذه الشرائع النصرانية واليهودية مناقضاً لما أمر الله تعالى به من إفراده بالربوبية والألوهية وحده لا شريك له ولما أوجبه من الكفر بالطاغوت الذي لا يصح إيمان عبد إلا به.. فاستعمل أهل العلم مصطلح توحيد الحاكمية.. وهو مندرج تحت توحيد الألوهية^(١).

- يقول الشيخ محمد إسماعيل المقدم: "خلاصة القول أن القضية إما أن تكون السيادة للشرع والقرآن وإما أن تكون السيادة للأمة والبرلمان، ودون حسم هذه النقطة في البداية سوف يظل الناس في غيبش وكل إصلاح يأتي بعد ذلك ترقيع للدين لا يصلح ديناً ولا دنياً"^(٢).

- يقول الشنقيطي رحمه الله: "الإشراك بالله في حكمه، والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد، لا فرق بينهما البتة، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير تشريع الله، كالذي يعبد الصنم ويسجد للوثن، ولا فرق بينهما البتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، وكلاهما مشرك بالله"^(٣).

- وجاء في فتوى كوكبة من علماء العصر الحديث من بينهم محدث العصر محمد ناصر الدين الألباني والعلامة مقبل بن هادي الوادعي اليميني ما نصه:

"الديمقراطية عند واضعيها ومعتنقيها: حكم الشعب نفسه بنفسه، وأن الشعب مصدر السلطات جميعاً، وهي بهذا الاعتبار مناقضة للشريعة الإسلامية والعقيدة، قال تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، ولأن الديمقراطية نظام طاغوت، ونحن قد أمرنا أن نكفر بالطاغوت، قال تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

(١) الشريعة الإسلامية وفقه التطبيق، أبو الحسن البليدي، ص ٢٠

(٢) سلسلة الحاكمية للقرآن لا للبرلمان، الشيخ محمد إسماعيل المقدم

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ١٦٢ / ٧

فالديمقراطية والإسلام نقيضان لا يجتمعان، إما الإيمان بالله والحكم بما أنزل الله، وإما الإيمان بالطاغوت والحكم به وكل ما خالف شرع الله فهو طاغوت.

ولا عبرة بمن يحاول أن يجعلها من الشورى الإسلامية لأن الشورى فيما لا نص فيه، كما أنها لأهل الحل والعقد من أهل الدين والورع والديمقراطية بخلاف ذلك كما سبق..

والانتخابات السياسية بالطريقة الديمقراطية حرام أيضًا لا تجوز لأنه لا يشترط في المنتخب والناخب الصفات الشرعية لمن يستحق الولاية العامة أو الخاصة فهي بهذه الطريقة تؤدي إلى أن يتولى حكم المسلمين من لا يجوز توليته ولا استشارته، ولأن المقصود بالمنتخب أن يكون عضوًا في مجلس النواب التشريعي، والمجالس النيابية لا تحتكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وإنما تتحاكم إلى الأكثرية فهي مجالس طاغوتية لا يجوز الاعتراف بها، فضلاً عن أن يسعى المسلم إلى إنشائها ويتعاون في إيجادها، وهي تحارب شرع الله، ولأنها طريقة غريبة من صنع اليهود والنصارى ولا يجوز شرعاً التشبه بهم.

ومن يقل إنه لم يثبت في الشرع طريقة معينة في اختيار الحاكم، فمن ثم فلا مانع من الانتخابات، يقال له: ليس صحيحاً أنه لم يثبت ذلك في الشرع، فما فعله الصحابة من كيفيات الاختيار للحاكم فكلها طرق شرعية^(١).

ثانياً: حكم تشريع ما لم يأذن به الله

- أكبر أركان الديمقراطية وقطب رحاها هو إعطاؤها حق التشريع لأفراد من البشر وهم أعضاء المجالس البرلمانية.

- والمجالس البرلمانية تختص بأدوار: مراقبة السلطة التنفيذية، ومناقشة الموازنة العامة للدولة واعتمادها، وهذه الأدوار لا غبار فيها شرعاً، أما الدور الذي لا يسمح لهذه البرلمانات ويخالف ما أراه الله عز وجل للبشر.. وهو الدور التشريعي وسن القوانين الوضعية المنبثقة من الدستور الوضعي، فالتشريع هو التحليل والتحريم، وهو لم يأذن به الله لأحد من البشر غير الأنبياء

(١) مجلة الأصالة، العدد ٢٤، ص: ٢٤، وعنه حكم الإسلام في الديمقراطية، ص ٢٧ : ٢٩

الذين يشرعون بوحي من الله، والحكمة في ذلك هي: لمن الألوهية في هذه الأرض؟ ولمن الربوبية على هؤلاء البشر؟

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله في الإجابة عن هذا السؤال في صيغته هاتين كالتالي: "يترتب كل شيء في أمر هذا الدين، وكل شيء في أمر الناس أجمعين على لمن الألوهية؟ ولمن الربوبية؟ - لله وحده- بلا شريك من خلقه- فذلك هو الإيمان، وهو الإسلام، وهو الدين.

لشركاء من خلقه معه، أو لشركاء من خلقه دونه، فهو الشرك إذن أو الكفر المبين..

فإما إن الألوهية والربوبية لله وحده، فهي الدينونة من العباد لله وحده.. وهي العبودية من الناس لله وحده. وهي الطاعة من البشر لله وحده، وهي الاتباع لمنهج الله وحده بلا شريك.. فالله وحده هو الذي يختار للناس منهج حياتهم والله وحده هو الذي يسن للناس شرائعهم والله وحده هو الذي يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم.. وليس لغيره- أفراداً أو جماعات- شيء من هذا الحق إلا بالارتكان إلى شريعة الله. لأن هذا الحق هو مقتضى الألوهية والربوبية. لذلك كانت أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية والمنهج الإسلامي ونظام الحكم والحياة في الإسلام- على مر العصور- إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي بها.. ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان.. لا هوادة في هذا الأمر، ولا نرخص في شيء منه، ولا انحراف عن جانب ولو صغير. وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل، أو لما اصطاح عليه قبيل، مما لم يأذن به الله في قليل ولا كثير.. لا حجة.. لا معذرة.. لا احتجاج بمصلحة.. فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس، ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية، وليس أحسن من الله في حكمه وشريعته"^(١).

- لذلك فالحكم الشرعي في ما تقيمه النظم الديمقراطية من المجالس التشريعية هو "شرك بالله" والأدلة على ذلك هي:

- قال تعالى ﴿أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِمَّنْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

- قال ابن كثير: "أي هم لا يتبعون ما شرع الله من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم"^(١).
- وقال المودودي رحمه الله: "إن في هذه الآية دلالة واضحة على أن الذين يرون ما وضعه رجل أو طائفة من الناس من قانون أو تشريع أو رسم هو قانون شرعي من غير أن يستند إلى أمر من الله تعالى فهم يشركون ذلك الشارع بالله تعالى في الألوهية"^(٢).
- قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].
- قال ابن كثير: "تم نهي عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوا في جاهليتهم، ويدخل في هذا كل من حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه"^(٣).
- قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].
- قال القرطبي: "أي لا نتبع بعضنا بعضاً في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما شرعه الله تعالى وهو نظير قوله تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما يجرمه الله ولم يحله، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي متصفون بدين الإسلام منقادون لأحكامه معتمرون بما له علينا من المن

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٥١٧

(٢) المصطلحات الأربعة للمودودي ص: ٢٢

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ١٥٩٩

والإنعام ولا نقبل من الرهبان شيئاً بتحريمهم علينا ما لم يحرمه الله علينا فنكون قد اتخذناهم أرباباً" (١).

• قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

- قال الشوكاني: "أي أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرهم به وبنهوتهم عنه فكانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب" (٢).

• قال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

- قال ابن كثير: "روى الطبراني عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارس إلى قريش: أن خاصموا محمداً وقولوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب - يعني الميتة - فهو حرام؟! فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال: وإن الشياطين من فارس، وأولياؤهم قريش (٣)، وقوله تعالى ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي هذه الشبهة أرادوا بها أن تحلوا ما حرم الله من الميتة، وحيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك" (٤).

• والآيات الواضحة بصريح القرآن في هذا الأمر كثيرة جداً، ولا تحتل الالتباس أو التأويل... ونكتفي بإذن الله بما ذكر، والله يهدي إلى سواء السبيل.

(١) تفسير القرطبي ٤ / ١٠٥ - ١٠٦

(٢) فتح القدير ٢ / ٣٥٣

(٣) إسناده عند الطبراني إسناده صحيح، وكذلك رواه الطبري (١٣٨٠٥)

(٤) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٧١٨

ثالثاً: حكم العلمانية وفصل الدين عن الدولة

- من صور العلمانية فصل تطبيق آيات الأحكام والمعاملات والقضاء والسياسة الشرعية عن آيات العبادات من الصلاة والصيام في شؤون الحياة تحت زعم أن الدين يقتصر على علاقة العبد بربه، وأن الأمور الأخرى متغيرة بتغير الزمان والمكان والدين ثابت، فلا يجوز للدين أن يتدخل في السياسة ولا في الاقتصاد بحجة عدم قدرة الدين على مساندة المتغيرات.. هم لا يصرحون بذلك ولكن يصرحون في الدول العلمانية: أن الدين طاهر والسياسة نجسة فلا يجوز أن يختلطا.. فيظهرون احترامهم للمؤسسات الدينية ولكنهم يطالبون بتجديد الخطاب الديني لحذف صلة الدين بالحكم وحثه على الجهاد من الفقه الإسلامي.. وهذه الصور الواضحة من العلمانية بتجزئة الدين ففصل منه جزء وإبعاده وقبول جزء آخر و الإقرار به. تقع فيها الأنظمة الفاسدة التي تحارب الدين، ولكن هناك صور من العلمانية قد يفخ فيها المسلمون أنفسهم..
- مثل مقاومة المحتل لو انطلقت لتكتسب شرعية دولية، وجعلت منطلقها وطني أو قومي وليس ديني فقد صارت مقاومة علمانية!
- مثل أي كيان يتلقى برامج وآراءه من أي منهج غير منهج الإسلام، ويرسخ نفس قيم العلمانيون ليقدم معهم التحالفات والاتفاقات فيقر باحترام كل مصادر الشرعية غير الدينية حتى تلك التي تعارض الدين فقد صار كياناً علمانياً!
- لذلك فالمفهوم الأوسع للعلمانية في بلادنا صارت: "التلقي من أية مناهج وأوضاع وتقاليد ومبادئ غير منهج الإسلام".
- والعلمانية بكل صورها هي: "ارتداد عن الإسلام"، لأن الإسلام هو المرجع الوحيد لهذه الأمة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨ - ٢٠٩].
- يقول ابن كثير: "يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله: أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره.. فأمرهم أن يعملوا بجميع شعب

الإيمان وشرائع الإسلام ولا تدعوا منها شيئاً، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان من التخلي عن أحد هذه الشعب وأحد هذه الشرائع، واحذروا إن عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه"^(١).

- يقول الشيخ القرضاوي: "إن العلماني الذي يرفض مبدأ تحكيم الشريعة من الأساس ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو مرتد عن الإسلام بيقين، يجب أن يستتاب وتزاح عنه الشبهة وتقام عليه الحجة، وإلا حكم القضاء عليه بالردة وجرده من انتمائه للإسلام"^(٢).

- قال العلامة أحمد شاكر: "القرآن مملوء بأحكام وقواعد جلية في المسائل المدنية والتجارية وأحكام الحرب والسلم فمن زعم أنه دين عبادة فقد أنكر كل هذا وأعظم على الله الفرية، وما قال هذا مسلم قط ولا يقوله، ومن قال هذا فقد خرج عن الإسلام جملة ورفضه كله وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم"^(٣).

- قال د. سفر الحوالي: "من هذه الشبهات استصعاب بعض الناس إطلاق لفظ الكفر أو الجاهلية على من أطلقها الله تعالى عليه من الأنظمة والأوضاع والأفراد بذريعة أن هذه الأنظمة- لاسيما العلمانية الديمقراطية- لا تنكر وجود الله ولا تمنع في إقامة شعائر التعبد، بل وبعضهم يتلفظون بالشهادة ويقيمون الشعائر من صلاة وصيام أو حج ويحترمون رجال الدين والمؤسسات الدينية، فكيف نستسيغ القول بأن العلمانية نظام جاهلي وأن المؤمنين بها جاهليون؟"^(٤).

- وفي نهاية الحكم على الديمقراطية يتساءل الأستاذ مُحَمَّد قطب رحمه الله: هل الله هو المعبود في الديمقراطية؟ أم عشرات من الآلهة المزيفة التي تحكم حياة الناس وتتحكم فيها؟

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٢٢٩-٢٢٠

(٢) الإسلام والعلمانية للقرضاوي، ص: ٧٣-٧٤

(٣) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدرًا للقانون في مصر، ص ٥٩

(٤) العلمانية، سفر الحوالي، ص: ٦٨٧

ثم يجيب قائلاً: في المنظومة الديمقراطية الهوى إله، الشهوات والتحرر إله، العقل إله، الدولار إله، الرأي العام إله، النواب أرباب، الدستور شرع.. كل ذلك يعبد مع الله أو من دون الله، وكلها تعطي إجابة حاسمة بالنسبة للقضية الكبرى في الوجود.. القضية الأولى في حياة الناس: قضية المعبود: هل هو الله أم شيء آخر غير الله؟

← في الميزان الرباني يوجد نوعان اثنان من الحكم: إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، قال تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ومن ثم فكل حكم غير حكم الله فهو حكم جاهلية، والديمقراطية حيث إنها ليست حكم الله فهي في ميزان الله جاهلية..

فالجزور الثلاثة الرئيسية للجاهلية هي اعتقاد وجود إله مع الله (شرك الاعتقاد)، وتوجيه شيء من العبادة لغير الله (شرك العبادة)، والتشريع أي التحليل والتحرير من دون الله (شرك الاتباع) والديمقراطية تقع في (شرك العبادة) بفصل الدين عن الحياة، فالحياة كلها عبادة لله في ميزان منهج الإسلام..

والديمقراطية تقع في (شرك الاتباع) بإعطاء حق التشريع للأمة من دون الله.. ومن ثم فالديمقراطية هي منهج الجاهلية الحديثة في ميزان الله.

- وسنقوم بإذن الله بعد عرض سورة النساء لحقيقة منهج الديمقراطية الحديثة.. بعرض (شرك الاتباع) في صورة التحليل والتحرير من دون الله في عرض سورة المائدة.. سورة موضوعها (الحاكمية والتشريع) بامتياز، كما نقوم بإذن الله في عرض (شرك العبادة) في صورة توجيه العبادة لغير الله في عرض سورة الأنعام.. سورة موضوعها (الحياة كلها عبادة لله) بامتياز.. والله المستعان.. وعليه التكلان.

الفصل الخامس: شبهات خوض مسار الديمقراطية والرد عليها

- بعدما تبين بفضل الله الرشد من الغي، وسقطت أوراق التوت من على منهج الديمقراطية الضال ونظامها الزائف، فتم دحضها واقعياً وظهرت الديمقراطية على حقيقتها هذه.. خديعة كبرى ووهم باطل، وتم تفنيدها شرعياً فاتضح أن تقاليد الديمقراطية وأركانها كفر وشرك وردة.. ولكن رغم ذلك كله إلا أنه قد يلجأ ملتجأ إلى حجة أو تأويل من المتشابهات ويدع الأدلة المحكمات جانباً، ويصر أن الديمقراطية هي المسار اللازم خوضه لإقامة دين الله في الأرض!
- فتُطرح بعض الشبهات الواجب بإذن الله دحضها وتفنيدها حتى تنتفي أي جهالة.. وتزول أي حجة.. ويكشف أي تأويل.. فلا يبقى بعد ذلك إلا كبراً أو هوى، ونعوذ بالله منهما من أي مسلم مخلص لربه صادق في طلبه للحق..
- والشبهات المثارة كثيرة، ولكن أشهرها ما يلي:
- أولاً: ما نقصده من الديمقراطية غير مقصودها في الغرب.
- ثانياً: نعم الديمقراطية كفر.. ولكنها وسيلة لإقامة الشرع..
- ثالثاً: ارتكاب أخف الضررين.
- رابعاً: تحقيق المصلحة المرسلة.
- فلنبداً بإذن الله بطرح الشبهة الأولى والرد عليها

الشبهة الأولى: ما نقصده من الديمقراطية غير مقصودها في الغرب

- يقال في هذه الشبهة: "الديمقراطية آلية تضمن للشعب اختيار الحاكم ومحاسبته على أفعاله، فلا يفرض عليهم حاكم يكرهونه وهنا ما نقصده من الديمقراطية، ولكننا لا نقصد ديمقراطية التحرر والإباحية.. أو ديمقراطية الرأسمالية.. أو ديمقراطية فصل الدين عن الدولة.. أو ديمقراطية التشريع من دون الله".

• والرد على هذه الشبهة في النقاط التالية بإذن الله:

١. الديمقراطية منهج كامل لصياغة البناء الاجتماعي، وضعه الغرب الصليبي وصدوره لأمة الإسلام لإفسادها وإضلالها عن منهجها الرباني، فهم وضعوا تقاليد ومبادئه بشكل متصل ومتربط، فصارت أركان الديمقراطية أوجه لشيء واحد إما أن تقبله الأمة وتتلقى منه وإما أن ترفضه وتقبل على منهج الله الفريد تتلقى منه وحده.. ويرد على هذه الشبهة الأستاذ محمد قطب رحمه الله قائلاً: "فالذين يقولون نأخذ الديمقراطية كصورة سياسية وليس من الضروري أن نأخذ معها الرأسمالية الجامحة هم واهمون في محاولة فصل وجه هذا النظام عن وجهه الآخر أو هم يتحدثون عن شيء غير الديمقراطية الليبرالية لا نعلم صورته على وجه التحديد.. فهم يقولون نأخذ ما فيها من خير ونترك ما فيها من شرور.. يقولون نقيدها بما أنزل الله، ولا نبيح الإلحاد، ولا نبيح التحلل الأخلاقي والفوضى الجنسية.. فإن فعلوا ما يقولون لن تكون الديمقراطية حينها.. إنها ستكون الإسلام.."

إن الديمقراطية هي حكم الشعب بواسطة الشعب إنها تولى الشعب سلطة التشريع فإن ألغى هذا الأمر أو قيد بأي قيد فلن تكون هي الديمقراطية التي تقوم اليوم بهذا الاسم..

إنهم مُخلصون.. ولكنهم مخدعون في الديمقراطية.. وإلا فاذهبوا وأسألوا الديمقراطيين وقولوا لهم: نريد أن نحكم بما أنزل الله ولا يكون للشعب ولا ممثليه حق وضع القوانين إلا فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع من علماء المسلمين.. قولوا لهم نريد أن نلزم المرأة بالحجاب ونمنع التبرج والعري على الشواطئ وفي الطرقات.. ونريد في الوقت ذاته أن نكون ديمقراطيين!.. اسألوهم وانظروا ماذا يقولون؟

سيقولون لكم إن الديمقراطية هي حق التشريع لنواب الأمة..

سيقولون لكم: إن الديمقراطية لا تتدخل في الحرية الشخصية للأفراد فمن شاء أن يرتد عن دينه فهو حر، ومن شاء أن يتخذ خليفة فهو حر.. ومن شاءت أن تخون زوجها فهي حرة ما لم يشترك الزوج.

سيقولون لكم: اجثوا عن اسم آخر لما تريدون.. اسم غير الديمقراطية" (١).

٢. إن منهج الإسلام واضح في معامله، مستقل في خصائصه، متميز في أركانه وتقاليده ولا سبيل إلى مزج الإسلام بالديمقراطية.. ولا بد من المفاصلة بين المنهجين فلا التقاء بينهما فالنظام الرباني وإن التقى في بعض ما تناديه به الديمقراطية من إعطاء الحقوق، فهو التقاء عارض لأن القاعدة التي يقوم عليها الإسلام تختلف اختلافاً جذرياً عن القاعدة التي تقوم عليها الديمقراطية.

٣. أيضاً ليست العبرة بتسمية الديمقراطية بغير اسمها مع بقاء حقيقتها فنقول أننا نقصد الحاكمة لله ونرفض السيادة للشعب..

ونقصد الحريات والحقوق ونرفض العري والإباحية..

• والجواب: أن هذا الاسم يتضمن هذا الوصف.. فإن قبلت المسار الديمقراطي قبلت: الدستور

الوضعي والتشريع للبرلمان والحرية الشخصية وحرية سوق المال والربا والخمور و.... و....

- يقول ابن القيم: "إن باب الخيل مداره على تسمية الشيء بغير اسمه وعلى تغير صورته مع بقاء

حقيقته، فمداره على تغيير الاسم مع بقاء المسمى وتغيير الصورة مع بقاء الحقيقة.. وإنما أتى

هؤلاء من حيث استحلوا فعل المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى

المحرم وثبوته" (٢).

الشبهة الثانية: نعم الديمقراطية كفر.. ولكنها وسيلة لإقامة الشرع

• يقال في هذه الشبهة: "نعم الديمقراطية كفر لأن أساسها السيادة للشعب، والإسلام أساسه

الحاكمية لله والسيادة لله، ونعم الديمقراطية شرك لأن ركنها الأكبر وجود نواب عن الشعب

يشرعون من دون الله، والإسلام فيه التشريع أي التحليل والتحریم لله عز وجل وحده.. لا

تختلف في ذلك، ولكن ممارسة الديمقراطية كان على سبيل المنازعة والإنكار مع العلمانيين..

(١) مذاهب فكرية، مُجد قطب، ص ٢٠٤، ٢٥٣، ٢٥٤

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ١ / ٣٨٦ - ٣٨٧

لإقامة شرع الله، وبذلك من ارتكب الكفر لم يقع في مناط الكفر (العلة المكفرة) حيث لم يكن قصده الإقرار بالكفر من السيادة للشعب أو التشريع من دون الله".

- والرد على هذه الشبهة في النقاط التالية بإذن الله:

١. يظهر أن هدف القائل ليس الاختلاف على أن حكم الشرع في الديمقراطية ومبادئها، ومجالسها التشريعية إنما كفر بلا خلاف، ولكن هدفه هو عدم تكفير من سلك هذا الطريق متأولاً بالمنازعة والإنكار لتغيير هذا الكفر القائم وأن سلوكه لم يكن إقراراً منه أو رضاً عنه..

- لذلك وجب أن نبدأ أولاً باتفاقنا أن الفعل كفر ولكن الفاعل ليس بكافر، فالفعل يثبت عليه الحكم، ولكن الفاعل ينتفي عليه شروط الحكم بالكفر (وهي القصد والإرادة)، كما يتحقق في الفاعل أحد الموانع وهو التأويل بأحد القواعد الفقهية (المنازعة والإنكار)، فالفاعل لم يكن جاهلاً بالحكم أو مكرهاً هنا على الوقوع فيه، ولكنه كانت لديه أدلة استند إليها تسوغ له هذا الفعل الكفري..

- وبهذه البداية اتفقنا سويًا على أن من اتخذ هذه الوسيلة الكفرية كان قصده إقامة شرع الله، وكان لديه تأويلًا لبعض النصوص الشرعية لذلك فلا يكفر على التعيين، لانتفاء أحد شروط التكفير على المعين، ولتحقق أحد موانع تكفير المعين..

٢. ومن ثم نطرح السؤال التالي: هل يباح اتخاذ وسيلة شركية لإقامة شرع الله؟

- والإجابة في أم الكتاب.. وفصل الخطاب.. في سورة الفاتحة.. في الآية التي عليها مدار الفاتحة والقرآن كله، قال تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

← إن الهدف الأكبر هو: توحيد العبودية.

ولن يتحقق إلا بوسيلة واحدة وطريق واحد وهو: توحيد الاستعانة.

- إذن لا يباح الشرك في الاستعانة باتخاذ وسيلة شركية لإقامة التوحيد في العبودية ومظهره تطبيق شرع الله.

إن المعروف الأكبر وهو: التوحيد.. لن يقام إلا بإزالة المنكر الأكبر وهو: الشرك (كما بينا بفضل الله في سورة آل عمران).. لذلك فالتوحيد والشرك خطان لا يلتقيان.. وبُني الأول على إزالة

الثاني.. فكيف أسلك سبيلاً من السبل فيه جواز فعل الكفر المتفق عليه سلفاً؟.. باختيار دون اضطرار تحت إكراه مُلجئ.. لتحقيق مصلحة من المصالح.. فضلاً كونها إقامة (لا إله إلا الله) في الأرض.

- قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، قال: خطَّ رسول الله (ﷺ) خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً". وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: "هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه". ثم قرأ الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، يقول ابن كثير: "وقوله ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها"^(١).

- إن صراط الله المستقيم واحد في أهدافه وهي إقامة التوحيد.. وواحد في مساره وهو مسار التوحيد أيضاً.. سبيل الله مستقيماً ليس فيه شرك في خطواته ومساره للوصول إلى إقامة التوحيد في آخره..

- فلم يباح الشرك في زمن من الأزمان.. ولن يباح أبداً.. إنما الكون خلق للتوحيد شاهداً عليه.. والرسول أرسلت بالتوحيد وللتوحيد والكتب أنزلت بالتوحيد وللتوحيد.. ودولة الإسلام وسيلة لإقامة التوحيد.. والجهاد فرض لإقامة التوحيد.. والشهادة شرعت لإقامة التوحيد..

• حتى لو لم تقام دولة الإسلام أو تأخر قيامها لا يباح الشرك أو الكفر من أجل ذلك.. فالغاية تبرر الوسيلة عند ميكافيللي وعند البراجماتيين.. أما أصحاب المنهج القويم والعقيدة الصافية الخالصة يقولون: أن الوسيلة الشرعية هي التي يتحقق بها الغاية الشرعية.

- إذن خلاصة هذه النقطة الثانية أن صراط الله المستقيم.. ساطع بالتوحيد في أوله ومساره ووسائله.. وفي آخره ومنتهاه وغايته، وأن البشرية لم يباح لها الشرك مطلقاً لأنه ضد ما خلقوا

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٧٣٨

من أجله وهو التوحيد، قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١] روى ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «أيكم يباعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: ومن وفي بمن آجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه»^(١).

- قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ [الرعد: ٣٦].

- يقول ابن كثير: "أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبل، (إليه أدعوا) أي: إلى سبيله أدعوا الناس، (وإليه مآب) أي: مرجعي ومصيري.

- هذا ما أمر به النبي (ﷺ) والأنبياء من قبله، وهذا ما أمرنا به: توحيد العبودية.. وتوحيد الاستعانة.

٣. لم تأمر بالشرك لإقامة دولة الإسلام.. ولم يفعل ذلك النبي (ﷺ) حاشاه في مساره الذي أقام به دولة الإسلام الأولى.. فمن أراد أن يتمسك بالمتشابه ويترك الحكم.. فليبحث عن حالات استثنائية لها ظروفها الخاصة ويترك الفعل الأصلي الأوجب في الاتباع.

- على سبيل المثال: الاستشهاد بترخيص النبي (ﷺ) لفيروز الديلمي رضي الله عنه الذي تظاهر بلبس الصليب ليدخل في أنصار الأسود العنسي حتى تمكن من قتله أو حالة قتل محمد بن مسلمة لليهودي كعب بن الأشرف، فرخص له رسول الله (ﷺ) أن يقول عليه وينال منه أمام كعب بن الأشرف.

- إن هذه الحالات أذن بها النبي (ﷺ) في خصوصية محددة، ألا وهي عمليات اغتيال لأعداء الدين لأن عمليتي الاغتيال هاتين كانت عسيرة جداً ولن تتم بغير هذه الصورة كما قال د. منير الغضبان في المنهج الحركي للسيرة النبوية تعليقا على اغتيال كعب بن الأشرف: "نلاحظ صورة

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢/ ٣١٨) ووافقه الذهبي على تصحيحه

- جديدة في هذه العملية لم نشهدها من قبل، وهي صورة الخديعة التي تقتضي الكذب واختلاق الحوادث لتحقيق الهدف، لأن العملية من العسير جدًا أن تتم إلا بهذه الصورة^(١).
- فالحالة الأولى تظاهر فيها فيروز الديلمي برفع الصلبان على المراكب فهي حالة تظاهر بالكفر لم يتلفظ فيها بالكفر أو يمارسه إنما تظاهر به خديعة فحسب حتى تمر مراكبهم ولبسوا زي النصارى وحملوا الخنازير وتم لهم ما أردوا ودخلوا من بين مراكب النصارى حتى قام الصحابي بقتل الأسود العنسي^(٢).
- والحالة الثانية قام محمد بن مسلمة بالتورية على كعب بن الأشرف اليهودي فقال له: "كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وتقطعت السبل عنا حتى جهدت الأنفس، وضاع العيال"^(٣)، قال ابن بطال عن المهلب: "الكلام يحتمل أن يتأول منه أن اتباعهم له إنما هو للدنيا على نية كعب بن الأشرف، وليس هو بكذب محض بل هو تورية ومن معارض الكلام، لأنه ورى له عن الحق الذي اتبعوه له في الآخرة، وذكر العناء الذي يصيبهم في الدنيا"^(٤).
- وقد بوب البخاري هذه الرواية في باب "الكذب في الحرب" ولم يسميه "باب الرخصة في قول الكفر في الحرب" .. فلم يقل كفرًا أو يفعل كفرًا فيروز الديلمي أو الصحابي محمد بن مسلمة رضي الله عنهما..
- لقد حدثت حالات اغتيال أخرى كثيرة لم يميز فيها النبي (ﷺ) هذا اللون من التورية والتحايل على أعداء الدين أو التظاهر بالكفر مثل مقتل عبد الله بن عتيك لأبي رافع اليهودي، ومثل مقتل محيصة بن مسعود لابن سنيينة اليهودي..
- لذلك لا بد من الجمع بين النصوص لتحديد التأويل الصحيح، فمنهج أهل السنة قائم على الجمع بين الأدلة.. والعام يبينه الخاص، والمطلق يبينه المقيد، والجمل يبينه المفسر.. أما أن يأتي

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، ص ٣١٠

(٢) الكامل بن الأثير، ١٢ / ٥٢ - ٥٣

(٣) المنهج الحركي للسيرة النبوية، د. منير الغضبان، ص ٣٠٨ .

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٨٩/٥).

أحد بجزء من النصوص ليثبت مراده ويسوغ تأويله، فقد خالف طرق الاستدلال الصحيحة.. وهو بذلك مثل من يتتبع الرخص في النصوص ليصل إلى النتيجة التي ينشدها.

- وأيضاً البحث عن حالات محددة معدودة متشابهة، لم تحدث في العشرة آلاف سنة الماضية إلا بعدد أصابع اليد الواحدة مثل: القياس في حالة يوسف عليه السلام، وحالة النجاشي، للقياس منهما على جواز المشاركة في أنظمة كفرية، وجواز تولي المسلم الحكم في ظل نظام كافر...

وقد منَّ الله عز وجل علينا بتفنيده حالة النجاشي في عرض سورة (آل عمران)، والتي رجحت الروايات الصحيحة إسلامه متأخراً على يد دعوة النبي ﷺ له للإسلام في رسالته مع عمرو بن أمية الضمري في شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة^(١)، وتوفي النجاشي بعد فتح خيبر في السنة التي قدم بقية المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر يوم فتح خيبر^(٢). وفي هذه المدة (أقل من عامين) من إسلامه حتى وفاته، صدع النجاشي بالحق وأظهر إسلامه، ولم يدفع الجزية لملك الروم، وأرسل إلى النبي ﷺ يطلب الهجرة إليه لنصرته، ولم يصل إليه من التشريع لبعده المدينة عن الحبشة كما ذكر في رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه التي رواها البخاري عن تغيير حكم السلام في الصلاة، والذي لم يعرفه المهاجرون إلى الحبشة^(٣)..

- كما أن حالة القياس في يوسف عليه السلام والتي سيأتي الحديث عنها بالتفصيل في معرض سورة (يوسف) أيضاً مردود عليها من عدة أوجه في دعوة يوسف عليه السلام لملة التوحيد وشريعة إبراهيم عليه السلام وحاكمية الله عز وجل في استضعافه في فترة السجن ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

فأني له وهو نبي الله - حاشاه - أن يرتضي الحكم في منظومة كفرية، حيث كان ممكناً له ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ على رأس وزارة تنفيذية لم يحكم فيها بشريعة الملك ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ

(١) المنهج الحركي للسيرة، د. منير الغضبان، ص ٤٦٠ نقلاً عن إمتاع الأسماع ١/ ٣٢٥، ٣٢٦

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ١٩٢-١٩٣

(٣) للتفصيل الرجوع إلى عرض سورة آل عمران

- أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴿١﴾ فحكم أن السارق يدفع إلى المسروق منه كما في شريعة التوحيد ملة إبراهيم عليه السلام.. كما أنه ظل يدعو إلى التوحيد حتى أسلم له ملك مصر الريان بن الوليد، قاله مجاهد وذكره ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٦٢)، والطبري في تفسيره (٧ / ٢٤٢)، والبغوي في تفسيره (٦٥١)، والقرطبي في تفسيره (٩ / ١٢٠) ونسبه لمجاهد في (٩ / ٢١٧).
- ومع هذا كله لا يجوز القياس بهما، لأن فعل النبي (ﷺ) في إقامته لدولة الإسلام الأولى نسخ كل هذا.. وهو المحكم في نهجه وطريقته (ﷺ) والأولى بالاتباع. لا البحث عن المتشابهات لإقامة بها شرع الله عز وجل في الأرض!!
- فالسؤال: هل صار التأويل ببعض النصوص المتشابهة، والحالات الاستثنائية الخاصة هو المرجع لإقامة دولة الإسلام؟ هل أصبح البحث عن رخص محددة تجيز الوقوع في الكفر هي الدليل لإقامة التوحيد؟ مع ترك مئات النصوص في كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته التي تبين لنا السبيل المستقيم والمنهج القويم وملامح الحق المبين لإقامة هذا الدين!.. ثم أليس الأولى بالسير خلف التطبيق العملي لهذه النصوص هو فعل النبي (ﷺ) وخط سيره الذي أقام به دولة الإسلام الأولى؟ والذي تم توضيحه بفضل الله في عرض سورة البقرة^(١).
- إن الوحدة الموضوعية في سورة (البقرة) ركزت على تبين منهج الحق في تحقيق مهمة الأمة المسلمة، ثم جاءت الوحدة الموضوعية في سورة (آل عمران) لترسخ موجبات الثبات على هذا الحق أمام الشبهات والشهوات والابتلاءات، ثم كانت الوحدة الموضوعية في سورة (النساء) تتلخص في مواجهة الفتنة عن هذا المنهج والتي تظهر هذه الفتنة في مناهج الجاهلية التي جرت وراءها الأمة...
- فجاءت سورة (النساء) لتعلن عن ملامح منهج الإسلام.. المنهج الحق الذي فيه الخير والعدل والرحمة للبشرية كلها، وفيه التكافل والانتصاف للضعفاء والمستضعفين.. هذا المنهج لكي تثبت أركانه وترسى قواعده لابد أولاً من إزالة أركان منهج الجاهلية وقواعدها.

(١) للتوضيح برجاء الرجوع إلى التفصيل في عرض سورة البقرة

وهذه الجاهلية الآن في الأرض يمثلها "الغرب الصليبي"، ومنهجها الذي أنشأته وصدرته لأمة الإسلام هو: "الديمقراطية الليبرالية الحديثة"، وأمتنا سارت تتلقى منه وتسير في أثره شبرًا بشبر وذراعًا بذراع..

- لذلك كان لزامًا علينا وحتى لا يبقى عرض المنهج الحركي للقرآن تنظيرًا يعمل في الفراغ.. أن نتعامل مع حالة الأمة المسلمة اليوم في معركتها مع أعدائها، وأن نجعل القرآن الكريم قائدنا الملهم ودليلنا الحي في هذه المعركة، بعون الله وتوفيقه..

الشبهة الثالثة: ارتكاب أخف الضررين

• يقال في هذه الشبهة: "نرتكب أخف الضررين بالدخول في المجالس البرلمانية لتخفيف الضرر على المسلمين وتقليل المظالم والمفاسد عنهم".

- والرد على هذه الشبهة في النقاط التالية بإذن الله:

١. قاعدة "ارتكاب أخف الضررين" إنما تكون في حالة تعين فعل إحدى الضررين، وهذا ليس واقعًا في حالة الانتخاب في النظم الديمقراطية فهو حق للمواطن وليس واجبًا عليه.. كما أنه هناك قاعدة أخرى تقول "الضرر لا يزال بالضرر" فدخول النظام الديمقراطي والتشريع من دون الله كفر.. وماذا بعد الكفر من ضرر أو شر؟ ليكون الكفر أخف الضررين!

فقال ابن تيمية: "وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع"^(١).

← فنحن نختل الظلم أو الفرار إلى أرض الله الواسعة ولا نختل الوقوع في الكفر..

٢. الاستحسان العقلي يقول أن المشاركة في الديمقراطية يجلب مصالح حرية الحركة بالدعوة، فيقال له أليس القاعدة الفقهية "بدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح"؟، وهل هناك مفسدة أعلى في الأرض من مفسدة الكفر وفتنة الشرك، قال تعالى ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ

كبير ﴿[الأنفال: ٧٣] قال ابن كثير: "إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس بالتباس الأمر فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض"^(١).

لذلك فالقواعد الفقهية تقرر: "يقدم الضرر الأخف لاتقاء الضرر الأشد"^(٢)، "يحتمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام"^(٣).

٣. لذلك لا بد لاعتبار المصلحة من المفسدة من تحقق شرط أساسي هو رجحان الوقوع.. فلا مصلحة متوقعة مع مفسدة راجحة، قال صاحب المراقي: "إذا كان كذلك امتنع التعليل بذلك الوصف المناسب، إذ لا مصلحة مع المفسدة الراجحة أو المساوية"^(٤).

٤. وهل سيبقى طريق إقامة الدين مستنداً على أخف الضررين، وأقل المفسدتين؟ ولماذا تقام دولة الإسلام بارتكاب مفسدة الشرك وضرر الكفر؟

تحقيق الشبهة الرابعة: المصلحة المرسلّة

- وهي شبهة قريبة من السابقة نهي بها عرض شبهات خوض المسار الديمقراطي وهي المصلحة المرسلّة، وفي أصول الفقه، أدلة الأحكام هي: القرآن والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والمصلحة المرسلّة وسد الزرائع والعرف وشرع من قبلنا والاستصحاب.

فالمصلحة المرسلّة هي الدليل السادس من المصادر الشرعية للأحكام.. ومن حيث مدى الاتفاق والاختلاف تنقسم هذه المصادر إلى ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: القرآن والسنة.. محل اتفاق بين أئمة المسلمين.
- النوع الثاني: الإجماع والقياس.. محل اتفاق جمهور المسلمين.
- النوع الثالث: العرف والاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلّة محل اختلاف بين العلماء. فمن العلماء من اعتبرها مصادر للتشريع، ومنهم من لم يعتبرها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٢ / ١٢٥

(٢) الوجيز ص: ٢٦٠

(٣) الوجيز ص: ٢٦٣، والأشباه لابن نجيم ص: ٨٧

(٤) نثر الورود لمحمد الأمين الشنقيطي ٢ / ٥٠٧

- المصالح ثلاثة أنواع:

(١) مصالح معتبرة: اعتبرها الشارع بأن شرع لها الأحكام الموصلة إليها لمقاصد الشريعة في حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وما شرعه الشارع من الحدود كعقوبات جنائية في حالة الاعتداء على أحد مقاصد الشريعة.

(٢) مصالح ملغاة: هي مصالح متوهمة غير حقيقية، أهدرها الشارع ولم يعتد بها بما شرعه من أحكام تدل على عدم اعتبارها، مثل مصلحة يظن فيها بزيادة المال عن طريق الربا فقد ألغاه الشارع بما نص عليه من حرمة الربا. ولا خلاف بين العلماء في أن المصالح الملغاة لا يصح بناء الأحكام عليها.

(٣) مصالح مرسلة: هي المصالح التي لم ينص الشارع على إلغائها ولا على اعتبارها، مثل مصلحة جمع القرآن، وتدوين الدواوين^(١).

- ومن هذه المقدمة عن أنواع مصادر التشريع وتصنيفات المصالح وتعريف المصالح المرسلة يتبين بفضل الله الرد التالي على شبهة أن الدخول في المسار الديمقراطي مصلحة مرسلة:

١. شرط المصلحة المرسلة ألا يوجد في الشرع ما ينافيها من أدلة أقوى وأرجح منها من الكتاب والسنة.

وقد تم عرض في الرد على الشبهات السابقة، وفي عرض الحكم الشرعي في الديمقراطية.. أدلة من الكتاب والسنة تنافي وتعارض أي مصلحة ترتجى من المسار الديمقراطي.

٢. للمصلحة الشرعية المعتبرة ضوابط تميزها عن المصلحة الموهومة الغير شرعية منها تضمنها المحافظة على المقاصد الكلية للشرع.

والديمقراطية بأركانها وتقاليدها تضيع المقاصد الكلية للشرع، فمقصد حفظ الدين على سبيل المثال يتحقق بتحكيم شرع الله ورفض ما سواه، أما مراحل الدخول في اللعبة الديمقراطية فيها انتهاك صارخ لحفظ الدين، بل فيها تفريط بحدوده وهدم لشرائعه، فلا بد لهم من المرور بالمراحل التالية:

(١) الوجيز في أصول الفقه، عبد الكريم زيدان، ص ٢٦٣، ٢٣٧

- المرحلة الأولى: الموافقة المعلنة على الشكل والمضمون الدستوري القائم بالفعل على ما فيه من مخالفة للشريعة الإسلامية، بل ولا بد أن يقسموا على ذلك.
- المرحلة الثانية: الموافقة على الاحتكام إلى غير شرع الله، بل التحاكم إلى رأي أغلبية النواب الذين لهم حق التشريع.
- المرحلة الثالثة: طرح شرع الله للتصويت النيابي عليه، فلو أرادوا عرض قانون بمنع الربا، فلا بد لإقراره من حصوله على الأغلبية المطلقة للحاضرين، ما لم يشترط أغلبية خاصة، ثم يرفع لرئيس الدولة ليرى ملائمته من عدمها.. فصار بذلك البرلمان صاحب الكلمة الأولى فوق شرع الله.
- ← والسؤال هل هذه المراحل تحقق مقاصد الشرع في حفظ الدين؟
٣. هناك مصالح كثيرة تضيق بالمشاركة في اللعبة الديمقراطية منها:
- أفراد الله تعالى بالعبودية والتشريع.
- الحكم بما أنزل الله.
- وضوح عقيدة الولاء للمؤمنين والبراء من الطواغيت.
- سلوك المنهج النبوي في تغير الواقع.
٤. هناك مفسدات كثيرة نجمت نتيجة المشاركة في اللعبة الديمقراطية منها:
- المساعدة في تثبيت أركان الأنظمة الديمقراطية الحاكمة بغير ما أنزل الله، حيث تمرير القوانين الوضعية المخالفة لشرع الله باسم الأغلبية والمعارضة، حتى مع عدم موافقة المعارضة وقت التصويت عليها.. وبذلك يتم تثبيت أركان هذه الأنظمة بل وتجميلها باحتوائها على أغلبية وأقلية.
- التلبس على المسلمين من خلال إضفاء الشرعية على المنظومة الشركية، فيغيب معرفة التوحيد الخالص، أمام عوام الأمة.
٥. لم يتحقق أي مصلحة حقيقية على الأرض من دخول المجالس النيابية على مدار أكثر من ستين سنة في كثير من البلدان الإسلامية وإليك أمثلة على هيئة هذه التساؤلات:
- هل جعلت الشريعة الإسلامية هي التي يتحاكم إليها دون سواها؟

- هل تم تمرير ولو قانون يحقق جزئية من أحكام الإسلام كتحریم الربا وفرض الحجاب مثلاً؟
- هل تم تنفيذ حد من الحدود الشرعية؟
- هل تم تغيير مناهج وزارة التربية والتعليم لتكون إسلامية؟
- هل تم تغيير برامج وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والغير مرئية؟
- هل تم منع البنوك الربوية؟
- هل جعلت المساجد منابر للدعوة لها خصائصها الشرعية؟
- هل ألغيت الاتفاقيات مع أعداء الإسلام؟
- فأی مصلحة مرسله ترتجى بعد هذه النقاط للدخول في المسار الديمقراطي شرعياً وواقعياً؟؟

كلمة أخيرة.. بعد الحكم على الديمقراطية

- مر صحابييان بالنبي (ﷺ) وهو يسير مع زوجته السيدة صفية (رضي الله عنها)، فقال لهما النبي (صلى الله عليه وسلم): "على رسلكما إنما صفية زوجتي" .. فقالا: أو مثلك يا رسول الله؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) لهما: إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً.

النبي (ﷺ) يريد أن يعلمنا أن لا نضع أنفسنا موضع شبهة لأن ذلك قد يفتن الناس، وخاصة إذا كان الواقع في هذه الشبهة يمثل الحق.. أو قدوة للناس..

والحقيقة أن الذي سار في هذا المسار - عن غير قصد منه - وضع نفسه موطن الشبهة.. وأي شبهة.. شبهة الولوج في الكفر.. لذلك لا بد من إظهار رؤية التوحيد الخالصة الصافية النقية بلا غبش للناس.. ليحيي من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

- الشرك مُحِبَطٌ لِلْعَمَلِ وَلَوْ صَدَرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا حَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] والخطاب هنا للنبي (ﷺ)، والشرك خذلان في الدنيا ونار في الآخرة والمؤمنين الذين يستحقون الأمن يوم القيامة هم الذين لما يقترفوا أي يسير من شرك ولم يخلطوا عملهم بكفر قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

﴿مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. والله عز وجل يغفر أي ذنب إلا أن يشرك به ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

الفصل السادس: سورة النساء تعرض منهم الإسلام وتبطل منهم الجاهلية

(الديمقراطية) في العصر الحديث

مناسبة سورة (النساء) لعرض منهج الجاهلية الحديثة (الديمقراطية)

- عرضنا في الفصل الرابع: أوجه التشابه بين الجاهلية الأولى والجاهلية الحديثة والتي تعبر عنها الديمقراطية الليبرالية، حيث أن قواعد الديمقراطية وتقاليدها تتطابق تمامًا مع قواعد الجاهلية الأولى وتقاليدها.
- وسورة (النساء) جاءت تعرض لنا ملامح المنهج الرباني ودوره في إنشاء المجتمع المسلم الطاهر، وأكدت لنا السورة أن هذا المنهج الرباني لن تثبت قواعده وأصوله قبل إزالة قواعد الجاهلية وأصولها.. الجاهلية في كل عصر.. والجاهلية بكل صورها.. الجاهلية التي هي: كل منهج يستقي مبادئه وتقاليده وأوضاعه من غير منهج الله.
- ومن مناسبة عرض منهج الجاهلية في العصر الحديث والذي تعتبر الديمقراطية نموذجًا بامتياز، في ثنايا عرضنا لسورة النساء عدة أوجه منها:
- الوجه الأول: سورة (النساء) عرضت ملامح الجاهلية في كل زمان فلم تختزل السورة على الجاهلية الأولى وإلا نكون أبطلنا فاعلية الآيات في عصرنا الحديث! وعرضت ملامح منهج الإسلام على النقيض لها تمامًا في مفاصلة تامة بين منهجين: إزالة منهج الجاهلية وإقامة منهج الإسلام.

إقامة منهج الإسلام الرباني	إزالة منهج الجاهلية في كل زمان، "الديمقراطية الليبرالية حديثاً"
<p>(١) تحقيق العدالة الاجتماعية لحفظ حقوق الضعفاء.</p> <p>﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].</p> <p>﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].</p> <p>﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].</p> <p>(٢) تحقيق الإحصان سبيل للعفة والطهارة، وصيانة كرامة المرأة.</p> <p>﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَّا وَّرَاءَ ذُلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤].</p> <p>﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَاذْكُرُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ</p>	<p>(١) إيقاف كافة صور المظالم الاجتماعية مثل أكل أموال الناس بالباطل وانتشار الربا، والغش، والجور على حقوق الضعفاء ما تمثله "الرأسمالية الحديثة" ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النساء: ٢٩].</p> <p>﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].</p> <p>﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَّا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].</p> <p>(٢) محاربة الفاحشة وإيقاف أي صور لإثارة الشهوات أو صور امتهان المرأة فكل ما يتم "تحت دعوى الحرية الشخصية".</p> <p>﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ</p>

إقامة منهج الإسلام الرباني	إزالة منهج الجاهلية في كل زمان، "الديمقراطية الليبرالية حديثاً"
<p>فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ [النساء: ٢٥].</p>	<p>فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ [النساء: ١٥].</p> <p>- ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].</p>
<p>(٣) إقرار التنوع الوظيفي ودور كل من المرأة والرجل ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا﴾ [النساء: ٣٢].</p>	<p>(٣) إبطال إدعاء المساواة المطلقة بين المرأة والرجل ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].</p>
<p>(٤) الحفاظ على تماسك الأسرة والتماسك الاجتماعي.</p>	<p>(٤) مواجهة التفكك الأسري والاجتماعي (الناتج عن الانحلال الأخلاقي).</p>
<p>- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].</p>	<p>- ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].</p>
<p>- ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].</p> <p>(٥) التحاكم إلى الله عز وجل، وشرعه هو الدستور وذلك هو الإيمان، والسيادة للقرآن وسنة النبي (ﷺ).</p>	<p>- ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].</p> <p>(٥) إزالة أي أشكال التحاكم إلى الطاغوت تمثلها حاكمية "الدساتير" والتشريع من دون الله يمثلها "البرلمانات"</p>
<p>- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ</p>	

إقامة منهج الإسلام الرباني	إزالة منهج الجاهلية في كل زمان، "الديمقراطية الليبرالية حديثاً"
<p>وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿النساء: ٥٩﴾ .</p> <p>﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُكْمِؤَكَ فِي مِمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] .</p> <p>← حق التشريع والتحليل والتحریم لله عز وجل وحده: "يوصيكم الله، فريضة من الله، قل الله يفتيكم، كتاب الله عليكم، إن الله كان عليماً حكيمًا".</p>	<p>﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] .</p> <p>﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] .</p>

• وبهذه المفصلة بين المنهجين.. تدعونا سورة (النساء) بشكل عملي إلى:

← عدم التلقي نهائياً من أي منهج للجاهلية في كل العصور وما يمثلها في العصر الحديث منهج الديمقراطية، وعدم الأخذ بمبادئها وتقاليدها، وعدم اتباع أوضاعها ونظمها، بل تدعونا السورة إلى هدم قواعدها وإزالة أركانها.. لإقامة المنهج الإسلامي الرباني وإرساء قواعده، وتثبيت أركانه ذلك المنهج الذي تتشوف إليه البشرية كلها منهج الخير والعدل والرحمة والتكافل.. منهج الألوهية والربوبية لله رب العالمين وحده لا شريك له.

الوجه الثاني: سورة (النساء) جاءت تحذر الأمة من الانحراف عن طريقها المستقيم بعد ما تبين لها معاملة في سورتي البقرة وآل عمران، كما جاءت تحذر الأمة من الفتنة عن منهجها القويم بعدما تبين لها ملامحه في نفس السورة، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فالوحدة الموضوعية

لسورة النساء هي كما بينا في مقدمة عرض السورة: "الاستقامة على منهج الإسلام والتلقي منه وعدم الفتنة عنه".

- وحيث أن فتنة الأمة المسلمة اليوم هي اتباعها سبيل أعداء الدين بالتلقي من منهجهم في هذا العصر المتمثل في "الديمقراطية الليبرالية".. فكان التناسب عرض هذا المنهج الضال والمزيف هنا في سورة (النساء)".

- رغم التحذيرات المبكرة التي انطلقت في سورة البقرة من تتبع خطوات الشيطان وتزيينه وخداعه كي تنحرف عن منهج الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢٠٩].

- واستمرت سورة آل عمران تحذر الأمة المسلمة من التلقي من مناهج أعداء الدين الذين يبغونها عوجًا ويريدون إضلال الأمة عن سبيلها ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩]، وأن الأمة لو تلقت من مناهج أعداء الدين فمصيرها الولوج في الكفر بعد الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ولن يحدث ذلك شريطة أن تظل الأمة متمسكة بمنهجها الرباني الأصيل المستمد من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

حتى جاءت سورة (النساء) تبني على هذه التحذيرات الأولية، وتبين خطورة التأثير بغواية الشيطان لإضلال الأمة وفتنتها للانحراف عن التحاكم إلى منهج الله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وأن الشيطان العدو القديم المتمرد لن يبرح حتى تُغير الأمة دينها وفطرتها ومنهجها ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿١١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩] وقال ابن عباس في رواية عنه رواها مجاهد

وعكرمة والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم في قوله (وَلَا تُرْتَبِئُهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ) يعني: دين الله عز وجل^(١).

- إن فتنة الأمة عن منهجها الرباني هي مهمة أعداء الدين ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].. وهذه الفتنة جاءت سورة (النساء) تحذرنا منها وتكشف لنا عن حقيقتها ألا وهي السير وراء غواية مناهج الشيطان وأولياؤه باتباع مناهج الجاهلية في كل زمان.. فأتى بعد ذلك بسورة النساء وتحذيراتها أن تكون في منأى من اتباع الأمة المسلمة لمنهج الديمقراطية الليبرالية في هذا الزمان!! ولكن سورة (النساء) في تحذيرها تبين أن هذا الاتباع يوقع في الشرك الذي لا يغفره الله عز وجل أبداً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]..

والشرك: خذلان في الدنيا ونار في الآخرة.. وحامل رؤية التوحيد لا يقبل منه أي غبش في الرؤية تحت أي تأويل أو شبهة متى ظهرت الحجج البينة والأدلة الساطعة التي يعرضها صريح القرآن كالنهار.. وهل يحتاج النهار إلى دليل؟!

- وهذا هو الوجه الثاني للتناسب بين سورة (النساء) وبين عرضنا لمنهج الجاهلية المنهج المستورد من الغرب أعداء الدين..

← ولكن الحقيقة هي أن موعظة القرآن لا يستجيب لها إلا الذين يسمعون ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، أما الذين عموا وطمسوا فلن يحسبون هذه المواعظ تخاطبهم، ولن يحسبون هذا الانحراف عن المنهج الرباني فتنة! ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١].

هذه البصائر في كتاب الله كافية للهداية والرحمة ولكن لمن؟ للذين يرهبون ﴿وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، الذين يخشون أن يخالفوا أمر الله ورسوله

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٥٠٨

﴿عَلَيْكُمْ﴾، ويتعاملون مع كل آية في كتاب الله أنها مخاطبهم هم ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].. الذين يرهبون أن يأتوا يوم القيامة بين يدي الله فينتحقق فيهم قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤].

دورنا تبين الحق للناس من خلال الكتاب الذي جاء يهدي إلى الحق ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف، ٣٠]، وسنستمر بإذن الله وتوفيقه في عرضنا للسلسلة الأولى من المنهج الحركي للقرآن (من سورة البقرة: سورة التوبة) في تبين معالم الصراط المستقيم، وملامح الحق المبين الذي نطلب الهداية إليه في اليوم والليلة عشرات المرات ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].. ونسأله سبحانه وتعالى أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه.. إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم..

رابعا: وماذا عليهم لو أنهم استقاموا على منهج الله!؟

قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٧٠].

- جاءت هذه الآيات في موضعها من سورة النساء بعد آيات الأمر بالتحاكم إلى منهج الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، والنهي عن عدم اتباع أية مناهج أخرى غير المنهج الرباني وهي الآيات من (٥٩: ٦٥).

- وقال ابن كثير في تفسير ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]: "يجبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه، لأن طبايعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن لو كان فكيف كان

يكون، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وَأَشَدُّ تَنبِيئًا﴾، قال السدي: وأشد تصديقًا ﴿وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة، ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة^(١)، والإشارة هنا والله أعلم أن الاستقامة على منهج الله تستجلب التأييد والتثبيت الإلهي على صراطه المستقيم في الدنيا، والأجر العظيم والفوز بالجنة في الآخرة، وأن هذه الاستقامة على منهج الله في مقدور المؤمنين وليس بالتكليف الشاق.

- وقتل النفس، والخروج من الديار.. مثلان للتكليف الشاق، التي لو كتبت عليهم ما فعلها إلا قليل منهم، وهي لم تكتب لأنه ليس المراد من التكليف أن يعجز عنها عامة الناس، بل المراد أن تكون في مقدور الجميع، ولكن هناك أصحاب المهمم العالية الذين يطبقون التضحية بكل عزيز عليهم، ولكن هؤلاء هم القلة القليلة!

قال ابن جريج: حدثنا المثنى إسحاق أبو الأزهر عن إسماعيل، عن أبي إسحاق السبيعي قال: لما نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]: قال رجل: لو أمرنا لفضلنا، والحمد لله الذي عافانا.. فبلغ ذلك النبي (ﷺ) فقال: «إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي».

- وروى ابن أبي حاتم عن شيخ بن عبيد: قال: لما تلا رسول الله (ﷺ) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، أشار رسول الله (ﷺ) بيده إلى عبد الله بن رواحة، فقال: «لو أن الله كتب هذا، لكان هذا من أولئك القليل».

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "رسول الله (ﷺ) كان يعرف أن في أمته من ينهض بالتكليف الشاق لو كتبت عليهم، ولكنه كان يعرف كذلك أن الدين لم يحمي لهذه القلة الممتازة في البشرية كلها.. وكان الله سبحانه يعلم طبيعة هذا الإنسان الذي خلقه، وحدود

طاقته، فلم يكتب على الناس في الدين الذي جاء للبشر أجمعين، إلا ما هو ميسر للجميع، حين تصح العزيمة، وتعتدل الفطرة، وينوي العبد الطاعة، ولا يستهتر ولا يستهين.

- عزيمة وإخلاص النية والبدء في الطريق الصحيح.. فمجرد البدء، يتبعه العون من الله، ويتبعه التثبيت على المضي في الطريق.. ويتبعه الأجر العظيم.. فما يخدع الله سبحانه وتعالى عباده، ولا يعدهم وعدًا لا يفي لهم به..

- في الوقت ذاته ليس اليسر في هذا المنهج هو الترخيص، ليس هو تجميع الترخيص كلها في هذا الدين وجعلها منهج الحياة، فهذا الدين عزائم ورخص. والعزائم هي الأصل والرخص للملايسات الطارئة^(١).. أما أن تبني طريقك بالكامل على الرخص فهذا ليس دين الله.

وفي نهاية هذا المقطع الهام من سورة النساء يأتي الحديث عن الذين استقاموا على منهج الله القويم، وصراطه المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من لدن آدم إلى قيام الساعة.. هؤلاء في صحبة الحبيب (ﷺ) في الآخرة في متاع الصحبة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.. ذلك الفضل من الله وحده سبحانه وتعالى صاحب المنة والإحسان، فلولا فضله ورحمته ما استقام المؤمنون على صراطه المستقيم في الدنيا ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وهو وحده سبحانه وتعالى صاحب الفضل والإكرام على عباده المؤمنين.. يهديهم إلى طريقه واتباع منهجه في الدنيا، ويرفعهم إلى مقام كريم في صحبة كريمة، في جواره الكريم في الآخرة..

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله سُئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «المرء مع من أحب».. قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث^(١).

المقطع الثالث: حماية المنهج الرباني والدفاع عنه (الآيات من ٧١: ١٠٤)

- يشمل المقطع الثالث في سورة النساء عرض العناصر التالية:
- أولاً: القرآن يرسم الخطة الإستراتيجية للمعركة ويضع الخطة التنفيذية لها.
- ثانياً: علاج المنهج الرباني لرواسب الجاهلية التي تعيق عن الجهاد.
- ثالثاً: نصيب النساء في الجهاد.
- رابعاً: الجهاد حماية للمنهج الرباني ورحمة للعالمين.
- خامساً: الهجرة انخياز إلى الفئة المؤمنة ورفضاً للذل والاستكانة.
- سادساً: قواعد منهج الإسلام في التعامل الدولي مع المجتمعات الأخرى.
- مع عرض مقصد الإعداد للدار الآخرة تحت عنوان: "الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة"
- وهذا المقطع تناول فيه إعداد الفئة المؤمنة لإقامة منهج الله في الأرض، وذلك بحثهم على الهجرة والجهاد في سبيل الله، ثم بإزالة الرواسب الداخلية والمعوقات الخارجية التي تقعد المؤمنين عن النهوض لحماية المنهج وإقراره في الأرض، وذلك مع عرضنا للتناسب بين الحديث عن الجهاد والهجرة في سورة اسمها (النساء)، فما هي الصلة بين النساء وبين موضوعي الجهاد والهجرة؟

أولاً: القرآن يرسم الخطة الإستراتيجية للمعركة ويضع الخطة التنفيذية لها

- ذكرنا في سورة (آل عمران) إنه لا بديل أمام الفئة المؤمنة في معركتها مع الجاهلية إلا أن تخوضها بالقرآن... يوجه خطواتها في أرض المعركة الكبيرة مع نفسها التي بين جنبيها، ومع أعدائها المتربصين بها في كل مكان.
- ونؤكد هنا أنه بدون قيادة القرآن للفئة المؤمنة في هذه المعركة، ستخسر هذه الفئة المعركة ولا شك..

لأنها فقدت حينها القائد الأمين ودليلها الهادي ودستورها الشامل..

- إن صف الفئة المؤمنة لا يكتمل نضجه مرة واحدة، لم يحدث ذلك مع الجماعة المسلمة الأولى.. هناك تفاوت في المستويات بين السابقين الأولين فيه وبين حديثو العهد الذين لا يزالون يلتحقون به، ولكن الاحتياج إلى العملية التربوية المستمرة بمرحلتها- كما أسلفنا- مرحلة الغرس والتكوين على أسس العقيدة الصافية ومرحلة البناء في خضم المعارك والحوادث العملية.. تظهر نتوءات في الصفوف فيقوم التوجيه القرآني الحي بتسويتها.. تكتشف رواسب وشوائب في النفوس فتقوم الآيات بتطهيرها وتنقيتها.. تكمن عيوب في السرائر والضمائر فيداويها القرآن مداوة الطبيب الحازق الخبير بما دون غيره.. هذا هو القرآن ولا يفعل ذلك غيره.. ثم يستمر القرآن في دوره الذي كتبه الله عز وجل له، يرسم معالم الطريق أمام الفئة المؤمنة لينير لها بصيرتها فلا يدعها في غيبش أو ظلمة.. يبصرها بطبيعة العقبات والفخاخ المرصودة في طريقها وكيفية التغلب عليها والحذر من الوقوع فيها..

• قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَابَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

• قال تعالى ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْنَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: "إنها الوصية للذين آمنوا الوصية من القيادة العليا، التي ترسم لهم المنهج، وتبين لهم الطريق، وإن الإنسان ليعجب وهو يراجع القرآن الكريم، فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين بصفة عامة طبعًا- الخطة لعامة للمعركة وهي ما يعرف باسم "إستراتيجية المعركة" يقول للذين آمنوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ

الْكَفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿التوبة: ١٢٣﴾ في رسم الخطة العامة للحركة الإسلامية. وفي هذه الآية من سورة النساء يقول للذين آمنوا ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾. وهي تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى "التاكتيك". وفي سورة الأنفال جوانب كذلك منها في الآيات ﴿فِيمَا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِنَّ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧].. وهكذا نجد هذا الكتاب لا يُعَلِّم المسلمين العبادات والشعائر فحسب، ولا يُعَلِّمهم الآداب والأخلاق فحسب - كما يتصور الناس الذين ذلك التصور المسكين! إنما هو يأخذ حياتهم كلهم جملة، ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابس واقعية.. ومن ثم يطلب - بحق - الوصاية التامة على الحياة البشرية، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج. وتحت تصرفه وتوجيهه.. ولا يقبل أن يكون لهم مناهج متعددة المصادر: منهجًا للحياة الشخصية وللشعائر من كتاب الله، ومنهجًا للمعاملات الاقتصادية والسياسية والدولية مستمدًا من تفكير بشري أو منهج آخر على الإطلاق.

- هذا جانب من الخطة التنفيذية للمعركة يرسمها القرآن.. سيندس في صفوفكم مبطنين ومبطنين في قلب معسكركم.. وسيحيط بكم أعدائكم حولكم ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾، ثباتٍ جمع ثبة: أي مجموعة.. والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى، ولكن اخرجوا في مجموعات صغيرة سرية بعد سرية، فرقة بعد فرقة أو الجيش كله.. حسب طبيعة المعركة.. ذلك أن الأحاد قد يتصيدهم الأعداء، المبتوثون في كل مكان، وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبثين في قلب المعسكر الإسلامي.. وهم كانوا كذلك، ممثلين في المنافقين، وفي اليهود في قلب المدينة.

ثم يضع القرآن بجانب الخطة العامة.. يضع جانبًا من الخطة الحركية ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ إنما حالة الاحتياط.. واليقظة.. والتعبئة النفسية.. ومعها ييث الطمأنينة مع ذلك الحذر.. بالحرص على الصلاة في ساحة المعركة.. فالصلاة سلاح من أسلحة المعركة، بل كانت هي السلاح

الذي فيه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو.. وهذا التقابل بين التحذير والتطمين.. وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة، هو طابع هذا المنهج القرآني في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم، في مواجهة العدو والمآكر العنيد اللئيم^(١).

ثانيًا: علاج المنهج الرباني لرواسب الجاهلية التي تعيق عن الجهاد

- قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢-٧٣] ليبطئن أي: يتناقل عن الجهاد ويثبط غيره.
- ينهض القرآن بالفئة المؤمنة من سفح الجاهلية ويصعد بها المرتقى حتى يصل بها إلى القمة السامقة، يقر ابتداءً برواسب الجاهلية داخلها ومواضع الضعف فيها، حتى يقدم العلاج الناجع لها بالرغم من قوة وتفوق بعض عناصرها، فالفئة المؤمنة حين يوجد فيها الأقوياء كل القوة، لا يغنيها هذا إذا وجدت اللبنة المخلخلة في الصف بكثرة..
- نرى في هذه الآيات نموذجًا تربويًا يعالج المنهج الرباني في الصف المؤمن المنوط به قيادة البشرية بمنهج الله معالجة دقيقة وعميقة.. هذا الصف في سيرته الأولى وقت نزول القرآن، وفي سيرته المتجددة في كل زمان..
- ويبدو لنا من خلال الآيات أن الجماعة المسلمة الأولى على كل فضلها هي تجربة بشرية فيها الضعف والقوة، وذلك حتى لا نياس من أنفسنا حين نطلع على مواطن الضعف فينا، وكي لا تبقى الجماعة المسلمة على سبقها مجرد حلم طائر في خيالنا.. بل يمكننا السير على خطاها ويمكننا محاكاة تجربتها..
- يقول الشيخ سيد قطب عن طبيعة الصف المسلم وتكوينه يومذاك من خلال هذه المجموعة من الآيات والتي يرجح نزولها بعد غزوة أحد (٣ هـ) وقبل الخندق (٥ هـ)، فيقول رحمه الله:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٧٠٤، ٧٤٨

١. صف فيه من يبطئ نفسه عن الجهاد في سبيل الله، ومن يبطئ غيره. ثم يحسبها غنيمة إذ لم يخرج فسلم، على حين أصابت المسلمين مصيبة! كما يعدها خسارة إذا لم يخرج فغنم المسلمون، لأنه لم يكن له سهم في الغنيمة! وبذلك يشترى الدنيا بالآخرة، قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [٧٢] وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ [النساء: ٧٢-٧٣].

٢. صف فيه من كانت تأخذهم الحماسة للقتال ودفع العدوان.. من المهاجرين أنفسهم وهم في مكة- وهم مكفوفون عن القتال ثم يأخذهم الجزع حينما كتب عليهم القتل في المدينة، ويتمنى لو أن الله أمهلهم إلى أجل، ولم يكتب عليهم القتال الآن، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿ [النساء: ٧٧].

٣. صف فيه من كان يرجع الحسنة- حين تصيبه- إلى الله، ويرجع السيئة- حين تصيبه- إلى النبي (ﷺ)- مما ينبئ عن ضعف تصورهم حول حقيقة القدر في النفع والضرر، قال تعالى ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿ [النساء: ٧٨].

٤. صف فيه من كان يتناول الشائعات، فيذيع بها محدثاً بها فيحدث من البلبلة، قبل أن يتثبت منها، من القيادة التي يتبعها، قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْحُوفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴿ [النساء: ٨٣].

٥. صف فيه من كان يدافع عن بعض المنافقين، حتى لتتقسم الجماعة المسلمة في أمرهم إلى فئتين مما يوحي بعدم التناسق في التصور الإيماني، قال تعالى ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ نَاجِدٌ لَهُ سَبِيلًا ﴿ [النساء: ٦٨].

- وقد يكون هؤلاء جميعاً مجموعة واحدة من المنافقين، أو مجموعتين: المنافقين، وضعاف الإيمان الذين لم تنضح شخصيتهم الإيمانية- ولو كان بعضهم من المهاجرين- ولكن وجود هذه المجموعات في الصف المسلم وهو يواجه العداوات المحيطة به في المدينة من اليهود، وفي مكة من المشركين.. من شأنه أن يحدث خلخلة في الصف، تحتاج إلى تربية طويلة، وإلى جهاد طويل!"^(١).
- ونؤكد هنا قبل أن نطلع على معالجة المنهج القرآني لمظاهر الضعف هذه، وأوجه الخلل في الصف المسلم على:
١. أهمية مرحلة الغرس الأولى.. التكوين العقدي الصحيح، والتي يتم فيها تربية أفراد الطليعة المؤمنة على تصورات العقيدة لحقائق الموت والحياة، والأجل والقدر، والخير والشر، والنفع والضرر، والكسب والخسارة.. تربية مرحلية تأصيلية لفترة محددة لهؤلاء الركائز.
٢. أن مرحلة الغرس الأولى يتبعها تربية حية بالحوادث والمناسبات العملية، يتم فيها إنضاج التصورات العقدية بالممارسة والتطبيق...
- فهذه الحقائق تربت عليها الجماعة المسلمة الأولى في مكة، وكانت الحماسة تشتد بهم- وهم يلقون الأذى والاضطهاد- ثم حين يؤذن لهم في قتال المشركين: يتثاقلون إلى الطين ويخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وإذا أصابتهم حسنة يقولون: هذه من عند الله، وإن أصابتهم مصيبة يقولون: هذه من عندك.. ثم تأتي التربية الحية لتطهير هذه العيوب في خصم المعركة المستمرة.
- وكلتا المرحلتين لا غنى عن أحدهما في إعداد وتأهيل الفئة المؤمنة المنوط بها قيادة البشرية بمنهج الله.. إعداد متكامل وتأهيل متوازن.
- أما طريقة معالجة المنهج القرآني لهذه التصورات الاعتقادية الخاطئة كانت كالتالي:
١. بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، فالدنيا ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة.. إنها مرحلة.. ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع الحقيقي.

٢. يوقظ في حس المبطين المتقلين بالطين التطلع إلى ما هو خير وأبقى، يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة، ويعددهم على ذلك فضل الله في الحالتين، وإحدى الحسينيين: النصر أو الشهادة ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبُغْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤] فالؤمن إذا ندب للجهاد خرج.. غير متناقل خرج يسأل الله إحدى الحسينيين وكلاهما فضل من الله إما الشهادة فيفرح بمقام الشهادة عند الله وإما أن يقسم الله له الغنيمة والإياب، فيشكر الله على فضله، ويفرح بنصر الله. لا مجرد النجاة!

٣. تقرير حتمية الموت ونفاذ القدر فيه مهما اتخذ المرء من الاحتياط، ومهما ينكل عن الجهاد ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فالموت حتم في موعده المقدر، ولا علاقة له بالحرب والسلام، ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته.. ولا معنى إذن لتمي تأجيل القتال. ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال.

٤. تقدير حقيقة تكاليف الطريق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، فالذين آمنوا مهمتهم القتال في سبيل الله لتحقيق منهجه وإقرار شريعته.. منهج التراحم والتكافل.. شريعة العدل والإنصاف.. هذا هو الطريق. والذي بيانه ومعرفة حقيقة السير فيه يستنهض المنهج القرآني المهم ويستجيش العزائم ويحدد القيم والغايات، أما الذين لا يدركون هذه الحقيقة الثابتة في أصل هذا الدين، فيتحدثون بشعارات ودعاوى تبدو فيها الحماسة والاندفاع.. ثم تجدهم عندما يجد الجدد أشد الناس جرعاً وانحياراً..

٥. تقرير حقيقة قدر الله وعمل الإنسان ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴿ [النساء: ٧٨-٧٩].

إن قدرة الله سبحانه وتعالى هي التي تنشئ الأشياء والأحداث وتحقق ما ينفع في هذا الكون من وقائع وأفعال، فالله عز وجل جعل الإنسان مخيراً أمامه الخير والشر.. وإرادته أن يكون إما شاكراً وإما كفوراً.. وفي الحالتين إرادته لا تتحرك إلا بإرادة الله ومشيتته، فالله عز وجل يحب الخير لعباده.. ولا يرضى لعباده الكفر.. والله عز وجل بيّن لعباده الطريقين: الخير والشر، وسن لهم منهجاً يدلهم على الخير، ويحذرهم من الشر، فمن يحاول الخير يعينه الله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، والذين أرادوا السوء والغواية اختاروا بإرادتهم ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾، يقول ابن القيم: "يشاء الله السوء ولا يرضاه، وهناك فارق بين محبة الله ورضاه، ومشيتته وإرادته الكونية، وكل شيء بمشيئته وقضائه وقدره ولكن ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(١).

- وبهذه الآيات القرآنية والتوجيهات الربانية كان يأخذ منهج الإسلام النفوس ليزكيها ويطهرها في دقة، وفي عمق، وفي تल्प لها.. النفوس المختارة لقيادة البشرية بمنهج الله في الجيل الأول.. وفي كل جيل وزمان.. ليخوض بها معركة إقامة المنهج الرباني في كل بقاع الأرض، هذه المعركة التي تتطلب طرازاً خاصاً من نفوس مزكاة ومطهرة ترتقي للمستوى الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه.

ثالثاً: نصيب النساء في الجهاد

- تساءلنا في بداية هذا المقطع في سورة النساء والذي تتحدث آياته عن الجهاد والهجرة في سبيل الله، لماذا الحديث عن الجهاد والهجرة وبهذا الشكل الموسع في سورة اسمها (النساء)؟ فما هي الصلة بين النساء وبين موضوعي الجهاد والهجرة في سبيل الله؟

- والإجابة والله أعلم كالتالي: النساء قد يصرن فتنة تقعد الرجال عن مهمة إقامة منهج الله في الأرض، وذلك أن التباطؤ والتثاقل عن الخروج للجهاد والهجرة في سبيل الله، سببه في الأساس الفتنة بالزوجة والأولاد، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، يقول ابن كثير في تفسيرها: ("يلتهي به الرجل عن

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ص ١٣١

العمل الصالح، (فاحذروهم): يعني على دينكم، وعن ابن عباس: "أن هذه الآية نزلت في رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله (ﷺ) فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم" ^(١) ^(٢)، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

— وروى الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه عن سيرة بن الفاكه رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم، بطريق الإسلام فقال: تُسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، فغفر له، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتذر دارك، وأرضك، وسمائك؟ فعصاه فهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد وهو جهد النفس والمال فتقاتل، فتقتل، فتكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد»، فقال رسول الله (ﷺ): «فمن فعل ذلك فمات كأن حقا على الله أن يبلغه الجنة» ^(٣).

— مما سبق نجد أن المرأة أحد أسباب قعود الرجال عن الجهاد، فأراد الإسلام أن يجعل لها نصيب من الجهاد ومن ثوابه، حتى لا تكون عائقاً عنه وبصير لها دور إيجابي فيه، قسمه الله عز وجل للمرأة بما يناسب طبيعتها، يوضحه لنا الشيخ سيد قطب رحمه الله قائلاً: "كان يشغل بال الصالحات من النساء في الجيل الصالح الذي يتجه بكليته إلى الآخرة أن الرجال تغزو، والنساء لا يغزون، فعن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، تغزو الرجال ولا تغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ^(٤).. إن الله عز وجل كتب التنوع في التكوين والخصائص بين الرجل والمرأة ليقابله تنوعاً في التكليف والوظائف، قال تعالى ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلرِّجَالِ﴾ أي: كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذه القاعدة تعني أن كل منهما هيئه الله عز وجل لوظيفة

(١) رواه الترمذي في سننه (٣٣١٧) وقال: حسن صحيح

(٢) مختصر تفسير ابن كثير - عمدة التفسير - ٣ / ٤٦٨

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤٨٣ / ٣) بإسناد حسن

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب

تتناسب مع تكوينه.. أما الأجر والثواب فقد طمأن الله عز وجل الرجال والنساء أنه حسب إحسان كل منهما في وظيفته التي كتب الله لكل منهما لا على حسب الوظيفة نفسها.

- إن الله عز وجل لم يكتب على المرأة الجهاد كما كتبه على الرجال، لماذا؟ لأن المرأة تلد الرجال الذين يجاهدون، وهي مهياة لميلاد الرجال بكل تكوينها العضوي والنفسي، ومهياة لإعدادهم للجهاد والحياة سواء. وهي في هذا المجال أقدر وأنفع.. هي أقدر لأن كل خلية في تكوينها معدة من الناحية العضوية والناحية النفسية لهذا العمل، وليست المسألة في هذا التكوين العضوي الظاهر، بل هي- وعلى وجه التحديد- كل خلية منذ تلقيح البويضة، وتقدير أن تكون أنثى أو ذكرًا من لدن الخالق سبحانه، ثم يلي ذلك تلك الظواهر العضوية والنفسية.

- وهي أنفع بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل، فالجهد حين تحصد الرجال وتستبقي الإناث، تدع المرأة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ. والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال أو حتى حين تحصد النساء وتستبقي الرجال!

فرجل واحد- في النظام الإسلامي- وعند الحاجة إلى استخدام كل رخصه وإمكانياته يمكن أن يجعل نساء أربعمائة ينتجن، ويملأ الفراغ الذي تتركه المقتلة بعد فترة من الزمان. ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد، لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال. وليس ذلك إلا بابًا واحدًا من أبواب الحكمة الإلهية في إعفاء المرأة من فريضة الجهاد^(١)..

- وبذلك صارت المرأة شريكة في مسئولية إقرار منهج الله في الأرض.. بدورها في الجهاد الذي حدده لها الإسلام وفقًا لتكوينها العضوي.. ولادة الرجال الذين يجاهدون.. نذرهم الله وتربيتهم وإعدادهم لخدمة دينه ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

- الرجال يخرجون للجهاد في سبيل الله فهذا طبيعة دورهم الذي فرضه الإسلام عليهم، والنساء أصبحن شركاء لهم في هذه المسئولية، بدفعهم وإعانتهم وحفظ غيبتهم، وتربية

أبناءهم وإعدادهم.. وقبل ذلك باستمرار إمداد الصف المسلم بين الحين والآخر بالرجال المجاهدين..

- إن الرجال لهم القوامة والأفضلية على النساء في التكليف والوظيفة، ولكن ليست القوامة والأفضلية في الأجر والثواب، قال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، يقول ابن كثير: "الرجل قيم على المرأة أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوججت (بما فضل الله بعضهم على بعض) أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، (وبما أنفقوا من أموالهم) أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم في كتابه وسنة نبيه (ﷺ)، (فالصالحات) من النساء (قانتات) يعني مطيعات لأزواجهن، (حافظات للغيب): أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله، (بما حفظ الله): أي المحفوظ من حفظه الله" (١).
- فالآية تتحدث عن قوامة الرجال على النساء وأسباب هذه القوامة والأفضلية، ثم تذكر نفس الآية دور النساء الصالحات الهام في طاعة أزواجهن وحفظ غيبتهن، فتصير بذلك المرأة الصالحة ظهيراً معيناً لزوجها على أداء تبعات وتكاليف قوامته ووظيفته.
- أيضاً من التناسب بين (النساء) و(الجهاد) هو أن المرأة هي رمز للضعفاء الذين انطلق الجهاد للدفاع عنهم وحميتهم، قال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].
- والآن نتعرف على بعض الصور العملية والنماذج التطبيقية لدور النساء الإيجابي في الجهاد، عسى أن نقدم بذلك القدوة لفسادنا فيصرون شريك أساسي للرجال في حماية المنهج الرباني وإقراره في الأرض.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١/ ٤٤٣

دور النساء في المعارك

- يقول الدكتور منير الغضبان في كتابه المنهج الحركي للسيرة النبوية:

"لقد كانت المرأة المسلمة جزءاً لا يتجزأ من الأحداث والمعارك، ساهمت في صنعها تربية للجيل المسلم أولاً، ثم رعاية للزوج المسلم ثانياً، ودفعت له إلى الجهاد والبذل، ثم صبراً واحتساباً عند المصيبة ثالثاً، ثم حضوراً للمعركة تسقي الظمأى وتداوي الجرحى رابعاً، ثم حملاً للسلاح جهاداً للعدو حين الضرورة أخيراً"^(١).

- وكانت غزوة (أحد) التي تناولتها سورة (آل عمران) السابقة لسورة النساء، هي أول معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، في تناسب جميل بين ما اختتمت به سورة (آل عمران) وحديثها عن غزوة أحد، والتي شاركن فيها (النساء) مع اسم السورة التالية لأحداث الغزوة وهي سورة (النساء).

- ظهرت بطولات النساء الصالحات وصدق إيمانهن في المعركة، وظهرت عظيم دورها الذي كفلها الإسلام لها لتشارك بمسئولية تضامنية للرجال المقاتلين في الميدان الحربي..

(أ) في تربية الجيل المسلم وحثه على الجهاد

- عن عبد الله بن زيد قال: "جرحت يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى يوم أحد وضربني رجل كأنه الرقل - النخلة الطويلة- وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول الله (ﷺ): "اعصب جرحك"، فأقبلت أمي إليّ، ومعها عصائب في حقوبها وقد أعدتها للجراح، فربطت جرحي، والنبي واقف ينظر إليّ، ثم قالت: انهض يا بني فضارب القوم!! فجعل النبي (ﷺ) يقول: من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة"^(٢).

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير الغضبان، ٣٤٣

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٨٠

ب) في رعاية الزوج والولد

- في موقف مهيب لمراة من الأنصار يوم أحد.. يظهر أن نساء المؤمنات كالجبال الراسخات، عليهن مسئولية ليست هينة في دفع الرجال للجهاد في سبيل الله، فلولاهن لما صار الرجال مجاهدين وشهداء: "خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج وهو يقول: اللهم لا تردني إلى أهلي!! فقتل شهيداً، واستشهد ابنه خالد بن عمرو، وعبد الله بن عمرو بن حرام فحملتهم هند بنت عمرو بن حرام- زوجة عمرو بن الجموح وأم خالد وأخت عبد الله- على بعير لها تريد بهم المدينة، فلقيتها عائشة رضي الله عنها فقالت لها: عندك الخبر، فما ورائك؟ قالت: أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده جليل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء.. قالت عائشة: من هؤلاء؟ قالت: أخي وابني خالد وزوجي عمرو بن الجموح، قال: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها. ثم قالت: حل- تزجر بعيرها لتحتها على السير- فبرك، فقالت عائشة: لما عليه. قالت: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، وزجرته فقام، فوجهته راجعة إلى أحد، فأسرعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك فقال: "إن الجمل مأمور، هل قال شيئاً؟ قال: إن عمراً لما وجه إلى أحد قال: اللهم لا تردني إلى أهلي خزيان، وارزقني الشهادة، فقال صلى الله عليه وسلم: "فلذلك الجمل لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره: منهم عمرو بن الجموح. يا هند، ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن"، ثم مكث صلى الله عليه وسلم حتى قبرهم. ثم قال: "يا هند، قد ترافقوا في الجنة، عمرو بن الجموح وابنك خالد وأخوك عبد الله". قالت: قلت يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني معهم"^(١).

ج) سقي العطشى من المجاهدين

- روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: لقد رأيت عائشة وأم سليم وإهنا لمشمرتان تنقزان- تحملان وتقفزان بهما وثباً- القرب، ثم تفرغان الماء في أفواه القوم ثم ترجعان فتملأهما ثم تجيئان فتنفرغانه في أفواه القوم"^(٢).

(١) إمتاع الأسماع ١/ ١٤٦-١٤٨

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤/ ١٢٥

د) مداوة الجرحى ومواساة المصابين

- أخرج عبد الرزاق عن الزهري: (كان النساء يشهدن مع النبي ﷺ) المشاهد ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى" (١).

- وعن أم عطية قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، فكنت أصنع لهم طعامهم، وأخلفهم في رحالهم، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى" (٢).

ه) المرأة المسلمة مقاتلة تدافع عن الإسلام

وهو دور غير طبيعي كما ذكرنا، فالأصل من المرأة ألا تقاتل إلا حين الضرورة، وحين تغشى أرض المسلمين من العدو.. فلم يقاتل من النساء يوم (أحد) غير هذا النموذج الفذ: أم عمارة، ودعتها الضرورة لذلك وهي قتالها حول رسول الله ﷺ تفديه بنفسها، وقالت أم عمارة نسبية بنت كعب المازنية ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ل مقام نسبية بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان، وكان يراها تقاتل يومئذ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحًا، وفي رواية أم سعيد بنت سعيد بن الربيع تقول: خرجت أم عمارة يوم أُحد أول النهار تسقي الماء، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ تباشر القتال وتذب عن رسول الله بالسيف وترمي بالقوس، حتى جرحت جرحًا أجوف له غور أصابها به ابن قميئة لعنه الله (٣).

- هذه هي أم عمارة التي شاركت في بيعة الحرب بيعة العقبة الثانية، هي وامرأة أخرى اسمها: أسماء بنت عمرو بن عدي حضرنا البيعة مع ثلاثة وسبعين رجلًا.. وهذه هي أم عمارة أيضًا في صلح الحديبية حينما بلغ المسلمون مقتل عثمان ﷺ فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن الله أمرني بالبيعة" فأقبل الناس يبائعونه حتى تداركوا، وقامت أم عمارة إلى عمود الخيمة كانت تستظل بها

(١) صحيح البخاري: (٩٢ / ٦)، فتح الباري

(٢) الطبقات الكبرى ٨ / ٤٥٥

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٨٢

فأخذته بيدها، وشدت سكيناً في وسطها وسارعت لتبايع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الموت^(١).

- وهؤلاء هن نساؤنا، فعلى مدار التاريخ الإسلامي ظهرت بطولاتهن ودورهن العظيم في دفع الرجال وحثهم على الجهاد في سبيل الله والشهادة في سبيله.
- وهذه خنساء بنت عمرو أخت صخر الشاعرة ولها صحبة ﷺ، شهدت القادسية ومعها أربعة بنين لها، فلم تزل تحضهم على القتال وتذكرهم الجنة، بكلام فصيح فأبلوا يومئذ بلاءً حسناً، واستشهدوا جميعاً، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يعطيها أرزاقها، وذكرت أنها صبرت صبراً جميلاً.
- وذكر ابن النحاس في المشارع حكاية أم إبراهيم الهاشمية التي ذكرت في صفوة الصفوة^(٢)، وذكرها أبو جعفر أحمد بن جعفر بن اللبان رحمه الله في كتابه "تنبيه ذوي الأقدار على مسالك الأبرار" قال: كان بالبصرة نساء عابدات وكانت منهن أم إبراهيم الهاشمية، فقام عبد الواحد بن زيد البصري في الناس خطيباً فحضهم على الجهاد، وكانت أم إبراهيم هذه حاضرة في مجلسه، وتمادى عبد الواحد على كلامه، ثم وصف الحور العين، وذكر ما قيل فيهن، فماج الناس واضطرب المجلس فوثبت أم إبراهيم من وسط الناس وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد أأنت تعرف ولدي إبراهيم، ورؤساء أهل البصرة يخطبونه على بناهم، وأنا أضن به عليهن، فقد والله أعجبتني هذه الجارية (تقصد الحور العين)، وأنا أرضاها عرساً لولدي فهل لك أن تزوجه منها وتأخذ مني مهرها عشرة آلاف دينار، ويخرج معك في هذه الغزوة، فلعل الله يرزقه الشهادة، فيكون شفيحاً لي ولأبيه في القيامة؟ فقال لها عبد الواحد: لئن فعلت لتفوزن أنت وولدك، وأبو ولدك، فوزاً عظيماً، ثم نادى ولدها: يا إبراهيم! فوثب من وسط الناس وقال لها: لبيك يا أمه، قالت: أي بني أرضيت بهذه الجارية زوجة ببذل مهجتك في سبيله وترك العود في الذنوب؟ فقال الفتى: إي والله يا أمه أرضيت أيّ رضا، فقالت: اللهم إني أشهدك أني زوجت ولدي هذا من هذه الجارية ببذل مهجته في سبيلك، وترك العود في الذنوب فتقبله مني يا أرحم الراحمين، قال:

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، ٤١٨

(٢) صفوة الصفوة: ٣ / ٣٨-٣٩

ثم انصرفت فجاءت بعشرة آلاف دينار، وقالت: يا أبا عبيد! هذا مهر الجارية تجهز به.. فلما أرادت فراق ولدها دفعت إليه كفنًا وحنوطًا، وقالت له، أي بني! إذا أردت لقاء العدو فتكفن بهذا الكفن، وتحنط بهذا الحنوط، وإياك أن يراك الله مقصرًا في سبيله، ثم ضمته إلى صدرها، وقبلت بين عينيه، وقالت: يا بني! لا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه في عرصات القيامة.

قال عبد الواحد: فلما بلغنا بلاد العدو، ونودي في النفير وبرز الناس للقتال برز إبراهيم في المقدمة، فقتل من العدو خلقًا كثيرًا، ثم اجتمعوا عليه فقتل، قال عبد الواحد: فلما أردنا الرجوع إلى البصرة قلت لأصحابي: لا تخبروا أم إبراهيم بخبر ولدها حتى ألقاها بحسن العزاء لئلا تجزع فيذهب أجراها، قال: فلما وصلنا البصرة خرج الناس يتلقوننا، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج، فقالت له: يا أبا عبيد هل قبّلت مني هديتي فأهنأ، أم ردت علي فأعزّيتي، فقلت لها: قد قبّلت والله هديتك إن إبراهيم حي مع الأحياء يرزق، قال: فخرت ساجدة لله شكرًا، وقالت: الحمد لله الذي لم يخيب ظني وتقبل نسكي مني^(١).

- وهذه خنساء فلسطين تبرهن لنا أن النساء المجاهدات، لم ينضبن من الأمة ولا يزلن يصنعن الأبطال المجاهدين، ويدفعونهم إلى الشهادة في سبيل الله ونصرة لدينه وإقرار لمنهجه في الأرض.
- إنها أم نضال فرحات وهي مريم محمد يوسف المريبة والمجاهدة (١٩٤٩ - ٢٠١٣) والتي قدمت ثلاثة من أبنائها في فلسطين، وأوت القائد القسامي عماد عقل واغتيال في منزلها في غزة.
- أول أبنائها الذين استشهدوا هو: محمد فرحات (١٧ عامًا) والذي قام بتسجيل مصور في مطلع عام ٢٠٠٢م وهي تقبله قبلات الوداع، وظهرت في هذا التسجيل مع ابنها محمد وهي تودعه فيه، وهو خارج إلى عملية استشهادية وأوصته بالآلا يعود إليها إلا مثخنًا في عدوه محمولًا على أكتاف الرجال، فاستشهد رحمه الله في هذه العملية.
- وبعد عام واحد (عام ٢٠٠٣م) قدمت ابنها الثاني البكر: نضال فرحات (٣١ عامًا) بعد اغتيال قوات الاحتلال له، فلما علمت الخبر كان لا يتردد على لسانها إلا كلمات الشكر والحمد لله بأن أكرمها باستشهاد نجلها الثاني.

(١) مشاريع الأشواق، ابن النحاس، ٢١٥: ٢١٨

- ولم يمر عامان حتى استشهد ولدها الثالث: رواد فرحات قصفت سيارته الطائرات الصهيونية (عام ٢٠٠٥م)، وكانت تصبر النساء والناس الذين أتوا لمواسمها في أبناءها.
- هذه بعض النماذج المضيئة التي تكررت في تاريخنا الإسلامي، ولا تزال بفضل الله تتكرر يبرز فيها دور المرأة المسلمة العظيم في صناعة الرجال... ونذرهم لله... ودفعهم لإقرار منهج الله في الأرض بالجهاد في سبيله.. وهذا هو الدور منوط أن تقوم النساء المسلمات به.. لا أن يصرن فتنة وعائقاً للرجال يقعدونهم عن مهمتهم السامية في قيادة البشرية بمنهج الله الذي جعله الله عز وجل رحمةً للعالمين.

رابعاً: الجهاد حمايةً للمنهج الرباني ورحمةً للعالمين

- قال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٥-٧٦].

- جاء المنهج الرباني الفريد لانتشال البشرية من سفح الجاهلية، ليرتقي صاعداً بها إلى القمة السامقة.. ينتشلها من سفح الظلم والجور إلى قمة العدالة والرحمة.. وينتشلها من سفح الأناية والشح إلى قمة الإيثار والتكافل.. وينتشلها من مستنقع السفاح إلى قمة الإحسان والطهارة.. وينتشلها من سفح عبودية البشر للبشر إلى قمة عبودية الله وحده لا شريك له، وينتشلها من سفح السيادة للشعب والحكم للطاغوت إلى قمة السيادة للشرع والحكم لله عز وجل. جاء هذا المنهج الرباني لتنعم البشرية بالخير والعدالة الاجتماعية... وجاءت مناهج الجاهلية لتحظى البشرية بالفساد والشقاء...

- لذلك ستدفع مناهج الجاهلية بكل قوة لتحول دون إقرار منهج الإسلام في الأرض في كل زمان.. وهذه سنة ثابتة قدرها.. أراد فهم طبيعتها من شاء! وتغافل عن حقيقتها من شاء!!

- يقول الشيخ سيد قطب: "إن الله سبحانه يعلم أن هذا الأمر تكرهه الملوك ويعلم أنه لا بد لأصحاب السلطان والمناهج الأرضية أن يقاوموه. لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط. ولكن اليوم وغداً، وفي كل أرض، وفي كل جيل! وإن الحق يحمل الخطر على الباطل. ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!

هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية

هذه فطرة! وليست حالة طارئة

ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير. ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح.. ولا بد من بذل الأموال والأنفس كما طلب الله من المؤمنين. وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. فإما أن يقدر لهم الغلب، أو يقدر لهم الاستشهاد، فذلك شأنه سبحانه وذلك قدره المصحوب بحكمته"^(١).

- لذلك تؤكد لنا سورة (النساء) أننا أمام مفرق طريق ترسمه لنا بدقة وتعرضه لنا بوضوح..

● نحن أمام منهجين:

- منهج الله.

- منهج الجاهلية.

● ونحن أمام فريقيين اثنين تحت رأيتين متميزتين:

- الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله لتحقيق منهجه.

- والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت لتحقيق مناهج غير التي أذن الله بها.

● والذين آمنوا مستندين إلى: ولاية الله وحمائته ورعايته.

● والذين كفروا مستندين إلى: ولاية الشيطان بشتى رايتهم وشتى مناهجهم.

- وهكذا يأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ولا يخشوا مكربهم ولا كيدهم ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد.. معتمدين برب البرية.. فمعركتهم لله وحده، ولنهجهم وشريعته.. ومن يواجههم قومًا أهل باطل يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية بحظوظها ومصالحها وأوضاعها.. وكل مناهج البشر جاهلية.

لا بد أن يتغلب المؤمن من أية هزيمة نفسية تنطرق إليه لضعف إمكانات الحق الظاهرة أمام إمكانات الباطل.. فكل قوى الأرض ستتكالب على أهل الحق متى أعلنوا هذه المفاصلة.. ولا بد أن يتقرر مصير هذه المعركة في حس المؤمنين وتتحدد نهاياتها قبل أن يدخلوها.. لأنه واثق من النتيجة أيًا كانت..

سواء استشهد المؤمن في المعركة.. أم بقي حتى غلب، ورأى بعينه النصر، فهو واثق من الأجر العظيم.. هكذا حكى التاريخ خوارق الجهاد في سبيل الله لما تتواجد الفئة المؤمنة المزكاة المطهرة.. فليس الأمر انتحارًا بدخول المعركة بأي كيفية، ولكن الجاهزية والعدة وفق أقصى استطاعة.. مع وجود المؤمنين الربانيين.. وحسن توكلهم على الله عز وجل القوي العزيز.. خالق الكون.. وصاحب المنهج.

- وبذلك صار الجهاد هو الوسيلة الوحيدة لحماية منهج الإسلام وإقراره في الأرض، وإقامة مبادئه وتقاليده ونظمه وأركانه، بعدما أزيلت مبادئ الجاهلية وتقاليدها ونظمها وأركانها.. وهكذا عرضت لنا سورة النساء ملامح منهج الإسلام وسماته، وهكذا عرضت لنا السورة أيضًا السبيل لإقرار المنهج وإقامته وحماية وصوله إلى الناس كافة في الأرض قاطبة.

- وهذه هي مبررات الجهاد الأصيلة وبواعثه الملازمة لطبيعة المنهج الرباني الذي جاء ليقر في الأرض، ويحكم في دنيا الناس، لا أن يتم تنظيره في الكتب أو ينطلق في الفراغ.. بل جاء يقام في الواقع والحياة.

- ولأن منهج الإسلام: منهج عزة ورفعة فهو لا يرضى لاتباعه بالرضوخ تحت فتنة استعلاء الباطل وهم يتعرضون للذل والفتنة في دينهم والخنعة في عقيدتهم، فلا بد من حماية هؤلاء المستضعفين

المسلمين الذين جاء منهج الإسلام ليدافع عن حقوقهم المادية والمالية كما رأينا في بداية السورة.. الآن يدافع منهج الإسلام عن عقيدتهم حتى لا يفتنوا في دينهم، ويرسم لنا طريق الدفاع عنهم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

- فالإسلام ابتداءً دعا المسلمين للهجرة من دار الحرب لينضموا إلى الفئمة المؤمنة في دار الإسلام ليستظلوا براية الإسلام، ويخضعوا لنظامه ويعيشوا في المجتمع المسلم النظيف وهو حق كل مسلم، ولكن الضعفاء الذين لا يستطيعون الهجرة من الرجال والنساء والولدان هؤلاء يتعرضون للفتنة في عقيدتهم وهي أشد فتنة في الوجود، أشد من الخنة في المال والأرض والنفس...

لذلك تستثير الآية حمية المسلم وكرامة المؤمن وعاطفة الرحمة في مشهد مؤثر مثير للمرأة الكسيرة والولد الضعيف والشيوخ العجائز الذين لا يملكون أن يدافعوا عن دينهم وعقيدتهم.. تستثيرهم هذه الآية لتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله لاستنقاذ هؤلاء الضعفاء.. ولذلك تستنكر الآيات بعد كل هذه المبررات والبواعث الخبيثة للجهاد في سبيل الله من القعود عن الاستجابة لها ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].. وليس بعد ذلك من قعود إلا لأولي الضرر فقط وهم أصحاب الأعذار المانعة والعجز الحقيقي.

.. فهل بعد ذلك من قعود أو تخلف؟ بسبب فتنة الزوجة والأولاد والأموال.. ومع ترك النساء والأولاد والشيوخ يفتنون في دينهم؟!.. وترك الباطل يستعلي بمنهجه وطغيانه؟!..

- لقد اتضح بعد هذه الآيات التي تحث على الجهاد في سبيل الله، شارحة لنا حقيقة مبرراته وفلسفة بواعثه، أن الجهاد رحمة للعالمين:

رحمة للعالمين.. لأنه جاء يقر منهج التراحم والعدالة في الأرض.

رحمة للعالمين.. لأنه خرج يدافع عن المستضعفين ويستنقذهم.

رحمة للعالمين.. لأنه يمنع عن الأرض عذاب الاستئصال الذي قد يعم الأرض بسبب الفتنة بالشرك وفساده الكبير.

فعلو مناهج البشر وانتشار الفساد والإباحية.. وظهور الشرك.. واضطهاد المستضعفين.. كان سبباً في نزول عذاب الاستئصال في الأرض بهلاك الكافرين المعاندين ونجاة المؤمنين بعد استنفاد الرسل لمحاولاتهم في تغيير هذه الأوضاع المعكوسة، فيتوجه الرسل إلى الله عز وجل يدعونه أن ينزل عذاب على الكافرين.. فيستجيب الله عز وجل وينزل عذاباً هائلاً يليق بجبروته وعزته وغضبه لانتهاك حرمة ومحاربة منهجه ومنع شرعه.. وكان نزول عذاب الاستئصال تمام الرحمة بالبشرية لمنع استمرار الشرك والفساد والظلم..

أما بمجيء الرسالة الخاتمة والرسول (ﷺ) صار عذاب الكافرين بأيدي المؤمنين بالجهاد في سبيل الله.. ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].. لذلك صار الجهاد في سبيل الله رحمة للعالمين.. فهو التشريع الذي جاء به مع رسول الرحمة (ﷺ) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

بل الجهاد هو أكثر الشرائع رحمة بالعباد على ما فيه من قتل ودماء.. لأنه: وقف الكافرين عند حدهم.. ومنعاً لتمادي الشرك.. وإزالة للفساد.. وإقراراً للخير والتراحم.. وإقامة للعدل والتكافل.. يعطي فرصة للكافرين للرجوع والهداية لم يعطوها في عذاب الاستئصال.. ﴿قُلْ لِلذِّينِ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

- وهذه سورة القتال سميت باسم نبي الرحمة مُّحَمَّدٍ (ﷺ).. وهذه سورة الجهاد سميت باسم التوبة لفتح باب العودة إلى طريق الله عز وجل المستقيم...

خامساً: الهجرة النجى إلى الفئمة المؤمنة ورفض للذل والاستكانة

• قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا

(٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُّهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: ٩٧-١٠٠].

- وعن سبب نزول هذه الآيات يقول ابن كثير في تفسيره: "روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، قال: فكتب إلى ما بقى من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لكم. قال: فخرجوا" (١).

- وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "لما أسلم الأنصار: أمر رسول الله (ﷺ) من كان بمكة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة فهاجروا إليها، وأعزهم الله تعالى بعد تلك الذلة فهو قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبُنْيَرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فقعد أناس من المسلمين لم يهاجروا، كراهة مفارقة الأهل والوطن والأقارب، فلما خرجت قريش إلى بدر خرجوا معهم كرهاً، فقتل بعضهم بالرمي، فلما علم الصحابة أن فلاناً قُتل وفلاناً قُتل تأسفوا على ذلك، وقالوا: قتلنا إخواننا، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠] (٢).

- إذن هذا النص يواجه في سبب نزوله: المسلمون الذين تخلفوا عن الهجرة من مكة إلى المدينة وكانوا صنفين:

(١) رواه الطبري (١٠٢٦٠) وإسناده عنده صحيح، ذكره ابن كثير في تفسيره، عمدة التفسير، ١ / ٤٩٥

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب، ص ٤٥

١. صنف حبستهم أمواهم ومصالحهم حيث تقوم قريش بتجريد من يهاجر من حمل شئ من ماله، أو الذي حبس هذا الصنف هو إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة حيث تترصد لهم قريش في الطريق.
٢. صنف حبسهم عجزهم الحقيقي من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب ولا يجدون سبيلاً للهجرة.
- وبعد قيام دولة الإسلام وفي الوسع الهجرة والحياة في ظل منهج الله وتحت رأيته صار الصنف الأول ليس له أي عذر أو اضطرار للبقاء في مكة.. ورغم ذلك قعدوا وتخلفوا عن الهجرة وارتضوا التعرض للفتنة في الدين، فنزل في تصوير تخلفهم وقعودهم عن الهجرة وصفاً قاسياً حيث سماهم الله عز وجل "ظالمي أنفسهم" بل وتوعدهم "جهنم وساءت مصيراً" .. لماذا؟ لأنهم ارتضوا الحياة الذليلة الضعيفة المضطهدة الخائسة، وتخلوا عن الحياة الرفيعة النظيفة الكريمة الحرة الطليقة في ظل منهج الله وشرعه.
- ولكن هل هذا الحكم خاص بالمستضعفين في مكة الذين لم يهاجروا فحسب؟ يجب عن هذا السؤال الحافظ بن كثير في تفسيره قائلاً: "نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).
- وخرج ابن عساكر بإسناده عن أبي عبيد، قال: وقد روى عن النبي (ﷺ) أنه قال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»^(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٤٩٥

(٢) رواه البزار بسند صحيح، كشف الأستار (٢ / ٣٠٤)

- وخرج أيضاً بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعي إلى الإسلام فأجاب، ودعي إلى الإيمان فأجاب، ودعي إلى الهجرة فأجاب، ودعي إلى الجهاد فأجاب، لم يدع من الخير مطلباً ولا من الشر مهرباً».

- وقد تحدثنا بفضل الله في عرض سورة البقرة^(١) أن الهجرة عبادة دائمة وخطوة لازمة لإقامة دولة الإسلام.

- إن هذه الآيات من سورة النساء عامة وهي توجب هجرة المسلمين من دار الحرب- وهي كل دار لا تقوم فيها شريعة الإسلام ولا تدين للقيادة المسلمة- ليلحقوا بالفئة المؤمنة متى قامت في الأرض وأصبح لها قيادة وسلطان ليستظلوا برآية منحه الله ويخضعوا لشريعته ونظامه.. بل إن هذه الآيات تمثل تحذير وتهديد لمن يظلون قاعدين هنالك في دار الكفر وهم قادرون على الهجرة منها بدينهم وعقيدتهم فيعرضون أنفسهم للفتنة في دينهم، حتى تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم.. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً.

- يقول الشيخ سيد قطب عن هذه الآيات: "إن القرآن يعالج نفوساً بشرية، ويهدف إلى استجاشة عناصر الخير والمروءة والعزة فيها، وإلى مطاردة عوامل الضعف والشح والحرص والثقلة.. لذلك يرسم هذا المشهد.. إنه يصور حقيقة.. في مشهد الاحتضار بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافاً وتحفزاً وحساسية.. وهام القاعدون عن الهجرة وقد ظلموا أنفسهم. وقد حضرت الملائكة لتوفاهم وهذا حالهم.. ولكن لا يتوفونهم في صمت بل يقلبون ماضيهم ويستنكرون أمرهم! ويسألونهم فيم أضعوا أيامهم ولياليهم؟ وماذا كان شغلهم وهمهم في الدنيا؟

- "قالوا: فيم كنتم؟"

ويجب هؤلاء الظالموا أنفسهم في لحظة الاحتضار جواباً كله مذلة، ويجسبونه معذرة على ما فيه من مذلة.

(١) الرجوع إلى تفصيل عرض سورة البقرة ص ٣٢٨

- "قالوا: كنا مستضعفين في الأرض".

كنا مستضعفين.. يستضعفنا الأقوياء.. كنا أذلاء في الأرض لا نملك من أمرنا شيئاً.. وعلى كل ما في هذا الرد من مهانة تدعوا إلى الزرابة، فإن الملائكة لا يتركون هؤلاء المستضعفين الظالمين أنفسهم بل يؤنبونهم على عدم المحاولة والفرصة قائمة:

- "قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟"

إنه لم يكن العجز الحقيقي إذن هو الذي يحملهم على قبول الذل والهوان والاستضعاف، والفتنة عن الإيمان.. حرصهم على أنفسهم ومصالحهم يمسكهم في دار الكفر وهناك دار الإسلام، ويمسكهم في الضيق وهناك أرض الله الواسعة والهجرة إليها مستطاعة مع احتمال الآلام والتضحيات.. وهنا ينهي هذا المشهد المؤثر بذكر النهاية المخيفة: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

- إن منهج الإسلام يرفض الذل والاستكانة لغير الله..

إن منهج الإسلام لا يقبل أن يعيش المسلم ويموت وهو راضي بالهوان والصغار..

إن منهج الإسلام يرفض أن يرضخ المؤمن لفتنة استعلاء الباطل تحت دعوى الاستضعاف والاضطهاد..

لأنه منهج العزة والرفعة والكرامة والتحرر من عبودية البشر للبشر، ولا يقبل إلا شكل واحد للعبودية هي العبودية لله وحده لا شريك له.

- لذلك إذا وجدت فئة مؤمنة ودولة مسلمة.. لها شوكة وسلطان.. فقد أوجب منهج الإسلام هجرة المسلمين المعرضين للفتنة في دينهم إليهم.. انخياراً إلى منعتهم.. وخضوعاً لحكم الإسلام وشرعه.. والحياة في ظل منهج الإسلام ونظامه..

- أما أن يقبع المسلمون تحت فتنة استعلاء الباطل لهم تحت دعوى: أنهم لا يزالون في الفترة الحكيمة!!

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢ / ٧٢٠

فهذا ما يرفضه منهج الإسلام.. وما رفضه رسول الله (ﷺ) الذي تعرفنا على نهجه في عرضنا لسورة البقرة^(١)، أنه (ﷺ) أرسل ٧٠% من قوته الأساسية إلى الحيشة بعد عامين فقط من التعذيب بعد جهرم بالدعوة، ثم من بقي معه أخذ يبحث لهم عن مخرج جدي من هذه الفتنة بعدما انسدت أفاق الدعوة، فأخذ يتحين الفرصة للانحياز إلى منعة وشوكة يهاجر إليها المسلمون.. وقيم بها دولة الإسلام لينشر الدين ويجرس الدعوة وقيم المنهج.

- لذلك فالهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة، والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

- وهذه هي خطوات ومراحل قيام دولة الإسلام الأولى:

(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
تكوين ودعوة	هجرة وشوكة	جهاد	فتح من الله	دولة تحمي الدعوة وتنشرها

- ولا عذر بعد ذلك للبقاء في دار الفتنة والاستضعاف بعد انسداد أفاق الدعوة فيها/ واستمرار فتنة المسلمين في دينهم وعقيدتهم، لا عذر إلا للعجائز والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً للهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام.

- وعن المقصود بدار الحرب ودار الإسلام يقول الشيخ سيد قطب:

"لقد أطلق الإسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعوا إلى السماء، وأطلقهم من قيد الدم.. قيد البهيمة.. ليرتفعوا في عليين.. وطن المسلم الذي يحن إليه ويدفع عنه ليس قطعة أرض، وجنسية المسلم التي يعرف بها ليست جنسية حكم، وعشيرة المسلم التي يأوي إليها ويدفع عنها ليست قرابة دم، وراية المسلم التي يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم.

وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته، وتصده عن دينه، وتعطل عمل شريعته فهي "دار حرب" ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته.. وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته فهي "دار إسلام" ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ولا قوم ولا تجارة"^(٢).

(١) ارجع للتفصيل في عرض سورة البقرة

(٢) المعالم، سيد قطب، ١٤٤ / ١٤٥

- وها هي "مكة" وطن المهاجرين، يعدها الإسلام في موضعها ذاك دار حرب، ويصفها "هذه القرية الظالم أهلها" ويدعو المسلمين لاستنقاذ المستضعفين منها، ويدعو المستضعفين للخروج منها.. فكونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام حين لم تقم فيها شريعة الله ومنهجه وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم، وعذبوا في عقيدتهم.. بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم "دار حرب" فلم يؤمروا بالدفاع عنها وليس هذا فحسب بل أمروا هم بمحاربة أهلها لإنقاذ أخوتهم المسلمين منها.. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

المهاجر في كنف الله

- ثم يمضي السياق القرآني في معالجة النفوس البشرية التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها، وتشفق من التعرض لها، وقد عالجها في الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للارتجاف والخوف، مشهد الاحتضار وحضور الملائكة فيه- فهو يعالجها الآن ببث عوامل الطمأنينة في حالة الهجرة سواء وصل المهاجر إلى وجهته أو مات في طريقه وذلك بضمان الله للمهاجر أنه في كنفه منذ أن يخرج من بيته مهاجراً في سبيله، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

الآيات تبث الطمأنينة في مواجهة أخطار الهجرة الحقيقية، ومخاوف النفس حينها طبيعية.. مخاوف من المتاعب ومن مطاردة أعدائه ومن مصيره ومن رزقه في المكان الجديد.. ومنهج الإسلام يراعي هذا ويعالجه فيعطي ضماناً لله بوقوع الأجر على الله منذ الخطوة الأولى من البيت في الهجرة إلى الله ورسوله، أجره كله: أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة فيها، ومع ضمان الأجر التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة في الحساب وهذا فوق الصفقة الأولى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

عبودية المراغمة

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

يقول ابن كثير: "المراغم" هو: "التمتع الذي يُتَّحَصَّنُ به، ويراعم به الأعداء" أي يسبب لهم الإغاة.

— يقول ابن القيم عن عبودية المراغمة: "سمى المهاجر الذي يهاجر إلى الله مراغماً يراعم بها عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاضته كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿يُعْجِبُ الرُّزَّاعَ لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له. فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي (ﷺ) للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان» وفي رواية "ترغيمًا للشيطان" وسمها: "المرغمتين"^(١). وبذل العبد من نفسه وماله لله عز وجل بالهجرة في سبيل الله، ونجاته من عدوه وموالاته إلى أوليائه هي إغاة عظيمة للشيطان وأوليائه.

سادساً: التناسق المطلق للقرآن في عرض المنهج الحركي

• قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

— قال ابن كثير: "يقول تعالى آمراً عباده بتدبر القرآن وعن تفهم معانيه الحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق"^(٢).

— إن هذه الآية الكريمة تبرز صفة مميزة من صفات القرآن الكريم، صفة واضحة كل الوضوح

(١) تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ١٢٦

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٤٨٠

- فيه ويمكن للعقل البشري إدراكها ويُفتح له بإذن الله من أسرارها إنها صفة: "التناسق المطلق
- الشامل الكامل" والتي يقول عنها الشيخ سيد قطب: "هي ظاهرة لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً.. ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها. ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه، ومن ثم فإن كل أحد، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية، ومستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم أن يدرك من هذه الظاهرة ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق"^(١).
- وكل عقل وكل مؤمن عليه ألا يكتفي بقراءة ظاهر الآيات فحسب، بل عليه أن يغوص إلى باطن الألفاظ ليصل إلى أسرارها وكنوزها، كما يوصينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "تَوَرَّوا القرآن"^(٢)، يعني قَلِّبُوا أساليبه لتظهر لكم المعاني الدفينة كما نثَوِّرُ الأرض لاستخرج كنوزها.
- إن هذا القرآن الكريم متناسق في ترتيبه من الفاتحة إلى الناس حيث يتجلى فيه حقيقة: "الوحدة الموضوعية للقرآن كله" حيث تتعاقب آياته وسوره، وتتناسق في ترتيبها وتبويبها، وحيث تعتبر كل سورة فيه وحدة جزئية قائمة بذاتها ولها دور رئيسي في الكل القرآني المتناسق البديع.
- وكل سورة لها "وحدة موضوعية" تعبر عنها، ثم كل مجموعة سور متجاورة تشد بعضها البعض لتتناسق وتتراص كلبنات متصلة تعبر عن "وحدة موضوعية خاصة بها"، حتى يتناسق القرآن كله وتتعاقب الوحدات الموضوعية فيه وتعطي لنا "نظاماً واحداً" لا تناقض فيه ولا اضطراب ولا اختلاف، وهذه معجزة بالغة لهذا الكتاب المعجز يقول عنها د. دراز: "لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه هو معجزة المعجزات!"^(٣).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢ / ٧٢١

(٢) أخرجه موقوفاً على عبد الله بن مسعود الطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٦٦٦). وفي لفظ آخر: "أثيروا القرآن" أي مناقشته ومدارسته والبحث فيه

(٣) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله داراز، ٢١٨

— إن دور هذا البحث بإذن الله وعونه وتوفيقه هو محاولة إبراز هذه المعجزة العظيمة، وذلك بعرض

المنهج الحركي للقرآن الذي يشتمل على هذه الأقسام من التناسب والتناسق:

١. التناسب بين السورة والسور المتزابطة معها في وحدة موضوعية كبيرة، أطلقنا عليها "السلسلة".

٢. التناسب بين السورة والسور المتجاورة القريبة داخل هذه السلسلة، أطلقنا عليها "الباقية" والتي تتكون بها السلسلة من مجموعة باقات صغيرة متناسقة سويًا.

٣. التناسب بين مقاطع السورة الواحدة لتحقيق هدف السور ومحورها الرئيسي.

٤. التناسب بين عناصر وموضوعات المقطع الواحد في السورة لتكون لبنة متكاملة.

٥. التناسب بين خواتيم وفواتح السور المتتالية.

٦. التناسب في الوحدة الموضوعية للقرآن كله بين أوله وآخره، وبين باقاته وسلسله.

— ويمثل كتاب "الأساس في التفسير" للشيخ سعيد حوى رحمه الله التفسير الأبرز الذي تعرض

للقرآن كله على أنه وحدة موضوعية واحدة من أوله إلى آخره، بينما تفسير (في ظلال القرآن)

تناول الوحدة الموضوعية لكل سورة دون الربط بينهم برغم تأكيد الشيخ سيد قطب رحمه الله

على وجود هذا الرابط ولكن لم يتم إبرازه في "الظلال" كما برز في "الأساس في التفسير".

• وإن الذي يلتمس الخيط الدقيق المتين الذي نَظَمَ القرآن كله من الفاتحة إلى الناس ليجد هذه الحقيقة الكبيرة:

— أن القرآن "المدني" صار "بترتيبه النهائي" يمثل البناء الرئيسي في مظهره الخارجي، وصار القرآن

"المكي" بعد ترتيبه النهائي في المصحف يمثل الطوابق والحجرات والنوافذ لهذا البناء ليتشكل

المنهج الحركي للقرآن بقوام أساسه السور المدنية، بينما السور المكية هي التفاصيل المكملة

لهذا القوام..

— فالقرآن بدأ بمقدمة وهي: (الفاتحة) وانتهى بخاتمة وهي: (قل هو الله أحد، قل أعوذ برب

الفلق، قل أعوذ برب الناس) وأنت سورة البقرة لتمثل البداية الرئيسية للمنهج الحركي للقرآن،

والتي قامت بتكليف الأمة المسلمة بمهمتها مهمة: "حتى يكون الدين كله لله"، ثم سار المنهج

الحركي في عرض خطة مرسومة طويلة لتحقيق هذه المهمة بشكل واقعي في حياة الناس، خطة تلتزم فيها الوحدة الموضوعية لكل سورة معاً بشكل دقيق ثم تسير في خطوات واضحة لتحقيق مهمة الأمة مع الوصول إلى نهاية الخطة في نهاية المصحف.

وها هو المنهج الحركي للقرآن يبشرنا في سورة (النصر) المدنية والتي نزلت بعد سورة (التوبة)، ولكنها جاءت في آخر المصحف ترتيباً يبشرنا بتحقيق أهداف المهمة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر: ١-٣]، وسورة (النصر) حين نزولها أعلنت عن: انتهاء مهمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ونعته إلى الرفيق الأعلى، بينما تعلن نفس السورة في موضعها هذا من المصحف: أن نتيجة السير على هذا المنهج الحركي وفق خطته المرسومة والذي عرضها الوحدات الموضوعية لكل سورة متصلة وانتهاءً إلى هذا الموضع من شأنها تحقق المهمة التي كلفت بها الأمة في سورة البقرة: (فالدين يكون كله لله بدخول الناس فيه أفواجاً).

كما إن اكتمال الخطة بالتبشير بهلاك المعادين لهذا الدين والمخارِبين لهذه الدعوة، في نموذج هلاك أبو لهب أول من ناصب هذه الدعوة بالعداء حين انطلقت، فحكمت عليه سورة المسد (بعد سورة النصر) حكماً مسبقاً فيه تحدي بصدق هذا القرآن وتحقق ما وعد به في الدنيا والآخرة، بدليل تحقق حكمه المسبق على عدو الأمة الأول أبو لهب هو وزوجته، حتى عذابه سيكون من جنس عمله هو وزوجته، وهكذا ينبئنا المنهج القرآني في آخره "بغلبة الدين وهلاك أعداءه" وهي النتيجة المرجوة للمؤمنين في الدنيا، إن التزموا خطوات هذا المنهج وخطته المرسومة في سوره، والتي عبرت عن تفاصيلها الوحدة الموضوعية لهذه السور مجتمعة.

- يقول صاحب (مناهل العرفان): "القرآن الكريم تقرأه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال أخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله كأنه سبيكة واحدة وعقد فريد يأخذ بالأبصار نظمت حروفه وكلماته ونسقت جملة وآياته وجاء آخره مساوفاً لأوله وبدأ أوله مواتياً لآخره.

وقفة مع المرحلة المكية

• قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧].

- كانت قريش تسعى جاهدة لحرب الإسلام ومنع وصوله إلى الناس ومع اشتداد تعذيبها للمسلمين في مكة، أمر المسلمين وفق خطة محددة بعدم الاصطدام المباشر مع أعدائهم، ليس عن جبن أو ذلة، بل التزامًا وانضباطًا بالأمر بعدم القتال ﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، وكان المسلمون يعانون من الضغط على أعصابهم والكبت على نفوسهم وهم يتحرقون ليشتفوا من عدوهم، ولكنهم التزموا بأوامر القيادة والتي كانت تراعي ملابسات معينة تمر بها الطليعة الأولى للإسلام في الأرض، ووفق الحكمة الإلهية التي فيها الخير والمصلحة لهم التي لا يعلمها إلا العليم الحكيم، ولكن من باب التأمل والتفكير في هذه الحكمة الإلهية يقول ابن كثير في تفسيره: "لم يكن الحال في مكة مناسبًا للقتال لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لائقًا، فلماذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار"^(١).

- وذكر من هذه الأسباب الاجتهادية الشيخ سيد قطب في تفسيره وهي:

١. ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة لقوم معينين وسط ظروف معينة.

٢. ربما لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ، في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتي قد يدفعها القتال معها في مثل هذه الفترة إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة.

٣. وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت، حيث لم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولًا إلى أولياء كل فرد.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٤٧٨

٤. وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قاداته..
ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

٥. وربما كان ذلك أيضًا لأن النخوة العربية، في بيئة قبلية من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ولا يتراجع مثل موقف ابن الدغنة الذي لم يرض أن يترك أبا بكر يهاجر ويخرج من مكة ورأى في ذلك عارًا على العرب.

٦. وربما كان ذلك أيضًا لقلّة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، وكانت القبائل تقف على الحياد، تنتظر مصير موقف معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها.

٧. وربما كان ذلك لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوى كان موجودًا في شخص الداعية (ﷺ) وشخصه في حماية سيوف بني هاشم فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم إذا هي امتدت يدها إلى محمد (ﷺ)."

هذه الاعتبارات كلها فيما نحسب كانت بعض ما اقتضت حكمة الله معها أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لتنتم تربيتهم وإعدادهم، ليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، وفي الوقت المناسب^(١).

– ولنا هذه الملاحظات التالية على مرحلة (كفوا أيديكم):

أولاً: أن هذه الاعتبارات تخص مرحلة معينة مرتبطة بظروف معينة، هذه المرحلة بهذه الظروف انقضت من الأمة بعد اكتمال الدين وإتمام التشريع، فتشريع فرض القتال مر بمراحل زمنية تدريجية تراعي ظروف واقعية وقت تشريعه وهي مراحل:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢ / ٧١٤، ٧١٥

(١)

﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾

(٢)

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾

(٣)

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾

(٤)

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾

وينزل الحكم النهائي في المرحلة الرابعة، اعتبر الحكم المرحلي بـ "كفوا أيديكم" انتهى في وقته، كذلك حكم الإذن بالقتال انتهى في وقته.

- وهذه هي طبيعة الأحكام الشرعية النهائية المستقرة بعد نزول قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

- وكما تعرضنا هنا في بداية سورة (النساء) لتدرج تشريع تحريم الخمر، بأنه تم وفق خطة محددة طويلة اقتضت المرحلية المراعية للواقع.

(١)

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾

(٢)

﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ﴾

(٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا

﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ أو بالأحرى إلى مرحلة ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ

﴿وَأَنْتُمْ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾

﴿تَقُولُونَ﴾

﴿وَالْأَرْزَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ

﴿الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾

- وهذا الواقع الذي اقتضى هذه المرحلية انتهى مع استقرار الحكم الشرعي النهائي، فالذين يريد أن يتحدث على أن الأمة في مرحلة (كفوا أيديكم)، يريد أن ترجع الأمة إلى مرحلة ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ أو بالأحرى إلى مرحلة ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَأَنْتُمْ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ كما في تدرج تشريع تحريم الخمر، والمقصد أن الوحي انقطع والتشريع اكتمل، فالأمة حتى قيام الساعة تعمل بالأحكام النهائية ولكن تنظر فقط في توفر

القدرة والاستطاعة، وإلا سنظل قابعين تحت مرحلة (كفوا أيديكم) مئات السنين ولن يتنزل وحي علينا لننقل إلى المرحلة التالية وستتملكنا الدنيا وتتسع الفوارق المادية مع أعداءنا ونحن تحت وهم أن الأمة هناك لازالت في مكة!!

ثانيًا: (كفوا أيديكم) جاءت في سورة مدنية وسط آيات تحث على (الجهاد)، فلم يأتي هذا الحكم الأولي في تشريع القتال في سورة مكية يتناسب مع زمن نزوله، إنما جاء في سورة (النساء) المدنية ليؤكد أنها كانت خطوة تكتيكية للتكوين والإعداد حتى يأتي الوقت المناسب ويتم الانتقال للخطوة التالية، خطوة تكتيكية في خطة مرسومة طويلة للجهاد في سبيل الله وليس الجهاد هو الخطوة التكتيكية، تتشاور الأمة تقوم بها أم لا؟

- إذن (كفوا أيديكم) ملابسة وقتية.. و(الجهاد) ليس ملابسة وقتية.

(كفوا أيديكم) حالة طارئة.. و(الجهاد) ليس حالة طارئة.

(كفوا أيديكم) مرحلة زمنية.. و(الجهاد) ليس مرحلة زمنية.

ثالثًا: لماذا لم يبدأ القرآن في ترتيبه النهائي بالسور المكية؟ تقوم الأمة بمدارسها وتعلمها والمكث حتى تقوم بمقتضى واجبات هذه السور العملية تأخذ ما تأخذه من الزمن، لماذا لم يبدأ القرآن بسورة تتحدث عن الابتلاءات والسجن لأصحاب الدعوات كسورة (يوسف)؟ لماذا بدأ القرآن بسورة مدنية ظلت مفتوحة في نزولها لتستوعب العهد المدني بأكمله؟

لماذا بدأ القرآن بالسور المدنية الأربع التي تتحدث عن أمة أنشئت ودين اكتمل وتشريع تم؟

إن إعجاز تناسق الترتيب النهائي للمنهج القرآني ليؤكد:

"أن بنيان الدين اكتمل وارتفع فلا يقبل المسلمون أن ينتقص منه قيد لبنة واحدة أو حبة رمل واحدة"، ولكن إن عادت الأمة في مرحلة زمنية بظروف وملابس شبيهة بتلك المرحلة المكية الأولى، فيجب على المسلمين ألا يقبعوا فيها ويستسلموا لها أجيال وراء أجيال وسنوات وراء سنوات، إنما عليهم أن ينهضوا إلى مراحل التكوين والغرس والدعوة والتأهيل لتملك القدرة والاستطاعة والجاهزية والتي لا يتم الواجب إلا بها..

سابعاً: قواعد منهج الإسلام في القانون الدولي لحماية المجتمع المسلم

• قال تعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَذُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اِعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٨٨-٩١].

— أنشئ المنهج الرباني مجتمعاً مسلماً طاهراً جديداً، بعدما طهر رواسب الجاهلية من النفوس، وأزال تقاليدھا وأوضاعھا وأركانھا من المجتمع، ومنع التلقي من مناهج الجاهلية في كل صورھا، ثم وضع الشرائع والتنظيمات التي تحمي هذا المجتمع المسلم الناشئ فيما يتعلق بالنظام الداخلي له، وفيما يتعلق بالنظام الدولي مع المجتمعات والدول المحيطة به.

— أسس منهج الإسلام لفلسفته في التعامل مع النظام الدولي على مبدأ: "حرية إبلاغ الدعوة وحرية اختيار الناس دون أية عوائق"، وطالما تحقق هذا المبدأ دون أية حروب فالأصل هو اختيار الإسلام للسلم مع كفالة الأمن للمسلمين وعدم تعريضهم للفتنة وطالما الدعوة الإسلامية مطلقة في ربوع الأرض..

— بينما الثابت في سنن الله أن الباطل سيتصدى لهذه الدعوة، ليحول بينها وبين الناس حينها ينطلق الجهاد لإزالته من طريق المبدأ المستقر: حرية إبلاغ الدعوة وحرية اختيار الناس، ولكن في ذات الوقت لن يكون موقف كل الدول والمجتمعات المحيطة بالمجتمع المسلم الناشئ هو موقف التصدي لدعوته والحارب لمنهجه وعقيدته.. ستكون هناك مجتمعات يمكن تحييدها.. ومجتمعات ترغب في

المهادنة وعقد الاتفاقات التي لا تخل بالمبدأ المستقر.. وليس مطلوباً حينها أن يدخل المجتمع المسلم الناشئ في مواجهة مفتوحة مع كل أهل الأرض في آن واحد..

— فَشَرَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ تَشْرِيعَاتٍ يَكْفِي بِهَا الدُّخُولَ فِي عِدَاءٍ وَأَذَى مَعَ كُلِّ الْمُجْتَمَعَاتِ وَالِدَوْلِ الْمُحِيطَةِ بِالْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ تَخْفِيفًا لِعَبَاءِ كَانَتْ سَيِّئًا عَلَى عَاتِقِ الْمُسْلِمِينَ طَالَمَا أَنْ لَيْسَ فِي هَذَا كُلِّهِ تَفْرِيطٌ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ، وَلَا تَمْيِيعٌ لَشَيْءٍ مِنْ عَقِيدَتِهِمْ، وَلَا رِضًا بِالذَّنْبِ فِي طَلَبِ السَّلَامِ الرَّخِيسَةِ، فَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ بَعِزَّةٌ وَنَدِيَّةٌ وَالْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَبِذَلِكَ أَنْشَأَ الْمَنْهَجَ الْإِسْلَامِيَّ تَوَازُنًا فَرِيدًا بَيْنَ السَّمَاحَةِ وَالْحَسْمِ هَذِهِ فِي مَوْضِعِهَا، وَتِلْكَ فِي مَوْضِعِهَا، وَطَبِيعَةُ الْمَوْقِفِ وَحَقِيقَةُ الْوَاقِعَةِ هِيَ الَّتِي تَحَدِّدُ هَذِهِ وَتِلْكَ...

— الآيات السابقة قسمت المعسكرات الأخرى التي يتعامل معها المعسكر الإسلامي إلى: محاربة. ومهادنة. ومخالفة. ومحايمة، حيث تحدثت الآيات عن الطوائف التالية:

١. طائفة المنافقين غير المقيمين في المدينة الذين كانوا يظهرون المشركين.
 ٢. طائفة ترتبط بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق.
 ٣. طائفة محايدة تضيق صدورهم بحرب المسلمين أو حرب قومهم كذلك وهم على دينهم.
 ٤. طائفة متلاعبة بالعقيدة تظهر الإسلام في المدينة ثم إذا عادوا إلى مكة يظهرون الكفر.
- فقررت الآيات مواجهة الطائفة الأولى والرابعة ومهادنة الثانية ومحايمة الثالثة كالتالي:

— الطائفة الأولى، يقول تعالى عن قواعد التعامل معهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَذُوقُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرْتُمْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٨-٨٩].

وفي الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد عن العوفي عن ابن عباس: نزلت في قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظهرون المشركين. فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم. فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس.. وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنهم يظهرون

عدوكم. وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله: أو كما قالوا- أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ من أجل أنهم لم يهاجروا، ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم؟ فكانوا كذلك ففتين، والرسول عندهم لا ينهي واحدًا من الفريقين عن شيء، فنزلت: "فما لكم في المنافقين ففتين؟"

- وهنا يستنكر النص القرآني انقسام المؤمنين ففتين في أمر المنافقين، ويتعجب من حالة من التميع في مواجهة النفاق والمنافقين، ويتعجب من قلة الحسم في موضع الحسم في معاملة المؤمنين لهم.. فهذا المجتمع المسلم الناشئ في هذه الظروف يستدعى الحسم القاطع في من يساعد عدو المسلمين الظاهرين، واعتبر ذلك نفاقًا ولا موضع هنا للتسامح أو الإغضاء.

- ثم تنهي الآيات عن اتخاذ أولياء منهم، حيث أنه كانت ما تزال للروابط والوشائج العائلية والقبلية بقايا في نفوس المسلمين في المدينة وربما كان للمصالح الاقتصادية أيضًا، فهنا يعالج المنهج القرآني هذه الرواسب، ويقرر للأمة المسلمة قواعد ارتباطها ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩].

- وهنا لا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام، وبين من يدعي الإسلام ويظاهر المشركين ممن هم في دار الحرب.. لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ويظهروا صدق ولاءهم وينضموا إلى المجتمع المسلم حيث تكون هجرتهم لله وفي سبيل الله، فإن لم يفعلوا ذلك فالحكم هو: الأسر والقتل.

- الطائفة الثانية، يقول تعالى عن قواعد التعامل معهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء: ٩٠].

- وهنا يختار الإسلام السلم الذي لا يتعارض مع منهجه الأساسي وهو: حرية الإبلاغ وحرية الاختيار "فيجعل الإسلام كل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين- عهد ذمة أو عهد هدنة- شأنه شأن القوم المعاهدين. يعامل معاملتهم ويسالم مسالمتهم.

- الطائفة الثالثة، يقول تعالى عن قواعد التعامل معهم ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]. حصرت صدورهم أي: ضاقت مبغضين أن يقاتلوكم، السلم أي: المسالمة والصلح وهم الأفراد أو القبائل أو المجموعات التي تريد أن تقف على الحياد، فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال. إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم. كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين. فيكفوا أيديهم عن الفريقين بسبب هذا التخرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء.

وهنا استثناهم الإسلام من الأسر والقتل، ولم يلزمهم أن يكونوا معه أو عليه. فقد كان حسبه في ألا يكونوا عليه^(١). كما أنه كان المرجو من أمرهم أن ينحازوا إلى الإسلام حينما تزول الملابسات التي تخرجهم من الدخول فيه، كما وقع بالفعل.

- الطائفة الرابعة، فيقول تعالى عن قواعد التعامل معهم ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُذُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ٩١].

حكى ابن جرير عن مجاهد، أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي (ﷺ) فيسلمون رياء، ثم يرجعوا إلى قريش يعبدون الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا.. أوردها ابن كثير في تفسيره، فأمر بقتلهم وأسره إن لم يعتزلوا ويصلحوا.

وهكذا عاد المنهج إلى موقف الحسم والجديية بعد موقف السماحة والسلم مع الطائفتين الثانية والثالثة، هذه في موضعها وتلك في موضعها في توازن فريد للمنهج الإسلامي بين الحسم والسماحة في علاقات المسلمين مع المعسكرات والمجتمعات الأخرى المحيطة بهم.

(١) عدلت هذه الأحكام في سورة التوبة، حين تقرر أنه لا يمكن أن يتعايش دينان في الجزيرة العربية.

- وفي ختام المقطع الثالث من سورة النساء، والذي تحدث عن حماية المنهج الرباني وكيفية الدفاع عنه بالهجرة والجهاد في سبيل الله والتي تتطلب بيع العبد المؤمن لديناه، وتخليه عنها رغبة فيما عند الله عز وجل.. نعرض هذا المقصد:

مقصد الإعداد للدار الآخرة: الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة

- قال تعالى ﴿فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤].

يشرون أي يبيعون، و"شرى" أي: أعطى شيئاً وأخذ بدله، والمعنى هنا أنهم يبيعون الحياة الدنيا ويختارون عليها الآخرة.. وهكذا باع المجاهدون دنياهم ليشتروا ما عند الله عز وجل في دار كرامته.

وفي بيان الأجر العظيم والفضل الكبير الذي أعده الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، ما رواه أبي سعيد الخدري في الصحيحين، أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): «من رمى بسهم فله أجره درجة»..

فقال رجل: يا رسول الله، وما الدرجة؟ فقال: «أما إنها ليست بعتبة أمك. ما بين الدرجتين مائة عام».

- ولتخيل هذه المسافات التي يمثل بها رسول الله (ﷺ)، نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها، بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون. حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية!

وهذا الأجر العظيم الذي أعده الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، وهو ما دفع محمد بن الحنفية أن يحثك على تركية نفسك وتطبيها بالعمل الصالح والطاعات والقربات مبرراً ذلك بقوله:

"إن الله عز وجل جعل الجنة ثمنًا لأنفسكم فلا تبيعوها بغيرها"^(١).

أثامن بالنفس النفيسة ربها وليس لها في الخلق كلهم ثمن

بها تملك الأخرى فإن أنا بعثتها بشيء من الدنيا فذاك هو العبن

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصيبها لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

- والسؤال الذي يسأله الدكتور خالد أبو شادي هو:

"هل اشتريت الجنة حقًا وبعثت نفسي ومالي ودياري في سبيلها؟ وما الدليل على ذلك؟ وأي عقل في التأخر عن صفقة كهذه؟! أو الانشغال عنها بغيرها؟! من يهب نفسه اليوم لربه وقد اشتراها، ومن باع فليبادر"^(٢).

- فالحقيقة أنك لا تبيع دنياك لتشتري الجنة، الحقيقة أن الله عز وجل اشترى منك نفسك ومالك وجعل الثمن: الجنة.. قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

عقد بيعه عقده رب العزة ﷻ بنفسه، وجعل ثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال الحسن البصري وقتادة: "بايعهم والله فأغلى ثمنهم"^(٣).

- إذن نحن أمام صفقة في هذه الحياة، سلم واستلم، والمؤمن الكيس الفطن يبادر فيشري الحياة الدنيا أي يبيعها، يبيع نفسه وماله وكل ما يملك ولكن يبيع لمن؟ يبيع لله (إن الله اشترى)، ليستلم ماذا؟ الثمن: الجنة، وطريقة التسليم: القتال في سبيل الله.

- وفي بيعة الحرب عام (١٣) من البعثة، قام أسعد بن زرارة رضي الله عنه وهو أصغر الأنصار سنًا فقال: رويدًا يا أهل يثرب!! إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراج

(١) حلية الأولياء ٣ / ١٧٧

(٢) ليلى بين الجنة والنار، د. خالد أبو شادي، ١ / ٢٢

(٣) تفسير ابن كثير، ٢ / ٥١٥

اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعصمكم السيوف، فيما أنتم قوم تصبرون على
عصّ السيوف إذا مسّتكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة، فخذوه وأجرم على
الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا جميعاً: أمط يدك
يا أسعد، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها، فقاموا إليه يباعونه رجلاً رجلاً، يأخذ عليهم
شرطه ويعطيهم على ذلك الجنة.

واعجباً!!

قوم أيقنوا بالجنة ولم يمض على إسلامهم سوى برهة قصيرة من الزمن، فمنهم من أسلم منذ
يوم واحد، ومنهم من أسلم من يومين، ومنهم من أسلم من شهر أو شهرين، وأقدمهم إسلاماً من
أسلم منذ سنتين!! ويرغم ذلك ومع أن الجنة غيب لم يروه، فهم يبذلون في سبيلها أغلى ما يملكون:
النفس والمال ويتعرضون لأخطر ما يكون، ونحن نسمع عن الجنة منذ وعينا طوال عمرنا وما دفعنا
نفس الثمن، فهل أيقنت نفوسنا هذا اليقين؟! وهل نحن على استعداد لنفس البذل؟!^(١).

المقطع الرابع: الاستقامة على المنهج ومخلص محاور السورة

• يشمل المقطع الرابع في سورة النساء العناصر التالية:

أولاً: المنهج الإسلامي الفريد يرقى بالمجتمع للقمة السامقة.

ثانياً: الانحراف عن المنهج إلى الشرك.

ثالثاً: اتخاذ أعداء الدين أولياء أحد مظاهر الانحراف عن المنهج

مع عرض بصائر تحت عنوان: "سنة التأييد والخذلان".

رابعاً: قيمة العدالة كركيزة أساسية في منهج الإسلام.

خامساً: المنافقون العدو الداخلي للمجتمع المسلم.

سادساً: اليهود العدو الخارجي للمجتمع المسلم.

(١) ليلي بين الجنة والنار، د. خالد أبو شادي، ٢٦ / ١

سابعاً: وجوب اتباع النبي (ﷺ) والعمل بشريعته الخاتمة وأهمية الاعتصام بالله.

أولاً: المنهج الإسلامي الفريد يرقى بالمجتمع المسلم إلى القمة السامقة

- قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٧].

- وروى في سبب نزول هذه الآيات أن نفرًا من الأنصار - قتادة بن النعمان وعمه رفاعة - غزوا مع رسول الله (ﷺ) في بعض غزواته، فسرق درع لأحدهم (رفاعة) فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق. فأتى صاحب الدرع رسول الله (ﷺ) فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي (اسمه زيد بن السمين). وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع. وألقيتها في بيت فلان. وستوجد عنده، فانطلقوا إلى رسول الله (ﷺ) فقالوا: يا نبي الله: إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علمًا. فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإن لم يعصمه الله بك يهلك.. ولما عرف رسول الله (ﷺ) أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس.. فنزلت: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ خصيمًا أي: محامياً ومدافعاً ومجادلاً عنهم.

- فلما نزل القرآن أتى رسول الله (ﷺ) بالسلاح فردده إلى رفاعة.. وكان هذا الحكم لم يكن مجرد تبرئة بريء، تأمرت عليه عصبية لتوقعه في الاتهام، وإن كانت تبرئة بريء أمرًا هائلًا ثقيل الوزن في ميزان الله، إنما كانت أكبر من ذلك.. كانت المسألة هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى ولا مع العصبية، إقامة العدل حتى لو كان صاحبه: يهوديًا، وكانت المسألة هي منهج رباني يطهر المجتمع المسلم الجديد من عناصر الضعف ورواسب الجاهلية ثم هو بذلك يقدم هذا المنهج موقفًا لا تعرف لها الأرض نظيرًا، ولا تعرف لها البشرية شبيهًا، لتشهد بأن القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله وأن البشرية مهما استقامت طبائعهم لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الراقى إلا بوحي من الله، ومنهج من صنع الله.

ثانياً: الانحراف عن المنهج إلى الشرك

• قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٥-١١٦].

- يواجه النص كل حالة مشاققة للرسول (ﷺ)، ويعتبر مشاققة كفر وشرك وردة، والمشاققة - لغة - أن يأخذ المرء شقاً مقابلاً للشق الذي يأخذه الآخر. والذي يشاق الرسول (ﷺ) هو الذي يأخذ له شقاً وجانباً وصفاً غير الصف والجانب والشق الذي يأخذه النبي (ﷺ).

- يقول ابن كثير في تفسير الآية: "ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له، ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ أي: نُحَلِّ بينه وما اختاره لنفسه، ونحسن في صدره ونزين له الطريق الذي اختاره وسار فيه - استدراجاً له - كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا النار يوم القيامة^(١).. وهذا تخويف شديد ووعيد رهيب لكل مسلم من الانحراف عن طريق الرسول (ﷺ) والسير على غير منهجه فهو بذلك قد شاق الرسول (ﷺ).

- يقول الشيخ سيد قطب عن هذه الآية: "ومعنى هذا أن من يتخذ له منهجاً للحياة كلها غير منهج الرسول (ﷺ)، واختار له طريقاً غير طريقه فقد شاقه (ﷺ).. فالرسول (ﷺ) جاء يحمل من عند الله منهجاً كاملاً للحياة يشتمل على العقيدة والشعائر التعبديّة، كما يشتمل على الشريعة والنظام الواقعي لجوانب الحياة البشرية كلها.. وهذه وتلك كلتا هما جسم هذا المنهج، بحيث تزهر روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذ منه شق وطرح شق.. وذلك بعدما تبين لهم الهدى ثم اختاروا الضلالة.. فعندئذ يكتب الله عليه الضلال جزاءً لاختياره وهذه من رحمته سبحانه بإقامة الحجّة أولاً على عبادة بتبيين الهدى لهم.. فمن لم يرض بمنهج الله الذي تبين له يكتب الله عليه الضلال ويوليه الوجهة التي تولاها، ويلحقه بالكفار والمشركين الذين توجه

(١) مختصر تفسير ابن كثير، عمدة التفسير، ١ / ٥٠٦

إيهم" (١) فاتباع مناهج الجاهلية في أي زمان هو مشاققة للرسول (ﷺ) لأنه اتباع غير هديه ومنهجه وطريقه (ﷺ).

- وفي تسلسل المنهج الحركي للقرآن جاءت السلسلة الأولى للسبع الطول ببيان الصراط المستقيم حيث، بينت لنا سورة البقرة طريق الهدى والرشاد والحق المبين في إقامة هذا الدين ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ثم بينت لنا سورة (آل عمران) سبيل المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، فتمسك بهذا الهدى أهل الحق والرشاد ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] وانحرف عنه أهل الزيغ والضلال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]...

ثم أتت سورة (النساء) تحذرننا أن الذي ينحرف عن طريق الرسول (ﷺ) بعدما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين فإنه مصيره المحتوم هو عذاب النار ونس المصير ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ثالثاً: اتخاذ أعداء الدين أولياء أحد مظاهر الانحراف عن المنهج

• قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

- يتوجه الخطاب القرآني محذراً للمؤمنين أن يسلكوا طريق المنافقين الذين ظاهروا الكافرين من دون المؤمنين ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتَعُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].. وهذا

تحذير شديد من بطش الله ونقمته، وذلك بتصوير مصير المنافقين المفزع المهين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

- واجتمع المسلم الناشئ لازالت تجمعته صلوات وقربات ومصالح مع غير المسلمين، ولكن أن تكون هذه الصلوات والقربات والمصالح مع من يناصبون هذا الدين العداء سواء أظهروا ذلك أو أبطنوه.. فحينها يقوم المنهج الرباني بدعوة المؤمنين لقطع هذه الوشيجة وإنهاء هذه الآصرة حتى لو كانت وشيجة وآصرة الرحم، لتحمي المجتمع المسلم في عقيدته ويتميز في منهجه، وإلا فالدرك الأسفل بسبب الذبذبة بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كما كان يفعل المنافقون يذهبون للمؤمنين يعلنون أنهم في مصافهم، ثم يعودون إلى قريش ليوالوهم ويظاهروهم.
- لذلك فأصحاب المنهج الرباني الصافي لا يذهبون إلى أعداء الدين يطلبون منهم العزة والنصرة.. أو يوالوهم وينصروهم لأن العزة والنصرة في الاعتصام برحمهم والاستعلاء بمنهجهم (فإن العزة لله جميعاً).

بصائر: سنة التأييد والخذلان

- قال تعالى ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

- تقر هذه الآية سنة لا تتخلف من سنن الله وقانون لا يحايي أحد، قانون تستوي أمامه الأمم والجماعات، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه وتعالى بنسب ولا صهر، كما ادعى اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]، إذن ليس أحد يُحرق له هذا القانون، وتخالف من أجله هذه السنة، وتعطل له هذه القاعدة.. إنها سنة: "التأييد والخذلان".. فكما تعرضنا بفضل الله في سورة (آل عمران) إلى سنة "النصر والهزيمة" في الحرب وأنها سنة لم تحايي الصحابة رضوان الله عليهم في وجود النبي (ﷺ) معهم، وهؤلاء الصحابة هم خير أهل الأرض بعد الأنبياء، ورغم ذلك فهذه السنن ماضية دون محاباة ولن يأتي أحد بعد قرون طويلة فوق هذه السنن، أما سنة "التأييد والخذلان" ترتبط بقدر الاستقامة على

منهج الله، فمن استقام على منهج الله فله التأييد الإلهي، ومن انحرف عن منهج الله فله الخذلان الإلهي.

- إن ميزان الله عز وجل دقيق في الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأمامي، فصاحب السوء مجزي بالسوء، وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة، وهذه هي صفة العدالة الإلهية المطلقة مع العباد.. ولا شك أن المؤمن حين يدرك بحق هذه السنة لا بد أن ينعكس ذلك على استقامته في التصور الفكري من ناحية، واستقامة في الواقع العملي على المنهج الرباني الخالص من ناحية أخرى.. فلقد هزت هذه الآية كيان الصحابة رضوان الله عليهم هزاً، ورجفت لها نفوسهم.. لأنهم كانوا يأخذون الأمر جدّاً.. ويعرفون صدق وعد الله حقاً. ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا.. وأولئك هم المتقون المنتفعون بهداية القرآن وبصائره ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

- قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا إسماعيل، عن أبي بكر بن أبي زهير، قال: "أخبرت أن أبا بكر رضي الله عنه قال: "يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية؟" ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "غفر الله لك يا أبا بكر. ألسنت تمرض؟ ألسنت تنصب؟ ألسنت تحزن؟ ألسنت تصيبك اللأواء؟" قال: بلى. قال: "فهو مما تجزون به" .. رواه الحاكم في مستدركه.

رابعاً: قيمة العدالة كركيزة أساسية في منهج الإسلام

• قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

- إن إقامة العدل بين الناس يعتبر ركيزة أساسية من ركائز منهج الإسلام، وهو من أهم تكاليف مهمة الجماعة المسلمة في الأرض. إقامة العدل هو أساس الحكم في الإسلام ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] الحكم بين الناس وفق شرع الله الواجب التحاكم إليه والتقاضى به، الحكم بين الناس بالعدل الشامل لكل الناس، لا عدل بين المسلمين بعضهم

وبعض فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب، دون سائر الناس.. وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه "إنساناً" أسود أو أبيض.. عربي أو عجمي.. صديق أو عدو.. مؤمن أو كافر، عدل تتعامل فيه الفئة المؤمنة مع الله مباشرة، فتخلصه من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة، متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته.. العدل الذي رأينا نموذجاً منه في الدرس العملي الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى بذاته العليا على النبي (ﷺ) وعلى الجماعة المسلمة في حادث اليهودي الذي سلف ذكره.

- ومن أول سورة (النساء) والواجبات التي تفرض على الناس هي القسط والعدل في أداء الحقوق، وعدم الجور أو الظلم أبداً ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

- فلن يستخلف الظالمين في الأرض على عهد الله لإقرار منهجه ﴿لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

- كما تحدثت السورة عن العدالة الإلهية المطلقة في آيات كثيرة، لتحث المؤمنين على إقامة هذه الركيزة الهامة بين الناس وبالأخص الضعفاء والمستضعفين، ومن الآيات التي تحدثت عن العدالة الإلهية المطلقة:

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

• ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، فتبيلاً: قدر الخيط الرقيق في شق النواة.

- كما تعتبر سورة (النساء) من أكثر السور التي احتوت على أسماء الله الحسنى فقد تكررت فيها ما يقرب من ستة وعشرين اسماً (٢٦) اسم من أسماء الله الحسنى، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مجموعات هي:

- القدرة مثل: (العزیز/ الحكيم/ الوكيل/ القدير..)

- العلم مثل: (الخبير/ المحيط/ الشهيد..)

- الرحمة مثل: (الرحيم/ الغفور/ العفو/ التواب..)

هذه المجموعات الثلاث (القدرة/ العلم/ الرحمة) هي مثلث: العدل فلو غابت واحدة لا اختل ميزان العدل، فلا يكون عدل بدون قدرة، ولا يكون عدل بدون علم، ولا يكون عدل بدون رحمة.

- ومن هنا نجد أن قضية (العدل) والحث عليها ظاهرة بشكل مباشر وبشكل غير مباشر "عن طريق أسماء الله الحسنى" في سورة النساء، لأنها سورة تدعو إلى عرض منهج الإسلام وملاحظته.. لماذا؟ للتحاكم إليه وإقامته في دنيا الناس، والعدل هو الأساس الذي يقيمه منهج الإسلام ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

خامساً: المنافقون العدو الداخلي للمجتمع المسلم

- لا يخلو مجتمع مسلم في كل عصر من طائفة تظهر الإيمان وتقدير الشرع، ولكنها تبطن كراهية المؤمنين وترفض التحاكم لشرعه سبحانه وتعالى، فهم يمثلون العدو الداخلي للمجتمع المسلم، يفتضح أمرهم في الشدائد والمواجهات فهم لا يهتمون بها فيظهر زيف إدعائهم، كما يكشف أمرهم عند التحاكم لشرع الله عز وجل، فهم يريدون التحاكم إلى كل باطل سوى أوامر الله ورسوله، لذلك يفضحهم القرآن الكريم في كل زمان ومكان معرفاً بصفاتهم وموضحاً لكيفية التعامل معهم.

من صفات المنافقين المذمومة:

- وقد كشفت سورة (النساء) عن صفات المنافقين المذمومة لينتبه المجتمع المسلم الجديد من عدوه الداخلي الذي لو ترك لقام بتدمير المجتمع وإسقاط الحكم الإسلامي، كما حذرت السورة المؤمنين من الوقوع في أي صفة من هذه الصفات المذمومة:

(١) الكسل إذا قاموا إلى الصلاة.

قال تعالى ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢] ومن ذلك تأخيرها

والإحساس بثقل الأداء وخاصة في الجماعات.

(٢) الرياء في الأعمال:

- قال تعالى ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

فهم يقومون بأي طاعة أو عمل خير ليشهدهم الناس ويتخلفون عن الطاعة التي لا يرون فيها غالباً كما ثبت عن رسول الله (ﷺ) «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»^(١)، وعن عبد الله قال: قال رسول الله (ﷺ): «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل»^(٢).

(٣) ذكر الله قليلاً:

- قال تعالى ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

لا يجري ذكر الله على ألسنتهم إلا قليلاً وهم في صلاتهم غير خاشعين، لا يدرون ما يقولون ساهون لاهون، فعن أنس بن مالك قال رسول الله (ﷺ) تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً"^(٣).

(٤) يعتقدون أن أمرهم يروح عند الله عز وجل:

لجهلهم يعتقدون أنهم كما خدعوا الناس بظاهرهم وأسرو الكفر، وكما أظهروا الحسن وكنتموا القبح، أن ذلك نافعهم عند الله عز وجل وسيروح ذلك عنده سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] لدرجة أنهم يخلفون لله عز وجل يوم القيامة أنهم كانوا على الاستقامة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، لذلك فالله عز وجل يستدرجهم في ضلالهم ويخذلهم في الدنيا والآخرة فهو سبحانه وتعالى عالم بما يضمرون ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١].

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٣)

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢/ ٢٩٠)

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٩٥)

(٥) التحاكم إلى غير شرع الله عز وجل:

- يرفضون التحاكم إلى شرع الله عز وجل، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، ويقول تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

(٦) الحيرة والتردد بين الإيمان والكفر:

هم دائماً في شك وشبهة وحيرة بين الإيمان والكفر ففي مواقف يكونوا مع المؤمنين وفي مواقف أخرى مع الكافرين ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

(٧) موالة الظالمين والكافرين:

يتخذون أعداء الله أولياء من دون المؤمنين ويسرون إليهم بالمودة ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

(٨) يظهرون توافقهم مع المؤمنين ثم يتخلون عنهم:

يجمعون بالمؤمنين ويظهرون لهم التوافق معهم "ويقولون طاعة" ثم إذا خرجوا من عندهم يسرون فيما بينهم عكس ما أظهروه للمؤمنين ﴿فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، فإذا وقعت بهم المصائب رجعوا إلى المؤمنين يعتذرون لهم ويقولون أنهم ما تخلوا عنهم لأعدائهم إنما أردوا الإحسان والتوفيق بينهم ﴿فَكَيفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

(٩) يجاهرون الله بالمعاصي والقبايح ويخفونها عن الناس:

قال تعالى ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

كيفية التعامل مع المنافقين:

١. الإعراض عنهم مع وعظهم:

وجه الله عز وجل نبيه ﷺ بالإعراض عنهم مع وعظهم وترك سرايرهم إلى الله فاخص النبي ﷺ بأسماء بعضهم لحذيفة بن اليمان ؓ، وأمر بالصفح عنهم وعدم تعنيفهم على ما في قلوبهم، فالله عليهم بما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وانصحهم وانهم عما في قلوبهم فيما بينك وبينهم ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

٢. عدم موالاتهم:

يقول تعالى ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

سادساً: اليهود العدو الخارجي للمجتمع المسلم

ثم نقلنا سورة النساء لتحذرنا من العدو الخارجي للمجتمع المسلم، ألا وهم اليهود الذين تحولت كراهيتهم لأمة الإسلام بسبب نزول الرسالة الخاتمة عليهم إلى عداوة أزلية للأمة، فتقوم السورة ببيان بعض صفاتهم المذمومة وأنهم امتداد لصفات آبائهم الأوائل من بني إسرائيل مؤكدة على رفضهم الخضوع لحكم الله واتباع النبي الخاتم (ﷺ).

بعض صفات اليهود المذمومة:

- وقد جاءت كثير من هذه الصفات المذمومة في سورة البقرة، وأكدت سورة النساء على بعضها وكشفت عن جزء آخر من هذه الصفات المذمومة:

وصفتهم الآيات بعداوة المسلمين الدائمة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ [النساء: ٤٥]، وسيظل

هذا هو نعتهم المستمر في كل زمان.

١. ارتضوا بالضلال بعد معرفة الهدى:

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن

تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

وبعد معرفتهم بالنبي (ﷺ) وصفاته يرفضون اتباعه والإيمان به هوى نفوسهم ﴿يَقُولُونَ

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦] وهذا لعنادهم.

٢. يتمنون الضلال للمسلمين:

يقول الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

٣. يحرفون كلام الله عز وجل بتفسيره على غير مراده:

يقول الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

٤. يسيئون للدين وللنبي (ﷺ):

يقول الله تعالى: ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا

قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

٥. يركون أنفسهم:

وذلك بحديثهم عن أنفسهم ومدحهم لها ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ويزعمون أنهم لا خطايا

لأنبائهم ولا ذنوب يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا

يُظَلِّمُونَ فِتْيَانًا﴾ [النساء: ٤٩].

٦. الإيمان والتحاكم لغير الله وشرعه:

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وهو إيمانهم بكل معبود من دون الله والتحاكم لغير الله وشرعه.

٧. البخل والشح:

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَّهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، أي لو كان لهم نصيب من الملك يخافون أن يذهب ما في أيديهم بخلاً وشحاً فلا يعطوا أحداً من الناس شيئاً.

٨. الحسد:

يقول الله تعالى: ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، ومن ذلك حسدهم النبي (ﷺ) على ما رزقه الله من النبوة العظيمة لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل.

٩: الإيمان بالماديات:

يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣]، فقد سألوا رسول الله (ﷺ) أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة وهذا من تعنتهم وكفرهم وضلالهم.

١٠. نقض الميثاق:

يقول الله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَّرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا

غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

١١. ظلمهم وتحايلهم على أوامر الله عز وجل وعدم الامتثال لها:

فتحايلوا على أوامر الله بعدما نهاهم عن الربا فتناولوه وأحلوه لأنفسهم ﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١]، فاستحقوا أن يضيق الله عليهم لأنهم شاقوا على أنفسهم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

سابعاً: وجوب اتباع النبي (ﷺ) والعمل بشريعته الخاتمة وأهمية الاعتصام بالله

- تدعو سورة النساء البشرية كلها إلى وجوب اتباع النبي (ﷺ) ورسالته الخاتمة والتمسك بشريعته وإقامة منهجه والعمل بكتابه قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

- فبعد عرض السورة لمنهج الإسلام وسماته وملاحمه، تخاطب سورة (النساء) كل البشرية في نداء (يا أيها الناس) في أواخر السورة، كما خاطبتهم بنفس النداء في أول آية حينما توجهت سورة (النساء) إلى البشرية كلها تذكركم بأن خالقهم وضع لهم منهجاً ينظم لهم كافة شؤون حياتهم من الميلاد إلى الوفاة، عبر كل العصور، منهج هو النور لأنه كاشف للظلمات التي تعيش فيها البشرية حين بعدها عن منهج الله، واتباعها مناهج وضعية يعترها الجهل والهوى والضعف والقصور ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ والبرهان أي الدليل القاطع لأي عذر، والحجة المزيلة لأي شبهة أن هذا المنهج هو من عند صانع الإنسان وخالقه

- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وأما الفئة المؤمنة فلها أيضاً في ختام السورة خطاباً خاصاً وهو نداء لها للاعتصام بالله، والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به متى صح الإيمان متى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة العبودية.. فلا يبقى أمام الفئة المؤمنة حين تنهض لإقرار هذا المنهج الرباني في الأرض إلا أن تعتصم بالله وحده وهو صاحب السلطان والقدرة وحده.. انظر كم مرة تتكرر والله ما في السموات والأرض ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًَّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا

(١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿النساء: ١٣١-١٣٣﴾... فماذا يفيد تكرارها هنا؟

- أن مالك السموات والأرض هو صاحب السلطان في ملكه وهو صاحب حق التشريع لمن يحتويهم هذا الملك فالأمران متلازمان.
- ومن له ملكية السموات والأرض هو وحده الذي يُخشى ويخاف، فهو قادر على الذهاب بكل من في ملكه والنجيء بغيرهم، فعلام يخشى المؤمنين إن هم تمسكوا بمنهجهم بوضوح ونقاء؟ لو كل أهل الأرض واجهوهم.. فيكفي المؤمنين اعتصامهم بصاحب السلطان مالك السموات والأرض.
- ثم تختم السورة بأحكام الكلاله وهو الميث بلا أب أو ابن، وهنا في حالة الأخوة الأشقاء بينما في أول السورة ذكرت أحكام الكلاله في حالة الأخوة من الأم، ومناسبة الخاتمة مع بداية سورة المائدة والله أعلم هي:
- ١. الكلاله نوع من العقود وهي المواريث فوجب على المؤمنين الوفاء بها، وهو ما تبدأ به سورة (المائدة) ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.
- ٢. طاعة الله ورسوله (ﷺ) فيما شرع ويحكم ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾، كما جاء في أول سورة المائدة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.
- ٣. الكلاله من أضعف الروابط في نظام المواريث فمن أوفى بها كان لغيرها لما هو أوثق منها أخرى في الوفاء.

بين سورتي النساء والمائدة

- جاءت سورة (النساء) لتزيل رواسب الجاهلية في النفوس وفي العادات والتقاليد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ولتطهير المجتمع من مبادئ وقيم الجاهلية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ

لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴿[النساء: ١٩]، وتمحو مظاهر التحاكم إلى البشر ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ ﴿[النساء: ٥٢]..

وبذلك أتت سورة (النساء) لتنشئ مجتمعا مسلما جديدا صالحا يصون الضعفاء ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿[النساء: ١٢٧]، قال تعالى ﴿وَأْتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴿[النساء: ٢]، ويكرم المرأة ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿[النساء: ٧].

- مجتمع يقيم العدل بين الناس بمنهج الله ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿[النساء: ٥٨]، ويحارب الفاحشة ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿[النساء: ١٥]، مجتمع يقيم منهج الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴿[النساء: ٥٩]، ويتحاكم إلى شرعه ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿[النساء: ٦٥].

- ثم دعت سورة النساء المؤمنين إلى حماية هذا المنهج الرباني ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿[النساء: ٧٥].

- ثم جاءت سورة (المائدة) بعدها تطالب المؤمنين بالوفاء بعهدهم مع ربهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴿[المائدة: ١]، وتؤكد لهم السورة أن أهم هذه العقود هو ميثاقها مع ربها في إقامة منهجه ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿[المائدة: ٧]، وعهدا بتحكيم كتابه في الأرض ﴿وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿[المائدة: ٤٩].

- وبذلك اتصل المنهج الحركي للقرآن، في تكليف الأمة المسلمة بمهمة قيادة البشرية بمنهج الله في سورة البقرة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأعلنت الأمة استجابتها للتكليف الرباني وأخذت عهد مع ربها على القيام بهذه المهمة ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ثم جاءت سورة (آل عمران) بإعداد وتأهيل الفئة المؤمنة المصطفاة من الأمة للقيام بتكاليف وأعباء هذه الأمة ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ثم جاءت سورة (النساء) تعرض ملامح وسمات المنهج الرباني المطلوب إقامته في الأرض..

- ثم تأتي سورة (المائدة) بعد ذلك لتطالب الفئة المؤمنة المؤهلة بالوفاء بعهدتها مع ربها في إقامة هذا المنهج وتحكيم هذا الشرع، كما جاءت سورة (المائدة) لتحذر هذه الفئة المؤمنة من أن تكريمها واصطفائها ليس أبدياً ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تفعل معه ما تشاء، ولكنه مرهون بالوفاء بعهدتها.. فتقدم سورة (المائدة) للمؤمنين نموذجاً لما حدث مع بني إسرائيل فكان أمامها إما الوفاء بعهدتها وميثاقها ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، إذن فالمعية والتأييد الإلهي ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، وإما نقض العهد وخيانة الأمانة ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] فحينها اللعن والغضب الإلهي ﴿فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

لذلك توجه سورة (المائدة) خطاباً حاسماً للفئة المؤمنة التي كلفت بحمل منهج الله وقيادة البشرية به، وفي رقيبتها عهد وميثاق مع ربها.. إما أن تدفع ضريبة كرامتها ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وإما أن تدفع ضريبة ذلها ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

تم عرض سورة النساء ولله الحمد والثناء الجميل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

والحمد لله رب العالمين

الخريطة الكلية لعرض سورة النساء :

الخريطة الكلية لعرض سورة النساء



سورة المائدة

(تحذير الفئة المؤمنة من
نقض عهدها مع ربها بتبديل
شرعه وعدم تحكيم كتابه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

مقدمة سورة المائدةورد في نزول سورة المائدة

- عن عبد الله بن عمر رضی الله عنه أنه قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها^(١).
- عن جبیر بن نُفَيْر قال : حججت فدخلت على عائشة ، فقالت لي: يا جُبَيْر ، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم .فقالت : أما أنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه^(٢) بينما روى ابن عباس أن آخر سورة أنزلت هي : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ [سورة النصر: ١] .
- جو نزول السورة وملابساتها .
- وردت روايات كثيرة أن هذه السورة نزلت بعد سورة الفتح بعد الحديبية في العام السادس من الهجرة، وبعض هذه الروايات تذكر أنها نزلت مرة واحدة فيما عدا الآية الثالثة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم ..﴾ حيث روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أنها نزلت في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفة أي في السنة العاشرة من الهجرة .
- ولكن موضوعات السورة مع أحداث السيرة ترجح عدم نزولها دفعة واحدة والله أعلم، وأنها نزلت متفرقة وفي أوقات مختلفة ، فقد ذكر السيوطي أن بعض آياتها نزلت في أزمنة وأمكنة مختلفة حيث تصور بعض الآيات قوة ونفوذ اليهود في المدينة وتعنتهم مع رسول الله ﷺ ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ.....﴾، ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ.....﴾ [المائدة: ٤١ : ٤٢] .

(١) رواه أحمد في مسنده (٦٦٤٣) ، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٢) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، والنسائي في " الكبرى " (١١١٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢٥٥٨٨) .

• والسيرة النبوية تؤكد أن قوة ونفوذ اليهود ظلنا قائمتين في المدينة حتى وقعة بني قريظة عقب غزوة الخندق عام ٥ هـ ، حتى تطهرت المدينة منهم، ولم يكن لليهود بعد الحديبية عام ٦ هـ ما يدعو إلى العناية بشأنهم إلى هذا الحد كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ [المائدة : ١٣] ، والذي لابد أن يكون سابقاً على هذه الفترة الزمنية .

• كما أن حديث المقداد بن عمرو المشهور في غزوة بدر ، يؤيد نزول الآيات الخاصة بموقف بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام ونكولهم عن دخول الأرض المقدسة (الآيات من ٢٠ : ٢٦) قبل غزوة بدر في السنة الثانية الهجرية ، حيث روى البخاري في صحيحه أن المقداد بن عمرو أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين يوم بدر فقال له : والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك . فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسرَّ بذلك ^(١) .

• لذلك فالراجح والله أعلم هو : أن سورة المائدة نزلت متفرقة حيث نزل معظمها بعد صلح الحديبية عام ٦ هـ ، وفيها قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾... من أواخر ما نزل من القرآن ، بينما نزلت بعض آياتها قبل غزوة الخندق عام ٥ هـ .

قصة (المائدة) ورمزيتها ودلالاتها

قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١١٢ ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ١١٣ ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ١١٤ ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٢ - ١١٥]

(١) البخاري : (٧ / ٢٢٣ / ٢٢٤) ، و (٨ / ٢٠٥ فتح) .

طلب الحواريون وهم أتباع عيسى عليه السلام وأنصاره نزول آية خارقة من السماء وهي مائدة عليها طعام ليأكلوا منها ويزدادوا إيماناً بنبيهم وتصديقاً لرسالته ، وتزداد قلوبهم إيماناً بالله ثم يكونوا شهوداً لدى بقية قومهم على وقوع هذه الآية الباهرة.

وقولهم ﴿هل يستطيع ربك﴾ اختلف فيها المفسرون لأن شكهم في قدرة الله يستلزم الكفر ، فقال ابن عثيمين في تفسيره : " إما أن تحمل الاستطاعة على الإرادة فيكون المعنى : هل يريد ربك ؟ ، وإما لديهم الإيمان بقدرة الله بكل شيء ولكن يحتاج الإنسان إلى زيادة طمأنينته ، وإما معنى الاستطاعة هو الإطاعة ، أي: هل يطيعك ربك إذا سألته أن ينزل علينا مائدة أو لا يطيعك ؟ بينما في قراءة من القراءات ﴿هل تستطيع ربك﴾ والمعنى : هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة ؟ (١)

وأياً كان المعنى من المعاني السابقة يأتي السؤال : هل يليق بصفوة المؤمنين بنبي الله عيسى بن مريم عليه السلام أن يطلبوا منه نزول آية مادية خارقة ليستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ؟ والحواريون هم : الذين تعاهدوا على التصديق له والنصرة والمؤازرة لرسالته ، قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣] .

وهم الذين رأوا المعجزات المادية والآيات الخارقة الكثيرة التي جاء بها نبيهم عيسى عليه السلام ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٤٩]

وهم الذين صدّقوا البيّنات الساطعات التي نزلت على نبيهم في كتاب الله الإنجيل، كما صدّقوا ما جاء قبله في كتاب الله التوراة وما جاء فيهما من الهدى والنور

(١) التفسير الثمين . ابن عثيمين . ص ٥٠٩ .

الذي يكفيهم عن طلب أي بينات أخرى ، قال تعالى ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾ [المائدة: ٤٦] .

وهم الذين امتن الله عز وجل عليهم بالهداية ابتداءً وألهمهم الإيمان به سبحانه وتعالى والإيمان برسولهم عيسى ابن مريم عليه السلام ، فهل شكر هذه النعمة العظيمة يستوجب طلب دليلاً آخر ليؤمنوا بالله وليصدقوا بما جاءهم به عيسى عليه السلام من الحق ؟

وللإجابة على هذه التساؤلات وبيان دلالات ما طلبه الخواريون من رسولهم عيسى ابن مريم عليه السلام ، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله : " ويكشف لنا الحوار بين عيسى عليه السلام والخواريون . عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم وهم الخواريون .. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد ...

إنهم الخواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى . فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم ... ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة! .

تطمئن بما نفوسهم ، ويعلمون منها أنهم صدقهم ، ويشهدون بما له لمن وراءهم.

● فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم ... لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان . ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن" .^(١)

● ويقول الشيخ سعيد حوى رحمه الله عن طلب الخواريون آية من رسولهم عليه السلام : (لاحظنا ان اقتراح الآيات على الرسل ليس هو الأدب مع الله ورسله ، وأن الاستجابة في هذه الحالة يرافقها شروط ، ويشبه ما ورد هنا ما وقع لرسولنا عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه

(١) في ظلال القرآن . سيد قطب . ٣ / ٩٩٨

الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك! قال : " وتفعلون ؟ " قالوا نعم . قال فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ؟ قال : " بل باب التوبة والرحمة" ^(١) ﴿١﴾ ^(٢) .

• ومما سبق نجد أنه ما كان ينبغي للحواريين أن يطلبوا هذه الآية الخارقة من نبيهم عيسى عليه السلام، وهم الفئة المؤمنة المناصرة لنبينا ، والتي شهدت بصدق الآيات البينات التي جاء بها، ولذلك قال لهم نبيهم: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ١١٢]، حيث رد عليهم عيسى عليه السلام محذراً إياهم من طلب هذه الخارقة ... لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق، ولا يقترحون على الله ، ولكن الحواريون كرروا الطلب معنيين عن علته وأسبابه ﴿ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ [المائدة: ١١٣] .

• وكلها أسباب تصور مستوى معيناً دون مستوى أصحاب محمد عليه ﷺ فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز ^(٣) .

عندئذ اتجه عيسى عليه السلام إلى ربه يدعوه في أدب العبد المحتجى مع ربه ، فيناجيه مفتقراً إليه ﴿اللهم ربنا﴾ ولم يبدأ في سؤاله بنزول المائدة من السماء بطلب الأكل منها كما بدأ الحواريون في بيان أسبابهم ﴿نريد أن نأكل منها﴾ ، بل أراد نبي الله عيسى عليه السلام أن يكون نزولها عيداً يتقربون به إلى الله عز وجل، وآية لهم على قدرة الله عز وجل ولمن يأتي من بعدهم ممن لم يشهد هذه الآية المعجزة الربانية ثم ختم دعاءه

(١) رواه أحمد في مسنده (٢١٦٦ ، ٣٢٢٣) والحاكم (٣١٤/٢) وقال : " صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه "

(٢) الأساس في التفسير . سعيد حوى . ٣ / ١٥٤٨ .

(٣) في ظلال القرآن، ٣ / ١٠٠٠ .

طالباً للرزق بقوله ﴿وَارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ في موقف العبد المعترف بمقام ربه سبحانه وتعالى...

ثم ختمت الآيات الحديث عن قصة (المائدة) ﴿وما جرى بشأها بين عيسى عليه السلام والحواريون بقوله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَّتُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وهنا يقول الشيخ سيد قطب : " فهذا هو الحد اللائق بجلال الله ، حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية وهوأ وحتى لا يمضى الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع ! .

وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسول بعد المعجزة .. وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسول بعد المعجزة " (١)

- ويسكت سياق القصة بعد وعد الله وتهديده ، واختلف العلماء في نزول (المائدة) إلى قولين:-

منهم من قال : إن الله أنزلها ، لأن وعده الحق وهو لا يخلف الميعاد، وقد قال تعالى ﴿إِنِّي مَنزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم توعد من كفر بعد إنزال هذه الآية الخارقة بالعذاب العظيم.

وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال : " إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون (٢) ، وروى ابن ابي حاتم عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال : " نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمرؤا ألا يجنونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قرده وخنازير " ورواه ابن جرير (٣) وهذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بنى إسرائيل أيام عيسى ابن مريم إجابة من الله لدعوته .

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) الطبري (١٣٠٢٥) وإسناده صحيح ولكنه موقوف من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) الطبري (١٣٠١٢) ثم رواه بنحوه موقوفا على عمار (١٣٠١٤).

• ومنهم من قال : إن المائدة لم تنزل، لأن الله اشترط (فمن يكفر بعد منكم فأني أعذبه) ، وأنهم لما رأوا هذا الشرط الثقيل خافوا فعدلوا عن طلبهم ، فروى عن مجاهد أنه قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء رواه ابن ابي حاتم، وروى عن الحسن أنه قال : إنها لم تنزل ذكره الطبري^(١) ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت^(٢) .

• وفي كلا القولين سواء نزلت المائدة أم لم تنزل سنتوقف عند توقف الآيات عند هذا السياق ويكفيها هذا الوعيد الشديد لمن يكفر بعد نزول الآيات ورؤيتها ، فمن رأى الآيات ليس كمن يراها .

• ونقف الآن بعون الله مع رمزية قصة (المائدة) والتي سميت السورة باسمها، لمعرفة دلالة هذه التسمية ومعناها والله سبحانه وتعالى أعلم .:

(١) قصة (المائدة) ترمز إلى طلب خواص المؤمنين بعيسى عليه السلام آية مادية خارقة ليزدادوا إيماناً بنبيهم وبصدق رسالته ﴿وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا﴾ [المائدة : ١١٣] ، على الرغم من وجود الآيات المادية الخارقة التي جاء بها رسولهم عيسى عليه السلام من إبراء الأكمة والأبرص بإذن الله وإحياء الموتى بإذن الله ، أو سواء كانت هذه الآيات فيما أنزله الله عز وجل من الإنجيل على عيسى عليه السلام مصدقا لما معهم من التوراة ...

فالأولى بالفئة المؤمنة المناصرة لرسولها ورسالته ، والشاهدة على صدق ما معه أن لا تسئل عن أدلة خارقة وبيانات يؤمنون بها، وعندهم كتاب الله فيه الأدلة الدامغة والبيانات الواضحة على صدق الحق الذي جاء به رسولهم ، بل إن عليهم تكاليف الإيمان بكتاب الله من صدق الاتباع له وحسن العمل به .

إن ترك كتاب الله وما يجمله من الحق ، وطلب بديلاً آخر لاتباع الحق من خلاله وتصديقه هو مغالاة في الدين بغير الحق، وهو ما نهى الله عز وجل عنه أهل الكتاب ، قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة : ٧٧] ، فالمؤمن إذا

(٣) الطبري (١٣٠١٩ . ١٣٠٢١) .

(٢) ذكره ابن كثير (٦٦٦/١)

عرف الحق وصدق به استقام عليه وقام بأداء تكاليفه من حسن اتباعه والعمل به، قال تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة : ٨٣ - ٨٤]، ويقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الآيات : " هم لا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذين تأثروا به هذا التأثير ، إنما يتخذون من هذا الحق موقفاً إيجابياً يبرهن قبولهم لهذا الحق والإيمان به ...

إنهم أولاً: يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه، ثم يدعونه سبحانه وتعالى أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق، وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر " (١).

هذا هو دور الفئة المؤمنة المناصرة للحق الواجب عليها، والحقيقة أن الحواريين ناصروا رسولهم عيسى بن مريم وثبتوا حوله في وقت كفر الكثير فيه من بني إسرائيل به، ولكن تكاليف الإيمان بالحق توجب الاستقامة على تبعاته، والمضي في طريقه دون الرجوع عنه أو الهبوط دون المستوى اللائق بمناصرته أو طلب بدائل أخرى للتصديق به.

(٢) قصة (المائدة) ترمز إلى : العهد والميثاق الذي أخذه الحواريون على أنفسهم مع ربهم ومع رسولهم في أداء حق الشهادة أمام قومهم بعد نزول آية المائدة الخارقة قال تعالى ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة : ١١٣]، والحواريون أصلاً في أعناقهم عهد وميثاق الإيمان برسولهم ونصرته وتصديق الكتاب الذي أنزل إليه ﴿قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٥٢ - ٥٣] كما أن الحواريين عليهم واجب الشكر على نعمة هداية الله لهم إلى هذا الحق، والمؤمنون دوماً يستشعرون عظمة تبعة العهد والميثاق مع الله، ويخشون من التقصير في الوفاء به

أو النكوص عنه لأن نقض الميثاق مع الله يستوجب اللعن والغضب الإلهي دوماً ﴿ فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة : ١٣].

والالتزام بعهد الله وميثاقه في الشهادة بآياته وصدقها، يستوجب حسن أداء هذه الشهادة سلوكاً وعملاً وجهاداً ، كما يستوجب إقامة أمانة إبلاغها وعدم التلکؤ عنها، كما يستوجب في الأساس إقامة الفرائض التي جاءت بها وترك النواهي التي نمت عنها وإذا وفي المؤمنون بحق تكاليف عهد الإيمان بالله ورسله وكتابه لكفاهم الله وأيدهم ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المائدة : ١٢] .

أما وإذا قد طلب الحواريون لسبب أن يأكلوا منها ، فأيات السورة أوضحت أن لديهم كتاب الله لو أقاموه في حياتهم وأقروه في نفوسهم لفاضت عليهم أرزاق الله ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض رزق الله وبركته، ولما احتاجوا طلب نزول المائدة من السماء من نبيهم ليأكلوا منها ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [المائدة : ٦٦].

٣) قصة (المائدة) ترمز إلى : الوعيد الشديد من الله لمن يكفر بآياته بعد نزولها، قال تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَنِّتُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥] . لذلك فإن عقوبة الكفر بآيات الله وتكذيبها بعد وضوحها عقوبة أليمة ومضاعفة ، يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿وقالوا لو نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الأنعام : ٣٧]، أي يطلبون نزول آية خارقة كما قالوا ﴿وقالوا لن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : ٩٠].

فيقول الله لهم أنه تعالى قادر على ذلك ، ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة كما قال تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ

إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿ [الإسراء : ٥٩] . أي إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون.

وهكذا الذي يعرض عن آيات الله البيّنات مهما يرى من البراهين والحجج القاطعة من الله ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (الأنعام: ٤) ، هؤلاء لن يتغير موقفهم سواء أكانت هذه البيّنات آيات مادية خارقة ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة : ١١٠] ، أو سواء كانت هذه البيّنات هي كتاب ينزل من السماء قد عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك بأنفسهم لقالوا أيضاً إن هذا إلا سحر مبين ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام : ٧] .

• لذلك كان جزاء من يجحد بآيات الله ويكذب بما بعد شدة وضوحها هو استحقاق العذاب الشديد ﴿وَلَيُرِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة : ٦٨] .

• وهامم اليهود يسألون رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، كما نزلت التوراة على موسى عليه السلام مكتوبة، قالوا ذلك على سبيل التعنت والعناد ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (النساء: ١٥٣) .

أفلا تكفيهم الآيات الباهرة والأدلة القاهرة التي جاءتهم على يد نبيهم موسى عليه السلام ليؤمنوا بالله ويصدقوا برسوله والكتاب الذي نزله إليه؟! .

• وهكذا رمزت قصة (المائدة) إلى هذه الدلالات الرئيسية:

أولاً : طلب الفئة المؤمنة من رسولها أن يجيء إليهم بآية خارقة ليزدادوا إيماناً به وتصديقاً برسائله وشهوداً أمام قومهم على الحق الذي جاء به، على الرغم من وجود الآيات الساطعة والأدلة الدامغة الكافية على صدقه والحق الذي جاء به كان ساطعاً ، والتي لا تحتاج إلى برهان آخر .

- ثانياً: العهد والميثاق الذي تلتزمه الفئة المؤمنة مع ربها ، يستوجب الوفاء بتكاليف الإيمان
- آيات الله والشهادة بصدقها وذلك باتباع هذه الآيات والعمل على إقرارها وحسن تبليغها.
- ثالثاً: الوعيد الشديد والتحذير الحاسم لمن يكفر بالآيات البيّنات بعد وضوحها، ولن ينقض عهد الله ولا يلتزم بميثاقه الذي واثقه به .
- ومن خلال رمزية قصة [المائدة] والمعاني الرئيسية التي تدل عليها هذه القصة، نقوم بعون الله وتوفيقه بالنظر في محاور سورة المائدة المرتبطة بهذه القصة للوصول إلى وحدة السورة الموضوعية وهدفها العام .

خريطة سورة المائدة

نعرض هنا بإذن الله محاور سورة المائدة بصفة عامة في الروابط الثلاثة التالية:

- الرابط الأول : التكريم والمكانة بالتقوى والاستقامة على منهج الله .
- الرابط الثاني : عهد الله للفئة المؤمنة بإقرار منهجه وتحكيم شرعه .
- الرابط الثالث: الوعيد الشديد لمن ينقض عهد الله ويكفر بصفات الألوهية.

فيلى التفصيل

الرابط الأول : التكريم والمكانة بالتقوى والاستقامة على منهج الله .

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة : ٢٠].

يمتد الله عز وجل على بنى إسرائيل بآلاءه ونعمه عليهم حيث جعلهم أشرف الناس في زمانهم ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان : ٣٢]، وجعلهم سلالة الأنبياء من لدن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام جميعاً إلى ما بعدهم حتى ختموا بعيسى ابن مريم عليه السلام، وجعلهم ملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين في زمانهم، شريطة الاستقامة على منهجه سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ١٢) يقول الله تعالى لبنى

إسرائيل ﴿إني معكم﴾ أي : بحفظي وكلاءتي ونصري، شريطة الاستقامة على أوامري وطاعتي وإيمانكم برسلي، ونصرتهم ومؤازرتهم على الحق ، وإنفاقكم في سبيلي وابتغاء مرضاتي، ولكن بنو إسرائيل اعتقدوا أن تكريم الله لهم مفتوح، وأن تأييده سبحانه وتعالى لهم من غير قيد ولا شرط ، لكونهم سلالة الأنبياء ، فظنوا أنهم شعب الله المختار إلى أبد الأبد، قال تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨].

- يقول ابن كثير في تفسيره: "قالت اليهود والنصارى كذباً وافتراءً نحن منتسبون إلى أنبياء الله وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا، فقال الله تعالى راداً عليهم (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) أي : لو كنتم . كما تدعون . أبناءه وأحباؤه، فلم أعدت لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم؟! (بل أنتم بشر ممن خلق) (١)

• يقول الشيخ سيد قطب في تفسيره: "اليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، كانوا يقولون تبعاً لهذا إن الله لن يعذبهم بذنوبهم! وإنهم لن يدخلوا النار - إذا دخلوا - إلا أياماً معدودات. ومعنى هذا أن عمل الله لا يجري مجراه! وأنه سبحانه - يحايي فريقاً من عباده، فيدعهم يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين! فأبي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور؟! (٢)

• وهنا يظهر لنا القانون الإلهي الذي لا يحايي أحد وهو: "الكرامة على قدر الاستقامة، والمكانة من الله على قدر التقوى"، فتكريم الله عز وجل لعبد أو فئة أو جماعة أو أمة من البشر ليس تكريماً أبدياً، فلا معصومية لأحد ولا قدسية لبشر دون الأنبياء والمرسلين، ومن يعتقد أنه سواء استقام على منهج الله أو انحرف عنه سيظل له كرامة على الله، فهذا تصور فاسد في التفكير والاعتقاد.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٥٧٧/١ .

(٢) في ظلال القرآن - ٨٦٧/٣ .

- إن سنن الله لا تحابي أحداً، فإذا اختار الله قوماً وكرمهم بأن أيقظهم من سباتهم، وزين الإيمان في قلوبهم لينقذوا أنفسهم وأمتهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ولينصروه على عدوه وعدوهم، وليحملوا رسالته إلى العالمين، فإنهم إن فعلوا ذلك واستقاموا، وأدوا هذه الأمانة فإن الله يوفي لهم وعده بالنصر، وإن تخاذلوا وضيعوا الأمانة، وخانوا الرسالة، رفع الله عنهم ولايته ونصرته، فإن الكرامة على قدر الاستقامة، وقد سبق أن عاقب الله بني إسرائيل من قبل لما ظلموا بعد أن كرمهم وفضلهم على العالمين، إن الدخول في دائرة التأييد الإلهي يستلزم شروطاً، والاستمرار في الوجود فيها يتطلب الثبات على هذه الشروط، فكرامة العباد عند ربهم بمقدار استقامتهم وتقواهم .
- وتمضي بنا سورة (المائدة) من أولها إلى آخرها لتبرز لنا هذا الرابط بين آياتها، فبنو إسرائيل استحقوا اللعن بعد التكريم، والخذلان بعد التأييد لانحرافهم عن منهج الله مع ادعائهم الكاذب أنهم سيظلوا شعب الله المختار!!
- فلما نكثت بنو إسرائيل عن الجهاد في سبيل الله، وتقاعت عن الخروج مع نبيها موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، فكان جزاؤهم هو التيه في الأرض نكالاً من الله عز وجل ولا يظلم ربك أحداً ﴿ قَالَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦].
- وهذا القانون الإلهي البارز في سورة (المائدة) لا يخص بني إسرائيل فحسب أو صفوتهم من الحواريين الذين آمنوا بني الله عيسى عليه السلام، بل يمتد هذا القانون الإلهي ليشمل الفئة المؤمنة في كل زمان ومكان، حيث توضح لنا آيات سورة المائدة أن المؤمنين إذا تخلوا عن منهج الله، فحينها لن يكونوا على شيء عند الله، وسيصرفهم عن خدمته ونصرة دينه ويأتي بآخرين يحققون الشروط التي يريدتها الله للعصبة المختارة لتمكين منهجه في الأرض، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤).

الرباط الثاني: عهد الله للفئة المؤمنة بإقرار منهجه وتحكيم شرعه:

- قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، حثت سورة (المائدة) المؤمنين من أول آياتها على الوفاء بالعقود أي: الاتيان بها كاملة ووافية، و(العقود) جمع عقد، وهو كل ما أبرمه الإنسان مع غيره، وهو عام في هذه الآية ليشمل كل عقد لا يخالف الشرع فيجب على المؤمن الوفاء به، وأول هذه العقود هو عقد الإيمان بالله، ومعرفة حقيقة ألوهيته سبحانه، ومقتضى العبودية لألوهيته، قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَّكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (المائدة: ٧)، وهنا يُذكر الله عز وجل عباده المؤمنين بنعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم الذي أكمله وأتمه وارتضاه لهم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].
- ويذكرهم سبحانه وتعالى بالنعمة الكبرى في إرسال رسوله الكريم وكتابه الحكيم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وهذه النعم الضخمة استوجبت عهد من الله عاهد عباده المؤمنين على الإيمان به سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسوله، فالتزم المؤمنون وقالوا (سمعنا وأطعنا) كما جاء في آخر سورة البقرة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهذا يعني استجابة المؤمنون لربهم والتزامهم بالوفاء بموجبات هذا العهد ومقتضياته ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].
- وأهم موجبات ومقتضيات عهد الإيمان بالله تعالى هو إقامة هذا الدين وتحكيم هذا الشرع واتباع هذا النبي ﷺ ومناصرتة والعمل بهذا الكتاب ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرَعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨].
- ولقد أخذ الله سبحانه وتعالى المواثيق على كل من اليهود والنصارى من قبل بتحكيم التوراة والإنجيل، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ

هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴿المائدة: ٤٤﴾، قال تعالى ﴿وَلِيُخَكِّمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]، ثم قررت سورة المائدة أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

- وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، مقتضاها الأول الدخول في دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول ويعزروه وينصروه ﴿لَئِن أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].
- ثم أنزل الله القرآن الكريم وجعله مهيمناً على الكتب السابقة وناسخاً لها، لذلك استحق أن يكون تحكيم هذا الكتاب في الحياة هو أوثق ميثاق أخذه الله عز وجل على هذه الأمة المسلمة، قال تعالى ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].
- وكان لزاماً على الفئة المؤمنة في كل زمان أن توفي بعهدتها مع ربها بإقرار منهجه وتحكيم شرعه .

الرباط الثالث: الوعيد الشديد لمن ينقض عهد الله ويكفر بصفات الألوهية:

جاءت سورة المائدة لتقرر أن الله عز وجل هو الإله المعبود وحده لا شريك له، حيث أكدت السورة على صفات الألوهية من أول آية فيها ... مروراً بآيات السورة كلها حتى الانتهاء بآخر آياتها تقرر جميعاً أن هناك:

حاكماً واحداً .. إله واحداً مُشَرِّعٌ واحد ..

معبودٌ واحد .. متصرفٌ واحد .. مالكٌ واحد ..

حاكماً واحداً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]

إلهٌ واحد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]

مُشَرِّعٌ واحد ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا

دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦] .

معبودٌ واحد ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] .

متصرفٌ واحد ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] .

مالكٌ واحد ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠] - وأوضحت السورة أن أخص هذه الخصائص هو تفرد الله عز وجل بالحكمية والعبودية على خلقه أجمعين، التفرد الذي يجرد العباد من حق الحكمية والعبودية لأحد على أحد من المخلوقين...

فالإله يعنى: الحاكم الأمر، كما يعنى: المعبود المطاع، لذلك فالحكم بما أنزل الله هو إقرار بالوهمية الله، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها وصفاتها عن عداه سبحانه وتعالى، وهذا هو معنى "الإسلام" أي: الاستسلام لله والانقياد لمنهجه وشرعه والإذعان لسلطانه ونظامه، الذى وضعه ليسير كافة شئون حياتهم.

ومن لم يحكم بما أنزل الله الإله الحاكم ولا ينقاد لمنهجه .. لا يعترف بسلطانه .. ومن ثم لا يعترف بالوحيته ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ .. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

- لذلك فإن أهم مظاهر الإقرار بالوهمية الله عز وجل هى الحكم بكتاب الذى أنزله: التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣]، ﴿وَلِيَحْكَمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧)، ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٤٨).

- وهكذا نجد في سورة المائدة تكرار كلمات: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)، (مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)، (وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)، (مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ) ما يزيد عن ثلاثة عشر مرة، للتأكيد على أهمية الالتفات إلى هذا المعنى الخطير ألا وهو: "الحكم بما أنزل الله هو إقرار بالوهمية الله".

• وقد عرضت سورة (المائدة) كيف نقض كل من اليهود والنصارى العهود والمواثيق التي أخذت عليهم للحكم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل، فاستحقوا اللعن والغضب الإلهي قال تعالى ﴿فَبِمَا نَفَضْنَاهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى ﴿وَمَنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وقوله تعالى ﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي : تركوا العمل بكتاب الله مخالفة لعهدهم وميثاقهم مع ربهم.

• وترك العمل بكتاب الله هو أول العرى التي نقضت، ثم تبعها عدم التحاكم إليه، وهم بذلك نقضوا إحدى صفات الألوهية، فوقعوا في عدة مظاهر ادعوا فيها للبشر بعض خصائص وصفات الألوهية ومنها: (١) التشريع من دون الله: حينما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال، قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

(٢) تأليه النصارى لعيسى بن مريم عليه السلام: قال تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [٧٢] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٣].

• وكل من الصورتين نقض لصفة من صفات الألوهية، فمن يشرك بالله حاكماً كمن يشرك بالله معبوداً... سواء بسواء، كلاهما نقض لعهد الإيمان بالله وإفراده بالألوهية سبحانه، وتحقيق مقتضى العبودية لألوهيته، ذلك العهد الذي تنبثق منه وتقوم عليه سائر العهود.

• وسورة (المائدة) حين أفردت مساحة واسعة لكلتا الصورتين، لتتوجه بهما إلى الأمة المسلمة تقص عليها ما وقع فيه اليهود والنصارى .. الذين ظنوا أنهم أبناء الله وأحباؤه مهما فعلوا، واعتقدوا بزعمهم أن لهم مكانة خاصة عند الله مهما انحرفوا واقترفوا..

ولكن عدل الله لا يجايي أحد، ولا يظلم ربك أحداً، فاستحق من نقض ميثاقه مع الله وكفر بصفات ألوهيته العذاب واللعن والغضب الإلهي، قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُتَوَبِّهًا عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

• إن الفئة المؤمنة التي تسعى لإقرار ألوهية الله في الأرض وتقييم سلطانه وتحكم شرعه في حياة الناس، هذه الفئة المؤمنة توجه لها سورة (المائدة) تحذيراً شديداً: ألا تنقض ميثاقها مع الله، فيصيبها ما أصاب ناكثي العهد وناقضي العقد حين ساروا في طريق غير الطريق.. فصاروا في ذيل القافلة .. ونزعت منهم قيادة البشرية... ومن يفعل ذلك فقد ارتد عن دينه، فاحذروا أيها المؤمنون أن تتردوا عن دينكم، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) [المائدة: ٥٤].

** وبعد عرض محاور سورة المائدة وروابطها الثلاثة والتي تم استنباطها من قصة المائدة بعد دراسة موضوعات السورة وعناصرها، فبرز لنا بعون الله وتوفيقه الوحدة الموضوعية لسورة المائدة وهي والله أعلم:

"الحكم بما أنزل الله هو إقرار بألوهية الله"

- كما يبرز لنا الهدف العام للسورة وهو والله أعلم:

"تحذير الفئة المؤمنة من نقض عهدها مع ربها بتبديل شرعه وعدم تحكيم كتابه".

لفتة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن:

• جاءت سورة (المائدة) في ترتيبها في كتاب الله كأخر سورة مدنية في باقة السور الأربع الأوائل المدنية التي بدء بها القرآن. وهي سور: (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة)، ليتصل بها خط المنهج الحركي للقرآن في بيانه للصراط المستقيم وأركانه في هذه الباقية، حيث جاءت سورة

(البقرة) بالتعريف بالحق مع دعوتها للاهتمام إليه وتمام الانقياد له، وجاءت سورة (آل عمران) بالدعوة للثبات على هذا الحق والصبر على الأذى فيه، وجاءت سورة (النساء) بالدعوة إلى عدم الانحراف عن منهج الحق أو الفتنة بغيره من مناهج الجاهلية، ثم جاءت سورة (المائدة) بركن هام من أركان الهداية إلى صراط الله المستقيم ألا وهو: العمل بمقتضى هذا الحق وإقراره في حياة الناس.

- وبذلك التصقت لبنة سورة (المائدة) بجوار لبنات سور (البقرة وآل عمران والنساء) ليتشكل بمن قوام بنیان مهمة الأمة المسلمة كالتالي:
- التكليف بمهمة قيادة البشرية وبيان طريق إقامتها في سورة (البقرة).
- إعداد الفئة المؤمنة وبيان تبعات تكليفها وطبيعة الطريق في سورة (آل عمران).
- التعرف على ملامح منهج الإسلام وتقاليد ونظمه المطلوب إقراره في سورة (النساء).
- دعوة الفئة المؤمنة للوفاء بعدها مع ربها بإقرار منهجه وتحكيم كتابه إقراراً لألوهية الله في الأرض في سورة (المائدة) .

خطاب الفئة المؤمنة في سورة المائدة:

- كون معظم آيات سورة المائدة نزلت متأخرة من القرآن، ثم جاءت السورة في ترتيبها النهائي كآخر سورة مدنية في الباقية الأولى، أعطى سورة (المائدة) أهمية خاصة حيث أنها السورة التي قرر الله فيها، اكتمال الدين وتمام النعمة على هذه الأمة المسلمة.
- تأتي هذه الأهمية الخاصة مع توجيه سورة المائدة نداءً لها للمؤمنين في صيغة: (يا أيها الذين آمنوا)، ليلبغ عدد هذه النداءات: ستة عشر نداءً، تجاوزت بمن النداءات التي جاءت في سورة البقرة للذين آمنوا أطول سور القرآن - كل نداء من هذه النداءات به تشريع من التشريعات، أو أمر من الأوامر، أو نهي من النواهي، أو توجيه من التوجيهات.
- مما يدل على أن هذه السورة أفردت اهتماماً بالغاً بالفئة المؤمنة وبتربيتها، والإشارة في ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم هي : أن سورة المائدة تضع أمانة عظيمة وتبعة ثقيلة في عنق الفئة المؤمنة،

بالالتزام بعهدتها مع ربها وعدم النكوث عنه وذلك بإقرار ألوهية الله سبحانه وتعالى وسلطانه على خلقه بتحكيم كتابه الذي أنزله ...

- وهكذا ارتبطت سورة (آل عمران) التي تولت إعداد الفئة المؤمنة على تبعات طريقها للثبات عليه، بسورة (المائدة) التي ألزمت الفئة المؤمنة بأوثق المواثيق لإقرار المنهج الرباني في الأرض، حيث ختمت سورة (آل عمران) بنداءها للذين آمنوا في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، لتبدأ سورة المائدة آياتها بنداءها للذين آمنوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، بينما أتت بينهما سورة النساء لتبدأ آياتها بنداءها للناس جميعاً في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ثم ختمت سورة النساء نداءها للناس جميعاً في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] حيث عرضت لنا سورة النساء منهج الإسلام مع دعوة الناس جميعاً للالتزام. انتهت بحمد الله مقدمة سورة المائدة.

العرض التفصيلي لسورة المائدة

* سنتناول بإذن الله العرض التفصيلي لسورة المائدة في المقاطع التالية:

- المقطع الأول (من الآية ١ : ١١) نعمة اكتمال شرع الله ومقتضى عهد الألوهية.
- المقطع الثاني (من الآية ١٢ : ٤٠) نقض عهد الله سبب الخذلان بعد التكريم.
- المقطع الثالث (من الآية ٤١ : ٥٠) تحكيم شرع الله وإقامته في الحياة
- المقطع الرابع (من الآية ٥١ : ٨٦) تحذير الفئة المؤمنة من الارتداد عن دينها ومن موالات أعدائها.

- المقطع الخامس (من الآية ٨٧ : ١٢٠) ختام السورة والموقف الرهيب بين يدي الله.

* مع عرض مقاصد القرآن التالية:

- مقصد معرفة الله عز وجل: تعرف على اسم الله (الحكم).
- مقصد الإعداد لليوم الآخر: موقف الحساب في الآخرة.
- مقصد تركية النفس: عائق العمى والصمم .

المقطع الأول (من الآية ١ : ١١) نعمة اكتمال شرع الله ومقتضى عهد الألوهية:

* ويشمل المقطع الأول من سورة المائدة العناصر التالية:

أولاً- المقصود بالعقود وأساس هذه العقود والفرق بين العهد والميثاق .

ثانياً- عقود التحريم والتحليل وحق التشريع.

ثالثاً: النعمة الضخمة في اكتمال الدين.

رابعاً: الشكر والتقوى أهم معينات الوفاء بالعقود.

مقدمة المقطع الأول:

- ترتبط آيات هذا المقطع من سورة المائدة، حول العقود التي أخذها الله عز وجل على هذه الأمة المسلمة، وبيان أساس هذه العقود، وقد ابتدأت السورة وركزت على عقود التحريم والتحليل، مما استلزم بيان معنى العقود، والفرق بين العهد والميثاق، ولماذا كانت البداية هي عقود التحريم والتحليل، ثم جاء في هذا المقطع التذكير كثيراً بنعم الله عز وجل على المؤمنين، ومن أكبر هذه

النعم على الإطلاق نعمة اكتمال هذا الدين وتمامه، كما حث هذا المقطع من السورة على تقوى الله عز وجل للتأكيد على أهمية شكر نعم الله عز وجل وأهمية تقواه سبحانه وتعالى في الالتزام بالعهود والوفاء بها.

أولاً المقصود بالعقود وأساس هذه العقود والفرق بين العهد والميثاق

- قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة : ١] .
- قال ابن عباس ومجاهد يعنى بالعقود : " العهود ، وهي ما أحل الله وما حرم ، وما فرض ، وما حد في القرآن كله " ، ذكره ابن كثير في تفسيره ^(١) .
- وقال ابن عثيمين العقود : جمع عقد ، وهو ما أبرمه الإنسان مع غيره، وضد العقد الحل، تقول عقدت الحبل ، وحللت الحبل، وهي أنواع كثيرة منها : البيع ، والإجارة ، والرهن ، والوقف ، والنكاح ، وغير ذلك ^(٢) .
- وقال الألوسي في ارتباط سورة (المائدة) ب (النساء) : أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود مثل: الأُنكحة والصدّاق والحلف ، وقال تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء : ٥٨] ، فجاءت بداية سورة المائدة تدعو للوفاء بهذه العقود .
- وقوله تعالى (أوفوا) أي : أنتوا بها وافية كاملة، من غير نقص ولا تغدروا ولا تنكثوا.
- إذن الأمر بالوفاء بالعقود على الوجوب، بشرط ألا يكون العقد محرماً .
- وقال الشيخ سيد قطب رحمه الله: " افتتاح السورة على هذا النحو ، والمضي فيها على هذا النهج في بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح، وفي بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية، وفي بيان حقيقة العقيدة الصحيحة، وفي بيان حقيقة العبودية وحقيقة الألوهية، وفي بيان علاقات الأمة المؤمنة بشتى الأمم والملل والنحل، كل هذا يعطى كلمة "العقود" معنى أوسع من المعنى الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة. "

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١ / ٥٤٧ .

(٢) التفسير الثمين لابن عثيمين ، سورة المائدة ، ص ٦ .

ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو: "كل ضوابط الحياة التي قررها الله"، وفي أولها عقد الإيمان بالله، ومعرفة حقيقة ألوهيته سبحانه، ومقتضى العبودية لألوهيته... هذا العقد الذي تنبثق منه، وتقوم عليه سائر العقود، وسائر الضوابط في الحياة" (١).

- إذن أساس العقود التي أخذها الله عز وجل على البشرية كلها عامة وعلى المؤمنين خاصة هو: "عقد الإيمان بالله والاعتراف بألوهيته وربوبيته"، ومقتضى هذا الاعتراف من تحقيق العبودية الكاملة والطاعة المطلقة.

- وهذا العقد أخذه الله عز وجل على خلقه جميعاً كما يلي:

١. عقد أخذه الله على آدم عليه السلام، وهو يسلمه مقاليد الخلافة في الأرض، وهذا نصه قال تعالى ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨ : ٣٩] .

• يقول الشيخ سيد قطب: "إذن هي خلافة مشروطة باتباع هدى الله الذي ينزله في كتبه على رسله، وإلا فهي المخالفة لعقد الخلافة، المخالفة التي تجعل كل عمل مخالف لما أنزل الله ولا يتحاكم إليه، باطلاً بطلاناً أصلياً، وتحتم على كل مؤمن بالله، يريد الوفاء بعقد الله عليه أن يرد هذا الباطل ولا يعترف به، ولا يقبل التعامل على أساسه، وإلا فما أوفى بعقد الله" (٢).

(٢) عقد أخذه الله مع ذرية آدم وهم لا يزالون في ظهور آبائهم، وهذا نصه: قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣) ، يخبر تعالى أنه استخرج ذرية

(١) في ظلال القرآن . ٣ / ٨٣٥ ، ٨٣٦ .

(٢) نفس المصدر السابق.

بني آدم كلهم من أصلابهم ، وأشهدهم على أنفسهم أن : الله ربهم ومليكمم وأنه لا إله إلا هو ، فطرهم على ذلك وجبلهم عليه (١).

- فإذا لم يفيء بنو آدم إلى قيام الساعة مع ربهم بتوحيده معبوداً وحاكماً لم يكونوا أوفياء بعقد الذرية الأول . .

(٣) عقد أخذه الله عز وجل على بني إسرائيل، بالإيمان به وحده لا شريك له ، واتباع رسله ، والعمل بكتابه وأخذه بقوة وهمة وامتنال، ميثاق أخذه الله عز وجل يوم أن رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه فأقروا ثم خالفوا، وهذا نصه: قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (البقرة : ٩٣) .

(٤) عقد أخذه الله عز وجل على النصارى، بالإيمان به وحده لا شريك له ، وتوحيده ، ولكنهم نقضوه وانحرفوا عن توحيد الله ، قال تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة : ١٤] .

(٥) عقد أخذه الله عز وجل على الأمة المسلمة بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسوله ﷺ ومناصرتة ومؤازرتة فأقرت الأمة، وهذا نصه: قال تعالى ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة:٧]، وهذا ميثاق واثق الله عز وجل به هذه الأمة المسلمة أي الزمهم وأحكمهم به.

• ولكن ما الفرق بين العهد والميثاق؟

الفرق بين العهد والميثاق:

- العهد هو: الوصية ، يقال : عهد إلى فلان أي : أوصاني، ويأتي بمعنى: الحفظ والأمان والوفاء.
- الميثاق هو : العهد المحكم ، يقال: وثقت الشيء أي أحكمته، فالعهد أو العقد المؤكد بيمين أو الذي تم توثيقه لدى جهة رسمية وبحضور شهود وعليه الخاتم يعتبر ميثاق ، وتسمى صيغة الاتفاق بين الطرفين حينئذ : " وثيقة" .

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ٦٣/٢ .

-والقرآن يُسمى المرحلة الأولى في الاتفاق أو العقد المبرم بين طرفين بـ " العهد " ، والمرحلة الثانية بعد توثيقه واحكامه إما بيمين أو بشهادة آخرين يسمى بـ " الوثيقة " قال تعالى عن ميثاق إخوة يوسف مع أبيهم يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لِنَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف : ٦٦] ، وهنا كان عهد إخوة يوسف مع أبيهم موثقاً ومؤكداً بيمينهم وحلفهم له.

- إذن الميثاق هو : إحكام العهد بتوكيده إما بالحلف واليمين أو بالتزام كالسمع والطاعة وشهادة الله عز وجل على ذلك، يقول تعالى ﴿وَلَا تَقْضُوا الْاَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: ٩١)، كفيلاً أي : شاهداً ورقيباً .

- وقد عاهد الله عز وجل إلى عباده بعبادته وحده سبحانه وتعالى، قال تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس : ٦٠ - ٦١] .

- أما الميثاق الغليظ فهو أغلظ الموثيق وأهمها وأوثقها ، وذكر في القرآن الميثاق الغليظ ثلاث مرات وهي :

- ميثاق الزواج الغليظ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء : ٢١] .
- الميثاق الغليظ الذي أخذ على بنى إسرائيل بعدم مخالفة أوامرا الله وعصيانه أو التحايل على ما حرم الله عز وجل ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء : ١٥٤] .
- الميثاق الغليظ الذي أخذه الله عز وجل على الأنبياء من أولى العزم من الرسل بتبليغ دينه ورسالته ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب : ٧] .

ثانياً : عقود التحريم والتحليل وحق التشريع

• قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا الْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ١-٢] .

- أقرت سورة المائدة منذ الآيات الأولى فيها حقيقة : أن الذي يملك حق التحليل والتحريم هو الله وحده. وليس ذلك لأحد من البشر.. لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين.. إلا بسطان من الله ووفق شريعة الله، فقد جاءت أول خمس آيات من سورة المائدة بتقرير هذه الحقيقة وترسيخها ، حيث تكررت مادة كلمتي ﴿أَحَلَّ﴾ ، و﴿حُرْمٌ﴾ : ثلاثة عشر مرة، كقوله تعالى : ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ﴾ ، ﴿غَيْرَ مُحَلِّي﴾ ، ﴿لَا تَحْلُوا﴾ ، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ ، ﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ ، ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ﴾ ، ﴿اليوم أحل لكم

- وشهدت هذه الآيات التحريم والتحليل في الذبائح وفي الأنواع وفي الأماكن وفي الأوقات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ وهي عقود قائمة على عقد الايمان ابتداء ، فالذين آمنوا يقتضيهم عقد الإيمان أن يتلقوا التحريم والتحليل من الله وحده، ولا يتلقوا في هذا شيئاً من غيره ، كل شيء في الحياة ، ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم فيه، في طعام ولا في نكاح، ولا في شراب، ولا في لباس، ولا في حركة ، ولا في أزمنة، ولا في أمكنة، ولا في عمل ، ولا في تعامل، ولا في ارتباط، ولا في وضع... إلا أن يستمد سلطانه من الله حسب شريعة الله ، ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ : يحل وحده ما يشاء ويحرم وحده ما يشاء ، ولا راد لما يحكم به.

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: " إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده ، لأنهما أخص خصائص الألوهية ، والتحليل والتحريم أي : الحظر والاباحة هو الشريعة، وهو الدين ، لذلك فالذي يحرم ويحلل هو صاحب الدين الذي يدين الناس. فإن كان الذي يحرم

ويحبل هو الله، فالناس إذن يدينون لله، وهم إذن في دين الله ، وإن كان الذي يحرم أو يحلل أحداً غير الله ، فالناس إذن يدينون لهذا الأحد، وهم إذن في دينه لا في دين الله .
والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها. وهي مسألة الدين ومفهومه، ومن ثم نودي هذا النداء للمؤمنين في مطلع هذا البيان بموجب عقد الإيمان ثم أخذ بعده في بيان الحلال والحرام^(١).

- وقد اشتملت الآيات احلال بهيمة الأنعام كالإبل والبقر والغنم، كذبائح وكصيد على العموم كلها حلال، ثم استثنى حالة الصيد في حالة الإحرام للحج والعمرة، ثم حرمت الآيات ما يلي:
١) شعائر الحج والعمرة والمقصود ما تتضمنه من محرمات على المحرم حتى ينتهي حجه وعمرته.
٢) والشهر الحرام يعنى الأشهر الحرم وهي رجب وذو القعدة، وذو الحجة والمحرم حيث حرم القتال فيها.

٣) والهدى وهو الذبيحة التي يسوقها الحاج أو المعتمر .

٤) والقلائد وهي الأنعام المقلدة التي يقلدها أصحابها أي: يضعون في رقبتها قلادة - علامة - على نذرها لله.

٥) والذين يقصدون البيت الحرام حجاجاً أو غير حجاج ، أماناً لهم في بيته الحرام.

والعلة والله أعلم في هذه الحرمات التي ترتبط بشعائر الحج والعمرة حيث تجتمع حرمت الله في الشهر الحرام والبلد الحرام والبيت الحرام فهو إشارة إلى تعظيم حرمت الله التي خصها بالأمان ، ليتصل معنى الحل والحرمة. بمفهومه الواسع بتعظيم حرمت الله تعظيماً لله عز وجل ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج : ٣٩] . ثم في ثنايا آيات التحليل والتحريم يجئ آخر ما نزل من القرآن الكريم لتعلن كمال الرسالة ، وتقام النعمة في إشارة أن الحلال والحرام هو الشريعة ، وأن الدين لا يقتصر كما في أذهان البعض على تصور واعتقاد أو شعائر وعبادات فقط بل يختص بالحلال والحرام ، ولا فرق فيه بين هذا وذاك فكله في مجموعه يتكون المنهج الرباني الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده المؤمنين والذي عرضت ملامحه سورة النساء ودعت الناس للتحاكم إليه

(١) في ظلال القرآن . ٢ / ٦١١ & ٨٣٧/٣ .

، ثم دعت سورة المائدة المؤمنين لتحكيمه في الأرض. والخروج عن هذا المنهج الرباني في جزئيه منه كالخروج عليه كله.

ثالثاً : النعمة الضخمة في اكمال الدين

قال تعالى ﴿الْيَوْمَ يَتَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

يقول ابن كثير في تفسيره: " هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة المسلمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه الي الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه " (١).

• أعلنت هذه الآية كمال الرسالة ، وتمام النعمة ، كما أنها إشارة إلى أن الرسول ﷺ أدى الأمانة وبلغ الرسالة حق الأداء وحق البلاغ ، حيث نزلت هذه الآية في حجة الوداع ، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ثم وضعت هذه الآية الشريفة في هذا الموضع من سورة المائدة بين آيات الحلال والحرام، فما عادت بعدها مجالات لتحليل أو تحريم من دون شرع الله الكامل فلا زيادة فيه أبداً ، والتام فلا نقصان فيه أبداً، والذي رضيه الله فمن لا يرتضيه منهجاً لحياته فإنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين.

• والحقيقة أن هذه الآية الشريفة تشتمل على نعم ضخمة هائلة تستوجب الوقوف عندها وهي: .
(١) نعمة إياس الدين كفروا من هذا الدين ، وقد كتب الله له الكمال، وسجل له البقاء ، فقد يئس الذي كفر أن يبطلوه ، أو ينقصوه ، أو يحرفوه ، ولكنهم قد يغلبوا أهله في موقعة أو فترة ، ولكنهم لا يغلبون هذا الدين أبداً، الذي حفظه الله عز وجل، ولم يخلي الأرض سبحانه من عصبة مؤمنة تعرف هذا الدين، وتفهمه فهماً صحيحاً، وتناضل عنه بحق حتى تسلمه إلى من يليها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير. /١

(٢) نعمة إكمال هذا الدين العظيم ، هذا الدين الذي جاء به كل الأنبياء ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ وهو التوحيد ، ولكن كل رسول جاء قبل خاتم النبيين بشريعة مختلفة في الأوامر والنواهي ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، حتى إذا أراد الله أن يختتم رسالته إلى البشر، أرسل إلى الناس كافة، رسولا خاتم النبيين برسالة للإنسان في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة ، وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها وفي كل جوانب نشاطها، واشتملت هذه الشريعة على كل ما يحتاجه الإنسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان بمبادئ كلية فيما يتطور ويتغير وبأحكام تفصيلية فيما لا يتطور ولا يتغير بتغير الزمان والمكان.

(٣) نعمة إتمام فضل الله ومنته على المؤمنين، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عنها: " لا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين، ولا يقدرها قدرها، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذوق ويلاتها ، والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله، فالذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها.. في التصور والاعتقاد ، وويلاتها في واقع الحياة.. هو الذي يحس ويشعر ، ويعلم ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله في هذا الدين .

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى، وويلات الحيرة والضياح، وويلات الطغيان والهوى، وويلات التخبط والاضطراب في كل أنظمة الحياة الجاهلية بمعتقداتها وأخلاقها، هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الايمان، بمنهج الإسلام، وحقيقة فضل الله عليهم ومنته بهذا الدين" (١).

(٤) نعمة ارتضاء الله الإسلام ديناً للذين آمنوا ، وما فيها من رعاية الله وعنايته بهذه الأمة ، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه.. وهو تعبير يشي بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها، مما يضع على عاتق هذه الأمة عبئاً ثقيلاً في شكر هذه النعمة، ويكمل الشيخ سيد قطب كلامه في كيفية شكر هذه النعم العظيمة الضخمة التي اشتملتها هذه الآية الشريفة : " إن هذه الآية لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئاً ثقيلاً ، يكافئ هذه الرعاية الجليلة.. استغفر الله.. فما يكافئ هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه ، وإنما هو جهد

(١) في ظلال القرآن . ٣ / ٨٤٤ : ٨٤٦ .

الطاقة في شكر النعمة، ومعرفة المنعم، وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه، وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير فيه.

إن ارتضاء الله للإسلام ديناً لهذه الأمة، ليقطنى منها ابتداءً أن تدرك قيمة هذا الاختيار، ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار.. وإلا فما أنكد وما أحق من يهمل أو يرفض ما رضىه الله له، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله! وإنما إذن لجرمة نكدة ألا يترك صاحبها يمضى ناجياً أبداً وقد رفض ما ارتضاه له الله، واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله.. فلن يتركهم الله أبداً ولن يمهلهم أبداً حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون^(١).

وهنا انتهى كلام الشيخ سيد رحمه الله، لنطرح هذا التساؤل الهام: أيرضى الله لنا منهاجاً، ونرضى لأنفسنا غير ما اختاره الله لنا؟!!

لقد تم عرض منهج الجاهلية في العصر الحديث الذي افتتنت به الأمة المسلمة، في أثناء عرض سورة (النساء)، ذلك المنهج الضال الذي تم تسويقه للأمة، فما لبثت الأمة أن جرت وراءه ولهت خلفه، رغم أن الذي صدره لها هم أعداؤها الروم الصليبيون، فاتبعناهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وتركنا المنهج الذي ارتضاه الله لنا.

- إن مقتضى عهد الألوهية والإيمان بالله وتوحيده أن يرد هذا الباطل ولا يعترف به المؤمنون من الآن، ولا يقبلون التعامل على أساسه، وأن يناضلون في سبيل رد الأمة المسلمة إلى منهجها الأصيل الصافي الذي ارتضاه الله عز وجل لها...

- إن عهد الألوهية والإيمان بالله وتوحيده ميثاقاً غليظاً في عنق الفئة المؤمنة خاصة، والتي أقرت بإن حق التحريم والتحليل وفق شرع الله فقط، الذي أكمله الله عز وجل وأتمه، واعتبار ذلك من أخص خصائص الألوهية ومقتضى ميثاقها الذي واثق الله عز وجل به عبادة المؤمنين...

(١) نفس المصدر السابق.

— إن شكر هذه النعمة العظيمة الضخمة التي تفضل الله بها عز وجل على هذه الأمة المسلمة بإكمال هذا الدين ، وإتمام هذا الشرع ، وإرتضاء الإسلام لها منهاجاً، ليستوجب منها الاستقامة على منهج الله، والعمل على تحكيم هذا الشرع الحنيف ومناصرة هذا الرسول الخاتم، وإقامة هذا الكتاب الخالد .

رابعاً : الشكر والتقوى أهم معينات الوفاء بالعقود

• قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة : ٧] .

— لم تكتفي سورة (المائدة) ببحث المؤمنين على الوفاء بالعقود ، مع بيان السورة لخطورة نقض هذه العقود ، إنما أرشدتنا سورة (المائدة) لأهم المعينات اللازمة للوفاء بهذه العقود وهي :

١- ذكر نعمة الله عز وجل وشكرها .

٢- تقوى الله وخشيته .

— وقد بدأت الآية السابقة بالتذكير بنعمة الله على المؤمنين، في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وإنزاله إليهم هذا الكتاب الحكيم ، ثم انتهت الآية بالحث على تقوى الله ومراقبته سبحانه وتعالى، العليم بالضمائر والسرائر ومكنونات الصدور..

— هذا وقد اجتمع الأمرين: التذكير بنعمة الله والحث على تقواه في آية واحدة في أول خطاب لبني إسرائيل في القرآن ، قال تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ [البقرة : ٤٠] .

— وقد تناول المقطع الأول من سورة المائدة التذكير بنعم الله عز وجل والحث على تقواه في أكثر من موضع كالتالي :-

(١) ذكر نعمة الله عز وجل وشكرها

— قال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ ، ﴿اليوم أحل لكم الطيبات..﴾ ، ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم

لعلكم تشكرون ﴿﴾ ، واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه... ﴿﴾ ، ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم اذ هم قوم...﴾ .

- وفي هذه الآيات يذكرنا المنان صاحب الفضل والإحسان بما رزق به عباده من الطيبات سواء أكانت طيبات مادية ينعم بها الجسد كالمطاعم من الطيبات الحلال ﴿يستلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات...﴾ ، وهنا كلمة ﴿الطيبات﴾ تشير إلى أن الإسلام لم يمنع عن المسلمين طيباً، ولم يحرم عليهم إلا الخبائث ، ومن الطيبات النكاح الحلال ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة : ٥] ، حيث أباح الإسلام الزواج من نساء أهل الكتاب بشرط الزواج من العفيفات الحررات وبغرض دعوتهم إلى الإسلام.

- ثم تأتي الآيات بالتذكير بالطيبات المعنوية التي تنعم بها الروح كالطهارة والصلاة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ...﴾ والتبشير والسعة في تشريع التيمم في حالات فقدان الماء أو المرض ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة : ٦] .

- إن التناسب بين عرض الآيات لمتاع الطعام والزواج ثم ارتقاءها لمتاع الطهارة والصلاة، لتصل بالعبء المؤمن إلى واجبه في شكر هذه النعم الظاهرة والباطنة وذلك بوفاءه بعهدته مع ربه عز وجل والتفرغ لمهمته ودوره في هذه الحياة وذلك بإقامة هذا الدين الكامل وإقرار هذا الشرع التام أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة المسلمة ، حيث ينطلق العبد المؤمن من تطهر جسده بالوضوء ثم بتطهر روحه بالصلاة ، إلى الوفاء بعهدته وميثاقه ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة : ٧] .

- إن منهج الإسلام اهتم بشدة بأهمية الزاد الروحي والصلة المباشرة بين العبد وربيه في عبادة الصلاة ، والمعينة على القيام بمهمته في الحياة ، لذلك حرص على أدائها مهما كانت الأعذار وحتى لو فقد الماء، (هكذا جاء في الكثير من آيات القرآن الربط بين مهمة المؤمن في حياته، وبين أهمية إقامته للصلاة كما جاء في أواخر سورة (الحج) وأوائل سورة (المؤمنون) .

ومن ميثاق الأمة الذي واثق الله به الأمة المسلمة : القوامة على البشرية بالعدل ، هذا العدل الذي لا يميل ميزانه مع المودة والشننات (البغض) ، ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. [المائدة : ٨] .

• ثم تسكب الآيات نعمة أخرى على المؤمنين، وهي نعمة الطمأنينة والسكينة، حينما يستشعر المؤمنون رعاية الله وكنهه لهم، بكفه الأيدي المبسوطة إليهم بالاعتداء والبطش ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة : ١١] .

• إن تذكير هذا المقطع الأول من السورة بهذا الكم الهائل من النعم العظيمة على هذه الأمة، ليستحي معه المؤمنون ألا يفوا بميثاقهم مع ربهم، وألا يؤديون مهمتهم أفضل أداء، جاحدين بنعم الله أو منكرين لها.

٢) تقوى الله وخشيته

• قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة : ٤]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة : ١١] .

• إن تقوى الله عز وجل هي الوازع الداخلي الذي يحرك المؤمن للالتزام بعهد مع ربه، حيث تعمل تقوى الله على يقظة ضمير العبد دوماً ، فيظل في حالة مراقبة لله عز وجل في كل حركة وسكنه، وفي كل قول وعمل، وفي كل سر وعلائية، حتى في خواطره وسريرته، وكلما كان العبد أتقى لله عز وجل كلما وفي بما عاهد عليه ربه، خشية من مخالفته لربه، ورهبة من عقاب مولاه شديد العقاب.. سريع الحساب، إن من ثمار امتلاء قلب العبد المؤمن بتقوى الله عز وجل : التزامه بحلاله وحرامه خشية أن يتعدى على حدود ربه سبحانه وتعالى التي حدها، ومن ثمار تقوى الله عدم الخوف من أعدائه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة : ٣] .

• إن تقوى الله عز وجل وردت نحو تسعة عشر مرة في سورة (المائدة)، لأنها تمثل الرادع الحقيقي للمؤمن من النكوث في عهده مع ربه عز وجل.

المقطع الثاني (من الآية ١٢ : ٤٠) نقض عهد الله بسبب الخذلان بعد التكريم

- ويشمل المقطع الثاني من سورة المائدة العناصر التالية :
- أولاً : موثيق أهل الكتاب وأسباب اللعن بعد التكريم .
- ثانياً : بيعة العقبة الثانية .. نموذج بيعة إقامة الدين .
- ثالثاً : القرآن حادي هذه الأمة وقائدها الأمين .
- رابعاً : النكوث عن الجهاد ودفع ضريبة الذل .
- خامساً : عصمة الدماء وصيانة الأعراض ومقاصد الشرع

مقدمة المقطع الثاني

- بعد ما حث المقطع الأول من سورة المائدة المؤمنين على الوفاء بعهودهم مع ربهم ، جاء المقطع الثاني من السورة يقدم النموذج السلبي في نقض العهود والمواثيق مع الله ، والذي تمثل في نموذج أهل الكتابين اليهود والنصارى ، لينتبه المؤمنون ويحذروا من الوقوع فيما وقعوا فيه أهل الكتابين قبلهم ، لذا قمنا هنا بعون الله بعرض النموذج الإيجابي في وفاء الأنصار ببيعتهم مع النبي صلي الله عليه وسلم على نصرته ﷺ وعلى إقامة هذا الدين العظيم في الأرض .. ثم يعود هذا المقطع للحديث عن بنى إسرائيل ونكوثهم عن الجهاد في سبيل الله مع رسولهم موسى عليه السلام، وتحاذلهم عن نصرته وإقامة دين الله ، ثم يختتم هذا المقطع من السورة ببيان أنه لا سبيل لعصمة الدماء وصيانة الأعراض وحفظ الأموال إلا بإقامة شرع الله عز وجل .

أولاً : موثيق أهل الكتاب وأسباب اللعن بعد التكريم

- قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ [المائدة : ١٢] .

- يقول ابن كثير في تفسيره : " لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذ عليهم على لسان عبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل ، وذكرهم

نعمه عليهم الظاهرة والباطنة ، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم ، وطردها عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ﴿١﴾ .

— لقد أخذ الله عز وجل عهوداً ومواثيق على بني إسرائيل، تدور جميعها على دعوتهم للإيمان بالله وتوحيده، والإيمان برسله ونصرتهم" . أخذ الله عز وجل منهم ميثاقاً حين رفع جبل الطور فوق رؤوسهم بالتمسك بكتابه والعمل به ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، فخالفوا وحرفوا كتابهم ، ثم أخذ الله عز وجل منهم ميثاقاً بعبادته وحده لا شريك والإحسان إلى الوالدين وبالالتزام بحقوق الأيتام والمساكين، وبأن يقولوا للناس حسناً، وبعبادته سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة : ٨٣] ، فتولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً بكل أوامر الله عز وجل التي أمرهم بها .

وأخذ الله عز وجل منهم عهداً باتباع الرسول ﷺ ، والدخول في الإسلام حين تصلهم رسالته ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ [البقرة: ٤٠] فكفروا به ﷺ وحاربه وعاندوه وهم يعلمون صدق نبوته ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٨٩] .

— ولقد أفردت سورة البقرة عرض هذه المواثيق والعهود ، وأظهرت نقض بنو إسرائيل لكل هذه المواثيق والعهود ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَّذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ١٠٠) ، ثم جاءت سورة (المائدة) تُفصّل في طبيعة الميثاق وملابساته، وأنه يضمن شرطاً وجزاءً ، فلم تعرض نص الميثاق ونتيجة مخالفتهم كما عرضت سورة البقرة، إنما عرضت سورة المائدة

بنود الميثاق تفصيلاً: وعد بالتكريم، شرط حدوث التكريم المطلوب القيام به ، الجزء في حالة الالتزام ، العقوبة في حالة المخالفة ...

وذلك كله يهدف إلى بيان أن عهد الله وميثاقه لا محاباة فيه أو كرامة شخصية منقطعة عن أسبابها وشروطها .. إنما هو عقد فيه الشرط ، وفيه الجزاء ، وفيه العقوبة من البداية ، قبل الاتفاق عليه وتوثيقه ، وهذا شأن كل عهود الله وموآثيقه مع جميع خلقه على السواء بعدالة مطلقة لا تعرف التمييز أو المحاباة.

لقد تناولت سورة المائدة تفصيل بنود الميثاق الذي أخذ مع نقيب بني إسرائيل الأثني عشر، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب عليه السلام ، ميثاق مع النقباء الممثلين عن ورائهم ، وقد ارتضوه جميعاً ، فصار ميثاقاً مع كل فرد، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم، فكلمة "أمة" تعني جماعة من الناس، اجتمعوا في زمان واحد أو مكان واحد على رابطة مشتركة بينهم .. فما هي مكونات هذا العقد الذي ارتضوه جميعاً ؟

(١) وعد بالتكريم : " وقال الله إني معكم " بداية العقد ... وعد عظيم من الله تعالى .. بالمعية أي بالكفاية والضمان والتأييد، ومن كان الله معه ، فلا شيء إذن ضده ، ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود في الحقيقة له ولا أثر.

(٢) الشرط.. إقامة الصلاة: وليس مجرد أداءها .. إقامتها لتكون صلة حقيقية بين العبودية .

- إيتاء الزكاة : أداء حق المجتمع ، اعترافاً بنعمة الله في رزقه .
- الإيمان برسول الله: اتباع ونصرة دون تفرقة بين أحد من رسله، ومن مقتضى ذلك إقامة منهج الله في الأرض وتحقيقه في حياة الناس وحمائته بعد تحقيقه .
- الإنفاق في سبيل الله .

(٣) الجزاء :

- تكفير السيئات : جزاء ضخم رحمة من الله وعفو منه سبحانه .
- جنات تجري من تحتها الأنهار : محض فضل من الله وإحسان منه سبحانه .

(٤) العقوبة: فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل" ... نهاية العقد وعيد شديد بعقوبة أليمة بوضوح وحسم والعقد شريعة المتعاقدين ، فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده ، فلا هدى له بعد ذلك ، ولا أوبة له من الضلال ، لأنه انحرف بعدما تبين له الهدى ، وتحدد معه العقد ، ووضح له الطريق، وتأكد له الجزاء...
وكما بدأ العقد بوعد عظيم بتكريم من الله بمعيته وضمائه انتهى العقد بوعد أليم في حالة المخالفة والانحراف عن الحق والضلال عن سبيل الهدى.

فماذا فعل بنو إسرائيل بعد تسلمهم هذا العقد ؟

نقضوا ميثاقهم مع الله ... لم يعملوا بكتابهم الذي أنزله الله ... قاموا بتحريفه وتأويله وفق أهواءهم ! ... نسوا أوامر دينهم ... أهملوا منهمجهم ولم يستقيموا عليه... هذه هي أسباب اللعن بعد التكريم ﴿ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : ١٣] ، خائنة منهم " يقول عنها الشيخ سيد قطب: " الفعلة الخائنة والنية الخائنة والكلمة الخائنة والنظرة الخائنة... يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة.... " خائنة" لتبقى الخيانة وحدها مجردة ، تملأ الجو ، وتلقى وحدها على القوم ... فهذا هو جوهر جبلتهم ، وهذا هو جوهر موقفهم مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة " (١).

- إن هذه تذكرة للفئة المؤمنة في كل جيل، حتى لا تنزلق مزلق ناكثي العهود، وناقضي العقود ... فالحذر كل الحذر من نقض الميثاق مع الله ... فالغنم بالغرم... إن جزاء قيادة البشرية بمنهج الله إذا استقامت الفئة المؤمنة، وأوفت في ميثاقها .. الجزاء عظيم ... كما أن حالة المخالفة والانحراف تستوجب عقاب شديد وذل وخذلان ... ولا يظلم ربك أحداً .

- وكما نقض بنو إسرائيل ميثاقهم ، نقض النصارى ميثاقهم والذي كان أساسه : توحيد الله ، فَصَلُّوا وَحَرَّفُوا عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ إِلَى التَّثْلِيثِ ، فَأَخَفُوا الْأَسَاسَ الْأَوَّلَ لِلدِّينِ وَهُوَ : التَّوْحِيدُ ، وانحرفوا عن صفة الألوهية وهي : عبودية الله على خلقه أجمعين وقال تعالى ﴿ وَمَنْ الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ [المائدة : ١٤] .

• وهذه هي النماذج السلبية التي نقضت عهودها ومواثيقها مع الله عز وجل

ثانياً : بيعة العقبة الثانية ... نموذج بيعة إقامة الدين

- ونعرض هنا بإذن الله نموذج تطبيق لعقد وميثاق مَثَلٌ : الحلقة الأولى في إقامة الدين ، وتحكيم كتاب الله وقيام دولة الإسلام الأولى ، ونقدم في هذا النموذج التطبيقي : بيعة صدق أصحابها عهدهم مع الله ورسوله ﷺ ، وأوفوا بميثاقهم ، فيصير لدينا النموذج السلبي في نقض العهود والمواثيق لتحذر من أن نخذو حذوه ولدينا النموذج الإيجابي في الوفاء بالعهود والمواثيق لنقتدى به ونقتفي أثره.

- إنها بيعة العقبة الثانية والتي عرفت بـ"بيعة الحرب" والتي سنذكر أوجه التناسب بينها وبين سورة المائدة بعد قليل ...

- روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : قلنا يا رسول الله ، علام نبأيعك؟ قال :

١- على السمع والطاعة في النشاط والكسل .

٢- وعلى النفقة في العسر واليسر .

٣- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤- وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم .

٥- وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم

، ولكم : الجنة . (١)

- وفي رواية كعب بن مالك رضى الله عنه : " قال رسول الله ﷺ : " أبايعكم على أن تمنعوني مما

تمنعون منه نساءكم وأبنائكم" فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق ،

لنمنعك مما تمنع منه أزرنا أي: نساءنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب ، وأبناء

الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا

(١) (رواه أحمد في مسنده (١٤٤٥٦) .

وبين الرجال حبلاً وأنا قاطعوها ﴿ يعنى اليهود ﴾ ، فهل عسييت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : " بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم ^(١) ".
ثم قال الرسول ﷺ : " أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم " فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

توثيق العقد وإقراره :

- قال ابن اسحاق : لما اجتمعوا للبيعة ، قال العباس بن عباد بن نضلة : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وأشرفكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فقالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما بالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال ﷺ : الجنة " .

- وفي رواية جابر قال : فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو من أصغرهم فقال : رويداً يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن اخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة ، فهو أعذر لكم عن الله ، فقالوا : يا أسعد ، أمط عنا يدك ، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نستقبلها أبداً ، قال ، فقمنا إليه... فبسط يده فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة ^(٢) "

- يقول الدكتور منير الغضبان عن هذا العقد وأهميته : " كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التميع والتراخي، فالبيعة على الإسلام شيء، والبيعة على إقامة دولة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٤٢ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١ / ١٩٩) .

الإسلام شيء آخر، وإن الرجال الذين يعدون ليكونوا أفراداً مغمورين في عداد المسلمين شيء والذين يُعدون لتقوم دولة الإسلام بسواعدهم وأرواحهم وأموالهم ودمائهم شيء آخر، ويكفى أنها مضت في التاريخ أن البيعة الخالية من الحرب والجهاد ومنها بيعة العقبة الأولى كانت تسمى "بيعة النساء" ، أما هذه البيعة " فبيعة الحرب " (سماها هكذا الصحابي عبادة بن الصامت)^(١)... وهذا هو خط السير ، فلسنا أحب إلى الله تعالى من رسوله ، ولسنا أكرم على الله من صحابته.

فمن رضيه على هذا الأساس فليتقدم وليبايع ، ومن لم يرض فهو شأنه، ولكن لا غش ولا لبس ولا غموض ... ولقد كانت قيادات الأنصار على مستوى المعركة ، ولم تدغدغ أحلام قواعدها أو تغشهم بل أوقفت البيعة حتى أوضحت خطورة الأمر، وأوضحت تبعاته وبينت مهالكه ومصاعبه.. ونحن الآن في مرحلة المواجهة السافرة مع العدو ، ومع قوى الأرض... فقد تجاوزنا مرحلة الدخول في الجوار " المرحلة المكبية " ، وحتى مرحلة الحماية لدعوة الله، وذخيرتنا هي قاعدتنا الصلبة.. الفئة المؤمنة التي ترضى بالجنة ثمناً لحرب الأحمر والأسود من الناس، ترضى بالجنة ثمناً لمفارقة الناس كافة، تستعد للوفاء بهذه الالتزامات وترضى بالجنة ثمناً وحيداً لها ... إن الوعد الذي قطعه الله تعالى على نفسه لمن وفى بهذه الالتزامات هو الجنة ، وأما النصر فهبة ربانية تأتي في الموعد الذي يختارجل شأنه لدينه " ^(٢).

- فهل وفى أصحاب هذا العقد بميثاقهم بعدما تسلموه ؟

يقول د. علي الصلاحي: " هذه الطليعة هي أقوى طليعة من طلائع أنصار الله، الذين كانوا أعرف الناس بقدر موثوقيتهم وعهودهم ، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية، مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرتة، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها ، ولم يرغب عن

(١) مسند الإمام احمد (٣١٦/٥) ورقمه (٢٢٧٠٠) باسناد صحيح لغيره .

(٢) المنهج الحركي للسيرة النبوية . منير الغضبان . (١٤٦ : ١٥٠) .

أنصار الله قدرها، ووزنها في ميادين الحرب والقتال، فقد شمروا بكل ما يملكون في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عال متكبر في الأرض، حتى يكون الدين كله لله...

- وفي الحقيقة لقد وفي الثلاثة والسبعين الذين حضروا هذه العقد بعهدهم وميثاقهم: فقد حضر غزوة بدر منهم قرابة السبعين، وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة نصفهم، في حين استشهد ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده" (١).

قال تعالى ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٢٢]

والآن بعد عرض جوانب من بيعة العقبة الثانية، نذكر أوجه التناسب بين هذه البيعة وبين سورة المائدة ؟

- إن بيعة العقبة الثانية بين رسول الله ﷺ والأنصار على اتباعه وعلى نصرته ومؤازرته، وعلى التضحية بالأرواح والدماء والأموال لإقامة دين الله في الأرض ، وتحكيم شرعه في الحياة، إن هذه البيعة هي خير نموذج تدعو الوحدة الموضوعية لسورة المائدة المؤمنين في كل جيل لتمثيلها وتطبيقها والالتزام ببندوها والوفاء بشروطها .. فهذا النموذج القدوة في صحابة رسول الله ﷺ .

- أما الحواريون وهم أنصار عيسى عليه السلام وأتباعه فقد تعاهدوا على نصرته ومؤازرته كما رأينا في سورة (آل عمران) حينما أراد منهم رسولهم أن يمنعونه من الذين كفروا به وأن ينصروه، قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٥٣] ، وبعدها أشهدوا الله عز وجل على هذا العهد ، رجعوا كما رأينا في سورة (المائدة) بعدها، يطلبون من رسولهم أن يأتيهم بآية خارقة من عند الله ليصدقوا رسالته ويشهدوا أمام قومهم بذلك !!

- وهذا فارق بين مستويين للفئة المؤمنة المناصرة لدين الله ولرسولها ، بين الالتزام وحسن الوفاء ، وبين التلكؤ والتراجع للوراء..

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث . (٢٩٩ : ٣٠٤) .

- كما أن بعض أوجه التناسب بين مكونات وبنود عقد البيعة الثانية، وبين مكونات وبنود ميثاق بنى إسرائيل الذي ورد في سورة (المائدة) من حيث :-

(١) وضوح شرط العقدين من البداية : فكما ذكرت آيات سورة المائدة في الميثاق الذي أخذ من بنى إسرائيل ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة : ١٢] ، سئل الأنصار في بيعة العقبة الثانية الرسول ﷺ من البداية : علام نبايعك يا رسول الله ﷺ ؟ ، ثم أعاد السؤال بعض الصحابة رضوان الله عليهم بوضوح عن أبعاد وخطورة هذا الميثاق قبل توكيده ، تقديرا لعظم المسؤولية التي يتضمنها، حيث قام كل من أبو الهيثم بن التيهان ، العباس بن عباد بن نضلة وأسعد بن زرارة بمقاطعة إخوانهم من الأنصار قبل إبرام العقد للتأكيد أن هذه الشروط تعنى مواجهة كل قوى الأرض ومصادمة كل الطواغيت من الأحمر والأسود ، واستنزاف الأرواح والأموال ، والحياة الشاقة الجهدية، وهذا طبيعة طريق من يتصدى لقيادة البشرية بمنهج الله إقراراً لألوهية الله في الأرض، وهذه هي حقيقة عظم مسؤولية العهد مع الله، فالأمر واضح أنه: جد خطير وليس بالهزل ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب : ١٥] .

(٢) تشابه بنود العقدين : حول طاعة أوامر الله ورسوله ﷺ ، وعلى النصره والمؤازرة لرسول الله ، وعلى بذل الأموال والنفقة في العسر واليسر .

(٣) الجزاء واحد وهو الجنة وكفى : ولا أية وعود في العقدين بشيء في الحياة الدنيا ، وهكذا تتعلق قلوب الفئة المؤمنة بما هو عند الله في دار كرامته ، وليس في مغنم أو عرض من الدنيا حتى لو كان الثمن هو نصر الدين وهلاك الظالمين .

(٤) وجود اثني عشر نقيباً في العقدين يمثلون من ورائهم : والميثاق معهم بصفتهم كفلاء ومسئولين عن قومهم ، لذلك والله سبحانه وتعالى أعلم ما أبرمه الأنصار مع رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية ، ملزم للفئة المؤمنة في كل زمان .

لفتة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن

بدأ خط المنهج الحركي للقرآن في ترتيبه بأهداف الخطة التي رسمها هذا المنهج ، وهي إنشاء أمة وإقامة دولة وتحكيم كتاب الله وتنظيم مجتمع مسلم صالح طاهر، وذلك في السور الأربع الأولى : (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة) ، وذلك على أساس أفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية، وتلقى منهج الحياة وشريعته ونظامها منه وحده لا شريك له ... ثم مضى المنهج الحركي للقرآن يقدم لنا تفاصيل هذه الخطة المرسومة ، وتعليماتها التي إن تبعها المسلمون في كل زمان والتزموا بها ، تحققت النتائج المرجوة لأهداف هذه الخطة

ولم يكتفى المنهج الحركي للقرآن في عرضه لخطته والتي يدور هدفها الرئيسي والاجمالي حول : " حتى يكون الدين كله لله " ، لم يكتفى هذا المنهج بعرض أهداف هذه الخطة في بدايته ، ثم عرض التعليمات والركائز المطلوبة لتحقيق هذه الأهداف بعدها فحسب، بل جاءت بعض السور تعطي لنا الصورة المثلى لنتائج هذه الخطة.

- فعلى سبيل المثال : تقدم بفضل الله في مقدمة سورة (النساء) عرض التناسب بين السور الثلاث الأولى : (البقرة وآل عمران والنساء) وبين سور : (الحج والمؤمنون والنور) على الترتيب ، حيث ذكر أن تمام الاستجابة لأوامر الله شرط أساسي للنجاح في المهمة التي كلفت بها الأمة المسلمة وجاء بهذا المعنى سورة (البقرة) ، ثم ظهرت نتائج هذه الاستجابة في سورة (الحج) .

- بينما تولت سورة (آل عمران) إعداد الفئة المؤمنة المنوط بها القيام بمهمة الأمة ، ثم جاءت نتائج هذا الإعداد في صفات الفئة المؤمنة التي عرضتها سورة (المؤمنون) بينما قامت سورة (النساء) بعرض ملامح منهج الإسلام في الارتقاء بالمجتمع المسلم من سفح الجاهلية إلى القمة السامقة ، ثم ظهرت سمات هذا المجتمع المسلم الطاهر العفيف في سورة (النور).

- أما سورة (المائدة) والتي عرضت دعوة الفئة المؤمنة للوفاء بعهدتها وميثاقها مع ربها ورسولها ، بنصرة دينها واتباع رسولها وتحكيم شرعها ، ثم جاءت سورة (الأحزاب) لتظهر لنا صورة أولية لوفاء المؤمنين بعهدهم مع ربهم ، واتباعها لرسولهم وتحكيم شرع ربهم ... ثم في مرحلة متقدمة

من عرض المنهج الحركي تجي سورة (الفتح) لتعطي لنا الصور المثلى لوفاء المؤمنين بعهدهم مع ربهم ... وسنقوم بإذن الله بعض التناسب بين سورتي (الأحزاب) و(الفتح) والروابط بينهما مع عرض سورة الأحزاب والله ولى ذلك وهو الموفق اليه .

التناسب بين سورتي (المائدة) و(الأحزاب)

(١) أداء الرسل لأمانة إبلاغ رسالة هذا الدين : قال تعالى في سورة المائدة ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة : ٩٩] ، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة : ٩٢] ، وجاء في سورة الأحزاب قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب : ٧] وهذا العهد والميثاق الذي أخذ على الرسل بإبلاغ رسالة ربهم، وإقامة دينه سبحانه وتعالى ، أخذ عليهم بعد إرسائهم ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة : ٦٧] .. وقد أقرت آية اكتمال الدين أن رسولنا ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

(٢) وجوب اتباع الرسل عليهم السلام ونصرتهم ومؤازرتهم في إبلاغ رسالة هذا الدين: أخذت اليهود والمواثيق على ذلك ، قال تعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة : ١٢] ، و﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة : ١١١] ، وقال تعالى في سورة [الأحزاب) ﴿لَيْسَ السَّالِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٨] قال ابن كثير " ليسئل المبلغيين المؤديين عن الرسل"^(١) . وفي نصرة الرسل واتباعهم قال تعالى ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ٢٩ / ٣

٣) فضل الله على المؤمنين في كفه أيدي أعداءهم : قال تعالى في سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة : ١١] ، وفي سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٤) وجوب التحاكم إلى شرع الله وكتابة وفاءً بعهدته واتباعاً لرسوله: قال تعالى في سورة المائدة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَجْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ (المائدة: ٤٤) ، ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] ، ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة : ٤٨] .

٥- ثم تحجى سورة (الأحزاب) لتظهر لنا عن صدق المؤمنين في عهدهم مع الله عز وجل ووفاءهم بنصرتهم لله ورسوله ، وتحاكمهم لشرع الله وانقيادهم وتسليمهم له استجابة ونتيجة لما دعوتهم إليه سورة (المائدة) في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة : ٧]

فجاءت مؤشرات ونتائج التربية على هذا المنهج القرآني في قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣ . ٢٤] ، وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

هذه بعض أوجه التناسب بين سورتي (المائدة) و(الأحزاب) والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثالثاً: القرآن حادي هذه الأمة وقائدها الأمين

• قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة : ١٥] -

- يقول ابن كثير في تفسيره لهذه هذه الآية : " أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴿١﴾ أي : يهدي إلى طرق النجاة والسلامة مناهج الاستقامة ﴿١﴾ ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿١﴾ أي : ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم آيين المسالك، فيصرف عنهم الخدور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم لأقوم حالة " (١) .

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن حقيقة القرآن وطبيعة دوره ووظيفته: " هذا القرآن نور حقيقة يجدها المؤمن في قلبه ، نور تشرق به كينونته فتكشف وتخف وترف ، ويشرق به كل شيء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم .

● ثقلة الطين في كيانه وظلمة التراب ... وكثافة اللحم والدم ... وعرامة الشهوة والنزوة ... كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى ، حيث : تخف الثقلة ، وتشرق الظلمة ، وترق الكثافة ، وترف العرامة .

● واللبس والغبش في الرؤية ، والتأرجح والتردد في الخطوة ، والحيرة والشروذ في الاتجاه والطريق البهيم الذي لا معالم فيه ... كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى .. يتضح الهدف ويستقيم الطريق إليه وتستقيم النفس على الطريق " (٢) .

● إن حقيقة القرآن أنه حادي هذه الأمة وقائدها الأمين ، فوظيفته هو هداية هذه الأمة إلى صراط الله المستقيم ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠) .

● إن حقيقة الذين يعيشون في ظلمات وتية وحيرة ، أنهم لم يقرؤوا القرآن ، ولو قرؤه ما فقهوه ، ولو استمعوا إليه ما فهموه ...

● هذا القرآن لا يزال يؤدي دوره ووظيفته ما دامت الأمة المسلمة ، تنصبه قائداً لها ودليلاً في طريقها... .

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ١ / ٥٧٦ .

(٢) في ظلال القرآن . ٣ / ٨٦١ .

- إن الفئنة المؤمنة التي تتعلم كتاب الله وتعمل به تغلب ولا تغلب ، لأنها ستتحرك في طريقها وهي تتلقى توجيهات القرآن وتقريراته... لأنها ستخوض معركتها مع أعداءها وفق الإرشادات الربانية التي وضعها سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.
- وهذه الأمة المسلمة لم ينال منها أعداؤها إلا حينما اتخذت هذا القرآن مهجوراً، حين جعلته تراتيل وترانيم وبركة وتعاويد....

رابعاً : النكوث عن الجهاد ودفع ضريبة الذل

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة : ٢٠ - ٢١].

- هذه هي المحطة الأخيرة لنبى الله موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل، بعد طريق طويل من نقض للعهود، وتخلي عن المواثيق، وكفران بنعم الله، طريق اعتاد فيه بنو إسرائيل حياة الذل والاستضعاف، نتيجة لسنوات الذل والقهر التي عاشوها على يد فرعون مصر، فأبت فطرتهم حياة العزة والخلاص، حتى بعد خروجهم من مصر بعد هلاك الله لفرعون وجنده، وتفجرت لهم من الصخر ينابيع ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً سائغاً، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا عليه من أطعمة مصر . أرض الذل بالنسبة لهم . فيطلبون أكل بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، ولا يصبرون عما ألقوا من طعام وحياة في سبيل العزة والخلاص....
- وتبدأ هذه المحطة الأخيرة بالتذكير بنعم الله عليهم ، تلك النعم الربانية الضخمة التي يستحي معها العبد أن ينتكس عن أوامر الله، نعمة أنهم سلالة أنبياء، فلم تنقطع فيهم النبوة من يعقوب أبيهم حتى ختموا بعيسى ابن مريم عليهم السلام أجمعين.
- نعمة أن جعلهم الله ملوكاً، ونعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بنى آدم ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية : ١٦].

- وبعد تذكير نبي الله موسى بنعم الله عليهم ، قام يحثهم على الوفاء بعهد الله عز وجل في دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم بعهد منه سبحانه وتعالى، تلك الأرض المقدسة التي كانت بأيديهم في زمان أبيهم إسرائيل عليه السلام، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا بمصر حتى خرجوا مع موسى عليه السلام منها في طريقهم إلى بيت المقدس....

- فأمرهم نبيهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، وقتال أعدائهم من العمالقة الجبارين الذين استحوذوا عليها وتملكوها وبشرهم نبيهم بالنصرة والظفر عليهم ، أمرهم بالجهاد في سبيل الله تلك السنة التي فرضت على بني إسرائيل في التوراة، وفرضت على أمة الإسلام في القرآن، فصارت سنة التدافع هي السبيل للخلاص من الجبارين، في كل عصر وحين ، منذ موسى عليه السلام إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

• وقد جاءت في سورة البقرة قصة جهاد بني إسرائيل مع ملكهم طالوت ، وجاءت هنا في سورة المائدة قصة نكوث بني إسرائيل عن الجهاد مع نبيهم موسى عليه السلام ، فما التناسب في ذلك ؟

- جهاد بنو إسرائيل مع طالوت في سورة البقرة ، انتهى بقتل داود لجالوت وإقامة دولة إسرائيل الكبرى، كما انتهت الآيات فيها بإقرار سنة التدافع لإقامة الحق ودفع الفساد ، فأعطت الآيات بذلك نموذج بيان الحق في طريقة إقرار منهج الله في الأرض، وهو ما يتناسب مع موضوع سورة (البقرة) في عرضها للحق ودعوتها للاهتمام إليه ..

- بينما جاء نكوث بني إسرائيل عن عهدها مع ربها، وعدم وفائهم بتكاليف الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى لدخول الأرض المقدسة التي وعدهم الله عز وجل بدخولها، مناسباً لموضوع سورة (المائدة) في حثها للأمة للوفاء بعهدها مع ربها، وتحذير الفئة المؤمنة من انتكاسها عن طريق الجهاد لإقرار منهج الله في الأرض الذي تبين في سورة (البقرة).

– ونعود إلى ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم عليه السلام رداً على دعوتهم للجهاد لدخول الأرض المقدسة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة : ٢٢] .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذا الرد: " بنوا إسرائيل .. هم بنو إسرائيل !! الجبن والتمحل والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق ... وعدهم الله بأنهم أصحاب هذه الأرض، ورغم ذلك يريدون نصراً رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى! ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها اليهود ! وهي فارغة القلوب من الإيمان ! " (١)

– وهنا تبرز قيمة الإيمان بالله والامتنان لنعمة وأثر الخوف منه وتقواه ، قال تعالى ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣]

– يقول ابن كثير : " فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى عليه السلام حرّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة وهما ممن يخافا أمر الله ويخشى عقابه ، فقالوا لقومهم : متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيديكم وأظفركم عليهم " (٢) .

– إن الذين يريدون نصراً بلا شوكة مع اعترافهم بما .. يريدون نصراً بلا سنة التدافع مع إقرارهم بما ، يعملون حساب موازين القوى لأعدائهم وفقاً للحسابات المادية فقط (قالوا إن فيها قوماً جبارين) مهملين حقيقة التوكل على الله عز وجل وأنه الكفة المرجحة لهذه الأمة المسلمة في معركتها مع أعداء الله أعداء هذا الدين.

– أمتنا لن تغلب أعداءها بالإمكانات المادية ، بالرغم من ضرورة تملكها لأقصى ما تستطيع من الأسباب والعدة والعتاد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠) ،

(١) في ظلال القرآن . ٣ / ٨٧٠ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٥٨١/١ .

ثم ستظل هناك فوارق في الأسباب المادية بين أمتنا وبين أعدائها ، لصالح الباطل هكذا ارتضت سنة الله في الدعوات...

والذي يجبر هذا الفارق السببي هو حسن الاعتصام بالله والتوكل عليه، وهذه خاصية ثابتة في الصراع بين الحق والباطل..

- وهذا المعنى ستقوم بغرسه سورة (يونس) بعد سورة (التوبة) من ضرورة حسن الاعتصام بالله والتوكل عليه كركيزة أساسية للجهاد في سبيل الله.
- وهكذا يعلن بنو إسرائيل في وقاحة العاجز وسوء الأدب مع الله ورسوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ "فاذهب أنت وربك" ... فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال .. هكذا يتبجحون ...
- "إنا هنا قاعدون" لا نريد ملكاً ، لا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد... ودونها لقاء الجبارين! .
- وهذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام مع قومه الذين نكثوا عن الجهاد ، ونكصوا عن الأرض المقدسة وهو معهم على أبوابها ، نكولاً عن ميثاق الله عز وجل .. فماذا هو جزاء نقضهم وتحاذلهم وخيانتهم؟؟ .

- توجه نبى الله في أدب العبد مع ربه يتبرؤ من قومه ، فما عاد يربطه بهم رباط بعد نقضهم ميثاق الله .. فلا بد من الفرز والحسم والمفاصلة .. يتوجه عبد الله ونبيه موسى عليه السلام إلى الله يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة : ٢٥] .
- فاستجاب الله لنبيه وقضى بالجزء العادل على الفاسقين.. قال تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة : ٢٦) .
- وهكذا لا بد أن يحرم هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستبعاد والطغيان، فلم يعد يصلح للأمر الجليل .. أمر إقامة هذا الدين.. لا بد أن تنبت نابتة جديدة ... لا بد من جيل غير هذا الجيل الذي جبلت فطرته على الاستضعاف والاضطهاد ... لا بد من جيل آخر يعتبر بالدرس ويصلب عوده وهو يتربي على العزة والخلاص..

- واستمع لهذه الكلمات الخالدة عن ضريبة الذل وضريبة الكرامة للشيخ سيد قطب رحمه الله :

" بعض النفوس الضعيفة يخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق فتختار الذل والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقيل، فتعيش عيشة تافهة رخيصة قلقة تخاف من ظلها، يخشون أن تصيبهم دائرة يحسبون كل صيحة عليهم ولتجدتهم أحرص الناس على حياة ..

هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة يؤدونها من نفوسهم ويؤدونها من أقدارهم، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون..

كم من رجل كان يملك أن يكون شريفاً وأن يكون كريماً وأن يصون أمانة الله بين يديه ويحافظ على كرامة الحق، وكان في موقفه هذا مرهون الجانب لا يملك له أحد شيئاً ، فلما أن خان الأمانة التي بين يديه وضعف عن تكاليف الكرامة وتجرد من عزة الحق، هان على الذين كانوا يهابونه ، وذل عند من كانوا يرهبون الحق الذي هو حارسه، ورخص عند من كانوا يحاولون شراؤه، رخص حتى ركلته الأقدام ، أقدام الذين كانوا يعدونه ويمنونونه يوم كان له من الحق جاه ، ومن الكرامة هيبة ومن الأمانة ملاذ..

كثير هم الذين يهونون من القمة إلى السفح لا يرحمهم أحد ولا يترحم عليهم أحد، ولا يسير في جنازتهم أحد، هووا من قمة الكرامة إلى سفوح الذل ، ومن عزة الحق إلى مهاوى الضلال، ومع تكاثر العظاات والتجارب، فإننا ما نزال نشهد في كل يوم ضحية تؤدي ضريبة الذل كاملة...

وهم في وسعهم أن يكونوا أحراراً، ولكنهم يختارون العبودية، وفي طاقتهم أن يكونوا أقوياء، ولكنهم يختارون التخاذل، في إمكانهم أن يكونوا مرهوي الجانب ولكن يختارون الجبن والمهانة ..شاهدتم يهربون من العزة كي لا تكلفهم درهماً ، وهم يؤدون للذل ديناراً أو قنطاراً.

إنه لا بد من ضريبة يؤديها الأفراد ، وتؤديها الجماعات وتؤديها الشعوب، فإما أن تؤدي هذه الضريبة للعزة والكرامة والحرية ، وإما أن تؤدي للذلة والمهانة والعبودية! والتجارب كلها تنطق بهذه الحقيقة التي لا مفر منها ولا فكاك... فعبر التاريخ وعبر الواقع القريب تشهد التجارب:

أن ضريبة الذل أفدح من ضريبة الكرامة ..

وأن تكاليف الحرية أقل من تكاليف العبودية...

وأن الذين يستعدون للموت توهب لهم الحياة...

وأن الذين لا يخشون الفقر يرزقون الكفاية...

وأن الذين لا يرهبون الجاه والسلطان يرهبهم الجاه والسلطان " (١).

خامساً : عصمة الدماء وصيانة الأعراس من مقاصد الشرع

- ليس معنى حصّ الإسلام المؤمنين على الجهاد في سبيل الله لتحرير الانسانية من ربة وذل العبودية لغير الله ، ولدفع الجبارين المتسلطين على رقاب العباد، ليس معنى هذا أن الإسلام دين الحروب، ولكن الإسلام دين يبث السلام الحقيقي في الأرض ، السلام الذي يحدث في ظل الاستسلام لرب الكون والحياة... الأمن والطمأنينة التي تنتج في ظل منهج الله ونظامه وشريعته ... إنه السلام الذي يسكبه هذا الدين في الحياة كلها ... سلام الفرد ... سلام البيت والأسرة .. سلام المجتمع والأمة... سلام البشر والانسانية... السلام الذي لم ولن تجده البشرية إلا في ظل هذا الدين وفي ظل هذا المنهج وفي ظل هذه الشريعة.

حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضيه من يتبع رضوان الله ومنهجه سبل السلام ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة : ١٥ . ١٦]

والجاهلية هي التي تمهدي إلى الحروب والحراب والدمار، واعتداء الأقوياء على الضعفاء..

الجاهلية هي سفك الدماء واستباحة الأعراس والفساد في الأرض..

وإن إقامة شرع الله عز وجل هي السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحرابها المشبوبة وبعيها وظلمها. . وإليك نموذج من نماذج الجاهلية في بعياها الصارخ: قال تعالى ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٧) ﴿لَنْ بَسَطَتِ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة : ٢٧ - ٢٨] .

(١) من مقالة ضريبة الذل للشيخ سيد قطب.

- يقول ابن كثير في تفسيره : " يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه - في قول الجمهور - كيف اعتدى أحدهما على الآخر فقتله ، بغيا عليه وحسداً له ، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول بترك الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة" (١) ، وأي خسارة أعظم من هذه؟ .

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تُقتل نفس ظلماً ، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سنَّ القتل" (٢) .

وردت هذه القصة في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور ، ولكن لم تثبت السنة أن اسمهما : قابيل وهابيل ، إنما نقل عن أهل الكتاب فلا تجزم به ولا نرجحه، ونجد مجي هذه القصة جاءت بعد عرض الآيات لنكوث بني إسرائيل عن الجهاد في سبيل الله ودخول الأرض المقدسة، ثم يأتي بعد هذه القصة أحكام وتشريعات فرضها الإسلام وهي حد الحراة وحد السرقة... فما هو التناسب بين هذه الآيات التي تلتحم فيها النكوث عن قتال الجبارين، مع جريمة القتل الأولى في البشرية ثم مع الأحكام التالية لها في السياق القرآني ؟ إن حكمة التناسب بينهم هي والله أعلم:

١- التأكيد أن الجهاد لم يشرع لسفك الدماء ، بل شرع لمواجهة الشر والعدوان.

٢- طبيعة الجريمة وبواعثها في النفس البشرية يحتاج لوجود رادع لها .

٣- الرادع داخلي وهو : الخوف من الله وتقواه، وخارجي وهو : شريعة نافذة من الله.

٤- الشريعة النافذة تقدر العقوبة المكافئة للجريمة الزاجرة للجاني والرادعة لمن تسول له نفسه أن يجذو حذوه من المجتمع.

٥- الشريعة ليست مجرد حدود وتعزيزات ولكنها سبيل لإقامة مجتمع صالح وحمائته من صور الفساد والانحلال قال تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ١ / ٥٨٣

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٦٣٠) وفي البخاري (٢٦٢ / ٦) .

أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة... ﴿ [المائدة: ٣٣] .

- هذه الآية تشريع لحد الحراية وهو العقوبة المقررة في شرع الله جزاءً على جريمة ترويع الأمنين في دار الإسلام، والاعتداء على أرواحهم وأموالهم وحرماقتهم، خروجاً على الحاكم المسلم الذي يحكم بشريعة الله.

- وحد الحراية شرعاً ضمن منظومة تهدف حماية النفس والحياة في المجتمع المسلم المحكوم بمنهج الله ، والصورة الذهنية في عقول معظم الناس عامة بل غالبية المسلمين أنفسهم أن الشريعة عبارة عن قطع يد السارق ورجم الزاني وجلد شارب الخمر، على الرغم من أن الحدود لا تتجاوز (٣٠) آية فقط في كتاب الله، تدخل جميعها في نطاق " قانون العقوبات - باب الجنايات" ، وهدفها هو حفظ مقاصد الشرع التالية:

(١) حفظ الدين : شرع حد الردة

(٢) حفظ النفس : شرع حد القصاص/ وحد الحراية.

(٣) حفظ المال : شرع حد السرقة/ وحد الحراية

(٤) حفظ النسل(العرض) : شرع حد الزنا/ وحد القذف .

(٥) حفظ العقل : شرع حد شارب الخمر.

- وحد الحراية يقرر أربع عقوبات مرتبة على حسب الجناية التي وقعت وفقاً لمذهب الأئمة أبي حنيفة والشافعي وأحمد وهي:

(١) من قتل ولم يأخذ مالاً : قُتِل .

(٢) من أخذ المال ولم يقتل : قطعت يده اليمنى مع رجله اليسرى.

(٣) من قتل وأخذ المال: قُتِل وصلب .

(٤) من أخاف السبيل ولكنه لم يقتل ولم يأخذ مالاً : نفى من البلاد إلى مكان ناء يحس فيه بالغبية والتشريد والضعف جزاء ما شرد الناس وخوفهم وطغى بقوته عليهم .

وهكذا فإن العقوبة مغلظة طبقاً لبشاعة الجريمة ردعاً وزجراً للجاني، وحماية للمجتمع المسلم كي يعيش آمناً في سلام وطمأنينة في ظل نظام الشريعة العادل الكامل.

- ولأن الهدف الأول للمنهج هو تقويم النفس البشرية وكفها عن الانحراف، والعقوبة وسيلة من الوسائل الكثيرة.. وليست العقوبة غاية، كما أنها ليست الوحيدة .

فتقوم الآيات بفتح باب التوبة لمن أراد أن يرجع إلى الله ويستقيم في طريقه قبل أن تناله يد السلطان ، قال تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٤] .

- ثم أن المنهج الرباني لا يأخذ الناس بالقانون وحده ليردعهم ، بل يقوم بإيقاظ الضمير ، وتربية القلب ، وذلك بالدعوة إلى تقوى الله وخشيته والخوف من عقابه في الآخرة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥] .

• وفي نهاية هذا المقطع تستعرض الآيات حكم السرقة في قوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨) .

- الإسلام نظام متكامل يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة ، ولا يستطيع أحد فهم حكمة العقوبة الجنائية إلا بعد نظره في طبيعة المنهج وأصوله ومبادئه كاملة ، حتى لا يجتزء الحدود من موضعها في الشريعة الإسلامية، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله حول حد السرقة في النظام الإسلامي: " إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد في المجتمع المسلم في دار الإسلام، في الحياة ، وحقه في كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة.. من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يؤويه، يجد فيه السكن والراحة، ومن حق كل فرد لكي يحصل على هذه الضروريات أن تيسر له الدولة العمل، وأداة العمل، فإذا كان كسبه من عمله لا يكفي لضرورياته. فله الحق في استكمالها من أولاً: النفقة التي تفرض له شرعاً على القادرين في أسرته، وثانياً : على القادرين من أهل محلته ، وثالثاً: من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له في الزكاة.

- والإسلام كذلك يتشدد في تحديد وسائل جمع المال، فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال، ومن ثم لا تثير الملكية الفردية في المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون، ولا تثير أطماعهم في سلب ما في أيدي الآخرين، وبخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية، ولا يدهم محرومين.

وإذن فلماذا يسرق السارق في ظل هذا النظام؟

- إنه لا يسرق لسد حاجة. إنما يسرق للطمع في الثراء من غير طريق العمل... وإنه لمن حق كل فرد في مثل هذا المجتمع، كسب ماله من حلال، لا من ربا، ولا من غش، ولا من احتكار، ثم أخرج زكاته، من حق كل فرد في مثل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاص، وألا يباح هذا المال للسرقات" (١).

- وأما حين توجد شبهة من حاجة أو جوع أو غيرها، فالمبدأ العام هو درء الحدود بالشبهات، وهذا هو فهم الحدود في الإسلام في ظل نظامه المتكامل.

أما شروط إقامة حد السرقة فهي : أخذ مال الغير، المحرز، خفية، مالا مقوماً، بلغ النصاب ما يعادل ربع دينار ذهب فلا قطع إذن للمؤمن أو الخادم على مال إذا سرقه لأنه ليس محرزاً منه، فلا بد أن يكون المال محرز للغير ثم يخرج به عن حرزه.

- والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ، فإذا عاد كان القطع في الرجل اليسرى إلى الكعب ، وحكمة ذلك هي والله أعلم : أن اليد والرجل كانت أداة العمل ، فقطع إحدهما أو كلاهما يؤدي إلى نقص الكسب، ونقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور، فيرتدع السارق عن جرمته بخوفه على مستقبله إذا عوقب بشرع الله الذي قرر العقوبة الأنسب لجنس الجنابة ﴿ نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾.

فهو سلطان واحد ... سلطان الملك الذي يصدر عنه التشريع في الدنيا ، ويصدر عنه الجزاء في الآخرة، ولا تعدد ولا انقسام ولا انفصام... فلا يصلح أمر الناس إلا حين تتوحد سلطة التشريع وسلطة الجزاء في الدنيا والآخرة على السواء ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ٤٠]

(١) في ظلال القرآن . ٣ / ٨٨٣ .

فلا غناء للبشرية أبداً عن شرع الله، وتحكيمه في الحياة.

المقطع الثالث (من الآية ٤١ : ٥٠) تحكيم شرع الله وإقامته في الحياة

نتناول في هذا المقطع الأبرز من سورة المائدة العناصر التالية:

أولاً : مفهوم الشريعة" ومدلول الحاكمية" في الإسلام .

مقصد معرفة الله عز وجل : تعرف على اسم الله (الحَكَمُ) .

ثانياً : كيف حل القانون الوضعي بديلاً عن شرع الله؟

وفيه : - وظيفة القانون وأصوله .

- كيفية تنحية الشريعة " نبذة تاريخية"

- الدستور .. يأسق العصر الحديث.

- القوانين الوضعية تحل ما حرم الله.

ثالثاً : الشريعة وفقه التطبيق.

رابعاً : من لم يحكم بما أنزل الله ... شبهات وردود .

مقدمة المقطع الثالث:

- هذا المقطع عشر آيات فقط ولكنه المقطع الأبرز في سورة " المائدة" بل المقطع الأبرز في الأربع

سور الأوائل من القرآن: (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة) ..

وذلك لأن هذا المقطع على قلة آياته ، يعالج أخطر قضية في قضايا العقيدة الإسلامية والمنهج

الإسلامي ، ونظام الحكم و الحياة في الإسلام ..

قضية عولجت في سورتي (آل عمران والنساء) من قبل، ويقوم القرآن كله بتبيينها ، ولكنها تُعرض

في هذا المقطع بحسم ومفاصلة، وبألفاظ واضحة وعبارات بارزة ، يدل عليها النص بوضوح وسهولة

وليس بإيجاء النص أو تأويله...

إنها قضية : " الحكم والشريعة والتفاضل" حسب موثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها

اصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى... في التوراة والإنجيل والقرآن، وكتبها على الرسل،

وعلى من يتولون الأمر من بعدهم ليسيروا على هداهم... يجيب هذا المقطع من سورة(المائدة) على

سؤال: أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله؟

** إنما قضية الإقرار بالوهمية الله وربوبيته وقوامته على البشر بلا شريك أو رفض هذا الإقرار ... ومن هنا فالقضية جد خطيرة، وهي قضية كفر أو إيمان ، وجاهلية أو إسلام فيلى عناصر المقطع بعون الله وتوفيقه ..

أولاً : مفهوم " الشريعة " ومدلول " الحاكمية " في الإسلام

قال تعالى ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة : ٤٨] .

- الشريعة لغة : هي مورد الشاربة الماء، وشرعت الدواب في الماء أي : دخلت فيه، واشتق من ذلك الشرعة في الدين والشريعة، قال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨].

- الشريعة اصطلاحاً : هي " النظم والأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة لتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة".

لذلك كانت الغاية من تشريع الله استقامة الإنسان على الجادة لينال عز الدنيا وسعادة الآخرة.

- إذن مفهوم " الشريعة " في الإسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية، ولا حتى في أصول الحكم ونظامه وأوضاعه، هذا المفهوم الضيق لا يمثل مدلول " الشريعة " في التصور الإسلامي.

- إن شريعة الله هي كل الأحكام الواردة بالقرآن والسنة في الأبواب الآتية:

(١) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. ويسمى هذا الباب بـ "

العقائد

(٢) الأحكام المتعلقة بصلة العبد بربه في عبادته لله وحده، وتشمل : الصلاة والزكاة والصوم والحج، وما يتعلق بها من شروط وأركان وواجبات، ومندوبات ، ويسمى هذا الباب بـ " العبادات " .

(٣) الأحكام المتعلقة بنظام الأسرة وحياة البيت ، وتتناول : النكاح ، والصدقات، والخلع والطلاق، والموارث، وكل ما يتعلق بها، ويسمى هذا الباب بـ " الأحوال الشخصية " .

٤) الأحكام المتعلقة بتعامل الناس بعضهم مع بعض ، كالبيع والوصية والقرض ، والدين والرهن والابحار ، والوكالة ، والشركة ، والمعاملات الاقتصادية والشهادة في السفر، ويسمى هذا الباب بـ " المعاملات "

٥) الأحكام المتعلقة بنظام الحكم وسياسة الوالي مع الرعية ، وحقوق كل منهما وواجباته ، كالامامة والولاية والقضاء، ونحو ذلك ، ويسمى هذا الباب بـ " السياسة الشرعية "

٦) الأحكام المتعلقة بالتشريعات القانونية لمؤاخدة الجناة والمجرمين، وتناول : القصاص ، والديات ، والحدود ، والتعزيرات، ويسمى هذا الباب بـ " العقوبات " .

٧) الأحكام المتعلقة بصله الدولة الإسلامية بغيرها في السلم والحرب، والهدنة والقتال والغنائم، ويسمى هذا الباب بـ " الحقوق الدولية " .

٨) الأحكام المتعلقة بالأخلاق والآداب الاجتماعية ، كالأستئذان، وقواعد السلوك ، وآداب المجلس والزيارة، والقيم والموازين التي ينبغي أن تسود المجتمع كالصدق والأمانة والحياء والتعاون، ويسمى هذا الباب بـ " الأخلاق والسلوك "

٩) الأحكام المتعلقة بالطعام والشراب واللباس والذبايح ، والحلال والحرام في ذلك ، وأحكام الصيد .

— وهذه الأحكام لفروع الحياة الانسانية بكافة صورها، تمثل وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة، هذه الوحدة المتكاملة هي " الدين " ولا بد في هذا كله من التلقي عن الله وهذا هو " الإسلام " ، التلقي عن الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد، فهو سبحانه وتعالى وحده هو المشرع ، وأحكامه هي التي تسمى " الشريعة " ^(١) .

— وهذه الشريعة صالحة لكل زمان ، بمبادئ كلية وقواعد أساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان، كما تشمل الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان ...

مدلول " الحاكمية " في الإسلام

(١) الشريعة الإسلامية وفقه التطبيق . أبو الحسن البليدي ، ٨ ، ٩ .

لذلك فالحاكمية هي : "التحاكم إلى النظم والأحكام التي شرعها الله لعباده في كافة شئون الحياة في المعاملات، والأحوال الشخصية، والسياسة الشرعية، والشرائع القانونية، والحقوق الدولية، حتى قواعد الآداب والسلوك، وأحكام الطعام والشراب، والملبس والذبائح والصيد، كما يتم التلقي من الأحكام التي شرعها الله في الصلاة والصيام والحج والزكاة سواءً بسواء".

وليست " الحاكمية" تكون بتلقي باب " العقوبات" فقط من شريعة الله، بل تكون بتلقي كل شريعة الله ، والحكم بما دون سواها ... فكما أن شريعة الله تشمل كل جوانب الحياة، إذن لا بد أن يكون التحاكم إليها في كل جوانب الحياة.

الحاكمية وشهادة التوحيد

- شهادة التوحيد (أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) تشتمل على شطرين، لكل منهما مدلول كالتالي:.

شطر (لا إله إلا الله): مدلوله العبودية المطلقة لله وحده، فلا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له.
شطر (محمد رسول الله) : مدلوله التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ ، فلا يعبد الله عز وجل إلا بما جاء به رسول الله ﷺ وشرع.

- وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواءً بسواء.

• ويكون التلقي عن رسول الله ﷺ في التصور الاعتقادي وفي الشعائر التعبدية وفي الشرائع القانونية هو مدلول التحاكم إلى شرع الله الذي بلغه لنا رسول الله ﷺ ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء : ١٠٥]

• وحيث أن العبودية لا تكون لغيره من خلقه سبحانه وتعالى ، فإن " الحاكمية " لا تكون لأحد من عباده سبحانه وتعالى ، هذا هو مقتضى " شهادة التوحيد " بشرطها.. على السواء، لذلك فالذي يقوم بتأليه غير الله ... أو يقوم بتقديم الشعائر التعبدية لألهة ومعبودات يعتقد بألوهيتها، مثله كمن يقبل لبشر أن يشرعون له من دون الله.. أو يتحاكم لغير ما أنزل الله فهذه كمنك

كلاهما : خروج من توحيد الله وإفراده بالألوهية .. وخروج من شهادة : (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) .

• وقد جُمع هذا المعنى بشطريه في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

• وهذا الخطاب في أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن جرى مجراهم واتبع سننهم شبر بشبر، وذراع بذراع .. خطاب يدعو الجميع إلى كلمة التوحيد بشطريها:

• " ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً " .

• ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله " .

فمن يتولى عن هذه الدعوة بشطريها فأشهدهم أننا مستقيمون على الإسلام الذي شرعه الله لنا .
- وجاء شطري التوحيد أيضاً في قوله تعالى ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٤٠] .

← شطر : أن الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

← شطر : إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والإخلاص ﴿أمر لا تعبدوا إلا إياه﴾

وكلا الشطرين : دين الله وتوحيده " ذلك الدين القيم" الدين الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان ، ذلك الدين المستقيم الذي يحبه الله ويرضاه..

يقول الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان : " الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ فِي حُكْمِهِ، وَالِإِشْرَاقُ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ كُلِّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا الْبَتَّةَ، فَالَّذِي يَتَّبِعُ نِظَامًا غَيْرَ نِظَامِ اللَّهِ، وَتَشْرِيْعًا غَيْرَ تَشْرِيْعِ اللَّهِ ، كَالَّذِي يَعْبُدُ الصَّنَمَ وَيَسْجُدُ لِلْوَتَنِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا الْبَتَّةَ، بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِهِ ، فَهُمَا وَاحِدٌ، وَكِلَاهُمَا مُشْرِكٌ بِاللَّهِ" (١) .

لذلك جاءت سورة (المائدة) بعرض نموذجين كلاهما أشرك في توحيد الله عز وجل:

(١) أضواء البيان . الشنقيطي . ٧ / ١٦٢ .

← النصارى : في تأليهم ليعسى ابن مريم عليه السلام واتخاذهم معبوداً لهم من دون الله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة : ٧٢] .

← اليهود: في تحاكمهم إلى غير كتاب الله ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣] ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] .
قصد معرفة الله عز وجل : اسم الله (الحكم)

يقول الله عز وجل في أول آية من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] .

- يقول ابن عثيمين في تفسيره: لما ذكر الله عز وجل الإحلال والتحريم في أول الآية، جاء كالتعليل لها بقوله ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ فلا راد لحكمه إن شاء حلل هذا وحرم هذا، وإن شاء أوجب هذا ورخص في هذا ، وكذلك أيضاً إن شاء حكم على عباده بالغنى والأمن، وإن شاء حكم بصد ذلك ، وهذا الحكم يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، فالأحكام الشرعية والكونية كلها بإرادة الله عز وجل ، وقوله : ﴿ما يريد﴾ المقصود هنا بالإرادة هي الإرادتين الكونية والشرعية ، والفرق بينهما أن الإرادة الكونية بمعنى: " المشيئة" وهي تتعلق بما يحبه الله وما لا يحبه ، ويقع فيها ما أراد بكل حال.

أما الإرادة الشرعية بمعنى : " المحبة" وتتعلق فيما يحبه الله فقط، وقد يقع فيها المراد وقد لا يقع^(١) .
- إذن في هذه الآية الكريمة إثبات الحكم لله، وإثبات الإرادة لله، في قوله : ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ والعلاقة بين الحكم والإرادة هي أن كل الأحكام الشرعية والكونية كلها بإرادة الله ، فلا يعترض أحد على حكم الله عز وجل ، الكفر إرادة كونية، لأن الله لا يريد الكفر شرعاً ولا

(١) التفسير الثمين . ابن عثيمين . تفسير سورة المائدة . ص ٩ .

- يرضى لعباده الكفر، ولكن قد يريد له حكمه بالغة ، وكل ما يقع فهو مراد كوناً طبقاً للمشئنة الإلهية المطلقة، ولكن الإرادة الشرعية لا تستلزم الوقوع .
- وما سبق ينبغي أن نتعرف على معنى " الحُكْمُ " ، وما هي أنواع الأحكام الإلهية؟ وما هو المطلوب من العبادة وفقاً لهذه الأحكام ؟ .
- " الحُكْمُ " في اللغة أي : المنع ، فكلمة " حكمه " أي : منعه ، والحكمة هي الحديدية التي تمنع الفرس من الفساد والجري الشديد ومخالفة راحته.
- " الحُكْمُ " اصطلاحاً أي : " الفصل والقضاء " ، وبمعنى آخر أي: " التصرف والمشئنة " .
- قال تعالى ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩]
- " حتى يحكم الله ": حتى يفصل الله ويفتح بينك وبينهم بعدله وحكمته.
- وقال تعالى ﴿ إِنْ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] أي : أن التصرف والأمر والمشئنة كلها لله عز وجل .
- والله عز وجل من أسمائه الحسنى : " الحُكْمُ " ، ففي الحديث الصحيح: يقول الرسول : " إن الله هو الحُكْمُ وإليه الحُكْمُ " ^(١).
- والمراد هنا ب: " إن الله هو الحُكْمُ " هو أن الله سبحانه وتعالى هو الحكم العدل الذي يحكم ويفصل ويقضى بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه ، فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يدع صاحب حق إلا وصل إليه حقه.
- والمراد هنا ب: وإليه الحُكْمُ " هو أن الله عز وجل وضع القوانين والأحكام التي تحكم عباده وتمنعهم من الفساد ومن الشرور ومن الأضرار، بعلمه وحكمته، بما يصلح لعباده وما يناسبهم لينالوا السعادة في الدارين الدنيا والآخرة، فلزم على عباده تمام العبودية لمشئته وتصرفه فيما وضع لهم من قوانين وأحكام .
- يقول ابن القيم في شرح اسم الله " الحُكْمُ " : والأحكام ثلاثة أنواع : .
- ١- حكم شرعي ديني .

(١) رواه أبو داود (٤٩٥٥) والنسائي (٥٣٨٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٥) .

٢- حكم كوني قدري .

٣- حكم قدري كوني.

أولاً : الحكم الشرعي الديني : وهو ما شرعه الله عز وجل في دينه لتنظيم حياة البشر، وهذا حقه أن يتلقى بالمسائلة والتسليم، وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، فلا يعارض بذوق، ولا قياس ولا تقليد ولا سياسة ، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً ألبتة.

فإذا تلقى بهذا التسليم والمسائلة إقراراً وتصديقاً، بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذاً وعملاً، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، قال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

يقول ابن القيم: " من حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت وقد أمر أن يكفر به ، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر".

ثانياً : الحكم الكوني القدرى:

- هو ذلك الحكم الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، فهو حكم كوني سبيي ينازعه العبد بحكم كوني سبيي آخر، فينازع حكم الحق بالحق للحق، فيدافع به وله، وهو حكم قدرى قدره الله عز وجل على العبد بمشيئته سبحانه .

- فإذا وقع حكم قدره الله عز وجل على العبد بالجوع، والعطش، أو البرد، نازعه ولم ينقاد له، ودفعه بقدر آخر من الأكل، والشرب، واللباس ، فقد دفع قدر الله بقدر الله وما خرج في ذلك عن قدر الله.

- وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستهدف فيه الأدوية الدافعة للمرض، فحق هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعته، ومنازعته ، بكل ما يمكنه فإن غلبه، وقهره، حرص على دفع آثاره، وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك فيكون نازع الحكم الكوني بالحكم الكوني وهو لم يخرج عن قدر الله وإرادته ومشيئته.

ثالثاً : الحكم القدري الكوني

- إذا خرج الأمر عن يد العبد، بعد بذله جهده في مدافعه الحكم الكوني القدري، فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث ، الذي يجري على العبد بغير اختياره ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته، فهذا حقه أن يُتلقى بالاستسلام، والمسالم، وأن يشهد فيه العبد عزة الحاكم في حكمه ، وعدله في قضائه ، وحكمته في جريانه عليه.
- فيشهد العبد أن القدر الكوني الذي أصابه لحكمة اقتضاها اسم الله الحكيم ﷻ، كما أوجبه عدل الله وعزته وعلمه^(١).
- وبعد عرض أنواع الأحكام الثلاثة التي قدرها الله عز وجل على عباده، وواجب العبد تجاه هذه الأحكام من عبوديات : من عبودية تمام الانقياد وفورية التنفيذ تجاه الحكم الشرعي الديني ، وعبودية الأخذ بالأسباب التي قدرها الله عز وجل تجاه الحكم الكوني القدري، وعبودية التسليم مع مشاهدة عزة الحاكم في حكمه ، وعدله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه تجاه الحكم القدري الكوني.
- تؤكد إزاء هذه الأحكام الثلاثة هذه الحقيقة الراسخة: أننا أمام إله واحد هو الخالق، وهو المالك، وهو الرازق، وهو صاحب السلطان المتصرف في مُلكه ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] .
- إن الله هو الخالق ... خلق هذا الكون، وخلق هذا الإنسان، وسخر ما في السموات والأرض لهذا الإنسان، وهو وحده سبحانه وتعالى متفرد بالخلق، لا شريك له في كثير منه أو قليل ﴿قُلْ أَعْيَبَ اللَّهُ أَخْبَدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١] .
- وإن الله هو المالك ... بما أنه هو الخالق ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما.. فهو سبحانه متفرد بالملك . لا شريك له في كثير منه أو قليل. (قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ) [الأنعام : ١٤] .

(١) شرح أسماء الله الحسنى ، ابن قيم الجوزية ، ص ٣١٢ : ٣١٣ .

• وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف في الكون والناس .. بما أنه هو الخالق المالك الرازق.. وبما أنه هو صاحب القدرة التي لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضرر. وهو سبحانه المتفرد بالحكم والسلطان في هذا الوجود. (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام : ١٨] ، ﴿إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧].

• وستقوم سورة (الأنعام) بعون الله وتوفيقه بتعريفنا بالله عز وجل الخالق المالك الرازق صاحب السلطان، وأنه سبحانه وتعالى لا شريك له في خلقه، ولا شريك له في ملكه، ولا شريك له في تدبيره ورزقه، ولا شريك له في سلطانه وأمره .. ولا شريك له في حكمه، وهذه هي خصائص ألوهية الله عز وجل وربوبيته.

— كما ستبين لنا سورة (الأنعام) أن العبودية المفروضة على عبده بعد التعرف عليه سبحانه هي: إفراده سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية، والاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الألوهية والربوبية (وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام: ٧١] ، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٧٩] ، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤].

— إن إفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية وخصائصهما من الخلق والرزق والملك والسلطان والحاكمية هو التوحيد، والاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الألوهية والربوبية هو الإسلام..

— إن الإسلام جعل التحاكم إلى الله عز وجل وحده، وجعل تمام الانقياد وفورية التنفيذ لحكمه الشرعي، هو مقتضى إفراد الله عز وجل بالألوهية ، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: " فمعنى الاستسلام لشريعة الله هو قبل كل شيء الاعتراف بألوهيته وربوبيته وسلطانه ، ومعنى عدم الاستسلام لهذه الشريعة، واتخاذ شريعة غيرها في أية جزئية من جزئيات الحياة ، هو قبل كل شيء رفض الاعتراف بألوهية الله وربوبيته وسلطانه .. ويستوى أن يكون الاستسلام أو الرفض باللسان أو بالفعل دون القول .. لذلك فقضية التحاكم إلى شرع الله عز وجل هي قضية كفر

أو إيمان ، وجاهلية أو إسلام . ومن هنا يجيء هذا النص : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " .. " الظالمون " .. " الفاسقون " (١).

- إن واجب البشرية كلها أن تجعل الحكم لله وحده، وأن تتلقى حكمه الشرعي سبحانه وتعالى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة بل بالانقياد المحض إقراراً وتصديقاً ثم تنفيذاً وعملاً ، في كل أوجه وأنشطة الحياة، وبذلك تتسق حياة البشر مع نظام الكون كله.

شريعة الله والتناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: " إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان ، وأودعه الله سبحانه وقوانينه التي يتحرك بها ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾] .

إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره ، وقدراً يحركه ، وناموساً ينسقه، ينظر حركة مفردات هذا الوجود كله، فلا تصطدم ولا تختل، ولا تتعارض ، وهذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره، والقدر الذي يحركه، والناموس الذي ينسقه، بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة، أو أن يتنكر للقدر، أو أن يخالف الناموس ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

(ألا له الخلق والأمر) الله سبحانه وتعالى خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان.. فله الخلق.

وأخضع الإنسان لنواميسه وقوانينه التي أخضع لها الوجود الكوني.. فله الأمر.

- فالإنسان من هذا الوجود الكوني، والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله .. لقد خلقه الله . كما خلق هذا الوجود . وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض ، وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنساناً ..

والإنسان خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنّه الله له - رضي أم أبي - وجوده وخلقته ابتداءً بمشيئة الله لا بمشيئة أبيه وأمه - فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنين وجوده - فهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة، وهو يتنفس ويجوع ويعطش ، يأكل ويشرب وبالجملة يعيش وفق ناموس الله الكوني والقدري، شأنه في هذا الشأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه وكل من فيه، في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه.

والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان ، والذي أخضع الإنسان لناموسه التي أخضع لها الوجود الكوني.. هو سبحانه الذي سن للإنسان " شريعة" من نظم وأحكام وقوانين لتنظيم حياة الإنسان الإرادية تنظيمًا متناسقًا مع حياته الطبيعية.

فالشريعة على هذا الأساس إن هي إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود العام وينسقها كلها جملة واحدة ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠].

وما من كلمة من كلمات الله ، ولا أمر ولا نهي ، ولا تشريع ولا توجيه.. إلا هي شطر من الناموس العام، وصادقة في ذاتها صدق القوانين الإلهية الكونية . التي تسمى كذباً قوانين الطبيعة . ومن ثم فالالتزام بالشريعة الإلهية التي تنظم حياة البشر ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه، وفي ذلك تحقيق الخير كل الخير للبشرية وصيانة حياتهم من الفساد وسفك الدماء .

- ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ، ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام ، ومن ثم فإنهم لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظاماً يتحقق به التناسق المطلق بين

- حياة الناس وحركة الكون .. إنما يملك ذلك وحده : خالق الكون وخالق البشر ، ومدبر أمره وأمرهم ، وفق الناموس الواحد الذي اختاره وارتضاه " (١) .
- وبعد التعرف على وجوب " التحاكم إلى شرع الله " ، وكون هذه القضية على خطورتها تمثل:
- ← إقراراً لألوهية الله وربوبيته وسلطانه في الأرض .
- ← إفراداً لتوحيد الله في حياة خلقه من الناس .
- ← انقياداً واستسلاماً لحكمه سبحانه الشرعي الديني.
- ← تحقيقاً لمدلول ركن الإسلام الأول شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.
- ← تحريراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر لتكون العبودية لله عز وجل
- ← وفاءً بشرط الإسلام وحد الايمان ومفرق الطريق بين الجاهلية والكفر .
- ← تناسقاً مع حركة الكون وناموسه العام .
- نؤكد بعد ذلك أنه لا بديل على أن تكون الحاكمية العليا في المجتمع المسلم إلا الله ، متمثلة في سيادة شريعة الله في كافة جوانب الحياة ، وهذه هي الصورة الوحيدة التي تعرف بها دار الإسلام من دار الكفر، وفقاً لتعريف الفقهاء والعلماء أن دار الإسلام تعرف بظهور وأحكام الشريعة كاملة ، فوظيفة دار الإسلام هي : " الحكم بما أنزل الله " .
 - إن مقابل " شريعة الله " هو أهواء البشر ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١]
 - ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٤٨] .
 - ﴿ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .
 - وبعد بيان ضرورة ووجوب التحاكم إلى شرع الله ، نقوم بالتعرف على : كيف فُتنت الأمة المسلمة في العصر الحديث عن بعض ما أنزل الله ؟ حتى أعرضت بالكامل عن حكم الله، وصارت تتحاكم إلى أهواء البشر التي سنت قوانين وضعية بديلاً عن شريعة الله .

ثانياً : كيف حل القانون الوضعي بديلاً عن شرع الله ؟

ونقوم بعون الله وتوفيقه بعرض هذا الموضوع في العناصر التالية:

- وظيفة القانون وأصوله .
 - كيفية تنحية الشريعة " نبذة تاريخية "
 - الدستور .. يأسق العصر الحديث .
 - القوانين الوضعية أحلت ما حرم الله .
- ولنبداً بإذن الله ...

وظيفة القانون وأصوله :

كلمة (قانون) في اللغة ترجع إلى أصل يوناني ومعناها : العصا المستقيمة، وكانت تستخدم للدلالة على الاستقامة والنظام.

القانون اصطلاحاً هو : مجموعة من القواعد العامة المجردة الملزمة والتي تحكم سلوك الأفراد داخل المجتمع ويترتب على مخالفتها جزاء توقعه السلطة العامة" .

- يقول المستشار عبد القادر عودة رحمه الله عن وظيفة القانون: " إن القانون كمعنى ضرورة لا مفر منها للمجتمع ، فبالقانون تنظم العلاقة بين الأفراد ، وتحفظ الحقوق، وتوزع العدالة ، وتوجه الشعوب ، لذا فالقانون في حقيقته أداة أوجدتها الجماعة البشرية لخدمتها، ووسيلة تدفع بها الضرر عن أفرادها، ووظيفة القانون عامة هي : خدمة الجماعة البشرية وسد حاجتها الضرورية ، ولكل قانون على حدة وظيفة يؤديها هي السبب في إيجادها ، والدافع إلى تقنينه ، فالقانون الذي يعاقب على الجرائم وظيفته خدمة الجماعة عن طريق حفظ الأمن فيها ومحاربة الإجرام ، والقانون الذي يمنع التظالم بين الناس وظيفته خدمة المجتمع عن طريق حفظ الحقوق الفردية، وتوزيع العدالة وبث الطمأنينة بين الأفراد، وهكذا" (١) .

- إذن القانون في حقيقته ليس إلا أداة أوجدته الجماعة البشرية لخدمتها، ووسيلة تدفع بها الضرر عن أفرادها، وذلك منذ قديم الأزل . ولكن إذا تبين أن هذه الأداة فاسدة لا تخدم الجماعة

(١) الإسلام وأوضاعنا القانونية ، ص ٢٠ ، ٢١ .

البشرية أو أنها تجلب الضرر على أفرادها ، فالمنطق أن تنبذ هذه الأداة الفاسدة ، لأن استعمالها معناه الخروج على الجماعة الإنسانية.

- وأصول القانون هي : الأسس التي تقوم عليها خدمة الجماعة والمبادئ التي يرجع إليها في سد هذه الحاجات " .

ويحدد المستشار عبد القادر عودة ثلاثة أصول للقوانين وهي : " الأصل الأول للقانون هو : أن قانون كل أمة إنما يشتق منها يمثل أخلاقها وتقاليدها ويمثل دينها ومعتقداتها، لذا تختلف القوانين الفرنسية عن القوانين اليابانية بقدر ما يختلف الشعبين الفرنسي والياباني في النشأة والتطور والأخلاق والتقاليد والنظم والدين والمعتقدات .

الأصل الثاني للقانون هو : أن القانون يوضع لحماية العقائد واحترام التقاليد والآداب .

والأصل الثالث هو : أن القانون يوضع لتوجيه الشعوب إلى الخير والتعاون والتراحم " (١) . ،
وحيث أن الشريعة عامة هي : مجموعة من القوانين على هيئة أوامر ونواهي وتوجيهات ، فما هي أهم الخلافات بين طبيعة الشريعة وطبيعة القانون الوضعي؟ .

- يكمل المستشار عبد القادر كلامه بذكر أهم الخلافات بين قوانين وأحكام الشريعة الإسلامية وبين القانون الوضعي أنها:

(١) من جهة المصدر : مصدر الشريعة الإسلامية هو الله جل شأنه ، فقوانين وأحكام الشريعة الإسلامية تقوم على الدين وهو من عند الله ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، أما مصدر القوانين الوضعية فهم البشر الذين يقومون بوضع هذه القوانين .
ويترتب على كون الشريعة الإسلامية من عند الله نتيجتان هامتان وهما : .

أ- وجوب طاعة الأفراد لأحكامها ، لأن عصيانها يؤدي إلى العقوبة في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقد ذكرت الآيات بعد عرضها أحكام الشريعة في المواريث قوله تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ

(١) نفس المصدر السابق .

يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
 ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾
 النساء : ١٣ - ١٤ .

ب- ثبات القواعد الشرعية واستمرارها ، لأنها لا ترتبط ببيئة حاکمة ولا بنظام حكم وإنما ترتبط
 بدين الإسلام الذي لا يتغير ولا يتبدل بنظام حكم، بينما القوانين الوضعية يضعها الحكام طبقاً
 لأهواءهم ولحفظ مصالحهم وحماية مبادئهم التي يعتنقونها ، ولخدمة الأنظمة التي يقيمونها .

٢- من جهة العنصر الروحي : هذا العنصر في الشريعة الإسلامية أقوى منه في أي قانون أو شريعة
 أخرى على وجه الأرض، لأن الشريعة الإسلامية تجعل للعنصر الروحي نصيباً في كل نص
 تشريعي وفي كل قاعدة تشريعية سواء كانت كلية أو فرعية ، لذلك تجد الحث على تقوى الله ،
 متصل دوماً بأحكام الشريعة ، ففي آيات تشريعات الحلال والحرام في سورة المائدة ، نجد تزييل
 الآيات بقوله تعالى ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ [المائدة : ٢] ، (واتقوا الله الذي إليه
 تحشرون) [المائدة : ٩٦] .

٣- من جهة الأخلاق: تعتبر الشريعة الإسلامية الأخلاق الفاضلة الدعامة الأولى التي يقوم عليها
 المجتمع ، ولهذا فأحكام الشريعة تحرص على حماية الأخلاق، وتتشدد في هذه الحماية حتى
 لتكاد تعاقب على كل الأفعال التي تمس الأخلاق، أما القوانين الوضعية فتكاد تهمل المسائل
 الأخلاقية إهمالاً تاماً.

والعلة في اهتمام الشريعة الإسلامية بالأخلاق هي أن الشريعة تقوم على الدين الذي يأمر
 بمحاسن الأخلاق، ويهدف إلى تكوين مجتمع صالح طاهر متماسك ، بينما العلة في استهانة القوانين
 الوضعية بالأخلاق أن هذه القوانين لا تقوم على أساس الدين ، ويقوم بوضعها وتغييرها الأفراد
 الذين يقومون بتشريع هذه القوانين مع الحكام ، وهم يتأثرون في عملهم بأهوائهم ونزوعهم الطبيعي

إلى التحلل من القيود ، فكان من الطبيعي أن تهمل القوانين الوضعية الأخلاق شيئاً فشيئاً ، وأن يأتي وقت تصبح فيه الإباحية هي القاعدة، والأخلاق الفاضلة هي الإستثناء^(١).

— وهكذا نجد أن البلاد الإسلامية لما قامت بنقل القوانين الأوروبية بحذافيرها دون تعديل يذكر ، ثم جعلتها هي القوانين الملزمة في البلاد وتم تنحية الشريعة الإسلامية ، ظهرت في هذه البلاد الاباحية والتحلل، لأن هذه القوانين الوضعية تقوم على أصول فاسدة غير تلك الأصول الصحيحة التي تقوم عليها قوانين وأحكام الشريعة الإسلامية، التي تقوم على الدين الخاتم الذي أكمله الله عز وجل وأتمه وارتضاه لخلقه ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٩].

— وهذا ما يدفعنا للتعرف على نبذة تاريخية مختصرة لكيفية تنحية الشريعة الإسلامية وإحلال القانون الوضعي بديلاً عنها.

كيفية تنحية الشريعة " نبذة تاريخية "

— أساس القوانين الوضعية في أوروبا كلها . المصدرة للبلاد الإسلامية . هو القانون الروماني ، وقد وجد هذا القانون قبل أن يوجد الدين المسيحي الذي تتدين به البلاد الأوروبية .

— فلما جاء الدين لم يكن له مكان هام في القانون الروماني، واكتفى المتشرعون بأن يضيفوا إلى القانون بعض النصوص التي اقتضاها وجود الدين الجديد، وبعد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ أخذ المتشرعون الأوروبيون في تجريد القوانين الوضعية من كل ماله مساس بالدين والعقائد والأخلاق حتى تم لهم ذلك ، وأصبحت هذه القوانين قائمة على تنظيم علاقات الأفراد المادية ، وقائمة على ما يمس نظام الحكم.

— ظلت الشريعة الإسلامية هي القوانين التي تحكم البلاد الإسلامية لمدة ثلاثة عشر قرناً حتى جاء عام (١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م) ليشهد بداية الطامة الكبرى في بلادنا حيث كانت بداية النفاذ

(١) الإسلام وأوضاعنا القانونية . عبد القادر عودة ، ص ٢٤ - ٣٥ .

- التشريعي الغربي وتغير أحكام الشريعة، حيث تبنت الخلافة العثمانية قوانين مستوردة من الغرب الصليبي في الناحية التجارية .
- فأصدرت الخلافة قوانين متعددة منذ عام ١٨٣٩ حتى ١٨٧٩ عرفت باسم (التنظيمات) كالتالي .:
- عام ١٨٤٧ : صدر قانون تجاري مأخوذ من القانون الفرنسي ، وأنشئت محاكم تجارية عن التشريعات الفرنسية للنظر في النزاع بين التجار المحليين والأوروبيين .
 - في نفس العام ١٨٤٧ : أنشئت محاكم مدنية وجنائية مختلطة لأول مرة بجانب المحاكم الشرعية التي تحكم بأحكام الشريعة الإسلامية .
 - عام ١٨٦٣ : صدرت مجموعة من القوانين التجارية البحرية .
 - عام ١٨٦٩ : أعيد تنظيم محاكم نظامية جديدة .
 - عام ١٨٧٩ : فصلت دعاوى الأراضى عن المحاكم الشرعية.
- ولم تكن القوانين التي صدرت في مرحلة التنظيمات هذه قاصرة على الناحية التجارية فقط بل شملت مجالات قانونية أخرى كنظام البحرية وقانون العقوبات.
- ولكن ما هي أسباب استيراد قوانين أوروبا الوضعية وتغيير الأحكام الشرعية ؟
- إن السبب الرئيسي هو مكر الغرب الصليبي لغزو العالم الإسلامي بالقوانين والدساتير الوضعية، مستغلين ضعف وتخلف الدولة العثمانية في هذه الحقبة من خواتيم القرن الثامن عشر حتى سقوطها في أوائل القرن العشرين.
- بدأ ضعف الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني (حكم من ١٥٢٠ حتى ١٥٦٦ م) بعدما أدخل اصلاحيات قضائية وإدارية وإجرائية لترسيخ العدالة بين المواطنين ، فوضع قوانين منبثقة من الشريعة الإسلامية عرفت " بقانون نامة" ظلت تطبق حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.
- ثم تولى ابنه سليم الثاني مكانه فمرت الدولة العثمانية بمراحل من الضعف والهزائم، ففكر القائمون عليها أنهم قد تخلفوا عن نهضة أوروبا العلمية، فأرادوا اللحاق بها ، فبدأ النشاط

التجاري مع دول أوروبا " الغرب الصليبي الحاقد والمآكر على أمة الإسلام " ، فبدأت من حينها الخلافة العثمانية الضعيفة في تغيير الأحكام الشرعية لتتوافق مع قوانين أوروبا التجارية لتسهيل حركة التجارة معها.

- ثم سنَّ الإنجليز بعد احتلالهم مصر قانون الاصلاح القضائي عام ١٨٨٣م ، والذي غيروا فيه كثير من أحكام الشريعة الإسلامية ، وكانوا يعلنون أن هدفهم الأول من هذا الاحتلال هو : " القضاء على القانون الإسلامي " ، فعملوا على ذلك بشتى الوسائل إما بمحاولة محوه تماماً، أو إضعاف شأنه وتضييق دائرة اختصاصه ، ومقاومة تعلمه وتعليمه.

- ثم ابعاد الفقه الإسلامي في المجالين الجزائري والتجاري بالقوة والقهر للحيلولة بين الأمة المسلمة وشريعتها ، مستغلين حكام السوء الجهلة بالإسلام المخادعون لشعوبهم والذين سمحوا للاحتلال الأجنبي بذلك، ثم بدأ الاحتلال في تعديد الولايات القضائية الأجنبية، حيث أنشئت محاكم مختلطة ثم محاكم نظامية ثم محاكم أهلية لتهميش دور المحاكم الشرعية التي تحكم بالشريعة الإسلامية في أمور التقاضي، حتى تقلص دور المحاكم الشرعية في شئون الأحوال الشخصية والوقف فقط ، ثم أغلقت تماماً المحاكم الشرعية في ١٩٢٦/١٠/٤ .

- يقول المستشار طارق البشري عن بداية إنشاء هذه المحاكم القضائية التي تحاكت إلى القوانين الوضعية المستوردة من أوروبا : " زاد نفوذ الامتيازات الأجنبية بسبب زيادة النفوذ السياسي والاقتصادي للدول الغربية صاحبة الامتيازات ، فالبداية كانت قبل القرن التاسع عشر بسماع الدولة الإسلامية على أراضيها للمستأمنين من رعايا الدول الغربية ليحتكموا فيما بينهم في أنزعتهم الخاصة حسب شرائعهم إلى من يمثل دولهم ، ثم زادت وانبسطت إلى أنزعتهم مع رعايا الدولة الإسلامية ذات السيادة ومع الدولة ذاتها بالنسبة لكل المسائل المدنية والجنائية : فمثلاً كان في مصر سبع عشرة دولة ذات امتيازات يخضع رعاياها في مصر ومع المصريين لذات العدد من النظم التشريعية ولذات العدد من أنظمة القضاء .

- وهذا التعدد في الولايات القضائية الأجنبية انتقص من سيادة الشريعة قضائياً وفي القضايا العامة للدولة على القاطنين في أراضيها، واستمر في ازدياد قوة وبأساً في الدولة الإسلامية على

مدى القرن التاسع عشر ، ثم تبلور هذا التعدد في مصر في نظام قضائي واحد يقوم موازياً للقضاء الشرعي وينتفص من سيادته الكلية ، وعرف ذلك بنظام " المحاكم المختلطة" الذي نشأ وعمل به منذ : (١٨٧٥م وبقي حتى ١٩٤٩م) ، وكان هذا النظام يشمل محاكم جنائية ومدنية وتجارية، يتشكل من قضاة أغليبتهم من القضاة الأجانب، وهي تطبق مجموعات قوانين وضعية مأخوذة كلها عن القوانين الفرنسية.

ثم صدر عام ١٨٧٩م نظام " المحاكم النظامية" في مصر ثم ظهرت المحاكم الأهلية المصرية" بنظم قانونية وقضائية آخذة كلها من قوانين المحاكم المختلطة ذات التقنيات الفرنسية لكن القضاة محليين وذلك في عام ١٨٨٣م ، وصارت هذه المحاكم هي صاحبة الولاية العامة بعد سنوات قليلة، وانحسرت ولاية المحاكم الشرعية الآخذة عن الشريعة الإسلامية في مسائل الأحوال الشخصية والوقف" (١)

- إذن نحن أمام ضعف حكام فاسدين للخلافة العثمانية في أواخر عهدها ، وأمام مكر وتخطيط للغرب الأوربي الصليبي للقضاء على أحكام الشريعة الإسلامية ، وقد حذرنا سورة آل عمران من عدم طاعة أعداء الدين من أهل الكتاب وعدم تلقي أية مناهج غربية تؤدي للتخلي عن منهجنا الصافي الخالص وشرعنا القويم ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِبَعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ . [آل عمران : ١٠٠] .

- صدر أول دستور وضعي في مصر عام ١٨٨٢م في عهد الخديوي توفيق، ثم أعيد صدور ثاني دستور في ١٩ أبريل عام ١٩٢٣م انعقد وفقه أول مجلس يتولى تشريع القوانين الوضعية في ١٥ مارس عام ١٩٢٤م ، فصار منذ هذا التاريخ هناك محاكم مختلطة وأهلية تحكم بالقوانين الوضعية، وهناك مجلس تشريعي يقوم بسن هذه القوانين الوضعية ، ودستور وضعي له المرجعية العليا والسيادة القانونية للقوانين الوضعية ، وبذلك نحيث الشريعة الإسلامية بالتدرج وفق مخطط غربي صليبي، ساعد على تطبيقه حكام الدول الإسلامية آنذاك .

(١) الوضع القانوني بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي . طارق البشري ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

وأصدر الشيخ علي عبد الرازق من علماء الأزهر الشريف عام ١٩٢٥م كتابه (الإسلام ونظام الحكم) ليعطي شرعية دينية لتعطيل الشريعة الإسلامية ، حينما قال فيه : " إن من نظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ في القرن الثاني من الهجرة ثم تجيء بعد ذلك فتطبق هذا القانون في ١٣٥٤ هـ " (١) .

- وحدث ما حذرت منه سورة (المائدة) وتم التحاكم إلى غير ما أنزل الله ، وتم فصل الدين عن الحكم ، ثم فصله عن كل مناحي الحياة بعد سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ على يد كمال أتاتورك العلماني التركي، وتم تربية أجيال تعتنق الفكر الديمقراطي العلماني في بلادنا الإسلامية ، وأخذت القوانين والدساتير الوضعية تشجيع الزنا والانحلال والربا والخمر، وصارت هذه المجالس التشريعية هي الجهة الوحيدة التي لها حق سن التشريعات والقوانين ، بالإضافة إلى حكام هذه الدول استناداً إلى الدساتير العلمانية التي صارت بديلاً عن شرع الله ! وصارت السيادة للشعب لا للشرع.. فتقهقرت الأمة المسلمة وعادت تتحاكم إلى الطاغوت مرة أخرى، وترتضي بحكم الجاهلية بعد ثلاثة عشر قرناً من حكم الشريعة ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

الدستور .. ياسق العصر الحديث

- يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ : " ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات ، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم سنكزخان (جنكزخان) ، الذي وضع لهم اليباسق، وهو عبارة عن : " كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم

(١) الاسلام ونظام الحكم . على عبد الرازق .

بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير " (١)

- ويقول الشيخ أحمد شاکر عن الیاسق العصري.. الدساتير الوضعية التي حلت مكان شرع الله عز وجل : " لما وضع جنکزخان "الیاسق" وجعله شريعة لقومه، فالتمزموه بعده، وصار حكماً باتاً في أعقابه ، لا يخرجون عن شيء من حكمه، فلما مات التزم من بعده أولاده واتباعهم حكم الیاسق ، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن، وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه، وقد نقل الحافظ ابن كثير في تاريخه أشياء من سخافات هذا الیاسق (١٣ / ١١٨ ، ١١٩ تاريخ ابن كثير) ، ثم قال ابن كثير : " فمن ترك الشرع المحکم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ، وتحاكم إلى غيره من الشرائع السماوية المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الیاسق وقدمها عليه؟! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين " ثم يكمل الشيخ أحمد شاکر كلامه فيقول : " أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يُحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونهم كما يشاؤون ، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟

- إن المسلمين لم يُبلوا بهذا قط . فيما نعلم من تاريخهم . إلا في ذلك العهد ، عهد التتار ، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلام التتار ، ثم مزجهم فأدخله في شرعته، وزال أثر ما صنعوا ، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ، واتضح أن هذا الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، حيث لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم . فما أسرع ما زال أثره .

- أفرايتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير في القرن الثامن لذاك القانون الوضعي ، الذي صنعه عدو الإسلام جنکزخان؟ أليست ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر الحديث في القرن الرابع عشر الهجري؟ إلا في فرق واحد ، أشرنا إليه آنفاً : أن ذلك كان في طبقة خاصة

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ١ / ٦١٢ ، ٦١٣ .

من الحكام . أتى عليها الزمان سريعاً ، فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت ، بينما المسلمون الآن أسوأ حالاً وأشد ظلاماً وظلاماً منهم . لأن أكثر الأمة الإسلامية الآن تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة ، والتي هي أشبه شيء بذاك " الياسق " الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ، إن معتنقي هذا " الياسق " العصري " أدخلوا أيديهم فيما بقى في الحكم من التشريع الإسلامي لتحويله إلى " ياسقهم الجديد " بالهون واللين تارة ، وبالمكر والخديعة تارة ، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات .

- ويصرحون ولا يستحيون بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين!!.
- أفيجوز إذن مع هذا لأحد من المسلمين أن يعتقد هذا الدين الجديد ، أعنى التشريع الجديد !
- أفيجوز لرجل مسلم أن يتولى القضاء في ظل هذا " الياسق العصري " ، وأن يعمل به ويُعرض عن شريعته البينة؟! (١)
- وإذا أردنا أن نتعرف على حقيقة الدستور الوضعي وكونه ياسق هذا العصر ، نبدأ أولاً بتعريف الدستور ، ثم نذكر بعض المواد في هذا الدستور والتي تخالف شرع الله عز وجل ، الدستور : كلمة فارسية مركبة من "دست" بمعنى القاعدة، " وور" أي صاحب ، واصطلاحاً: هو القانون الأسمى والأعلى الذي يحدد القواعد الأساسية لشكل الدولة ونظام الحكم وينظم السلطات العامة فيها من حيث التكوين والاختصاص ، والعلاقات بين السلطات وتحدد كل سلطة ، والواجبات والحقوق الأساسية للأفراد والجماعات .
- وبهذا التعريف فإن الدستور الأساسي للمسلمين هو : " الشريعة الإسلامية " ، وكل ما يوافق هذا الدستور صحيح وكل ما يخالفه باطل بطلاناً أصلياً ، أما الدساتير الوضعية البشرية وهي التشريع الأساسي في البلاد المحكومة بالقوانين الوضعية تمثل بجدارة : " الحُكم بغير ما أنزل الله" ، وإليك بعون الله الأدلة على ذلك من مواد هذه الدساتير ذاتها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير . عمدة التفسير . تحقيق أحمد شاكر . ١ / ٦١٢ ، ٦١٣ .

مواد الدستور المخالفة لشرع الله - دراسة مقارنة .

- عرض نموذجين للدستور المصري وهما : دستور ١٩٧١ وتعديلاته في ١٩٨٠ ، ونموذج دستور ٢٠١٤ م ، وذلك بعرض أسس هذه الدساتير من خلال عرض المادة من الدستور، ثم عرض وجه مخالفتها للشريعة الإسلامية.

(١) الديمقراطية نظام الحكم في الدولة

- المادة الأولى من دستور (٧١) وتعديلاته في (٨٠):
" جمهورية مصر العربية دولة نظامها اشتراكي ديمقراطي يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة"
- المادة الأولى من دستور (٢٠١٤) :
"مصر دولة ذات سيادة ونظامها جمهوري ديمقراطي يقوم على أساس المواطنة وسيادة القانون".
- وجه مخالفة هذه المادة للشريعة الإسلامية هو : أنها جعلت نظام الحكم في الدولة هو النظام الديمقراطي، والديمقراطية كنظام حكم تعنى فصل الدين عن الدولة، وأن يقبع الدين كعقيدة في صدور الناس وعبادة وطقوس في المساجد، بينما الدولة المسلمة نظام الحكم فيها هو النظام الإسلامي، حيث أن الدين هو أساس تعاملاتها الاقتصادية وأساس معاهداتها واتفاقاتها، وأساس قوانينها وتشريعاتها ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . [الأنعام: ١٦٢].

لذلك ستجد في كل نصوص هذه الدساتير أن الأساس هو المواطنة وليس الدين.

(٢) السيادة للشعب وحده

- المادة الثالثة من دستور (٧١/ ٨٠) :
" السيادة للشعب وحده وهو مصدر السلطات ويمارس الشعب هذه السيادة ويحميها ويصون الوحدة الوطنية على الوجه المبين في الدستور".
- المادة الرابعة من دستور (٢٠١٤):

"السيادة للشعب وحده يمارسها ويحميها".

— ووجه مخالفة هذه المادة للشريعة الإسلامية هو : أن السيادة تعنى : السلطة العليا المطلقة وهي في الإسلام لله وحده، والمرجعية العليا في كافة شؤون حياة الناس كلها هي شرع الله عز وجل ، وهذا هو الإسلام ، وما دون ذلك تحاكم إلى الطاغوت ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء : ٦٠] .

(٣) الديمقراطية هي النظام الاقتصادي :

• المادة الرابعة من دستور (٨٠/٧١):

"الأساس الاقتصادي لجمهورية مصر العربية هو النظام الاشتراكي الديمقراطي" .

— وجه مخالفة هذه المادة للشريعة الإسلامية هو : أن النظام الاقتصادي الديمقراطي أباح التعامل بالربا وقد أحل الله البيع وحرم الربا ، قال تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] . وهذا يكفي في بيان مخالفة هذه المادة لشرع الله، وللرجوع إلى تفصيل النظام الاقتصادي الديمقراطي، يرجى الرجوع إلى عرض سورة النساء .

٤- المساواة بين المرأة والرجل :

— قيد دستور (٨٠/٧١) المساواة بين المرأة والرجل بأحكام الشريعة الإسلامية ثم حذفت بعد ذلك في دستور (٢٠١٤)، لتطلق المساواة بين المرأة والرجل بدون قيد.

• المادة (١١) في دستور (٨٠/٧١) :

" تكفل الدولة التوفيق بين واجبات المرأة نحو الأسرة وعملها في المجتمع ، ومساواتها بالرجل في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، دون إخلال بأحكام الشريعة الإسلامية"

- المادة (١١) في دستور (٢٠١٤) :

" تكفل الدولة تحقيق المساواة بين المرأة والرجل ، وتعمل الدولة على اتخاذ التدابير الكفيلة بضمان تمثيل المرأة تمثيلاً مناسباً في المجالس النيابية ، كما تكفل حقها في تولي الوظائف العامة ووظائف الادارة العليا في الدولة والتعيين في الجهات والهيئات القضائية ، دون تمييز ضدها".

— وجه مخالفة هذه المادة للشريعة الإسلامية هو : أن الإسلام راعى تنوع وظيفة الرجال والنساء، فأنشأ تنوع بينهما في التكاليف ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾ [آل عمران: ٣٦] ، وتنوع في أنصبة الموارث ﴿ وَلَا تَمْنُنَوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا ﴾ [النساء: ٣٢]، إن المساواة بينهما تقتضي عدم التفريق بينهما ، ولو ساوى الإسلام بينهما لظلم أحدهما ، والشريعة أعطت للمرأة شخصية كاملة وذمة مالية خاصة ولكنها فرقت بينهما في القوامة والشهادة واللباس كما منعت المرأة من تولي القضاء والإمارة لقوله ﷺ : " لم يفلح قوم ولو أمرهم امرأة " صحيح البخاري .

٥) حرية الاعتقاد مطلقة

- المادة (٤٦) من دستور (٨٠ / ٧١) :

" تكفل الدولة حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية "

- المادة (٦٢) من دستور (٢٠١٤) :

"حرية الاعتقاد مطلقة ، وحرية ممارسة الشعائر الدينية وإقامة دور العبادة لأصحاب الأديان السماوية حق ينظمه القانون".

وجه مخالفة هذه المادة للشريعة هو : أنها تبيح الإلحاد والردة بدعوى حرية الاعتقاد المطلقة ، بينما شرع الله يجرم ذلك ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ : " من بدل دينه فاقتلوه " رواه البخاري في صحيحه .

٦) القانون الوضعي هو أساس الأحكام القضائية :

- "سيادة القانون أساس الحكم في الدولة".

- نص المادة (٦٤) من دستور (٧١ / ٨٠) ، والمادة (٩٣) من دستور (٢٠١٤):
 " لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون ، ولا توقع عقوبة إلا بحكم قضائي " .
 - المادة (٧١) من دستور (٧١ / ٨٠) ، والمادة (٩٨) من دستور (٢٠١٤) :
 " تصدر الأحكام وتنفذ باسم الشعب " .

• وجه مخالفة هذه المادة للشريعة هو: أن الإسلام حدد عقوبات محددة لجرائم القتل والسرقة وشرب الخمر والزنا والردة والقذف ، نكالاً من الله لا يجوز مخالفتها، قال تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾ [المائدة : ٣٨] .

إذن معنى هذه المادة " : لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون" أنه حتى لو كانت هذه الجريمة وتلك العقوبة قد وردت في الكتاب والسنة لا يعتد بهما، وذلك بنص هذه المادة المخالفة لشرع الله .

وجدير بالذكر هنا ذكر واقعة المستشار محمود عبد الحميد غراب^(١)، حيث قضى صراحة بجلد مواطن شارب للخمر ضبط بحالة سكر يَبِّن بالطريق العام، بثمانين جلدة في حكم حضوري بتاريخ ١٩٨٢/٣/٨ . محكمة جنح عابدين ، وذكر في حيثيات حكمه : " حكمت المحكمة حضورياً بجلد المتهم ثمانين جلدة مع النفاذ ، فالأصل في الحدود أنها لا تقبل عفواً ولا إسقاط إذ هي من حقوق الله خالصة ، فالمحكمة تشمل حكمها بالنفاذ ، تاركة وزر عدم تنفيذ العقوبة المقضي بها على السلطة المسؤولة عن ذلك " .

• فماذا حدث من السلطات المسؤولة ؟

- أمرت النيابة بوقف تنفيذ الحكم، واستأنفت عليه لإلغائه ، ثم أرسلت الإدارة العامة للتفتيش القضائي إلى المستشار محمود غراب مأخذاً قضائياً تبين فيه بطلان الحكم بالجلد الذي أصدره، وقالت فيه : " ويؤخذ على هذا الحكم أنه لما كان من المقرر أنه لا عقوبة إلا بناء على قانون ولا عقاب إلا على الأفعال اللاحقة لتاريخ نفاذ القانون كما جاء في الدستور، وأن العقوبات

(١) قاض مصري (١٩٣٥ . ١٩٩٣) ، أخذ على عاتقه تحكيم شرع الله ، له كتاب اسمه " أحكام اسلامية إدانة للقوانين الوضعية " .

قد حصرها القانون وليس من بينها ما قضى به الحكم بجلد المتهم ، فإنه يكون قد خالف القانون مما يصمه بالبطلان " !!

- ثم نُقل القاضي محمود غراب إلى وظيفة إدارية بعيدة عن القضاء ليكون عبرة لغيره.

حق التشريع للبشر:

• المادة (٨٥) من دستور (٨٠/٧١) :

" يتولى مجلس الشعب سلطة التشريع " .

• المادة (١١١) من دستور (٨٠/٧١) ، والمادة (١٢١) من دستور (٢٠١٤)

" لرئيس الجمهورية حق اصدار القوانين أو الاعتراض عليها " .

• المادة (٩٩) من دستور (٢٠١٤)

" يتولى مجلس النواب سلطة التشريع "

وجه مخالفة هذه المادة للشريعة الإسلامية هو : أنها جعلت حق إصدار التشريعات لبشر دون قيد، والإسلام جعل حق التشريع المطلق لله وحده ، والله وحده هو الذي يضع للناس شرائعهم وقيمهم وأوضاع حياتهم ، وليس لغيره أفراداً أو جماعات شيء من هذا الحق إلا بالارتكان إلى شريعة الله ، فأولى الأمر في شريعة الله ليس لهم حق في التشريع المطلق ، ولكن حقهم في التشريع قاصر على نوعين فقط من التشريع ، ذكرهما المستشار عبد القادر عودة رحمه الله وهما : " الأول : تشريعات تنفيذية والتي يقصد بها ضمان تنفيذ نصوص شريعة الإسلام أي وضع لائحة تنفيذية تتضمن القواعد التفصيلية اللازمة لتنفيذ القوانين دون تعديل فيه أو حذف أو إضافة ، الثاني : تشريعات تنظيمية وهذه تشمل اللوائح والقواعد اللازمة لسد حاجة الجماعة وحمايتها على أساس الشريعة الإسلامية ، ولا تكون إلا فيما سكتت عنه الشريعة فلم تأت بنصوص خاصة فيه ، مثل : تشريع لتنظيم وإدارة العمل في المرافق العامة .

ويشترط في هذه التشريعات أن تكون متفقة مع أحكام الشريعة وقواعدها العامة وروحها التشريعية ، فهي تشريعات توضع بقصد تنفيذ مبادئ الشريعة العامة ، وإذن فهي في حقيقتها فرع آخر من التشريعات التنفيذية " (١) .

- أما المواد السابقة الذكر في الدستور التي أطلقت حق إصدار التشريعات وسنّ القوانين للحاكم ومجلس النواب بلا أي شرط أو قيد، جعلت منهم شركاء مع الله بنص صريح القرآن ، قال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] ، وجعلت منهم أرباباً من دون الله ، قال تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] ، وبنص صحيح السنة، روى الامام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم، أنه لما بلغت دعوة رسول الله ﷺ إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأطلقها ، فرجعت إلى أخيها ، فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فتقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيئ فتحدثت الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدى صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال عدى : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال الرسول ﷺ : " بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " (٢) .

- والحقيقة أن القوانين الوضعية التي سنّتها وشرعتها البرلمانات المتعاقبة ، أحلت ما حرمه الله عز وجل ، وحرمت ما أحله الله عز وجل ، بل حرمت ما فرضه الله على عباده .

القوانين الوضعية أحلت ما حرم الله

(١) إباحة القوانين الوضعية للزنا

- المادة (٢٧٤) من قانون العقوبات تنص على :
" المرأة المتزوجة التي ثبت زناها يحكم عليها بالحبس مدة لا تزيد على سنتين لكن لزوجها أن يُوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرتها كما كانت " !! .

(١) الاسلام وأوضاعنا القانونية . عبد القادر عودة . ص ٦١ .

(٢) مسند الامام أحمد (٣٧٨/٤) وسنن الترمذي (٣٠٩٥) ، وضححه الألباني .

- نص المادة (٢٧٥) : " ويعاقب أيضا الزاني بتلك المرأة بنفس العقوبة!!" .
- نص المادة (٢٧٧) : " كل زوج زنى في منزل الزوجية وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجة يجازى بالحبس مدة لا تزيد على ستة شهور "!! .
- هذه هي العقوبة التي شرعها المشرع البرلماني للزاني والزانية ، أما المادة (٢٧١) فتبيح الزنا للزوجة دون أي عقاب ما لم يكن الزوج هو محرك الدعوى ، وإذا الزوج نفسه زنى في بيت الزوجية لا تسمع دعواه في زوجته الزانية !!
- نص المادة (٢٧٣) : " لا تجوز محاكمة الزانية إلا بناء على دعوى زوجها إلا أنه إذا زنى الزوج في المسكن المقيم فيه زوجته كالمبين في المادة (٢٧٧) لا تسمع دعواه عليها!!" .
- ولما كانت هذه هي القوانين الوضعية والمقتبسة من القانون الفرنسي ، كان هذا هو واقع المجتمع من انتشار الزنا والدعارة ، والترخيص للنساء بالبغاء وللرجال بالقوادة ، وأبيحت الحفلات الراقصة التي تسمح للنساء شبه العاريات أن يراقصن الرجال وفي ذلك كله تحريض على الفاحشة وإشاعة لها .
- أما حكم الله وشرعه بصريح اللفظ قطعي الدلالة : قال تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] .
- وهذا هو حكم رسول الله ﷺ تنفيذاً لحكم الله وطاعة لأمره :
- ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني ، في الاعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابني كان عسيفاً، يعني أجيراً ، على هذا ، فزني بامرأته ، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتعريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده ، لأفضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردُّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتعريب عام .

واغدا يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها " . فعدا عليها ، فاعترفت فرجمها " (١)

وفي هذا دلالة على تعريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج ، فأما إن كان محصناً فإنه يرجم (٢) .

هذا هو حكم الله ورسوله ﷺ .. هذا هو شرع الله الذي أنزله ليحكم به ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . [المائدة : ٤٤]

(٢) إباحة القوانين الوضعية للخمر

- نص قانون حظر شرب الخمر رقم ٦٣ لسنة ١٩٧٦ :
- مادة (١) : تعتبر خموراً في تطبيق أحكام هذا القانون المشروبات الروحية والكحولية والخمور المبينة بالجدول الملحق بهذا القانون .
- مادة (٢) : يحظر تقديم أو تناول المشروبات الروحية أو الكحولية أو المخمرة في الأماكن العامة أو المحال العامة ويستثنى من هذا الحكم :
 - أ) الفنادق والمنشآت السياحية طبقاً لأحكام القانون رقم (١) لسنة ١٩٧٣ .
 - ب) الأندية ذات الطابع السياحي التي يصدر بتحديدتها قرار من وزير السياحة طبقاً لأحكام القانون رقم (٧٧) لسنة ١٩٧٥ .
- مادة (٣) : يحظر النشر أو الاعلان عن المشروبات المنصوص عليها في المادة السابقة بأية وسيلة .
- مادة (٤) : تلغى التراخيص الخاصة بتقديم الخمور الصادرة للمحال العامة .
- مادة (٥) : يعاقب كل من يخالف أحكام المادة (٣) من هذا القانون بالحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر وبغرامة لا تتجاوز مائتي جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين .

(١) صحيح البخاري (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) ، ومسلم (١٦٩٧ ، ١٦٩٨ / ٢٥) .

(٢) ابن كثير في تفسيره . ٥٦١ / ٢ .

- مادة (٧) : يعاقب كل من يضبط في مكان عام أو في محل عام في حالة سكر بَيِّن بالحس الذي لا تقل مدته عن أسبوعين ولا تزيد على ستة أشهر أو غرامة لا تقل عن عشرين جنيهاً ولا تتجاوز مائتي جنية . ويجب الحكم بعقوبة حبس في حالة العود.

• وينص ص هذا القانون : يباح تقديم الخمر وتناولها في الفنادق والمنشآت السياحية والأندية التي يحددها وزير السياحة (المادة ٢)، كما يباح بيع الخمر ولكن يحظر فقط نشر إعلانات لترويجها (المادة ٣) ، كما يباح شرب الخمر بشكل شخصي ولا يجرم القانون ذلك لذاته، إنما يعاقب السكران إذا وجد في حالة سكر بَيِّن للآخرين في مكان عام ... وأما العقوبة التي قررها هذا القانون في حالة السكر البَيِّن هي إما الحبس بحد أقصى ستة أشهر أو الغرامة بحد أقصى مائتي جنية !!.

- ولما كان هذا هو القانون الوضعي ، كان هذا هو واقع المجتمع من انتشار محلات بيع الخمر، وتقديم الخمر في الفنادق للمصريين وتقديمها في الكثير من النوادي وأماكن لعب القمار، بل وتم تقديم الخمر في الحفلات الرسمية العلنية !

- أما حكم الله وشرعه بصريح اللفظ قطعي الدلالة: قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿ [المائدة : ٩٠ - ٩١] .

- وهذا هو حكم رسول الله ﷺ تنفيذاً لحكم الله وطاعة لأمره: روى أبو داود عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : " كل مخمر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب مسكراً بخست صلاته أربعين صباحاً" (١) ، وروى مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة " ، أما الإسلام يعاقب على مجرد شرب الخمر ولو لم يسكر منها الشارب لاعتباره مضرراً بالصحة متلفاً للمال مفسداً للأخلاق وهو مالا يراعيه للقانون الوضعي.

(١) رواه أبو داود في سننه (٣٦٨٠) وإسناده صحيح .

وعقوبة شرب الخمر في الشريعة هي الجلد ، وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ أتى إليه برجل قد شرب الخمر فضربه أربعين ، وروى أن علياً أمر عبدالله بن جعفر أن يجلد الوليد بن عقبة فجلده وعليّ يعد حتى بلغ أربعين فقال أمسك ، فقال ﷺ جلد النبي ﷺ أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ، وجلد عمر ثمانين ، والفقهاء على رأيين : الأحناف ومالك أنها ثمانون جلدة ، والشافعي أنها أربعون جلدة ، والإمام أحمد عنه روايتان أحدهما أنها ثمانون جلدة .

(٣) إباحة القوانين الوضعية للربا

القانون المدني رقم ١٣١ لسنة ١٩٤٨ ، جاء في المادة (٢٢٦) منه بإلزام المدين بدفع فائدة ربوية إذا تأخر في سداد دينه للدائن.

● فنصت المادة على : " إذا كان محل الالتزام مبلغاً من النقود وكان معلوم المقدار وقت الطلب وتأخر المدين في الوفاء به ، كان ملزماً بأن يدفع للدائن على سبيل التعويض عن التأخر فوائد قدرها أربعة في المائة في المسائل المدنية وخمسة في المائة في المسائل التجارية .

وتسرى هذه الفوائد من تاريخ المطالبة القضائية بها ، وإن لم يحدد الاتفاق أو العرف التجاري تاريخاً آخر لسريانها، وهذا كله ما لم ينص القانون على غيره " .

— والفائدة هي : زيادة مال عن الدين يدفعها المدين إلى الدائن مقابل احتباس الدين إلى تمام الوفاء ، وهنا اعتبر القانون الفائدة التأخيرية تعويضاً للدائن، بينما الشريعة تمنع اشتراط أن يرد المقرض أو المدين زيادة عما اقترض سواء كانت هذه الزيادة من جنس المال المقرض أم من غير جنسه .

— ثم قام القانون المصري برفع السقف الائتماني للفائدة إلى ٧% في المادة (٢٢٧) والتي تنص على ::

" يجوز للمتعاقدين أن يتفقا على سعر آخر للفوائد سواء أكان ذلك في مقابل تأخير الوفاء أم في أية حالة في المائة، فإذا اتفقا على فوائد تزيد على هذا السعر وجب تخفيضها إلى سبعة في المائة وتعين رد ما دفع زائداً على هذا القدر".

- المادة (٢٣٣) تنص على ترك تحديد سعر الفائدة التجارية الربوية للجهات التجارية فنصت: " الفوائد التجارية التي تسرى على الحساب الجاري يختلف سعرها القانوني باختلاف الجهات، ويتبع في طريقه حساب الفوائد المركبة في الحساب الجاري ما يقضي به العرف التجاري " .
- وجاء في القانون المدني . الفصل الخامس (القرض والدخل الدائم) ، المادة (٥٤٢) لتنص على : " على المقترض أن يدفع الفوائد المتفق عليها عند حلول مواعيد استحقاقها فإذا لم يكن هناك اتفاق على فوائد اعتبر القرض بغير أجر " .. والإسلام يحرص على ربط الربح بالتجارة والعمل أي بالجهد المبذول في سبيل تحقيق الربح، لذلك يمنع توليد المال بالمال مجرداً عن عنصر العمل.
- والقانون المدني فيه الكثير من النصوص المخالفة للشريعة الإسلامية في فصول الشركة والرهن والودائع وغيرها، ويكفي أن القانون المدني ذكر في أحكامه العامة أنه لا يعتبر الشريعة الإسلامية مصدراً ومرجعاً لأحكامه ، حيث جاء في الباب التمهيدي . الأحكام العامة ، الفصل الأول : القانون وتطبيقه، المادة (١) : "تسرى النصوص التشريعية على جميع المسائل التي تناو لها هذه النصوص في لفظها أو فحواها، فإذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه، حكم القاضي بمقتضى العرف، فإذا لم يوجد ، فبمقتضى مبادئ الشريعة الإسلامية ، فإذا لم توجد ، فبمقتضى مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة " .
- وهكذا القانون المدني المصري أهمل الشريعة الإسلامية ونحاه جانباً .
- ولما كان هذا هو القانون الوضعي الذي يبيح الربا ، انتشرت الفوائد الربوية وصارت هي الأصل في المعاملات البنكية والتجارية.
- أما حكم الله وشرعه بصريح اللفظ قطعي الدلالة هو تحريم الربا في كل صوره وأشكاله ، والله عز وجل أنزل علينا كتاباً يقول فيه : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩] .

- وفي حديث ابن مسعود وغيره مرفوعاً : لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكتابه " (١) .
- وعن ابن أبي حاتم عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : "والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلته الربا ،
وأهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتباهم ، فإن تابوا
وإلا وضع فيهم السلاح " (٢) .

- وهذا ما حرمه الله عز وجل بنص صريح القرآن (أحل الله البيع وحرم الربا) ، وهذا ما أحلته
القوانين الوضعية وأباحته بنصوص صريحة في أكثر من مادة في القانون المدني كما أسلفنا ذكره .
- وهذه مجرد عينه بسيطة من القوانين الوضعية ، تبرهن أنها احلت ما حرم الله عز وجل ،
وشرعت ما لم يأذن به الله ، وعطلت ما أنزل الله في كتابه وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ،
قال تعالى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا
أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة :
٤٩ - ٥٠] .

- هذه حقيقة الدساتير العلمانية والقوانين الوضعية بوضوح كالشمس ، فهي حكم بغير ما أنزل الله
... وهي شرع الجاهلية في العصر الحديث .. ثم هل بعد ذلك يرتضيها مسلم أو يتحاكم إليها
أو يذهب للاستفتاء عليها !! .

يقول المستشار عبد القادر عودة يرحمه الله : " هذه القوانين التي وُضعت أصلاً لبلاد غير
بلادنا ، ولأقوام يختلفون عنا ، هذه القوانين قد أفسدت علينا تفكيرنا ، ومسخت منطقتنا ،
وأفسدت حياتنا ، هذه القوانين مخالفة للقرآن والسنة ، متحدية للمسلمين ، تسخر من عقائدهم ،
وتمتهن مشاعرهم ، وتعبت بمقدساتهم ، وتسلبهم حقوقهم ، وبذلك خرجت هذه القوانين على

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود، ورواه أحمد ومسلم من حديث جابر كما في الفتح الكبير (١٣/٣) .

(٢) إسناده ابن أبي حاتم . في هذا صحيح إلى الحسن وابن سيرين ، ذكره أحمد شاكر في مختصر تفسير بن كثير ، ٢٩٩/١ .

وظيفتها ، وفقدت أهليتها وشرعيتها ومبررات وجودها ، بما فقدت من مقوماتها وقيامها على غير أصولها لذلك فهي باطلة بطلاناً مطلقاً ، وليس لأحد أن يطيعها، بل على كل مسلم أن يجارها^(١) .

لقد وضح بفضل الله وتوفيقه ، وبما لا يدع مجالاً لشبهة أو ريبة أن هذه الدساتير العلمانية تستند إلى منهج الديمقراطية ونظمها ومبادئها ، فالديمقراطية كما أرادها الغرب هي أساس دساتير الأمة المسلمة ، مبادئ الديمقراطية في نظام الحكم وفي النظام الاقتصادي ، وفي المساواة بين المرأة والرجل، وفي السيادة للشعب وحده ، وفي حرية الاعتقاد المطلقة ، وفي كون القوانين الوضعية هي أساس الأحكام ، وفي إعطاء حق التشريع للشعب .

وهم يعلنون ذلك بوضوح، فكيف ندعي أو نزع من أن الديمقراطية عندنا غير تلك التي في الغرب، حتى لو أرادوا خداع الأمة المسلمة بكتابة مادة شكلية من باب ذر الرماد في العيون أن : " مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع " .. أنهم يريدون بعد ذلك كله أن يخدعوا الناس أننا أمام دستور إسلامي افتراءً على الله، لكن ما هي حقيقة هذه المادة الهلامية ؟ ما هو المرجع الذي اعتمدوا عليه لشرح وتحديد " مبادئ الشريعة الإسلامية "؟

- جاء في مقدمة ديباجة دستور ٢٠١٤ ما نصه : " نحن نؤمن بالديمقراطية طريقاً ومستقبلاً وأسلوب حياة وبالتعددية السياسية وبالتداول السلمي للسلطة ونؤكد على حق الشعب في صنع مستقبله، هو . وحده . مصدر السلطات ..

- نحن الآن نكتب دستوراً يستكمل بناء دولة ديمقراطية حديثة ، حكومتها مدنية ...

- نكتب دستوراً يؤكد أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع وأن المرجع في تفسيرها هو ما تضمنه مجموع أحكام المحكمة الدستورية العليا في ذلك الشأن"^(٢) .

المادة الثانية .. الخديعة الكبرى

كل الدساتير المصرية ، منذ كتابة أول دستور وضعي، يكتب فيها : " مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع " عدا دستور ١٩٥٨ - دستور الوحدة مع سوريا - ثم حذف في دستور

(١) الاسلام وأوضاعنا القانونية . عبد القادر عودة . ص ٢٧ ، ٥٤ .

(٢) ديباجة دستور ٢٠١٤ ، ص ٣ ، ٤ .

١٩٧١ : الألف واللام لتصبح (مصدر رئيسي للتشريع) ، ثم أعيدت في دستور ١٩٨٠ حتى

الآن ، فما هي حقيقة هذه المادة ؟ وما هو تفسير معنى كلمة " مبادئ الشريعة الإسلامية " ؟

- هذه المادة وضعت لخديعة الأمة ، كالبرواز لدستور علماني يخالف في نصوص مواده الشريعة

الإسلامية ، وكعنوان مزيف لواقع مزري يفصل الدين عن كل مناحي الحياة ، وكمعنى مضلل

لحقيقة الشريعة الإسلامية وأحكامها وقواعدها ..

- في البداية يقول السنهوري في تعريفه لمبادئ الشريعة هي " : كلياتها التي هي ليست محل خلاف

بين الفقهاء " ... أتدري ماذا يعني هذا التعريف؟ وهو أول مفهوم صدر في القانون المدني عام

١٩٤٧ ولا يزال مطبقاً حتى الآن ...

- إن كليات الشريعة التي هي ليست محل خلاف بين الفقهاء هي مبادئ :

(١) لا ضرر ولا ضرار

(٢) درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

(٣) ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب .

(٤) الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً .

• وهذه المبادئ التي تدور حول جلب المصالح ودفع المفاسد توجد في كل الشرائع الانسانية ،

ولا يختلف عليها أحد في العالم .

• ولكن النزاع في حقيقته حول:

- من الذي يحدد المصالح وكيفية جلبها ؟

- ومن الذي يحدد المفاسد وكيفية دفعها ؟

- البشر ... أم الله خالق كل شيء ؟

- الأهواء .. أم شرع الله العليم الحكيم ؟

• فالربا مثلاً هو من أعظم المصالح عند الغرب، ولكنه هو ذاته من أعظم المفاسد في شرع الله

التي تستجلب محاربة الله ورسوله ﷺ .

• أما المرجعية التي أرادوها لتفسير معنى كلمة مبادئ في دستور ٢٠١٤ ، فهي مرجعية المحكمة الدستورية العليا في أحكامها ، فماذا قالت هذه المحكمة ؟

قالت أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي: "الأحكام الشرعية قطعية الثبوت والدلالة".

وهذا التعريف قصر أحكام الشريعة الإسلامية إلى ما يقرب من ١٠% فقط منها ، وأهم ٩٠% من أحكامها .

- يقول الامام الشاطبي : أدلة الأحكام أربعة أنواع وهي :

(١) قطعي الثبوت والدلالة كالنصوص المتواترة .

(٢) قطعي الثبوت ظني الدلالة كآليات المؤولة .

(٣) ظني الثبوت قطعي الدلالة كأخبار الآحاد .

(٤) ظني الثبوت وظني الدلالة كأخبار الآحاد التي مفهومها ظني.

والشيخ مناع القطان رحمه الله يقول: " إذا قارنا بين القرآن والسنة من حيث القطعية والظنية، تبين لنا أن القرآن كله قطعي الثبوت ومنه ما هو قطعي الدلالة ومنه هو ظني الدلالة، أما السنة فمنها ما هو قطعي الثبوت ومنها هو ظني الثبوت ، وكل واحد منهما قد يكون قطعي الدلالة وقد يكون ظني الدلالة " .

معنى قطعي الثبوت هو : ما قطعنا بنسبته إلى الشارع ، كالقرآن والسنة المتواترة ، أما ظني الثبوت كأحاديث الآحاد التي لم تجمع الأمة على تلقيها بالقبول، وظني الدلالة هو ما كان محتملاً لأكثر من وجه ، فحمله على معنى معين أمر ظني فيه احتمالية يحتملها النص ، بينما قطعي الدلالة: هو النص المراد منه لا يحتمل غير معناه ولا يحتمل تأويلاً لفهم معنى غيره منه . لذلك فالنصوص قطعية الثبوت والدلالة هي ما لا اجتهاد فيه ، والقرآن كله ليس قطعي الثبوت والدلالة، لأن فيه آيات وأحكام ظنية الدلالة تحتمل أكثر من معنى، كما أن السنة المطهرة ليست كلها قطعية الثبوت والدلالة، لأن هناك أحاديث قطعية من حيث ثبوتها وصحتها إلا أنها تحتمل أكثر من معنى، وهناك أحاديث لا تثبت في نسبتها إلى رسول الله ﷺ بينما هي قطعية في دلالتها.

ومن أمثلة آيات القرآن قطعية الدلالة قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء : ١٢] والآية واضحة في دلالتها أن الزوج الرجل له نصف ما تركه زوجته إذا ماتت عن غير ولد لها ، وقوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور : ٢] ، والآية لا تحمل إلا وجه واحد ، حد الزنا مائة جلدة ، إذن فرض في الإرث مقدر بنصاب محدد ، وحد في العقوبة معين هي أحكام قطعية الدلالة.

ومن أمثلة الآيات القرآن ظنية الدلالة قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، ولفظ " القرء " في اللغة مشترك بين معنيين ، حيث يطلق لغة على الطهر ، ويطلق لغة على الحيض ، إذن فهو نص ليس قطعي الدلالة لأنه يحتمل أن يراد به ثلاثة أطهار ، ويحتمل أن يراد ثلاث حيضات ، لذلك اختلف المجتهدون عدة المطلقة ثلاث حيضات أم ثلاثة أطهار.

- ومن أمثلة السنة قطعية الدلالة، ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدي قبل خروج الناس إلى الصلاة) وهو حديث قطعي الثبوت رواه البخاري / (١٥٠٣) ومسلم (٩٨٤) ، ودلالة النص على فرضية زكاة الفطر واضحة ولم يختلف بذلك أحد من العلماء على فرضية زكاة الفطر.

- ومن أمثلة السنة ظنية الدلالة، ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب أن لا يُصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون : لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحد من الفريقين.

- والحكمة من الأحكام ظنية الدلالة هي : إعطاء مساحة للعقل والفهم والاجتهاد لأهل الفقه ، وهذا هو الفقه لأن العلم بالمسائل القطعية لا يسمى فقهاً ، ولو كانت كل نصوص الدين قطعية لما أصبح هناك مجال للاجتهاد .

- إذن الأحكام قطعية الدلالة تمثل ثوابت الشريعة الإسلامية التي لا تختمل تأويلاً أو تبديلاً ولا يتغير مفهومها بتغير الزمان والمكان وهي أحكامها التفصيلية وقوانينها الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان .
- بينما الأحكام ظنية الدلالة تمثل مساحة اجتهاد أهل الفقه وعلماء الأمة فيما يتغير مواجهة لتغير الزمان والمكان وتطور الحياة وتنوع مصالح العباد ، فهي تمثل أحكام الشريعة الكلية وقواعدها الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان .
- وهكذا صارت الشريعة الإسلامية بقواعدها الأساسية وأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ الرسالة إلى آخر الزمان ، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكي تستمر وتنمو وتتطور وتتجدد وتظل صالحة لكل زمان .
- وقد بلغت الأحكام قطعية الدلالة قطعية الثبوت ما يمثل عشرة بالمائة فقط من أحكام الشريعة حيث أنها تمثل ثوابتها، بينما بلغت الأحكام ظنية الدلالة قطعية الثبوت أو ظنية الثبوت ما يقرب من تسعين بالمائة من أحكام الشريعة لأنها تمثل ما يستلزم لمواجهة تغير الزمان والمكان وتطور الحياة وتنوع مصالح العباد .
- لذلك وبالعودة إلى تفسير المحكمة الدستورية العليا لعبارة: مبادئ الشريعة الإسلامية بأنها: " الأحكام قطعية الدلالة قطعية الثبوت ، يثبت لنا من هذا التفسير أن واضعوا هذه المادة أراد أن يلبسوا على الناس أمر دينهم ، ويخدعوا الشعوب المسلمة أن الشريعة الإسلامية منصوص عليها في دستورهم العلماني بامتياز، والمخالف للشريعة في مواده، وفي نصوص القوانين الوضعية التي وضعوها.
- كما أن هذه المادة كسراب بقية يحسبه الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، فهي ليست مفعلة أصلاً بل لا سلطان لها على القضاة في المحاكم، الذي يلتزمون بالقوانين الوضعية في أحكامهم ، ومن أحد الأدلة القوية على ذلك ، الواقعة التي أشرنا إليها آنفاً بحكم المستشار محمود غراب على متهم بالسكر البين بالجلد ثمانين جلدة ، حيث تم وقف الحكم وإلغاؤه من قبل النيابة العامة ولجنة التفتيش القضائي ومحكمة استئناف الاسكندرية ، فقدم المستشار

محمود غراب تظلماً قال فيه : " أن الدستور ينص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للحكم ، لذلك حكمنا بالجلد بناء على ذلك بعد ثبوت الإدانة، واعتراف المتهم أمامنا" .

- وبماذا ردت محكمة استئناف الاسكندرية في حيثيات حكمها لإبطال حكم الجلد ؟ وذلك في تاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٨٢ برئاسة المستشار سعد العيسوي رئيس محكمة استئناف الاسكندرية الذي قال في حيثياته :

١- من قضى بذلك قد حث في يمينه القضائي (يقصد محمود غراب) الذي أقسم فيه على الحكم بالعدل واحترام القوانين، وقضاء هذه المحكمة بقانون آخر غير القوانين المطبقة في ذلك حث باليمين، فما بالك بمن يطبق قانوناً يعلم أنه غير معمول به (يقصد الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة).

٢- إن من قضى بهذا الحكم وإن صح فقد خالف الدستور في المادة (٦٥) والتي تنص على: " لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون " . ولا يجوز الاعتماد في ذلك على أن حد السكر مقرراً شرعاً ، وأن الشريعة الإسلامية هي الأولى بالتطبيق ، لأن المشرع وحتى الآن يطبق قوانين مكتوبة ومقررة ، وليس للقاضي أن يعمل غيرها من لدنه ، مهما اختلفت مع معتقده الديني والسياسي ، فجنائيا لا يجوز ولا يقبل من القاضي أن يجرم فعلاً لا ينص القانون على اعتباره جريمة، ولا يجوز له أو يقبل منه أن يقضى بعقوبة لم ينص عليها القانون.

٣- أن مصدر هذا الحكم لم يعرف شيئاً عن علم العقاب، فقد شدد المشرع الوضعي في العقوبة وجعلها ستة أشهر حماية المجتمع ، وهذا أحفظ للمجتمع من مجرد ٨٠ جلدة !! وإنا لله وإنا إليه راجعون.. قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]

..

● لقد وضح بعونه الله وتوفيقه المخطط الضخم الذي تعرضت له الأمة المسلمة لإحلال الدساتير العلمانية والقوانين الوضعية بديلاً عن شرع الله عز وجل ، مخطط بدأ تنفيذه منذ مائتي عام على أيدي حكام طواغيت أذئاب الغرب الأوربي الصليبي الفاعل الرئيسي وأصحاب مكر الليل

والنهار وتم تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ثم عن كل مناحي الحياة شيئاً فشيئاً في خطوات الشيطان التي اتبعتها الأمة، وسارت خلفها حذو القذة بالقذة ..

● لقد وقعت الأمة المسلمة في مصيدة عنكبوت الروم الصليبي، ولم تنتبه لتحذيرات آيات القرآن الواضحة والبيّنة ، من اتباع مناهج أعداءها من أهل الكتاب الذين يهدفون زعزعة عقيدة التوحيد لدى الأمة، وإيقاعها في شرك الضلال والكفر، قال تعالى محذراً الفئة المؤمنة من التخلي عن عرى دينها ومنهجها الشامل لكي مناحي الحياة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [٢٠٨] ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٠٨ - ٢٠٩]

- وقال تعالى محذراً الفئة المؤمنة من التلقي عن مناهج أهل الكتاب من الارتداد إلى الكفر بعد الايمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٠ - ١٠١] .

- وقال تعالى محذراً الفئة المؤمنة من مخالفة متابعة الرسول ﷺ ومنهجه من بعد ما تبين لهم طريق الحق والرشاد ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

- وحدث بالفعل ما لا يحمد عقباه ، حيث أهملت هذه التحذيرات القرآنية كلها ، وصارت الأمة المسلمة تدور في فلك ما حبكه الغرب الصليبي ونسجه لها ، فدخلت ملعب الديمقراطية منهج الجاهلية الحديثة . الذي خطه لها اعداؤها باقتدار، فالتزمت بالدستور العلماني ياسق العصر الحديث . وأقسمت على احترامه وخضعت للقوانين الوضعية التي تحل ما حرمه الله عز وجل وتحرم ما أحله سبحانه وتعالى ، تلك القوانين المستوردة من الغرب . والتي أقرت بالسيادة للشعب وحده مصدر السلطات، بدلاً من مقاطعة هذه الجريمة في مفاصلة تامة وواضحة ، فبدلاً من القيام يتبين للناس حقيقة هذا الدستور العلماني .. وحقيقة هذه القوانين الوضعية .. وحقيقة هذه المجالس الشركية .. وحقيقة سيادة الشعب .. تمت المشاركة بهدف المنازعة والانكار ، فلم يتم انكار وتغيير قانون وضعي واحد يخالف شرع الله ، ولم يتم اسقاط مادة

واحدة من الدستور تحارب شرع الله عز وجل على مدار أكثر من أربعين سنة !! والغرب الصليبي في سعادة غامرة لأنه حقق مخططة المحكم ، حيث فرض قوانين لعبته على الأمة المسلمة ، ووجد من يشاركه من أفرادها في خديعة الشعوب المسلمة ، ويدور في الفلك الذي نسجه باقتدار ..

- ثم تفرز لنا مأساة العصر هذه - وشر البلية ما يضحك - منتجاً جديداً وطرازاً فريداً للدين اسمه : " الإسلام الديمقراطي !! منتج يجمع النقيضين : الإسلام .. والديمقراطية ، منهج الله .. وأهواء البشر ، السيادة لله .. والسيادة للشعب ، التحاكم إلى الله .. والتحاكم إلى الطاغوت ، الشريعة الإسلامية .. والدستور العلماني ، أحكام الشرع .. والقوانين الوضعية ، التنوع والعدل بين الرجل والمرأة .. المساواة بين الرجل والمرأة ، منتج يريد الجمع بين : التوحيد .. والشرك ، والحق : أنهما خطان منفصلان لا يجتمعان أبداً .. إنه مفرق طريق : إما التوحيد وإما الشرك .. إما الإسلام الناصع الخالص .. وإما الديمقراطية بمنهجها وقواعدها وتقاليدها ومبادئها ..
- وكما أن الواقع أثبت أن لعبة الديمقراطية صارت في يد الغرب الصليبي كالصنم العجوة ، إن أرادوا تقديسه وتمجيده فعلوا ذلك ، ثم إذا جاعوا أكلوه !
- إن القرآن الكريم رسم لنا الطريق بوضوح . وهو ما أثبتته الواقع والتاريخ . رسم لنا أن منهج الإسلام لا يجتمع مع منهج الجاهلية ، وأن إقامة منهج الإسلام في الأرض يتطلب أولاً إزالة منهج الجاهلية بقواعدها وتقاليدها ومبادئها ونظمها ، ولا يتم ذلك بترقيع منهج الجاهلية من داخله ، لا بد من إبطاله بطلاناً أصلياً أولاً ..
- إن القرآن الكريم استفاض في التأكيد بالبيّنات الساطعات أن الله عز وجل لا يقبل أو يرضى مساراً فيه ولوج بكفر أو شائبة بشرك . . إن القرآن الكريم أكد لنا أن القبول لا يكفيه إخلاص النيات ، ولكن لا بد مع الإخلاص من المتابعة لهدي النبي ﷺ وسنته ونهجه فهو التطبيق العملي للقرآن الكريم ..

• إن سورة (النساء) دعت الأمة المسلمة إلى التعرف على سمات المنهج الرباني وخصائصه ، ثم دعته إلى التحاكم إليه ، وأخبرتنا السورة أن الذي لا يتحاكم إلى منهج الله .. يتحاكم إلى الطاغوت .. وقد أخل حينها بشرط الإسلام وحد الإيمان:

— قال تعالى ﴿ أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] .

— قال تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

— وبعد ما خاطبت سورة النساء المحكومين ، جاءت سورة (المائدة) تخاطب الفئة المؤمنة أن تقيم شرع الله ، وأن تحكم بما أنزل الله ، وأخبرتنا السورة أن الذي لا يحكم بما أنزل الله .. فأولئك هم الكافرون ... فأولئك هم الظالمون .. فأولئك هم الفاسقون .

قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤]

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] .. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] .

— والمؤمن يعتني بالحكم الشرعي ، ويعتبر بالواقع والتاريخ ، ولكنه ينشغل بالحكم الشرعي أكثر لأن مخالفته تعنى عدم القبول والخذلان في الدنيا ، والعقوبة بالنار في الآخرة .. والواقع قد يقوم أعداء الدين بتغيير قواعد لعبته وقد تنزلق الفئة المؤمنة في مزالق وحبائل قواعد اللعبة الجديدة ، ولكن الحكم الشرعي يحصنها ويحميها بإذن الله .. فالخوف من الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان ... والخوف من ولوج النار في الآخرة أهم عند المؤمن من قيام دولة الإسلام نفسها .. لذلك لا يبرر للمسلم أن يقع في الشرك لإقامة التوحيد أبداً .. ولو بمثقال ذرة من شرك .

قال تعالى ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ،

ولكن من الذي يأتي آمناً يوم القيامة ؟ قال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ

الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ [الأنعام : ٨٢] ، " لم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أي : لم يخالطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن يوم الفزع الأكبر .. لذلك :

- أيها الحواريون: لا تطلبوا (المائدة)..ولديكم ما أنزل الله من آيات بينات ومعجزات خارقات.
- أيها المؤمنون : لا تتحاكموا إلى القوانين الوضعية والدساتير العلمانية .. ولديكم ما أنزل الله من كتاب حكيم وشرع قويم .
- وهذا هو عنوان سورة (المائدة) وهذا هو موضوعها الرئيسي .

ثالثاً : الشريعة وفقه التطبيق

- وبعد أن قمنا بعون الله وتوفيقه بعرض كيفية تنحية الشريعة عن الحكم ثم تنحيها عن كل مناحي الحياة ابتداءً من القرن التاسع عشر وحتى وقتنا الحالي، وبعد عرض حقيقة الدساتير العلمانية والقوانين الوضعية التي تتحاكم إليها الأمة المسلمة، نقوم الآن بعرض كيفية عودة الشريعة الإسلامية للتطبيق في حياة الناس ، وذلك حتى لا نكون قد اكتفينا بتشخيص داء الأمة العضال ، دون توصيف العلاج بإذن الله ، وحتى لا يكون عرض المنهج الحركي للقرآن وبيانه للصراط المستقيم الذي وجب على الأمة اقتفائه والسير على خطواته، حتى لا يكون هذا العرض عرضاً نظرياً ، بل يكون بإذن الله عرضاً واقعياً للمنهج الرباني الذي يبينه لنا القرآن في تفاعله مع الواقع ، وامكانية تطبيقه بعون الله وفضله إن أحسنا التعامل مع هذا المنهج القرآني واستجبنا لتوجيهاته وأوامره ..

التطبيق الكامل للشريعة أم التطبيق المرحلي ؟ !

شريعة الله نسخت كل الشرائع

قال تعالي ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

- يقول ابن القيم رحمه الله : " وقد جاء القرآن وصح الاجماع بأن دين الإسلام نسخ كل دين كان قبله ، وأن من التزم ما جاءت به التوراة والانجيل ، ولم يتبع القرآن فإنه كافر ، وقد أبطل

الله كل شريعة كانت في التوراة والانجيل وسائر الملل ، وافترض على الجن والانس شرائع الإسلام ، فلا حرام إلا ما حرمه الإسلام ولا فرض إلا ما أوجبه الإسلام " (١)

- ويقول ابن تيمية رحمه الله : " فدين الأنبياء واحد ، وهو دين الإسلام ، لكن بعض الشرائع تتنوع ، فقد يشرع في وقت أمراً لحكمة ثم يشرع في وقت آخر أمراً آخر لحكمة ، كما شرع فأول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ، ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة، فتنوعت الشريعة والدين واحد ، ثم جاءت شريعة الإسلام تنسخ ما قبلها من الشرائع ، فمن تمسك بالمنسوخ دون الناسخ ، فليس هو على دين الإسلام ، ولا هو متبع لأحد من الأنبياء ، ومن بدل شرع الله ، وابتدع شرعاً فشرعه باطل لا يجوز اتباعه كما قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ، ولهذا كفر اليهود لأنهم تمسكوا بشرع مبدل منسوخ، والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، ومحمد ﷺ خاتم الرسل ، فعلى جميع الخلق اتباعه واتباع ما شرعه من الدين ، وهو ما أتى به من الكتاب والسنة ، فما جاء به الكتاب والسنة فهو الشرع الذي يجب على جميع الخلق اتباعه وليس لأحد الخروج عنه وهو الشرع الذي يقاتل عليه المجاهدون وهو الكتاب والسنة " (٢)

- قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

• ولما اكتمل بيان الشريعة وتم ، لم يسمح أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أن تنتقص منه لبنة واحدة من لبناته ، حينما ارتد بعض المسلمون في الجزيرة العربية ، فقال حينها الصديق رضى الله عنه : " لقد اكتمل الدين بوفاة رسول الله ﷺ ، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها " (٣)

(١) أحكام أهل الذمة ١ / ٥٣٣ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٣٥ / ٣٦٤ .

(٣) رواه الجماعة إلا ابن ماجه ، واللفظ عند مسلم والترمذي .

- ويستدل من الأدلة السابقة أنه لا يجوز ترك شيء من الشرع ، وتطبيق جزء آخر من الشرع الكامل التام الناسخ لكل الشرائع ، فالأصل هو سيادة وهيمنة شريعة الإسلام على كل مناحي الحياة، سيادتها وهيمنتها على أي شريعة سماوية أخرى ، فلا يجوز أن يتحاكم إلى جزء من شريعة الإسلام وتعطيل جزء منها ، بل لا بد من إعلان السيادة المطلقة الكاملة المتفردة للشريعة الإسلامية منذ اللحظة الأولى لإقامة أي حكم إسلامي، وهذا لا يعنى الإتيان بالواجبات كلها ، وإلغاء المنكرات كلها دفعة واحدة في حالة الدولة المسلمة الناشئة، إنما يعنى ترتيب الأولويات ولكن في ظل القانون العام الأعلى للدولة وهو الشريعة الإسلامية .
- ولكن تثار بعض الشبهات مطالبة بالتدرج في تطبيق الشريعة ، تطرح تأهيل المجتمع وحل مشاكله الاقتصادية والتغلب على المعوقات الداخلية والخارجية أولاً ثم يبدأ في تطبيق الشريعة حسب تأهل الناس وجاهزيتهم رفقا بهم وتيسيراً عليهم فيتم البدء بالجانب الأخلاقي والاجتماعي وتأخير الجانب الجنائي ومنظومة العقوبات ، ويستغرق هذا التأهيل ما قد يستغرقه من سنوات أياً كان، وحينما يجد الحاكم حينها استعداد المجتمع قد بلغ أهبتة يشرع في التطبيق المرحلي كما ذكر وذلك يعتبر من حسن سياسة الناس المأمورين بها شرعاً وحتى لا تحدث مفاسد وأضرار كبرى بسبب التطبيق الكامل للشريعة !

- ونقوم بتنفيذ هذا الطرح بعون الله وتوفيقه وتقسيمه إلى عدة نقاط هي :

أولاً : الشبهات والرد عليها :

- شبهة : حل مشاكل المجتمع قبل تطبيق الشريعة .
- شبهة : حديث معاذ رضى الله عنه والتدرج في بيان الأحكام .
- شبهة : تعطيل حد السرقة في عام المجاعة .
- شبهة : جواز ارتكاب بعض المحرمات وترك بعض الواجبات ، والموازنة بين المصالح والمفاسد لدرة المفسدة الغالبة من عنت الناس والتشديد عليهم .

ثانياً :

نحيب بإذن الله على سؤال : بأية قوانين يحكم بها في حالة التدرج في تطبيق الشريعة .

ثالثاً :

نين مزايا سيادة الشريعة منذ اللحظة الأولى .

رابعاً :

نختم هذه الفقرة بتبنيه خطير : التنازلات في الثوابت لن تقيم شرعاً .

الشبهة الأولى : حل مشاكل المجتمع قبل تطبيق الشريعة

• الشبهة هي : لا بد ابتداءً من القضاء على الفقر والبطالة والفساد وانعدام الأمن، ولا بد من

إطعام الناس وتوفير لهم الأمن والحياة الكريمة ثم تطبق الشريعة.

دحض الشبهة بعون الله من خلال ما يلي .:

- نحن كمسلمين نؤمن بأن الفقر والبطالة والفساد هذه كلها من نتائج عدم اتباع شرع الله عز وجل، ونتيجة لاتباع أهواء البشر ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦]، ولما أتبعنا القوانين الوضعية ظهر قلة البركة وضيق العيش وكساد السلع وغلاء الأسعار وانتشرت الإباحية والعري، قال النبي ﷺ: " لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحرروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم " (١).

فالحال الموصوفة في الحديث كلها أشكال نتيجة لتعطيل شريعة الله، ظهور الفاحشة من نتائج تعطيل حد الزنا ، والسماح بها تحت ما يسمى " الحريات الشخصية" ، ومنع الزكاة لأن دستور الدولة لا يفرض الزكاة على من تجب عليه ، إنما يفرض الضرائب ، ثم نص النبي ﷺ على الحكم بكتاب الله فقال (وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل) .. لذلك ظهرت الأمراض والأوجاع ومنع المطر وقلة البركة وجور السلطان كنتيجة لتعطيل شرع الله عز وجل.

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجة والحاكم والبخاري والمنذري .

- لذلك فالذي يطرح ببقاء الشريعة معطلة حتى نتخلص من مشاكل المجتمع كالفقر والفساد وانعدام الأمن ! إن القائل بذلك يريد مداواة المرض بسببه .

- وهذه سورة (المائدة) التي تدعونا للوفاء بعهد الله ورسوله في أوضح أشكاله بتطبيق شرع الله وتحكيم كتابه الذي أنزله، تدحض لنا هذه الشبهة ببساطة ووضوح في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

يقول ابن كثير في تفسيره: (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) يعني لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل، و(وما أنزل إليهم من ربه) قال ابن عباس وغيره: يعني القرآن ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمد ﷺ، (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعني كثرة الرزق النازل لهم من السماء والنابت لهم من الأرض" (١) .

- إذن العمل بشرع الله عز وجل وكتابه يؤدي لكثرة الرزق وبركته وحل مشاكل المجتمع الاقتصادية، بينما القائل بالتدرج في تطبيق الشريعة بالبدء في حل المشاكل الاقتصادية وتحسين أحوال المعيشة أولاً ثم نطبق شريعة الله، نسئله عدة أسئلة:

- إن كانت حياة الناس تصلح وتقضى على مشاكله بدون الشريعة ،فما فائدة الشريعة إذن؟
- هل علينا أن نصلح دنيانا ونمنع الفساد بالقوانين الوضعية وبغير ما أنزل الله؟
- هل جاءت الشريعة لصالح الآخرة فقط؟
- أليس مُنزل الشريعة سبحانه وتعالى هو الأعلّم بما يحتاجه عباده لصالح دنياهم ؟

الشبهة الثانية : حديث معاذ ؓ والتدرج في تطبيق الأحكام

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ١ / ٦٢٢ .

- الشبهة هي : حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وقال له : " إنك ستأتي قوماً أهل الكتاب ، فإذا جنتهم فأدعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم : أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " رواه البخاري ومسلم .

وهذا دليل واضح وصريح على جواز التدرج في تطبيق الأحكام حيث أن الحديث كان بعد نزول الأحكام وفرض الفرائض ، ومع ذلك تدرج النبي ﷺ في دعوة أهل الكتاب في اليمن وفقاً بهم وتثبيتاً للإيمان في نفوسهم .

دحض الشبهة بعون الله من خلال ما يلي :

- هذا الحديث الشريف ليس دليلاً على التدرج في تطبيق الشريعة، ولكنه دليل على ترتيب الأولويات في عرض الشريعة وبيانها للناس، فتوجيه النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه أن يدعوا الناس في اليمن إلى الشهادتين أولاً ثم الصلاة ثم الزكاة، وذلك لمراعاة الأولويات، فالحكمة تستدعي لأناس لم يقرؤا بالشهادتين ألا يبدأ معهم بالصلاة حتى يقرؤا بالشهادتين أولاً، ثم إذا أقرؤا بشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، أومروا بالصلاة فهي أهم الأركان ثم الزكاة .. ولكن أين الصيام في متن هذا الحديث الصحيح؟

- هل لو أرسل النبي ﷺ معاذاً في رمضان، فهل يعني كلامه لمعاذ ألا يطلب أهل اليمن بالصيام ذلك العام من قبيل التدرج؟ وهل لو طالبهم معاذ لأثم على اعتبار أنه خالف أمر النبي ﷺ بالتدرج على حد تعبير من فهم ذلك من الحديث؟ .

- هل لو أرسل معاذاً قبيل شهر رمضان ، فإنه متروك له حرية تقدير فرض صيام رمضان عليهم من ذلك العام أم لا؟ لأنه المخول بتحديد سرعة التدرج.

الحقيقة : أن شرائع الإسلام كثيرة جداً ، فهذه الأوامر والنواهي ليست على سبيل الحصر ، إنما الحديث يعلمنا أنك إذا أتيت أناساً يجهلون شرائع الإسلام فإنك ترتب الأولويات في عرض هذه الشرائع عليهم ، حتى لا تزدحم عليهم هذه الشرائع فلا يستطيعوا تعلمها والعمل بها .

- ودليل أن هذا الحديث لا علاقة له بالتدرج في تطبيق الشريعة ، هو أن هناك أحاديث أخرى كثيرة يأمر فيها النبي ﷺ أقواماً أسلموا بأمر الأمور التي طلبت من أقوام آخرين ، ونلاحظ أنه ﷺ نوع في أوامره ونواهيه ليس على سبيل الحصر ، إنما على سبيل تنوع التكليف وطريقة عرضها وبيانها للناس والله أعلم .

- فلما وفد على النبي ﷺ وفد عبد القيس أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع ، أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ، ونهاهم عن أربع : عن الحنتم والدباء والتقير والمزفت " (وهي أوعية كان النبيذ يصنع فيها) . والحديث متفق عليه .

ف نجد هنا في هذا الحديث : أن النبي ﷺ ذكر الصيام وإعطاء الخمس من المغنم ، ونهى عما يُصنع فيه الخمر بخلاف ما فعل مع معاذ ؓ ، فهل هذا يدل على أنه تدرج بالتشريع أو التطبيق لوفد عبد القيس تدرجاً مختلفاً عما تدرجه مع أهل اليمن ؟ .

إن هذه الأحاديث دلالة على تقديم وتأخير بيان الأحكام الشرعية وتعليم فرائض الإسلام وعرضها على الناس ، حسب الأولويات المناسبة لكل منهم ، ولا تعنى أبداً تعطيل أحكام شرعية وتأخير تطبيقها حين تأهيل الناس لتقبل هذه الأحكام .

- فلم يقل النبي . حاشاه ﷺ . لمعاذ ؓ : حتى يتعلم أهل اليمن الصلاة ويؤدوا الزكاة أبق على قوانينهم المخالفة للشريعة على ما هي عليه واحكم بينهم بالعرف بينهم .

- وهل قال النبي ﷺ لمعاذ : ركز في البداية على الجانب العقدي والأخلاقي ولا تطبق الحدود لأن أهل اليمن قد يستثقلونها ؟ حينما نسمع ذلك نقول أن هذا هو التدرج في تطبيق الأحكام الذي يُدعى جوازه.. فهل حدث هذا؟.

- أو هل قال له النبي ﷺ : بما أن القرآن، لم يحرم الخمر دفعة واحدة فأنت كذلك لا تمنعها عن أهل اليمن دفعة واحدة؟ هذا هو مقصود التدرج في تطبيق الشريعة الذي يطرح .. فهل حدث هذا ؟

- أو هل قال له النبي ﷺ : إذا وجدت فقراً وقلة أمن في اليمن، فوفر لهم الطعام وفرص العمل وأثبت جدارتك الاقتصادية قبل تطبيق الشريعة؟ هذا هو ما يقول به الداعين إلى التدرج في تطبيق شرع الله عز وجل .. فهل حدث هذا؟ .

- لم يحدث هذا ، وحاشاه ﷺ من فعل هذا ، ولا يتصور أبداً أن يأمر النبي ﷺ معاذاً بشئ من هذا .

إن أهل اليمن بمجرد أن يشهدوا : (أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) فإنهم قد أعلنوا العبودية المطلقة لله وأقروا وخضعوا لسيادة الشريعة ، فلا يؤمرون بأمر ويمتنلون له إلا لأنه أمر الله ، ولا تستجد قضية بعد ذلك إلا ويحكم فيها معاذ بحكم الله، وأهل اليمن وغيرهم من المسلمين لا يصح إسلامهم إلا إذا أخضعوا لحكم الله وشرعه ، لأن قبول الاحتكام إلى غير الله شرك أكبر.

الشبهة الثالثة : تعطيل حد السرقة في عام المجاعة

• الشبهة هي : أن عمر بن الخطاب ؓ أوقف حد السرقة عام المجاعة عندما رأى الناس قد أصابهم الفقر فسرقوا لينقذوا حياتهم فلم يقم عمر ؓ الحد عليهم .

• دحض الشبهة بعون الله من خلال ما يلي .:

أولاً هذا الأثر لم يثبت عن عمر ؓ أصلاً ، فقد رواه ابن أبي شيبه في مصنفه بإسناد فيه مجهولان كما قال الألباني في (إرواء الغليل) .

ثانياً لو ثبت حدوثه فعلاً أن الناس سرقوا عام المجاعة مضطرين ، فمن الطبيعي أن عمر رضي الله عنه لن ينفذ فيهم حد السرقة لماذا؟

لأن الشريعة تأمره ألا ينفذ حد السرقة في هذه الحالة ، حيث أن الشريعة أوجبت شروط لتطبيق حد السرقة وهي :

- ١- أن يكون أخذ الشيء على وجه الخفية .
 - ٢- أن يكون المسروق مالاً لا عيناً محرمة .
 - ٣- أن يبلغ المسروق النصاب .
 - ٤- أن يأخذ السارق ما سرقه من حرزه الذي يحفظ فيه عادة .
 - ٥- ثبوت السرقة بشهادة عدلين أو بإقرار السارق على نفسه مرتين .
 - ٦- أن يطالب المسروق منه بماله.
 - ٧- ألا يكون للسارق شبهة في المال. " شبهة كالأضطرار لفقر أو جوع "
- إذن الشريعة تمنع من إقامة الحد إذا فقد شرط من هذه الشروط ، فإذا لم يبلغ المسروق النصاب مثلاً، لا تأمر الشريعة بالقطع، كذلك إذا افترضنا أنه في عام المجاعة غلت الأطعمة جداً وسرق الفقير الجائع مضطراً ، فإن الشريعة هنا تمنع من إقامة الحد أيضاً، ولو أقام الحاكم المسلم الحد في هذه الحالة يأثم لأنه عمل بخلاف الشريعة نفسها.
 - لذلك فعمر رضي الله عنه لم يُحْكَم عقله أو ينحى جزءاً من الشريعة جانباً لأن الظروف الداخلية لا تسمح، أو لم يقل سنقنن أو نطبق قانوناً بشرياً من خارج الشريعة هذا العام لأن الوضع لا يسمح بتطبيق الشريعة ، بل هو طبق الشريعة رضي الله عنه وأرضاه.
 - فهل قال عالم من علماء الأمة أن عمر أوقف العمل بشيء من الشريعة أو أن هذه الرواية تدل على جواز التدرج في تطبيق الشريعة.
 - إن الذي يريد أن يعطل الشريعة إشفاقاً على الناس من شدتها، إما أنه يجهل أحكام الشريعة ومراعاتها للأضطرار والإكراه ، وإما أنه يسيء الظن بالشريعة ويظن نفسه أرفق بالعباد من ربهم سبحانه وتعالى.

الشبهة الرابعة : جواز ارتكاب بعض المحرمات وترك بعض الواجبات والموازنة بين المصالح والمفاسد لدرء المفسدة الغالبة عند الناس والتشديد عليهم .

• الشبهة هي : أجاز الشرع ارتكاب بعض المحرمات وترك بعض الواجبات خشية وقوع مفسدة أكبر ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

بالرغم من المصلحة في سب آلهة الكافرين وتسفيهاها لتوهين أمر الشرك وإذلال أهله إلا أن الله عز وجل نمانا عن سيهم لوقوع مفسدة أرجح وهي سيهم لله عز وجل ، لذلك ينبغي مراعاة المصالح والمفاسد في التدرج في تطبيق الشريعة خشية من نفور الناس وعنهم والتشديد عليهم .

• دحض الشبهة بعون الله من خلال ما يلي .:

- من الذي يقول إن تطبيق الشريعة يخشى منه مفسدة غالبية؟ وهل هناك مفسدة كبرى أرجح من الشرك المتمثل في التحاكم إلى قوانين وضعية ما أنزل الله بها من سلطان؟ وهل هناك ضرر أشد على الأمة من تعطيلها شرع الله عز وجل الذي جاء لتحصيل المصالح ودرء المفاسد؟ قال تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : (لما ثبت أن الأحكام شرعت لمصالح العباد كانت الأعمال معتبرة بذلك) ، ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد " إعلام الموقعين ٣ / ٩٤ .

- وهل هناك مشقة وعنت في تطبيق شرع الله عز وجل الذي شرعه العليم الخبير بعباده وجعل شرعه مبنى على التيسير ورفع الحرج والرحمة ، قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

• إن سورة البقرة كافية في دحض هذه الشبهة تماماً بعون الله وتوفيقه، فقصة البقرة التي سميت سورة البقرة باسمها كان سبب المشقة التي حدثت لبني إسرائيل هي تشديدهم على أنفسهم وبعدهم عن تنفيذ أمر الله وتكليفه من أول مرة ، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة : ٦٧] . فأخذوا يضيقوا على أنفسهم ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾

ونبيهم يدعوهم لفورية تنفيذ أمر الله ﴿ فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ، فلما تلكأوا عن الانقياد لأوامر الله عز وجل ، شدد الله عز وجل عليهم ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ ، حتى بلغ بهم العنت مبلغه بسبب تأخرهم عن تنفيذ أوامر الله ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .. هذا هو حال أمة شعارها: (سمعنا وعصينا) .

- ثم تحدثت سورة البقرة عن التكاليف التي فرضها الله عز وجل على أمة الإسلام والشرائع التي شرعها سبحانه وتعالى مثل: (كتب عليكم القصاص)، (كتب عليكم الصيام) ، (كتب عليكم القتال) ، (وأتموا الحج والعمرة لله) ، (فاعتزلوا النساء في الحيض) ، (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى)، (وأحل الله البيع وحرم الربا)، (إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) وغيرها من التكاليف والأحكام ، نجد حرص الشارع سبحانه وتعالى على التأكيد أن أصل هذه التشريعات هو التيسير ورفع الحرج والرفق والرحمة كقوله تعالى (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة)، (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)، (ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم) ، وتكرار قوله تعالى (ولا جناح عليكم...) ، (فلا جناح عليكم...) .

لذلك كان موقف المؤمنين من هذه التكاليف والأحكام هو كمال الاستجابة وتام الانقياد وفورية التنفيذ (وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .. وهذا هو موقف الأمة المسلمة المفترض تجاه شريعة الله عز وجل بفورية تنفيذ أحكامها وليس التلكؤ في تنفيذ أحكامها، وبتمام الانقياد لتكاليفها وليس بتعطيل هذه التكاليف أو تأخيرها.. فكان دعاء المؤمنين نتيجة لهذه الاستجابة لشرع الله في آخر سورة البقرة بالتخفيف ورفع أية مشقة أو عنت عنهم ، قال تعالى (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) فاستجاب الله عز وجل لدعاء عباده المؤمنين كما جاء في الحديث الصحيح، وقال سبحانه وتعالى: " قد فعلت"^(١) ، وفي رواية: " نعم "^(٢) .

(١) صحيح مسلم عن ابن عباس .

(٢) صحيح مسلم عن أبي هريرة .

- فهل بعد ذلك من أحد يدعى أن تطبيق شرع الله عز وجل فيه مشقة أو عنت أو التشديد على الناس، أو يزعم أننا لكي نرفق بالناس علينا التدرج في تطبيق أحكام الشريعة، فلنبداً بجزء منها وتأخير جزء حسب طاقة الرعية تأليفاً لقلوبهم!!.

- ألم تعرض سورة البقرة الأحكام والتشريعات كالسياسة الواحدة المتناسكة : قصاص / صيام / حج وعمرة / قتال / طلاق / إنفاق / أخلاق / معاملات / اقتصاد / عبادات ... فأبي جزء من الشريعة تقوم بفصله من هذه السياسة المتناسكة تقع تحت قوله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ، أي : اعملوا بجميع غرى الإسلام وشرائعه^(١).

- إن الحرص على إرضاء الناس تجاه تطبيق شرع الله عز وجل يعنى اتباع أهوائهم ، قال ابن تيمية رحمه الله: " فليس حسن النية بالرعية والإحسان إليهم أن يفعل ما يهوونه ويترك ما يكرهونه، فقد قال الله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) ، وقال تعالى للصحابة الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه ، لكن ينبغي له أن يرفق بهم فيما يكرهونه " ^(٢).

- يقول الله عز وجل ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة : ٤٨ ، ٤٩].

يقول ابن كثير في تفسيره : " أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء وآراء هؤلاء الجهلة الأشقياء " ^(٣).

- وفي حالة التطبيق الكامل للشريعة مع مراعاة ترتيب الأولويات في بيائها وعرضها، ستكون السيادة العليا لشرع الله عز وجل ، أما في حالة دعوى التدرج سواء بتأخير تطبيق الشريعة حتى

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٢٢٩/١ .

(٢) الفتاوى ٣٦٤ / ٢٨ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير . ٦١٠/١ .

تهيئة الناس وتحسين أحوال معيشتهم أو بتطبيق جزء من الأحكام وتعطيل جزء، ففي هذه الحالة لما ستكون السيادة العليا في المجتمع؟ .

ثانياً: ما هي القوانين التي يحكم بها في حالة التدرج في تطبيق الشريعة؟

- إن بديل الحكم بشريعة الله ، هو الحكم بالقوانين الوضعية ، فهل هناك بديل ثالث وسط بينهما؟ لذلك فإما الحكم بما أنزل الله أو الحكم بأهواء البشر وقوانينهم !

- قال تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨] .

- لذلك فعبرة : " نريد أن نتدرج في تطبيق الشريعة" تعنى : " نريد ألا نحكم بما أنزل الله لفترة"، ولا تختلف بالتالي عن عبارة " نريد أن نحكم بغير ما أنزل الله لفترة من الزمن " ، فالذي يحكم لن يصل إلى منظومة من الفراغ ، بل هناك قوانين قائمة في التعاملات الربوية تبيح الخمر، والزنا ...

- فإذا تصورنا أنه سيتم تطبيق بداية ١٠% من الشريعة ثم ٢٠% من الشريعة وهكذا إلى الوصول إلى ١٠٠% تطبيق كامل للشريعة، فالطبعي أنه سيتم تطبيق النسبة الباقية أثناء التدرج، من القوانين الوضعية المخالفة لشريعة الله تعالى كما بينا سالفاً، فقد تطبق ١٠% شريعة في الجانب الاجتماعي بينما الجانب الاقتصادي قائم على المعاملات الربوية ، وبينما الزنا مباح في القوانين المعمول بها حينها، فمنظومة القوانين الوضعية هي القائمة في النظام السياسي و الاقتصادي والاجتماعي والجنائي ، فمن يريد التدرج في تطبيق الشريعة سيحكم ولا شك فترة من الزمن ٤ سنوات، أو ١٠ سنوات أو غيرها... بقوانين وضعية ولو بنسبة ، فمعنى هذا أنه لا يحكم بما أنزل الله ، لأنه لم يعلن منذ اللحظة الأولى أن السيادة للشرع وليست للشعب.

- فأين يذهب من يفعل ذلك حينئذ من قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ... فأولئك هم الظالمون .. فأولئك هم الفاسقون.

- هل هذه الآيات تنطبق على نوعية معينة من البشر ولا تنطبق على آخرين لأن نواياهم طيبة؟ أو لأنهم في المقابل يحكمون بشيء مما أنزل الله؟ ما الذي يعفيهم من هذه الأوصاف حينئذ؟ .
- الخلاصة هنا : أن القول بالتدرج في تطبيق الشريعة معناه الحكم بغير ما أنزل الله، لأنه سُنقر فيه مرحلياً قوانين وضعية مخالفة لأحكام الشريعة.

ثالثاً : ما هي مزايا سيادة الشريعة منذ اللحظة الأولى؟

- هناك نقلة كبيرة يحدثها إعلان سيادة الشريعة على المجتمع منذ اللحظة الأولى حيث يصبح كل شيء مبنياً على العبودية المطلقة لله، فهذا الإعلان فإن أعمالاً كانت تجرم في ظل القوانين الوضعية ، أصبحت مسموحة، وأخرى كانت مسموحة أصبحت جرائم في ظل حكم الشريعة، حتى وإن لم تستطع الدولة إنفاذ هذه الأحكام دفعة واحدة، فإن تسميتها وتوصيفها الشرعي يبقى ذا أثر كبير.

- فهناك فارق كبير بين أن يعرف الفرد أنه يفعل شيئاً محضواً عليه وتشجعه الدولة، وبين أن يفعل شيئاً ممنوعاً يستوجب العقوبة، حتى وإن تأخرت المثوبة والعقوبة إلى حين قدرة الدولة واستطاعتها ، فتنفيذ عقوبة الجلد والرجم للزاني والزانية وإن تأخرت في ترتيب الأولويات هذا شيء ، ولكن ألا يجرم الزاني والزانية أصلاً طبقاً لتوصيف القانون الوضعي (راجع مادة : ٢٧٥ عقوبات) هذا شيء آخر ، وهذه الحالة الثانية تحدث في ظل التدرج في التطبيق أو ظل تنحية الشريعة بالكلية. لكن عندما يعلن بأن المظلة الحاكمة هي شرع الله في المجتمع ، وسيصبح توصيف الأفعال ذا أثر كبير في سلوك المجتمع ، وستختلف مسميات كثيرة وضعية وتأخذ مسمياتها الحقيقية الشرعية، فالفائدة البنكية صار اسمها الحقيقي ربا، والرقص كان اسمه فناً فصار اسمه الحقيقي فاحشة، أندية القمار صار اسمها الحقيقي تجمعات الميسر، والاتفاقيات مع أعداء الأمة صارت ملغية وباطلة، إلا الاتفاقيات مع غير المحاربين تتم إلى مدتها مثل الاتفاقيات التجارية والصناعية.

- إن توصيف تلك الأفعال بمسمياتها الحقيقية يعلن سيادة الشريعة وهو المطلوب ابتداءً ، ثم يكتمل التنفيذ بعد ذلك حتى وإن تأخرت بعض إجراءاته..

● فإن سلطان الشريعة له بُعد إلزامي وهو العنصر الروحي وهو أقوى من العنصر العقائبي المادي، وهو من أحد مميزات الشريعة الإسلامية عن غيرها، حيث الشريعة الربانية تحكم سلوك الناس الباطن حين يتصل بعقائدهم ، فتقبل نفوس أفراد المجتمع وقلوبهم على طاعة أحكام الشريعة ومسمياتها الحقيقية لأفعال وسلوك هؤلاء الأفراد ، حيث يشعرون في ذات أنفسهم بأنهم يأثمون بمخالفتها، أما الجزء العقائبي على سلوك الناس الظاهر مبني في الأساس على عقيدتهم وضمائرهم وتقواهم وخشيتهم لربهم، ويسهل تنفيذه مع توفر أدوات وإجراءات التنفيذ المطلوبة.

● بينما في حالة التدرج في تطبيق الشريعة لا يعلن سيادة الشريعة ابتداءً ، وتظل المنظومة القائمة هي الدستور العلماني والقوانين الوضعية ، مع العمل لسنوات وسنوات في ظل هذه المنظومة بدعوى تأهيل الناس وتحسين أحوال معيشتهم ومغالبة العقبات الداخلية والخارجية والتي لن تنتهي أبداً؟

● وحينها يخشى من بريق السلطة وحب الدنيا فيطول الأمد وتقسو القلوب، وكل ذلك فضلاً عن عصيان أوامر الله عز وجل والحكم بغير ما أنزل سبحانه وتعالى.

- إن تطبيق الشريعة لا يراد منه إصلاح المجتمع الإنساني فحسب ، بل هو تنفيذ أمر الله وتحقيق العبودية له ، فالمسلم لا ينظر إلى تطبيق الشريعة على أنه مجرد إحلال نظام جديد صالح محل نظام ثبت عدم صلاحيته، بل ينظر إليه نظرة إيمانية تعبدية ، وهي أنه أمر من الله تعالى يستوجب فورية التنفيذ وتام الانقياد وكمال الاستجابة، وتطبيقه من لوازم الإيمان بالله ومن لوازم الإقرار بحاكميته على عباده ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٤٣] ، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : ٦٥] ، ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

- إن قضيتنا الكبرى هي : تبين للناس أنه لا يصح إسلامهم إلا إذا خضعوا لشريعة الله ، وأن قبول الاحتكام إلى غير الله شرك أكبر، وليس قضيتنا الكبرى هي عرض الحلول التي تقدمها الشريعة لمشاكل الناس الاقتصادية والاجتماعية ، فإننا بذلك نضيع قضية العبودية والحاكمية هذه .. لأننا سنبدو حينئذ كناجر يروج سلعته ، ويجاوب إقناع الزبائن بميزاتها أو الدفاع عن عيوبها .. كأننا نكرس لدى الناس مفهوم أن الشريعة خيار من الخيارات المطروحة يمكن مقارنته بالخيارات الأخرى بناء على ميزاتها الدنيوية... بينما علينا في الواقع أن نقول للناس: أستم مؤمنين بالله؟ فليس لكم حينئذ إلا قوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ [الأحزاب : ٣٦].

فيأتيها الشعوب : الشريعة لا غنى عنها ولا خيار غيرها ... وتحكيمها هو التزام بتبعات (لا اله إلا الله محمد رسول الله) التي نطقتم بها والتي تعنى الرضا بالله رباً ومشرعاً وحاكماً .. إن ميزة الشريعة أنها دين الله ^(١) ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ [الأنعام : ١١٤].

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

" بعض الذين يتحدثون عن الإسلام يقدمونه للناس كأنه متهم يحاولون هم دفع التهمة عنه ! وساء ذلك دفاعاً !..

إن الإسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية والتصرفات النكدة التي تتبع منها... وهي نظم معيبة مهلهلة هابطة حين تقاس إلى الإسلام ، وحجة الإسلام التي يدلى بها للناس: إنه خير منها بما لا يقاس ، وإنه جاء ليغيرها لا ليقرها ، فلا تبلغ بنا الهزيمة أن نتلمس للإسلام مشابجات في بعض الأنظمة القائمة، وفي بعض المذاهب القائمة .. فنحن نرفض هذه الأنظمة في الشرق أو في الغرب سواء .. إننا نرفضها كلها لأنها منحطة ومتخلفة بالقياس إلى ما يريد الإسلام أن يبلغ بالبشرية إليه...

(١) إباد قنبي . سلسلة نصره الشريعة . بتصرف يسير .

وحين نخطب الناس بهذه الحقيقة لا نخطبهم بحجة مقنعة حين نقول لهم : تعالوا من نظام قائم فعلاً إلى نظام آخر غير مطبق ، لا يغير في نظامكم القائم إلا قليلاً، ولا يكلفكم إلا تغيير القليل من عاداتكم وأوضاعكم وشهواتكم...

فالحقيقة أن الإسلام جاء ليبدل التصورات والمشاعر ، كما يبدل النظم والأوضاع ، كما يبدل الشرائع والقوانين تديلاً أساسياً لا يمت بصلته إلى قاعدة الحياة الجاهلية التي تحياها البشرية.. ويكفي أنه ينقلهم جملة وتفصيلاً من عبادة العباد والأرباب إلى عبادة الله وحده ..

لذلك فالمسألة في حقيقتها حينما تعرض على الشعوب هي : مسألة كفر وإيمان مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية وإسلام ، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحاً ، وإذا كان هناك من يجب أن يخدع نفسه أو يخدع الآخرين ، فيعتقد أن الإسلام يمكن أن يستقيم مع هذه الجاهلية فله ذلك . ولكن الخداعه أو خداعه لغيره لن يغير من حقيقة الواقع شيئاً^(١).

رابعاً : نختم بتنبيه خطير : " التنازلات في الثوابت لن تقيم شرعاً "

- إن التنازل عن ثوابت التوحيد والإيمان تحت دعاوى حسابات المصالح والمفاسد .. أوقع الأمة - في خديعة ضخمة ألا وهي : الرضا بارتكاب مفساد كبرى حقيقية من أجل مصالح جزئية وهمية، فالذي يتنازل عن إعلان سيادة الشريعة منذ اللحظة الأولى ويرتضى بالحكم بالقوانين الوضعية تحت دعوى حل مشاكل الناس الاقتصادية أولاً، وإرضاء العلمانيين والليبراليين لتقبل أحكام الشريعة، والتغلب على المعوقات الخارجية والتحديات الإقليمية، فيقع بذلك من يريد إقامة شرع الله في كارثة الحكم بغير ما أنزل الله !!.
- إن حقيقة التنازل عن ثوابت التوحيد .. والإيمان، تبدأ من أول الوقوع في فخ ومصيدة اللعبة الديمقراطية، وخوض المسار البرلماني الدستوري من خلالها ، وللتأكيد على ذلك ، دعونا نتساءل عدة أسئلة هامة :

١- ما هو الهدف تحديداً من الدخول في هذا المسار؟

(١) المعالم . ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

- ٢- ما هي التنازلات التي قدمت في البداية أو ماهي المفاصد التي قبلت أن تقدم؟
- ٣- ما هي المكتسبات أو المصالح التي من أجلها تم الرضا بهذه المفاصد؟
- ٤- هل زالت المكتسبات المرجوة في البداية قائمة أم أنها بدأت تتساقط؟
- ٥- إن كانت المكتسبات المرجوة تتساقط حقيقةً ، فهل يتم تعديل التنازلات لتناسب مع حجم المكتسبات الواقعية ؟
- ونجد أن إجابة السؤال الأول غير محددة ، حيث أن أهداف دخول هذا المسار بدت هلامية ، فعلى سبيل المثال:
- يكون الهدف مرة إعادة الخلافة .
 - ومرة يكون الهدف تقليل المفاصد والحفاظة على الهوية الإسلامية.
 - ومرة إقامة الشريعة من خلال هذا المسار الدستوري البرلماني.
 - ثم تجد الهدف يصبح حرية الدعوة وتدريب كوادر سياسية مع الإقرار بأن البرلمان ليس هو الطريق لإقامة الشريعة.
- لذلك هل الهدف من خوض هذا المسار بالتحديد هو إقامة الشريعة أم مجرد إصلاحات جزئية؟
- وحتى لا تكون هناك ازدواجية في الأهداف المعلنة والأهداف الحقيقية ، بين الشعارات والطموحات... وبين الواقع والممارسة... لابد من تحديد الهدف بوضوح، لقياس تحققه عبر الأجيال ومراجعة نسبة نجاحه عبر السنوات التي تمر من تاريخ الأمة المحكمة قيدها بخيوط عنكبوت الروم الصليبي.
- إن الذين أصلوا هذا المسار وأجازوا المشاركة فيه من الناحية الشرعية استندوا لحسابات المصالح والمفاصد ، تحت باب " المصلحة المرسله " ، اشترطوا لجوازها تحقيق مصالح كبرى ووضعوا ضوابط للتنازلات التي يمكن أن تقدم في المقابل .

ثم تجد الواقع فيه تحلل من هذه الضوابط ، مع تقديم التنازلات تلو التنازلات دون حد ولا قيد ، في مقابل ماذا ؟

في مقابل أهداف جزئية ثانوية مظنونة لا عامة ولا كبرى !!.

- إن المصلحة المرسلة " اختلف علماء السلف في كونها من أدلة الأحكام الشرعية ، والذي اعتبرها اشترط عدم مخالفتها الأدلة الشرعية المعتبرة الأقوى منها مثل : الكتاب والسنة ثم الإجماع ثم القياس، واشترط أيضا كما ذكر أن تحقق مصالح كبرى واضحة ، ولكن ما الذي حدث بعد عشرات السنوات ؟! .

- تم تقديم التنازلات التالية وبلغت المفاسد تم قبول ما يلي : .

(١) الاعتراف بالديمقراطية ونظامها والإقرار بتقاليدها وقواعد لعبتها.

(٢) القسم على احترام الدساتير العلمانية التي تنحى دين الإسلام .

(٣) قبول التشريع لغير الله تعالى ، وتمير القوانين الوضعية في هذه المجالس دون تغيير قانون واحد يذكر .

(٤) رهن تطبيق الشريعة بموافقة البرلمانات.

(٥) مشاركة العلمانيين والنصارى الكارهين لمنهج الإسلام والمعادين له في تحالفات، وتقديم التنازلات للتوافق معهم .

(٦) التأكيد على أن الشريعة لن تطبق دفعة واحدة .

- ولكن ما هي المصالح والمكتسبات الحقيقية التي حدثت في الواقع للرضا بتقديم هذه التنازلات والمفاسد؟

- وجدنا الأهداف الكبرى مثل إقامة الخلافة والتمكين للدين غير واقعية من هذا الطريق، وتم الإقرار بذلك ، فتدنت الأهداف والمصالح إلي مجرد المشاركة في العملية الديمقراطية، لا

مغالبة الفاسدين أو المبدلين لشرع الله عز وجل!!

- نعم صار الهدف أن أظل موجود ومشارك في اللعبة الديمقراطية فقط ، ثم القيام بأية إصلاحات ممكنة في المنظومة الجاهلية القائمة ، واختفى هدف إقامة الشريعة من هذا المسار؟؟

- ومرت السنوات تلو السنوات ، وأهل الباطل في سعادة غامرة لأنهم وضعوا قواعد هذه اللعبة وحددوا السقف المسموح به داخلها ، والتزم بذلك الجميع ليتم الشكل المطلوب والديكور المرسوم من قبل أعداء الدين من الروم الصليبيين .

- والعجيب بل والخطير هو الوقوع في الاستهانة بالتنازلات الكبرى التي قدمت، والمخالفة لشرع الله عز وجل المحكم ، فتكرس هذا الاستخفاف في نفوس أصحاب هذا المسار إلا من رحم ربي . وذلك حينما زين للعبد سوء عمله فراه حسناً ، فخدع نفسه وخدع الناس حوله بمكتسبات جزئية ثانوية مظنونة غير قطعية في مقابل الوقوع في مفاسد كبرى.

- فحدث نتيجة هذا الاستخفاف بالوزن الشرعي لهذه المفاسد الكبرى، حالة تخدير بأنه لا يزال هذا هو المسار الوحيد المحتوم لتحقيق الهدف العظيم من إقامة شرع الله عز وجل وتحكيم كتابه، فصار عقيدة راسخة ، رغم اكتشاف عظم التنازلات المقدمة لتحقيق الأهداف الثانوية المزعومة .. والسبب هو إنكم رضيتم بالمفاسد الكبرى أول مرة ، حينما مست التنازلات ثوابت التوحيد والإيمان !! والتي حذرنا الله عز وجل كثيراً من المساس منها

- وصدق الله تعالى إذ قال ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [٢٠٨] فَإِنْ رَلَّكُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ [البقرة : ٢٠٨ - ٢٠٩] .

- وصدق الله تعالى إذ قال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [١٠٠] وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴿ [آل عمران : ١٠٠ - ١٠١] .

- وصدق الله تعالى إذ قال ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [١١٥] إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٥ - ١١٦].

- وصدق الله تعالى إذ قال ﴿ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَمْتَنُونَكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [٤٩] أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٤٩ - ٥٠].

- إن حكم الجاهلية هو المستفيد الأول ، حيث نفذ أصحابه أجندهم واكتسبوا شرعيتهم، بينما في المقابل فقد المسلمون هويتهم وميعة عقيدتهم، واستمع هنا لكلمات الشيخ سيد قطب رحمه الله المضيئة بأحرف من نور: "وهنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية .. إن النظام الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي ، لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب النظام الجاهلي ولتوطيد جاهليته!.

والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في التجمعات الجاهلية، والتميع في تشكيلاتها وأجهزتها هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية لهذه التجمعات..

هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل هذه التجمعات أن يعمل لحسابها ولحساب منهجها وتصورها .. لذلك يرفض المؤمنون أن ينخرطوا في الأنظمة الجاهلية، وهنا يفصل الله بين المؤمنين والطغاة الذين يقفون في وجه الدعوة ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [١٣] وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١٣ - ١٤].

فلا بد أن ندرك أن نصر الله للمؤمنين على الطغاة إنما يكون بعد تمايز المؤمنين ومفاصلتهم للطغاة على أساس العقيدة ، ولا يكون هذا النصر أبداً والمؤمنون متميعون في النظام الجاهلي عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته غير منفصلين ولا متميزين عنه"^(١).

إنما كلمات معبرة تصف الواقع منذ عشرات السنين بدقة متناهية.. فهل من مذكر!!
وتصف الطريق : أنه لا بد من التمايز والمفاصلة على أساس العقيدة .. فهل من معتبر!!.

أم أن الزمن ومروره ليس جزءاً من معادلة الصراع !.

(١) في ظلال القرآن، من تفسير سورة إبراهيم.

ليست الديمقراطية هي الطريق..

وليس المسار البرلماني الدستوري هو السبيل ..

بوضوح كالشمس الساطعة في رابعة النهار ، وهل يحتاج النهار بعد كل ذلك إلى دليل

لمستزيد؟! ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٦] .

إنها المحجة البيضاء .. التي لا يزيغ بعدها إلا هالك .

إن التوحيد كوسيلة هو الطريق لإقامة التوحيد كغاية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .. تربية

وتكوين على أساس العقيدة الصافية .. دعوة ومصارحة على أساس الراية الخالصة .. تمايز

ومفاصلة .. هجرة ومفارقة .. جهاد ونية.

فهو صراط واحد وغيره سبل ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمِ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

دور المؤمنين أن يصارحوا الشعوب ويقولوا لهم :

" هذه الأنظمة الجاهلية هي أبنية أسست على شفا جرف هار آيلة للسقوط .. أخرجوا منها ولا

تقعوا في حبالها وشراكها .. ليس دورنا أن ندخل في هذه الأبنية ونجرى ترقيعات في هذا البنيان

ونسد شقوقه بأنفسنا..

فالبناء فاسد غير قابل للترميم .. وترميماتنا له خداع للشعوب وتلبيس عليها وتضييع لوقتها" ، قال

تعالى ﴿ وَالَّذِي حَبِثَ لَآ يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا ﴾ ، [الأعراف : ٥٨] نكدًا أي: لا خير فيه .

- هذا البناء الجاهلي سينهار بإذن الله لأنه أسس على غير تقوى من الله ، فتعالوا نبني بناءً جديداً

على أسس سليمة من توحيد الله وتقواه ، لتنعم البشرية بشرع الله وسعادة الدارين الدنيا

والآخرة.

رابعاً : من لم يحكم بما أنزل الله .. شبهات وردود

قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤]

قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] .

- وليبيان الحكم الشرعي لحالة الحكم الذي يُغير ويُبدل فيه شرع الله عز وجل بأي شرع آخر ، لا بد في أصل هذه المسألة أن نرجع لآيات سورة المائدة في هذا المقطع لمعرفة سبب نزولها ، ليعننا ذلك على فهمها بإذن الله، قبل معرفة رأي العلماء في هذا الحكم الشرعي.

- قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُخْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ [المائدة : ٤١] .

- وقد نزلت هذه الآيات في قوم من اليهود ارتكبوا جرائم تختلف الروايات في تحديدها - منها الزنا ومنها السرقة... وهي من جرائم الحدود في التوراة ، ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها ، لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم في مبدأ الأمر. ثم فعلوا ذلك مع الجميع ، وأحلوا محل أحكام التوراة عقوبات أخرى من عقوبات التعازير وضعوها من عند أنفسهم - والعبرة هنا في مبدأ التبديل والتغيير لأحكام شرعها الله عز وجل وأنزلها في كتابه .. فلما وقعت منهم هذه الجرائم في عهد رسول الله ﷺ تأمروا على أن يستفتوه فيها.. فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها ، وكانت هذه حجة لهم عند الله .. فقد أفتاهم بها رسول ! .. وإن حكم فيها بمثل ما عندهم في التوراة لم يأخذوا بحكمه .. ففسدوا بعضهم يستفتيه ..

- وذلك في صحيح البخاري عن نافع عن ابن عمر أنه قال : إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ، فذكروا أن رجلاً منهم وامرأة زنياً ، فقال لهم رسول الله ﷺ : " ما تجدون في التوراة في شأن الزنا ؟ " فقالوا : نفضحهم ويُجلدون . قال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد

، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقبها الحجارة " (١) .

- وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب والرواية في صحيح مسلم ، قال : مرَّ على رسول الله ﷺ يهودي محمَّم مجلود ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ " فقالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال : " أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم ؟ فقال : لا ، والله ، ولولا أنك أنشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزني في كتابنا الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع ، اجتمعنا على التحميم والجلد ، فقال النبي ﷺ : " اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه " . قال : فأمر به فرجم ، فأنزل الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...) (٢) .

• إن هؤلاء تواطئوا واجتمعوا على شرع وحكم غير ما أنزل الله ، وتحاكموا إلى أهوائهم ، فكفروا بلفظ صريح القرآن ، ولو كان ذلك في قضية واحدة أو حد واحد ، فالعبرة هنا في المبدأ وهو أن: تبديل وتغيير حكم الله الذي أنزله في شرعه كفراً .. وهذا هو سبب النزول ومناط الآية المكفر، الذي لا يذكر معه الاستحلال أو الجحود، اللهم إلا على سبيل الزيادة في الكفر.

- والأمر في هذه الآيات يتعلق بتغيير وتبديل شريعة الله مع كل من المحكومين والحكام...

١- ما يختص بالمحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله في حياتهم، قال تعالى ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٤٣] .

- فحكم القرآن قطعي الدلالة في هذه القضية الخطيرة هو أنه : لا يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة، والذي يزعمون لأنفسهم أو

(١) البخاري (٤٦٣/٦ ، ١٢ / ١٤٨ . ١٥٣ فتح) وهو في الموطأ (ص ٨١٩) .

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٨٦/٤ حلي) ، ومسلم (٣٧/٢) .

لغيرهم أنهم " مؤمنون " ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم ، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم .. إذا فعلوا هذا ثم ادعوا بألسنتهم أنهم مؤمنين ، فإن دعواهم هذه دعوى كاذبة ، لأنهم يصطدمون بهذا النص القاطع : " وما أولئك بالمؤمنين " .. وهذا النص هنا يطابق النص الآخر في سورة النساء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

(٢) ما يختص بالحاكمين الذين لا يحكمون بما أنزل الله ، فإن حكم الله الشرعي فيهم قطعي الدلالة بنصوص القرآن الصريحة أنهم : كافرين ... ظالمين .. فاسقين .. حكم تواترت عليه كل الكتب السماوية : التوراة أو الإنجيل أو القرآن ، فأى حاكم يبدل أو يغير حكم أنزله الله في كتابه التوراة أو الإنجيل أو القرآن ويأتي بحكم وضعي من عنده ولو في حكم واحد من حكم الله ، ثم يقدمه على حكم الله ويستحسنه ويحسنه في أعين الناس فهذا الصنف الذي تتحدث عنه بوضوح آيات هذا المقطع من سورة المائدة .

(أ) ونبدأ بالتوراة : قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ [المائدة : ٤٤ - ٤٥] .

- يقول الشيخ سيد قطب في تفسيره : " لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة واقعية ، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها ، والتوراة - كما أنزلها الله - كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل ، وإنارة طريقهم إلى الله وطريقهم في الحياة ، وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد ، وتحمل شعائر تعبدية شتى ، وتحمل كذلك شريعة يحكم بها : (١) النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله في حدودهم هذه وبصفتهم هذه . كما يحكم بها لهم : (٢) الربانيون والأحبار والأخبار وهم فئة : القضاة والعلماء ، وذلك لأنهم قد كلفوا حق هذه الشهادة أن يؤدوها في أنفسهم ، ويؤدوها في قومهم بإقامة شريعتهم بينهم .

ثم تلتفت الآيات وهي تتحدث عن حكم التوراة إلى الجماعة المسلمة ليوهجها في شأن الحكم بكتاب الله عامة ، وما قد يعترضهم من معوقات ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

- لقد علم الله عز وجل أن الحكم بشريعة الله ستواجهه معوقات في كل زمان وفي كل أمة ،
ستواجهه:

(١) معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت ، ذلك أن
شريعة الله العادلة لن تُبقى على مصالحهم الظالمة.

(٢) معارضة ذوى الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال ، ذلك أن دين الله سيأخذهم
بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها.

علم الله سبحانه وتعالى أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المعوقات من شتى الجبهات ،
وأنه وجب على المستحفظين على كتاب الله والشهداء عليه في كل زمان أن يواجهوا هذه المقاومة،
وأن يصمدوا لها، وأن يهتموا تكاليفها في النفس والمال (فلا تخشوا الناس واخشون)...

كذلك علم الله سبحانه وتعالى أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين ، قد
تراودهم أطماع الحياة الدنيا، وهم يجدون أصحاب السلطان ، وأصحاب المال ، وأصحاب
الشهوات لا يريدون حكم الله ، فيملقون شهوات وأهواء هؤلاء جميعاً ، طمعاً في عرض الحياة
الدنيا، فناداهم الله : " ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً" ..

وكل ثمن هو في حقيقته قليل ... ولو كان ملك الحياة الدنيا .. في سبيل التنازل عن حفظ
حكم الله ، أو عن تميع قضية الحكم بشريعة الله ، أو عن مهادنة أصحاب السلطان والمال
والشهوات .. فليس أشنع من خيانة المستأمن ، وليس أبشع من تفريط المستحفظ ، وليس أخس
من تدليس المستشهد.

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" بهذا الحسم الصارم الجازم ، وبهذا
التعميم الذي يخرج من حدود الملابس والزمان والمكان ، وينطلق حكماً عاماً ، على كل من لم
يحكم بما أنزل الله ، في أي جيل ، ومن أي قبيل ... وبعد بيان هذا الأصل القاعدي في دين الله
كلها ، يعود السياق لعرض نماذج من شريعة التوراة التي أنزلها الله ، بعرض حكم القصاص الذي
جاء كعقاب رادع لمن يعتدي على النفس بالقتل ، وأنه مأخوذ بمثل ما أحدث من الإصابة . إذا

قطع يداً أو رجلاً قطعت يده أو رجله ، وإذا أتلّف عيناً أو أذناً أو أنفاً أو سناً ، أتلّف من جسمه ما يقابل العضو الذي أتلّفه، وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه هو السجن . طالت مدة السجن أو قصرت فالألم في البدن، والنقص في الكيان أردع وأزجر، نكالاً من العليم الحكيم وبعد عرض هذا الطرف من شريعة التوراة في نموذج حكم واحد منها، والتي صارت طرفاً من شريعة القرآن ، يعقب بالحكم العام مرة أخرى للتوكيد " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " والتعبير هنا عام ليس هناك ما يخصصه ، ولكن الوصف الجديد هنا هو " الظالمون " .

(ب) ثم يأتي سياق الآيات إلى الإنجيل : قال تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة : ٤٦-٤٧] .

فقد أتى الله عيسى بن مريم الإنجيل ليكون منهج حياة وشريعة حكم ولكنه ليس شرعاً مستقلاً فهو لم يشهد في ذاته . إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة ، وهو خاص بأهل الإنجيل، وليس رسالة عامة للبشر، شأنه في هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول قبل هذا الدين الأخير ..

" وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل فيه " ...

إذن القاعدة هي : الحكم بما أنزل الله دون سواه ، فأهل الإنجيل وأهل التوراة لن يكونوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل . قبل الإسلام . وما أنزل إليهم من ربهم . بعد الإسلام . فكله شريعة واحدة ، هم ملزمون بها ، شريعة الله الأخيرة هي الشريعة المعتمدة :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون "

والنص هنا كذلك على عمومته وإطلاقه، وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل، وليست تعنى قوماً جدداً ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى ، إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل، ومن أي قبيل .

ج) وأخيراً يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة ، وإلى الشريعة الأخيرة.. الرسالة التي جاءت تعرض " الإسلام" ولكن في صورته النهائية الأخيرة ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعاً، الناسخة لكل الشرائع قبلها، المهيمنة على كل الرسائل قبلها ، جاءت ليحكم بما في كل شؤون الحياة إلى يوم القيامة ، لا لتدرس ، أو لتكتب في الكتب أو لتوضع مادة صورية ديكورية في دساتير وضعية تخالف في نصوص موادها شريعة الله عز وجل.. ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

جاءت شريعة الإسلام لا ليترك شيء منها ويستبدل بما حكم آخر في صغيرة أو كبيرة ..
فإما هذا وإما فهي الجاهلية والهوى..
" وأنزلنا إليك الكتاب بالحق " ..

يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية ، وهي الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع ،
وفرض القوانين ، كما يتمثل الحق في محتوياته وفي كل ما يقصه من خبر، وما يحمله من توجيه..
" مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ " ..

فهو الصورة الأخيرة لدين الله ، وهي المرجع الأخير في منهج الحياة ، وشرائع الناس ،
ونظام حياتهم ، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل..

فقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين ، ورضيه الله منهج حياة للناس
أجمعين ، ولا يوجد فيه قصور، ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، ولا لترك شيء
من حكمه إلى حكم آخر ، وقد علم الله حين رضيه للناس ، أنه يسع الناس جميعاً ويحقق الخير لهم
إلى يوم الدين ، وأي تعديل في هذا المنهج هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة ، يخرج صاحبه
من هذا الدين، ولو قال باللسان ألف مرة : إنه من المسلمين !.

وقد حذر الله نبيه ﷺ في هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين، ومن فتنهم له عن
بعض ما أنزل الله فيه ..

وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم ، و أن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع أهواء الحكوميين المتحاكمين ، ومن هذه المعاذير والهواجس : الرغبة البشرية الخفية في تأليف قلوب بين الطوائف المتعددة والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد - كالليبراليين والعلمانيين - ومسايرة بعض رغباتهم عندما تصدم ببعض أحكام الشريعة : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .. فبعد النهي عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم ! فالآن يحذر الله نبيه (ﷺ) من فتنهم له عن بعض ما أنزل الله إليه، والتحذير هنا أشد وأدق، وهو تصوير للأمر على حقيقته .. فهي فتنة يجب أن تحذر .. إنها طبيعة البشر " وإن كثيراً من الناس لفاسقون" فالكثير يخرجون وينحرفون ويعرضون عن الاستقامة على منهج الله .. وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومدخله إلى النفس المؤمنة، ويأخذ الطريق على كل حجة أو شبهة أو تأويل أو ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشريعة لغرض من الأغراض ، في ظرف من الظروف..

ثم يفهم على مفرق الطريق .. فإنه إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية ، ولا وسط بين الطرفين ولا بديل .

- حكم الله يقوم في الأرض ، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر...
أو ...

- إنه حكم الجاهلية، وشريعة الهوى، ومنهج العبودية والفساد العلمانية والقوانين الوضعية
... فأيهما تريدون؟

"أفحكم الجاهلية يبغون؟

ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ "

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص . ليست فترة من الزمان ، ولكنها هي حكم البشر للبشر ، والخروج من عبودية الله ، لأنها عبودية البشر للبشر ، وهي رفض إلهية الله ..

والناس في أي زمان وفي أي مكان .. إما أن يرتضون بسيادة الشعب ، والحكم بشرية ودستور من صنع البشر، في أي صورة من الصور، فهم إذن في جاهلية .. وإما يرتضون بسيادة الشرع ، والحكم بشرية الله . دون فتنة عن بعض منها. كاملة ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في حكم الله ...

هذا هو الحق المبين .. والمنهج القويم .. والصراط المستقيم بكل نصاعة وبيان في التعبير...

وبكل حسم ووضوح في التقرير...

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣].

ولكن سنظل الشبهات تعترض هذه النصاعة .. وهذا الحسم لأن إبليس لا يزال يريد إغواء المؤمنين عن هذا الحق المبين وهذا المنهج القويم وهذا الصراط المستقيم ...

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦] .

- لذلك بدأنا بعون الله وتوفيقه بفهم أسباب نزول هذه الآيات المفصلية في هذا المقطع الأبرز في سورة المائدة، ثم قمنا بعرض الآيات متدبرين سياقها المتصل في حكم الله في التوراة والإنجيل والقرآن مع بيان تفسيرها بفضل الله .. والآن نعرض ثلاث شبهات والرد عليها بإذن الله : .

(١) شبهة : هذه الأحكام لمن يجحد بقلبه .

(٢) شبهة : هذه ثلاثة أصناف مختلفة .

(٣) شبهة : كفر دون كفر .

الشبهة الأولى : هذه الأحكام لمن يجحد بقلبه

- تنص الشبهة على : " آية المائدة التي يستدل بها على كفر من لم يحكم بما أنزل الله، استدلال في غير موضعه ، لأن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وليس الإقرار باللسان ولا العمل ركنين فيه

، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة (الأشاعرة) ، وما عدا هذا القول إنما هو قول الخوارج الذين ذهبوا إلى أن كل من عصى الله فهو كافر ، وبناءً عليه فمادام المسلم يؤمن إيماناً صادقاً بأن شرع الله حق مع عدم إنكاره بقلبه لهذا الشرع أو عدم جحدته بلسانه له ، فإنه من لم يحكم بشرع الله فيعتبر بذلك مسلماً عاصياً^(١) .

- دحض هذه الشبهة بعون الله وتوفيقه :

• إن الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والأركان، هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة بحق، قال ذلك : مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين ، وقال الآجري: لا يكون مؤمناً إلا أن تجتمع فيه الخصال الثلاث: تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح، دل على ذلك القرآن والسنة وقول علماء المسلمين.

- وقال ابن تيمية في كتاب الإيمان الكبير: " فأما الطائفة التي ذهبت إلى أن العمل ليس من الإيمان ، فيقال لهم : ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، الإقرار بذلك أو الإقرار والعمل ؟ فإن قال أحدهم : إن الله أراد الإقرار ولم يرد العمل فقد كفر عند أهل العلم ، فإن قال رجل: أقر بجميع ما أمر الله به ولا أعمل به أكون مؤمناً ؟ لا يكون مؤمناً ، وهذه بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم " .

- قال ابن عينية رحمه الله : " الإرجاء وجهين ، قوم أرجوا أمر علي وعثمان رضي الله عنهما ، فقد مضى هؤلاء ، وأما مرجئه اليوم فهم قوم يقولون : إن الإيمان قول بلا عمل " تهذيب الآثار (٦٥٩/٢) .

والمرجئة طائفة تخالف أهل السنة والجماعة في إدعائها أن العمل ليس داخلاً في حقيقة الإيمان ولا هو جزء منه ، وأن تركه بالكلية لا ينفي الإيمان بالكلية .

(١) كتاب الثقافة الاسلامية للصف الأول الثانوي ٢٠١٧م . لجنة تطوير المناهج بالأزهر الشريف ، (ص ٨٧ ، ٨٨).

• أما الأشاعرة فهي فرقة كلامية تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة ، والأشاعرة يخالفون أهل السنة والجماعة في معنى التوحيد وفي القضاء والقدر ويقدمون العقل على النقل عند التعارض، ولا يعتقدون أن الله تكلم بالقرآن حقيقة ، والأشاعرة يثبتون لله عز وجل سبع صفات وهي : الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، ويقولون بتأويل بقية الصفات .

• وبالعودة إلى متن الشبهة التي تردد قول المرجئة وتدعي أن الإيمان هو التصديق بالقلب، أن ما عليه أهل السنة والجماعة بين قوسين الأشاعرة، في تزييف مضاعف فليس هذا هو قول أهل السنة والجماعة كما بينا بفضل الله، ولا أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة ..

- أما ما تطرحه الشبهة بأن الحاكم بغير ما أنزل الله مادام يؤمن بقلبه إيماناً صادقاً بأن شرع الله حق ، ولا يجحد أو ينكر بقلبه ذلك أو يقوله بلسانه فهو بذلك مسلماً عاصياً ! نقول له كما قال ابن تيمية: هل الله عز وجل أراد من الحكم بما أنزل الإقرار أم الإقرار والعمل؟

وماذا يفيد إذا أقر حاكم بقلبه والله أعلم بسريرته، ثم ادعى بلسانه: " أن شرع الله حق"، ثم قام بتغيير وتبديل شرع الله واستحسن دستوراً وضعياً كالياسق، وحسنه في أعين الناس؟ هل إقراره وادعاؤه بلسانه يفيد بشيء؟

وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك ؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان، والعمل ينطق بالكفر أفصح من اللسان وأقوى تعبيراً من الكلام .

- فالآيات في سورة المائدة التي استعرضنا أسباب نزولها لا تتكلم عن جحود قلب الحاكم بغير ما أنزل الله ، إنما تتحدث عن أفعال مادية تتعلق بتغيير وتبديل الأحكام التي شرعها الله عز وجل في كتابه .

الشبهة الثانية : هذه ثلاثة أصناف مختلفة

- تنص الشبهة على " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. الظالمون .. الفاسقون " هذه الأوصاف الثلاثة لا تنتزل على موصوف واحد ، إنما تنتزل على موصوفين بحسب الحامل

لهم على عدم الحكم بما أنزل الله .. ١) فمن لم يحكم بما أنزل الله استخفافاً أو احتقاراً له ، أو اعتقاداً أن غيره أصلح منه وأنفع للخلق أو مثله فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة، ٢) ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به ، ولم يحتقره ، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك إنما اعتدى ظلماً فهذا ظالم وليس بكافر ، وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم ، ٣) ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافاً بحكم الله ، ولا احتقاراً ، ولا اعتقاداً أن غيره أصلح ، وأنفع للخلق أو مثله، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق وليس بكافر وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم " (١).

دحض هذه الشبهة بعون الله وتوفيقه :

أولاً : قوله تعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم ... " هنا التعبير القرآني يحمل من المفردات اللغوية ما يجعله يفيد " العموم " ، فالجملة تتكون من :

- "من" الشرطية،(ومن لم يحكم بما أنزل الله): فعل الشرط، (فأولئك هم الكافرون ، الظالمون / الفاسقون) : جواب الشرط، بثلاثة أوصاف لنفس فعل الشرط في الجمل الثلاث وهو ما يسمى لغوياً " اتحاد المسند إليه" وحيث أن : " من" الشرطية تفيد عموم من ثبت فعل الشرط هذا في حقه ، ثبت الحكم في وصفه بجواب الشرط المذكور، كما أن اتحاد المسند إليه في تكرار نفس فعل الشرط يضيف جواب الشرط الأول " فأولئك هم الكافرون" إلى جواب الشرط الثاني " فأولئك هم الظالمون" ، إلى جواب الشرط الثالث " فأولئك هم الفاسقون " .. هذا أولاً والله سبحانه أعلم .

ثانياً : سياق عرض الآيات مع معرفة أسباب نزولها يفيد " شمول " هذه الأحكام لليهود وغيرهم لمن يأتي بمثل فعلهم، وهذا يسمى باللاحق المعنوي لغير اليهود الذين تثبت في حقهم : " الحكم بغير ما أنزل الله" ، فهذه الجمل الثلاث جاءت في تذييل ثلاث آيات تتحدث عن تبديل حكم

(١) شرح الثلاثة أصول - محمد بن صالح العثيمين . (ص ٩٠ ، ٩١).

الله وتنحيته بعد حديثها عن الأمر بحكم الله في التوراة والإنجيل، ولم تذكر هذه الأوصاف في الآيات التي تأمر بحكم الله في القرآن الكتاب الناسخ والمهيمن (الآيات ٤٨، ٤٩) .. لتدل على: شمول هذه الأوصاف لفعل واحد وهو تبديل الحكم الذي أنزله الله عز وجل في كتبه السماوية: التوراة والإنجيل ومن باب أولى القرآن.

ثالثاً: علة هذه الأحكام الثلاث: " الكفر والظلم والفسوق" لمن لا يحكم بما أنزل الله هي :

(١) أن الحياة البشرية تفسد ولا تستقيم إذا تلقت نظامها وشرائعها من أي مصدر آخر غير الله عز وجل ، فحين يتوزع السلطان الحاكم لنظام الحياة ، وتتعدد مصادر التلقي من أكثر من منهج تفسد الحياة البشرية ، ولكن ؟ فحين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع .. وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا .. حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين ، وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين مختلفين .. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى : " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. " ، " ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن " .. لذلك فالحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة .

(٢) العلة الأهم هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية الله . فالألوهية - كما أسلفنا - من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمة التشريعية ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب ، ويدعى لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر .. لذلك فالحكم صارم جازم عام شامل بألفاظ واضحة وعبارات ساطعة ، ومحاولات التأويل والتأول في مثل هذا الحكم هي محاولات للتهرب من مواجهة الحقيقة ومحاولة لتحريف الكلم عن مواضعه ، وهذه المحاولات ليس لها أية قيمة أو أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد.

إن الآيات لا تتحدث هنا عن القاضي الذي يأخذ رشوة ليحكم لرجل طمعاً في ماله فهذا قاضي فاسق ، ولا تتحدث عن القاضي الذي يظلم متقاضى ويريد أن يجابي غيره انتقاماً من الآخر،

فهذا قاض ظالم .. الآيات تتحدث عن ذلك الحاكم الذي غير وبدل شرع الله عز وجل ، وقدم شرعاً وضعياً في أي صورة كانت - يأسق كان .. دستوراً كان - وإن صلى وصام وطاف بالبيت ، ولا علاقة هنا بجحود القلب مع ما يعلنه اللسان كما جاء في دحض الشبهة الأولى .. هذا والله سبحانه وتعالى أعلم.

رابعاً : وصف القرآن الكريم الكافرين بالظلم والفسق معاً في مواضع عدة، فقال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، وقال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨٤] ، وقال تعالى ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُم النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة : ٢٠] ، وعلى هذا فالكافر سماه القرآن ظالماً وسماه فاسقاً ، وصفه " الكفر " هنا لاعتبار رفض ألوهية الله سبحانه وتعالى ، وصفه " الظلم " بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم الصالحة المصلحة لأحوالهم ، فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة، وتعريضها لعقاب الكفر، وتعريض حياة الناس . وهو معهم . للفساد ، وصفه " الفسق " تضاف إلى صفتي الكفر والظلم ، بسبب الخروج عن منهج الله واتباع غير طريقه ، فهي صفات لموصوف واحد، دون تفريق، هذا والله سبحانه أعلم .

خامساً : أقوال المفسرين والعلماء المعتمدين في تفسير هذه الآيات ، مثل قول الحافظ ابن كثير رحمه الله في " تاريخ ابن كثير " (١٣ / ١١٨ / ١١٩) : " فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة ككفر، فكيف بمن تحاكم إلى اليأساء - شريعة جنكيز خان الوضعية - وقدمها عليه؟! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين " (١).

• ، ويقول الشيخ أحمد شاكر العلامة المحدث في تحقيقه لمختصر تفسير بن كثير : " إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، هي كفر بواح لاخفاء فيه ولا مداورة ، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام كائناً من كان في العمل بما أو الخضوع لها وإقرارها . فليحذر امرؤ لنفسه . " وكل امرئ حسيب نفسه " (٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير . عمدة التفسير . ٦١٣/١ .

(٢) نفس المصدر السابق .

- قال الشنقيطي في أضواء البيان : " الدين هو ما شرعه الله ، فكل تشريع من غيره باطل ، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه كفر بواح لا نزاع فيه " (١).
- قال عبد العزيز بن باز رحمه الله : " لا إيمان لمن اعتقد أن أحكام الناس وآراءهم خير من حكم الله ورسوله ﷺ أو تماثلها أو تركها وأحل محلها الأحكام الوضعية والأنظمة البشرية " .

الشبهة الثالثة : كفر دون كفر

- نص الشبهة : " هذا الكفر ليس الذي يذهبون إليه ، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة ، إنه كفر دون كفر .. وهذا أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج ، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة " .
- دحض الشبهة بعون الله وتوفيقه : " يقول الشيخ أحمد شاکر في تحقيقه : " هذه الآثار مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا من المنتسبين للعلم ، ومن غيرهم ليجعلونها عذراً أو إباحية للقوانين الوثنية الموضوعية، التي ضربت على بلاد الإسلام... "
- إن هناك أكثرين عن أبي مجلز كان رداً على الخوارج رواهما الطبري (١٢٠٢٥ ، ١٢٠٢٦) وقال فيه أبي مجلز لما سئله أناس من بني عمرو بن سدوس وقالوا له: يا أبا مجلز ، أفيحكم هؤلاء بما أنزل الله ؟ ، قال : هو دينهم الذي يدينون به ، وبه يقولون وإليه يدعون ، فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً ، فقالوا : لا والله ولكنك تفرق ! " . والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسؤول ، فأبو مجلز تابعي ثقة ، وكان يحب علياً ﷺ ، وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان من شيعة عليّ يوم الجمل وصفين ، وكان فيمن خرج على عليّ ﷺ طائفة من بني شيبان ومن بني سدوس ، وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز الذين يكفرون علياً ﷺ ويقولون إنه لم يحكم بما أنزل الله " .
- يقول الشيخ محمود شاکر عن هذين الأثرين : " اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك

(١) أضواء البيان : ١٦٢/٧ .

الحكم بما أنزل الله ، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه ، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام. فلما وقف على هذين الخبرين، اتخذهما رأياً يرى به أن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها، والعامل عليها .. فلم يكن سؤال الإباضية الخوارج عما احتج به مبتدعة زماننا إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء ، لأن الخوارج كانوا في معسكر السلطان، إن الإحتكام إلى غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز ، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة ، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام إنه سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها " (١) .

وفي ختام هذه الفقرة ... نسأل الله عز وجل ألا يطمس بصيرتنا عن حكمه وعن نور كتابه .. لذا نلتفت بخطابنا إلى المستحفظين على حكم الله والشهداء على كتابه.

أيها المستحفظون على حكم الله .. الشهداء على كتابه من العلماء والأمناء من المؤمنين .. واجهوا هذا العبث .. واصمدوا في وجهه .. (فلا تخشوا الناس وأخشون) .. هذا حق الشهادة الواجبة التي كلفتم بأدائها حفاظاً على كتاب الله وحكمه .. عليكم بإقامة شريعته بينكم ... وإياكم أن تتنازلوا إرضاء لأهواء من حولكم عن الحكم بما أنزل الله .. فضلاً عن إياكم ثم إياكم أن تشاركوا في هذا العبث بالحكم بالقوانين الوضعية والديساتير العلمانية .. فلا تخونوا ما استحفظتم به فليس هناك أشنع من خيانة المستأمن .. وليس أبشع من تفريط المستحفظ .. وليس أخس من تدليس المستشهد .. بتحريف الكلم عن مواضعه ، والرضا بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان .. " ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون " .. إنها بحق معركة هذا المصحف وآياته المحكمة .. فيأيها الأمناء على كتاب الله .. ناضلوا حكامكم وألزموهم النزول على حكم الله.

(١) مختصر تفسير ابن كثير . عمدة التفسير . ص ٦٠٢ / ٦٠٣ .

وقفوهم إنهم مسئولون :

هذه آيات الله البيّنات الساطعات .. فما لكم كيف تحكمون ؟

- قد جاءكم البيّنات من ربكم تدعوكم إلى التوحيد، ولا تقبل بأي مبرر أو ذريعة بالولوج في الشرك أبداً .. فأني توفكون ؟
- فكيف تصرفون عن التوحيد الحق وترتضوا بعد ذلك التحاكم إلى القوانين الوضعية والقسم على احترام الدساتير العلمانية؟ هل لازلت تجادل في آيات الله...
- قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ ؟ كيف يصرفون عن الآيات مع صدقها ووضوحها ؟ .

- ولكننا نفعل ذلك نريد أن نقيم شرع الله ، فيجوز لنا أن نشرع قوانين وضعية درءاً لمفسدة أكبر وهي انفراد المفسدين بالحكم بغير ما أنزل الله ؟ وهذا تأويل علماؤنا الذين أفتوا لنا!.

- قال تعالى (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿﴾ [غافر : ٨٣ - ٨٥] .

- نحن نعلم أن الديمقراطية كفر .. والتشريع من دون الله شرك .. ولكننا سنظل نتمسك بهذا المسار .. فليس لدينا سبيل سواه ؟ .

- ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾ ﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جْرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿﴾ [غافر : ٤١ - ٤٣] .

- نعم إن آيات الكتاب كلها تتحدث عن التوحيد ، ولكن هذا اجتهادنا لإقامة الدين فكيف يكون المصير نار في الآخرة .

- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ

﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
 غافر : ٦٩ - ٧٤] .

- ولكن هذه الآيات عن الذي يكذب بكتاب الله ونحن نؤمن به ، والكافرون هم الذين يكذبون بالدين.

- ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الماعون: ١-٧] .

- الذي يكذب بآيات الله ليس الكافر الذي لا يُصَدِّقُ بقلبه إنما من عند الله ، بل الذي لا يعمل بها ولا يتبعها هو أيضاً ممن يكذب بها ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [يونس : ٩٥] & ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [١٧٧] ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٧ - ١٧٨] .

أخي هيا الآن نعلن لله توبة صادقة من أي شرك وقعنا فيه ..

أخي هيا الآن نتبرؤ لله عز وجل من أي منهج يخالف دين الإسلام ..

هيا قبل ألا تنفع التوبة ولا يفيد التبرؤ يوم القيامة :

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ : ٥٢] .. " أنى لهم التناوش من مكان بعيد " : أنى لهم التوبة يوم القيامة .

أخي أنقذ نفسك .. فالقول فصل : شرك ونار، ﴿ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] .

المقطع الرابع (من الآية ٥١ : الآية ٨٦) تحذير الفئة المؤمنة من الارتداد عن دينها ومن موالات أعدائها

ونتناول في هذا المقطع من سورة المائدة العناصر التالية :

أولاً : موالات أعداء الدين .. ارتداد عن الدين .

ثانياً : صفات الطليعة المؤمنة المستحقة للتأييد الإلهي .

ثالثاً : انتشار الفساد لغياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

رابعاً : لستم على شيء حتى تقيموا القرآن .

خامساً : القرآن ومعركة الوعي بحقيقة أعداء الأمة .

مع عرض مقصد تركية النفس : عائق العمى والصمم.

مقدمة المقطع الرابع :

- بعد عرض المقطع السابق في سورة المائدة قضية الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل ، والتحذير الحاسم لمن يغير أو يبديل شرع الله عز وجل ، يأتي المقطع الرابع من السورة ليوجه حديثه للفئة المنوط بها إقرار حاكمية الله عز وجل ، وإقامة شرعه في حياة الناس ، ليدعوهم إلى المفاصلة الحاسمة في عدم ولاية أعداء الدين بأي شكل من أشكال التحالف أو التناصر وإلا فالوعيد شديد بالارتداد عن الإسلام ، كما يهتم هذا المقطع بذكر سمات تلك الفئة المؤمنة المختارة لتحكيم شرع الله عز وجل والمستحقة للتأييد الإلهي ، مع بيان هذا المقطع لحقيقة أعداء الدين وتبصرة القرآن للمؤمنين بطبيعة الصراع مع أعدائهم إنه صراع على أساس العقيدة ، ويؤكد هذا المقطع للمؤمنين أهمية النهوض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة منهج القرآن وتحكيمه في الأرض.

أولاً : موالات أعداء الدين .. ارتداد عن الدين

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ

يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

- يقول ابن كثير في تفسيره : " ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاتة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله ، قاتلهم الله ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي : شك وريب ونفاق (يسارعون فيهم) أي : يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك عند ذلك قال تعالى : (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) أي يأتي القضاء والفصل وتضرب الجزية على الأعداء من اليهود والنصارى (فيصبحوا) الذين والوا اليهود والنصارى (على ما أسروا في أنفسهم) من الموالاتة (نادمين) فلم تغن موالاتهم عنهم شيئاً ، ولا دفع عنهم محذور ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا ، بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم ، فتبين أمرهم لعباد الله المؤمنين " (١).

- ويقول الشيخ سيد قطب رحمه الله في تفسيره : " هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة . ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة . . موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة : " الذين آمنوا" .. ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب .. وبخاصة اليهود . فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف ، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة .. وكان هذا كله طبيعياً مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة .. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله ..

- جاءت الآيات لتنتهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله، بينه وبين كل من لا ينتمى إلى الصف المسلم ولا يقف تحت رايتها الخاصة، والفرد الذي يتولى أعداء هذا المنهج ، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف " الإسلام" وينضم إلى الصف الآخر

(١) مختصر تفسير ابن كثير . ٦١٤/١ .

"ومن يتولهم منكم فإنه منهم"، لأن " بعضهم أولياء بعض " حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. بل حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء .. إنهم لن يكونوا أبداً - مهما أظهروا - أولياء أو أصدقاء للصف المسلم في أي أرض ولا في أي تاريخ .. لذلك فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم ، وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في هذه المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام .

ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم ، وليس للمسلم ولاء إلا لله ولرسوله وللصف المسلم، إن الله عز وجل وهو يضع للصف المسلم هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة ، كان علمه يتناول الزمان كله ، لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول الله ﷺ وملابساتها الموقوتة... وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداة النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداة اليهود .

لقد سارع عبد الله بن أبي بن سلول- وهو من الذين في قلوبهم مرض - بالولاء لليهود ، والاستمسك بحلفه معهم بقوله : إني رجل أخشى الدوائر إني أخشى أن تدور الدوائر وأن تصيبنا الشدة، وأن تنزل بنا الضائقة .. وهذه الحجة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان .. فالولي هو الله، والناصر هو الله، والاستنصار بغيره ضلال، ولكن حجة ابن سلول ، هي حجة كل بن سلول على مدار الزمان ، وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب، لا يدرك حقيقة الإيمان ، بينما نفر قلب عباده بن الصامت ﷺ من ولاء يهود بعدما بدا منهم العداوة ، لأنه قلب مؤمن فخلع ولاء اليهود وقذف به ، وقال: " يا رسول الله ، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم" ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] ^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ٦١٥/١ .

إنهما نهجان مختلفان، (نهج عبادة بن الصامت ، ونهج عبد الله بن أبي بن سلول) ناشئتان عن تصورين مختلفين ، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان .

" فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على أسروا في أنفسهم نادمين " .

ولقد جاء الله بالفتح يوماً ، وتكشفت نوايا ، وحبطت أعمال ، وخسرت فئات ، ونحن على وعد من الله قائم بأن يجيء الفتح ، كلما استمسكنا بعروة الله وحده ، وكلما أخلصنا الولاء لله وحده ، وكلما وعينا منهج الله ، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا ، وكلما تحركنا في المعركة على هدى الله وتوجيهه ، فلم نتخذ لنا ولياً إلا الله ورسوله والذين آمنوا ... " (١) .

- لقد جاء في هذا المقطع في ثانيا سبع آيات فقط منه، ثلاثة نداءات للذين آمنوا تؤكد سياقها جميعاً حقيقة أن موالاة أعداء الدين .. ارتداد عن الدين ومن يفعل ذلك وهو لا يشعر أو لا يقصد ، فليس عند الله بشئ، وليس بمعجز الله ولا ضار دينه، حين يستنجد ويستغيث بأعداء الأمة الأصليين يبتغي عندهم العزة، أو يستدعيهم على مؤمن مثله أو يرجوا نصرتهم على أذناهم لعدم وعيه بحقيقة أعدائه، أو لأنه يخشى المواجهة المفتوحة فيداهنهم ويتحالف معهم لضعف توكله على مولاه الحق، ولمرض في قلبه وخلل في إيمانه ..

حينها فإن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين في علم الله ، إن يستبدل هؤلاء يجيء الله عز وجل بهمؤلاء ..

- وقد جاء في التاريخ الإسلامي بعض نماذج من تولي أعداء الدين ، ففي سنة ٦٦١م، قام صاحب الكرك - الملك المغيـث عمر بن العادل - بمكاتبة هولـاكو والتتار على أن يأخذ لهم مصر، فاستفتى الظاهر بيبرس الفقهاء ، فأفتوا بعزله وقتله، فعزله وقتله (٢) .

(١) في ظلال القرآن ، ٣/٩١٤ : ٩١٧ بتصرف يسير .

(٢) البداية والنهاية ، ١٣/٢٣٨ .

- وفي عام ٩٨٤ م ، قام حاكم مراكش مُحَمَّد بن عبد الله السعدي، الذي استعان بملك البرتغال ضد عمه أبي مروان المعتصم بالله ، فأفتى علماء المالكية بردته (١).

ثانياً : صفات الطليعة المؤمنة المستحقة للتأييد الإلهي

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

• عدل الله لا يحابي أحد ، فإن تخلت فئة مؤمنة عن منهجها ، وتحكيم شرع ربها ، وقامت بموالاتة أعدائها ، فإن دين الله أغلى من الأفراد والناس أجمعين، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ، ولدين الله عصبية مختارة هي التي تدخر في علم الله لتمكين دينه ، لهم صفات وملامح حددها الله عز وجل لهم ، وهم بتحليلهم بهذه الصفات فقد دخلوا دائرة التأييد الإلهي ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [٥٥] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ [المائدة : ٥٥ - ٥٦] .

• وهذه الصفات هي محض فضل من الله ومنته ، فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه من هذه المنة .. فهو ذاك ، والله غنى عنه وعن العالمين، والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] .

• ولكن ما هي الصورة التي ترسمها الآيات لهذه القاعدة الصلبة ، وهذه الطليعة المؤمنة التي تُصطفى لتحكيم شرع الله في حياة الناس ؟

- والإجابة هي : سوف يأتي الله بقوم :

(١) يحبهم ويحبونه

أصل الصلة بينهم وبين ربهم الحب والرضا، وحب الله لعبده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه سبحانه وتعالى، ولا يعرف الله إلا الله،

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٢ / ٧٠ .

إنه شرف عظيم لا يوصف ، إن فاطر وخالق هذا الكون الهائل ، وفاطر وخالق هذا الإنسان ، وهو سبحانه في قدرته وفي تفرد ، وفي ملكوته ، يتفضل على عبد من عباده بالحب والود ، عبد من صنع يديه سبحانه وهو الجليل العظيم ، الحي الدائم ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٥] .

- وحب العبد لربه نعمة عظيمة وفضل غامر جزيل لهذا العبد لا يدركها إلا من يذوقها ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٤] ، ومحبة الله هي سمة الطائفة المسافرة إلى ربها والدليل على صدق مطلبهم وهي عنوان طريقهم ، بذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم ، لما عرفوا عظمة المشتري ، رأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس^(١) ..

- يقول الجنيد في وصف العبد المحب لربه : " عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله والله ومع الله " ^(٢) .

(٢) أدلة على المؤمنين

- وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين ، فالمؤمن ذلول للمؤمنين .. هين لين .. سمح مستجيب ، فعلاقته بإخوانه المؤمنين ليست مبنية على حقي وحقك ، بل مبنية على الإيثار وقبول الأعذار والتواضع والرحمة والشفقة ، وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة ، إنما هي الأخوة وما فيها من ذلك اللين ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقيل التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة بين إخوانك ، وقيل هو خفض الجناح ولين الجانب .

(٣) أعزة على الكافرين

(١) تهذيب مدارج السالكين ، ٤٢٩/١ .

(٢) نفس المصدر السابق .

- فما يمنع المؤمن مدلته لإخوانه ، أن يكون عزيزاً ذو منعة وغلبة واستعلاء على أعدائه .. وعزته هنا ليست لذاته ، وإنما عزته لعقيدته ولرايته التي يقف تحتها في مواجهة الكافرين ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، قال عطاء ؓ : للمؤمنين كالوالد لولده ، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته ، وذكر ابن كثير في تفسيره وصف النبي ﷺ بأنه: " الضحوك القتال " فهو ضحوك لأوليائه، قتال لأعدائه.

٤) يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم

فهم يجاهدون في سبيل الله، لا في سبيل أنفسهم ، ولا في سبيل قوميتهم ، في سبيل الله : لتحقيق منهج الله، وتقدير سلطانه وتحكيم شريعته في الحياة ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق، وليس لهم في هذا الأمر شيء ، وليس لأنفسهم في جهادهم من حظ، إنما هو لله وفي سبيل الله لا شريك له.

وهم يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم، أي اعتراض معترض عليهم في طريقهم لنصرة دينهم، فلا يردهم عن نصرتهم راد ، ولا يصددهم عنه صاد، وفيهم الخوف من لوم الناس ، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيهم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف الجاهلية وهم يتبعون سنة الله في التدافع لإقامة الحق في الأرض، فلما يحسبون حساباً لما يقول الناس ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون ..

• هذه الصفات هي صفات العصبة المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد، وينزل عليهم تأييده، هؤلاء فقط الذين يستحقون ولايته سبحانه وتعالى ، وهم الموعودون بالنصر والتمكين.. لا لأنفسهم ولكن للدين الذي يحملونه وللعقيدة التي تتمثل في ذواتهم وضمائرهم وأخلاقهم وحياتهم.. وهذا هو اختيار الله واصطفاه، وفضله ومنته ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] يعطي سبحانه وتعالى عن سعة ، ويعطي عن علم .. فما أوسع عطاءه سبحانه (١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٦١٦.

ثالثاً : انتشار الفساد لغياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- وهذه الفئة المؤمنة إن غاب أهم أدوارها وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انتشر الفساد والفسوق في المجتمع .. لأن أهل الفساد والفسق ينقمون على كل عصابة مؤمنة مستقيمة على طريق الله ، بل إن من أهم سماتهم المسارعة في الإثم والعدوان وأكل الحرام ، هذه سمة أبدية ، قال تعالى ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦١] ، وهذه سمة المجتمعات الفاسدة، ذات الحمى المستباح الذي لا حارس فيها من حاكم ولا محكوم ، فالإثم والاعتداء على حرمة الله وانتشار الزنا والخمور والربا طابع المجتمع حين يفسد ، والسبب غياب العلماء والربانيين والطلبة المؤمنة.. قال تعالى ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٩] .

- وروى الإمام أحمد عن أبي غبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : " لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نمتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم . قال يزيد : وأحسبه قال : في أسواقهم . وواكلوهم وشاربوهم . فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون" وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فقال : " لا والذي نفسي بيده، حتى تطروهم على الحق أطراً" (١) .

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله : " إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوى المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، وهكذا وصف الله الأمة المسلمة فقال : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " ووصف بني إسرائيل فقال : " كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه " .. فكان ذلك فيصلاً بين المجتمعين...

أما هنا فينحى باللائمة على الربانيين والأخبار ، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكلهم السحت الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله..

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٧١٣) وأبو داود في سننه (٤٣٣٦) .

وإنه لصوت النذير لكل أهل دين . فصالح المجتمع أو فساد رهن بقيام الحفظة على الشريعة وأهل العلم فيه يواجههم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

- ولكن إلى أين يجب أن يتجه المعروف الأكبر وإزالة المنكر الأكبر؟

إن الجهد الأصيل يجب أن يتجه في حالة فساد المجتمع وطغيان الجاهلية ، وقيام المجتمع على غير منهج الله ، واتخاذ شريعة غير شريعة الله ، يجب أن يتجه الجهد للأساس لتقرير سلطان الله في هذا المجتمع والتحاكم إلى شريعته، حينها يستقر واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التفصيلات الجزئية..

- فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلاً في مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا.

- وما غناء أن تنهى الناس عن الفسق مثلاً في مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة إلا في حالة الإكراه، ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله ..

- وما غناء أن تنهى الناس عن السكر في مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر ..

- ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التفصيلات الجزئية وإن كانت مهمة ، ولكن الأهم هو الأمر بالمعروف الأكبر وهو : توحيد الله وتحكيم شرعه ، والنهي عن المنكر الأكبر وهو الكفر بالله برفض منهجه للحياة"^(١).

رابعاً : لستم على شيء حتى تقيموا القرآن

- قال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٨] .

- يقول ابن كثير في تفسيره : " يقول تعالى (قل) يا محمد (يا أهل الكتاب لستم على شيء) أي: من الدين (حتى تقيموا التوراة والإنجيل) أي : حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من

(١) في ظلال القرآن ، ١ / ٩٥٠ ، ٩٥١ .

الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الأمر باتباع مُحَمَّد ﷺ والإيمان ببعثه ، والاقتداء بشريعته، قال مجاهد في قوله (وما أنزل إليكم من ربكم) يعنى القرآن العظيم ^(١).

- كلفت الآيات النبي ﷺ بأداء أمانة التبليغ بوضوح وحسم ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، هكذا نادى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بتبليغ ما أنزل الله من ربه .. كل ما أنزل إليه ، لا يستبقى منه شيئاً ولا يؤخر منه شيئاً مراعاة للظروف والمناسبات ، أو تجنباً للاصطدام بأهواء الناس ، وواقع المجتمع ، ومن هذا البلاغ أن يجابه أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. هكذا قاطعة جازمة صريحة .. ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان.

- ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة واتباع دين .. ماداموا لا يعملوا بكتاب الله فيهم ولا يقيموه في حياتهم ولا يتحاكموا إليه .. ﴿ لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ .. وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، مقتضاها الأول الدخول في دين الله الذي جاء به مُحَمَّد ﷺ فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول ويعزروه وينصروه .. هكذا كلف الرسول ﷺ أن يواجههم بهذا الإقرار الإلهي في شأنهم ، وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم ، وإلا فما بلغ رسالة ربه وياله من تهديداً .

- وهذه هي طبيعة هذا المقطع، بل طبيعة السورة كلها من ضرورة الحسم والمفاصلة في مسائل العقيدة، كما أن المعنيين بهذه الآيات هم الفئة المؤمنة المستحفظة على حكم الله والشهداء على كتاب الله في كل جيل وفي كل مكان..

- فالحديث لهم بإقامة شرع الله وتحكيمه وعدم الرضا بتبديله أو تغييره ، فضلاً عن عدم المشاركة في هذا الشرك..

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٦٢٦/٢ .

- والحديث لهم بإقامة كتاب الله في حياتهم .. وأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا القرآن في أنفسهم وفي حياتهم ..

- إن انصراف الكثير من المسلمين للانشغال بقراءة نصوص القرآن، وحفظ حروفه مع التنافس في نيل الإجازات في مختلف القراءات ليس هو واجبنا الأول نحو القرآن الكريم، لقد كان اليهود والنصارى يتلون كتابهم ويحفظون آياته ، وكانوا يتخذون لأنفسهم صفة اليهودية أو النصرانية ، وكانوا : يقولون إنهم مؤمنون .. لقد حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، لأنهم لم ينتفعوا بها بحق ولم يتبعوها بحق ولم يعملوا بها بحق ولم يقيمونها في أنفسهم ولا في حياتهم بحق ..

- لذلك فالذين يقولون : إنهم مسلمون . ولا يقيمون ما أنزل إليهم من ربهم . هم كأهل الكتاب هؤلاء ، ليسوا على شيء كذلك . وواجب صاحب الدعوة هو واجبه لا تغيره كثرة الضلال ، ولا ضخامة الباطل .. فالباطل ركام ، واجبه أن يعلنها في قومه بوضوح ويصدع بها في حسم كاملة ، والله يتولى حفظه وولايته : " لستم على شيء حتى تقيموا القرآن " .

خامساً : القرآن ومعركة الوعي بحقيقة أعدائنا الأمة

• قال تعالى ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة : ٨٢] .

- نزل القرآن ليبيث الوعي والتبصرة اللازمة للمسلم في معركته التي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة ..

يقول الشيخ سيد رحمه الله : " هذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة . الكتاب الذي يبني تصورها الاعتقادي كما يبني نظامها الاجتماعي ، كما يبني خطتها الحركية .. سواء ، وها هو ذا يعلمها ألا يكون ولاؤها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، والحقيقة التي يريد تبيعها وتلبسها اليوم كثيرون من أهل الكتاب، وكثيرون ممن يسمون أنفسهم " مسلمين " تحت تعاون الأديان ، وأصدقائنا في الغرب، وهؤلاء يدعون في ذكرهم للتاريخ أن الحروب الصليبية ذاتها

لم تكن صليبية، ويقولون عن المسلمين الذين خاضوها تحت راية العقيدة : إنهم لم يكونوا مسلمين ، وإنما هم كانوا " قوميين " !^(١)

- القرآن جاء ليشكل لنا الوعي بحقيقة أعدائنا ، وطبيعة المعركة معهم .. فهي معركة لا خيار فيها ، ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل ، لأن الباطل سيهاجمه ، ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سحقه ..

لذلك الخير لأهل الحق أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدة ، من أن يستسلموا للوهم والخديعة، وهم يومئذ مأكولون مأكولون !.

لا بد من إدراك أن العداوة الأزلية للأمة مع اليهود ، وهم أصحاب المخطط الرئيسي لتركيح الأمة وزعزعة عقيدة ، لقد نجحوا أن سحبوا الأمة إلى ملعبهم الذي ارتضوه ، واللعب معهم بقواعد اللعبة التي نسجوها ، وأصاب الكثير من المسلمين الغفلة والوداعة والسذاجة حين اعتقدوا أن معركتهم مع الأذنان بالمنهج الذي افترضه الأعداء الأذليين الأصليين لهذه الأمة !.

لذلك أفرد القرآن الكريم هذه المساحة الكبيرة في قص تاريخ بني إسرائيل على الأمة المسلمة في تفصيل وتطويل ، لعلها أن تحذر مزالق الطريق التي نسجته بنو إسرائيل .. فغفلت الأمة عن آيات القرآن ، بل عموا وطمسوا عن المصائد التي نسجها لهم أعداؤهم ، فاتبعوا مناهجهم الدخيلة على الأمة، وأرادوا بعد ذلك أن يواجههم ! بقواعد اللعبة التي أرادها الأعداء ..! فطال عليهم الأمد فقست القلوب، وتحكم الهوى، ورُفض الهدى .. وأغلقت منافذ استقبال هداية القرآن عن الاستماع إلى الحق وإلى الرشد وإلى الهدى ، فأراد الله تذكير عباده بالخن والابتلاءات ، فغفلوا عن سننه وحسبوا ألا تكون فتنة !

- أما الصنف من النصارى المذكورين في قوله تعالى ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ هم الصنف الذي اتبع الحق، وانقاد للإسلام وهم المذكورون في قوله : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا

(١) في ظلال القرآن ، ٢/٩٢٣.

يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ [آل عمران : ١٩٩]^(١).

مقصد تزكية النفس : عائق العمى والصمم

• قال تعالى ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٧٠] .

- يقول الشيخ سيد قطب : " طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئاً ، وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئاً ، وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ، ولن يأخذهم بالعقاب ، حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله"^(٢) ، فكما اغتر اليهود بأنهم سيظلوا شعب الله المختار.. وتناسوا عدل الله : " بل أنتم بشر من خلق " .. قد يغتر بعض المسلمون ويعتقدون أنهم سيظلوا الفئة المختارة المباركة على طول الأمد !! دون قيد أو شرط ..

• فالقيد هو دوماً الاستقامة على منهج الله ..

• والشرط هو دوماً الاتصاف بصفات الطليعة المؤمنة المستحقة للتأييد الإلهي..

- "ثم تاب عليهم" .. أدركهم الله برحمته فلم يروعوا ولم ينتفخوا: " ثم عموا وصموا كثير منهم" ..
" والله بصير بما يعملون " .

وهو سبحانه مجازيهم بما يراه ويعلمه من أمرهم .. وما هم بمفلتين .

- لذلك فإن عائق " العمى والصمم " عن الانتفاع بآيات الله مع الإصابة بحالة " الغرور والخداع النفسي " هو من أكبر العوائق التي تعيق عن الاستقامة عن منهج الله والعدول عن أي انحراف يحدث عن طريق الحق، وتسبب البقاء في الخديعة والوهم والظلمات.

- والمقصد بالصمم والعمى هو وجود حائل يحول بيننا وبين فهم المغزى من الآيات والحقائق الإيمانية التي تلقى على مسامعنا ، فنسمع ولا نفهم ، ونرى ولا نعقل ، إننا نحكم على الشخص

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٦٣٢ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢/٩٤٣ .

بالصمم المادي حين نجده لا يسمع من يناديه ، ولا يفهم كلماته ، ولا يتجاوب مع ما تتضمنه من توجيهات وطلبات ، وبالقياس فعلينا أن نحكم على ذواتنا بالصمم حين نجدها لا تفهم ما تهتف به آيات الله المقروءة أو المنظورة ، ولا نتجاوب معها بما تدلنا عليه ، والأمر ذاته ينطبق على العمى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] ، لا بد من استخدام العقل في الاتجاه الصحيح أي نحو التفكير في آيات الله ، والانتفاع بها ، إن عدم فهم حقيقة الأشياء حولنا يمثل جريمة تعطيل العقل عن القيام بوظيفته ، جريمة خطيرة يرتكبها المرء في حق نفسه، ولقد توعد سبحانه من يفعل ذلك بعقوبات شديدة .. قال جل ثناؤه ﴿ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٠٠] ، والرجس هو الغضب والعقاب والعذاب .. لذلك قال تعالى ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

لذلك من أشكال الإعراض عن فهم آيات الله ومعرفة حقيقة الرسائل الربانية، أن يتعرض العبد للحرمان من الهداية .. فالجزاء من جنس العمل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٤] .. بل إن السبب الرئيسي لعذاب الآخرة هو الظلم بآيات الله ﴿ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٩] .

لقد تم تعطيل نعمة العقل التي حبانا الله إياها، ومن لا يوجه عقله نحو الانتفاع بآيات الله، فقد عرض نفسه لعقوبات متتالية من الله عز وجل ، وكيف لا وقد ترك وظيفته التي خُلق من أجل القيام بها؟

إن الذي لا يعقل شيئاً عن الله يصير في أدنى المراتب .. لا قيمة له ، كالأنعام .. لا بل أقل!

لأن الأنعام خلقت لوظيفة وحيدة تقوم بأدائها كما أمرت ، وبما يتناسب مع خلقتها، أما الإنسان فلم يُخلق أبداً لنفس ووظيفة الأنعام ، بل حباه الله عقلاً عظيماً ليتعرف عليه سبحانه،

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

إن الذي يعطل عقله ، يحرم نفسه من الانتفاع الحقيقي بآيات الله، حتى لو كان يقرأها ليل نهار، ولو كان يحفظها عن ظهر قلب .. لأن العبرة بفهم ما أراده كتاب الله من سرد هذه القصص، والإخبار بهذه التجارب ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَكُفْرٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللهُ يُضِلُّهُ وَمَن يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٣٩]

- وسنقوم بعون الله وتوفيقه بتناول قضية " التأكيد بآيات الله " بشيء من التفصيل عند عرض سورتي " الأنعام " و " الأعراف " بإذن الله .

المقطع الخامس (من الآية ٨٧ : الآية ١٢٠) ختام السورة والموقف الرهيب بين يدي الله

ونتناول في هذا المقطع من سورة المائدة العناصر التالية :

أولاً : التأكيد بحسم أن التحليل والتحرير ليس من اختصاص البشر .

ثانياً : ولا نكتف شهداء الله أبداً .

ثالثاً: الموقف الرهيب لسؤال الرسل يوم القيامة .

• مع عرض مقصد الإعداد لليوم الآخر : موقف الحساب في الآخرة .. يوم تجثو كل أمة .

مقدمة المقطع الخامس

• تختتم سورة (المائدة) آياتها بالتأكيد الذي لا يدع مجالاً للشبهة أو تأويل بان مسألة التحريم والتحليل هي حق لله عز وجل وحده ، وليست من اختصاص البشر أبداً ، ثم تلتفت السورة كعادتها للشهداء على الحق في نموذج الشهادة على الوصية وأحكامها في السفر، لتدعو الأمناء والمستحفظين بعدم كتمان شهادة الله أبداً .. ثم تختتم السورة بالموقف الرهيب للحساب بين يدي الله عز وجل، موقف حساب الرسل عن إبلاغهم الأمانة التي في أعناقهم، ثم موقف خاص لسؤال نبي الله عيسى عليه السلام عن دعاوى المشركين التي زعموها في الدنيا لإظهار براءته

عليه السلام وبيان بطلان دعواهم وفي خضم عرض مشاهد الحساب يوم القيامة تأتي قصة

(المائدة) والتي سميت السورة باسمها ..

فإلى المقطع الأخير من سورة (المائدة) ...

أولاً : التأكيد بحسم أن التحليل والتحريم ليس من اختصاص البشر

• قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧].

• قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠].

• قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٤].

• قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ [المائدة : ٩٥].

- تلخص هذه الآيات ما جاء في السورة، حول قضية التشريع فيجعلها هي قضية الألوهية .. الله هو الذي يحرم ويحلل .. والله هو الذي يحظر ويبيح .. والله هو الذي ينهى ويأمر، قضية واحدة بالرغم من تعدد موضوعات هذا المقطع ، ولكنها محور واحد ، ليس من اختصاص البشر أن يدعي حق التحليل أو التحريم أو يزاوله ، ليس من اختصاص البشر أن يبيح الخمر أو يحدد هو عقوبة بهواه بحالة وحيدة وهي السكر البين فقط، بعدما حرم رب البشر الخمر في كل الحالات، وحدد شرعه سبحانه العقوبة المقررة لشارب الخمر ..

- والذي يفعل ذلك فقد اعتدى على حق الله وسلطانه ، والله لا يحب المعتدين لأنه ادعى حق الألوهية بمزاولته حق التشريع ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾.

ومن الملاحظ في هذه الآيات تكرار نداء " يا أيها الذين آمنوا " ، وهذا التكرار له دلالة في سياق هذا المقطع .. إنه النداء بصفة الإيمان الذي معناه ومقتضاه الاعتراف بألوهية الله وحده، والاعتراف له سبحانه بالحاكمية ، فهو نداء للتذكير بأصل الإيمان وقاعدته، ومعه الأمر بطاعة الله

وطاعة الرسول ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة : ٩٢] وهنا التحذير من التولي والإعراض والتهديد بالعقاب الشديد ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٤] .

- وروى ابن جرير أنه ﷺ جلس يوماً فذكر الناس، ثم قام ولم يزد لهم على التخويف، فقال ناس من أصحابه : ما حقنا أن لم نحدث عملاً ، فإن النصرارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم ! فحرم بعضهم أن يأكل اللحم ، وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النساء . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : " ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ؟ ألا إني أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم ، وأنكح النساء فمن رغب عني فليس مني " . فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [المائدة : ٨٧-٨٨] .

- وأما الآية الخاصة بالحلف أو الإيمان والتي جاءت تالية في السياق : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة : ٨٩] .

- قال ابن عباس : سبب نزولها : القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم حلفوا على ذلك فردهم رسول الله ﷺ عن ذلك ، ونزلت " لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم " قالوا : كيف نصنع بأيماننا؟ " فنزلت " لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم " .. إذن الامتناع عن الحلال المباح كان هو السبب في نزول آيات ترد المسلمين عن مزاولة التحريم والتحليل بأنفسهم لخطورة هذا الأمر ، والذي يتعلق بمقتضى الإيمان بالله في سلوك المؤمنين في هذه القضية الخطيرة .

ثانياً : ولا نكتم شهادة الله أبداً

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

- والآن يجيء الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التي تتضمنها السورة ، في بيان بعض أحكام المعاملات في المجتمع المسلم وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية في حالة الضرب في الأرض - أي السفر - ، والضمانات التي تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله.

- وبيان هذا الحكم الذي تضمنته الآيات الثلاث: أنه على من يحس بدنو أجله، ويريد أن يوصي لأهله بما يحضره من المال، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان في الحضر، ويسلمهما ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين، فأما إذا كان ضارباً . مسافراً . في الأرض، ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين ﴿اِثْنَانٍ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ .

- فإذا ارتاب المسلمون أو ارتاب أهل الميت في صدق ما يبلغه الشاهدان وفي أمانتهما في أداء ما استحفظا عليه ، فإنهم يوقفونهما بعد أدائهما الصلاة - حسب عقيدتهما - ليحلفا بالله، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر، ولو كان ذا قربي، ولا يكتمان شيئاً مما استحفظا عليه.. وإلا كانا من الآثمين .. وبذلك تنفذ شهادتهما .

- فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة. قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته ، من الذين وقع عليهم هذا الإثم ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة : ١٠٧] .

فيقوم الشاهدين الآخرين بالحلف بالله أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين ، وأنهما لم يعتديا بتقرير هذه الحقيقة . وبذلك تبطل شهادة الأولين ، وتنفذ الشهادة الثانية.

• والسؤال : لماذا كان حكم الإشهاد بالوصية على نحو ما سبق هو آخر الأحكام الشرعية التي جاءت في سورة المائدة؟ وقبل ذكر قصة المائدة التي سميت السورة بها؟

• والاجابة والله أعلم أن هذا الحكم يمثل نوعاً من المواثيق . العقود الموثقة بالحلف . وكما بدأت السورة بدعوة المؤمنين للوفاء بالعقود ، تختتم بأهمية الوفاء في أداء الشهادة بالحق هذه واحدة ،

أما الثانية بيان للشاهدين بالحذر من خيانة الأمانة التي استحفظوه عليها وتقوى الله وخشيته ، لأن الله عز وجل لا يهدي من يفسق عن طريقه ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨] ، والاشارة هنا إلى الأمانة على حكم الله والمستحفظين والشهداء على كتاب الله الذين تمضى معهم السورة في وحدتها الموضوعية لتذكرهم بشقى الأمثلة والدروس أن في رقيتكم شهادة عزيزة ، فلا تنكثوا عنها ولا تنقضوها ، فكما أكدت الآيات التي تحدثت عن الحكم بما أنزل الله في التوراة لبني إسرائيل عن دور الشهداء من الربانيين والأحبار ، ثم التفتت نفس الآية إلى الشهداء والمستحفظين في أمتنا بالمضي دفاعاً عن واجبهم ووفاءً بأماناتهم بألا يخشوا الناس ويراعوا مصالحهم وأهواءهم أو بطشهم وسطوتهم ولا يخشون إلا الله ، وألا يشترتوا بآيات الله ثمناً قليلاً فيقدموا التنازلات تلو التنازلات في ثوابت العقيدة ابتغاء مصالح جزئية موهومة، قال تعالى ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة : ٤٤] .

- جاء هذا الحكم الخاص بتشريع الاشهاد على الوصية ، قبل ختام السورة بقصة المائدة التي حملت اسم السورة كلها ، لأن الحواريون شهداء على كتاب الله الإنجيل مستحفظين لحكم الله فيه وأمناء على عهدهم مع نبيهم عيسى عليه السلام ومناصرين له ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١١] ، وكما جاء في سورة آل عمران في قولهم ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] .

- والتذكير للفتنة المؤمنة هي: ألا تتراجعوا أو تتردوا عن متابعة رسولكم ﷺ ومنهجه ، وألا تنكثوا بعهدكم مع ربكم في نصرته دينه وتحكيم شريعته وذلك وفاءً بحق شهادتكم على كتابه وأماناتكم عليه ، لا تقيلوها ولا تستقيلوها عنها حتى تلقوا رسولكم على الحوض غير مبدلين عن منهجه أو منحرفين عن طريقه أو متنازلين عن عقيدته .. فيا معشر الحواريون في كل زمان صححوا مساركم ولا تترددوا عن حوضكم حيث الرسول محمد ﷺ ..

مقصد الإعداد لليوم الآخر بعنوان: " موقف الحساب في الآخرة "

- سورة المائدة ذات سياق حاسم فيه الندرة والوعيد ، فكان من التناسب الموحى أن تنتهي بعرضٍ لمشهد رهيب من مشاهد يوم القيامة تعرضه عرضاً حياً ناطقاً ، موحياً مؤثراً ، يهتز له الكيان البشري بسؤال الرسل عن الوفاء بأمانة تبليغ رسالتهم ، نقوم بالتوطئة له ، بالتذكير بموقف الحساب يوم الفصل ، ذلك الموقف المهيب والمشهد الرعب الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : ١٠٣] ، يوم الحاقة الذي يحق فيه الحق.. يوم القارعة التي تفرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها.. يوم التلاق الذي يتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض .. يوم الحسرة إذا قضى الأمر فيتحسر حينها الجميع مؤمنهم وكافرهم.. طاعهم وعاصيهم .. فالمؤمن الطائع يتحسر أن لم يزد من طاعته، والعاصي يتحسر على تفريطه وقبائحه، والكافر يتحسر على كفره .. يوم تبلى السرائر فتظهر مكنونات الصدور التي أخفاها العباد ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

يوم ينسى فيه الخليل خليله، ويفر الحبيب من حبيبه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [٣٤] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿ ٣٥ ﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿ ٣٦ ﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ [عبس : ٣٤ - ٣٧] ، يوم يأتي فيه المجرمون المنحرفون خاشعين منكسين رؤوسهم ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢] .

فتخيل نفسك يا عبد الله وأنت في هذا الموقف الرهيب تترقب في ذهول وهلع وتنتظر الوقوف بين يدي الله عز وجل ليسألك عن كل صغيرة وكبيرة .. فينادي على اسمك وسط هذه الحشود الضخمة للعرض على الجبار.. نعم أنت تقوم مفزوعاً لتمشى في أرض المحشر متخطياً الرقاب .. أليس هذا بالحق؟ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [٣٠] قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ

السَّاعَةُ بَعْتَةٌ قَالُوا يَا حَسْرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿ [الأنعام : ٣٠ - ٣١] .

هل يرضيك حينها أنك عصيت الله طرفة عين !

أو أنك انحرقت عن منهج الله ؟

أو أنك ضللت طريق هدايته ؟

أو أنك لم تنتفع بآياته ؟ ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ

الكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٩] .. رحماك إلهانا .. فما أغفلنا ..

رحماك ياربي .. أخى فلا تورد نفسك موارد الهلاك والعاجز من اتبع هواه وتمنى على الله

الأماني .. ولا ينفع حينها أن نقول : اتبعنا علماؤنا فأضلوا السبيلا ..

أعد العدة للسؤال عن المهمة التي كلفت بها ، وحملت أماناتها ، وأخذ الله عز وجل عليك

العهود والمواثيق والله شهيد عليك ..

يوم تجثو كل أمة في دياجير الملمة للسؤال عن المهمة .. هل أجبتكم الرسول؟ .. يوم يأتي

الناس وفداً وعظيم القوم عبداً

هل ظننتم فيها خلدًا وبقاء لا يزول ..

يومها ماذا نقول ؟

يوم لا ينفع مالٌ

أو خليلٌ أو عيالٌ

كلهم شرٌّ وبالٌ

إلا من نال القبول

يوم يغشى الناس ناراً

ودخاناً ودماراً

وامتهاناً واحتقاراً

فتطير له العقول

يومها ماذا نقول؟؟

ثالثاً: الموقف الرهيب لسؤال الرسل يوم القيامة

• قال تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١٠٩].

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله : " يوم يجمع الله الرسل الذين فرقهم في الزمان فتتابعوا على مداره ، وفرقهم في المكان فذهب كلٌّ إلى قريته ، وفرقهم في الأجناس فمضى كلٌّ إلى قومه .. يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام ، حتى جاء خاتمهم ﷺ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان ..

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام ، في شتى الأمكنة والأزمان .. ها هو ذا مرسلهم فرادى ، يجمعهم جميعاً .. نقباء البشرية في حياتها الدنيا .. هؤلاء هم أمام الله رب البشرية سبحانه وتعالى في مشهد يوم عظيم.

وها هو ذا المشهد ينبض بالحياة:

" يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتتم " ؟

" ماذا أجبتتم ؟ " فالיום يقدم الرسل حساب الرسالات ، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد .. والرسل بشر من البشر ، لهم علم ما حضر ، وليس لديهم علم ما استتر .

لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ، فاستجاب منهم من استجاب وتولى منهم من تولى، وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى، فإنما له ظاهر الأمر وعلم ما بطن لله وحده العليم الخبير ..

إنه الاستجواب المرهوب في يوم الحشر العظيم ، على مشهد من الملائة الأعلى، وعلى مشهد من الناس أجمعين.

– الاستجواب الذي يراد به المواجهة .. مواجهة البشرية برسالتها ، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلمهم الذين كانوا يكذبونهم ليعلم في موقف الإعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاؤهم من عند الله بدين الله ، وما هم أولاء مسؤولون بين يديه سبحانه عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون .. أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق لله وحده ، وأن ما لديهم من علم لا ينبغي أن يدلوا به في حضرة صاحب العلم تأدباً وحياء ، ومعرفة بقدرهم في حضرة الله " قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب" وانتهى الأمر هنا بهذا الجواب الكامل الشامل^(١)، الذي يدع العلم كله لله .. ويدع الأمر كله بين يديه سبحانه .

– ثم يلتفت الخطاب إلى عيسى بن مريم خاصة على الملائة ممن أهوه وعبدوه وصاغوا حوله وأمه الافتراءات والتهاويل.. يذكره الله بنعمته عليهم وعلى والدته ، ويستعرض المعجزات التي أتتها الله إياه ليصدق الناس برسالته، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه إذا أهوه مع الله ، فخرجوا عن التوحيد المطلق الذي جاء به عيسى عليه السلام كما جاء به كل رسول قبله، ووقعوا في الشرك في إحدى صوره التي لا علاقة لها بدين الله .. ثم في هذا المشهد العظيم الذي لا يزال معروضا على أنظار العالمين ، وقبل أن تتعرض الآيات لاستجواب مباشر في مسألة الألوهية المدعاة لعيسى بن مريم وأمه في مواجهة الذين عبدوه ، يأتي ذكر قصة (المائدة) مع الحوارين، والتي حملت بمغزاها ودلالاتها اسم السورة ووحدها الموضوعية والتي تعرضنا لها بفضل الله في مقدمة السورة لاستخلاص الدلالات الخاصة من هذه القصة بموضوع السورة الرئيس .. وكأنا بتوسطها هذا فيه دلالة على عظم المسؤولية الضخمة على الفئة المؤمنة المناصرة لرسولها .. وخطورة الأمانة التي في أعناقها أمام الله عز وجل.

• والآن إلى هذا الاستجواب الهائل الرهيب في هذا اليوم العظيم المرهوب حول قضية " الألوهية الربوبية " التي تدور السورة حولها ، لمن تكون الألوهية لله أم للبشر ؟ لمن تكون الربوبية لله

(١) في ظلال القرآن ، ١ / ٩٩٦ .

وحده لا شريك له أم لأرباب متفرقون يشرعون بأهواءهم؟ لمن تكون العبودية لله وحده لا شريك له أم لمخلوق من خلقه سبحانه وتعالى؟

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

- إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها .. أن يدعى الألوهية وهو يعلم أنه عبد .. فكيف برسول من أولى العزم؟ ذلك النبي المرسل ، وذلك العبد الصالح المستقيم ، من أجل ذلك كان الجواب الواجب الراجف الخاشع المنيب يبدأ بالتسبيح والتنزيه : " قال سبحانهك ."

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً " ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق " .. فلنا جميعاً العبرة من هذا الموقف الرهيب: فيا كل من حكم بغير ما أنزل الله ، تبرء من هذا الكفر اليوم قبل الوقوف بين يدي الله عز وجل ..

ويا كل من شارك في تشريع القوانين الوضعية التي تغير وتبدل ما أنزل الله ، تبرء من هذا الشرك اليوم قبل الوقوف بين يدي الله عز وجل ..

ثم يعلن عيسى بن مريم عليه السلام عبوديته ويثبت أنه لم يقل لهم إلا دعوتهم إلى عبوديته ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم مع تقرير عبوديتهم لله وحده ، وتقدير قوة الله وقدرته على المغفرة لهم بإذنه أو عذابهم فهم عبيده مملوكين عنده مربوبين ..

﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] تلك الآية الرعيبية التي ظل يقرؤها النبي ﷺ حتى الصباح يرددها يركع بها ويسجد بها ، كما في حديث أبي ذر ، حيث قال له النبي ﷺ : " إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيتها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً " (١) .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٦٦٨ . والحديث في مسند أحمد (٥/١٤٩ حلي).

ثم يحتتم هذا المشهد العجيب بقوله تعالى ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، قال ابن عباس " يوم ينفع المحولين توحيدهم" ، إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين المعتدين في أعظم قضايا العقيدة .. قضية الألوهية والعبودية التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه .. الصادقين هم الذين أوفوا بعهودهم مع ربهم ولم ينكثوها في الدنيا استجابة لنداء ربهم بالوفاء بالعقود ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١] .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [٢٣] لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣ - ٢٤] .

• فتختتم السورة التي تتحدث عن قضية الألوهية وعهدها ، ومقتضى هذا العهد بتفرد الله عز وجل بالألوهية والقدرة ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٢٠] .

** وهكذا انتهت بفضل الله وعونه وتوفيقه سورة (المائدة) لتنتهي بها الباقية الأولى للسور المدنية الأربع الأول في القرآن الكريم : (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة) تلك الباقية التي وضح بها صراط الله المستقيم الذي دعونا الله عز وجل في سورة الفاتحة بالهداية إليه في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] .

لقد اتضح وبان صراط الله المستقيم في كمال الاستجابة وتمام الانقياد وفورية التنفيذ لشرع الله عز وجل وأوامره في سورة البقرة ، كما تمثل في الاستقامة على شرع الله عز وجل وعدم الاستجابة لشبهات أهل الكتاب وأعداء الدين والتي تهدف لزعزعة عقيدة التوحيد لدى الأمة المسلمة عامة والفئة المؤمنة خاصة كما جاء في سورة آل عمران ، كما تمثل صراط الله المستقيم في عدم الافتتان بمناهج الجاهلية الضالّة والمزيفة ، وأنه لا بد أولاً من إزالة هذه الجاهلية بأوضاعها وتقاليدها ونظمها كما جاء ذلك في سورة النساء ، كما تمثل صراط الله المستقيم في إقامة شريعة الله

وحده ، والحكم بما أنزل سبحانه وتعالى دون سواه وفاءً بمقتضى عهد الألوهية كما جاء في سورة المائدة ..

بين سورتي المائدة والأنعام

جاءت سورة (المائدة) لتكلف الفئة المؤمنة المستحفظة على حكم الله والشهداء على كتابه، للوفاء بعهداها مع ربها في إقامة حكم الله في الأرض ، وتحكيم شرعه الكامل والتام الذي أنزله سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١] وهذا العهد وفاءً بمقتضى ألوهية الله عز وجل على عباده ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة : ١] ، وبينت سورة (المائدة) أن اصطفاء هذه الفئة المؤمنة مرهونة بوفاءها بهذا العهد ، وليس اصطفاء محاباة لها بلا قيد ، فنكرمها ليس أبدي حيث ينطبق عليها القانون الإلهي ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨] لذا وجب عليها إقامة حكم القرآن ودون ذلك فهم ليسوا على شيء كما حدث مع أهل الكتاب قبلهم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة : ٦٨] ، فإن استقاموا على منهج الله وعهده حصلوا على التأييد الإلهي ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ [المائدة : ١٢] ، والبديل هو استبدال هذه الفئة التي رفضت أن تدفع ضريبة الكرامة بالدفاع عن تحكيمها لشرع الله عز وجل وإقامته في الأرض ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة ٢١] ، فتدفع من حياتها ومن أعمار أجيالها ضريبة الذل رغماً عنها ﴿ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٦] ، ويأتى الله عز وجل بقوم يستقيموا على منهجه ، ويحكموا شرعه ، بالصفات التي يحبها الله عز وجل ويرضيها لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وهكذا يتضح الأمر جلياً : منهج رباني .. استسلام واتباع واستقامة .. وعهد وأمانة بإقامته وإقراره ، فلا يحتاج المؤمن بعد ذلك أن يتلقى من مناهج الجاهلية ويشرع بقوانينها ويحترم

دستورها ثم يأتي ليسأل لماذا الخذلان الإلهي يحدث؟ والسبب : الوقوع في الشرك بالله عز وجل ، لذلك تأتي سورة (الأنعام) داعية إلى توحيد الله عز وجل وعدم الإشراف به سبحانه وتعالى ، فتقوم سورة الأنعام بالتعريف بالله عز وجل من أول آياتها ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] ، يعدلون أي : يسوون بالله غيره في العبادة. ثم تمضى الآيات لتؤكد أن الذي لا تكفيه الآيات البينات الساطعة الدالة على توحيد الله عز وجل كما كفر بنو إسرائيل بعدما رأوا الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠] ، سيكفرون أيضاً بتوحيد الله عز وجل حتى لو نزل عليهم كتاباً في قرطاس ولمسوه بأيديهم ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] ، وتأخذ سورة الأنعام تعرفنا بمن هو الله الواحد الأحد ﴿ قُلْ لَمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٣] ، ﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤] ، جاءت سورة الأنعام ليتصل بها خط المنهج الحركي للقرآن في توحيد الله في حاكميته والتي عرضت لها سورة (المائدة) ، قال تعالى ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٧] ، حيث عرضت سورة (الأنعام) نموذجاً لتشريك الجاهلية في تشريعها، حين جعلوا الله عز وجل نصيباً من الزرع والأنعام في تشريع ما أنزل الله به من سلطان ، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦] ، فترد سورة الأنعام هذه الافتراءات الكاذبة لتعلن أن منهج الله وتشريعه لشؤون الحياة كلها ، وأن الحياة كلها ينبغي أن تتوجه لله خالصة له سبحانه وتعالى من أي شرك ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ١٦٢ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣] .

تم عرض سورة المائدة والله الحمد والثناء الجميل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

والحمد لله رب العالمين .

الخريطة الكلية لعرض سورة المائدة :



سورة الأنعام

(إقرار " لا إله إلا الله "

في كل مناحي الحياة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

الباقية الثانية (المجموعة المكية)

(سورتي الأنعام والأعراف)

بعد حديث الباقية الأولى (المجموعة المدنية) من سورة البقرة إلى سورة المائدة في سلسلة السبع الطول عن موضوعات مشتركة بينها منها : أحكام وتشريعات الدين التعبدي والاجتماعية والدولية مع بيان الحلال والحرام ، كما جاء الحديث فيها عن أهل الكتاب والمنافقين ، كما ذكرنا بفضل الله أن الهداف العام المشترك والجامع لهذه الباقية الأولى هو : إنشاء أمة مسلمة وإقامة دولة الإسلام وتنظيم المجتمع المسلم على أساس العقيدة الصافية وتصحيح التصورات والمبادئ لهذا البينان الجديد ..

وحيث أن هذه الباقية ركزت على توصيف ببيان هذا الدين ، جاءت الباقية الثانية (المجموعة المكية) بيان أساس هذا البينان وهو " أساس العقيدة الصافية وتصحيح التصورات والمبادئ لهذا البينان الجديد الأصل فيه أفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والحاكمية والسلطان" ، وهذا هو الأساس المتين لبينان دين الإسلام ، ولن يعاد إقامة البينان في أي زمان إلا بالإرتكاز على هذا الأساس في نفوس وضمائر وسلوك الفئة المؤمنة المكلفة بأمانة قيادة البشرية بمنهج الله ثم في نفوس وحياة المجتمع المزعم تنظيمه وإنشاء حياته ونظامه وتقاليده وقيمه على شرع الله عز وجل الحنيف ومنهجه القويم .

لذلك عاد بنا المنهج القرآني إلى السور المكية التي ركزت في نزولها على تناول أساس العقيدة الصافية ، ليتصل النظم القرآني في عرض المصحف في ترتيبه النهائي بعرض ببيان دين الإسلام ثم عرض أساس هذا البينان ، في تسلسل يعرض النتائج قبل المقدمات ، والسبب في ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم هو أن ببيان هذا الدين أقيم بالفعل ، واستقرت مبادئه ، واكتملت أحكامه، وتمت تشريعاته، فلا يُرتضى بعد ذلك من أية نقصان في لبنات هذا البينان.

أما إذا كانت بداية المصحف في ترتيبه النهائي ، بسورة الأنعام المكية مثلاً لظن المسلمون أننا لا بد أن نسير على نفس الترتيب الزمني الذي مر به طريق إقامة دولة الإسلام الأولى ، دون الاعتبار إلى طبيعة القرآن المكي وهدف المرحلة المكية ، أما لو بدء القرآن بسورة يوسف المكية مثلاً لظن المسلمون أن الأصل هو البقاء في الاستضعاف والمحن والابتلاءات ، بينما لو القرآن بدء بالسور المكية - ما يقرب من ست وثمانون سورة - لظن المسلمون أننا لا بد أن نمكث في

فترة مكية إلى ما شاء الله لها أن تكون حتى تنتهي الأمة من التربية على هذه السور جميعها ..

بينما شاءت الحكمة الإلهية والله عز وجل هو من يحيط بها علماً وحده سبحانه ، حكمة بدء القرآن بهذا التسلسل النهائي - في ضوء الاجتهاد البشري - هي أن الأصل أن شريعة الإسلام صارت هي السائدة بالفعل، ودولة الإسلام أقيمت قبل وفاة الرسول ﷺ والدين اكتمل ، وهو الوضع الذي ظلت فيه الأمة المسلمة ثلاثة عشر قرناً من الزمان كانت السيادة فيه للشرع ، ودولة الإسلام قائمة ، فإذا ما حدث أن سقطت هذه الدولة المسلمة وصارت السيادة فيها لغير شرع الله عز وجل.. فيعلم حينها المسلمون أنهم في مرحلة استثنائية وليست هي الأصل ، وعليهم ألا يقبلوا بها لا أن يتعايشوا مع أوضاعها ، أو يقتبسوا تقاليدها أو مجرد إصلاح قيمها ومبادئها ، كما على المسلمين أن يدركوا حينها أنهم لم يعودوا إلى الحقبة المكية ليقبوعوا في ظل أحكامها ، بل يأخذوا من القرآن المكي هدفه التكويني لحقائق العقيدة الصافية من حقائق الربوبية والألوهية وخصائص العبودية الخالصة لله عز وجل .

نعود إلى القرآن المكي في سورتي الأنعام والأعراف ، حيث تتناول سورة الأنعام حقيقية العقيدة ذاتها ، وتواجه الجاهلية بها وتفند هذه الجاهلية عقيدة وشعوراً ، وعبادة وعملاً ، بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ

(١)

فبعد تناول القرآن المدني لصورة الجاهلية المتمثلة في أهل الكتاب من اليهود والنصارى في تصوراتهم وانحرافهم وغيبتهم وتشريعاتهم ، تجئ سورة الأنعام لتعطي صورة الجاهلية المتمثلة في مشركي قريش والجزيرة العربية ، ثم تأتي سورة الأعراف لتعطي صورة الجاهلية المتمثلة في الأمم السابقة على مدار التاريخ مع أنبياءهم : كقوم نوح عليه السلام ﷺ ، وقوم عاد ، وقوم ثمود ، وأقوام لوط وشعيب عليهم السلام .. لتبين لنا كلتا السورتين طبيعة الجاهلية وحقيقة المعركة معها حول (لا إله إلا الله) بمدلولها الحقيقي ..

كما تعمل كل سورة من السورتين (الأنعام والأعراف) على تنقية كل ما يدخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من أي غيبش أو فساد في الاعتقاد ، لذلك تتناول سورة الأنعام التخلص من غيبش الشرك بكل أنواعه وصوره ، كما تتناول سورة الأنعام التخلص من فساد الكبر بكل مظاهره وأشكاله .

وتكون الوحدة الموضوعية للسورتين الأنعام والأعراف هي : " طبيعة الجاهلية وحقيقة المعركة معها " .

● لفتة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن

بالتخلص من معوق الشرك يتحقق للعبد إخلاص التوجه لله عز وجل وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة ، وأنه وحده هو الإله المعبود لا شريك له وهو معنى (توحيد الألوهية) ، والمتمثل في قوله تعالى في سورة الفاتحة (إياك نعبد) ، كما أنه بالتخلص من معوق الكبر يتحقق للعبد إخلاص الاستعانة بالله عز وجل وإفراده سبحانه وتعالى بالخلق والملك والتدبير وهو معنى (توحيد الربوبية) . والمتمثل في قوله تعالى في سورة الفاتحة (وإياك نستعين) ..

- عرضت سور الباقية الأولى : (البقرة ، آل عمران ، النساء والمائدة) لأساس بنيان دين الإسلام المتمثل في تمام الانقياد لشرع الله عز وجل ، واتباع هدى الرسول ﷺ ، والتلقي من المنهج الرباني دون سواه ، والتحاكم إلى شرع الله ، وتحكيم ما أنزل الله في كل شؤون الحياة ..

هذا البيان هو صراط الله المستقيم التي قامت سور المجموعة المدنية هذه ببيانه وتوصيفه.

وبذلك اتصلت هذه السور من (البقرة إلى المائدة) بسورة الفاتحة في دعاء الطلب الوحيد الوارد فيها (اهدنا الصراط المستقيم) ، فجاءت هذه السور بتعريف صراط الله المستقيم وتقديم دليل الاهتداء إليه ، ثم جاءت سورة الأنعام ببيان حقيقة الألوهية وإفراد الله عز وجل بالعبودية لتتصل بسورة الفاتحة في قوله تعالى (إياك نعبد) .

لذلك أفردت سورة الأنعام مساحة كبيرة للتعريف بالله عز وجل الخالق المالك المدبر الرازق القاهر فوق عباده ، فكلمنا تعرف العبد على صفات إلهه ومعبوده الحق ، كلما أفرده سبحانه وتعالى بالعبادة وحده ، فلا يلتجئ إلا إليه ، ولا يستغيث إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يخلص إلا له، ولا يبتغي إلا مرضاته ..

- وحيث أن سورة الفاتحة بدأت بالتعريف بالله عز وجل في قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) وذلك قبل أن تدعو السورة لإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة له وحده لا شريك له (إياك نعبد) ..

جاءت سورة الأنعام لترتبط بسورة الفاتحة في التعريف بالله عز وجل المستحق بإفراده بالعبودية وحده، حيث بدأت سورة الأنعام بقوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] لتتناسب مع بداية الفاتحة (الحمد لله رب العالمين)..

ثم جاء في سورة الأنعام قوله تعالى ﴿ كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ١٢] ، لتتناسب مع الفاتحة في قوله تعالى (الرحمن الرحيم)..

ثم جاء في سورة الأنعام قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] ، ليتناسب مع قوله تعالى في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) .

وهذا التعريف بالله عز وجل : (الله ، الرب ، الرحمن ، الملك) عليه مدار الأسماء الحسنی

كلها ، يجيئ بعده إفراد الله عز وجل بالعبادة في سورة الأنعام في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

وَتُسَكِّي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ [الأنعام : ١٦٢ . ١٦٣]

ليتناسب مع قوله تعالى في سورة الفاتحة (إياك نعبد) ..

وهكذا نجد بعون الله وتوفيقه ترابط المنهج الحركي في القرآن في سورة الأنعام بسورة الفاتحة في قوله

تعالى (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد) .. ثم ترابطت سورة

الأعراف بسورة الفاتحة في قوله تعالى (وإياك نستعين) ، كما ترابطت كلاً من سورة البقرة إلى

سورة المائدة بسورة الفاتحة في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، والله سبحانه وتعالى أعلم..

وسيظل التناسب والترابط بين هذه السور أعمق من هذه المعاني ، ونسأل عز وجل أن يكشف

لنا من أسرارها بفضله وكرمه في رحلتنا مع كتابه الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

مقدمة سورة الأنعام

ورد في نزول سورة الأنعام

قال ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة ، وروى الطبراني عن ابن عباس ، قال : " نزلت سورة

الأنعام بمكة ليلاً جملة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسييح " (١).

وروى أبو بكر بن مردويه عن انس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نزلت سورة

الأنعام معها موكب من الملائكة ، سد ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسييح والأرض ترتج " ،

ورسوله الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سبحان الله العظيم ، سبحان الله العظيم " (٢).

• جو نزول السورة وملايساتها

حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيب سورة الأنعام نزولاً بعد سورة الحجر، والتي نزلت

بدورها بعد سورة يوسف ، وسورة يوسف نزلت بعد سور هود، ويونس، وبعد الإسراء بعد عام

الحزن بعد السنة العاشرة من البعثة، ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها..

وفي عدة روايات حول نزولها جملة واحدة وروايات أخرى حول أنها مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا

بالمدينة، ولكن الراجح والله أعلم أنها نزلت كلها جملة واحدة .

،ومراجعة موضوعاتها نجد سعة ما تناولته من أمور التوحيد ودلائله الساطعة، والتوسع في

عرضها على النحو ، الذي يشي بالدعوة والجدل مع المشركين، وطول الإعراض منهم وتكذيبهم

لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصبح يقتضى التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ، كما يقتضى

تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طول الصد والإعراض والتكذيب (٣).

(١) إسناده عند الطبراني إسناده صحيح ، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢/٣).

(٢) إسناده ابن مردويه فيه رجلان لم يعرف الشيخ أحمد شاکر ترجمتها ، وذكره الهيثمي في الزوائد (٢٠/٧) ، والسيوطي (٢/٣).

(٣) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٠٢٠/٢

- إن سورة الأنعام المكية النزول تتصدى لقضية رئيسية وهي قضية " حقيقة لا إله إلا الله " ،
فإذا كانت السور المدنية قبلها جاءت لتعرض " نظام : لا إله إلا الله " في الأرض شكله وهيكل
بنائه ، وطريق إقامته ، طبيعة معركته مع أعدائه ..

بينما سورة الأنعام جاءت لتغرس " حقيقة : لا إله إلا الله " في الأعماق .. في النفوس
والضمائر.. في الشعائر التعبدية .. ، في كافة مظاهر الحياة.. جاءت هذه السورة في ترتيبها كما
ذكرنا سلفاً ، لتقر أنه لا بد أن تتمكن حقيقة " لا إله إلا الله " بشموها في وجدان و حياة الفئة المؤمنة،
قبل تتمثل " لا إله إلا الله " كتنظيمات وقوانين وتشريعات ، وهذه هي طبيعة هذا الدين الذي
يعرضها ويؤكد عليها المنهج القرآني.

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن طبيعة هذا الدين : " إنه دين يقوم على قاعدة
الألوهية الواحدة " لا إله إلا الله " ، فهو كالشجرة الضخمة الباسقة الوارفة الضاربة في الهواء ، ولكن
لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة ، تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء ، ﴿
أصلها ثابتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم : ٢٤] ، جانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في
المنهج القرآني القويم هو أنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض إنه منهج يتعامل مع الواقع.. لذلك
لا بد أولاً أن يقوم المجتمع المسلم الذي لا يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ، ويرفض شرعية أي
وضع لا يقوم على هذه القاعدة ..

و حين يقوم هذا المجتمع فعلاً ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع .. وعندئذ
فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم ، وفي سن الشرائع .. وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير
النظم ، وفي سن الشرائع.. لقوم مستسلمين أصلاً للنظم والشرائع ، رافضين - ابتداءً - لغيرها من
النظم والشرائع .

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم .. ومن ثم لم ينزل
الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع وإنما نزل لهم عقيدة ، حتى استقرت في أعماقهم .. ولما صارت
لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزل عليهم الشرائع ، وتقرر لهم النظام.

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قلوب نظام ، وأن يصوغ تشريعات حياة .. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلاً تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه ، إن الذين يريدون ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة كما يريد له الله .

إنهم يريدون أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية، ومناهج بشرية ويحاولون أن يستعجلوا طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة..

والله عز وجل يريد لهذا الدين أن يكون كما أرادته .. عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير. عقيدة مقتضاها ألا يخضع الناس إلا لله، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله ، وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم ، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية، وتنظيم حياتهم الاجتماعية كذلك" (١).

- إذن المنهج القرآني يرسم لنا طريق إقامة هذا الدين في حياة الناس، وهي وظيفة ورسالة هذا المنهج القرآني الحقيقية ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] .

- إذن حقيقة " لا إله إلا الله " كعقيدة وعبادة وشرعة ومنهج حياة لا بد أن يعتنقها الناس بمدلولها الحقيقي، حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، ولكن هذا المفهوم انحسر خلال الأجيال المتعاقبة حتى صارت في حس كثير من المتأخرين مجرد كلمة تنطق باللسان، ولا بد أن تعود إليها مدلولها الحقيقي ، كي تعود الأمة إلى حقيقة الإسلام ، ثم تحقق رسالتها التي أخرجها الله من أجلها، والتي وضحتها السور السابقة لسورة الأنعام .:

- قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

(١) في ظلال القرآن ، ٢/ ١٠٠٩ : ١٠١١ بتصرف يسير .

- قال تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

فيتحقق لهذه الأمة حينها وعد الله عز وجل والذي جاء في سورة النور ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ.. ﴾ [النور: ٥٥] .

ولكن ما هي نقطة البداية لتحقيق رسالة هذه الأمة ؟

يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله : " إن الحكم الإسلامي لن يقوم بمجرد وجود فئة مؤمنة تنادي بتحكيم شريعة الله .. لا بد أن توجد " قاعدة مسلمة " بالحجم المعقول، وليس معنى هذا كما يتخيل بعض الناس ، أننا لا بد أن ننتظر حتى تتحول الأمة كلها إلى مؤمنين مجاهدين، فلم يكن مجتمع الرسول ﷺ هكذا ، فقد كان فيه المنافقون وضعاف الإيمان والمبطلون والمثاقلون .. ولكن " القاعدة المسلمة كانت فيه من القوة والرسوخ والتمكن بحيث حملت أولئك كلهم، ومضت في طريقها تحقق أهدافها كما قدر الله لها ..

والعقبة الأولى في سبيل بناء هذه القاعدة بالحجم المطلوب ، هي تلك الجهالة المطبقة بحقيقة لا إله إلا الله .

لا بد أن تتصور هذه القاعدة وتدرج جيداً أن المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا حكم بما أنزل الله ، وتحاكم إلى شريعة الله " (١) ، وهذا ما فهمه الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ بالقرآن المكي والمدني على السواء كما سيحجى بعد قليل بإذن الله في عرض سورة الأنعام.

مراتب العمل في مسار إقامة هذا الدين

مما سبق يتضح لنا بفضل الله وتوفيقه أن مراتب العمل التي تمثل الأهداف الكلية لإقامة هذا الدين في واقع الحياة هي ثلاث مراتب كالتالي :-

(١) واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، ص ٤٠٣ : ٤٠٤ .

- المرتبة الأولى : وجود فئة مؤمنة تنشأ على حقيقة التوحيد، ومفهوم " لا إله إلا الله " بمدلولها الحقيقي .. تستقر في وجدانها وضمائرها وحياتها، وتسمى هذه المرتبة " مرتبة التكوين " .
- المرتبة الثانية : دعوة قاعدة واسعة من المجتمع للإقرار بحقيقة " لا إله إلا الله " وذلك برفض التحاكم لأحد من دون الله ، والاستسلام لشرع الله ، وتسمى هذه المرتبة " مرتبة الدعوة " .
- المرتبة الثالثة: طريق إقامة سلطان الله في الأرض، لتحكيم شرعه وإقرار تنظيماته وتشريعاته ، وتسمى هذه المرتبة " مرتبة الجهاد " .
- وهذه المرتبة الأخيرة تشمل اكتمال نضج مدلول " لا إله إلا الله " الحقيقي والذي غرس في مرحلة التكوين ، بحيث ترتقي الفئة المؤمنة للمستوى الرباني الذي يرضيه الله عز وجل وذلك في خضم الحوادث والمناسبات تحت عنوان " البناء في خضم المعركة... " .
 - ولكن المرتبة الأولى " مرتبة التكوين " لا بد فيها من عدم التعجل، باستعجال ثمرتها دون غرس حقيقة التوحيد ومدلول " لا إله إلا الله " الحقيقي . كما سيأتي تفصيله في عرض سورة الأنعام بإذن الله ..
- وذلك بعلم راسخ وسلوك وممارسة تظهر فيها نفوس مزكاة مطهرة من أفراد هذه الطليعة المؤمنة ، والتي تمثل النواة الصلبة .
- وأما المرتبة الثانية " مرتبة الدعوة فتتطلب الوضوح وعدم التميع في دعوة المجتمع إلى التوحيد بمفاصلة وحسم مع الرفق والشفقة، مفاصلة وحسم في محتوى الدعوة، وفي رفق وشفقة في طريقة العرض.. وباستخدام كل الأدوات والوسائل الدعوية المتاحة والمتطورة.
- وسياًتي بإذن الله في عرض سورة الأنعام ، كيف دعا النبي ﷺ إلى التوحيد بوضوح وحسم لا يقبل أي غيبش أو مخالطة أي شرك.
- والآن نعود بعون الله وتوفيقه إلى اسم السورة ورمزيتها ودلالاتها من خلال مقطع الآيات الذي ورد فيها.

قضية (الأنعام) ورمزيتها ودلالاتها

- قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

- تأتي آيات هذا المقطع الذي يتناول قضية " الأنعام " ورمزيتها ودلالاتها ، من الآية السابقة حتى قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

- تتناول هذه الآيات قضية " حاكمية الله عز وجل " من خلال عرضها لتشريع من تشريعات الجاهلية في شأن جزئي يخص " الثمار والأنعام والأولاد " أي في شأن قضية اقتصادية واجتماعية، مما يبرز لنا أن قضية " التشريع والحاكمية " لا تختص بجاهلية واحدة ، بل مارسها جاهلية أهل الكتاب من اليهود والنصارى كما جاء في السور المدنية الأولى ، وتعرض الآية ممارسة جاهلية المشركين في قريش والجزيرة العربية، وهي في الحقيقة قضية الجاهلية على مر عصورها، هم يريدون السيادة للبشر، وأحقية البشر في التحليل والتحرير وفق أهوائهم ومصالحهم ، ومن ثم قيامهم بسن الدساتير والقوانين التي تتكيف مع أوضاعهم وشهواتهم.. ومن الواضح أن هذا هو دأب شياطين الإنس والجن ليلبسوا على الناس دينهم ومن ثم يوقعونهم في الشرك بالله عز وجل.

- والسؤال : لماذا يحفل المنهج القرآني . المكّي والمدني . على السواء بقضية " حاكمية الله عز وجل " ؟

- يجيب الشيخ سيد قطب رحمه الله فيقول : " يحفل القرآن بهذه القضية ، لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية " العقيدة " في الإسلام ، كما تلخص قضية " الدين " . فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة : " أن لا إله إلا الله " . وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله . ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل

الحاكمية كلها لله.. والتشريع للصغيرة هو مزاوله لحق الحاكمية كالتشريع للكبيرة . فهو من ثم مزاوله لحق الألوهية، بأباه المسلم إلا لله.. والدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم العملي . كما هو عبادتهم وعقيدتهم . لألوهية واحدة هي ألوهية الله، ونفص كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتأهين! والتشريع هو مزاوله للألوهية، والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية..

من هنا ذلك الاحتفال كله في القرآن كله . المكى والمدني على السواء بتقرير هذه الأصول الاعتقادية، والاتكاء عليها على هذا النحو الذي نرى صورة منه في سياق هذه السورة المكية^(١) .. صورة ترتبط باسم السورة : (الأنعام) ، والقضية التي وردت حولها آيات هذا المقطع من السورة .

- إذن قضية حاكمية الله " هي قضية عقيدية ، بل من الأصول الاعتقادية في دين الله، لأنها تمثل مفهوم "الدين" ، وتعبر عن مدلول " شهادة التوحيد" ، ومن ثمَّ فالتحاكم إلى غير الله في الجزئية الصغيرة كالتحاكم إلى غيره في القضية الكبيرة .

- لو نظرنا بتأمل في بعض التشريعات التي وردت في القرآن ، وكيف عرضها السياق القرآني ، هداانا الله عز وجل بفضلله للتثبت من هذه الحقائق..

فعلى سبيل المثال : انظر لأطول آية في كتاب الله كله ، تتناول تفصيلاً لتشريع جزئي في مسألة كتابة الدين والإشهاد عليه، ثم انظر كيف ختمت السور المدنية الأولى بتشريعات جزئية في المعاملات أو الأحوال الشخصية ، مثل ختام سورة(البقرة) بتشريع الرهن في حالة السفر ، وختام سورة(النساء) بتشريع الكفالة في حالة الميراث للإخوة الأشقاء ، وختام سورة (المائدة) بتشريع الإشهاد على الوصية للمسافر ثم تفصل فيها بدقة إذا سافر ولم يجد شاهدين مسلمين ، فيأتي بشاهدين من أهل الكتاب ، وكيف يقوم بتوثيق شهادتهما ؟ ، وماذا يفعل إذا تبين كذبهما من قبل ورثة المتوفي؟ .

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٢١١/٣ .

- انظر إلى التفصيل الدقيق في مسألة المواثيق وتحديد الله عز وجل بنفسه الكريمة الأنصبة بمقادير محددة كالربع والسُدُس والثُمْن ، ثم تستدعي الآيات بعدها الوعيد الشديد لمن يخالف هذا التشريع الرباني ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء : ١٤] .

- ولكن قد يقول القائل هذه السور مدنية ! نقول له وكيف لك بسورة الأنعام المكية التي يأتي اسم السورة مرتبط بتشريع الجاهلية في مسألة تفصيلية جزئية توزيعهم لمقادير الثمار والزرع، وتوزيعهم للماشية ومزاوتهم في ذلك حق التحليل والتحريم من دون الله..

- إن طرح هذه القضية " حاكمية الله " بهذا السياق القرآني يرهن إنها قضية " دين الله " ، وأنها قضية " عقيدة " يجب أن ترسخ في نفوس وضمائر المسلمين ثم في واقع حياتهم وممارستهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

- نعود بحول الله وتوفيقه إلى سياق الآيات ، نجد أنها تحكي عن تقاليد المجتمع العربي في الجاهلية الأولى في شأن الثمار والأنعام والأولاد كالتالي:

(١) تقسيمهم ما رزقهم الله عز وجل من رزق، وأنشأ لهم من زروع وأنعام ، إلى قسمين : قسم يجعلونه لله وقسم يجعلونه لشركائهم، وهم الآلهة المدعاة التي يشركونها مع الله وهم أوثانهم (والطبيعي أن هذا الجزء الأخير ينتهي إلى سدنة هذه الأوثان من الكهنة) ، ثم هم يزعمون أن هذا التقسيم مما شرعه الله عز وجل!.

• قال تعالي ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

(٢) أنهم بعد ذلك ، يجورون على النصيب الذي قسموه لله فيأخذون جانباً منه ويضمونه إلى ما قسموه لشركائهم ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما قسموه للشركاء!

• قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ۖ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

• قال ابن عباس : " إن أعداء الله كانوا إذا احتروا حرثاً ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأخصّوه ، وإن سقط منه شيء فيما سموه للصمد ، ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله ، فاختلط بالذي جعلوه للوثن ، قالوا : هذا فقير ! ولم يردوه إلى ما جعلوه لله " (١) .

(٣) أنهم يقتلون أولادهم بتزيين من الشركاء . وهم في هذه الحالة الكهان .. ممن يصنعون لهم تقاليدهم ويضعون لهم قيمهم ومبادئهم ، وكان هذا القتل في حالة البنات مخافة الفقر والعار ، وهم بذلك أطاعوا الكهان فيما أمرهم به .

• قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] .

(٤) أنهم كانوا يمجزون بعض الأنعام وبعض الزروع ، فيزعمون أنها لا تُطعم إلا بإذن خاص من الله .. هكذا يزعمون ! كما كانوا يمنعون ركوب ظهور بعض الأنعام ، كما يمنعون أن يذكر اسم الله على بعضها عند الذبح أو عند الركوب .. مع الزعم بأن هذا كله قد أمر الله به .

• قال تعالى ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِرِعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٨] .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٧٢٦ .

٥) أنهم كانوا يسمون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم ، ويجرمونه على إناثهم، أما إذا أنزل الحمل ميتاً فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث مع نسبة هذه الشريعة المضحكة إلى الله.

• قال تعالى ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكَورِ وَحَرْمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٣٩].

هذه هي مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التي كانت تصبغ وجه المجتمع العربي في الجاهلية الأولى ، والتي جاءت هنا في سورة الأنعام، في المقطع الوحيد الذي تكرر فيه ذكر اسم (الأنعام) في سياق هذه التصورات الجاهلية ، في قضية: الزروع والأنعام والأولاد .. أي في شأن المال والاجتماع، وكيف أنهم حرموا ما أحلوه الله عز وجل وفق لأهوائهم ، ثم زعموا نسبة هذه التشريعات لله عز وجل ، فسمى الله عز وجل هذا التحريم "شرك" ، وهذا الزعم : " افتراءً على الله " .

دستور الجاهلية الوضعي

- هذه هي الجاهلية في كل عصورها تؤلف تشريعاً لا علاقة له بدين الله، وتضع مواداً باطلة هزلية تبعاً لأهوائهم ، مع زعمهم أن هذه المواد لا تتعارض مع شرع الله ، فالمبدأ هنا واحد والمنتج مسماه واحد وإن اختلف اسمه، تشريعات الجاهلية الأولى، أو ياسق جنكيز خان، أو دستور مدني في العصر الحديث.

- وإليك مواد هذا الدستور الجاهلي الذي وضعته قريش في مكة ، والمكون من المواد التالية (قالوا هذا بزعمهم وإفترائهم):

- المادة الأولى : تقسيم الحرث والأنعام وذلك بتخصيص سهماً لله منها ، وسهماً للأصنام (الكهان).

- المادة الثانية : ما كان للأصنام من الحرث والأنعام فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى الأصنام(الكهان).

- المادة الثالثة : طاعة الكهان في قتل البنات صغاراً بوأدهم أحياء خشية الفقر والعار .
- المادة الرابعة : تخصيص أنعام وحرث محرمة لا يطعمها إلا من نشاء .
- المادة الخامسة : تخصيص أنعام يحرم ركوب ظهورها.
- المادة السادسة : تحديد أنعام بعينها لا يذكر اسم الله عليها عند الذبح أو عند الركوب.
- المادة السابعة : تحريم ما في بطون الأنعام من حمل على الإناث، وجعله خالصاً للذكور.
- المادة الثامنة : إذا نزل حمل الأنعام ميتاً فيكون عندئذ شراكة بين الذكور والإناث.
- المادة التاسعة : المصدر الرئيسي في تشريع المواد السابقة هو شريعة الله (إفترأء عليه).
- هذا هو حكم الجاهلية تأليف تشريعات وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان تتماشى مع مصالحهم وتحقق أهواءهم ، ثم ينسبونها إلى شرع الله إفترأء على الله وكذباً لإضلال الناس، قال تعالى في سورة المائدة ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] .. وهكذا اتصلت سورتي المائدة والأنعام في قضية "حاكمية الله أم حاكمية البشر؟" ، قال تعالى ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] .
- يقولون الزوجة تزني ولا يحرك الدعوى ضدها إلا زوجها، وتسقط عنه تحريك الدعوى إذا زنى هو في بيت الزوجية، ويقولون حرية الاعتقاد مطلقة، ويقولون المساواة بين الرجل والمرأة مطلقة، ثم يقولون إن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع افتراءً على الله .
- ولكن كيف واجهت آيات سورة الأنعام هذه الضلالات الكاذبة، من شرع الجاهلية ، بدأت الآيات في عرضها هذه التشريعات بتوصيفها الحقيقي :
- (١) قررت أولاً الآيات بخسران الذين صنعوا هذه التشريعات الباطلة ، في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم طاعة لشركائهم ، كما ضيقوا على أنفسهم في أمواتهم ، فحرموا

أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافتراءهم عليه ، قال تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] ،

• لذلك فكل من يشرع من دون الله ، خسر في الدنيا والآخرة .

(٢) وصفت الآيات هذه التشريعات والتصورات بالافتراء على الله عز وجل، حيث يزعمون كذباً نسبتها إلى الله ، قال تعالى ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٨] ، يقول ابن كثير : " افتراء على الله ، وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعته ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أي: عليه ، ويسندونه إليه " (١) ، وجاء في سورة يونس المكية التأكيد على أن التحليل والتحريم من دون الله افتراءً على الله ، قال تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩ - ٦٠] ، ثم تقرر الآيات بعدم فلاحهم في الدنيا ولا في الآخرة : ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس : ٦٩] .

• لذلك فكل من يشرع بما لم يأذن به الله أو ينزل في كتابه فقد افتري على الله الكذب بما يختلقه ثم بزعمه بعد ذلك أن المصدر الرئيسي في تشريعاته الجاهلية هذه هو : شرع الله!!

(٣) وصفت الآيات أن هذا الاعتقاد الفاسد الذي وقع فيه المشركون بسبب جهلهم ، قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ ﴾ ، تخرصون : تكذبون على الله فيما ادعيتموه ، قال تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٧٢٧ .

﴿ [الأنعام : ١٤٤] ، قال ابن عباس: إذا سرك أن تعلم " جهل العرب " فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ^(١) ، وما منعهم جهلهم من وصف الآيات لهم بالشرك قال تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .. حتى لو كانوا مشركين أصليين، فإن فعلهم هذا بالتشريع من دون الله شرك، ولا عذر لجهلهم او اتباعهم الظن ، فالجاهلية أصلاً من الجهل وذلك في كل عصورها ، فلا تقترب هذا الإثم إلا وهي تجهل عن الله فيما تشرع وفيما تزعم وتدعي.

(٤) وصفت الآيات أن هدف شركائهم من شياطين الجن وشياطين الإنس من الكهان، من وراء هذا الدستور الجاهلي هو إضلال الناس كي يطيعوهم ويتبعوهم، وذلك من خلال تلبيس عليهم دينهم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ، قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] " ليلبسوا عليهم دينهم " أي : ليخلطوا عليهم دينهم، والتخليط هنا بتشريع بشري وضعي وفقاً للهوى مع ذكر أن هذا التشريع مستمد من شرع الله، وهذا ما يؤدي لالتباس الأمر على الناس، لذلك وجب توضيح للناس هذا الباطل وعدم المشاركة في هذا التلبيس والغموض.

● وبعد تقرير الآيات ووصفها لحقيقة هذه التشريعات المزعومة وهذا الدستور الجاهلي، أخذت في دحضها وإبطالها بكل حسم.. وكل وضوح .. وكل يسر وسهولة .. وبكل حجة بالغة كالتالي:

(١) لفت أنظار هؤلاء المشركين والمتشرعين أن الله عز وجل هو الذي أنشأ لهم هذه الأموال التي يتصرفون فيها هذه التصرفات، وهو الذي خلق لهم هذه الأنعام، إذن البداية تعريفهم بالله لإزالة جهالتهم عن الله، فالذي يخلق ويرزق هو وحده الذي يملك ، وهو وحده الذي يشرع للناس فيما رزقهم، قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا

(١) البخاري (٦/ ٤٠١ فتح)

أَكْلُهُ وَالرَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿ [الأنعام : ١٤١ - ١٤٢] .

٢) تستعرض الآيات في تفصيل سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام ، وخلوها من كل منطق، ثم تلقى الضوء على ظلمات هذه التصورات حتى لتبدو تافهة مهلهلة متهافنة ، قال تعالى ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ [الأنعام : ١٤٢ - ١٤٣] . وهنا الآيات تدحض افتراءاتهم جزئية جزئية ، لتكشف فيها عن السخف الذي لا يمكن تعليقه ولا الدفاع عنه ، والذي قد يخجل من صاحبه نفسه حين يكشف له في النور ، وحين يرى أنه لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وهكذا وجب تقديم الأدلة الساطعة لبيان الرشد من الغي للناس ، فالأنعام التي يدور حولها الجدل ثمانية أزواج هكذا خلقها الله عز وجل من الضأن والمعز والإبل والبقر ، وكل نوع من ذكر وانثى ، فالآيات تتساءل : أي منها حرمه الله على الناس ؟ أم أنه حرم أجنحتها في بطونها؟ من وأين جاء هذا التحريم ؟ هل حضرتم وشهدتهم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم ؟، فما ينبغي أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستيقن ، لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون .

وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد ، لذلك يعاجلهم بالتحذير و التهديد : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] .

٣) ثم تقرر الآيات أن السلطة صاحبة الحق في التشريع والحاكمية هو الذي خلق ورزق، فتقرر الآيات أن ما حرمه الله عليهم عن بينة ووحى ، لا عن ظن ووهم هو : ﴿ قُلْ لَأَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ

إِيَّاهُ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا
أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [الأنعام : ١٤٥] .

يقول ابن جرير الطبري: " يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد : فإني لا أجد فيما أوحى إلى من كتابه سبحانه وأي تنزيلاته شيئاً محرماً على أكل يأكله، مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريم ما حرم عليكم منها . بزعمكم . إلا أن يكون " ميتة " قد ماتت بغير تذكية، أو " دمًا مسفوحاً " يعنى مهراق " أو " لحم " خنزير فإنه رجس أو فسق " . فهذه هي الحيوانات التي حرم أكلها ، ثم جاءت آية (المائدة) بعد ذلك لترفع مفهوم هذه الآية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة : ٣] .. أما اليهود فقد حرم الله عز وجل عليهم كل ذي ظفر : كل حيوان قدمه غير مشقوقة كالإبل والنعام والأوز والبط، وحرم كذلك شحم البقر والغنم إلا شحم الظهر، أو الدهن الملتف بالأعضاء (الحوايا) ، أو ما اختلط منه بالعظم ، وكان ذلك عقوبة وتضييق على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه .

٤) ثم تناقش الآيات زعمهم أن أفعالهم الشركية هذه وفق إرادة الله على قلوبهم ، قال تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .. وهكذا يدعي المكذبون في كل زمان، ومصير المكذبين كمن جاء قبلهم بالكذب على الله ذاقوا بأس الله ، ثم تصحح الآيات منهج الفكر الجبري ، بأن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محذورات .. وهذا ما يملون أن يعلموه علماً مستيقناً .. فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه فكيف يعلمونه ؟ فالله عز وجل لو شاء لقهروهم على الهدى ، ولكنه سبحانه شاء غير هذا ، شاء أن يبتلى بني آدم بالقدرة على الاتجاه

إلى الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته^(١).

٥) ثم تنهي الآيات مناقشة المشركين في ضلالاتهم الكاذبة ، وتشريعاتهم الزائفة ، بدعوة النبي ﷺ إلى موقف المفاصلة في شأن العقيدة مع الجاهلية، ودعته الآيات إلى الجهر بالتوحيد وهو في مكة في فترة الاستضعاف ، وإلى البراءة من الشرك، فليس في أمور التوحيد حسابات السياسة، وليس في شأن العقيدة حسابات مصالح أو مفسد .. لا بد إذن من الجهر : أيها الجاهلون المشركون أنتم نجس ، وشرعكم باطل..

فلم يرتضى الله عز وجل أن يقول رسوله وحاشاه من ذلك ﷺ هيا نقوم بتعديل المادة الخاصة بتخصيص أنعام يحرم ركوب ظهورها مع القبول بالمادة الخاصة بتحديد أنعام لا يذكر اسم الله عليها، أو الإبقاء على مادة : تحريم ما في بطون الأنعام على الإناث، أو القبول بإصلاحات جزئية في هذا الدستور الجاهلي !!! أو القسم على احترام هذه التشريعات المخالفة لدين الله وشرعه..

** قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ هَلُمُّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٠] .. وهنا تستخدم الآيات نفس العبارات والأوصاف ، بل نفس الألفاظ للدلالة على أن القضية واحدة: " قضية الشرك بالله " ، وقضية التشريع بغير إذن من الله".

قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .

يعدلون أي : يسوون برهم غيره في العبادة، ويجعلون لله شركاء يساوونه سبحانه ، وحاشاه عز وجل من أن يكون له شريكاً أو كُفُواً.

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٢٢٢٧/٣

• إن المفاصلة في الجهر بالتوحيد، وبيان العقيدة دون أي تمييز لا يحتاج للعهد المدني كي يصدع بها ، ولكنها سمة ثابتة في هذه الدعوة ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] .. لذلك سيأتي بإذن الله وعونه في عرض سورة (النحل) كيف حمل النبي ﷺ منهج التوحيد، وسار يدعو الناس إليه كما دعا إليه كل الأنبياء قبله إلى عبادة الله وحده، واجتناب كل معبود باطل وكل متبوع ضال وكل مطاع يشرك بالله عز وجل ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .. اجتنبوا الطاغوت أي ابتعدوا عنه .. لا تشاركوه .. هذا مفرق طريق بين : التوحيد والجاهلية ..

٦) وفي نهاية هذا المقطع من الآيات الذي يتناول قضية (الأنعام) التي تحمل اسم السورة، تعرض لنا الآيات منهج الله عز وجل وشرعه، بعدما عرضت الآيات لنا الجاهلية وشرعها الباطل الذي يفترى على الله الكذب.. الشرع المبني على الجهل والظنون .. المنهج الذي يستند إلى الهوى .. تعرض لنا الآيات في ختام هذا الشوط الأبرز في السورة : شرع الله القويم، وصراطه المستقيم ، قال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمُذْكَرٌ لِّكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، ثم يأتي وصايا الدين وأوامر وتكاليف شرع الله التي جاءت حولها سورتي النساء والمائدة في توصيف وبيان صراط الله المستقيم ، قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمُذْكَرٌ لِّكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وتختتم لنا الآيات بعد هذا الشوط الطويل المحوري في سورة الأنعام ، بقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُذْكَرٌ لِّكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

إن أول وصايا شرع الله، وأهم تكاليفه هي : التوحيد " ألا تشركوا به شيئاً " .. هذه هي أول صفات صراط الله المستقيم : " التوحيد .. وترك الشرك والتحذير من الوقوع فيه " والالتزام بذلك يعنى المضي على صراط الله ، والانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط. .. ونقف الآن بعون الله وتوفيقه مع رمزية هذا المقطع الذي وردت فيه قضية : (الأنعام مع الثمار والأولاد) ، والتي سميت السورة باسم (الأنعام) بعدما عرضنا بفضل الله سياق الآيات ومناسبة النزول، والآن نتعرف على دلالة هذه التسمية ومغزاها والله سبحانه وتعالى أعلم:

(١) قضية (الأنعام) ترمز في هذه السورة إلى : أن المدلول الحقيقي ل(لا إله إلا الله) أنها تعني: " نزع ألوهية كل أحد من العباد والشركاء والأرباب وذلك بالاعتقاد بوحداية الله، وبإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة ، وبتحكيم شريعته وحدها دون غيرها من الشرائع، والتلقي من منهجه دون سواه في التقاليد والتصورات والأوضاع والمبادئ ، وأن تصير الحياة كلها خالصة لله عز وجل دون أي فصل أو تجزئة " ، قال تعالى ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَّا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعَمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٨].

(٢) قضية (الأنعام) ترمز في هذه السورة إلى : خطورة الشرك بكافة أنواعه ، وأنه تعدي على حق الله في الحاكمية والتشريع، وأنه افتراء على الله وتكذيب بآياته، قال تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] .

(٣) قضية (الأنعام) ترمز في هذه السورة إلى : أهمية معرفة الله عز وجل الخالق الرازق المدبر المستحق بالألوهية وحده ، وإفراده بالعبودية وحده، وصاحب الحق في التشريع لخلقه ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالرَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُمْتَشَاهِمًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

(٤) قضية (الأنعام) ترمز في هذه السورة إلى : الحجب عن الهدى ، والتكذيب بدلائل التوحيد الساطعة ، وغلق منافذ الانتفاع بنور الحق، قال تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨]

- ومن خلال رمزية قضية (الأنعام) والمعاني الرئيسية التي تدل عليها الآيات التي وردت فيها ، نقوم بعون الله وتوفيقه بالنظر في محاور سورة الأنعام المرتبطة بهذه القضية للوصول إلى وحدة السورة الموضوعية وهدفها العام.

خريطة سورة الأنعام

- نعرض هنا بإذن الله محاور سورة الأنعام في الروابط الخمسة التالية :
 - الرابط الأول : التعريف بالله عز وجل.
 - الرابط الثاني : العمى عن دلائل التوحيد الساطعة والتكذيب بآيات الله البينة.
 - الرابط الثالث: بيان حقيقة " لا إله إلا الله " ومدلولها ومقتضاها.
 - الرابط الرابع: الصدع بالتوحيد والمفاصلة فيه.
 - الرابط الخامس: خطورة الشرك والتحذير منه وموقف المشركين المكذبين

وإلى التفصيل...

الرابط الأول : التعريف بالله عز وجل :

قال تعالى ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِمَا رَبَّبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) ﴾ [الأنعام : ١٢ - ١٣] .

- يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره : " كل دابة في السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه ، وتحت قهره وتدبيره ، لا إله إلا هو وهو السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم (١) .

- وتستفيض سورة الأنعام من أولها لآخرها بعرض دلائل التوحيد الساطعة الناطقة في الكون ، وفي النفس لتعريف الناس بخالقهم ورازقهم ومالكهم الحق ، لإفراده سبحانه بالخلق والمملك والتدبير ، وهو معنى " توحيد الربوبية " الذي تقدم له السورة حشد ضخم من اللمسات العريضة لهذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق ، وهذا الوجود الانساني الشاهد بتدبير الخالق سبحانه وتعالى ، لتربط بين هذه الدلائل .

والدعوة لإظهارها للناس ، والجهر بالتوحيد ومحاجتهم بما ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٨ - ٧٩] .. وهكذا تربط الآيات بين حقائق الربوبية ، والألوهية في أن هذا الخالق والمالك والمدبر هو المستحق وحده بالعبادة لا شريك له .

الرابط الثاني : العمى عن دلائل التوحيد الساطعة والتكذيب بآيات الله البينة

• قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

- يقول ابن كثير في تفسيره : " الذين كذبوه بآيات الله مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم (وهو الذي لا يسمع) أكم (وهو الذي لا يتكلم) وهو مع هذا في ظلام لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه؟! " (٢) .

- وتعرض الآيات كيف تعامل المشركين المكذبين بآيات الله الساطعة ودلائل توحيده الناصعة بتعطيل إدراكهم ، وغلق منافذ استقبال هداية القرآن وهم ينهون عنه وينأون عن سماعه ، قال

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٦٧٢ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٦٧٩ .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾

[الأنعام : ٢٥] ..

- ولعل حجب المشركين قلوبهم وأعينهم وآذانهم عن استقبال الحق والهداية ، هو سبب تشبيههم بالأنعام كما جاء في سورة الأعراف " ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

وسورة (الأنعام) سلطت الضوء كثيراً على حال المعرضين عن آيات الله والمكذبين بها، والذين يناههم بإعراضهم وتكذيبهم نصيباً من وصفهم كالأنعام - اسم السورة . والتي يستنبط منه محاورها الرئيسية، وخطوط ترابط آياتها.

الرابط الثالث : بيان حقيقة " لا إله إلا الله " ومدلولها ومقتضاها

• قال تعالى ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢]

- يقول ابن كثير رحمه الله : " ذلكم الله ربكم " أي الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ، فاعبدوه وحده لا شريك له ، وأقروا له بالوحدانية، وإنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل، " وهو على كل شيء وكيل " أي : حفيظ و رقيب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار" (١).

- وهكذا ربطت الآيات بين تعريفها بالله عز وجل ، لتقرير حقيقة الألوهية وتعبيد الخلق لله عز وجل وحده ، والمشركون قديماً وحديثاً يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه وتعالى بها ، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام والمتشرعون ، وردة كله إلى الله .. السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة .. السلطان في المال ، والسلطان في القضاء ، والسلطان في الأرواح والأبدان ، يعرفون

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ٧٠٧/١ .

المدلول الحقيقي لدعوة " لا إله إلا الله " ، أنها ليست مجرد كلمة تنطق باللسان ، يعرفون من لغتهم أن " الألوهية" تعنى الحاكمية العليا ، وهم يريدون الحاكمية العليا للبشر وللشعب ، ودعوة " لا إله إلا الله" جاءت توجه كل اعتقادات وعبادات وتشريعات البشر ومناهج حياتهم لله عز وجل صاحب الحاكمية العليا ، وهذا هو مدلول " لا إله إلا الله " ومقتضاها ، وهذا هو دين الله وصراطه المستقيم ، قال تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٦١] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١٦٢] لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ [الأنعام : ١٦١ : ١٦٣] .

الرابط الرابع: الصدع بالتوحيد والمفاصلة فيه :

• قال تعالى ﴿ قُلْ أَعْيَبَ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤] .

يقول الله لعبده ورسوله محمد ﷺ ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم : قل يا محمد لا اتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أي : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ، وهو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم ، وقل لهم : : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين .

الرابط الخامس : خطورة الشرك والتحذير منه وموقف المشركين المكذبين

• قال تعالى ﴿ وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٨٠] ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٨١] ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٠ - ٨٢] .

- يقول ابن كثير في تفسيره : " يقول تعالى : ﴿ وجادلوه قومه فيما ذهب إليه من التوحيد ، وناظروه المشركون بشبهه من القول (قال أتجاجوني في الله وقد هدان) أي : أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو؟ وقد بصرتني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه ، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ولا أبايها، (إلا أن يشاء ربي شيئاً) أي : لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل..

فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بين بيده الضر والنفع ، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً ، هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون في الدنيا والآخرة" (١) .

وهذه هي حقيقة موقف المشركين المكذبين بآيات الله الساطعة الناطقة بتوحيد الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .. وهذا الشرك هو أظلم الظلم لأنه تعدى على حق الله عز وجل في توحيده سبحانه وتعالى، يستدعى هذا الاعتداء لسوء العذاب يوم القيامة ﴿ الْيَوْمَ نُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

وبعد عرض محاور سورة الأنعام وروابطها الخمسة، والتي تم استنباطها بفضل الله من المقطع الذي تناول قضية " الأنعام " في السورة ، وبعد دراسة موضوعات السورة وعناصرها ، لتبرز لنا بعون الله وتوفيقه الوحدة الموضوعية لسورة الأنعام وهي والله أعلم:

(التعريف بالله عز وجل لإفراجه وحده بالعبودية)

كما يبرز لنا الهدف العام للسورة وهو والله أعلم : (إقرار " لا إله إلا الله " في كل مناحي الحياة).

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٦٩٧ .

العرض التفصيلي لسورة الأنعام

• سنتناول بإذن الله العرض التفصيلي لسورة الأنعام بشكل مختلف عن عرضنا للسور السابقة (البقرة ، آل عمران ، النساء والمائدة)، فهذه السورة المدنية تم تقسيمها إلى مقاطع، وكل مقطع فيها له وحدة موضوعية خاصة به، ويعالج من خلالها جانباً متصلاً مع الوحدة الموضوعية للسورة كلها، ولكن طبيعة هذه السورة المكينة تختلف في عرضها لوحدها الموضوعية، حيث تعالج سورة الأنعام موضوعها الأساسي (تقرير حقيقة الألوهية في كل مناحي الحياة) .. تعالجه بصورة فريدة تختلف عن طبيعة القرآن المدني التي تعرضنا لها في السور السابقة، فسياق سورة الأنعام متصل متدفق من أول السورة إلى آخرها، حيث يعرض عناصرها على هيئة موجة من موجات النهر المتدفق، ثم تكرر عرض هذه العناصر بعدها كالموجة اللاحقة بها والمتشابكة معها ولكن في شكل مختلف ، ثم تعيد تدفق موجاتها تبعاً، ما أن تنقضي موجة قوية حتى تلحقها الموجة التالية تتفق مع التي قبلها وتكملها.. وهذه هي الشخصية المستقلة الخاصة بسورة الأنعام والتي نزلت معها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين.

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الشخصية المستقلة الخاصة بسورة الأنعام: " هذه السورة تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه في موضوعها الأساسي، وفي منهج تناول، وفي طريقة العرض سواء .. ذلك مع احتفاظها " بشخصيتها" الخاصة، وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن ، والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة..

- فلكل سورة شخصيتها ، وملاحظتها ، ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي.. وهذه السورة نزلت معها موكب من الملائكة لهم زجل بالتسييح، والأرض بهم ترتج.. هذا الموكب، وهذا الارتجاج واضح ظلهما في السورة!.. إنها هي ذاتها موكب . موكب ترتج له النفس، ويرتج له الكون! وهي تشبه في سياقها المتدافع من المشاهد و الموحيات والمواقف مجرى النهر

المتدافع بالأمواج المتلاحقة. ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، ومتشابكة معها في المجرى المتصل المتدفق!^(١).

- لذلك لن نقوم بتجزئة السورة إلى مقاطع ، كل مقطع كان يتناول مجموعة الآيات المتصلة بنفس الوحدة الموضوعية، بل سنقوم بعون الله وتوفيقه بعرض السورة على هيئة خمسة محاور، كل محور فيها يسير من أول السورة إلى آخرها، يتم تجميع فيها الآيات التي تخص المحور الواحد على تفرقتها في السورة، والهدف من ذلك أن تظل الوحدة الموضوعية للسورة كلها متماسكة وواضحة، من خلال ارتباط محاورها الخمسة المعروضة بطول السورة على هيئة موجات متتالية.

محاور سورة الأنعام : .

- المحور الأول : التعريف بالله عز وجل بالأدلة الساطعة.
 - المحور الثاني: العمى عن دلائل التوحيد الساطعة والتكذيب بآياته البينة.
 - المحور الثالث: بيان حقيقة "لا إله إلا الله" ومدلولها ومقتضاها .
 - المحور الرابع : الصدع بالتوحيد وإعلان المفاصلة فيه.
 - المحور الخامس : خطورة الشرك والتحذير منه ، وبيان موقف المشركين المكذبين.
- مع عرض مقاصد القرآن التالية :

- مقصد معرفة الله عز وجل : تعرف على اسم الله (العظيم).
- مقصد الإعداد لليوم الآخر: ولو ترى إذ وقفوا على ربهم .
- مقصد تركية النفس: اعرف حقيقتك أيها العبد.

والآن إلى التفصيل بإذن الله ..

(١) في ظلال القرآن ، ١٠٢٢/٣ .

المحور الأول : التعريف بالله عز وجل بالأدلة الساطعة

- قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ مَمْتَرُونَ ﴾ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١-٣] والآن مع أمتع رحلة في الحياة .. إنها رحلة التعرف على الله عز وجل.

- تبدأ السورة بتعريف البشرية بربها، بثلاث لمسات ترسم مجالي الوجود الكوني والإنساني في الآيتين الأولى والثانية ثم كيف تحيط بهما حقيقة الألوهية في الآية الثالثة، يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عنها : " أي إعجاز ! وأية روعة ! وأي شمول ! وأية إحاطة !

أمام هذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق، وأمام هذا الوجود الإنساني الشاهد بتدبيره، وأمام هذه الألوهية الحاكمة في السموات وفي الأرض، تبدأ السورة بالحمد لله ثناءً عليه، وتسيباً له، واعتراضاً بأحققته للحمد والثناء على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء.. بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وأولى خصائصها : " الخلق " ، وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود : " السموات والأرض .. ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض وفق تدبير مقصود : " الظلمات والنور " .. لتعجب مع هذه الدلائل الساطعة الناطقة بتوحيد الله عز وجل من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدره الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك لا يوحّدونه سبحانه وتعالى، بل يجعلون لله شركاء يعدّلونهم به سبحانه وتعالى ويساوونه ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ..

ثم بعد عرض الدلائل الناطقة في هذا الكون الضخم والشاسع ، تعرض لنا لمسة الحياة الإنسانية .. لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج، في تناسق بديع مع " الظلمات والنور " في الآية الأولى .. ثم إلى جانبها لمسة أخرى متداخلة : لمسة الأجل الأولى المفصي

لموت، والأجل الثاني المسمى بالبعث.. لمستان متقابلتان في الهمود والحركة كتقابل الطين الهامد والخلق الحي في النشأة.

وكل هذه اللمسات من دلائل التوحيد الناصعة من شأنها أن تنقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله، واليقين ببقائه ولكن المشركين يشكون في هذا ولا يستيقنون: " ثم أنتم تمترون" ..
واللمسة الثالثة تضم اللمستين الأوليين في إطار واحد ، وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء : " وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون" ..
إن الذي خلق السموات والأرض هو الله في السموات وفي الأرض.. وهو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:
٨٤] ..

إن القضية التي تستهدف السورة كلها . بل القرآن كله . تفريرها هي " الوجدانية" وليست هي قضية " وجود " الله ..

فلم تكن المشكلة الأكبر في تاريخ البشرية هي مشكلة الإلحاد بعدم الإيمان بوجود إله إنما المشكلة الأكبر هي تفرير وجدانيته وإفراده سبحانه بالعبادة وحده! ^(١).

والسؤال : كيف نتعرف على الله عز وجل ؟ وهل التوحيد هو اعتقاد أن الله وحده هو الخالق الرازق المدبر؟

وإجابة السؤال بحول الله وقوته في شقه الأول وهو : كيف نتعرف على الله عز وجل ؟ يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مجيباً : " بالنظر في آياته ومخلوقاته ، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما" ^(٢).

(١) في ظلال القرآن ، ٣ / ١٠٣٠ بتصرف يسير.

(٢) كتاب التوحيد، الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ويقول الشيخ بن عثيمين رحمه الله : " كل شيء في العالم يدل على أن الله واحد، والنظر في آيات الله تعالى ومخلوقاته ، وآيات الله تعالى نوعان : كونية وشرعية ، والآيات الكونية هي المخلوقات ، والآيات الشرعية هي الوحي الذي أنزل الله على رسله، وعلى هذا فالله عز وجل يُعرف بآياته الكونية وهي المخلوقات العظيمة وما فيها من عجائب الصنعة وبالغ الحكمة ، وكذلك يعرف سبحانه وتعالى بآياته الشرعية وما فيها من العدل، والاشتمال على المصالح ودفع المفاسد.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والنظر في الآيات الشرعية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وفي آياته الكونية وهي مخلوقاته سبحانه وتعالى، من شأنه أن يزيد العبد علماً بخالقه ومعبوده ، قال تعالى ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ - ٢١] ^(١).

إذن لابد لنا من تحصيل أنفع العلوم وأشرفها وهو : " العلم بالله عز وجل وعنه سبحانه وتعالى " ، والعلم هو : إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً " ، لذلك فمصيبة الجاهلية الأكبر هي : " الجهل بالله عز وجل وعن الله " ، وهو السبب الأول للوقوع في الشرك بالله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، قال تعالى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، قال تعالى ﴿ وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

إذاً من أهم الواجبات على المسلم أن يعمل على إزالة جهالته في أمور التوحيد ومعرفة الله عز وجل، والجهل نوعان: جهل بسيط هو " عدم إدراك الشيء بالكلية " ، و جهل مركب وهو " إدراك الشيء على وجه يخالف الحقيقة التي هو عليها " .

(١) شرح الأصول الثلاثة، محمد بن صالح العثيمين ، ص (٥، ٢٢) .

أما عن إجابة الشق الثاني من السؤال السابق وهو : هل التوحيد هو اعتقاد أن الله وحده هو الخالق الرازق المدبر؟

أولاً : "التوحيد" في اللغة أي : جعل الشيء واحداً ، مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً ، فالتوحيد مصدر للفعل الرباعي : "وَحَدَّ" .

وفي الشرع : التوحيد هو " إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات " .

ثانياً : أقسام التوحيد هي ثلاثة أقسام :

(١) توحيد الربوبية (٢) توحيد الألوهية (٣) توحيد الأسماء والصفات

وقد اجتمعت الثلاثة في قوله تعالى ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ

لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] .

• ويقسم ابن القيم رحمة الله تعالى التوحيد إلى نوعين بقوله : " وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكتب فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى، وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحمته ، قال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ١ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ٢ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ٣ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤] .. وهذا هو التوحيد "العلمي الخبري" يتضمن خبر عن الله تعالى وتعريف بأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله.

والثاني : إفراد الله عز وجل بالعبادة وحده لا شريك له ، وخلع ما يُعبد من دونه ، قال

تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ١ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ٢ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ٣ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴾ ٤ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ٥ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١ -

٦] .

وجملة سورة الأنعام وأول سورة الأعراف، بل كل سورة في القرآن متضمنة لنوعي التوحيد،

شاهدة به داعية إليه".

إذن التوحيد في المعرفة والإثبات هو : توحيد الربوبية والأسماء والصفات & التوحيد في

الطلب والقصد هو : توحيد الألوهية والعبادة.

توحيد الربوبية

هو : " إفراد الله عز وجل بالخلق والملك والتدبير " .

وقد جاء في أواخر سورة المائدة وأول سورة الأنعام ، قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ١٢٠] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام : ١] ، وقوله

تعالى ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَلْتَأْتُوا بِهِ حَقِيرًا أَلْتَأْتُوا بِهِ خِلَافًا مُّبِينًا وَاللَّهُ أَتَعْبُدُونَ﴾ [الأنعام : ١٤] .

والحقيقة أن هذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ

بل كانوا مقرين به، قال تعالى ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ

الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف : ٩] ..

فالمشركون ليس لديهم أية مشكلة في الإقرار بأن الله هو الذي خلق الخلق وهو الذي يدبر

الأمر، وهو الذي بيده ملكوت السموات والأرض .

● فلم يجحد أحد توحيد الربوبية، لا على سبيل التعطيل ولا على سبيل التشريك، إلا ما

حصل من فرعون، فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة منه، لأنه يعلم أن الرب

غيره، قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] .

توحيد الأسماء والصفات

هو: " إفراد الله عز وجل بما له من الأسماء والصفات " ، وهذا يتضمن شيئين :

الأول : الإثبات، وذلك بأن ثبت لله عز وجل جميع أسمائه وصفاته التي أثبتتها لنفسه في

كتابه أو سنة نبيه ﷺ .

الثاني : نفي المماثلة ، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته ، كما قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، يقول ابن عثيمين رحمه الله : " دلت هذه الآية على أن جميع صفات الله لا يماثله فيها أحد من المخلوقين، فهي إن اشتركت في أصل المعنى ، لكن تختلف في حقيقة الحال، فمن لم يثبت ما أثبتته الله لنفسه ، فهو معطل ، ومن أثبتها مع التمثيل فهو من الممثلين، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

وينبغي أن تبرأ عقيدتنا من التحريف والتعطيل والتكليف والتمثيل فيما وصف الله وسمى به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ ، فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكليف في الصفة، والتمثيل في الصفة، هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم، وأما التكليف فلا يجوز أن تُكيف صفات الله ، قال تعالى ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، وهذا ليس معناه أن لا نعتقد أن الصفة ليس لها كيفية، بل لها كيفية ولكنها ليست معلومة لنا، لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود، وحينما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، قال " الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" (١).

توحيد الألوهية

• هو إفراد الله عز وجل بالعبادة، وإثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن " لا إله إلا الله"، فلا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي إلا له ، ولا يعادى إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله ، ولا يتلقى الشرائع إلا منه وحده .

قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

(١) شرح كتاب التوحيد ، القول لابن عثيمين ، ص ١٢ ، ١٣ .

والعبادة بمفهومها العام هي : " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الاعتقادات ، والأقوال ، والأعمال الباطنة كالخوف والخشية والتوكل ، والأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام" (١).

وتعريف آخر للعبادة هي : " التذلل لله محبة وتعظيماً بفعل أو امره، واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه" .

وهذا القسم من التوحيد، كفر به وجحده أكثر الخلق، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .. وهذا القسم من التوحيد هو التوحيد العملي السلوكي، أما ما سبق من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات هو التوحيد المعرفي الخبري، لذلك فتوحيد الألوهية يبنى على توحيد الربوبية والأسماء والصفات، حيث يبنى على معرفة العبد لربه سبحانه وتعالى حق المعرفة أن يفرد سبحانه وتعالى بالعبادة الصحيحة الخالصة بشمولها وكمالها، لذا "فمعرفة الله" تستلزم قبول ما شرعه والإذعان والانقياد لحكمه وتحكيم شريعته التي جاء بها رسول الله ﷺ (٢).

● لذلك أفردت سورة (الأنعام) مساحة كبيرة للتعريف بالله عز وجل ، كي يفرد عبادته بالعبودية له وحده وفق ما جاء في شرعه القويم وصراطه المستقيم ، الذي عرفتنا به السور السابقة لسورة الأنعام .

وهذه العبادة بمفهومها الحقيقي والشامل، سنتعرض لها بإذن الله مع تعرضنا لمدلول " لا إله إلا الله) ومقتضاها في المحور الرابع في عرض سورة الأنعام.

(١) تعريف ابن تيمية رحمه الله، عن شرح الأصول الثلاثة ص ١٦ .

(٢) شرح الأصول الثلاثة، ابن عثيمين ص ٥ .

أربعة أمور هامة في أقسام التوحيد

الأول: دحض شبهة أنه يجوز التحاكم إلى البشر^(١)، وهذا كما يدعى البعض أن القرآن ذكر ذلك في أكثر من موضع كقوله تعالى ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] ، قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥] .

- وهذه الشبهة يراد بها عدم إفراد الله عز وجل بالحاكمة والتحاكم إلى شرعه كما هو متضمن في توحيد الألوهية، وتطرح هذه الشبهة لفتح باباً بجواز تشريع البشر وسنهم لقوانينهم ووضعهم لمناهجهم بأنفسهم.
- والرد على هذه الشبهة يكون في أن الحكم الذي ذكرته الآيات السابقة في حق البشر هو حكم محدود ناقص ، فالإنسان يحكم في حدود ما أذن له الله شرعاً ، كما أن حكمه إلى زوال وليس حكماً أبدياً، أن الآيات المذكورة لم تتحدث أصلاً على أن المقصود بها هو التحاكم لتشريعات البشر.
- وقد ورد في آيات وأحاديث نسبة الخلق إلى غير الله، كقوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] ، وكقوله ﷻ في المصورين: " يقال لهم : أحيوا ما خلقتهم " .. فهذا ليس خلقاً في الحقيقة، وليس إيجاداً بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضاً ليس شاملاً ، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة ، فلا ينافي ذلك أبداً : إفراد الله بالخلق .. كما ورد نسبة الملك إلى غير الله، كقوله تعالى ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : ٦] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

(١) كتاب الثقافة الإسلامية للصف الأول الثانوي الأزهري، ص ٧٨.

فهذا الملك محدود لا يشمل إلا شيئاً يسيراً من هذه المخلوقات، فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف، والإنسان مستخلف فيه لفترة معينة، وهذا لا ينافي أبداً إفراد الله بالملك، كما جاء في توحيد الربوبية.

● الأمر الثاني : اهتم المصنفون لعلم التوحيد من المتأخرين على توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقواماً ينكرون وجود الرب "الملحدين" - مع وجودهم - ولكن تركوا التركيز على توحيد الألوهية رغم أن أكثر المسلمين واقعين في شرك العباداة ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦].

● الأمر الثالث : اهتم المصنفون لعلم التوحيد في العصر الحديث بمواجهة شرك القبور وخطر الطواغيت الأموات، وأهملوا عن قصد أو غير قصد مواجهة شرك الطاعة، والتشريك في التشريع وخطر الطواغيت الأحياء.

● الأمر الرابع: القسم من التوحيد الذي ضلت فيه الأمة المسلمة في القرن السابع والثامن الهجري هو : توحيد الأسماء والصفات " .

... فمنهم من سلك مسلك التعطيل كالمعطلة التي ظهرت على يد الجهم بن صفوان، وقاموا بتعطيل الصفات بنفيها، زاعمين في ذلك أنهم ينزهون الله عز وجل ، وقد ضلوا لأن المنزه حقيقة " هو الذي ينفي عن الله صفات النقص والعيب، فمن قال : بأن الله ليس له سمع ، ولا بصر ، ولا علم ، ولا قدرة ، لم ينزه الله ، بل وصمه بأعيب العيوب لأن الله يكرر في كلامه ويثبت أنه ﴿ سميع بصير ﴾ [الحج : ٦١].

ومن هذه الفرق من سلك مسلك التمثيل زاعمين بأنهم يحققوا لما وصف الله به نفسه، وقد ضلوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لأنهم لم يقدرُوا الله حق قدره ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : ٩١] إذ وصموه بالعيب والنقص لأنهم يمثلون الكامل بالناقص كذباً وجراً.

وهذه الفرق التي انحرفت عن صراط الله المستقيم رجحت عقلها عن الوحي، اعتمدت على ما يستحسنه عقلها وما يتفق مع أحكامه فتأولت نصوص الكتاب والسنة ، ومثال ذلك كالأشاعرة

وهي : فرقة كلامية إسلامية تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة^(١)، وقد اتخذت الأشاعرة : البراهين والأدلة العقلية لإثبات حقائق العقيدة وذلك لمحااجة خصومهم من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم.

● فقام الأشاعرة بإثبات لله عز وجل صفات سبع عن طريق العقل وهي : صفات الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام أما الصفات الخيرية كالوجه واليدين والقدم والساق فتأولوها على ما ظنهم أنها تتفق مع أحكام العقل.

● أما التوحيد الذي ضلت فيه الأمة المسلمة في القرن العشرين والحادي والعشرين هو توحيد الألوهية في أخص خصائصه وهو : " توحيد الحاكمية" ... فمنهم من سلك مسلك التشريع من دون الله ، والتلقي من مناهج الغرب الصليبي أعداء الدين التي صدرتها لأمة الإسلام، فاستوردتها الأمة عن طواعية مما أدى للانحراف عن صراط الله المستقيم ، وذلك لأن الأمة خدعت في أعدائها الحقيقيين فلهثت خلف مناهجهم وتصوراتهم تحت دعوى التقدم والحضارة، ولتحسين صورة الإسلام من التخلف والرجعية التي رموه بها .

● كما أن استحسان العقل عن النقل أدى إلى الوقوع في أن كل شيء صار يحسب بحسابات المصالح والمفاسد، حتى أمور التوحيد والعقيدة لم تسلم من ذلك، فأهملت أدلة الأحكام الشرعية الأصلية من الكتاب والسنة، وصار المرجع هو قاعدة المصالح والمرسلة، مما أدى لنفس نتيجة انحراف الفرق التي ضلت في " الأسماء والصفات" ، وسيأتي التفصيل في عرض المدلول الحقيقي لشهادة التوحيد " لا إله إلا الله " .

● ونعود الآن إلى موجات سورة الأنعام المتدفقة والمتتالية عن التعريف بالله عز وجل بالأدلة الساطعة ، فإلى الموجة الثانية في السورة، قال تعالى ﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ

(١) المعتزلة : فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة .

فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ [الأنعام : ١٢ - ١٤] ، وقال تعالى ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٧-١٨﴾ .

• يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الآيات : " هذه الموجة الجديدة ذات المد العالي والإيقاع الرهيب ، تجيء بعد عرض حقيقة الألوهية في المجال الكوني العريض ، وفي المجال الإنساني العميق ثم بعد أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء ، وهذه الموجة تتعرض كذلك لحقيقة الألوهية ولكن في مجالات أخرى ، بإيقاعات جديدة ، ومع مؤثرات كذلك جديدة .. فيقع الحديث عن التكذيب بين موجة الافتتاح وهذه الموجة ، ويبدو أمره في غاية النكارة والبشاعة!

هذه الموجة تبرز حقيقة الألوهية ممثلة في الملك والفاعلية ، وفي الرزق والكفالة ، وفي القدرة والقهر ، وفي النفع والضرر.. وذلك لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه ، وتوحيد الاستسلام والعبودية ، واعتبار الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية ، فإذا أمر رسول الله ﷺ أن يستنكر أن يتخذ غير الله ولياً ، بين أن هذا الاستنكار قائم أولاً على أن الله يطعم ولا يطعم ، وقائم ثانياً على أن تولى غير الله هو نقض لما أمر به من الإسلام .

ويصاحب عرض حقيقة الألوهية في هذه الصورة ولهذا الغرض ، جملة مؤثرات قوية تخلخل القلوب تبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ . وحقيقة الرزق أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (وهو يطعم ولا يطعم) . وعرض القدرة على الضر والخير ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٧﴾ ...

إنها المواجهة مع المشركين الذين يعرفون أن الله هو الخالق (توحيد الربوبية) ثم يعدلون به من لا يخلق فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم (التشريك في الألوهية).. تواجههم الآيات بالسؤال عن الملكية بعد الخلق لكل ما في السموات والأرض، مع تقرير الحقيقة التي لم يكونوا هم يجادلون فيها (قل : لله) ، كانوا يعرفون ويقررون أن لله ما في السموات والأرض . ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية، بإفراد الله سبحانه بالحاكمة فيما يملك ، وعدم التصرف فيه إلا بإذن الله وحده وشرعه .. وبهذا اعتبروا مشركين ، وسميت حياتهم بالجاهلية! فكيف بمن يخرجون الحاكمة في أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه ثم يزاولونها هم بأنفسهم؟؟! بماذا يوصفون وبماذا توصف حياتهم؟ لابد من إعطائهم صفة أخرى غير الشرك.. فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه.. أياً كانت دعواهم في الإسلام وأياً كانت الصفة التي تعطيها لهم

شهادات الميلاذ!

" كتب على نفسه الرحمة" ..

فهو سبحانه المالك ، لا ينازعه منازع، ولكنه فضلاً منه ومنه . كتب على نفسه الرحمة ، كتبها بإرادته ومشيئته ، لا يوجبها عليه موجب ، والرحمة هي قاعدة معاملته لعبادة في الدنيا والآخرة ، فرحمة الله بعباده هي الأصل ، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضراء، فهو يبتليهم ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته ، بعد الخلوص والتجرد والمعرفة والوعي والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء.

" كتب على نفسه الرحمة" تكررت في السورة في موضع آخر ، رحمة الله تفيض على عباده جميعاً ، وتسعهم جميعاً، وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم، إن التفضل والعناية بعباده حتى يبلغهم سبحانه وتعالى بهذه الحقيقة هي تفضل آخر، لا يقل عن ذلك التفضل الأول إن كتب على نفسه الرحمة ، فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى؟ وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه يحملها إليهم رسوله؟ إلا أنه الفضل العميم الفائض من الله الكريم.

إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ، كما يدعه في أنس وفي رُوح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه!

والله عز وجل لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها . إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويشركون به.

فأي طمأنينة هذه تسكيبها هذه الآية في نفس المؤمن لتملأها بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل ، وباهدء والراحة .. فهو في كنف الودود الرحيم.

(قل أغير الله اتخذ ولياً) إنه منطق الفطرة القوى العميق.. لمن يكون الولاء ولمن يتمخض؟ لمن إن لم يكن لفاطر السموات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما ؟ لمن إن لم يكن لرازق من في السموات والأرض الذي يطعم ولا يطلب طعاماً؟ إن الخالق الرازق المالك هو المتصرف صاحب السلطان في السموات والأرض، ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرازق؟ ثم لماذا يتخذ غير الله ولياً ، ويعرض العبد نفسه للشرك ؟ أعل ذلك رجاء جلب نفع أو ضرر في هذه الحياة الدنيا؟ رجاء نصرة الناس له في الضراء ، ورجاء نفع الناس له بالسراء؟ .

إن هذا كله بيد الله، وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب ، وله القهر كذلك على العباد، وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعطاء " (١) .

وهذه الموجة الثانية القوية في تأثيرها ، العميقة في دلالتها، من موجات سورة الأنعام في محورها الأول: " التعريف بالله عز وجل بالأدلة الساطعة" .

تدعنا أن نتساءل : هل ولاية غير الله تعتبر شركاً؟ هل رجاء النفع والضرر من غير الله هي شرك بالله؟ .

• يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مجيباً: " قال تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ [الجن: ١٨] ، فينبغي أن تتوجه العبادة للخالق المستحق بما وحده، ومن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر، والدليل قوله تعالى ﴿ وَمَنْ

(١) في ظلال القرآن ، ٣/١٠٤٧

يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾
[المؤمنون : ١١٧] .^(١)

والدعاء نوعان : دعاء مسألة ودعاء عبادة :

فدعاء المسألة هو دعاء الطلب أي طلب الحاجات وهو عبادة إذا كان من العبد لربه، لأنه يتضمن الافتقار إلى الله تعالى واللجوء إليه ، واعتقاد أنه قادر كريم واسع الفضل والرحمة.
ولكنه يجوز إذا صدر من العبد لمثله من المخلوقين ، إذا كان المدعو يعقل الدعاء ويقدر على الإجابة، دون اعتماد القلب عليه.

وأما دعاء العبادة فأن يتعبد به للمدعو طلباً لثوابه أو خوفاً من عقابه، وهذا لا يصح لغير الله وصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج عن الملة وعليه يقع الوعيد ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الأنعام : ١٤ - ١٦] .

● لذلك فكل أنواع العبادات الباطنة مثل الرجاء والتوكل والاستعاذة والاستغاثة مثلها مثل العبادات الظاهرة كالصلاة والصيام والحج والزكاة ينبغي أن تكون لله عز وجل وحده ، ولا يقصد بها غير وجه الله ، وهذا هو معنى " توحيد الألوهية " المبني على معرفة العبد لربه الذي بيده وحده ولاية العبد وكشف الضر عنه..

● يقول الشيخ بن عثيمين رحمه الله: " والرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله عز وجل وصرفه لغير الله تعالى شرك إما أصغر، وإما أكبر بحسب ما يقوم بقلب الراجي، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] ..

(١) كتاب التوحيد ، فُجِدَّ بن عبد الوهاب.

• والتوكل على الله تعالى وهو من تمام الإيمان وعلامات صدقه، قال تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] ، والتوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير مع تعلق القلب به والاعتماد عليه، فهذا نوع من الشرك الأصغر.

• والاستعاذة هي طلب الاعاذة من مكروهه، وطلب الحماية والاعتصام به ، قال تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، والاستعاذة بما يمكن في ذاته ، قال تعالى ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] .

والآية فيها ذم المستعيزين بغير الله، فالمستعيز بالشيء لا شك أنه قد علق رجاءه به واعتمد عليه، وهذا نوع من الشرك ، لأن هذا لا يكون إلا لله.

• والاستغاثة هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة، وإذا طلب العبد من أحد الغوث وهو قادر عليه، فإنه يجب عليه تصحيحاً لتوحيده أن يعتقد أنه مجرد سبب، وأنه لا تأثير له بذاته في إزالة الشدة، قال تعالى ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٦] ، ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٤] ..

• والآن نعود إلى الموجة الثالثة في سورة الأنعام من الموجات المتدفقة والمتتابعة على فترات من السورة للتعريف بالله عز وجل بالأدلة الساطعة والآيات البينة، قال تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [٥٩] ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٦٠] ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴾ [الأنعام : ٥٩ - ٦١] .

وهذه الموجة تبرز حقيقة الألوهية في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة بعد مجالي خلق الكون والإنسان ثم مجال المُلْك والرِّزْق والكفالة، تعرضه في مجال الغيب المكنون، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء، يقول عنها الشيخ سيد قطب رحمه الله: "إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يغيب عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت، ويابس ورطب..

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن . بأسلوبنا البشري المعهود . من ذلك النسق القرآني

العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد، من ذلك التصوير العميق الموحى؟

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب والشهادة.. وإن الوجدان ليرتعش وهو يحاول أن يرتاد أستار الغيوب في الماضي والحاضر والمستقبل.. مفاتيحها كلها عند الله وحده، لا يعلمها إلا هو.. يرتاد المرء في مجاهل البر وفي غيايات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، إنها جولة تذهل العقول.. جولة في آماذ من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمخجوب، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة مترامية الأطراف.. ترسمها بضع كلمات.. ألا إنه الإعجاز!

من الذي يحصل ويسجل كل ورقة ساقطة، وكل حبة مخبوءة، وكل رطب وكل يابس؟ من؟ إلا الله صاحب الملك الذي لا يغيب عنه شيء في ملكه.. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.. إنه الله الذي يحصى كل ذلك في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ.. بل إن هناك غيباً لا يعلم مفاتيحه إلا الله، وما أتاه الإنسان من العلم إلا

قليل .. وهذا القليل إنما أتاه الله له بقدر، وأن الناس لا يعلمون فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه إلا ظناً ، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً^(١).

- وبعد هذه الموجات الثلاث القوية والمتدافعة في تعريف الخلق بالخالق المالك العليم .. نجد أننا أمام إله عظيم لم نقدره حق قدره، فكيف والأرض كلها في هذا الكون الهائل لا تتجاوز " ذرة فلكية " والإنسان فيها شيء يكاد لا يذكر ورغم ذلك أرسل الله عز وجل له الرسل، وأنزل عليه لكتب هدايته إلى ربه العظيم ، ثم نجد هذا الإنسان الذي خلقه الله عز وجل من نقطة، فإذا هو خصيم مبين، يشرك بربه أوثاناً وأصناماً وطواغيت وأرباباً، افتراءً على الله عز وجل ..
- إن هدف هذه الموجات المتلاحقة من التعريف بالله عز وجل ، هو تعظيم قدر الله عز وجل ، لإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، والعبادة هي : " التذلل لله عز وجل محبة وتعظيماً" كما أن هدفها هو تعظيم أمر الشرك بالله وعدم الاستهانة به في قلوبنا ..
- كما نؤكد هنا أن من جلال وهيبة هذه السورة، أنه نزلت بها الملائكة في موكب سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج ، ورسول الله ﷺ يقول : " سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم " .. لذلك سنقوم في الفقرة القادمة بالتعرف على اسم الله : " العظيم " .

مقصد معرفة الله : اسم الله (العظيم)

- قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .
- قال تعالى ﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٢] .
- قال تعالى ﴿ وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام : ١٣] .
- قال تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

(١) في ظلال القرآن ، ٣ / ١١١٢ .

• قال تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩].

• قال تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : ٩١].

يقول ابن القيم : وهو العظيم بكل معنى يوجب

التعظيم لا يحصيه من إنسان^(١)

يقول د. راتب النابلسي :

" العظيم مشتق من العَظْم، وهو في اللغة : الضخامة والعزُّ والمجد والكبرياء، الشيء العظيم هو الشيء القوي، الشيء العزيز، الشيء الماجد ذو الكبرياء.
أما إذا قلنا : إن الله سبحانه وتعالى عظيم ،فمعنى ذلك : أنه عظيم في وجوده، عظيم في علمه، عظيم في قدرته ، عظيم في سلطانه ، عظيم في نفاذ حكمه"^(٢)..

• يقول ابن القيم : " معاني التعظيم ثابتة له سبحانه وهي تعنى أنه سبحانه موصوف بكل صفة كمال ، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسع به حيث لا يكون وراءه كمال أصلاً ، فله العلم الواسع المحيط والقدرة التامة والإرادة الشاملة والحكمة البالغة، وله الكبرياء والعظمة اللذان لا يقدر أحد قدرهما ولا يبلغ كنههما ، كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما عذبتة"^(٣) " (٤).

(١) نونية أسماء الله الحسنى . ابن القيم الجوزية.

(٢) موسوعة أسماء الله الحسنى، د. محمد راتب النابلسي ، ص ٤٦٥ .

(٣) صحيح : رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٤) شرح أسماء الله الحسنى ، ابن قيم الجوزية، ص ٢٢١ .

ومن صفات الكمال التي لا يكون وراءها كمال أصلاً .

● أنه سبحانه عظيم في وجوده : فكل الموجودات جميعاً سبقها عدم ، وسوف تنتهي إلى عدم، أما الله سبحانه وتعالى فلا شيء قبله، ولا شيء بعده، وهي الحي الباقي على الدوام.

● أنه سبحانه عظيم في علمه: فعلم الإنسان محدود متعلق بالحواس الخمس، ومتعلق بالحواس التي تحيط به ، فلا يمكن أن يتجاوز علم الإنسان الجدران التي يقبع داخلها ، فلا يعلم ماذا يجري في الطريق خارج البيت مثلاً، أما علم الله سبحانه وتعالى مطلق) والله بكل شيء عليم) .

● أنه سبحانه عظيم في قدرته: فقدرة الإنسان محدودة، فهو مقهور بالمرض وبالموت، وبحسب علم الأطباء يقولون لك : هذا المرض عضال الإشفاء منه ، فيتوجه الإنسان إلى الله عز وجل بالدعاء فتقف الخلايا التي تنمو نمواً عشوائياً ، وينحسر المرض، ويظهر الله آياته ، سبحانه قهر عباده بالموت، قهر الجبابرة ، قهر الطغاة ، قهر الذين نازعوه الكبرياء والعظمة .

● أنه سبحانه عظيم في سلطانه : فسلطانه ممتد إلى أي مكان، وفي أي زمان ومع أي مخلوق ، فكل أجهزة الإنسان بيد الله، وكل أعضائه بيد الله، وكل حواسه بيد الله، فإذا استيقظ الإنسان صباحاً ووجد أنه " مُعافى في جسمه فهذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدوها، الكليتان تعملان بانتظام ، جهاز الهضم بانتظام ، البنكرياس يفرز الأنسولين ، القلب ينبض ثمانين نبضة في الدقيقة ، صمامات القلب لا تسمح للدم أن يرجع ، فإذا رجع الدم إلى القلب فإن تكلفة العملية الجراحية لإصلاح ذلك تبلغ مبالغ ضخمة باهظة تصل إلى ملايين وقد تنجح وقد لا تنجح، هذا إذا رجع الدم إلى

القلب، فمن ضبط هذه الصمامات؟ فنحن تحت قهر الله وسلطانه، إذا أراد الله شيئا

يقول له : كن فيكون، فكلُّ شيء وقع أمراده الله، وكلُّ شيء أرادته الله وقع . (١)

- هذه هي الحقيقة التي تقوم عليها السماء والأرض، أن كل شيء في الكون مرتبط به وحده سبحانه وتعالى ، يحتاج إلى الله عز وجل في كل لحظة قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: " إن وراء كل نجم يبرغ أو يأفل ، وكل برعم يتزعزع أو

يذبل، وكل ورقة تنبتق أو تسقط، وكل نبع يتفرق أو يفيض، وكل حي يولد أو يموت ..

إن وراء كل نبضة قلب ، وكل خلخلة عين، وكل بسملة شفة، وكل نطق لسان ..

وكل رقة نسمة، وكل خفق جناح، وكل صفقة ريح، وكل ومضة برق ، وكل هدير موجة،

وكل إدراج سحاب ..

إن وراء كل رغبة تجيش في صدر، وكل نية تكمن في قلب ، وكل رجل تدب على الأرض،

وكل يد تمتد إلى قطاف ..

إن وراء كل حركة ، وكل نائمة، في هذا الكون العريض على مدى الأبد الأبد .. يد الله

تدفعها، وقدر الله يوقعها، ولولاه سبحانه وتعالى ما كان شيء ولا يكون" (٢) .

- هل استشعرت الآن قوله تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ؟ .

- و قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [

الأنعام : ٧٣] ؟ .

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد راتب النابلسي، ص ٤٦٦ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب ، ص ٢٥٩ .

- أما الحديث عن عظمة خلق السموات والأرض، كي نحاول أن نقرب إلى الأذهان تخيل هذا الكون الشاسع، نذكر لك هذه الحقائق التي توصل إليها العلم الحديث:
- المسافة بين الشمس والأرض تبلغ ١٥٠ مليون كم، بينما المسافة بين الشمس وأبعد الكواكب خروجاً عنها (٦) آلاف مليون كم داخل المجموعة الشمسية ، والتي هي عبارة عن عدد من الكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات والشهب والنيازك تدور حولها الشمس..

في بادئ الأمر تخيل العلماء أن هذا هو كل السماء أو كل الكون، ولكن بعد تطور علم الفلك أدرك العلماء أن المجموعة الشمسية ما هي إلا ذرة صغيرة في تجمع أكبر يعرف باسم المجرة، وقد حصد العلماء في هذه المجرة إلى الآن أكثر من ٤٠٠ مليون نجم كشمسنا هذه ، كل نجم له توابعه كما أن لشمسنا توابعها، فاكتشف حديثاً أن عدد المجرات في الكون بلغت : ٢٠٠ ألف مليون مجرة بعضها أكبر من مجرتنا، وبعضها أصغر، ينظمها عقد عظيم كل ما فيه يدور ويتحرك في مسافات ثابتة وفي أفلاك محددة.

- ولأن المسافات الأرضية بوحدتها " الكيلو متر " تعجز عن التعبير عن أبعاد النجوم ، فتم اختيار السنة الضوئية كوحدة قياس لسطح الكون، وللعلم فالسنة الضوئية تبلغ: (٩.٥) مليون مليون كم.

- هل تعلم أن أقرب نجم إلينا خارج المجموعة الشمسية كم يبعد؟

يبعد عنا (٤.٣) من السنين الضوئية، وتبلغ قطر المجرة التي يتبعها (١٠٠ ألف) سنة ضوئية، ويبلغ سمكها (١٠ آلاف) من السنين الضوئية^(١).

كل هذا هو من الجزء المدرك من السماء الدنيا، وهناك تفاصيل لم يدركها علم الفلك الحديث بعد! . وهذه السماء الدنيا هي حلقة في فلاه بالنسبة للسماء الثانية (أي كالدبلة الملقاة في الصحراء) ، والسماء الثانية إلى الثالثة كحلقة في فلاه، والثالثة إلى الرابعة كحلقة في فلاه، والرابعة

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار.

إلى الخامسة كحلقة في فلاه، والخامسة إلى السادسة كحلقة في فلاه، والسادسة إلى السابعة كحلقة في فلاه.. سبحان الله العظيم .. سبحان الله العظيم .

• هل بدأت ، الآن تدرك معنى اسم الله العظيم؟ معناه هو : الذي تعجز العقول عن أن تدرك صمديته ، أو تصل إلى كُنه عظمته.. أحياناً يكون شيء عظيماً لكن يُحاط به علماً، لكن إذا قلت إن الله عظيم .. فالعقول عاجزة هنا أن تصل إلى كُنه هذه العظمة، لذلك لا يعرف الله إلا الله ، وليس هناك نبيٍّ بما فيهم سيّد الأنبياء والمرسلين ﷺ عرف الله المعرفة المطلقة، وهو أعرفنا بالله، لكن لا يعرف الله إلا الله، قال رسول الله ﷺ : " سبحانك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك " .

• أحياناً الناس يعظمون عبداً، فهو إذن عظيم عندهم لأن الناس عظموه، أما الله عز وجل فهو عظيم، ليس لأن العباد عظموه، لا لكن لأنه عظيمٌ في ذاته، هو مستغنى عن تعظيم العباد له.

• الآن يمكن لنا أن نتفهم هذا الحديث القدسي بإذن الله:

• عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كُلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كُلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أُطعمكم ، يا عبادي كُلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسُكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها

لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (١).

إن الله سبحانه وتعالى عظيم سواء أعظمه الناس أو لم يعظموه، أعرفوه أم لم يعرفوه، أقدّسوه أم لم يقدّسوه، وعظمته لا حدود لها لا نهائية، وليس هناك كلمة تُعبّر عن هذا الإطلاق كقولك: الله أكبر.

مهما عرفت من قدرته فهو أكبر، مهما عرفت من علمه فهو أكبر، مهما عرفت من رحمته فهو أكبر، مهما عرفت من سلطانه فهو أكبر، مهما عرفت من جلاله فهو أكبر.

وقيل العظيم.. هو الذي ليس لعظمته بداية، ولا لجلاله نهاية، ولا تهدي العقول لوصف عظمته، ولا تحيط بكنهه بصيرة، أي يستحيل أن تحيط بعظمة الله، قال تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

يقول الدكتور راتب النابلسي عن هذا المعنى الدقيق: "قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، ما هو ذنب النبي ﷺ؟ قال بعض العلماء "أن النبي ﷺ كلما عرف جانباً من عظمة الله، استحيا من المعرفة السابقة، وكلما ارتقت معرفته بالله، رأى أنه أذنب في حق الله، حينما عرفه اقل مما ينبغي، فلزمه الاستغفار جراء ذلك" (٢).

• وبعد التعرف على جانب ضئيل من جوانب اسم الله (العظيم)، والآن نتناول ما يحمله التعرف على اسم الله (العظيم) على العباد من واجبات؟ يقول ابن القيم: "من معاني عظمته أنه المستحق لكل أنواع التعظيم التي يعظمه بها عباده، فهو يستحق منهم أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبتة والذل والانكسار له والخضوع لكبريائه وأعمال اللسان في الثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.. ومن تعظيمه أن يُتقى حق تقاته فيطاع ولا يعصى.

(١) صحيح: رواه مسلم (٤/١٩٩٤) برقم: ٢٥٧٧.

(٢) موسوعة أسماء الله الحسنى، مُجد راتب النابلسي، الجزء الثاني، ص ٤٦٩.

ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

ومن تعظيمه تعظيم أمره ونهيهِ وكل ما شرعه من زمان ومكان وأعمال" (١).

إن من أهم معاني عظمته أن يوحد فلا يشرك به .. ويفرد بالعبادة فلا يجعل له نداً ولا شريكاً.. ويطاع فلا يعصى ، لأن الإيمان بالله العظيم يحملك على توحيده ، والخوف من عذابه وعقابه ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصِرْفِ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الأنعام : ١٥ - ١٦] ..

فأي إيمان بالله العظيم لا يحملك على توحيد الله وعبادته، لا قيمة لهذا الإيمان..

• رأيت إبليس أليس مؤمناً بربوبية الله فقد قال ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩] ، وقال في آية أخرى: ﴿ قَالَ فَبِعَرَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] .. إذن هذه المعرفة بالله وهذه الأقوال لم تغنه شيئاً، فقد عصى الله وكفر.. ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة : ٣٣] استحق النار على عدم الإيمان بالله العظيم .. الإيمان الذي يتحول إلى أفراد الله عز وجل بالعبادة، معرفة لله تتحول إلى سلوك وعمل ، ما قيمة أن يقول العبد بلسانه: " لا إله إلا الله" ، ويشرك بالله أنداداً وطواغيت وأرباباً؟ .

• لو كان المشركون آمنوا بالله العظيم حقاً، أكانوا يعبدون أصناماً ؟

• إذا كان المشركون آمنوا بالله حقاً ، أكانوا تصرفوا في ملك الله وفي رزقه وفي خلقه ؟ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦] ، ولو آمنوا بالله العظيم حق الإيمان ، لما افتروا عليه سبحانه وتعالى بالأباطيل والضلالات الكاذبة، ولما اعتدوا على حق من حقوق الألوهية وهو التحليل والتحريم ، ولما شرعوا من دون الله ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ

(١) شرح أسماء الله الحسنى ، ابن القيم الجوزية، ص ٢٢١ .

حَجْرٌ لَّا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءُ بَرَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿ [الأنعام : ١٣٨] .

- والآن نتعرف على حقيقة العبودية بعد ما تعرفنا على بعض الجوانب من حقيقة الربوبية في الخلق والرزق والملك والتدبير، نتعرف على أنفسنا وقدرها الحقيقي، بعدما حاولنا أن نتعرف على بعض معاني اسم الله (العظيم).

مقصد تزكية النفس: اعرف حقيقتك أيها العبد

- الله عز وجل هو الذي خلق كل شيء في هذا الكون، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] ، خلق كل شيء من عدم .. من لا شيء ﴿ هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان : ١] ، ومن ثم فهو سبحانه الذي يملكه ، لا ينازعه في ملكيته أحد ﴿ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾ [يس : ٨٣] ، فكل شيء في هذا الكون هو ملك حقيقي له سبحانه ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٢٠] ، ومع ملكه سبحانه لكل المخلوقات ، فهو كذلك قائم عليها يمدّها بما تحتاجه لتستمر في حياتها، لم يضع فيها مقومات استمرارية الحياة بدونه، بل جعل ذلك مرتبطاً ارتباطاً لازماً وضرورياً بإمداده سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [الحجر : ٢١] ولو توقف الإمداد الإلهي ، لما وجدنا بديلاً ولصرنا جوعى، عرايا، ظمأى.. كما جاء في الحديث القدسي: " يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته.. كلكم عار إلا من كسوته.. كلكم ضال إلا من هديته" ..

لقد خلقنا ونحن لا نملك شيئاً ذاتياً نقيم به حياتنا وذلك لحكم كثيرة، لعل من أهمها أن يعيش الجميع في حالة دائمة من : الخضوع والافتقار والاستسلام له سبحانه، ودوام التوجه إليه بذل وانكسار وتبؤس، وهذه هي حقيقة العبودية ، قال تعالى ﴿ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٧١] .

- إذن هذه حقيقة وجودنا، وهذه هي الحالة التي تستوجبها هذه الحقيقة .
- حقيقة وجودنا: أننا طفيليون " على الله جل شأنه، لا قيام لحياتنا ولو طرفة عين إلا بالله ، الطعام ، الماء ، الهواء ، العافية ، الأمن ، النوم ، الراحة، الحركة ، السكون، الكلام، الضحك، البكاء، القيام ، القعود.. لا نملك من أسباب وجودنا واستمرارية حياتنا أدنى شيء، ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴾ [النجم : ٤٣ - ٤٤] .
- والحالة التي تستوجبها هذه الحقيقة: هي حالة الاحتياج الدائم، والذل والافتقار والخضوع والاستسلام لله ، وهذه الحالة تسمى: " العبودية" ، وهي الوظيفة الدائمة لنا أمام ربنا ، وهي الحالة التي ينبغي أن تهيمن علينا في علاقتنا به.
- والترجمة العملية لمعاني العبودية : هي الطاعة التامة لله جل شأنه ، والخضوع لدينه ونظامه، والتلقي من شرعه وحده الذي ارتضاه لعباده ، قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، وإفراد العبادة له سبحانه وتعالى ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢]، والاستسلام لقضائه وأحكامه التي يجريها على العبد ﴿ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٧١] .
- والعبودية هي ذروة الشرف في علاقة العباد بربهم، كما يقول ابن القيم رحمه الله : " وجميع الرسل كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم، فقال نوح لقومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، وكذلك قال هود وصالح وشعيب ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥ ، ٧٣] ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

- والله تعالى جعل العبودية ، وصف أكمل خلقه ، وأقربهم إليه فقال تعالى ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٧٢] ، ووصف أكرم خلقه عليه ، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته ، فقال تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : ١] ، فيقول رسول الله ﷺ : " لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله " وفي الحديث : " أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد " (١).

ولكن هل تنقاد النفس بسهولة لتحقيق هذه العبودية ؟

إن طبيعة النفس تجعلها تأبى أن تعيش معاني العبودية وحالتها اللازمة للعبيد، فهي تطمح دوماً للعلو والتميز والاستغناء عن الآخرين ، ولقد حُلقت عل هذه الشاكلة لتكون بمثابة ميدان المعركة التي نخوضها في الدنيا، فالمعركة مع النفس هي في الحقيقة معركة العبودية ، فإما أن نكون عبيداً لله خالصين له ، خاضعين لنظامه، مستسلمين لشرعه، وإما أن نكون عبيداً لنفوسنا خاضعين لهواها حين ننهزم أمامها.

فطبيعة " النفس " : الرضا عن أفعالها ، كثرة الحديث عن أعمالها ، حب الذات ، والفرح بإمكاناتها، والعُجب بمواهبها، والتفاخر على أقرانها، والجحود والنكران لفضل الله ونعمه، واتباع أهوائها وشهواتها..

والمطلوب أن يتيقن العبد أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وأن عمله عرضة لكل آفة ونقص، وأن يجتمع لديه مطالعة من الله عليه، مع مشاهدة تقصيره ومطالعة جنائته وتفريطه ، للتشمير دوماً لتداركها، والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها..

(١) تهذيب مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، ص ٦٤ .

• يقول ابن القيم: " والله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: " من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله ، بعين الافتراء، وكلما عظم المطلوب في قلبك ، صغرت نفسك عندك ، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله، وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله ، وعرفت النفس : تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق ، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضا بكرمه وجوده وتفضله" . فبهذا المعنى تزدرى نفسك وتتخلص من كبرها وعجبها، وتقف بين يدي الله موقف العبيد، ناكس الرأس ، خاشع الطرف، منكسر القلب" (١) .

• إن تمكن حقيقة العبودية هذه من نفوسنا هو الواجب الأول لمعرفة حقائق الربوبية والألوهية ، وكلما عظم العبد ربه ، تضاءلت نفسه التي بين جنبيه في عينيه ، وانقاد لربه يعبده مخلصا له الدين ، ويرتضى به وحده سبحانه وتعالى حكماً وأمراً ومطاعاً ومعبوداً..

• والآن نعود إلى الموجة الرابعة من موجات سورة الأنعام، المتدافعة والمتلاحقة والمتلاحقة والخاصة بدلائل التوحيد الساطعة التي تعرفنا برينا سبحانه وتعالى ، قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ نُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا

(١) تهذيب مدارج السالكين ، ص ١٠٢ .

إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٥﴾ [الأنعام : ٩٥ - ٩٩] ..
إنها الروعة الباهرة لموجات النهر المتدفق.

• يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الموجة العميقة: " نحن هنا أمام كتاب الكون المفتوح، الذي يمر به الغافلون في كل لحظة فلا يقفون أمام خوارقه وآياته، ويمر به المطموسون فلا تفتح عيونهم على عجائبه وبدائعه ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ : إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد، فضلاً عن أن يملك صنعها أحد! معجزة الحياة نشأة وحركة، وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة ، والحياة الكامنة في الحبة والنواة، النامية في النبتة والشجرة سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلا الله ، ولا يعلم مصدره إلا الله والبشرية كلها تقف أمام هذا السر المغيب تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية في طريقها، والمعجزة تقع في كل لحظة! .

"يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي" ..

ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك .. لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموت ، ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية. ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة.. في دورة لم يعرف أحد يقيناً بعد متى بدأت ، ولا كيف تتم.. وإن هي إلا فروض ونظريات واحتمالات! لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة، على غير أساس أنها من خلق الله.

" ذلكم الله" مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر.. هو الله.. وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده.. بالعبودية والخضوع والاتباع.

" فأني تؤفكون" فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون! .

ذلكم الله الرب الخالق المستحق وحده بالعبادة..

" فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم"

إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضاً ، وهو الذي جعل الليل للسكون، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركتهما مقدره دوراتهما .. مقدراً ذلك كله بقدرته التي تهيمن علي كل شيء ويعلمه الذي يحيط بكل شيء .

وإنفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة، وانبثاق النور في تلك الحركة ، كانبثاق البرعم في هذه الحركة، سبحانه الله العظيم .. سبحانه الله العظيم .

وبين انفلاق الحب والنوى، وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى .. إن الإصباح والإمساء، والحركة والسكون، في هذا الكون ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة.

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس ، وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض، وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة.. هي تقديرات من " العزيز" ذي السلطان القادر " العليم" ذي العلم الشامل.. ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو، ولما انبثقت النبت والشجر، من الحب والنوى..

إنه كون مقدر بحساب دقيق.. ومقدر فيه حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة.. كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه" (١).

● إن الذي سير حركة الكون بميزان دقيق وناموس عام تخضع له كل الأحياء والأشياء، هو أيضا الذي سير حركة البشر في هذه الحياة بميزان دقيق وفق شرعه الذي أرادته للناس لينظم كافة أوضاعهم وتقاليدهم وتصوراتهم وقيمهم ، ومن أراد أن يخرج خارج هذا الشرع، ويشرع لنفسه أوضاعه وتقاليده وتصوراته وقيمته فقد خرج خارج ناموس هذا الكون، وصار شريداً خارج سرب العبودية..

لذلك في نهاية هذه الموجة تربط الآيات بين حقائق الربوبية من : الخلق والإنشاء للكون والحياة، وحقيقة كفالة الحياة بالرزق الذي ييسره الله في ملكه لخلقه، وحقيقة السلطان الذي يتصرف فيه صاحب الخلق والرزق والحياة في مملكته ، تربط بينها وبين حقائق الألوهية التي تنبض

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب، ١١٥٦/٣ .

على العباد من : العبودية لله وحده، وإخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة والخضوع له وحده، وجعل الحاكمية والتحاكم إليه وحده في شؤون الحياة كافة، واستنكار ادعاء الألوهية لأحد من البشر أو إدعاء إحدى خصائصها ، قال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

• وسنكتفي في المحور الأول في عرض سورة الأنعام بهذه الموجات الأربع في التعريف بالله عز وجل ، وتقديم الأدلة الساطعة على توحيد سبحانه وتعالى بالخلق والأمر، وبالرزق والسلطان ، وحيث أن الموجة الخامسة في السورة قد تم التعرض لها في مقدمة السورة ، مع تناولنا المقطع الأبرز فيها الذي يتحدث عن شرع الجاهلية في شؤون الحرت والأنعام .. هذه الموجة الخامسة التي جاء فيها قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

المحور الثاني : العمى عن دلائل التوحيد الساطعة والتكذيب بآياته البينة

• وبعد أن تدافعت موجات المحور الأول من السورة بشكل متدفق متتابع على مدار السورة كلها، تُبين لنا دلائل التوحيد ساطعة تنطق بها أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.. تهتف بها ورقة الشجرة ، وحببة النبتة، ونواة الزرعة.. تصدع بها حركة الشمس والقمر والليل والنهار كل صباح ومساء .

• إلا أنه رغم ذلك كله فإن هناك قلوب طُمست بصيرتها عن نور التوحيد الناصع، وأعرضت عن آيات الله البينات، التي تعلن لنا أن كل ما في الكون يسبح بتوحيد الله، إلا هذا الإنسان! الذي أراد أن يعيش في عمى وصمم عن نور الله ، واختار البقاء في الظلمات، فأنت موجات المحور الثاني من السورة تكشف هذا الصنف من الناس، وتحذرهم لاختيارهم الضلال عن الهداية واستجابهم العمى عن الهدى، كما تتوعد لهم بسوء العذاب بما كانوا يصدفون ، أي : يُعرضون ويصرفون الناس عن الهداية.

• الموجة الأولى في هذا المحور في قوله تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ [الأنعام: ٤-٧] .

• يقول ابن كثير في تفسيره : " يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين :أنهم مهما أتتهم من آية أي : دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الرب عز وجل ، وصدق رسله الكرام ، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها قال تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدنَّ غِبَّه ، وليذوقنَّ وبالَه . ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الديني ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر جمعاً ، فكثرتنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض استدراجاً وإملاء لهم ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها، وهكذا ذهب الأولون كأس الذهب وجعلناهم أحاديث، وأنشأنا جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل عملهم ، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم" (١) .

• وهكذا بينت لنا هذه الموجة موقف المكذبين بآيات الله الجليلة ، وإصرارهم كبراً وعناداً على الإعراض عن آيات الله رغم وضوحها، الآيات التي جاءت تدل على توحيد الله، وتدعو إلى القيام بتكاليف الألوهية، وتبين صراط الله المستقيم.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ٦٧/١ .

- لقد عرضت سورة البقرة، آل عمران ، النساء ، والمائدة بيان صراط الله المستقيم ، متمثلاً في دين الله وشرعه القويم ، وبينت لنا هذه السور متطلبات الصراط المستقيم من الانقياد لشرع الله عز وجل وحده ، والتلقي من منهجه الرباني دون سواه واتباع هدى رسول الله ﷺ وطريقه ، والتحاكم إلى كتاب الله ، والحكم بما أنزل الله..
- ثم جاءت سورة الأنعام لتؤكد لنا أن امتثال صراط الله المستقيم الذي جاءت بيانه السور قبلها ، إنما هو امتثالاً لتوحيد الله، وإقراراً بألوهيته، وإفراداً لعبوديته، .. وتعظيماً لجلاله وهيبته.. وخضوعاً لربوبيته..
- تكاد تهتف سورة الأنعام: النور واحدٌ .. والظلمات كثيرة ، وترى كثيراً من الناس يفضلون الظلمات ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .
- تهتف السورة : إنه صراط مستقيم واحد .. والسبل دونه كثيرة ، فترى كثيراً من الناس يتبعون السبل وينحرفون عن صراط الله المستقيم ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .
- ثم تأتي الموجة الثانية من موجات الإعراض عن دلائل التوحيد الساطعة والعمى عنها ، وذلك في قوله تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ المرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣ - ٣٦] .

• يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن هذه الآيات: " في هذه الموجة يتجه الحديث إلى رسول الله ﷺ يطيب الله سبحانه خاطره مما يلاقيه من تكذيب قومه له، وهو الصادق الأمين ، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنما هم مصررون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان لأمر آخر، كانوا يعلمون أن وراء دعوته من سلب السلطان الذي يزاولونه، وهو سلطان الله وحده .. التقى الأخنس بن شريق ذات مرة بأبي جهل، فقال له : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة، فما يكون لسائر قريش؟ .

• هذا هو سبب تكذيب هؤلاء المشركين برسول الله ﷺ الذي يعلمون صدقه فيما يبلغه لهم، وهذا هو سبب إصرارهم على شركهم ، لأن اتباعهم لرسول الله ﷺ سينزع منهم سلطاتهم، ..

"ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين" ..

• كلمات جليلة موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم: تلك سنتنا . يا محمد . فإن كان كبير عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم وكنيت ترغب في إتيانهم بآية .. إذن .. فإن استطعت فابتغ لك نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء، فأتمم بآية!

.. إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية. فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول.. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى : إما بتكوين فطرقتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى . كالملائكة . وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه. وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعاً . وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها.

ولكنه سبحانه لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله ، أراد تنوعاً في استعدادات الإنسان غير استعدادات الملائكة، يتوافق مع وظيفة الإنسان المطلوبة منه، هذا التنوع في استقبال دلائل الهدى

وموحيات الإيمان ، والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات ، في حدود من القدرة على الاتجاه، بالقدر الذي يكون عدلاً معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال..

لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده، ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية، ثم تلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف.. فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلون^(١).

● لقد تكرر هذا المعنى في سورة الأنعام ، وهو أن الله عز وجل لو شاء ما أشرك المشركون، ولو شاء هداهم، ولكن إرادته سبحانه وتعالى في ترك اختيار الإيمان والكفر للإنسان، فإذا اختار العبد الكفر اختاره وفق إرادة الله ومشيئته، ولكن الله عز وجل لا يجب ذلك أو يرضاه له.

● قال تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا " [الإنسان : ٢٩ - ٣٠] .

وهذه هي سنة الله في الهدى والضلال .. إنها تُعلق مشيئة الله بهذا أو ذاك ، وفق الفطرة التي فطر الله عليها العباد، باستقبالهم الهداية أو رفضهم وتعطيلهم منافذ الهدى بأيديهم كما جاء في سورة الأنعام :

● قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٧] .

● قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، [الأنعام : ١٣٧] .

● قال تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَأَفُوا بِأَسْنَانَا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

شروط الاستجابة للهدى

(١) في ظلال القرآن ، ١٠٧٨/٢ .

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [

الأنعام: ٣٦] .

إذن القضية ليست في نقصان دلائل الهداية، ولكن القضية في كيفية استقبالها ، والناس إزاء

استقبال الهدى فريقان :

• فريق حي : أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة، مفتوحة .. وهؤلاء يستجيبون للهدى. فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن يُسمعها فتستجيب له ، ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَبِحَقِّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

• فريق ميت: معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب .. ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله . فدليله كامن فيه ، لا ينقصه أن الحق مبهم أو عليه شكوك .. إنما الذي ينقصه هو قيام أجهزة الاستقبال: " القلب والأذن والعين" بمجرد التلقي ، وهؤلاء لا مجال معهم للبرهان ، إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يعثهم في هذه الحياة الدنيا، وبقوا أمواتاً بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة" والموتى يعثهم الله ثم إليه يرجعون" ..

وشبه الله عز وجل هنا موتى القلوب بأموات الأجساد من باب التهكم بهم ، ومن باب

افتقادهم الحياة الحقيقية .. حياة القلوب بنور الحق، قال تعالى ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ..

وهكذا فإن أهم شروط الاستجابة للهدى هو : " الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحق" ، والتي

تجعل العبد يفتح كل نوافذ الهداية ليستقبل نور الحق بإذن الله.

لقد أتت سور القرآن بكل آية تبرهن أن الله عز وجل لا يقبل إلا التوحيد الخالص، وكل آية أتت

أكبر من أختها، فسور البقرة ، آل عمران ، النساء ، والمائدة أتت بتوصيف صراط الله

المستقيم بالأدلة الساطعة، والبيّنات الناصعة ، حتى أن هذه السور لم تترك زيادة لمستزيد، ولا شبهة لمتأول ، ولا عذر لجاهل..

- حتى جاءت سورة الأنعام لتقيم الحجّة البالغة على كل رافضٍ للهداية، وعلى كل معرضٍ عن نور الحق، قال تعالى ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾: [١٤٩] ..

فلا يبقى بعد سورة الأنعام من رفض الهداية أو أعرض عن نور الحق إلا إحدى صنفين:

← من كذب بآيات الله .

← من استكبر عنها .

وسنتعرض بإذن الله هنا في عرض سورة الأنعام لموضوع " التّكذيب بآيات الله " ، بينما سنتعرض بإذن الله في عرض سورة الأعراف لموضوع الاستكبار عن آيات الله " .

حقيقة التّكذيب بآيات الله

- قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

- نحن هنا لا نتحدث فقط عن المشركين الأصليين الذين كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده، ومن ثم أشركوا في عبادته..

نحن أيضاً نتحدث عن كل مسلم . وأنا وأنت قد نكون منهم . أعرض عن الانتفاع الحقيقي بآيات الله ، فلم يستجب لنور هدايتها، ولم ينفاد إلى صراط الله المستقيم والحق المبين الذي تعرضه جلياً في كل آياتها، فانتبه أخي القارئ ولا تسقط هذا الكلام على أناس آخرين، وتعتبر أننا في منأى من الوقوع في التّكذيب بآيات الله! .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن الآية السابقة: " إن الذين كذبوا بآيات الله هذه المبتوثة في صفحات الوجود ، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن ، إنما كذبوا لأن

أجهزة الاستقبال فيهم معطلة ، إنهم صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، غارقون في الظلمات لا يبصرون ! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثمانى المادى ، فإن لهم عيوناً وآذاناً وقلوباً ، ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ! .. وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها ، لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك ! وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحاً حياة الهدى " (١).

والسؤال ما هي آيات الله ؟ وما هو حقيقة التكذيب بها ؟

- فلقد أمرنا الله عز وجل أن نعبد (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ﴿ [الذاريات : ٥٦] ، وأن تكون هذه العبادة بالغيب ﴿ مِّنْ حَشِي الرِّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٣] .

ولصعوبة ذلك ، فلقد أرسل الله عز وجل لنا علامات ودلائل تدل عليه سبحانه كي نتعرف عليه من خلالها، ونستدل على أسمائه وصفاته وعلى ما وعد به في الآخرة. هذه العلامات والدلائل التي تدل على الله تُسمى "آيات الله" وهي تملأ الكون كله، فالسما والأرض وما فيهن، وتعاقب الليل والنهار ، وأحداث الحياة كلها تدل على الله عز وجل، وهو سبحانه يريد منا : حُسن التعامل مع آياته، والتفكر فيها ، والاعتبار من وجودها. إذن آيات الله لها وظيفة مهمة وخطيرة في إنشاء وبناء الإيمان بالله عز وجل، ولقد ذم سبحانه من أعرض عن آياته ، وظلم بها، بأن يضعها في غير موضعها ، سواء كان هذا الإعراض منشؤه التكذيب أو الغفلة أو الكبر ..

والنتيجة المترتبة عليهم واحدة، وهي عدم الانتفاع بالآيات ، يقول تعالى متوعداً بعقوبة من

يعرض عن آياته :

- ﴿ فَانتقمنا منهم فَأَعْرِضْنَاهُمْ فِي السِّمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٠٨١/٢ .

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٠] .
- ولا يوجد ظلم يضاهي التكذيب بآيات الله والإعراض عنها .. تأمل معي هذا التهديد الرهيب: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] .
- والأمر جد خطير فالموقف يوم القيامة يتفاوت على قدر تعامل العبد مع آيات الله في الدنيا ، قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] .
- وقال تعالى ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَهَا بِمَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٩] .
- فإن كان الأمر كذلك فلا ينبغي علينا أن نستغرب أي عقوبة تقع على من يكذب بآيات الله وذلك حين لا يتم الانتفاع بها على الوجه الذي أراده الله لها .
- إذن عدم الانتفاع الصحيح بآيات الله ، والإعراض عن مراد الله لها سببه:
 - ← إما الغفلة عن آيات الله .
 - ← وإما التكذيب بها .
 - ← وإما الاستكبار عنها .
- والغفلة عن آيات الله تكون بهجرها تكاسلاً أو إهمالاً ، فينشغل العبد حينها عن تأملها والنظر فيها.. وهذا حال كثير من عوام الناس.
- بينما التكذيب بآيات الله ليس مجرد عدم تصديق ما تدل عليه هذه الآيات أو أنها من عند الله ، فمفهوم التكذيب بآيات الله أوسع من هذا بكثير، إن التكذيب بآيات الله

يشمل كل من لا يعمل بآيات الله، ولا يتبع ما جاءت به إعراضاً منه، فإذا كان يؤمن بصدق ما أخبرت به آيات الله، فلماذا يُعرض عن الانقياد لما جاءت به هذه الآيات والعمل بمقتضاها؟

• يقول الشيخ الشعراوي في تفسير قوله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴾ [الماعون : ١]: " ربما نفهم أن الذي يُكذِّب بالدين هو الذي لا يؤمن بداية بما جاء به رسول الله. لكن الحق سبحانه يريد أن يخبرنا بأمر قد يغيب عن البال، هو أن التكذيب بالدين ليس بالضرورة التكذيب بأصل الدعوى وعدم الإيمان بها، إنما قد يكون المكذِّب مؤمناً بأصل الدعوى، لكنه لا يسير على منهجها، ومقتضياتها من الأمر والنهي .

كأن يصدق بلسانه دون قلبه، أو صدق بقلبه دون جوارحه فلم يطبق، لأن العمل والتطبيق هو المحك، لأنه من السهل أن اعتقد، لكن المهم أن أعمل وأطبق وأحمل نفسي على المنهج الذي اعتقده ..

إذن الذي يكذب بالدين هنا هو مؤمن مصدق بأصل الدين، لكن حينما يأتي إلى التطبيق العملي يتملص منه، ومن مظاهر ذلك أنه: ﴿ يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ [الماعون : ٢-٣] ^(١).

إذن التكذيب بآيات الله يشمل كل من : لا يعمل بآيات الله ولا يتبع ما جاءت به إعراضاً منه، والدليل من القرآن:

(١) قوله تعالى في حق بني إسرائيل ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : ٥] وبنو إسرائيل حُمِّلُوا كتاب الله وآمنوا أنه منزل من عند الله، ولكنهم لم يعملوا به ولم يتبعوا ما جاء فيه، فشبههم الله عز وجل بالحمار الذي يحمل كتاباً تحتوى علوماً هامة ثم لا ينتفع بها لأنه لا يدرك قيمة ما يحمله .. ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ بئسَ مَثَلُ

(١) تفسير القرآن الكريم . مجد متولي الشعراوي . المجلد السابع والعشرين، ص (١٧٢٧٦) .

الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ [الجمعة : ٥] .. فهذا مثل

لكل من لم يعملوا بحق آيات الله وينتفع بها ، وهو بذلك يعتبر ممن كذبوا بآيات الله .

(٢) قوله تعالى في حق بلعام بن باعوراء ﴿ وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ

الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، وبلعام بن

باعوراء آتاه الله عز وجل آياته وعرفه باسمه الأعظم ، فلم ينتفع به ، بل دعا به على بنى

إسرائيل ، فشبّهه الله عز وجل في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه عليها ، كالكلب الذي

لا يزال يلهث على كل حال .

ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .. فهذا مثل لكل من لم يعمل بحق آيات الله وينتفع بها ، وهو

بذلك يعتبر ممن كذبوا بآيات الله .

أما السبب الثالث لعدم الانتفاع الصحيح بآيات الله فهو : الاستكبار عنها ، مع وضوحها

وشدة بياها للحق والرشد ، والعبد يعلم ذلك ويدركه ، ولكنه لا يريد الانقياد للحق الذي جاء

به هذه الآيات كبراً وعناداً ، قال تعالى ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [

الأعراف : ١٤٦] .

وهنا ذكرت الآيات : الكبر والتكذيب والغفلة ، وجمعت بينهم ، لاعتبار أن النتيجة

واحدة لكل منهم وهي : عدم الانتفاع بآيات الله والإعراض عنها" .

والسؤال هنا أليست آيات القرآن هي آيات الله أيضا؟

بالطبع فإن كان التعامل غير الصحيح مع آيات الله له خطورته وعواقبه الوخيمة، فلماذا

نستثنى القرآن من ذلك ؟

أليست آيات القرآن أيضاً هي آيات الله؟ ومن ثم ينطبق عليها ما ينطبق على الآيات الكونية، ويجري على من يُسئ التعامل معها مثل ما يجري على من يفعل الشيء نفسه مع الآيات الكونية؟

لترك القرآن العظيم يجيب عن هذا التساؤل : انظر لهذه الآيات من سورة الجاثية : " قال تعالى ﴿ حم ﴿ ١ ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿ ٢ ﴾ إن في السماوات والأرض لايات للمؤمنين ﴿ ٣ ﴾ وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴿ ٤ ﴾

وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ ٥ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿ ٦ ﴾ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ ٧ ﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿ ٨ ﴾ [الجاثية : ١ - ٨] .

إن آيات القرآن العظيم ليست فقط جزءاً من آيات الله التي أتاحها لعباده كي يعرفوه ، بل هي أعظم آيات الله شأنًا وقدرًا، ويؤكد هذا الأمر قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت : ٥٠ - ٥١] .

وقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْ لَوْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣] .

معنى ذلك أن العقوبات التي توقع على من يظلم آيات الله بصفة عامة ستكون أشد على من يفعل ذلك مع القرآن لعلو شأنه وعظم آياته ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] .

لقد جاءت سورة الأنعام بآيات مبصرة دالة على توحيد الله : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .. وبآيات مبصرة دالة

على صراط الله المستقيم : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

ولكن أين الذين يعقلون هذه الآيات ويفهمونها ؟

← ﴿ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٥] .

← ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٧] .

← ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

← ﴿ وَكَذَلِكَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلُبِّيْنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

[الأنعام : ١٠٥] .

← ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَدَّكُرُونَ ﴾ [الأنعام :

١٢٦] .

← ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥]

- لقد ختمت سورة (المائدة) بطلب الحواريين نزول آية باهرة خارقة ليؤمنوا برهم ويعلموا صدق رسولهم ، طلبوا نزول مائدة من السماء، فجاء بعدها مباشرة في ترتيب المصحف نزول سورة الأنعام من السماء جملة واحدة ، معها سبعون ألف ملك في موكب مهيب ترتج بهم الأرض، فأى الآيتين أعظم ؟ وأي الآيتين أقوى في البرهان على صدق ما أتى به الرسول؟

إن آية نزول سورة(الأنعام) أعظم وأقوى برهاناً من الآية التي طلبها الحواريون بنزول مائدة

من السماء..

إن آيات القرآن الكريم أعظم آيات الله الباهرة والخارقة، والكافية بإذن الله لزلزلة الإنسان

من أعماقه ، وهدم كل تصوراته وقناعاته الزائفة..

فقط يُحسن تلقيها بصدق في طلب الوصول إلى الحق ، وفي معرفة صراط الله المستقيم من خلالها..

حينها ستشرق بشاشة الإيمان في قلبه، وينشرح صدره للهدى بإذن الله..

• قال تعالى ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

• قال تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٤].

• قال تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .. الذين يجربون عن هدايتها صاروا كالأنعام بل هم أضل !..

شروط الانتفاع بهداية القرآن

• قال تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] .

ولكن من الذي أراد الله عز وجل له أن ينتفع بهداية القرآن ؟

إن المتقين الذي يخشون ربهم ويخافون من الوقوف بين يديه، هم المنتفعون . بإذن الله .
بهداية القرآن .

← ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٢]

← ﴿ إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٣]

← ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى : ١٠]

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله : " أنذر بالقرآن هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذي ليس فيه . من دون الله . ولي ولا شفيع ، أحق بالإنذار ، وأسمع له وأكثر انتفاعاً به.. لعلهم أن يتوقوا في حياتهم الدنيا ما يعرضهم لعذاب الله في الآخرة، فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موح .

بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه ، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقي والحذر، فلا يقعون فيما هوا عنه بعد ما تبين لهم " (١) .

ومن هنا نتعرض في الفقرة القادمة لمقصد الإعداد لليوم الآخر . ، بعنوان : " ولو ترى إذ وقفوا على ربهم " ، عسى أن تثمر بعون الله وتوفيقه شيئا من الخشية المرجوة من وقفة الحساب والسؤال بين يدي الله يوم القيامة، والتي نسأل الله عز وجل أن تعيننا على حسن التعامل مع كتاب الله والانتفاع به.

مقصد الإعداد لليوم الآخر: " ولو ترى إذ وقفوا على ربهم "

- قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٢ - ٢٥] .

- هنا نقلنا الآيات إلى مشهد حي من مشاهد يوم القيامة ، تواجه فيه الآيات الذين أشركوا وكذبوا بآيات الله، وأعرضوا عن إتباعها والانتفاع بها، وعطلوا منافذ الهداية

(١) في ظلال القرآن ، ١٠٩٩/٢ .

لديهم عن استقبال الحق الذي جاء به كتاب الله عز وجل ، وتعرض لنا هذه الآيات مصير هؤلاء يوم البعث وهم في رعب وفضع ، وهم موقوفون على ربهم وهم يتذابون من الخجل والندم ، ومن الروع والهول .

• ولكن هؤلاء المشركين ، ليس هم فقط الذين يعبدون الأصنام ويسجدون للأشجار ، فليست هذه الصورة الوحيدة للشرك..

إن الشرك في صميمه هو الاعتراف لغير الله سبحانه بإحدى خصائص الألوهية سواء كانت بالاعتقاد لغير الله في تسيير الأمور ، أو كانت بتوجيه العبادة لغير الله ، أو كانت بتلقي الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة .. فكلها ألوان من الشرك .. وكل هؤلاء مخاطبون بهذه الآيات..

• يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله : " والمشهد شاخص ، والحشر واقع ، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم .. الأليم: " أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ وهنا يفعل الهول فعليه.. هنا تتعري الفطرة من الركام الذي ران عليها في الدنيا .. وهنا يفتنون ، فيذهب خبث شركهم ، وتنعدم من الفطرة ومن الذاكرة كما هو منعدم في الواقع والحقيقة ، وجود الشركاء فيشعرون أنه لم يكن شرك ، ولم يكن شركاء..

" ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين " ..

إن الحقيقة هي تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده، وتعريفهم من الشرك الذي زاولوه في حياتهم الدنيا.. وأنى لهم الإقرار.. وأنى لهم التناوش (الإيمان والتوبة) .. لقد فات الأوان.

لذلك يقرر الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء

الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله في الحقيقة.

" انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " .

ثم تعود الآيات إلى حالهم في الدنيا لتصف كيف تعاملوا مع القرآن الكريم ، لقد استمعوا إلى القرآن ولكنهم استمعوا إليه وهم معطلي الإدراك، مطموسي الفطرة ، معاندين مكابرين ، وهم يجادلون

في آياته البيّنات ، وينأون عنه ويبهون غيرهم عنه أيضاً ، فهم لا يكتفون بإعراضهم بل يدعون غيرهم للإعراض عن القرآن .. هكذا كان حالهم في الدنيا..

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوهَا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٥] ..

• ثم تنقلنا الآيات مرة أخرى للمشهد الحي يوم القيامة ، وهؤلاء المشركين برهم المعاندين للحق، المعرضين عن أن يفقهوا القرآن ويفهموه ، مشهد الوقوف على النار .. مشهد الحسرة والندم والخزي.

" ولو ترى إذ وقفوا على النار" ..

لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي! ولا يملكون الجدل والمغالطة !.

إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا : الخزي في مقابل الإعراض عن القرآن والانتفاع به ، الحسرة في مقابل الجدل بالباطل دفاعاً عن شركهم ، الندم في مقابل نهي غيرهم عن القرآن .. لو ترى لرأيت ما يهول ! ولرأيتهم يقولون :

" يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين "

فهم يعلمون الآن أنها كانت " آيات ربنا " ! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا.. وعندئذ

سيكونون من المؤمنين بهذه الآيات !

ولكنها ليست سوى الأمانى التي لا تكون !

إنهم ما يقولون قولتهم هذه ، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا

من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون ، وأنهم ناجون ، وأنهم مهتدون ويحسنون صنعاً وأنهم مفلحون.

" بل بدا لهم ما كانوا يخفون ما قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون " ..

إن الله يعلم طبيعتهم ، ويعلم إصرارهم على باطلهم ، ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأمانى وهذه الوعود.

ثم تفتح لهم الآيات صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك : أحدهما في الدنيا وهم يجزمون بأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) .. والثانية في الآخرة وهم موقوفون بين يدي الله يسألهم " أليس هذا بالحق؟" السؤال الذي يزلزل ويذيب .

فيجيبون إجابة المهين الذليل : " بلي ! وربنا " ..

هذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين وهم موقوفون في حضرة ربهم الذي كذبوا بقلوبهم ، لا يرحون الموقف ، وكأنما أخذ بأعناقهم حتى وقفوا في هذا المشهد الجليل الرهيب :
وفي اختصار يناسب جلال الموقف، ورهبة المشهد ، وهول المصير ، يجيء الأمر العلوي بالقضاء الأخير :

" قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " ..

ثم تتقرر الحقائق :

" قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا " ! .

فهي الخسارة المحققة المطلقة .. خسارة الدنيا بحياة الشرك والإعراض عن آيات الله .. وخسارة الآخرة بالعذاب المهين .. والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حساباً هي في بغتة الحساب :

" حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا " ! .. ثم مشهدهم كالدواب الموقورة بالأحمال :

" وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم " ..

بل الأنعام أحسن حالاً ، فالأنعام تحمل أوزاراً من الأثقال ، وهم يحملون أوزاراً من الآثام، والأنعام تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح ، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم، مشيعين بالتأثيم " ألا ساء ما يزررون " ! . .

فهم كانوا أضل من الأنعام في الدنيا بتعطيلهم حواسهم عن الاستجابة لهداية آيات الله الناطقة بالتوحيد ، المبصرة بصراط الله المستقيم ، المفصلة للحق المبين..
ثم يختم هذا المشهد الناطق بالخسارة والضياح ، بعد ذلك المشهد الناطق بالهول والرهبة..
بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة في ميزان الله ، وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة في هذا الميزان الصحيح :

" وما الحياة الدنيا إلا لعب وهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا يعقلون ؟ " ..

وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار على هذا الكوكب الصغير، في هذا الكون الفسيح إلا على هذا النحو، حين توازن بذلك الأبد الأبيد في ذلك الملك العريض .
وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه الحياة إلا لعباً وهوأ حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم" (١) ..

• ثم تعرض لنا الآيات مشهد الحبس في النار في موضع آخر ، في قوله تعالى ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَهَوّاً وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَأَيُّوْحَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا هُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، تبسل أي : ترهقن وتؤخذ وتحبس في النار ، فأولئك الذين اتخذوا دينهم لعباً وهواً وغرتهم الحياة الدنيا قد ارتهنوا بما كسبوا وحق عليهم الحبس في النار..

إن الإسلام هو دين البشرية جميعاً سواء من آمن به ومن لم يؤمن ..

اتخذوا دينهم لعباً وهواً .. بعبادتهم الأوثان.

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١٠٧٢/٢ .

اتخذوا دينهم لعباً وهواً .. بالتبرك بالقبور.

اتخذوا دينهم لعباً وهواً .. بالتحليل والتحريم من دون الله.

اتخذوا دينهم لعباً وهواً .. بالتحاكم إلى غير ما أنزل الله.

فهؤلاء جميعاً أخذوا بما فعلوا ، وهذا جزاؤهم : حميم .. شراب ساخن يشوى الحلق والبطن ويذيب الأمعاء .. حبس في النار.. ولا يستطيعون أن يفتدوا أنفسهم، ولا يقبل منهم ملء الأرض ذهباً ، عن أنس رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك فيقول : أي رب أشراً منزل ، فيقول له : أتفتدي منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول أي رب ! نعم ، فيقول : كذبت !! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل ، فيردُّ إلى النار " (١) .

وعقوبة الحبس في النار يصفها قوله تعالى ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ ﴾ [

الهمزة : ٨-٩].

أي : إنها مطبقة أطبقها الله عليهم، فلا ضوء فيها ، ولا فرج ، ولا خروج منها إلى الأبد، قال الضحاك : (مؤصدة) : " حيط لا باب له " (٢) .

ومعنى إصداها عليهم : ملازمة العذاب واستحالة الهرب واليأس من الإفلات كحال المساجين الذين أُغلق عليهم باب السجن ، لمضاعفة العذاب النفسي عليهم، فتؤصد عليهم الأبواب وتمدّد العمد على الأبواب، استيثاقاً في استيثاق وعذاباً من فوقه عذاب .. يا رب سلم يا رب سلم.

• ونختتم موجات الحور الثاني في سورة الأنعام محور: " العمى عن دلائل التوحيد الساطعة والتكذيب بآياته البينة " بهذه الموجة الداعية إلى التمسك بالهداية التي جاء بها القرآن الكريم:

(١) صحيح : رواه أحمد ومسلم والنسائي كما في صحيح الجامع رقم (٧٩٩٦).

(٢) ابن كثير (٤/٦٦٢٠).

قال تعالى ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٥٤] وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿ [الأنعام : ١٥٤ - ١٥٧] .

• تذكر الآيات لغرض الذي من أجله أنزل الله عز وجل كتابه التوراة على موسى عليه السلام ، حيث فصل الله فيه كل شيء كما قال قتادة فيه حاله وحرامه، وهدى ورحمة لعل قومه يهتدون ويؤمنون بلقاء ربهم فيرحمهم من عذابه، ثم يلتحم ذكر الكتاب الجديد المبارك القرآن الناسخ لكل الكتب السابقة، والمتضمن للعقيدة والشريعة المطلوب إتباعها.

• لقد انقطعت الحجة بنزول هذا الكتاب، ورفع الجهل، وبطلت الحجج ، وسقطت المعذرة بنزول هذا الكتاب المبارك تفصيلاً لكل شيء ، فلا يبقى جانب من جوانب الحياة لم يتناولها فتحتاجون أن تشرعوا له من عند أنفسكم .. ذكر ابن كثير في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ يعني " : لينقطع عذرکم ، وقوله (على طائفتين من قبلنا) قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى، وقوله (وإن كنا عن دراستهم لغافلين) أي : وما كنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن في شغل وغفلة مع ذلك عما هم فيه ، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ : فقد جاءكم من الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم النبي العربي قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام ، وهدى لما في القلوب ، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه ، وقوله ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي : لم ينتفع بما جاء به الرسول

﴿ولا ترك غيره ينتفع ، ولم يتبع القرآن ولا ترك غيره يتبع ، بل صدف عن اتباع آيات الله ، أي : صرف الناس وصددهم عن ذلك ﴾ (١) .

ثم تتوعد الآية توعداً شديداً لمن كذب بآيات الله وأعرض عنها، وصرف الناس عنها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ إنه التهديد الواضح الحاسم.

• وبهذه الموجة الخاتمة في محور العمى عن دلائل التوحيد الساطعة والتكذيب بآياته البينة نقول بعون الله : لا عذر لمن حجب نفسه عن هداية القرآن ، وأعرض عن فهمه ، ومن ثم انحرف عن صراط الله المستقيم ووقع في الشرك ، لا عذر له بجهالة وأمامه الآيات البينة، والبصائر النيرة ، لا عذر له لأنه هو من أغلق نوافذ استقبال الهداية وصدف عنها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف : ٦٤] أي : عمى القلوب عن الحق .

المحور الثالث : بيان حقيقة " لا إله إلا الله " ومدلولها ومقتضاها

- ولأهمية هذا المحور، نفصل عرضه في هذه العناصر التالية بإذن الله :

← أولاً: معنى " لا إله إلا الله " .

← ثانياً: فضل " لا إله إلا الله " وشرطها.

← ثالثاً: مدلول ومقتضى " لا إله إلا الله "

← رابعاً: أركان " لا إله إلا الله "

← خامساً: معركة الجاهلية مع " لا إله إلا الله "

← سادساً: أسباب انحسار مدلول " لا إله إلا الله "

فإلى التفصيل بعون الله وتوفيقه..

أولاً : معنى " لا إله إلا الله "

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٧٤٠ .

- قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الأنعام : ١٩] .
 - قال تعالى ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .
 - قال تعالى ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .
- قال أبو جعفر بن جرير : الله . أصله الإله، أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم، فالتفت اللام التي عين الاسم، واللام الزائدة وهي ساكنة فأدغمت في الأخرى، فصارتا في اللفظ لآماً واحدة مشددة .
- قال الكسائي والقراء وابن القيم أن (الله) مشتق وأن أصله (الإله) كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ^(١) .
- قال شيخ الاسلام رحمه الله : الإله هو " المعبود المطاع "، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع^(٢) .
- وقال ابن القيم رحمه الله: الإله هو " الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً، وإنابة وإكراماً، وتعظيماً وذلاً، وخضوعاً وخوفاً، ورجاءً وتوكلاً .
- وقد ذكر ابن القيم من خصائص هذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية، ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فلا نستطيع أن نحصيها، فقد قال أعلم الخلق به ﷺ " لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك "^(٣)، وكيف نُحصى خصائص اسم !؟ لمسماه كلُّ كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل إجلال وكل كمال، وكل عزٍّ وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود وفضل وبرٍّ فله ومنه، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند همٍّ إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسَّعه، ولا تعلق به ضعيفٌ

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٢١ .

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ص ٤٨ .

(٣) صحيح : رواه مسلم (٤٨٦) .

إلا أنا له العز، ولا فقير إلا أصاره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه.

فهو الاسم الذي تُكشف به الكربات، وتُستنزَل به البركات، وتُجاب به الدعوات، وتُقَال به العثرات، وتُستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات.

وهو الاسم الذي قامت به السموات والأرض، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شُرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حقت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وُضعت الموازين القسط ونُصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عُبد رب العالمين وحمد، وبحقّه بُعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاتة والمعادة، وبه سعد من عرفه وقام بحقه، وبه شقى من جهله وترك حقه. فهو سر الخلق والأمر، وبه قاما وثبتنا، وإليه انتهيا.

فالخلق به وإليه ولأجله، فما وجد خلق ولا أمر، ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدياً منه منتهياً إليه^(١).

- وعن عبد الله بن عباس: الله هو الذي يأله كل شيء، ويعبده كل خلق، فهو ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

- قال الشارح: إجماع من العلماء أنه الإله هو المعبود المطاع، خلافاً لما يعتقدُه عبَاد القبور وجهلة المتكلمين، فمعنى (إله) عندهم أي: آله، والآله: هو القادر على الاختراع، فيكون معنى "لا إله إلا الله" عند المتكلمين: لا قادر على الاختراع إلا الله، ويقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له^(٢).

ولو كان هذا معنى "لا إله إلا الله" لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولآمنت به وصدقت، لأن قريش ومشركي العرب يقولون أنه: لا خالق إلا الله، قال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

أما (لا إله إلا الله) فمعناها : لا معبود بحق إلا الله، وفيها نفى الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص.

يقول ابن القيم : (لا إله إلا الله) أعظم كلمة تضمنت نفى الإلهية عما سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص، فدلائلها على إثبات إلهيته، أعظم من دلالة قولنا : الله إله، ولا يستريب أحد في هذا البتة ^(١).

ثانياً : فضل " لا إله إلا الله " وشرطها

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " ^(٢).

- في حديث عتبان بن مالك الأنصاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : " فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله " ^(٣).

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال " قال موسى عليه السلام : يارب ! علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به قال : قل يا موسى : " لا إله إلا الله " . قال : يارب ! كل عبادك يقولون هذا؟ قال : يا موسى ! لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة و(لا إله إلا الله) في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله " ^(٤).

• أما عن شرط نيل هذا الفضل العظيم لشهادة " لا إله إلا الله "، يقول الشيخ محمد حامد الفقي : " من شهد أن لا إله إلا الله أي : من تكلم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، كما قال تعالى ﴿ فَاعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩]، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] .

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، ص ٤٨

(٢) صحيح : البخاري كتاب الأنبياء [٣٤٣٥] ، مسلم كتاب الايمان [٢٨] .

(٣) صحيح : البخاري كتاب الصلاة (٤٢٥) ، مسلم كتاب المساجد (٣٣) .

(٤) رواه ابن حبان والحاكم وصححه (٧١٠/١) .

أما النطق بما من غير معرفة بمعناها، ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح - فغير نافع بالإجماع^(١).
 فلا إله إلا الله : لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك، وقبله وعمل به،
 وأما من قالها عن غير علم واعتقاد وعمل، فهذا جهل صرف وهو حجة عليه، بلا ريب .
 لذلك نتعرف على أركان " لا إله إلا الله " .

ثالثاً : أركان " لا إله إلا الله "

- لا تتم شهادة " لا إله إلا الله " إلا بركنين هما :

١- النفي ٢- الإثبات .

إذ النفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة مثال ذلك : زيد قائم ،
 يدل على ثبوت القيام لزيد، لكن لا يدل على انفراده به.
 وقوله : لم يقم أحد : هذا نفي محض .

أما قوله : لم يقم إلا زيد، هذا توحيد له بالقيام، لأنه اشتمل على إثبات ونفي .

- والآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] .
 قال ابن عثيمين : " ولا تشركوا " في مقابل " لا إله " لأنها نفي، وقوله " واعبدوا " في مقابل " إلا
 الله " : لأنها إثبات، وقوله " شيئاً " نكرة في سياق النهي، فتعم كل شيء لا نبياً ولا ملكاً ولا
 ولياً، بل ولا أمراً من أمور الدنيا، فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، قال ﷺ : " تعس عبد
 الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الحميلة، تعس عبد الحميصه .. فالإنسان إذا كان همه
 الدنيا صاراً عابداً لها .

- وقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الاسراء : ٢٣] .، وقوله تعالى ﴿ أَمَرَ أَلَّا
 تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] . جمعت الآيتين بين النفي والإثبات، نفي العبادة لأحد سوى
 الله، وإثباتها لله وحده .

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ص ٤٦ .

- وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] .. جمع بين النفي والإثبات فالنفي : ﴿ بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾، والإثبات : ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فدل على أن " لا إله إلا الله " لا تتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده، قال تعالى ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .
- وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].
- إذن التوحيد ركنيه : إثبات العبادة لله، واجتناب الطاغوت والكفر به، والطاغوت كما ذكر ابن القيم رحمه الله: " كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع"، فالمتبوع مثل: الكهان والسحرة وعلماء السوء، والمعبود مثل: الأصنام، والمطاع مثل : المتشرعون الذين يتخذهم الانسان أرباباً يُحَلون له ما حرم الله، ويحرمون له ما أحل الله فيطيعهم في ذلك، فهؤلاء طواغيت تستلزم شهادة " لا إله إلا الله" الكفر بهم جميعاً وعدم طاعتهم أو اتباعهم.
- وقوله تعالى في وصف نبي الله إبراهيم عليه لسلام ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠]. حنيفاً أي : مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق.
- وأما الأحاديث الدالة أن ركني " لا إله إلا الله " هما النفي والإثبات، ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : " من قال " لا إله إلا الله " وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل " (١).
- يقول ابن عثيمين في شرح هذا الحديث : " هذا الحديث دليل على أنه لا يكفي مجرد التلفظ بلا إله إلا الله، بل لابد أن تكفر بعبادة من يعبد من دون الله، بل وتكفر أيضاً بكل كفر، فمن يقول لا إله إلا الله، ويرى أن النصارى واليهود اليوم على دين صحيح، فليس بمسلم" (٢).

(١) صحيح : مسلم كتاب الإيمان (٢٣).

(٢) القول المفيد في شرح كتاب التوحيد، ابن عثيمين، ص ٨٩.

- ومن هنا فإثبات الألوهية لله وحده بجميع خصائصها، لا يكفي لتحقيق معنى شهادة " لا إله إلا الله"، فلا بد مع ذلك نفي الألوهية عن غير الله بجميع خصائصها حتى يكتمل ركني التوحيد كما جاء في صريح الكتاب و صحيح السنة.

- وأخص خصائص الألوهية هي : العبودية والحاكمية، وقال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .. وتذكر الآية الكريمة أن الكلمة السواء التي لا تختلف فيها الشرائع هي كلمة التوحيد وتشمل:

← ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا.

← ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

الخاصية الأولى لكلمة التوحيد هي :إفراد الله عز وجل بالعبودية، والخاصية الثانية لها هي : عدم التحاكم إلى أي مخلوق يجعل نفسه مقام الرب من دون الله بتحليله الحرام وتحريمه الحلال.

وقوله تعالى ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠].

وقد شملت الآية على خصائص الألوهية وهي في قوله تعالى :

← "إن الحكم إلا لله "

← " أمر ألا تعبدوا إلا إياه" .

- والآن نتعرف على مدلول ومقتضى " لا إله إلا الله " ..

رابعاً : مدلول ومقتضى " لا إله إلا الله "

- قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٦٢﴾ لا شريك له وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣] .

• هذه الآيات المحورية في سورة الأنعام تتحدث عن المفهوم الحقيقي لـ " لا إله إلا الله"، وتبين لنا مدلول ومقتضيات " لا إله إلا الله" .. هذه الكلمة العظيمة التي قامت بها السموات والأرض، والتي أرسلت لها الرسل، والتي نزلت بها الكتب، فهي قضية القضايا في حياة الانسان.. وهي المحور الذي تركز اليه حياته كلها، وتقوم عليه .. ولا يتم هذا كله بكلمة تنطق باللسان، إنما يتم بحقيقة حية تملأ الكيان البشري كله وتسرى في أعماقه، وتنبض نبضاً حياً يحرك كل ذرة فيه، فالله عز وجل لم ينزل " لا إله إلا الله" لتكون مجرد كلمة تنطق باللسان، إنما أنزلها لتشكل واقع حياة البشر، فترفعهم إلى المكان اللائق الذي أراده الله عز وجل لهم، وفضلهم على كثير ممن خلق ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] ..

والآية الكريمة التي وردت في سورة الأنعام وحدها تكفي للدلالة على المفهوم الحقيقي لـ " لا إله إلا الله" وبيان مقتضياتها الشاملة.. ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢].

ولنبداً بتفسير هذه الآية الكريمة:

يقول ابن كثير في تفسيرها: "يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] أي : أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى " (١).

يقول ابن عثيمين في شرح الآية : " (قل) الخطاب للنبي ﷺ، اي : قل لهؤلاء المشركين معلناً لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية، وقوله (إن صلاتي) : الصلاة في اللغة : الدعاء، وفي الشرع : عبادة الله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتوحة بالتكبير، مختمة بالتسليم.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ١/٧٤٥.

وقوله (نُسكي) : النسك لغة : العبادة، وفي الشرع : الذبح، وتشمل ذبح القربان وذبح الهدى في الحج والعمرة، قال تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَيْمَاتِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْإِلَهَ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي أو على المعنى الشرعي؟

ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، وما جاء في لسان العرب يحمل على الحقيقة اللغوية.

وحملها على المعنى الشرعي، جمعت بين عبادتين وهما : الصلاة والنسك والصلاة هي أجل العبادات البدنية، والنسك : الذبيحة هي أجل العبادات المالية لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلا قرية، هكذا قرر شيخ الاسلام ابن تيمية في هذه المسألة " (١) .

ومعنى الآية أن الله عز وجل تعبّد عباده بأن يتقربوا إليه بذبح النسك، كما تعبدهم بأن يتقربوا إليه بالصلاة، فاشتملت الآية بذلك جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه، وأن العبادة لا تقتصر على الفرائض والشعائر التعبدية التي تعبر عنها الصلاة، بل تشمل كل أفعال العبد والتي وجب أن يتوجه بها إلى الله عز وجل وحده تعظيماً له .. والمعنى أي : اجعل نحرک لله كما أن صلاتك له، فإذا تقرب إلى غير الله بالذبح، أو غيره من أفعاله الحياتية فقد جعل لله شريكاً في عبادته .. وهو ظاهر في قوله : (لا شريك له) أي نفى أن يكون لله تعالى شريك في عبادته .

- ثم ذكرت الآية قوله تعالى (ومحياي ومماتي) أي : حياتي وموتي، أي : التصرف في توفى تدبير أمري حياً وميتاً كله لله وحده، فاتسعت الآية مفهوم العبادة بعد شمولها الفرائض والشعائر التعبدية وكل قربات العبد وأفعاله، لتشمل كل أمور حياته حتى موته خالصاً لوجه الله لا شريك له.

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد ، ابن عثيمين ، ص ١٢٣ .

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله عن تفسير هذه الآية: " إنه التجرد الكامل لله، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة. بالصلاة والاعتكاف وبالخيا والممات . وبالشعائر التعبديّة، وبالحيّة الواقعيّة، وبالمامات وما وراءه..

إنّها تسيّحة " التوحيد " المطلق، والعبوديّة الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والخيا والممات، وتخلصها لله وحده . لله " رب العالمين " .. القوام المهيمن المتصرف المري الموجه الحاكم للعالمين .. في " إسلام " كامل لا يستبقى في النفس ولا في الحياة بقية لا يُعبّدها لله، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع.. " وبذلك أمرت " .. فسمعت وأطعت: " وأنا أول المسلمين" (١).

• هذا التعقيب جاء موضعه في ختام سورة الأنعام بعد الحديث عن قضية الذبائح والثمار والأنعام، وما تزعمه الجاهليّة بشأنها من شرائع، تزعم أنّها من شرع الله افتراءً على الله .. فأية دلالة يعطيها هذا التعقيب؟

هذا هو مفهوم " لا إله إلا الله " الحقيقي، ومدلولها الشامل، عقيدة .. وعبادة .. وشريعة .. ومنهاج حياة...

وهو كلّ لا يتجزأ .. والاستسلام لها جميعاً هو دين الله .. والتلقي من هذا الدين دون سواه، هو صراط الله المستقيم، قال تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

يقول الاستاذ محمد قطب عن مقتضيات " لا إله إلا الله " : " تعددت مقتضيات " لا إله إلا الله " مع نمو البشرية، حتى جاءت الرسالة الخاتمة فبلغت هذه المقتضيات نموها الأخير ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] حتى شملت مقتضيات " لا إله إلا الله " جوانب الحياة كلها، فأصبحت هي منهاج الحياة الذي يريد الله للبشرية أن تسير عليه، لتنعّم به في الدنيا، وتنال رضوان الله في الآخرة، ولأن " لا إله إلا الله " في الرسالة

(١) في ظلال القرآن ، ١٢٤١/٢ .

الأخيرة قد حملت من المقتضيات (التكاليف) ما لم تحمله في أية رسالة سابقة، فقد لزم في علم الله أن تكون وثيقة جداً وعميقة جداً في حس الأمة التي تحملها، حتى تكون كفاءً للمهمة الضخمة المنوط بها، لا في حياة الأمة المسلمة ذاتها فحسب.. بل في حياة كل البشرية..

من أجل هذا وثق القرآن كله.. وبالأخص سورة الأنعام.. " لا إله إلا الله " في قلب هذه الأمة المسلمة، وعمق غرسها بكل الوسائل والأدوات، ومنها: (١) بعرض آيات الله في الكون الدالة على عظمته وقدرته وعظيم سلطانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَاتَى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

- ومرة بتذكير الإنسان بنعم الله التي أفاضها عليه.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

- ومرة بعرض مشاهد القيامة من بعث وحشر وحساب وميزان

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٣٠]

- وتارة من خلال الجدل الذي يجرى بين الرسل وأقوامهم المعاندين

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

- وتارة من خلال علم الله المحيط بالغيب ورقابته على أعمال البشر ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا

يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وخلال ثلاثة عشر عاماً في مكة وعشر سنوات في المدينة كان رسول الله ﷺ يوثق في قلوب

أتباعه " لا إله إلا الله " .. كان عليه الصلاة والسلام يعيش مقتضيات " لا إله إلا الله " .. كان ﷺ

يعيش مقتضيات " لا إله إلا الله " أمام أتباعه، ويوجههم إليها، ويعلمهم كيف يعيشونها في كل لحظة

من حياتهم..

كان عليه ﷺ يعلمهم - بالقدوة في شخصه الكريم - كيف يحيا الإنسان في معية الله، وكيف يكون في كل لحظة ذاكراً لله .. صابراً إن أصابه ضرر، شاكراً إن أصابه خير، متطلعاً دائماً إلى عون الله، لاجئاً إليه، مستعيناً به، مستغفراً إياه، مسلماً بقضائه وقدره، خائفاً من غضبه، راجياً رضاه.. فلما تجردوا لله، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم، وكان هذا في فترة التربية المكثفة خاصة يمثل مدلول " لا إله إلا الله" في نفوسهم، كما تعلموها من رسول الله ﷺ، وكما أنزلت في كتاب الله..

فقامت هذه الفئة المؤمنة التي قامت في قلوبهم القاعدة والأساس المتين الذي يحمل البناء .. لتحمل التكاليف وتتحرك للوفاء بعهدتها مع ربها وبإقرار " لا إله إلا الله" في حياة الناس" (١).
والآن نتعرض بإيجاز لمقتضيات " لا إله إلا الله" من خلال سورة الأنعام .

أولا المقتضى الايماني

يشتمل المقتضى الإيماني لشهادة التوحيد " لا إله إلا الله " على : الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتي يبينها لنا رسول الله ﷺ في حديثه: " هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، قال : وما الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره " (٢). كما يشتمل المقتضى الايماني على : توحيد الله عز وجل بكافة أقسامه (توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات) .. وهذه حقيقة " لا إله إلا الله " كعقيدة أن الله عز وجل هو الإله الذي لا إله غيره.

وقد تعرضنا بالتفصيل في الخور الأول من سورة الأنعام حول : معرفة الله عز وجل، ودلائل التوحيد الساطعة، وعلى آيات الله الكونية الداعية إلى الإيمان بالله وحده، وتعرضنا لأقسام التوحيد الثلاثة السابقة بفضل الله وتوفيقه.

ثانياً : المقتضى التعبدى

(١) " لا إله إلا الله " عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، محمد قطب ، ص ٢٩ : ٤٢ .

(٢) أخرجه مسلم .

ويقتضى إفراد الله بالألوهية والربوبية توجيه كل ألوان العبادة لله وحده بلا شريك.

ويقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: محور القضية أنه إذا كان الله هو الإله الذي لا إله غيره، فتوجيه كل ألوان العبادة إليه وحده هو الأمر الطبيعي والمنطقي، كما أن التلقي من عند الله وحده في أمر العبادة هو الأمر الطبيعي والمنطقي كذلك، وهذه القضية تتصل اتصالاً مباشراً بقضية العقيدة، فليست العقيدة في هذا الدين أمراً مستتراً في داخل الضمير، إنما في أعماق القلب، نعم، ومتصلة بالجانب الروحي، نعم، ولكنها لا تكون في صورتها الحقيقية حتى تطلق نوراً يضبط مسار كل شيء، ويحدد له وضعه الصحيح .

العبادة المفروضة : فالصلاة والنسك تمثل الشعائر.. ولكن المطلوب أكبر من هذا ..
المطلوب أن تكون الحياة كلها حتى الموت، بل الموت ذاته، عبادة موجهة إلى الله الذي لا شريك له.
أي أن يشمل المنهج التعبدية كل لحظة وكل عمل وكل فكر وكل شعور ..

قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ..

فإذا كان هدف خلق الجن والإنس محصوراً - بالنفي والاستثناء - في عبادة الله، فهل

تكفي الشعائر المفروضة أن تملأ مساحة الحياة كلها حتى الموت؟! .

إنما يتحقق ذلك حين تكون العبادة شيئاً شاملاً لكل جوانب الحياة ..

وهي كذلك بالفعل في الإسلام ..

الشعائر تستغرق وقتها المكتوب لها، إن كانت صلاة أو زكاة أو صياماً أو حجاً، وقد يزيد

الإنسان مساحتها بالنوافل، ولكنها لا تبلغ أن تملأ مساحة الحياة كلها، ولا يستطيع الإنسان كذلك

أن يملأ بها مساحة الحياة .. فلا يطيق أن يسبح الليل والنهار دون فتور، وإنما ذلك شأن الملائكة .

ومع ذلك كلف الله الإنسان أن تكون حياته كلها عبادة له، وقال سبحانه إنه لم يخلقه إلا للعبادة

فحسب .. فهل يتحقق ذلك إذا كانت العبادة المطلوبة هي الشعائر التعبدية فحسب؟

كلا ! إنما يتحقق حين يتسع معنى العبادة فيدخل فيه كل نشاط الإنسان في الأرض .. وذلك حين يرتبط العمل كله بلا إله إلا الله، وتصبح لا إله إلا الله بكل مقتضياتها هي منهاج الحياة" (١).

- ولقد رسخت سورة الأنعام معنى العبادة، بمفهومها الشامل لكل مناحي الحياة والتوجه بها خالصة لله عز وجل، ولخصت هذا المفهوم الصحيح في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١٦٢] لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿ [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣] .

- لذلك فالسياسة عبادة .. حين تكون تطبيقاً لشريعة الله، وتعبيداً للناس لربهم وحده، وتخويراً لهم من الطواغيت، وإقراراً لحاكميته سبحانه، وتكون كذلك عبادة حين لا يتم التنازل فيها عن ثوابت العقيدة .

- ويكون النشاط الاقتصادي عبادة .. حين يكون جمعاً للمال من الكسب الحلال، وإنفاقاً في الطيب من الأمور .. سواء كان نشاطاً فردياً أو جماعياً .

- ويكون العمل عبادة .. حين لا يدخله الغش، ولا الخيانة، ولا الكذب، ولا الخديعة، ولا ارتكاب المحرمات من أجل الكسب أو التسلط أو المتاع أو الافتتات على حقوق الناس بالجور والظلم.

- ويكون الترويح عبادة .. فلا يمكن أن يسفل، وأن يسفّ، ولا أن يهبط بإنسانية الإنسان كما فعلت الجاهلية الحديثة في ألوان اللهو المبذول في كل مكان والذي يزين كل فاحشة للناس.

- بل حتى اللقمة يضع الزوج في فم زوجته تكون عبادة كما علمنا رسول الله ﷺ في الحديث (٢)، ليعلم الناس أن العبادة تشمل كل كبيرة وصغيرة في حياة الإنسان .

- يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه " مفاهيم يجب أن تصحح " : " وحين ضاق مفهوم العبادة في الأجيال المتأخرة فانحصر في الشعائر، وخرج من دائرة النشاط اليومي العملي .. وخرجت منها

(١) " لا إله إلا الله " عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، محمد قطب ص ٥٣ : ٦١ .

(٢) أخرجه البخاري وأحمد .

أخلاقيات لا إله إلا الله كذلك، كثرت المعاصي وكثر العصاة، واضطرب سير المجتمع، وكثرت فيه الانحرافات والمظالم، ومع ذلك لم يكن هذا القدر هو كل السوء الذي حل بمفهوم العبادة .. إنما كان مرحلة في طريق الهبوط ! حتى انحسر مفهوم العبادة وانحصر في الشعائر التعبدية وحدها عند عامة الأمة، حتى انحسار الشعائر الي أعمال مقصودة لذاتها بغير مقتضيات لها ! بحيث يصبح أداؤها في ذاتها هو كل " العبادة " المطلوبة من الإنسان !^(١).

ثالثاً : المقتضى التشريعي

- لم تكن " لا إله إلا الله " قط عقيدة فحسب، بتوحيد الله في القلوب والضمائر فقط .. أو بالإيمان بأن الله عز وجل هو الإله الواحد الذي لا إله غيره .. ولم تكن " لا إله إلا الله " قط عبادة بمفهومها الشامل لكل مناحي الحياة بتوجيه كل نشاط الإنسان لله .. بل جاءت " لا إله إلا الله " لتنظيم حياة الناس في الأرض، وذلك في جميع الرسالات السابقة، مروراً بالرسالة التي أنزلت على موسى عليه السلام، فصارت " لا إله إلا الله " دستوراً في حالي اليهود والنصارى، حتى جاءت الرسالة الأخيرة، المقدره في علم الله لتكون هي الرسالة الخاتمة، الموجهة إلى البشرية كافة، والتي اكتمل فيها التشريع، ليبقى وافياً بحاجات البشرية إلى يوم القيامة، فصارت " لا إله إلا الله " الدستور الخالد للبشرية جمعاء .

- فكان من أهم مقتضيات " لا إله إلا الله " التحاكم إلى شريعة الله، وبذلك صارت الجذور الثلاثة للإيمان هي :

← الإيمان الجازم بوحدانية الله سبحانه وتعالى.

← وتوجيه العبادة كلها لله وحده لا شريك له.

← والتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون كل الشرائع.

(١) مفاهيم يجب أن تصحيح ، مُجد قطب ، ص ٨٧.

وتلك هي المقتضيات الرئيسية لـ " لا إله إلا الله"، التي يعتبر نقضها أو نقض أي واحد منها نقضاً لـ لا إله إلا الله . .

- إن قضية التشريع قضية ذات صلة مباشرة بقضية الألوهية، وهي ليست مرتبطة بها برباط واحد، وإنما برباطين اثنين في آن واحد . .

فأما الرباط الأول فهو أن التشريع حق خالص للخالق سبحانه وتعالى بمقتضى أنه هو الخالق ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٥٤] .. فهو صاحب الأمر الذي يقرر هذا حلال وهذا حرام.. هذا حسن وهذا قبيح.. كل ذلك لأنه هو الخالق، الذي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان، ووهب له العقل والحواس وهذا الإنسان الذي ينازع الله حقاً من حقوقه الخالصة لم يخلق نفسه ولا غيره، ولم يرزق نفسه ولا غيره، إنما هو عالة . طفيلي . لا يملك حتى شربة الماء التي يشربها، ونفس الهواء الذي يتنفسه.

لذلك من ادعى حق التشريع من دون الله، فقد جعل من نفسه نداً لله، وإذا أطاعه الناس فقد اتخذوه رباً من دون الله، فيقول هذا حلال .. وهذا حرام.

- ولقد عرضنا في سورة الأنعام، كيف شرعت الجاهلية في مسألة الأنعام والحرب، تشريعها للناس من دون الله، يرمون ما أحله الله عز وجل، قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام : ١٣٦]، وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١٣٨]، وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجَنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩] .

- ذلك هو الرباط الأول الذي يربط قضية التشريع ربطاً مباشراً بقضية الألوهية : أن حق التشريع هو حق لمن يخلق ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] ، وليس للذي لا قدرة له على الخلق، صنماً كان أو بشراً، حاكماً كان أو محكوماً .
- أما الرباط الآخر فمتعلق بصفات الله الأخرى إلى جانب أنه " الخالق" ، وهي أنه " الحكيم العليم" و" اللطيف الخبير" ..

يقول الأستاذ محمد قطب : " إن الذي يشرع ينبغي له أن يكون " حكيماً لتكون تشريعاته صالحة، ويكون " عليماً " بأحوال البشر الذي يشرع لهم، لكي تكون تشريعاته مناسبة لكيانهم وأحوالهم، ويكون " لطيفاً " ليعلم ما خفى من الأمور، ويكون " خبيراً" بما تحدثه تشريعاته من آثار، لكي لا يضع تشريعات ينجم عنها الضرر في الحاضر أو المستقبل.

فمن ذا الذي يزعم . من البشر جميعاً . أنه متصف بهذه الصفات، أو أنه متصف بها أكثر من الله ؟ ! ﴿ قُلْ أَلَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

- ولقد جاءت سورة الأنعام بتقرير تفرد الله عز وجل الحكيم العليم بالتشريع لعباده، كما جاء في التعقيب على تشريعات الجاهلية الوضعية، قال تعالى ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٣٩] .

• كما بينت لنا سورة الأنعام العلاقة الوثيقة بين قضية التشريع وقضية الألوهية، وأن حاكمية الله في الشريعة إن هي إلا جزء من حاكميته سبحانه في الكون كله، بما أنه هو الخالق الذي لا خالق غيره، الرازق، الذي لا رازق غيره، المدبر المتصرف، الذي يُطعم ولا يُطعم، عالم الغيب، الحكيم العليم، بديع السموات والأرض، فائق الحب والنوى

- ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَفْصُلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

- ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٢] .

فشهدت الآيتين تقرير جهة الحاكمية في أمر العبادة كله، وهي إفراد الله بالحكم في الدنيا والآخرة، فهو الحاكم بين عباده، وهو الأمر المتصرف في شئون خلقه في حياتهم، وهو الذي يحكم بينهم يوم القيامة بعدله وهو خير الفاصلين وهو أسرع الحاسبين. .

• كما أكدت سورة الأنعام أن إفراد الله عز وجل بالتشريع في كل صغيرة وكبيرة في شئون خلقه، هو من مقتضيات توحيد الألوهية، وأن تحليل البشر وتخريمهم لأي صغيرة أو كبيرة هو من مظاهر شرك الألوهية.. وهو أمر جد خطير ليس بالهزل .. ولا ينبغي أن يستهين به المسلم .

ومن أمثلة ذلك : التشريع الالهي في الذبائح ، تحريم ما ذبح تعظيماً لغير الله تعالى، والذي

تناولته الآيات في قوله تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام : ١١٨ - ١١٩] .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: " قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه، وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح هذه القضية تعالجها هذه الآيات .. جعلت كل المقدمات السابقة في السورة - من معرفة الله عز وجل - كلها قاعدة لها، هذه القضية تأخذ أهميتها من ناحية تقريرها المبدأ الإسلامي الأول: مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده، وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته في أية صورة من الصور.. وحين تكون القضية هي قضية مبدأ "توحيد الألوهية" فإن الصغيرة تكون كالكبيرة في تحقيق هذا المبدأ أو نقضه.. ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أو لا

يؤكل، أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع، فهذه كنتلك من ناحية المبدأ، وهذه كنتلك تعنى الاعتراف بألوهية الله وحده، أو تعنى رفض هذه الألوهية" (١).

- ثم تستأنف آيات سورة الأنعام في بيان لمقتضى التشريع للا إله إلا الله، فتربط قضية التحليل والتحریم - أصل قضية التشريع - ربطاً مباشراً بقضية الإسلام والشرك، بوضوح وحسم، قال تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١].

- يقول ابن كثير في سبب نزول هذه الآية الكريمة : " وروى الطبراني عن ابن عباس قال : لما نزلت الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أرسلت فارس إلى قريش: أن خاصموا محمدًا وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب - يعنى الميتة - فهو حرام؟! فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ قالوا : وإن الشياطين من فارس، وأولياؤهم قريش (٢)، وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قوله غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك " (٣).

● وهكذا جمعت لنا سورة الأنعام مقتضيات " لا إله إلا الله " كعقيدة .. وعبادة .. وشرعية .. ومنهاج حياة، وبينت لنا السورة الصلة الوثيقة بين معرفة الله عز وجل الخالق الرازق، الحكيم العليم وبين إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، وأن مفهوم العبادة الحقيقي يشمل كل مناحي الحياة، وبين إفراده سبحانه وتعالى بالتشريع .. وأن إفراد الله عز وجل بالعبادة والتشريع هو حقيقة توحيد الألوهية، وأن التحاكم إلى شرع الله عز وجل هو أحد المقتضيات المباشرة للا إله إلا الله

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١١٩٣/٢ .

(٢) اسناده عند طبراني إسناد صحيح وكذلك رواه الطبري (١٣٨٠٥) .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ، ٧١٨/١ .

كالمقتضى الايماني والمقتضى التعبدى.. كلها جذور أساسية للإيمان، لو نقضت كلها أو نقض واحد منها ذهب أصل الايمان.

، إن نقض أي واحدة من مقتضيات " لا إله إلا الله" هو الشرك بجذوره الثلاثة الكبرى :شرك الاعتقاد، وشرك العبادة وشرك التشريع، وكلها من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالرجوع عنه والتوبة منه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦].

- هذا هو المدلول الحقيقي لـ " لا إله إلا الله" ومقتضياتها الأصلية، والتي ينبغي دعوة المجتمع إلى فهمها والعودة إليها، ولن يتم ذلك إلا بتأسيس الفئة المؤمنة على هذه القاعدة، ولن يقوم بناء هذه الفئة المؤمنة إلا على أساس " لا إله إلا الله " بمدلولها الحقيقي^(١). ولو لم يتم ذلك لخر ببيان أي فئة مؤمنة على شفا جرف هار، أما إذا غرست حقيقة " لا إله إلا الله" ومقتضياتها في قلوب وضمائر الفئة المؤمنة، ثم في سلوكهم وحياتهم .. عندئذ يتغير وجه الأرض..
- ولكن الجاهلية قديماً وحديثاً وحدت معركتها مع " لا إله إلا الله "، لتحصرها في كلمة تنطق باللسان فحسب، ويتم تجريدتها من مفهومها الحقيقي ومقتضياتها الايمانية والتعبدية والتشريعية .. فهل نجحت الجاهلية الحديثة في هذه المعركة؟ هل استطاعت أن تقصر" لا إله إلا الله " في حياة الناس إلى كلمات تنطق باللسان فقط ؟ هل تمكنت الجاهلية الحديثة فيما حاولت فيه الجاهلية الأولى؟ .

(١) لا إله إلا الله ، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، محمد قطب ، ص ٧٧ ، ١١٨ .

خامساً : معركة الجاهلية مع لا إله إلا الله

- وقفت الجاهلية العربية موقفاً عنيداً من كلمة (لا إله إلا الله)، كما وقفت كل جاهلية من قبلهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿ [الصافات : ٣٥ - ٣٦] .

- فهل فعلوا ذلك من أجل كلمة ؟ أم من أجل مدلولها ومقتضاها؟ وماذا كان مدلولها في حسهم بالضبط ؟ وما الفارق . حسب مدلول الكلمة - بين صورة حياتهم التي كانوا عليها وبين الصورة التي يتوقعون أن تكون عليها حياتهم حين يدخلون في " لا إله إلا الله " ؟

- روى مسلم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا طالب لما اشتكى وبلغ قريش ثقله.. مشوا إلى أبي طالب فكلموه فقالوا : يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت وقد حضرنا ما ترى، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت . فقال أبو طالب : يا بن أخي، هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلمة واحدة يعطونها يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم" . فقال القوم : كلمة واحدة ! قال : "نعم" . فقال أبو جهل : نعم وأبيك عشر كلمات . قال : "تقولون " لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه" .

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : يا محمد، تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرنا لعجب . ثم قال بعضهم لبعض : ما هذا الرجل بمعطيك شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا^(١) .

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢ / ٣٤٥) .

- إذن قريش لم تقف موقف العناد الشديد هذا، من أجل قول اللسان فقط، لم تخض الصراع كله الذي خاصته حتى قتل من صناديدها من قتل إلا لأنها تعلم أن هذه الكلمة ستغير حياتهم بالكامل، تغييراً جذرياً في كل جزئية من جزئيات حياتهم، كانوا يرفضون أن يجعلوا الآلهة إلهاً واحداً، كانوا يرفضون أن يتركوا ما عليه أبائهم ويتبعون ما أنزل الله، كانوا يرفضون أن يكون حلالهم وحرامهم وفق ما أحل الله وما حرم الله، كانوا يرفضون أن يلتزموا بما يلزمهم به الدين المنزل من عند الله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

- لقد كانت قضية الجاهلية العربية، بل قضية البشرية في التاريخ كله، وستظل هي القضية حتى يرث الله الأرض وما عليها:

من المعبود؟! آله الذي لا إله إلا هو أم آلهة أخرى معه أو من دونه؟ .

وتفرع عن هذه القضية قضيتان رئيستان، ركز عليهما القرآن، يجمعان في طياتها جميع القضايا وهما: .

(١) قضية توجيه العبادة لله الواحد .

قال تعالى ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص : ٥]

(٢) قضية اتباع ما أنزل الله في التحليل والتحريم .

قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان : ٢١].

• ويلخص القرآن موقف الشرك في هاتين النقطتين الرئيسيتين تلخيصاً دقيقاً في سورة الأنعام وسورة النحل في قوله تعالى:

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٣٥]

- ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وتحدد هاتان الآيتان جذور الشرك الثلاثة التي جاء بها الإسلام ليجتنبها اجتناباً، ويجعل

الدين كله لله، إنما على وجه التحديد:

- عدم الايمان بوحداية الله سبحانه وتعالى .. شرك العقيدة.
- توجيه العبادة لغير الله.. شرك العبادة.
- التحريم والتحليل من دون الله .. شرك الحاكمية والتشريع.
- ومن ثم نجد أن الشرك يتمثل في صورتين وهما:
- صورة اعتقادية : بوجود آلهة أخرى غير الله .. " موقف الجماهير" .
- صورة عملية : بتوجيه العبادة لغير الله، والتحريم والتحليل من دون الله .. " موقف الملأ :
- السادة أشراف القوم".
- وهذا الذي من أجله رفض المشركون العرب أن ينطقوا بلا إله إلا الله، ووقفوا منها موقف الرفض والصد والمواجهة.
- ولم تكن هذه المعركة معركة الجاهلية العربية فحسب، بل هي معركة كل جاهلية قبلها، وكل جاهلية بعدها إلى يوم القيامة..
- قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .
- قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل : ٣٣] .
- لقد كانت دعوة الرسل جميعاً إلى أقوامهم دعوة واحدة، هي دعوة التوحيد " لا إله إلا الله" ..
- اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..
- في أكثر من سورة من سور القرآن، وبخاصة سورة الأعراف .
- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

- ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥].

- ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣].

- ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٥].

سلطة التشريع لاستعباد الجماهير

- فما الفرق بين موقف المملأ والجماهير من دعوة " لا إله إلا الله " ؟

نجد أن الجماهير المستضعفة تتبع سادتها في تقليد أعمى، وتسير خلف أشرافهم دون إعمال لعقولهم، ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢]، و ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣].

الجماهير تشرك مع الله آلهة أخرى، لأن الآلهة الأخرى في تصورها مجسدة في صورة محسوسة تلمس وتُرى، وهذه الجماهير في جاهليتها تكون أكثر التصاقاً بعالم الحس وهذه الآلهة المحسوسة القريبة تلي انحرافاتها الجاهلية، فتقدم لها القرابين والشعائر التعبدية فيستشعر الجماهير أنهم قريبين من آلهتهم قريباً مادياً محسوساً .. فعندما دعيتهم الرسل إلى عبادة الله الواحد الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار .. فعجزت هذه الجماهير عن الإيمان بالغيب والإيمان بما لا تدركه الحواس، فوقعت الجماهير في خديعة المملأ وهم رؤساء القوم وأشرافهم وعليتهم من أصحاب السلطان والنفوذ، فاستعبدهم باسم الأوثان والأصنام! والمملأ أكثر تنوراً وأكثر استعلاءً على الجماهير، فإن

الذي يجرّكهم لمحاربة الرسول الذي أرسل إليهم، ليس قضية الآلهة المزعومة بقدر ما هو قضية " السلطة " و " الحكم"، إن ولاء الملأ لهذه الآلهة المزعومة صورة أكثر مما هو حقيقي ! وإن دفاعهم عنها مهما بدا حاراً لا ينبعث من الاعتقاد بألوهيتها بقدر ما ينبعث من كونها هي الأداة التي يستعبدون باسمها الجماهير، وكما فعل كهنة الاصنام في تلقي الحرث والأنعام التي يخصها الجماهير للأوثان بناءً على تشريع الكهنة لهم . كما رأينا في عرض سورة الأنعام . والهدف إضلال هذه الجماهير ﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾

- إن الملأ أعطوا لأنفسهم سلطاناً مقدساً مستمداً من قداستها في نفوس الجماهير..

أما القضية الحقيقية بالنسبة إليهم فهي قضية " الحاكمة " .. من يحكم هذه الجماهير؟ ..

هم ؟ أم الله سبحانه وتعالى عن طريق تحكيم شريعته والحكم بما أنزل؟

هذه هي القضية الحقيقية التي تستفز الملأ في كل جاهلية ليحاربوا دعوة " لا إله إلا الله"،

وإن السلطة التي في أيديهم هي سلطة التشريع التي يحكمون بها الجماهير ويستذلونهم بها .. لذلك

حاربوا " لا إله إلا الله " وتصدوا لها بكل قوتهم...

لذلك تجد في سورة (الأعراف) وهي تعرض صور الجاهلية في الأمم السابقة، أن " الملأ"

دوماً هم الذين يتصدون لدعوة " لا إله إلا الله " التي جاء بها أنبيأؤهم جميعاً

- ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف:

. [٦٦

- ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ

لَتَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨].

- ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّا لَنَجْعَلُنَّكُمْ إِذَا لَحْسَرْتُمْ ﴾ [الأعراف: ٩٠].

• هذه هي حقيقة معركة الجاهلية العربية والتي عرضتها سورة (الأنعام)، والجاهلية في التاريخ البشري في الأمم السابقة والتي عرضتها سورة (الأعراف)، هي أن السادة والحكام يستبدون الجماهير بسلطة التشريع ليستبدوا بالسلطة..

- ولكن هذه المعركة تخص الجاهلية في كل عصر، الجاهلية التي هي كل حكم بغير ما أنزل الله، معركتها مع " لا إله إلا الله " هي: " الحاكمية " و " التشريع " لإخضاع الناس لسلطان شهواتهم وأهوائهم.

سواء حكموا الناس بالدكتاتورية الصريحة أو من وراء ستار كما هو الحال في الديمقراطية " منهج الجاهلية الحديثة " .. ويظلون يؤصلون لسلطانهم بدساتير عرفية أو مكتوبة تجعل لهم هذا السلطان على الجماهير بممارسة ومزاولة حقهم في التحليل والتحرير.. والاباحة والمنع..

- لذلك تحارب الجاهلية دوماً " لا إله إلا الله " لأن " لا إله إلا الله " في حقيقتها تنزع السلطة من أيدي الملأ بل من أيدي البشر جميعاً، وردّها إلى الله صاحب السلطان، صاحب الحق في التحليل والتحرير .. والاباحة والمنع. ومن هنا أرادت الجاهلية تفرغ هذه الكلمة من مدلولها الحقيقي، وتمييعها حتى في نفوس العاملين للإسلام !! .

سادساً : أسباب انحسار مدلول " لا إله إلا الله "

- يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله عن أسباب انحسار مدلول " لا إله إلا الله " : " حدث تركيز شديد في العصر الحديث على أن الشعائر التعبدية هي لبُّ الدين، وهي مظهره العملي كذلك، وتحالف الفكر الإرجائي والاستبداد السياسي معاً على تقليص مساحة الدين الحقيقية وتعرية كثير من مجالات الحياة عن ظله الظليل، وبالتالي تحجيم فاعليته في واقع الحياة العملية، وترك عوامل الفساد تترجح في الأرض كل ذلك بفعل اعداء الدين وتخطيطهم . ثم جاءت الصوفية لتكمل الدائرة .. دائرة الانحسار، لقد كانت الصوفية كالفكر الارجائي شيئاً دخيلاً على

الاسلام .. دين العمل والحركة في واقع الأرض، ودين المجاهدة والجهاد لإقامة المنهج الرباني في عالم الواقع.

- حقيقة أن الإسلام يدعو إلى الزهد في متاع الحياة الدنيا، ولقد كان رسول الله ﷺ سيد الزهاد، فهل اعتزل الناس ليعيش في صومعته بعيدا عن معتك الحياة؟

فهل كف عن الجهاد لحظة لتكون كلمة الله هي العليا؟ إن فكرة الفناء التي جاهدت من أجلها الصوفية فكرة هندية ليست من الإسلام، وفكرة اعتزال الواقع بما فيه من دنس، وتطهير الروح من دنس الجسد بقتل الشهوات من أجل الخلاص في الآخرة فكرة مارستها الرهبانية النصرانية وليست من الإسلام. .

أما أخطر أسباب انحسار مدلول " لا إله إلا الله " فهي " غزو العلمانية الفكري للأمة المسلمة، وهو أسوأ ما حدث في تاريخ الأمة المسلمة في عصرها الحديث ..

جاء هذا الغزو والأمة في خواء لا مثيل له من قبل، فتوغل في حياتها كما لم يتوغل شيء من قبل .. جاء وقد أقتطع من " لا إله إلا الله " الكثير من معناها الحقيقي ..

← لا عقيدة صحيحة .. " بسبب الإرجاء "

← ولا عبادة صحيحة .. " بسبب الصوفية "

- ثم جاءت " العلمانية " وجعلت مفهوم العبادة هو الشعائر التعبدية فحسب، ثم قام أعداء الدين بتصدير منهج الديمقراطية إلى أمتنا والتي قامت بدورها باتباعه، فحدث بدعوى الديمقراطية ما يلي : .

- انتشار الاباحية والسفور والعري بدعوى تحرير المرأة.

- إلغاء المحاكم الشرعية.

- إقرار الربا والزنا وشرب الخمر.

- إقرار دساتير علمانية تخالف الشريعة الاسلامية.

- وانسلخت الأمة من دينها، وانجرفت في تيار التغريب، وحين تم هذا كله، خلال قرن من الزمان، فماذا كان قد بقي في تمسك الأمة بلا إله إلا الله" ؟ (١).

وصدق رسول الله ﷺ : " لتتقضن عرى هذا الدين عروة عروة، كلما نقضت عروة تمسك الناس بالتي بعدها، فأوهن نقضاً الحكم، وأخرهن نقضاً الصلاة" (٢).

وانصرفت الأمة تتحدث عن نواقض " الوضوء" أضعاف أضعاف حديثها عن نواقض "لا إله إلا الله" ..

- وحيث أن الطامة الكبرى في العصر الحديث هي اتباع الأمة منهج الديمقراطية، وقيامها بالتشريع من دون الله في مجالس تشريعية، وذلك كله نابع من غزو العلمانية الفكرية للأمة، وحيث أننا قد تعرضنا لنبذة عن المجالس التشريعية والقوانين الوضعية في عرض سورة المائدة ، نقوم هنا في عرض سورة الأنعام بنبذة عن : العلمانية، نتعرف فيها على حقيقتها ونشأتها، وأهم أسسها وصورها ..

العلمانية .. تصور الجاهلية لعلاقة الدين بالحياة

- ونطرح هذه الفقرة في النقاط التالية:

أولاً - حقيقة العلمانية وأساسها .

ثانياً - كيف نشأت العلمانية في أوروبا ؟

ثالثاً - رجال الدين وسلطة التشريع .

رابعاً - تصور العلمانية لشؤون الحياة المختلفة.

خامساً - سورة (الأنعام) تواجه العلمانية وتبطلها .

سادساً - أيها المتحمسون لهذا الدين .

(١) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، محمد قطب ، ص (١٣٠ : ١٣٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده.

وإلى التفصيل بإذن الله..

أولاً : حقيقة العلمانية وأساسها

- العلمانية هي الترجمة العربية لكلمة "Secularism" و "Secularite" في اللغات الأوروبية وهي ترجمة مضللة، لأنها توحي بأن لها صلة بالعلم، بينما العلمانية في لغاتها الأصلية المقصود بها هو : " إقامة الحياة بعيدا عن الدين"، أو " الفصل الكامل بين الدين والحياة " .
- تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف هذه الكلمة : " هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها " .. فلا علاقة للكلمة بالعلم إنما علاقتها قائمة بالدين ولكن على أساس سلمي وهو : نفي الدين وعزله عن إدارة شؤون الحياة .
- إذن فأولى الترجمات بما في العربية أن نسميها " اللادينية "، بينما يدعى " العلمانيون " في الغرب بأن العلمانية لا تعادي الدين، إنما تبعده فقط عن مجالات الحياة الواقعية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.. وهذا هو " لب العلمانية وأساسها" .
- ولكنها تترك للناس حرية " التدين " بالمعنى الفردي الاعتقادي، على أن يظل هذا التدين مزاجاً شخصياً لا دخل له بأمور الحياة العملية.

ثانياً : كيف نشأت العلمانية في أوروبا؟

- نشأت العلمانية في أوروبا مع اعتناق أوروبا للمسيحية، حيث تلقت أوروبا . الروم . المسيحية عقيدة منفصلة عن الشريعة التي جاءت بها التوراة وصدّقها الإنجيل الذي نزل على نبي الله عيسى عليه السلام، فلم تحكم الشريعة شيئاً من حياة الناس في أوروبا إلا في الأحوال الشخصية فحسب، وهذا الوضع هو علمانية من وجهة النظر الاسلامية .
- أما الذي تقصده أوروبا بالعلمانية فليس هذا الوضع، لأنها لم تألف الصورة الحقيقية للدين أبداً في يوم من الأيام، إنما تقصده أوروبا هو إبعاد ما فهمته هي من معنى الدين عن واقع الحياة

متمثلاً في إبعاد تدخل رجال الدين باسم الدين في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر وكل مجالات الحياة، ثم إقامة هذا كله بعيداً عن نفوذ الكنيسة، وبعيدا عن مفاهيم الدين .

اعتنقت أوروبا دين الكنيسة وليس دين الله .

- لقد بدأت الكنيسة تعبت في دين الله المنزل، وقاموا بتحريفه وتشويهه . وتقديمه للناس في صورة منفرة، دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث، وإرجاعه إلى أصوله الصحيحة المنزلة..

الإنجيل المنزل من عند الله لم يدون على عهد المسيح، إنما تلقاه عنه حواريوه بالسماع، ثم تشتتوا تحت تأثير الاضطهاد الذي وقع عليهم سواء من اليهود أو من الرومان.
فلما بدأ تدوينه بعد فترة طويلة من نزوله، كان قد اختلط في ذاكرة اصحابه كما اختلطت النصوص فيه بالشرح، ووقع الاختلاف والتحريف والتصحيف، الذي يشير اليه كتاب التاريخ الأوربي ومؤرخو الكنيسة على السواء..

- استبد رجال الدين بشرح ما سمي الأناجيل التي نشأت من التحريف، والتي لا أصل لها في دين الله المنزل، ثم ازداد استبدالهم فصار طغياناً شاملاً يشمل كل مجالات الحياة : طغياناً روحياً وفكرياً وعلمياً وسياسياً ومالياً واجتماعياً .. وفي كل اتجاه.
- في مثل هذا الجو حدث نفور من الدين، فكان المنطقي من الإنسان السوى أن ينبذ ذلك الدين الذي تحوطه كل تلك التحريفات في نصوصه وشروحه، ثم يبحث عن الدين الصحيح فيعتنقه .

ففعلت أوروبا الأمر الأول، فنبذت دين الكنيسة بالفعل، ولكنها لم تفعل الأمر الثاني

وتبحث عن الحق حتى هذه اللحظة إلا أفراداً متناثرين فيها !

- ومن هنا نقول إن الظروف التي أحاطت بالدين في أوروبا تفسر ولا تبرر .. تفسر شرود الناس في أوروبا عن الدين، ولكنها لا تبرره (١).

ثالثاً : رجال الدين وسلطة التشريع

- لم يكن للدين الحقيقي وجود في أوروبا سواء في صورة عقيدة صحيحة، أو صورة شريعة حاكمة، كان هناك نفوذ ضخم جداً يمارس باسم الدين في مجال العقيدة، وفي مجالات الحياة العملية كلها، من قبل رجال الدين . الأحرار والرهبان . ويتمثل في حس الناس هناك على أنه هو الدين.

- لكن الدين المنزل من عند الله ليس فيه أن الله هو المسيح ابن مريم وليس فيه أن الله ثالث ثلاثة، وليس فيه أن يشرع رجال الدين . الملاً من أصحاب النفوذ على الجماهير - من عند أنفسهم فيحلوا ويحرموا بغير ما أنزل الله، كما أحلوا الخمر والخنزير وأبطلوا الختان.

وليس فيه أن يطلب رجال الدين لأنفسهم سلطاناً يرهبون به الناس، ويفرضون عليهم ما أحلوا لهم وما حرموا من دون الله، كما يفرضون عليهم الخضوع الكامل لأهوائهم، في الوقت الذي لم يرد رجال الدين أن يستخدموا سلطانهم الرهيب في فرض شريعة الله على الأباطرة والملوك، ليحكموا بها بدلا من القانون الروماني.

فاكتفى رجال الدين بجعل هذه الشريعة مجرد مواعظ خلقية وروحية ..

هذا الدين الكنسي بحقائقه وأباطيله لا يمثل دين الله المقبول عند الله، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨].

(١) مذاهب فكرية معاصرة ، مجد قطب ، ص ٢٨٥ .

ولكن أوروبا حين أرادت أن تخرج سلطان رجال الدين، نبذت دين الكنيسة الفاسد، لكنها لم تبحث عن الدين الصحيح..

- فقامت النهضة في أوروبا منذ اللحظة الأولى على أسس معادية للدين الكنسي، الذي نفرت منه أوروبا.. لأن صورته الكنسية. لم تسع إلى تحسين أحوالهم على الأرض أو إزالة المظالم التي تقع عليهم، إنما دعاهم دين الكنيسة إلى الزهد في الحياة الدنيا واعتزالها، وقدم لهم معنى سلبي لألوهية الله بحصرها في الطقوس التعبدية، كما أن السائد في دين الكنيسة هو ألا يفكر الإنسان لنفسه في شيء، إنما يأخذ الأفكار جاهزة من الكتب المقدسة..

فكان رد فعل الفكر الأوربي منذ النهضة هو : التمرد على الدين، وجعل العقل البشري هو الذي ينبغي أن يكون صاحب القرار وليس الله.. حتى لو كان الأمر متعلقاً بالعقيدة أو الأمور الأخروية.

- فأطلق العنان للعقل بدعوى أنه هو صاحب الحق الذي كان ممنوعاً منه، فقد صحا العقل بزعمهم فهاجموا فكرة الألوهية ونفوا الرسالات والوحي والحياة الآخرة عن اعتبار أنها أوهام كانت في غيبة العقل.

- وانطلق الفكر المتحرر يهاجم الدين ويصفه بأنه الأغلال التي تغل الفكر عن الانطلاق، واتجه الفكر المنسلخ من الدين للبحث عن مصدر آخر للقيم الإنسانية غير الدين..

حتى جاءت الثورة الصناعية وحدث مزيد من إبعاد الدين عن الحياة، فقامت علمانية الحكم بفصل الدين عن السياسة وذلك بإقصاء رجال الدين عن التدخل في شؤون الحكم، وقيل عنها المبدأ المشهور عنهم : " ما لقيصر لقيصر ... وما لله لله "

رابعاً : تصور العلمانية لشؤون الحياة المختلفة

- تم الفصل بين الدين والحكم كما ذكرنا منذ أول اعتناق الدولة الرومانية للمسيحية، إذا اعتنقتها عقيدة فقط ولم تأخذ من الشريعة إلا ما يتعلق بالأحوال الشخصية .

- تم تنحية رجال الدين عن التدخل في شئون الحكم.
- ثم قدم الساسة الأوروبيون مناهج تعمل على فصل الدين وتنحيته عن شئون الحكم منها : منهج ونظام الديمقراطية.
- فأفرزت هذه المناهج الغربية وضع دساتير علمانية تُسَيِّر شئون الحكم والدولة، وتلغي مرجعية الدين وتنحيها تماماً من نصوص هذه الدساتير ..
- تم تشكيل مجالس تشريعية، تسنِّ قوانين وضعية تحارب كل ما هو دين وتخالفه
- أنشئت الأنظمة الاقتصادية العلمانية كالرأسمالية الوجه الاقتصادي لمنهج الديمقراطية، والنظام الرأسمالي يقوم على غايات كلها محرم في دين الله مثل :.
- ١- الربا .
- ٢- أكل مال الأجير.
- ٣- إفساد فطر الناس وأخلاقهم ليقبلوا على منتجات ليس فيها فائدة حقيقية لهم.
- ٤- الاحتكار .
- المطالبة بتحرير المرأة ومساواتها الكاملة مع الرجل.
- هاجمت الكنيسة العلم والعلماء، وقالوا : " إذا أردتم الله فتركوا العلم، وإذا أردتم العلم فتركوا الله" .
- إشاعة السعار الجنسي المجنون، وإحداث انهباء أخلاقي تدريجي حتى فُرِغت الأخلاق من مضمونها الديني.^(١)
- هذه هي بعض تصورات العلمانية لشؤون الحياة المختلفة، والتي تدور جميعها حول نزع الدين عن التدخل في هذه الشؤون، ويتم حصر الدين وقصره في عقيدة في صدور الناس، وعبادات في المساجد والزوايا .. أما السياسة والاقتصاد والنواحي الاجتماعية والقانونية فليس للدين أي دخل فيها ..

(١) مذاهب فكرية معاصرة ، مجَّد قطب ، ص (٢٨٠ : ٣١٨) ملخص بتصريف يسير .

الأنصبه الخاصة بالزرع والأنعام وفق لتصوراتهم الجاهلية، فيجعلون نصيبا لله بزعمهم، ونصيباً للآلهة الزائفة ومن يمثلهم كوسطاء من كهنة الأوثان، والذين سمتهم الآية بالشركاء..

- وهكذا تتصرف الجاهلية في كل عصورها تنحية شرع الله عن الحياة .. فالجاهلية التي سبقت جاهلية مشركي العرب، أرادوا أيضا تصريف أمور تعاملاتهم المالية، بعيدا عن الدين.. وأبرز نموذج لهذه القضية اعتراض قوم شعيب على رسولهم عليه السلام، قال تعالى ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيرًا وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾] هود : ٨٤ - ٨٥، فلم يعترض قوم شعيب على الجانب العقدي من الدعوة وحده، حين دعاهم رسولهم إلى نبذ الآلهة الزائفة، وعبادة الله وحده، إنما اعترضوا بمبدأ "العلمانية الجاهلية" على تدخل الدين في شئونهم " الحياتية" ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾] هود : ٨٧..

- إذن تشترك الجاهلية في كل عصورها في استنكارها تدخل الدين في شئونهم الدنيوية، التي خيل لهم وهمهم الجاهلي أنها خاصة بتسيير البشر، يحلون فيها ويحرمون كما يحلو لهم، وليس للدين أن يتدخل فيها!.

- وهذه الجاهلية في عصرها الحديث تعلن نفس مبادئها العلمانية : فقالوا الأحوال الشخصية لله بزعمهم .. بينما الاقتصاد والحكم لشركائنا.. والعبادة لله في بيوت الله.. والتشريع للنواب في المجالس النيابية..

- وهكذا كشفت لنا سورة الأنعام، حقيقة الجاهلية العلمانية، وأبطلت مزاعمها بإعلان السورة أن " لا إله إلا الله" عقيدة وعبادة وشريعة ومنهاج حياة، قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾]

- وهذا هو دين الله .. وهذا هو صراطه المستقيم وهذه هي ملة إبراهيم الحنيفية.. قال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

- هذا هو دين الله كل لا يتجزأ، ولا يمكن فصل العقيدة فيه عن العبادة عن الشريعة ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

- يقول الشيخ سيد قطب حول هذه الآية : " إنه مفرق الطريق بين الرسول ﷺ ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل الذين تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها، إن رسول الله ﷺ ليس من هؤلاء كلهم في شيء .. إن دينه هو الاسلام وشريعته هي التي في كتاب الله، ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز .. وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات

والتصورات، ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات" (١)

- لا يمكن أن يختلط منهج الله مع مناهج العلمانية الجاهلية، لا يمكن أن تختلط شريعة الله مع تشريعات العلمانية الجاهلية.. هذه مفاصلة لا بد أن تعلن بحسم ووضوح إلى آخر الزمان..

** وهذا هو التناسب بين سورة الأنعام وبين العلمانية التي عرضنا نبذة مختصرة عنها في عرض هذه السورة.

سادساً : أيها المتحمسون لهذا الدين.

- يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " لا يعرف الاسلام من لم يعرف الجاهلية " .. فمعرفة المسلمين بانحرافات الجاهلية المعاصرة أثناء عرضنا لسور القرآن الكريم، تزيد المسلمين معرفة بكمال ديننا المنزل من عند الله، كما أنها تشكل لنا معركة الوعي والتبصرة التي نخوض بها معركتنا الحالية مع الجاهلية المعاصرة..

(١) في ظلال القرآن، ٢ / ١٢٣٩ .

- وإنما لنبخس القرآن قدره، إذ نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة، ومواجهة للواقع المنحرف دائماً للمسلمين، وردهم إلى صراط الله المستقيم بإذن الله..

- إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الاسلام .. بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة .. بل إن شريعته هي عقيدته .. إذ هي الترجمة الواقعية له .. هذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة، إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة، قروناً طويلة، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة، حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين..

- إن الذي يحكمون على عابد الوثن بالشرك، ويتورعون عن الحكم على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك.. ويتخرجون من هذه ولا يتخرجون من تلك .. فما أشبه من يفعل ذلك بالمرجئة الذين يقصرون الإيمان أو الشرك على مكنون الصدور، مهما كانت الأفعال التي وصفها صريح القرآن .. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون طبيعة هذا الدين.. فليقرأوا القرآن كما أنزله الله، وليأخذوا قول الله بجد : " وإن أطعتموهم إنكم لمشركون " ..

- أيها المتحمسون لهذا الدين.. إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله .. هذه مسألة عقيدة ليس علاقة باستضعاف أو تمكين.. أكد عليها القرآن المكي قبل المدني إن جعل الطواغيت لأنفسهم حق التشريع بالإباحة والمنع في الأموال وشئون الاجتماع هي قضية جعلها القرآن قضية الألوهية والعبودية.. وجعلها القرآن مناط الإيمان أو الكفر، وميزان الجاهلية أو الإسلام ﴿ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : ٦٥] ، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [النور : ٤٧ - ٤٨] .

- أيها المتحمسون لهذا الدين .. إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر " وجوده " لم تكن هي المعركة مع الإلحاد، حتى يكون مجرد " التدين " وصبغة المجتمع بالصبغة الإسلامية" هو ما يسعى إليه، ولم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي، فهذه معارك تالية لمعركة " وجود " هذا الدين!.. لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر " وجوده " هي معركة الحاكمية وتقرير لمن تكون ؟

- أيها المتحمسون لهذا الدين ، لا تفرغوا جهدكم في استنكار جزئيات هزيلة على هامش المعركة الحقيقية مع الجاهلية العلمانية المغتصبة لحق الألوهية وسلطانها..

- أيها المتحمسون لهذا الدين.. إن الطامة الكبرى والفتنة الأكبر للأمة في عصرها الحديث هو خديعتها بمنهج الجاهلية العلمانية: " منهج الديمقراطية"، فلا تخوضوا معهم .. ولا تقعدوا معهم.. فليس هذا هو الطريق وإن بدا لكم أنه أقصر أو أيسر.. إن طريق الإسلام وإن طال، وبدا أن مشواره طويل .. فهو الطريق الوحيد الذي ارتضاه الله لإقرار دينه في الأرض.. ابدأوا بغرس حقيقة " لا إله إلا الله " في قلوبكم .. وفي حياتكم .. وربوا الجماهير على مقتضياتها .. وفاضلوا الجاهلية عليها .. ثم ناضلوا بدمائكم في سبيل إقرارها في حياة الناس.

المحور الرابع : الصدع بالتوحيد والمفاصلة مع الجاهلية

- بعدما عرضت سورة الأنعام لدلائل التوحيد الساطعة في الكون وفي الأنفس، التي تعرفنا فيها بالله رب العالمين، ثم دعت السورة لإفراده سبحانه بالعبادة، وبينت لنا حقيقة الألوهية ومدلول " لا إله إلا الله " ومقتضياتها التعبدية والعقيدية والتشريعية، كما بينت لنا حقيقة الجاهلية وطبيعة معركتها على مر العصور مع " لا إله إلا الله " ..

- ثم جاءت سورة الأنعام بدعوة الموحدين والمستمسكين " بلا إله إلا الله " إلى الصدع بالتوحيد مستضعفين كانوا أو ممكنين، والمفاصلة مع أولئك الذين يشركون برهم، الذين يعبدون آلهتهم المزعومة، والذين يفترون على الله ويحلون ويحرمون بغير شرع الله..

- أعلنت السورة ذلك في موجات متتالية متدفقة من أولها إلى آخرها، كعادة السورة في عرضها لموضوعاتها ومحاورها الرئيسية..

ولنبداً بعون الله وتوفيقه مع الموجة الأولى في هذا المحور، قال تعالى

﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾؟

﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَخْخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؟

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾

** ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير، ثم المفصلة مع الجاهلية في هذه السورة المكية .. ومن ثم تبدأ الآيات بتوجيه الرسول ﷺ صاحب الدعوة وإمام الموحدين.. بهذه المواجهة مع المشركين، الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق، فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم.. مواجعتهم بالسؤال عن من المالك المتصرف؟.

- ثم الأمر باستنكار اتخاذ الجاهلية غير الله ولياً.. فأبي ولي ينصر ويعن غير الله، هل ينصر أو يعن غيره؟، من المعبود بحق الذي يدين له العباد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده.. من المستحق بذلك غير فاطر السموات والأرض، من له السلطان في السموات والأرض.

- ثم ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .. إذن اتخاذ غير الله ولياً - بأي معنى - هو الشرك، ولن يكون الشرك اسلاماً .. قضية واحدة محددة، لا تقبل ليناً ولا تمبعاً من صاحب العقيدة، إلا أن يصدع بالتوحيد :

إما أفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة، والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من أمور الحياة .. إما هذا كله فهو الإسلام .. وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك .. الذي لا يجتمع في قلب واحد مع الإسلام .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن يعلن هذا الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونهم إلى الملاينة والمداهنة، ليجعل لآلتهم مكاناً في دينه، مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدين، وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها إبقاء على مكانتهم ونفوذهم وشرفهم ومصالحهم وكبرياتهم..

وأولها تقاليد التحريم والتحليل في مقابل أن يكفوا عن معارضته، وأن يجعلوه رئيساً فيهم، ويجمعوا له من ما لهم، ويزوجوه أجمل بناتهم!.

لقد كانوا يرفعون يداً للإيذاء والحرب والتنكيل، ويمدون يداً بالإغراء والمصالحة واللين..

ورسول الله ﷺ ثابت على التوحيد.

وفي وجه هذه المحاولات كلها يأمر رسول الله ﷺ أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف، وبهذا الحسم الصريح، وبهذه المفاصلة التي لا تدع مجالاً للتميع.

- ثم تجيء أخيراً قمة المد في هذه الموجة المدوية ذات المد العالي والايقاع الرهيب بالتبرؤ من المشاركة في أي شرك .. في حسم رهيب:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

لا يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي تعرضه الجاهلية قديماً وحديثاً، حيث يجعلون لأنفسهم بعض خصائص الألوهية مع الله.. .

لا يمكن أن يأتي مسلم يعلن " لا إله إلا الله " ويقر بمقتضاها ثم يتلقى من منهج غير منهج الله في شؤون الحياة، أو يشارك الأرباب في التشريع من دون الله..

هذا الوضوح صار الآن حجة على من قرأ القرآن وفهم مراده، ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ ..

فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغة يفهمها فقد قامت عليه الحجة به، وبلغه الانذار، وحق عليه العذاب، إن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ ..
أيها المسلم الموحد بالله.. المقرر بـ " لا إله إلا الله " عقيدة وشريعة .. عبادة ومنهاج حياة ..
قل لجاهلية العصر ومشركي اليوم : أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ ثم قل لهم : قل لا أشهد .. قل : إنما هو إله واحد وإنى برئ مما تشركون ..

هذا هو الولاء.. هذا هو التوحيد .. هذه هي المفصلة التي تعرضها سورة الأنعام المكية لمن يدعي أو يزعم أن فترة الاستضعاف ربما تكون عذراً للملاينة والتميع والمهادنة، على حساب التوحيد والصدع به ومفصلة الجاهلية فيه ..

ما أحوج العصبية المؤمنة بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم : بإقرارها " لا إله إلا الله " في حياة الناس .. أن ذلك يستوجب عليها أن تقف من الجاهلية التي تغمر الأرض، وتقذف به في وجهها كلمة الحق هذه عالية مدوية، منزللة رهيبة .. بالبراءة من المشركين ومعبوداتهم الباطلة .. ثم تتجه هذه العصبية المؤمنة إلى الله تعالى القاهر فوق عباده، والغالب على أمره تعتصم به وتستنصر به.

الرسول ﷺ يعلنها واضحة لا مدهانة على العقيدة

- اجتمع أشراف قريش - المملأ فيهم - عند غروب الشمس عند الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد، فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلموه بداءً - تغييراً - وكان عليهم حريصاً يجب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا :

يا مُحَمَّد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد سببت الآباء، وعبت الدين، وشتت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، فإن كنت تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك.

- فقال لهم رسول الله ﷺ: " ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ اصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم" (١) أو كما قال ﷺ.

- هذه محاولات الجاهلية مع رسول الله ﷺ ليتقابل معهم في منتصف الطريق، فقد رفضت كلها، فلا يمكن التنازل عن كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " التي هي مفرق الطريق بين الإسلام والشرك: ولا يمكن المداهنة على العقيدة.. ولو المقابل السلطة والحكم.. ولو لفترة ثم يتم من خلالها التغيير المنشود لاحقاً.. ليس هذا هو الطريق..

- إن الذين يزعمون من قصة " يوسف " عليه السلام جواز تولي الحكم في دولة كافرة، والعمل بتشريعاتها، فليراجعوا سيرة النبي ﷺ الناسخة لأي تأويلات عن نبي الله يوسف عليه السلام، فالقاعدة: " شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا، وقد عرض على رسول الله ﷺ الملك والحكم في ظل قريش المشركة، فرفض وأبى.. فنسخ بذلك الفهم المغلوط لقصة يوسف عليه السلام، والذي يريد حقيقة فهمهما فليرجع إلى سورة يوسف، وحقيقة التوحيد الذي جهر به يوسف عليه السلام وهو مستضعف في السجن، ﴿ وَاتَّبَعَتْ مَلَّةٌ آبَائِي إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف]:

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٥/١/١ - ٢٩٨.

٣٨- ٣٩] .. فيا من تبحت عن الرخص بجواز مشاركة الأرباب المتشرعون من دون الله ..
 إقرأ هذه الآيات... ثم أجب عن هذا السؤال: لماذا تقرأ آيات الحاكمية في هذه السورة المكية
 أنها لله وحده ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
 إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
 [يوسف: ٤٠] .. أتريد أن تكون من أكثر الناس الذين لا يعلمون؟

• ارجع إلى سيرة رسولك ﷺ... ثم ارجع إلى سورة يوسف، الذي تبرء من الشرك ولم يحكم بدين
 الملك وشرعه ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [يوسف: ٧٦]...

ولنا بإذن الله في عرض سورة يوسف التفصيل في هذه الشبهة .. التي تخدع المسلمين
 بمشاركة المشركين في تشريعهم من دون الله .. فلنرجع إلى سورة الأنعام المكية.. وإلى فعل النبي ﷺ
 في مكة .. لفهم حقيقة التوحيد، والمفاصلة مع الجاهلية حوله حتى في فترات الاستضعاف ﴿ قُلْ إِنَّمَا
 هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

• ونأتي إلى الموجة الثانية القوية والمتدفقة، في تقرير المفاصلة والبراءة من المشركين ومعبوداتهم الباطلة،
 قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا
 يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

- يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية: "لقد كان هذا الأمر للرسول ﷺ في مكة .
 ويمكن في حدود النص أن يكون أمر لمن وراءه من المسلمين .. كان عمل النبي ﷺ يقف عند حدود
 الدعوة، حيث كان غير مأمور بقتال للحكمة التي أرادها الله في هذه الفترة، فكان هذا الأمر بالألا
 يجلس النبي ﷺ في مجالس المشركين، متى رآهم يخوضون في آيات الله ويذكرون دينه بغير توقيف،
 والمساورة إلى ترك هذه المجالس . لو أنساه الشيطان . بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه . وكان المسلمون

كذلك مأمورين بهذا الأمر كما تقول بعض الروايات . والقوم الظالمون، المقصود بهم هنا القوم المشركين". (١)

- إن المسلم المُقر بحقيقة "لا إله إلا الله" ومقتضاها عليه أن يعلنها مدوية أيها الجاهلون .. إني برئ من مناهجكم الكفرية .. وإني معتزل مجالسكم الشركية التي تخوضون فيها في دين الله بالتبديل تارة، وبالتنحية عن أمور الحياة تارة وذلك بتشريعاتكم الزائفة، ثم تدعون أنها توافق شرع الله .. افتراءً على الله . هذا هو واجب المسلم الموحد ..

- وهل هناك أوضح من هذه الآيات ؟ ..

- وهل تحتاج بعد ذلك إلى تأويل ؟ ..

- أم أصابنا العمى عن آيات الله، فصرنا نكذب بها ؟ ..

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩] نعم الحقيقة هي: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] .

- اللهم اجعلنا من الذين يسمعون .. وأزل الغشاوة من على أعيننا والأكنة من على قلوبنا والوقر من آذاننا .. اللهم أحي موات قلوبنا بنور القرآن ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ؟

- قد يقرأ هذه الآيات شخصين، فيشرح الله صدر أحدهما بنور من عنده، ويضيق صدر الآخر فيعرض عن نورها .. ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

- إن الآية التي تحت على الإعراض عن مجالس المشركين، وعدم الخوض معهم أو مشاركتهم فيما يخوضون، جاء نفس مدلولها ولكن بألفاظ مختلفة، في سورة النساء في قوله تعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠]. وسواء أكانت السورة مكية كالأنعام أو مدنية كالنساء.. فأمر المفاصلة في التوحيد ثابتة .. سواء كانت الآيات تنزل في حالة الاستضعاف أو في حالة التمكين .. فإن العقيدة واحدة .. والمبدأ واحد: لا دخل للمصالح والمفاسد في أمور التوحيد .. ولا دخل لحسابات السياسة والمداهنة في مسائل العقيدة .

- ونأتي إلى الموجة الثالثة من "موجات الصدع بالتوحيد ومفاصلة الجاهلية"، والتي جاءت في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩].

وهذه الموجة تعرض مشهد باهر .. مشهد الفطرة السليمة وهي تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها، وهي تنطلق بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة في شوق عميق تبحث عن إلهها الحق، فهذا هو نبي الله إبراهيم عليه السلام . صاحب الملة الحنيفية . يصدع في قومه مستنكرا معبوداتهم الزائفة من الأصنام، والكواكب والنجوم، مستخدماً الحجة والبرهان في إقناع قومه بفساد

عقيدتهم الباطلة بالتسلسل البديهي العقلي .. ليحي الفطرة من ركام الضلال .. حتى لا تستهوههم الشياطين في الأرض، فتنحير حول الحق والهدى.

وحيث يجد إبراهيم إلهه في فطرته ووعيه وإدراكه وضميره .. حين يجد خالق الوجود كله، وفاطر السموات والأرض .. فعندئذ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة، ويتبرأ في حسم الأمور من منهجهم وما هم عليه من الشرك: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] ... أتى برى مما تشركون .. أعلنها إبراهيم عليه السلام.. إني برى مما تشركون .. يعلنها كل مسلم مُقر بحقيقة "لا إله إلا الله" ومقتضاها.

• ثم يأتي إلى الموجه الرابعة من "موجات الصدع بالتوحيد ومفاصلة الجاهلية"، والتي جاءت في قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ... وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٥٠].

- انظر إلى التقرير الحاسم الفاصل .. وتكرار الإيقاع الموحى في كل آية: "قل" .. "قل" ... "قل" .. تلمس في كل آية: توحيد الصراط والملة.. توحيد الإله والرب .. توحيد العبودية والعبادة .. توحيد المنهج والحركة..

"قل" .. تتكرر في سورة الأنعام أكثر من ثلاثين مرة، بإيقاع قوي متكرر، يوحي أن هذا الأمر لله وحده، وأن الرسول ﷺ إنما هو منذر ومبلغ، والذي يوحي بجلال هذا الأمر وعليته ورهبته، وأن الرسول ﷺ إنما هو مأمور به من ربه .. ونحن من بعده ﷺ على الطريق: اصدع بالتوحيد .. وفواصل الجاهلية المشركة حتى لو طغت في الأرض كلها ..

- أما الآيات التي نحن بصدددها في هذه الموجه، فهي تنضم لسابقتها من الموجات المتدفقة والمتتالية واحدة تلوا الأخرى في سورة الأنعام، حول الوضوح والحسم والبراءة من المشركين

ومعبوداتهم الزائفة، وهذه الآيات تأتي بعد عرض الآيات لتشريعات الجاهلية في أمور الحرت والأنعام، والتي سبق أن تحدثنا عن هذا المقطع في مقدمة السورة، وسنكتفي بما سلف فيها بفضل الله .

المحور الخامس: خطورة الشرك والتحذير منه:

- وبعد قيام سورة الأنعام بإقامة الحجة البالغة في تبين حقيقة الألوهية ومقتضياتها، وفي تبين صراط الله المستقيم .. فلا يبقى بعد ذلك في عدم الاستجابة للحق وحجب القلب عن الهداية رغم سطاعتها، إلا الكبر والعناد والإصرار على الولوج في الشرك ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام، ٣٣].

فبعد أن رغبت السورة في " التوحيد"، تحذر السورة الصفة المعاند والمصير على الشرك، وتخوفه وتخوفنا جميعاً من خطورة الشرك ولو بمثقال ذرة من شرك ..

• الموجة الأولى في التخويف من الشرك والتحذير منه، قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٢ - ٢٤].

- وهذا المشهد في أرض الحشر، حيث يواجه المشركين - كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك - بسؤالهم عن الشركاء - كل أصناف الشركاء - أين هم ؟ فإنه لا يبدو لهم أثر، ولا يكفون عن اتباعهم الهول والعذاب .. وهذه حقيقة تبرؤ الذين أتبعوا من الذين اتبعوا .. فلن ينفع أحدٌ أحد يوم القيامة .. ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : ١٣] فالمسئولية فردية عن ضلال العبد وشركه يوم القيامة أمام الله عز وجل .. ولا مجال للتذرع بالاتباع أو التقليد الأعمى، وأمام العبد كل هذه الدلائل الساطعة من آيات الله الناطقة بالتوحيد .

- الموجة الثانية في التخويف من الشرك والتحذير منة في قوله تعالى ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٠ - ٨٢] .

- إن الشرك هو أظلم الظلم لأنه اعتداء على حق الله في توحيده، والشرك أعظم جناية على حق الله الخالص في إفراده بالألوهية ..

- يقول الله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] .. الشرك لا يغفره الله تعالى، ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .. واختلف العلماء هل الشرك الأصغر أيضاً لا يغفره الله مثل الشرك الأكبر؟ وعلى كل حال يجب الحذر من الشرك مطلقاً، لأن كلمة " شيئاً" قال عنها بعض العلماء أنها مطلقة لكل شرك .. لأنها نكرة في سياق الشرك، فيعم أي شرك ..

- وهذا نبي التوحيد إبراهيم عليه السلام صاحب الملة الحنيفية، يخاف أن يقع في الشرك ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الأنعام : ٨١] .

- وفي سورة إبراهيم جاء قوله تعالى ﴿ وَاجْتَنِبْني وَبنيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] .. فإبراهيم عليه السلام الذي كسر الأصنام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء .. فما بالك بنا نحن إذن ؟ ! فهل يأمن أحد على نفسه .. فسؤال نبي الله إبراهيم ربه بالثبات على التوحيد، لأنه إذا جنبه عبادة الأصنام صار باقياً على التوحيد .. فهل تخشى الآن أن تقع في الشرك؟ .

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ يقول " من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار " (١).

- قال رسول الله ﷺ : " من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار " (٢).

.. وحتى الشرك الأصغر خشى النبي ﷺ على الأمة من الوقوع فيه، لأن أمر الشرك عظيم لا يستهان بالقليل منه، ففي الحديث: " أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه؟ فقال: الرياء " (٣).

- ولأن أمر الشرك.. أمر عظيم عند الله، فقد خوف النبي ﷺ من الوقوع فيه على أي وجه كان فهو إمام الموحدين ﷺ الذي حمى جناب التوحيد في كل صغيرة وكبيرة.. ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ : " لا تجعل قبري وثناً يعبد " (٤) . . ولهذا قال النبي ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت : " أجعلتنى له نداً؟ بل ما شاء الله وحده " (٥).

- الموجة الثالثة في التخويف من الشرك والتحذير منه، في قوله ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الأنعام : ٨٧ - ٨٨] .. تستعرض الآيات موكب الإيمان الموصل الذي يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالي العصور .. وهم ينابيع الهدى في هذه الأرض .. فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به هؤلاء الرسل .. وهم نزل عليهم وحي السماء .. أشرف خلق الله الذين اصطفاهم واجتباهم الله على بقية خلقه .. ورغم ذلك كله لو حادوا عن توحيد الله، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقى، فإن

(١) صحيح : البخاري في كتاب التفسير (٤٤٩٧).

(٢) صحيح : مسلم في كتاب الإيمان (٩٣).

(٣) صحيح : المعجم الكبير (٢٥٣/٤) ، الصحيحة (٩٥١).

(٤) صحيح : الموطأ (١٧٢/١) ، المشكاة (٧٥٠).

(٥) صحيح : مسند الإمام أحمد (٢١٤/١) ، الصحيحة (١٣٩).

مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم : أي أن يذهب ضياعاً .. يا الله .. أهدنا الحد من الخطورة، بلغ أمر الشرك بالله عز وجل .. نعم .. ألم يقل ربك للنبي ﷺ إمام الموحدين ﴿ وَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ..

- هذه الآيات والأحاديث الرهيبة يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .. ونسأل الله عز وجل أن نكون منهم .

بين سورتي الأنعام والأعراف

- جاءت سورة الأنعام بتعريف الخلق بريها الخالق الرازق المالك، قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١]، ودعت السورة إلى إفراد الله الخالق المستحق بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢]، كما بينت لنا سورة الأنعام أن عبادة الله تشمل كل مناحي الحياة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ١٦٢ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾، ثم بينت لنا السورة أن الجاهلية في كل عصورها تشرك بالله بعبادتها معبودات زائفة وباطلة، وبتشريعاتها من دون الله، فتحل ما تشاء وتحرم ما تشاء بغير سلطان من الله قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٦] ..

وردت السورة مزاعم الجاهلية العلمانية الباطلة في فصلها الدين عن أمور الحياة، وأعلنت السورة أن مدلول " لا إله إلا الله " الحقيقي يقتضى توحيد الله عز وجل في الاعتقاد وفي العبادة وفي التشريع ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٧] . .

وبذلك يتضح صراط الله المستقيم الواجب الاتباع ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] . .

ثم تجئ سورة الأعراف لتبين لنا أن إبليس يقعد على رأس الصراط المستقيم ليزين لخلق الله ويغويهم كي ينحرفوا عن صراط الله المستقيم الذي تبين لهم ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦] ..

فأخذ إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن يضلون خلق الله من باب الشهوات ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

ثم جاءت سورة الأعراف لتبين أن أصحاب الشهوات والسلطان في كل زمان سيواجهون دعوة التوحيد التي جاء بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] .

حيث تعرض لنا السورة طبيعة المعركة مع الجاهلية المشركة عبر التاريخ البشري في صورة الأمم السابقة، وموقف الملأ المستكبر المعاند لدعوة التوحيد التي جاء بها جميع الرسل ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، ثم تعرض لنا سورة الأعراف أن حقيقة موقف هذا الملأ المستكبر من " لا إله إلا الله " هو نزعها لسلطانهم الذي يتسلطون به على رقاب العباد ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكُوا آلَهُنَّ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، كما تؤكد لنا السورة أن الله عز وجل هو وحده الذي يهلك هؤلاء الطواغيت المعاندين والمعارضين لتوحيده وسلطانه سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، وأن الله عز وجل أراد أن يهلك أعداءه المجرمين من خلال سنن يجريها على خلقه بمشيئته ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٠] ، حتى إذا جرت سننه في الأخذ بالضراء والقحط ، أرسل

سبحانه الآيات المبصرة إليهم ليثوبوا ويعودوا إليه ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

وَالصَّفَادِعَ وَالذَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] ..

حتى إذا كذب هؤلاء المعاندين بآيات الله وغفلوا عنها أخذهم الله بعذابه الأليم ﴿ فانتقمنا

منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ [الأعراف : ١٣٦] ، وحتى يأتي

الله بوعدده ويهلك أهل الباطل لا بد من مساندة الحق بوضوح ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا

اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَلَعْلَهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

وهذه المفاصلة لا بد منها مهما كلفت أهل الحق من توضيحات ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ

(١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [

الأعراف : ١٢٥ - ١٢٦] ..

وحين يأتي الله بوعدده ويهلك أعداءه في التوقيت الذي حدده سبحانه ﴿ وَذَمَّرْنَا مَا كَانَ

يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] . يمتن الله عز وجل على عباده

المستضعفين بوراثة الأرض واستخلافهم مكان الطغاة المجرمين ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا

يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧]

وتبين لنا سورة الأعراف أن وراثه الأرض هي اختبار من الله لعباده المستضعفين لينظر كيف

يعملون ؟ ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [

الأعراف : ١٢٩] ، اختبار هل سيقومون شرعه ومنهاجه في الأرض التي استخلفهم فيها أم

سينحرفون عن شرعه ومنهاجه؟ ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ

هُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ..

تم عرض سورة الأنعام ولله الحمد والثناء الجميل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

والحمد لله رب العالمين.

الخريطة الكلية لعرض سورة الأنعام :

